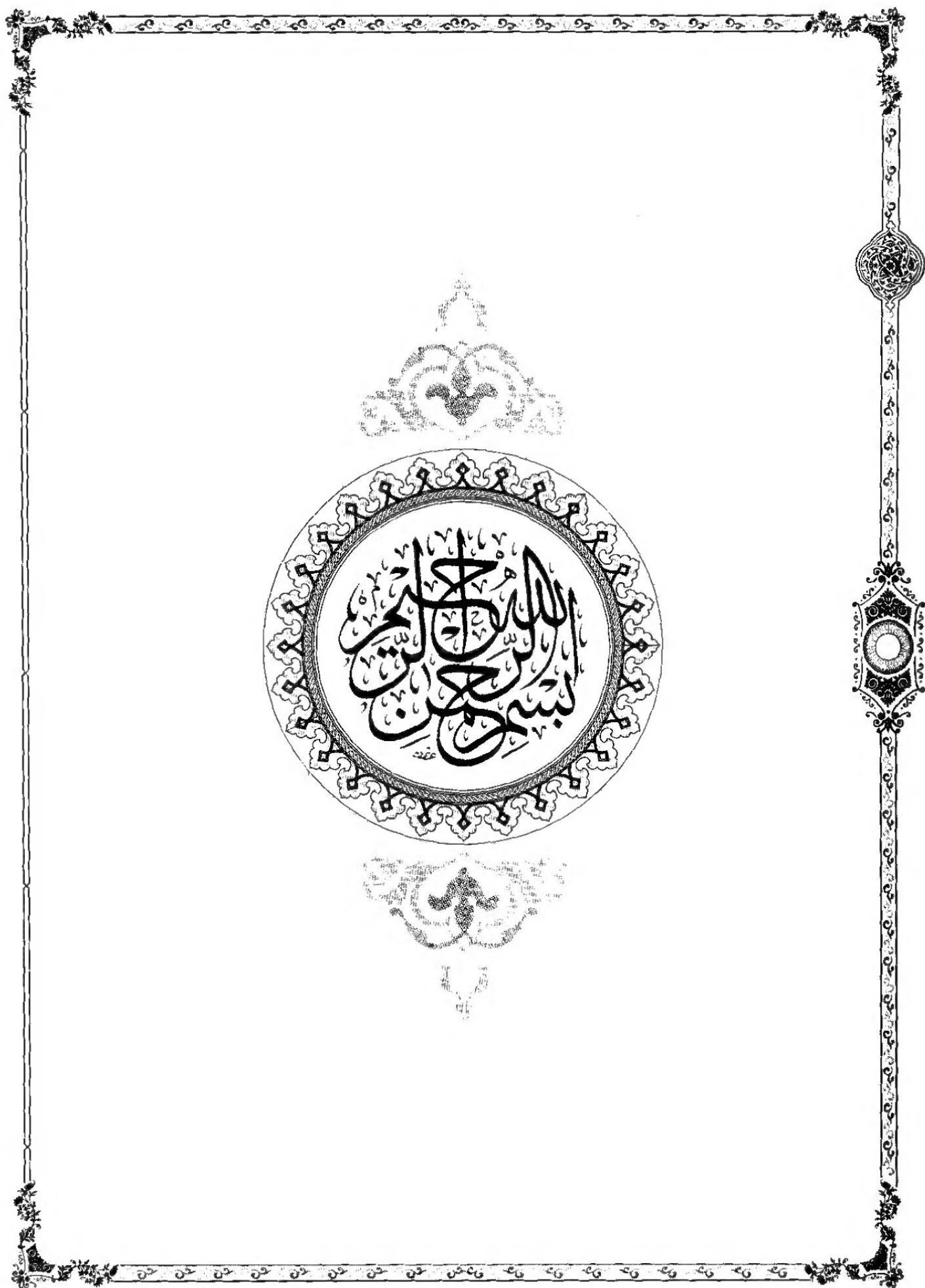


طبعة خاصة

بمناسبة مرور تسع مئة سنة على وفاة حجة الإسلام الغزالي

١١١١ - ٢٠١١ م

أحياء علوم الدين



إحياء علوم الدين

تأليف

الإمام المجدد، حجة الإسلام والمسلمين

زين الدين، أبو حامد

محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي

الطوسي الطبراني الشافعي

رضي الله عنه

(٤٥٠ - ٥٠٥ هـ) - (١٠٥٨ - ١١١١ م)

رُبْعُ الْمُنْجِيَّاتِ / الْقِسْمُ الْأَوَّلُ

كِتَابُ

التَّوْبَةِ - الصَّبْرِ وَالشُّكْرِ

الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ

المجلد السابع

دار المنهج

الطبعة الأولى
١٤٣٢هـ - ٢٠١١م
جميع الحقوق محفوظة للناشر

دار المنهاج للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - جدة
حي الكندرة - شارع أبها تقاطع شارع ابن زيدون
هاتف رئيسي 6326666 - الإدارة 6300655
المكتبة 6322471 - فاكس 6320392
ص. ب 22943 - جدة 21416

www.alminhaj.com

E-mail: info@alminhaj.com

ISBN: 978 - 9953 - 541 - 50 - 1

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أَمَّنْ هُوَ قَنِيتٌ ؕ مَا لَهُ أَلِيلٌ سَاجِدًا وَفَاقًا يَخْذُرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ
قُلْ هِيَ لَيْسَتُكَ الذِّكْرُ يَعْنِيكَ وَالدِّكْرُ لَا يَعْنِيكَ
إِنَّمَا يَذْكُرُ أَوَّلُ الْأَلْبَابِ

كِتَابُ التَّوْبَةِ

وهو الكتاب الأول من ربيع المنجيات
من كتب إحياء علوم الدين

كتاب التوبة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي بتحميده يُستفتح كلُّ كتابٍ ، وبذكره يُصدَّر كلُّ خطابٍ ، وبحمده يتنعم أهل النعيم في دار الثواب ، وباسمه يتسلى الأشقياء وإن أرخى دونهم الحجاب ، وضرب بينهم وبين السعداء سورٍ له بابٌ ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب .

ونتوب إليه توبة من يوقن أنه ربُّ الأرباب ، ومسبب الأسباب ، ونرجوه رجاء من يعلم أنه الملك الرحيم الغفور التواب ، ونمزج برجائنا الخوف مزج من لا يرتاب أنه مع كونه غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب .

ونصلي على نبيِّه محمد وآله وصحبه الأكرمين صلاة تنقذنا من هول المُطلع يوم العرض والحساب^(١) ، وتمهد لنا عند الله زلفى وحسن مآب .

أما بعد :

فإنَّ التوبة عن الذنوب بالرجوع إلى ستار العيوب وعلام الغيوب مبدأ طريق السالكين ، ورأس مال الفائزين ، وأوَّل إقدام المریدين ، ومفتاح

(١) المُطلع : ما يطلع عليه من أهوال الآخرة وشدائدها ، ولا يبعد أن تكون المُطلع موضع الطلوع ، أو بكسر اللام وقت الطلوع . انظر « مشارق الأنوار » (٣١٩ / ١) .

استقامة المائلين ، ومطلع الاصطفاء والاجتباء للمقربين ، ولأينا آدم صلى الله عليه وعلى سائر الأنبياء أجمعين .

وما أجدر بالأولاد الاقتداء بالآباء والأجداد ، فلا غرو إن أذنب آدمي واجترم ؛ فهي شئنة يعرفها من أخزم ، ومن أشبه أباه فما ظلم ، ولكن الأب إذا جبر بعد أن كسر ، وعمر بعد أن هدم . . فليكن النزوع إليه في كلا طرفي النفي والإثبات ، والوجود والعدم ، ولقد قرع آدم عليه السلام سنّ الندم ، وتندّم على ما سبق منه وتقدّم ، فمن اتخذهُ قدوة في الذنب دون التوبة . . فقد زلّت به القدم .

بل التجرد لمحضر الخير دأب الملائكة المقربين ، والتجرد للشر دون التلافي سجيّة الشياطين ، والرجوع إلى الخير بعد الوقوع في الشر ضرورة الأدميين ، فالتجرد للخير ملك مقرب عند الملك الديان ، والمتجرد للشر شيطان ، والمتلافي للشر بالرجوع إلى الخير بالحقيقة إنسان ، فقد ازدوج في طينة الإنسان شائبتان ، واصطحب فيه سجيّان ، وكلّ عبد مصحّح نسبه ؛ إمّا إلى الملك ، أو إلى آدم ، أو إلى الشيطان :

فالتائب قد أقام البرهان على صحّة نسبه إلى آدم عليه السلام بملازمة حدّ الإنسان .

والمصرّ على الطغيان مسجّل على نفسه بنسب الشيطان^(١) .

(١) في (ب) : (متحل لنفسه) بدل (مسجل على نفسه) .

فأما تصحيح النسب بالتجرّد لمحضر الخير إلى الملائكة . . فخارج عن
حيز الإمكان ؛ فإن الشرّ معجون مع الخير في طينة آدم عليه السلام عجنًا
محكمًا ، لا يخلصه إلا إحدى نارين ؛ نار الندم أو نار جهنم ، فالإحراق
بالنار ضروري في تخلص جوهر الإنسان عن خبائث الشيطان .

وإليك الآن اختيار أهون الشرّين ، والمبادرة إلى أخفّ النارين ، قبل أن
يطوى بساط الاختيار ، ويساق إلى دار الاضطرار ، إمّا إلى الجنة وإمّا إلى
النار .

وإذا كانت التوبة موقعها من الدين هذا الموقع . . وجب تقديمها في
صدر ربع المنجيات ؛ بشرح حقيقتها ، وشروطها ، وسببها ، وعلامتها ،
وثمرتها ، والآفات المانعة منها ، والأدوية الميسرة لها ، ويتضح ذلك بذكر
أربعة أركان :

الركن الأول : في نفس التوبة ، وبيان حدّها وحقيقتها ، وأنها واجبة
على الفور ، وعلى جميع الأشخاص ، وفي جميع الأحوال ، وأنها إذا
صحّت . . كانت مقبولة .

الركن الثاني : فيما عنه التوبة ؛ وهي الذنوب ، وبيان انقسامها إلى
صغائر وكبائر ، وما يتعلّق بالعباد وما يتعلّق بحقّ الله تعالى ، وبيان كيفية
توزّع الدرجات والدركات على الحسنات والسيئات ، وبيان الأسباب التي
بها تعظم الصغائر .

الركنُ الثالثُ : في بيانِ شروطِ التوبةِ ودوامِها ، وكيفيةِ تداركِ ما مضى
منَ المظالمِ ، وكيفيةِ تكفيرِ الذنوبِ ، وبيانِ أقسامِ التائبينَ في دوامِ التوبةِ .
الركنُ الرابعُ : في السببِ الباعثِ على التوبةِ ، وكيفيةِ العلاجِ في حلِّ
عقدةِ الإصرارِ مِنَ المذنبينَ .

ويتمُّ المقصودُ بهذه الأركانِ الأربعةِ إن شاء الله تعالى .



الرُّكْنُ الْأَوَّلُ في نفس التَّوْبَةِ

بيان حقيفة التَّوْبَةِ وحدها

اعلم : أنَّ التَّوْبَةَ عبارةٌ عن معنى ينتظم ويلتئم من ثلاثة أمورٍ مرتبة :
علم ، وحال ، وفعل ، فالعلمُ أوَّلُ ، والحالُ ثانٍ ، والفعلُ ثالثٌ ، والأوَّلُ
موجبٌ للثاني ، والثاني موجبٌ للثالثِ إيجاباً اقتضاهُ اطرادُ سنَّةِ اللهِ تعالى في
الملكِ والملكوتِ .

أمَّا العلمُ . . فهو معرفةٌ عظمُ ضررِ الذنوبِ ، وكونها حجاباً بين العبدِ
وبين كلِّ محبوبٍ .

فإذا عرفَ ذلكَ معرفةً محقَّقةً بيقينٍ غالبٍ على قلبه . . ثارَ من هذهِ
المعرفةِ تألُّمٌ للقلبِ بسببِ فواتِ المحبوبِ ؛ فإنَّ القلبَ مهما شعرَ بفواتِ
محبوبه . . تألَّم .

فإنَّ كانَ فواتُهُ بفعله . . تأسَّفَ على الفعلِ المفوَّتِ ، فيُسمَّى تألُّمُهُ بسببِ
فعلهِ المفوَّتِ لمحبوبه ندماً .

فإذا غلبَ هذا الألمُ على القلبِ واستولى . . انبعثَ من هذا الألمِ في

القلب حالة أخرى تسمى إرادة وقصداً إلى فعلٍ له تعلقٌ بالحال ،
وبالماضي ، وبالاستقبال :

أمّا تعلقُهُ بالحال .. فبالترك للذنب الذي كان ملابساً له .

وأمّا بالاستقبال .. فبالعزم على ترك الذنب المفوّت للمحبوب إلى آخرِ
العمر .

وأمّا بالماضي .. فبتلافي ما فات بالجبر والقضاء إن كان قابلاً للجبر .

فالعلم هو الأول ، وهو مطلع هذه الخيرات ، وأعني بهذا العلم
الإيمان واليقين ؛ فإنّ الإيمان عبارة عن التصديق بأنّ الذنوب سمومٌ
مهلكة ، واليقين عبارة عن تأكّد هذا التصديق ، وانتفاء الشكّ عنه ،
واستيلائه على القلب ، فيثمر نور هذا الإيمان مهما أشرق على القلب نار
الندم ، فيتألّم بها القلب حيث يبصر بإشراق نور الإيمان أنّه صار محجوباً عن
محبوبه ؛ كمن يشرق عليه نور الشمس وقد كان في ظلمة ، فسطع النور عليه
بانقشاع سحابٍ أو انحسار حجابٍ ، فرأى محبوبه قد أشرف على الهلاك ،
فتشتعل نيران الحبّ في قلبه ، فتنبعث بتلك النيران إرادته للانتهاض
للتدارك .

فالعلم ، والندم ، والقصد المتعلّق بالترك في الحال والاستقبال
والتلافي للماضي .. ثلاثة معانٍ مرتبة في الحصول ، يُطلق اسمُ التوبة على
مجموعها .

وكثيراً ما يُطلق اسمُ التوبةِ على معنى الندمِ وحدهُ ، ويُجعلُ العلمُ كالسابقِ والمقدمةِ ، والتركُ كالثمرةِ والتابعِ المتأخّرِ ، وبهذا الاعتبارِ قالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « الندمُ توبةٌ »^(١) ؛ إذ لا يخلو الندمُ عن علمٍ أوجبهُ وأثمرهُ ، وعن عزمٍ يتبعُهُ ويتلوهُ ، فيكونُ الندمُ محفوفاً بطرفيه ؛ أعني : ثمرتهُ ومثمرهُ^(٢) .

وبهذا الاعتبارِ قيلَ في حدِّ التوبةِ : إِنَّهُ ذوبَانُ الحشا لما سبقَ مِنَ الخطأ^(٣) ، فَإِنَّ هَذَا يَعْرَضُ لِمَجَرَّدِ الألمِ .

وكذلكَ قيلَ : هُوَ نَارٌ فِي الْقَلْبِ تَلْتَهُبُ ، وَصَدْعٌ فِي الْكَبِدِ لَا يَنْشَعُبُ .

وباعتبارِ معنى التركِ قيلَ في حدِّ التوبةِ : إِنَّهُ خَلْعُ لِبَاسِ الْجَفَاءِ ، وَنَشْرُ بَسَاطَةِ الْوَفَاءِ^(٤) .

وقالَ سهلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ التستريُّ : (التوبةُ : تبديلُ الحركاتِ المذمومةِ بالحركاتِ المحمودةِ ، وَلَا يَتِمُّ ذَلِكَ إِلَّا بِالْخُلُوعِ ، وَالصَّمْتِ ، وَأَكْلِ

(١) رواه ابن ماجه (٤٢٥٢) .

(٢) فالثمر هو العلم ، والثمرة هي العزم .

(٣) والحشا داخل البطن ، وذوبانه بتأثير ألم فيه عن الزلات السابقة . « إتحاف » (٥٠٣ / ٨) .

(٤) والمراد بخلع لباس الجفاء ألا يعود إلى ما يبعده عن حضرة الله ، وينشر لباس الوفاء بأن يستقيم عليه ، فلا يمر بباله الجفاء حتى ذكره ؛ إذ ذكر الجفاء حال الصفاء جفاء . انظر « الإتحاف » (٥٠٣ / ٨) .

الحلال^(١) ، وكأنه أشار إلى المعنى الثالث من التوبة .

والأقويل في حدود التوبة لا تنحصر ، وإذا فهمت هذه المعاني الثلاثة وتلازمها وترتيبها . . عرفت أن جميع ما قيل في حدودها قاصر عن الإحاطة بجميع معانيها ، وطلب العلم بحقائق الأمور أهم من طلب الألفاظ المجردة .



(١) تفسير التستري (ص ٧٤) ، وأورده له صاحب « القوت » (١ / ١٨١) ، والخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٤٧) .

بيان وجوب التوبة وفضلها

اعلم : أنَّ وجوبَ التوبةِ ظاهرٌ بالأخبارِ والآياتِ ، وهو واضحٌ بنورِ البصيرةِ عندَ مَنْ انفتحتْ بصيرتهُ ، وشرحَ اللهُ بنورِ الإيمانِ صدره ، حتَّى اقتدرَ على أن يسعى بنوره الذي بينَ يديه في ظلماتِ الجهلِ ، مستغنياً عن قائدٍ يقوده في كلِّ خطوةٍ ، فالسالكُ إمَّا أعمى لا يستغني عن القائدِ في خطوه ، وإمَّا بصيرٌ يهْدِي إلى أوَّلِ الطريقِ ثمَّ يهتدي بنفسِه .

وكذلكَ الناسُ في طريقِ الدينِ ينقسمونَ هذا الانقسامَ ؛ فمنَ قاصرٍ لا يقدرُ على مجاوزةِ التقليدِ في خطوه ، فيفتقرُ إلى أن يسمعَ في كلِّ قدمٍ نصّاً من كتابِ اللهِ تعالى أو سنةِ رسوله صلى اللهُ عليه وسلَّم ، وربّما يعوزه ذلكَ فيتحيّرُ ، فسيرُ هذا وإن طال عمره وعظمَ جدُّه مختصرٌ ، وخطاهُ قاصرةٌ ، ومن سعيدٍ شرحَ اللهُ صدره للإسلامِ ، فهو على نورٍ من ربِّه ، يتنبّه بأدنى إشارةٍ لسلوكِ طريقِ معوصيةٍ ، وقطعِ عقباتِ متعبةٍ ، فيشرقُ في قلبه نورُ القرآنِ ونورُ الإيمانِ ، وهو لشدةِ نورِ باطنه يجتزىءُ بأدنى بيانٍ^(١) ، وكأنّه يكادُ زيتُه يضيءُ ولو لم تمسسه نارٌ ، فإذا مسَّته نارٌ . فهو نورٌ على نورٍ ، يهدي اللهُ لنوره مَنْ يشاءُ ، فهذا لا يحتاجُ إلى نصٍّ منقولٍ في كلِّ واقعةٍ .

فمنَ هذا حاله إذا أرادَ أن يعرفَ وجوبَ التوبةِ .. فينظرُ أولاً بنورِ

(١) يجتزىءُ : يكتفي .

البصيرة إلى التوبة ما هي ، ثم إلى الوجوب ما معناه ، ثم يجمع بين معنى الوجوب والتوبة ، فلا يشك في ثبوته لها ؛ وذلك بأن يعلم أن معنى الواجب ما هو واجب في الوصول إلى سعادة الأبد ، والنجاة من هلاك الأبد ، وأنه لولا تعلق السعادة والشقاوة بفعل الشيء وتركه . . لم يكن لوصفه بكونه واجباً معنى معقول ، وقول القائل : (صار واجباً بالإيجاب) حديث محض ؛ فإن ما لا غرض لنا عاجلاً وأجلاً في فعله وتركه فلا معنى لاشتغالنا به ، أوجبه علينا غيرنا أو لم يوجبه .

فإذا عرف معنى الوجوب ، وأنه الوسيلة إلى سعادة الأبد ، وعلم أنه لا سعادة في دار البقاء إلا في لقاء الله تعالى ، وأن كل محجوب عنه يشقى لا محالة ، محول بينه وبين ما يشتهي ، محترق بنار الفراق ونار جهنم ، وعلم أنه لا مبعث عن لقاء الله إلا اتباع الشهوات ، والأنس بهذا العالم الفاني ، والإكباب على حب ما لا بد من فراقه قطعاً ، وعلم أنه لا مقرب من لقاء الله إلا قطع علاقة القلب عن زخرف هذا العالم ، والإقبال بالكلية على الله ؛ طلباً للأنس به بدوام ذكره ، وللمحبة له بمعرفة جلاله وجماله على قدر طاقته ، وعلم أن الذنوب التي هي إعراض عن الله واتباع لمحباب الشياطين أعداء الله المبعدين عن حضرته سبب كونه محجوباً مبعداً عن الله عز وجل . . فلا يشك في أن الانصراف عن طريق البعد واجب للوصول إلى القرب ، وإنما يتم الانصراف بالعلم والندم والعزم ، فإنه ما لم يعلم أن الذنوب أسباب للبعد عن المحبوب . . لم يتندم ولم يتوجع بسبب سلوكه في

طريق البعد، وما لم يتوجّع.. فلا يرجع، ومعنى الرجوع : الترك والعزم ،
فلا يشك في أن المعاني الثلاثة ضرورية في الوصول إلى المحبوب .
فهكذا يكون الإيمان الحاصل عن نور البصيرة .

وأما من لم يترشح لمثل هذا المقام المرتفع ذروته عن حدود أفهام أكثر
الخليق.. ففي التقليد والاتباع له مجال رحب ، يتوصل به إلى النجاة من
الهلاك ، فليلاحظ فيه قول الله تعالى ، وقول رسوله صلى الله عليه وسلم ،
وقول السلف الصالحين :

فقد قال الله تعالى : ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ ﴾ ، وهذا أمر على العموم .

وقال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا ... ﴾ الآية ،
ومعنى النصوح : الخالص لله تعالى خالياً عن الشوائب ، مأخوذاً من النصح .
ويدل على فضل التوبة قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ
الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « التائب حبيب الله ، والتائب من
الذنوب كمن لا ذنب له » (١) .

(١) كذا في « القوت » (١٧٩ / ١) ، وقوله : « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » رواه ابن
ماجه (٤٢٥٠) ، وصدر الحديث نصت عليه الآية المتقدمة ، وقد روى ابن أبي الدنيا
في « التوبة » (١٨٣) عن الشعبي أنه ذكر حديث ابن ماجه وتلا هذه الآية ، وروى
أيضاً (١٨٤) مرفوعاً من حديث أنس رضي الله عنه : « إن الله يحب الشاب التائب » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الله أفرحُ بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل في أرضٍ دويّةٍ مهلكة ، معه راحلته عليها طعامه وشرابه ، فوضع رأسه ، فنام نومة ، فاستيقظ وقد ذهبَت راحلته ، فطلبها ، حتّى إذا اشتدَّ عليه الحرُّ والعطشُ أو ما شاء الله . قال : أرجعُ إلى مكاني الذي كنتُ فيه فأنام حتّى أموت ، فوضع رأسه على ساعده ليموت ، فاستيقظ ، فإذا راحلته عنده عليها زادُه وشرابه ، فاللهُ تعالى أشدُّ فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته »^(١) ، وفي بعض الألفاظ قال من شدّة فرحه إذ أراد شكر الله : « اللهم ؛ أنا ربُّك وأنت عبدي »^(٢) .

ويروى عن الحسن قال : لمّا تابَ الله عزَّ وجلَّ على آدم عليه السلام . هنأته الملائكة ، وهبطَ عليه جبريل وميكائيل ودرديائيل فقالوا : يا آدم ؛ قرّت عينك بتوبة الله عليك ، فقال آدم عليه السلام : يا جبريل ؛ فإن كان بعدَ هذه التوبة سؤالٌ . . فأين مقامي ؟ فأوحى الله تعالى إليه : يا آدم ؛ ورئت ذريتك التعب والنصب ، وورثتهم التوبة ، فمن دعاني منهم بدعوتك . . لييتك كما لييتك ، ومن سألتني المغفرة . . لم أبخلُ عليه ؛ لأنّي قريبٌ مجيبٌ يا آدم ، وأحشرُ التائبين من القبورِ مستبشرين ضاحكين ، ودعاؤهم مستجابٌ^(٣) .

(١) رواه البخاري (٦٣٠٨) ، ومسلم (٢٧٤٤) واللفظ له .

(٢) رواه مسلم (٢٧٤٧) بتقديم وتأخير .

(٣) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٤٩) .

والأخبار والآثار في ذلك لا تُحصى ، والإجماعُ منعقدٌ مِنَ الأُمَّةِ عَلَى وجوبها ؛ إِذْ معناه العلمُ بأنَّ الذنوبَ والمعاصيَ مهلكاتٌ ومبعداتٌ عَنِ اللَّهِ تعالى ، وهذا داخلٌ فِي وجوبِ الإيمانِ ، وَلَكِنْ قَدْ تدهشُ الغفلةُ عَنْهُ ، فمعنى هذا العلمِ إِزالةُ هذه الغفلةِ ، ولا خلافَ فِي وجوبها .

وَمِنْ معانيها : تركُ المعاصي فِي الحالِ ، والعزمُ عَلَى تركِها فِي الاستقبالِ ، وتداركُ ما سبقَ مِنَ التقصيرِ فِي سابقِ الأحوالِ ، وذلكَ لَا يُشكُّ فِي وجوبِهِ .

وَأَمَّا التندُّمُ عَلَى ما سبقَ والتحرُّنُ عَلَيْهِ .. فواجبٌ ، وهو رُوحُ التوبةِ ، وبِهِ تمامُ التلافيِ ، فكيفَ لَا يكونُ واجباً؟! بلْ هو نوعُ ألمٍ يحصلُ - لَا محالةَ - عَقِبَ حقيقةِ المعرفةِ بما فاتَ مِنَ العمرِ وضاعَ فِي سخطِ اللَّهِ .



فَإِنْ قلتَ : تَأَلَّمُ القلبُ أَمْرٌ ضروريٌّ لَا يدخلُ تحتَ الاختيارِ ، فكيفَ يُوصَفُ بالوجوبِ؟^(١) .

فاعلمْ : أَنَّ سببَهُ تحقيقُ العلمِ بفواتِ المحبوبِ ، وَلَهُ سبيلٌ إِلَى تحصيلِ سببِهِ ، وبمثلِ هذا المعنى دخلَ العلمُ تحتَ الوجوبِ ، لَا بِمعنى أَنَّ العلمَ يخلقهُ العبدُ ويحدثُهُ فِي نفسه ، فَإِنَّ ذلكَ محالٌ ، بلِ العلمُ والندمُ والفعلُ

(١) أي : كيف يوصف بوجوب الإيجاد وهو موجود بالضرورة لعلمنا بأن من فعل كذا.. فقد عصى الله تعالى ، ومن عصاه.. فقد فاته محبوبه ونأى عن سعادته ؟

والإرادة والقدرة والقادر والمقدور والكل^(١) مِنْ خَلَقِ اللَّهِ وَفَعَلِهِ ، ﴿ وَاللَّهُ
خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

هَذَا هُوَ الْحَقُّ عِنْدَ ذَوِي الْبَصَائِرِ ، وَمَا سِوَى هَذَا ضَلَالٌ .



فَإِنْ قُلْتَ : أَفَلَيْسَ لِلْعَبْدِ اخْتِيَارٌ فِي الْفَعْلِ وَالتَّرِكِ ؟

قُلْنَا : نَعَمْ ، وَذَلِكَ لَا يَنَاقِضُ قَوْلَنَا : (إِنَّ الْكُلَّ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى) ،
بِالِاخْتِيَارِ أَيْضاً مِنْ خَلْقِ اللَّهِ ، وَالْعَبْدُ مُضْطَرٌّ فِي الْاخْتِيَارِ الَّذِي لَهُ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ
إِذَا خَلَقَ الْيَدَ الصَّحِيحَةَ ، وَخَلَقَ الطَّعَامَ اللَّذِيذَ ، وَخَلَقَ الشَّهْوَةَ لِلطَّعَامِ فِي
الْمَعْدَةِ ، وَخَلَقَ الْعِلْمَ فِي الْقَلْبِ بِأَنَّ هَذَا الطَّعَامَ مَسْكُونٌ لِلشَّهْوَةِ ، وَخَلَقَ
الْخَوَاطِرَ الْمُتَعَارِضَةَ فِي أَنَّ هَذَا الطَّعَامَ هَلْ فِيهِ مَضَرَّةٌ مَعَ أَنَّهُ يَسْكُنُ الشَّهْوَةَ ،
وَهَلْ دُونَ تَنَاوُلِهِ مَانِعٌ يَتَعَذَّرُ مَعَهُ تَنَاوُلُهُ أَمْ لَا ، ثُمَّ خَلَقَ الْعِلْمَ بِأَنَّهُ لَا مَانِعَ .
فَعِنْدَ اجْتِمَاعِ هَذِهِ الْأَسْبَابِ تَنْجَزُ الْإِرَادَةُ الْبَاعِثَةُ عَلَى التَّنَاوُلِ ، فَانْجِزَامُ
الْإِرَادَةِ بَعْدَ تَرُدِّ الْخَوَاطِرِ الْمُتَعَارِضَةِ وَبَعْدَ قُوَّةِ الشَّهْوَةِ لِلطَّعَامِ يَسْمَى
اخْتِيَاراً ، وَلَا بَدَّ مِنْ حَصُولِهِ عِنْدَ تَمَامِ أَسْبَابِهِ ، فَإِذَا حَصَلَ انْجِزَامُ الْإِرَادَةِ
بِخَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى إِيَّاهَا . تَحَرَّكَتِ الْيَدُ الصَّحِيحَةُ إِلَى جِهَةِ الطَّعَامِ لَا مُحَالَةً ؛
إِذْ بَعْدَ تَمَامِ الْإِرَادَةِ وَالْقُدْرَةِ يَكُونُ حَصُولُ الْفَعْلِ ضَرُورِيّاً ، فَتَحْصُلُ

(١) كَذَا فِي جَمِيعِ النُّسخِ : (وَالْكَلُّ) بِإِثْبَاتِ الْوَاوِ ، وَفِي نَسْخَةِ الْحَافِظِ الزُّبَيْدِيِّ
(٥٠٨ / ٨) بِإِسْقَاطِهَا .

الحركة ، فتكون الحركة بخلق الله تعالى بعد حصول القدرة وانجزام الإرادة ، وهما أيضاً من خلق الله ، وانجزام الإرادة يحصل بعد صدق الشهوة والعلم بعدم الموانع ، وهما أيضاً من خلق الله تعالى ، ولكن بعض هذه المخلوقات يترتب على البعض ترتباً جرت به سنة الله تعالى في خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً ، فلا يخلق الله حركة اليد بكتابة منظومة ما لم يخلق فيها صفة تسمى قدرة ، وما لم يخلق فيها حياة ، وما لم يخلق إرادة مجزومة ، ولا يخلق الإرادة المجزومة ما لم يخلق شهوة وميلاً في النفس ، ولا ينبعث هذا الميل انبعاثاً تاماً ما لم يخلق علماً بأنه موافق للنفس ؛ إمّا في الحال أو في المال ، ولا يخلق العلم أيضاً إلا بأسباب آخر ترجع إلى حركة وإرادة وعلم .

فالعلم والميل الطبيعي أبداً يستتبع الإرادة الجازمة ، والإرادة والقدرة أبداً تستردف الحركة ، وهكذا الترتيب في كل فعل ، والكل من اختراع الله تعالى ، ولكن بعض مخلوقاته شرط لبعض ، فذلك يجب تقدّم البعض وتأخر البعض ؛ كما لا تخلق الإرادة إلا بعد العلم ، ولا يخلق العلم إلا بعد الحياة ، ولا تخلق الحياة إلا بعد الجسم ، فيكون خلق الجسم شرطاً لحدوث الحياة ، لا أن الحياة تتولد من الجسم ، ويكون خلق الحياة شرطاً لخلق العلم ، لا أن العلم يتولد من الحياة ، ولكن لا يستعد المحل لقبول العلم إلا إذا كان حياً ، ويكون خلق العلم شرطاً لجزم الإرادة ، لا أن العلم يولد الإرادة ، ولكن لا يقبل الإرادة إلا جسم حي عالم .

ولا يدخل في الوجود إلا ممكن ، وللامكان ترتيب لا يقبل التغيير ؛ لأن تغييره محال ، فمهما وجد شرط الوصف . . استعد المحل به لقبول الوصف ، فحصل ذلك الوصف من الجود الإلهي والقدرة الأزلية عند حصول الاستعداد ، ولما كان للاستعداد بسبب الشروط ترتيب . . كان لحصول الحوادث بفعل الله تعالى ترتيب ، والعبء مجرى هذه الحوادث المرتبة ، وهي مرتبة في قضاء الله تعالى الذي هو واحد كلمح البصر ، ترتيباً كلياً لا يتغير ، وظهورها بالتفصيل مقدرٌ بقدر لا يتعداه ، وعنه العبارة بقوله تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ .

وعن القضاء الكلي الأزلي العبارة بقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ .

وأما العباد . . فإنهم مسخرون تحت مجاري القضاء والقدر ، ومن جملة القدر خلق حركة في يد الكاتب بعد خلق صفة مخصوصة في يده تسمى القدرة ، وبعد خلق ميل قوي جازم في نفسه يسمى القضاء ، وبعد علم بما إليه ميله يسمى الإدراك والمعرفة .

فإذا ظهرت من باطن الملكوت هذه الأمور الأربعة على جسم عبد مسخر تحت قهر التقدير . . سبق أهل عالم الملك والشهادة المحجوبون عن عالم الغيب والملوك وقالوا : أيها الرجل ؛ قد تحركت وكتبت ورميت ، ونودي من وراء حجب الغيب ، وسراقات الملكوت : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ

رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ، وما قتلت إذ قتلت ولكن الله قتلهم ، ﴿ قَتَلُوهُمْ
يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾ .

وعند هذا تتحيرُّ عقولُ القاعدين في بحبوحَةِ عالمِ الشهادة :

فَمِنْ قَائِلٍ : إِنَّهُ جَبْرٌ مُحَضَّرٌ .

وَمِنْ قَائِلٍ : إِنَّهُ اخْتِرَاعٌ صَرَفٌ ^(١) .

وَمِنْ مَتَوَسِّطٍ مَائِلٍ إِلَى أَنَّهُ كَسْبٌ ^(٢) .

ولو فُتِحَتْ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ ، فنظروا إِلَى عَالَمِ الْغَيْبِ وَالْمَلَكُوتِ ..
لظَهَرَ لَهُمْ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ صَادِقٌ مِنْ وَجْهِ ، وَأَنَّ الْقُصُورَ شَامِلٌ لْجَمِيعِهِمْ ^(٣) ،
فَلَمْ يَدْرِكْ وَاحِدٌ مِنْهُمْ كُنْهَ هَذَا الْأَمْرِ ، وَلَمْ يَحْطْ عِلْمُهُ بِجَوَانِبِهِ ، وَتَمَامُ عِلْمِهِ
يُنَالُ بِإِشْرَاقِ النُّورِ مِنْ كُوَّةٍ نَافِذَةٍ إِلَى عَالَمِ الْغَيْبِ ، وَأَنَّهُ تَعَالَى عَالَمُ الْغَيْبِ
وَالشَّهَادَةِ لَا يَظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ ، وَقَدْ يُطْلَعُ عَلَى
الشَّهَادَةِ مَنْ لَمْ يَدْخُلْ فِي حَيْزِ الْارْتِضَاءِ .

(١) أي : من فعل العبد ، وهؤلاء هم القدرية . « إتحاف » (٥١٠ / ٨) .

(٢) فيسندون الفعل إلى الله ويشبتون للعبد كسباً في الفعل ، وهؤلاء هم الأشاعرة من أهل
السنة والجماعة ومن وافقهم في هذه المسألة من الماتريدية ، إلا أنهم سمّوه جزءاً
اختيارياً ، وهؤلاء هم المتوسطة . « إتحاف » (٥١٠ / ٨) .

(٣) على تفاوت بينهم ، فقصور المتوسط في إدراك كنه هذا الأمر وتَمَامُ عِلْمِهِ ، والطرفان
قصورهم في مناقضتهم للتلفيق بين ظواهر النصوص ومقتضيات العقول فضلاً عن
ذلك ، وسيبين المصنف هذا بمثال في التحريجة الآتية .

وَمَنْ حَرَّكَ سِلْسِلَةَ الْأَسْبَابِ وَالْمُسَبِّبَاتِ ، وَعَلِمَ كَيْفِيَّةَ تَسْلِسِلِهَا ، وَوَجَهَ
ارْتِبَاطِ مَنَاطِ سِلْسِلَتِهَا بِمُسَبِّبِ الْأَسْبَابِ . . انْكَشَفَ لَهُ سِرُّ الْقَدْرِ ، وَعَلِمَ عِلْمًا
يَقِينًا أَنَّ لَا خَالِقَ إِلَّا اللَّهُ ، وَلَا مَبْدَعَ سِوَاهُ .



فَإِنْ قُلْتَ : فَقَدْ قَضَيْتَ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْقَائِلِينَ بِالْجَبْرِ وَالْإِخْتِرَاعِ
وَالْكَسْبِ بَأَنَّهُ صَادِقٌ مِنْ وَجْهِ ، وَهُوَ مَعَ صَدَقِهِ قَاصِرٌ ، وَهَذَا مُتَنَاقِضٌ ،
فَكَيْفَ يُمْكِنُ فَهْمُ ذَلِكَ ؟ وَهَلْ يُمْكِنُ إِيْصَالُ ذَلِكَ إِلَى الْأَفْهَامِ بِمِثَالٍ ؟

فَاعْلَمْ : أَنَّ جَمَاعَةً مِنَ الْعَمِيَانِ سَمِعُوا أَنَّهُ قَدْ حُمِلَ إِلَى الْبَلَدَةِ حَيَوَانٌ
عَجِيبٌ يُسَمَّى الْفِيلَ ، وَمَا كَانُوا قَطُّ شَاهِدُوا صُورَتَهُ ، وَلَا سَمِعُوا اسْمَهُ ،
فَقَالُوا : لَا بَدَّ لَنَا مِنْ مَشَاهِدَتِهِ وَمَعْرِفَتِهِ بِاللَّمْسِ الَّذِي نَقْدِرُ عَلَيْهِ ، فَطَلَبُوهُ ،
فَلَمَّا وَصَلُوا إِلَيْهِ . . لَمَسُوهُ ، فَوَقَعَتْ يَدُ بَعْضِ الْعَمِيَانِ عَلَى رِجْلِهِ ، وَوَقَعَتْ
يَدُ بَعْضِهِمْ عَلَى نَاحِيهِ ، وَوَقَعَتْ يَدُ بَعْضِهِمْ عَلَى أُذُنِهِ ، فَقَالُوا : قَدْ عَرَفْنَاهُ ،
فَلَمَّا انْصَرَفُوا . . سَأَلَهُمْ بَقِيَّةُ الْعَمِيَانِ ، فَاخْتَلَفَ أَجُوبَتُهُمْ :

فَقَالَ الَّذِي لَمَسَ الرَّجُلَ : إِنَّ الْفِيلَ مَا هُوَ إِلَّا مِثْلُ أُسْطُوَانَةٍ خَشْنَةِ
الظَّاهِرِ ، إِلَّا أَنَّهُ أَلْيَنُ مِنْهَا .

وَقَالَ الَّذِي لَمَسَ النَّابَ : لَيْسَ كَمَا يَقُولُ ، بَلْ هُوَ صَلْبٌ لَا لَيْنَ فِيهِ ،
وَأَمْلَسُ لَا خَشُونَةَ فِيهِ ، وَلَيْسَ فِي غَلْظِ الْأُسْطُوَانَةِ أَصْلًا ، بَلْ هُوَ مِثْلُ
عَمُودٍ .

وقال الذي لمس الأذن : لعمرى هو لئن وفيه خشونة ، فصَدَّقَ أحدهما فيه ، ولكن قال : ما هو مثل عمود ، ولا هو مثل أسطوانة ، وإنما هو مثل جلدٍ عريضٍ غليظ .

فكلُّ واحدٍ من هؤلاء صدق من وجه ، إذ أخبر كلُّ واحدٍ عما أصابه من معرفة الفيل ، ولم يخرج واحدٌ في خبره عن وصفِ الفيل ، ولكنهم بجملتهم قصّروا عن الإحاطة بكنه صورة الفيل .

فاستبصر بهذا المثال واعتبر به ، فإنه مثال أكثر ما اختلف الناس فيه .

وإذا كان هذا كلاماً يناطح علوم المكاشفة ويحرّك أمواجها ، وليس ذلك من غرضنا . فلنرجع إلى ما كنّا بصددِهِ ، وهو بيان أن التوبة واجبة بجميع أجزائها الثلاثة : العلم ، والندم ، والترك ، وأن الندم داخلٌ في الوجوب ؛ لكونه واقعاً في جملة أفعال الله المحصورة بين علم العبد وإرادته وقدرته المتخللة بينهما ، وما هذا وصفه فاسمُ الوجوب يشملُهُ .



بيان أن وجوب التوبة على الفور

أمّا وجوبها على الفور . . فلا يسترابُ فيه^(١) ؛ إذ معرفة كون المعاصي مهلكاتٍ من نفس الإيمان ، وهو واجبٌ على الفور ، والمتفصي عن وجوبه هو الذي عرفه معرفة زجره ذلك عن الفعل المكروه^(٢) ، فإن هذه المعرفة ليست من علوم المكاشفات التي لا تتعلق بعملٍ ، بل هي من علوم المعاملة ، وكلُّ علمٍ يرادُ ليكونَ باعثاً على عملٍ . . فلا يقع التفصي عن عهديته ما لم يصِرْ باعثاً عليه ، فالعلمُ بضرر الذنوب إنما أريدَ ليكونَ باعثاً على تركها ، فمن لم يتركها . . فهو فاقدٌ لهذا الجزء من الإيمان .

وهو المراد بقوله عليه الصلاة والسلام : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن »^(٣) ، وما أرادَ به نفي الإيمان الذي يرجعُ إلى علوم المكاشفة ؛ كالعلم بالله ، ووحدانيته وصفاته ، وكتبه ، ورسله ؛ فإن ذلك لا ينافيه الزنا والمعاصي ، وإنما أرادَ به نفي الإيمان بكون الزنا مبعداً عن الله جلّ جلاله

(١) وحاصل ما سيذكره في السياق الآتي : هو أن المعاصي للإيمان كالمأكولات المضرة بالأبدان ، فمن تناول سمّاً بغير علم وأدركه الأسف على بدنه أترى يخرج من بدنه بالقيء وغيره على الفور تلافياً لبدنه أو يتراخى في ذلك ؟ فإذا كان خوفه على بدنه يوجب إخراج ما فيه من المهلك . . فالرجوع على الفور من سمائم الذنوب المفوِّتة لسعادة الأبد أولى . « إتحاف » (٥١١ / ٨) .

(٢) المتفصي : كذا بالفاء والصاد المهملة ؛ أي : المتخلص . « إتحاف » (٥١١ / ٨) .

(٣) رواه البخاري (٢٤٧٥) ، ومسلم (٥٧) .

موجباً للمقت ؛ كما إذا قال الطبيب : (هذا سمٌ فلا تتناوله) ، فإذا تناوله ..
يُقالُ : (تناول وهو غير مؤمن) ، لا بمعنى أنه غير مؤمن بوجود الطبيب وكونه
طبيباً ، وغير مصدّق به ، بل المراد أنه غير مصدّق بقوله : (إنه سمٌ مهلك) ،
فإنّ العالم بالسم لا يتناوله أصلاً ، فالعاصي بالضرورة ناقص الإيمان .

وليس الإيمان باباً واحداً ، بل هو نيّة وسبعون باباً ، أعلاها شهادة أن
لا إله إلا الله ، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق^(١) ، ومثاله : قولُ القائل :
ليس الإنسان موجوداً واحداً ، بل هو نيّة وسبعون موجوداً ، أعلاها القلبُ
والروح ، وأدناها إمطة الأذى عن البشرة ؛ بأن يكون مقصوداً الشارب ،
مقلوم الأظفار ، نقي البشرة عن الخبث ، حتّى يتميّز عن البهائم المرسلة
الملوثة بأروائها ، المستكرهة الصور بطول مخالبتها وأظلافها .

وهذا مثالٌ مطابقٌ ؛ فالإيمان كالإنسان ، وفقد شهادة التوحيد يوجبُ
البطلان بالكلية كفقد الروح ، والذي ليس له إلا شهادة التوحيد والرسالة هو
كإنسانٍ مقطوع الأطراف ، مفقوء العين ، فاقد لجميع أعضائه الظاهرة
والباطنة إلا أصل الروح .

وكما أن من هذا حاله قريبٌ من أن يموت ، فتزايله الروح الضعيفةُ
المنفردة التي تخلف عنها الأعضاء التي تمدها وتقويها . فذلك من ليس له
إلا أصل الإيمان ، وهو مقصّر في الأعمال ، قريبٌ من أن تقتلع شجرة إيمانه

(١) رواه البخاري (٩) ، ومسلم (٣٥) .

إذا صدمتها الرياحُ العاصفةُ المحرّكةُ للإيمانِ في مقدمةِ قدومِ ملكِ الموتِ ووروده ، فكلُّ إيمانٍ لم يثبت في اليقينِ أصلُهُ ، ولم تنتشر في الأعمالِ فروعُهُ . . لم يثبت على عواصفِ الأهوالِ عندَ ظهورِ ناصيةِ ملكِ الموتِ ، وخيفَ عليه سوءُ الخاتمةِ ، إلّا ما سُقي بماءِ الطاعاتِ على توالي الأيامِ والساعاتِ حتّى رسخَ وثبتَ .

وقولُ العاصي للمطيع : إني مؤمنٌ كما أنك مؤمنٌ . . كقولِ شجرةِ القرعِ لشجرةِ الصنوبرِ : إني شجرةٌ وأنتِ شجرةٌ ، وما أحسنَ جوابَ شجرةِ الصنوبرِ إذ قالتَ : ستعرفينَ اغتراركِ بشمولِ الاسمِ إذا عصفتِ رياحُ الخريفِ ، فعندَ ذلكَ تنقلعُ أصولُك ، وتتناثرُ أوراقُك ، وينكشفُ غروركِ بالمشاركةِ في اسمِ الشجرِ مع الغفلةِ عن أسبابِ ثباتِ الأشجارِ .

وَسَوْفَ تَرَى إِذَا أَنْجَلَى الْغُبَارُ أَفْرَسٌ تَحْتَكَ أَمْ حِمَارٌ^(١)

فهذا أمرٌ يظهرُ عندَ الخاتمةِ ، وإنّما انقطعَ نياطُ العارفينَ خوفاً من دواهي الموتِ ومقدماتهِ الهائلةِ^(٢) ، التي لا يثبتُ عليها إلا الأقلُّونَ ، فالعاصي إذا كان لا يخافُ الخلودَ في النارِ بسببِ معصيتهِ كالصحيحِ المنهمكِ في الشهواتِ المضرةِ للأبدانِ إذا كان لا يخافُ الموتَ بسببِ صحتهِ ، وإنَّ الموتَ غالباً لا يقعُ فجأةً ، فيقالُ له : الصحيحُ يخافُ

(١) الوار أول البيت عاطفة وليست منه ، وهو من الرجز لبديع الزمان الهمذاني . انظر « التمثيل والمحاضرة » (ص ٣٤٥) ، و « معجم الأدباء » (١ / ٤٠٠-٤٠٤) .

(٢) النياط : الفؤاد ، أو هو عرق علّق به القلب من الوتين ، فإذا قطع . . مات صاحبه .

المرض ، ثم إذا مرض .. خاف الموت ؛ فكذلك العاصي يخاف سوء الخاتمة ، ثم إذا خُتِمَ له بالسوء والعياذُ بالله .. وجب الخلودُ في النار ، فالمعاصي للإيمان كالمأكولاتِ المضرّةِ للأبدانِ ، فلا تزالُ تجتمعُ في الباطنِ وتغيّرُ مزاجَ الأخلاطِ وهو لا يشعرُ بها إلى أن يفسدَ المزاجُ ، فيمرضَ دفعةً ، ثم يموتَ دفعةً ؛ فكذلك المعاصي .

فإن كان الخائفُ من الهلاكِ في هذه الدنيا المنقضية يجبُ عليه تركُ السمومِ وما يضرُّهُ من المأكولاتِ في كلِّ حالٍ وعلى الفورِ .. فالخائفُ من هلاكِ الأبدِ أولى بأن يجبَ عليه ذلك ، وإن كان متناولُ السمِّ إذا ندم .. يجبُ عليه أن يتقيّاً ويرجعَ عن تناوله بإبطاله وإخراجه عن المعدة على سبيلِ الفورِ والمبادرة ؛ تلافياً لبدنه المشرفِ على هلاكٍ لا يفوتُ عليه إلا هذه الدنيا الفانية .. فمتناولُ سمومِ الدينِ وهي الذنوبُ أولى بأن يجبَ عليه الرجوعُ عنها بالتداركِ الممكنِ ما دام يبقى للتداركِ مهلةٌ وهو العمرُ ، فإنَّ المخوفَ من هذا السمِّ فواتُ الآخرةِ الباقية ، التي فيها النعيمُ المقيمُ والملكُ العظيمُ ، وفي فواتِها نارُ الجحيمِ والعذابُ المقيمُ ، الذي تنصرَّمُ أضعافُ أعمارِ الدنيا دونَ عشرِ عَشِيرِ مدَّتِهِ ؛ إذ ليسَ لمدَّتِهِ آخرُ ألبتة .

فالبدارُ البدارُ إلى التوبةِ قبلَ أن تعملَ سمومَ الذنوبِ بروحِ الإيمانِ عملاً يجاوزُ الأمرُ فيه اختيارَ الأطباءِ ، ولا ينفعُ بعدهُ الاحتماءُ ، فلا ينجعُ بعدَ ذلكَ نصحُ الناصحينَ ووعظُ الواعظينَ ، وتحقُّ الكلمةُ عليه بأنه من الهالكينَ ، ويدخلُ تحتَ عمومِ قوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ

إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴿٥٠﴾ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ وَسَاءَ عَلَيْهِمْ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَلَا يَغْرُنَاكَ لِفِظٍ الْإِيمَانِ ، فَقُولَ : الْمَرَادُ بِهِ الْكَافِرُونَ ؛ إِذْ بَيَّنَّ لَكَ أَنَّ الْإِيمَانَ بَضْعٌ وَسَبْعُونَ بَابًا ، وَأَنَّ الزَّانِي لَا يَزْنِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، فَالْمَحْجُوبُ عَنِ الْإِيمَانِ الَّذِي هُوَ شُعَبٌ وَفُرُوعٌ سِيحَجْبٌ فِي الْخَاتِمَةِ عَنِ الْإِيمَانِ الَّذِي هُوَ أَصْلٌ ، كَمَا أَنَّ الشَّخْصَ الْفَاقِدَ لِجَمِيعِ الْأَطْرَافِ الَّتِي هِيَ حُرُوفٌ وَفُرُوعٌ . . سَيُسَاقُ إِلَى الْمَوْتِ الْمَعْدِمِ لِلرُّوحِ الَّتِي هِيَ أَصْلٌ ، فَلَا بَقَاءَ لِلأَصْلِ دُونَ الْفَرْعِ ، وَلَا وَجُودَ لِلْفَرْعِ دُونَ الْأَصْلِ ، وَلَا فَرْقَ بَيْنَ الْأَصْلِ وَالْفَرْعِ إِلَّا فِي شَيْءٍ وَاحِدٍ ، وَهُوَ أَنَّ وَجُودَ الْفَرْعِ وَبَقَاءَهُ جَمِيعًا يَسْتَدْعِي وَجُودَ الْأَصْلِ ، وَأَمَّا وَجُودُ الْأَصْلِ . . فَلَا يَسْتَدْعِي وَجُودَ الْفَرْعِ ، وَلَكِنْ بَقَاؤُهُ يَسْتَدْعِي وَجُودَ الْفَرْعِ ، فَبَقَاءُ الْأَصْلِ بِالْفَرْعِ ^(١) ، وَوَجُودُ الْفَرْعِ بِالْأَصْلِ .

فَعِلُومُ الْمَكَاشِفَةِ وَعِلُومُ الْمَعَامِلَةِ مُتَلَازِمَةٌ كِتْلَازِمِ الْفَرْعِ وَالْأَصْلِ ، فَلَا يَسْتَغْنِي أَحَدُهُمَا عَنِ الْآخَرِ وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمَا فِي رَتْبَةِ الْأَصْلِ وَالْآخَرُ فِي رَتْبَةِ التَّابِعِ ، وَعِلُومُ الْمَعَامِلَةِ إِذَا لَمْ تَكُنْ بَاعِثَةً عَلَى الْعَمَلِ . . فَعَدْمُهَا خَيْرٌ مِنْ وَجُودِهَا ؛ فَإِنَّهَا لَمْ تَعْمَلْ عَمَلَهَا الَّذِي تُرَادُّ لَهُ ، ثُمَّ قَامَتْ مُؤَكَّدَةً لِلْحُجَّةِ عَلَى صَاحِبِهَا ، وَلِذَلِكَ يُزَادُ فِي عَذَابِ الْعَالَمِ الْفَاجِرِ عَلَى عَذَابِ الْجَاهِلِ الْفَاجِرِ كَمَا أوردنا مِنَ الْأَخْبَارِ فِي كِتَابِ الْعِلْمِ .



(١) أي : قُوَّتُهُ بِهِ . « إتحاف » (٥١٤ / ٨) .

بيان أن وجوب التوبة عام في الأشخاص والأحوال فلا ينفك عنه أحد ألبتة

اعلم : أن ظاهر الكتاب قد دلَّ على هذا ؛ إذ قال تعالى : ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ فعَمَّ الخطاب .

ونور البصيرة أيضاً يرشد إليه ؛ إذ معنى التوبة : الرجوع عن الطريق المبعد عن الله تعالى ، المقرَّب إلى الشيطان ، ولا يتصور ذلك إلا من عاقل ، ولا تكمُل غريزة العقل إلا بعد كمال غريزة الشهوة والغضب وسائر الصفات المذمومة التي هي وسائل الشيطان إلى إغواء الإنسان ؛ إذ كمال العقل إنما يكون عند مقاربة الأربعين ، وأصله إنما يتم عند مراعاة البلوغ ، ومبادئه تظهر بعد سبع سنين .

والشهوات جنود الشيطان ، والعقول جنود الملائكة ، فإذا اجتمعا . قام القتال بين الجندين بالضرورة ؛ إذ لا يثبت أحدهما للآخر ؛ فإنهما ضدان ، فالتطارد بينهما كالتطارد بين الليل والنهار ، والنور والظلمة ، فمهما غلب أحدهما . أزعج الآخر بالضرورة .

وإذا كانت الشهوات تكمُل في الصبا والشباب قبل كمال العقل . . فقد سبق جند الشيطان ، واستولى على المكان ، ووقع للقلب به أنس ، وألف - لا محالة - مقتضيات الشهوات بالعادة ، وغلب ذلك عليه ، وتعسَّر عليه النزوع عنه .

ثم يلوحُ العقلُ الذي هو حزبُ اللهِ وجنْدُهُ ، ومنقذُ أوليائه من أيدي أعدائه شيئاً فشيئاً على التدرِجِ ؛ فإن لم يقوَ ولم يكمل . . سلمت مملكةُ القلبِ للشيطان^(١) ، وأنجزَ اللعينُ موعودَهُ حيثُ قال : ﴿ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ ، وإن كَمَلَ العقلُ وقوي . . كان أولُ شغله قمعُ جنودِ الشيطانِ بكسرِ الشهواتِ ، ومفارقةِ العاداتِ ، وردُّ الطبعِ على سبيلِ القهرِ إلى العباداتِ ، ولا معنى للتوبةِ إلا هذا ، وهو الرجوعُ عن طريقِ دليله الشهوةِ وخفيَره الشيطانُ إلى طريقِ اللهِ تعالى .

وليسَ في الوجودِ آدميٌّ إلا وشهوتهُ سابقةٌ على عقلِهِ ، وغريزتهُ التي هي عُدَّةُ الشيطانِ متقدمةٌ على غريزتهُ التي هي عُدَّةُ الملائكةِ ، فكان الرجوعُ عما سبقَ إليه على مساعدةِ الشهواتِ ضرورياً في حقِّ كلِّ إنسانٍ ، نبياً كان أو غيبياً ، فلا تظنَّنَّ أنَّ هذهِ الضرورةَ اختصَّتْ بآدمَ عليه السلامُ ، وقد قيلَ^(٢) :

فَلَا تَحْسَبَنَّ هِنْدًا لَهَا أَلْغَدْرُ وَحَدَهَا سَجِيَّةَ نَفْسٍ كُلُّ غَانِيَةٍ هِنْدُ
بَلْ هُوَ حَكْمٌ أَزَلِّيٌّ مَكْتُوبٌ عَلَى جَنْسِ الْإِنْسِ ، لَا يُمْكِنُ فَرَضُ خِلَافِهِ
مَا لَمْ تَتَبَدَّلِ السَّنَةُ الْإِلَهِيَّةُ الَّتِي لَا مَطْمَعَ فِي تَبْدِيلِهَا .

(١) فاستولى عليها بما فيها من العجائب والخزائن ، وصار ما في البدنِ رعايا له .
« إتحاف » (٥١٥ / ٨) .

(٢) البيت لأبي تمام في « ديوانه بشرح التبريزي » (٨١ / ٢) .

فإذا ؛ كلٌّ مَنْ بلغَ كافراً جاهلاً فعليه التوبةُ مِنْ كفرِهِ وجهلِهِ ، فإذا بلغَ مسلماً تبعاً لأبويه ، غافلاً عن حقيقة إسلامِهِ . فعليه التوبةُ عن غفلتِهِ بتفهُّمٍ معنى الإسلامِ ، فإنه لا يغني عنه إسلامُ أبويه شيئاً ما لم يسلم بنفسِهِ .

فإن فهمَ ذلكَ . . فعليه الرجوعُ عن عادتيهِ وإلفِهِ للاسترسالِ وراءَ الشهواتِ مِنْ غيرِ صارفٍ ؛ بالرجوعِ إلى قلبِ حدودِ الله في المنعِ والإطلاقِ ، والانكفافِ والاسترسالِ ، وهو مِنْ أشقَّ أبوابِ التوبةِ ، وفيهِ هلكَ الأكثرونَ ؛ إذ عجزوا عنه ، وكلُّ هذا رجوعٌ وتوبةٌ .

فدلَّ أَنَّ التوبةَ فرضٌ عينٍ في حقِّ كلِّ شخصٍ ، لا يُتصوّرُ أن يستغني عنها أحدٌ مِنَ البشرِ ، كما لم يستغنِ عنها آدمُ عليه السلامُ ، فخلقةُ الولدِ لا تتسعُ لما لم يتسعَ له خلقَةُ الوالدِ أصلاً .

وأما بيانُ وجوبِها على الدوامِ وفي كلِّ حالٍ : فهو أَنَّ كلَّ بشرٍ لا يخلو عن معصيةٍ بجوارحِهِ ؛ إذ لم يخلُ عنه الأنبياءُ عليهم السلامُ ، كما وردَ في القرآنِ والأخبارِ مِنْ خطايا الأنبياءِ وتوبتِهِمْ ، وبكائِهِمْ على خطاياهم .

فإن خلا في بعضِ الأحوالِ عن معصيةِ الجوارحِ . . فلا يخلو عن الهَمِّ بالذنوبِ بالقلبِ^(١) .

(١) وقد روى ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٢٥٧٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً : « ما من أحدٍ إلا وقد أخطأ أو همَّ بخطيئةٍ إلا يحيى بن زكريا » .

فإن خلا في بعض الأحوال عن الهم . . فلا يخلو عن وساوس الشيطان
بإيراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله .

فإن خلا عنه . . فلا يخلو عن غفلة وقصور في العلم بالله وصفاته
وأفعاله .

وكل ذلك نقص ، وله أسباب ، وترك أسبابه بالتشاغل بأضداده رجوع
عن طريق إلى ضده ، والمراد بالتوبة الرجوع ، ولا يُصوّر الخلو في حق
الآدمي عن هذا النقص ، وإنما يتفاوتون في المقادير ، فأما الأصل . . فلا
بد منه .

ولهذا قال صلى الله عليه وسلم : « إِنَّهُ لِيُغَانُ عَلَى قَلْبِي ، فَاسْتَغْفِرُ اللَّهَ
فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ سَبْعِينَ مَرَّةً »^(١) ، ولذلك أكرمهُ الله تعالى بأن قال : ﴿ لِيَغْفِرَ
لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ ، وإذا كان هذا حاله . . فكيف حال غيره ؟



فإن قلت : لا يخفى أن ما يطرأ على القلب من الهموم والخواطر
نقص ، وأن الكمال في الخلو عنه ، وأن القصور عن معرفة كنه جلال الله
نقص ، وأنه كلما زادت المعرفة . . زاد الكمال ، وأن الانتقال إلى الكمال

(١) رواه مسلم (٢٧٠٢) ، وأبو داود (١٥١٥) بلفظ : « مئة مرة » بدل « سبعين مرة » ،
وعند البخاري (٦٣٠٧) : « والله إني لأستغفر الله وأتوب في اليوم أكثر من سبعين
مرة » .

مِنْ أسبابِ النقصانِ رجوعٌ ، والرجوعُ توبةٌ ؛ ولكن هذه فضائلُ لا فرائضُ ، وقد أطلقت القولَ بوجوبِ التوبةِ في كلِّ حالٍ ، والتوبةُ عن هذه الأمورِ ليستُ بواجبةٍ ؛ إذ دَرَكُ الكمالِ غيرُ واجبٍ في الشرعِ ، فما المرادُ بقولك : (التوبةُ واجبةٌ في كلِّ حالٍ) ؟

فاعلم : أنه قد سبقَ أنَّ الإنسانَ لا يخلو في مبدأِ خلقِهِ عن اتباعِ الشهواتِ أصلاً ، وليسَ معنى التوبةِ تركُها فقط ، بل تمامُ التوبةِ بتداركِ ما مضى ، وكلُّ شهوةٍ اتبعها الإنسانُ ارتفعَ منها ظلمةٌ إلى قلبِهِ كما يرتفعُ مِنْ نَفْسِ الإنسانِ ظلمةٌ إلى وجهِ المرأةِ الصقيلةِ ، فإن تراكمتْ ظلمةُ الشهواتِ .. صارتْ رَيْنًا ؛ كما يصيرُ بخارُ النَّفْسِ في وجهِ المرأةِ عندَ تراكمِهِ خَبثًا ، كما قالَ تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ ، فإذا تراكمَ الرينُ .. صارَ طَبْعًا ، فَيُطْبَعُ على قلبِهِ ؛ كالخبثِ على وجهِ المرأةِ إذا تراكمَ وطالَ زمانُهُ .. غاصَ في جرمِ الحديدِ وأفسدَهُ ، وصارَ لا يقبلُ الصقلَ بعده ، وصارَ كالمطبوعِ مِنَ الخَبثِ .

ولا يكفي في تداركِ اتباعِ الشهواتِ تركُها في المستقبلِ ، بل لا بدَّ مِنْ محوِ تلكَ الآثارِ التي انطبعتْ في القلبِ ، كما لا يكفي في ظهورِ الصورِ في المرأةِ قطعُ الأنفاسِ والبخاراتِ المسوَّدةِ لوجهِها في المستقبلِ ما لمَ يشتغلْ بمحوِ ما انطبعتْ فيها مِنَ الآثارِ .

وكما يرتفعُ إلى القلبِ ظلمةٌ مِنَ المعاصي والشهواتِ .. فيرتفعُ إليه نورٌ مِنَ الطاعاتِ وتركِ الشهواتِ ، فتتمحي ظلمةُ المعصيةِ بنورِ الطاعةِ ، وإليه

الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم : « أتبع السيئة الحسنة تمحها »^(١) .

فإذا ؛ لا يستغني العبد في حال من أحواله عن محو آثار السيئات عن قلبه بمباشرة حسنات تضاد آثارها آثار تلك السيئات .

هذا في قلب حصل أولاً صفاؤه وجلاؤه ، ثم أظلم بأسباب عارضة ، فأما التصقيل الأول . . ففيه يطول الشغل ؛ إذ ليس شغل الصيقل في إزالة الصدأ عن المرآة كشغله في عمل أصل المرآة^(٢) ، فهذه أشغال طويلة لا تنقطع أصلاً ، وكل ذلك يرجع إلى التوبة .

فأما قولك : (إن هذا لا يُسمى واجباً ، بل هو فضل وطلب كمال) . . فاعلم أن الواجب له معنيان :

أحدهما : ما يدخل في فتوى الشرع ، ويشترك فيه كافة الخلق ، وهو القدر الذي لو اشتغل كافة الخلق به . . لم يخرب العالم ، ولو كلف الناس كلهم أن يتقوا الله حق تقاؤه . . لتركوا المعاش ، ورفضوا الدنيا بالكلية ، ثم يؤدي ذلك إلى بطلان التقوى بالكلية ؛ فإنه مهما فسدت المعاش . . لم يتفرغ أحد للتقوى ، بل شغل الحياكة والحراثة والخبز يستغرق جميع عمر كل واحد فيما يحتاج إليه ، فجميع هذه الدرجات ليست واجبة بهذا الاعتبار .

(١) رواه أحمد في « المسند » (٢٣٦ / ٥) ، والطبراني في « الكبير » (١٤٥ / ٢٠) .

(٢) الصيقل : الذي يشحذ السيوف ويجلوها ، وهو ما يعمل صانع المرايا .

والواجب الثاني : هو الذي لا بدّ منه للوصول به إلى القرب المطلوب من ربّ العالمين ، والمقام المحمود بين الصديقين ، والتوبة عن جميع ما ذكرناه واجبة في الوصول إليه ، كما يُقال : الطهارة واجبة في صلاة التطوّع ؛ أي : لمن يريدُها ، فإنّه لا يُوصلُ إليها إلا بها .

فأمّا مَنْ رضي بالنقصان والحرمان عن فضل صلاة التطوّع . . فالطهارة ليست واجبة عليه لأجلها ؛ كما يُقال : العين والأذن واليد والرجل شرط في وجود الإنسان ؛ يعني أنّه شرط لمن يريد أن يكون إنساناً كاملاً ينتفع بإنسانيته ، ويتوصّل بها إلى درجات العلا في الدنيا ، فأمّا مَنْ قنع بأصل الحياة ، ورضي بأن يكون كلحم على وضم^(١) ، وكخرقة مطروحة . . فليس يشترط لمثل هذه الحياة عينٌ ويدٌ ورجلٌ .

فأصل الواجبات الداخلة في فتوى العامة لا يُوصلُ إلا إلى أصل النجاة ، وأصل النجاة كأصل الحياة ، وما وراء أصل النجاة من السعادات التي بها تتهيأ الحياة يجري مجرى الأعضاء والآلات التي بها تتهيأ الحياة ، وفيه سعي الأنبياء والأولياء والعلماء والأمثل فالأمثل ، وعليه كان حرصهم ، وحواليه كان تطوافهم ، ولأجله كان رفضهم لملاذ الدنيا بالكلية ، حتّى انتهى عيسى عليه السلام إلى أن توسّد حجراً في منامه ، فجاء إليه الشيطان وقال : أما

(١) الوضم : الخشبة التي يفرى عليها اللحم ، أو ما يوضع عليه من خشبة أو خصفة ليوقى ، وقوله : (لحم على وضم) هو مثل يضرب للضعيف والذليل .

كنت تركت الدنيا للآخرة؟ فقال: نعم، وما الذي حدث؟ فقال: توسدك لهذا الحجر تنعم بالدنيا، فلم لا تضع رأسك على الأرض؟ فرمى عيسى عليه السلام بالحجر، ووضع رأسه على الأرض^(١)، وكان رميه الحجر توبة عن ذلك التنعم، أفترى أن عيسى عليه السلام لم يعلم أن وضع الرأس على الأرض لا يسمي واجباً في فتاوى العامة؟!

أفترى أن نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم لما شغله الثوب الذي كان عليه علم في صلاته حتى نزعه^(٢)، وشغله شراك نعله الذي جدده حتى أعاد الشراك الخلع^(٣)... ما علم أن ذلك ليس واجباً في شرعه الذي شرعه لكافة العباد؟! فإذا علم ذلك... فلم تاب عنه بتركه؟ وهل كان ذلك إلا لأنه رآه مؤثراً في قلبه أثراً يمنع عن بلوغ المقام المحمود الذي قد وعد به؟

أوترى أن الصديق رضي الله عنه بعد أن شرب اللبن، وعرف أنه من غير وجهه، أدخل إصبعه في حلقه ليخرجه، حتى كاد أن يخرج معه روحه... ما علم من الفقه هذا القدر وهو أن ما أكله عن جهل فهو غير آثم به، ولا يجب في فتوى الفقه إخراجُه؟! فلم تاب عن شربه بالتدارك على حسب إمكانه بتخلية المعدة عنه؟^(٤) وهل كان ذلك إلا لسرّ وقر في

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «الزهد» (ص ٤٩٣) عن إسماعيل بن أبي خالد.

(٢) رواه البخاري (٣٧٣)، ومسلم (٦٢/٥٥٦).

(٣) رواه ابن المبارك في «الزهد» (٤٠٢).

(٤) رواه البخاري (٣٨٤٢).

صدره^(١) ، عرّفه ذلك السرُّ أنّ فتوى العامة حديث آخر ، وأنَّ خطرَ طريق الآخرة لا يعرفه إلا الصديقون ؟

فتأمل أحوال هؤلاء الذين هم أعرف خلق الله بالله ، وبطريق الله ، وبمكر الله ، وبمكامن الغرور بالله ، وإياك مرّة واحدة أن تغرّك الحياة الدنيا ، وإياك ثمَّ إياك ألف مرّة أن يغرّك بالله الغرور .

فهذه أسرارٌ من استنشَق مبادئ روائجها . . علم أنّ لزوم التوبة النصوح ملازمٌ للعبد السالك في طريق الله تعالى في كلِّ نفسٍ من أنفاسه ، ولو عمّر عمر نوح ، وأنَّ ذلك واجبٌ على الفور من غير مهلة .

ولقد صدّق أبو سليمان الدارانيُّ حيث قال : (لو لم يبك العاقل فيما بقي من عمره إلا على فوت ما مضى منه في غير الطاعة . . لكان خليفاً أن يحزنه ذلك إلى الممات ، فكيف من يستقبل ما بقي من عمره بمثل ما مضى من جهله !؟)^(٢) .

وإنّما قال هذا لأنَّ العاقل إذا ملك جوهرة نفيسة فضاعت منه بغير فائدة . . بكى عليها لا محالة ، وإن ضاعت منه وصار ضياعها سبب هلاكه . . كان بكاؤه منها أشدّ ، وكلُّ ساعة من العمر بل كلِّ نفسٍ جوهرة

(١) رواه أحمد في « فضائل الصحابة » (١١٨) ، وأبو داود في « الزهد » (٣٧) ، والحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص ٣١) ، و« ختم الأولياء » (ص ٤٤٢) موقوفاً على بكر بن عبد الله المزني .
(٢) قوت القلوب (١٧٩ / ١) .

نفسه ، لا خَلَفَ لها ، ولا بدلَ منها ؛ فإنَّها صالحةٌ لأنَّ توصلَكَ إلى سعادةِ الأبدِ ، وتنقذك من شقاوةِ الأبدِ ، وأيُّ جوهرٍ أنفُسُ من هذا ؟
فإذا ضيَّعتها في الغفلةِ . . فقد خسرتَ خُسراناً مبيناً ، وإن صرفتها إلى معصيةٍ . . فقد هلكتَ هلاكاً فاحشاً .

فإن كنتَ لا تبكي على هذه المصيبةِ . . فذلك لجهلك ، ومصيبتك بجهلك أعظمُ من كلِّ مصيبةٍ ، لكنَّ الجهلَ مصيبةٌ لا يعرفُ المصابُ بها أنَّه صاحبُ مصيبةٍ ، فإنَّ نومَ الغفلةِ يحولُ بينه وبين معرفتهِ ، والناسُ نيامٌ ، فإذا ماتوا . . انتبهوا ، فعندَ ذلكَ ينكشفُ لكلِّ مفلسٍ إفلاسهُ ، ولكلِّ مصابٍ مصيبتُهُ ، وقد وقعَ اليأسُ عن التداركِ .

قالَ بعضُ العارفينَ : إنَّ ملكَ الموتِ عليه السلامُ إذا ظهرَ للعبدِ . . أعلمه أنه قد بقيَ من عمرِكَ ساعةٌ ، وإنَّكَ لا تستأخِرُ عنها طرفَةَ عينٍ ، فيبدو للعبدِ مِنَ الأسفِ والحسرةِ ما لو كانتَ له الدنيا بحذافيرِها . . لخرجَ منها على أن يضمَّ إلى تلكَ الساعةِ ساعةً أخرى ، ليستعتبَ فيها ويتداركَ تفريطَهُ ، فلا يجدُ إليه سبيلاً^(١) .

وهو أوَّلُ ما يظهرُ من معاني قوله تعالى : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ .
وإليه الإشارةُ بقوله تعالى : ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا

(١) قوت القلوب (١ / ١٨٠) .

أَخْرَجَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصْدَقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١﴾ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا ﴿٢﴾ ، فَقِيلَ : الْأَجَلُ الْقَرِيبُ الَّذِي يَطْلُبُهُ الْعَبْدُ مَعْنَاهُ : أَنَّهُ يَقُولُ عِنْدَ كَشْفِ الْغَطَاءِ : يَا مَلِكَ الْمَوْتِ ؛ أَخْرَجَنِي يَوْمًا أَعْتَذَرُ فِيهِ إِلَى رَبِّي وَأَتُوبُ وَأَتَزَوَّدُ صَالِحًا لِنَفْسِي ، فيقولُ : فَنَيْتِ الْأَيَّامُ فَلَا يَوْمَ ، فيقولُ : فَأَخْرَجَنِي سَاعَةً ، فيقولُ : فَنَيْتِ السَّاعَاتُ فَلَا سَاعَةً ، فيغلقُ عَلَيْهِ بَابَ التَّوْبَةِ ، فيغرغرُ بِرُوحِهِ ، وتتردَّدُ أَنْفَاسُهُ فِي شِرَاسِيْفِهِ^(١) ، ويتجرَّعُ غَصَّةَ الْيَأْسِ عَنِ التَّدَارِكِ ، وحسرة الندامة على تضييع العمر ، فيضطربُ أَصْلُ إِيْمَانِهِ فِي صَدَمَاتِ تِلْكَ الْأَهْوَالِ ، فإِذَا زَهَقَتْ نَفْسُهُ ؛ فَإِنْ كَانَ قَدْ سَبَقَتْ لَهُ مِنَ اللَّهِ الْحُسْنَى . . خَرَجَتْ رُوحُهُ عَلَى التَّوْحِيدِ ، فَذَلِكَ حَسَنُ الْخَاتِمَةِ ، وَإِنْ سَبَقَ لَهُ الْقَضَاءُ بِالشَّقْوَةِ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ . . خَرَجَتْ رُوحُهُ عَلَى الشُّكِّ وَالْاضْطِرَابِ ، وَذَلِكَ سُوءُ الْخَاتِمَةِ ، وَلَمِثْلُ هَذَا يُقَالُ : ﴿ وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْإِيمَانَ ﴾ ، بَلِ ﴿ التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ ﴾ ، وَمَعْنَاهُ : عَنْ قَرَبِ عَهْدٍ بِالْخَطِيئَةِ ؛ بَأَنْ يَتَنَدَّمَ عَلَيْهَا ، وَيَمْحُو أَثَرَهَا بِحَسَنَةٍ يَرُدُّهَا بِهَا قَبْلَ أَنْ يَتْرَاقَمَ الرِّينُ عَلَى الْقَلْبِ فَلَا يَقْبَلَ الْمَحْوُ^(٢) .

وَلِذَلِكَ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أَتَبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا »^(٣) .

(١) الشراسيف : أطراف الأضلاع مما يلي البطن .

(٢) قوت القلوب (١٨٠ / ٢) .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (٢٣٦ / ٥) ، والطبراني في « الكبير » (١٤٥ / ٢٠) .

ولذلك قَالَ لقمانُ لابنِهِ : (يا بنيَّ ؛ لا تؤخِّرِ التوبةَ ؛ فَإِنَّ الموتَ يَأْتِي بغتَةً)^(١) .

وَمَنْ تركَ المبادرةَ إِلَى التوبةِ بالتسويفِ . . كَانَ بينَ خطريْنِ عَظِيمينِ :
أحدهُما : أَنْ تتراكمَ الظلمَةُ عَلَى قلبِهِ مِنْ المعاصي حَتَّى يصيرَ ريناً وطبعاً ، فلا يقبلُ المحو .

والثاني : أَنْ يعاجلهُ المرضُ أَوْ الموتُ ، فلا يجدُ مهلةً للاشتغال بالمحو .

ولذلك وردَ في الخبرِ : (إِنَّ أَكْثَرَ صِيَاحِ أَهْلِ النَّارِ مِنَ التَّسْوِيفِ)^(٢) .
فما هلكَ مَنْ هلكَ إِلَّا بالتسويفِ ، فيكونُ تسويدهُ للقلبِ نقداً ، وجلاؤُهُ بالطاعةِ نسيئةً ، إِلَى أَنْ يختطفَهُ الأجلُ ، فيأتي اللهَ بقلبٍ غيرِ سليمٍ ، ولا ينجو إِلَّا مَنْ أتى اللهَ بقلبٍ سليمٍ ، فالقلبُ أمانةُ اللهِ تعالى عِنْدَ عبدهِ ، والعمرُ أمانةُ اللهِ عندهُ ، وكذا سائرُ أسبابِ الطاعةِ ، فَمَنْ خانَ في الأمانةِ ولم يتداركْ خيانتَهُ . . فأمرُهُ مَخطرٌ .

قالَ بعضُ العارفينَ : إِنَّ اللهَ تعالى إِلَى عبدهِ سرَّينِ يسرُّهُما إِلَيْهِ عَلَى سبيلِ

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التوبة » (٢٩) ، والبيهقي في « الزهد الكبير » (٥٩٠) عن عثمان بن زائدة يذكر الوصية .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٢١٧) عن عبد الله بن المبارك بلفظ : (بلغني أن أكثر تلاقع أهل النار : أف لسوف ، أف لسوف) .

الإلهام ؛ أحدهما : إذا خرجَ مِنْ بطنِ أمِّه يقولُ له : عبدي ؛ قد أخرجتُكَ إلى الدنيا طاهراً نظيفاً ، واستودعتُكَ عمرَكَ وأتمتُكَ عليه ، فانظرْ كيفَ تحفظُ الأمانةَ ، وانظرْ كيفَ تلقاني ، والثاني : عندَ خروجِ روحِهِ يقولُ : عبدي ؛ ماذا صنعتَ في أمانتي عندَكَ ؟ هلُ حفظتها حتَّى تلقاني على العهدِ فالقاكَ على الوفاءِ ؟ أو أضعتها فالقاكَ بالمطالبةِ والعقابِ ؟^(١)

وإليه الإشارةُ بقوله تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ ، وبقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ .



(١) قوت القلوب (١ / ١٨١) ، والسياق عنده .

بيان أن التوبة إذا استجمعت شرائطها فهي مقبولة لا محالة^(١)

اعلم : أنك إذا فهمت معنى القبول .. لم تشك في أن كل توبة صحيحة فهي مقبولة .

فالناظرون بنور البصائر المستمدون من أنوار القرآن علموا أن كل قلب سليم مقبول عند الله ، ومتنعم في الآخرة في جوار الله تعالى ، ومستعد لأن ينظر بعينه الباقية إلى وجه الله تعالى ، وعلموا أن القلب خلق سليماً في الأصل ، فكل مولود يولد على الفطرة ، وإنما تفرطه السلامة بكدورة ترهق وجهه من غبرة الذنوب وظلمتها ، وعلموا أن نار الندم تحرق تلك الغبرة ، وأن نور الحسنة يمحو عن وجه القلب ظلمة السيئة ، وأنه لا طاقة لظلام المعاصي مع نور الحسنات ؛ كما لا طاقة لظلام الليل مع نور النهار ، بل كما لا طاقة لكدورة الوسخ مع بياض الصابون ، وكما أن الثوب الوسخ لا يقبله الملك لأن يكون لباسه .. فالقلب المظلم لا يقبله الله تعالى لأن يكون في جواره ، وكما أن استعمال الثوب في الأعمال الخسيسة يوسخ الثوب ، وغسله بالصابون والماء الحار ينظفه لا محالة .. فاستعمال القلب

(١) بفضل الله تعالى ، لا بطريق الوجوب ؛ إذ لا يجب شيء على الخالق ؛ لأنه لا يرجو ثواباً ولا يخاف عقاباً ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴾ ، هذا حاصل ما ذكره المصنف في هذا الفصل ، وقد أحر تلك الشرائط وكان الأولى تقديمها حتى يكون ما في هذا الفصل كالتمم له ، والإيمان بهذا واجب ؛ لأنه من عقود الإيمان بالله تعالى . « إتحاف » (٥٢٢ / ٨) .

في الشهوات يوسخ القلب ، وغسله بماء الدموع وحرقة الندم ينظفه ويطهره
 ويزكّيه ، وكلّ قلب زكيّ طاهر فهو مقبول ؛ كما أنّ كلّ ثوب نظيف فهو
 مقبول ، فإنّما عليك التزكية والتطهير ، فأما القبول . . فمبدول قد سبق به
 القضاء الأزلي الذي لا مردّ له ، وهو المسمّى فلاحاً في قوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ
 الْمُؤْمِنُونَ ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ .

ومن لم يعرف على سبيل التحقيق معرفة أقوى وأجلى من المشاهدة
 بالبصر أنّ القلب يتأثر بالمعاصي والطاعات تأثراً متضاداً ؛ يُستعار لأحدهما
 لفظ الظلمة كما يُستعار للجهل ، ويُستعار للآخر لفظ النور كما يُستعار
 للعلم ، وأنّ بين النور والظلمة تضاداً ضرورياً لا يتصور الجمع بينهما . .
 فكأنّه لم يعرف من الدين إلا قشوره ، ولم يعلق به إلا أسماؤه ، وقلبه في
 غطاء كثيف عن حقيقة الدين ، بل عن حقيقة نفسه وصفات نفسه ، ومن
 جهل نفسه . . فهو بغيره أجهل ، وأعني به قلبه ؛ إذ بقلبه يعرف غير قلبه ،
 فكيف يعرف غيره وهو لا يعرف قلبه ؟!

فمن يتوهم أنّ التوبة تصحّ ولا تقبل كمن يتوهم أنّ الشمس تطلع والظلام
 لا يزول ، والثوب يغسل بالصابون والوسخ لا يزول ، إلا أن يغوص الوسخ
 لطول تراكمه في تجاويف الثوب وخلله ، فلا يقوى الصابون على قلعه ،
 فمثال ذلك أن تتراكم الذنوب حتّى تصير طبعاً وريناً على القلب ، فمثل هذا
 القلب لا يرجع ولا يتوب .

نعم ، قد يقول باللسان : (تبتُ) ، فيكون ذلك كقول القصارِ بلسانه :
(قد غسلتُ الثوبَ) ، وذلك لا ينظفُ الثوبَ أصلاً ، ما لم يغيّرَ صفةَ
الثوبِ باستعمالِ ما يضادُّ الوصفَ المتمكّن منه .

فهذا حالُ امتناعِ أصلِ التوبةِ ، وهو غيرُ بعيدٍ ، بل هو الغالبُ على كافّةِ
الخلقِ المقبلينَ على الدنيا ، المعرضينَ عن الله بالكليةِ .
فهذا البيانُ كافٍ عندَ ذوي البصائرِ في قبولِ التوبةِ ، ولكنّا نعصدُ جناحَهُ
بنقلِ الآياتِ والأخبارِ والآثارِ ، فكلُّ استبصارٍ لا يشهدُ له الكتابُ والسنةُ
لا يوثقُ به .

وقد قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ ﴾ ، إلى غيرِ ذلك من الآياتِ .

وقال صلى الله عليه وسلم : « اللهُ أفرحُ بتوبةِ عبده المؤمنِ »
الحديث^(١) ، والفرحُ وراءَ القبولِ ، فهو دليلٌ على القبولِ وزيادة .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يبسطُ يدهُ بالتوبةِ لمسيءٍ
الليلِ إلى النهارِ ، ولمسيءٍ النهارِ إلى الليلِ ، حتَّى تطلعَ الشمسُ من
مغربِها »^(٢) ، وبسطُ اليدِ كنايةٌ عن طلبِ التوبةِ^(٣) ، والطالبُ وراءَ القابلِ ،

(١) رواه البخاري (٦٣٠٨) ، ومسلم (٢٧٤٤) .

(٢) رواه مسلم (٢٧٥٩) بنحوه .

(٣) وقبولها ، وهو في حقه تعالى عبارة عن التوسع في الجود ، والتنزيه عن المنع عند
اقتضاء الحكمة . « إتحاف » (٥٢٤/٨) .

قرباً قابلٍ ليسَ بطالبٍ ، ولا طالبٍ إلا وهو قابلٌ .

وقال صلى الله عليه وسلم : « لو عملتُمُ الخطايا حتى تبلغَ السماءَ ، ثم ندمتُمُ . . لتابَ اللهُ عليكم » (١) .

وقال عليه الصلاة والسلامُ أيضاً : « إنَّ العبدَ ليزنبُ الذنبَ فيدخلُ به الجنةَ » ، قيلَ : كيفَ ذلكَ يا رسولَ الله ؟ قالَ : « يكونُ نصبَ عينِهِ تائباً منه فاراً حتى يدخلَ الجنةَ » (٢) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « كفارةُ الذنبِ الندامةُ » (٣) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « التائبُ مِنَ الذنبِ كَمَنْ لا ذنبَ لَهُ » (٤) .

ويروى أنَّ حبشياً قالَ : يا رسولَ الله ؛ إنِّي كنتُ أعملُ الفواحشَ ، فهل لي من توبة ؟ قالَ : « نعم » ، فولَّى ثم رجعَ ، فقالَ : يا رسولَ الله ؛ أكانَ

(١) رواه ابن ماجه (٤٢٤٨) ولفظه : « لو أخطأتُم حتى تبلغَ خطاياكم السماءَ ثم تبتُم . . لتابَ عليكم » ، وسيأتي شاهدُه الذي رواه الترمذي (٣٥٤٠) ، وفيه : « يا بن آدم ؛ لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني . . غفرت لك ولا أبالي . . » الحديث .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٦٢) عن الحسن مرسلاً ، وينحوه رواه الطبراني في « الأوسط » (٢١٦٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٧٦/٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً ، ولفظه : « إنَّ العبدَ ليزنبُ ذنباً ، فإذا ذكره . . أحزنه ما صنع ، فإذا نظر الله إليه قد أحزنه ما صنع . . غفر له » ، وعند ابن أبي الدنيا في « التوبة » (١٩٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً : « إنَّ اللهَ لينفعَ العبدَ بالذنبِ يذنبه » .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (٢٨٩/١) ، والطبراني في « الكبير » (١٧٢/١٢) .

(٤) رواه ابن ماجه (٤٢٥٠) .

يراني وأنا أعملها؟ قَالَ : « نعم » ، فصاح الحبشي صيحةً خرجت فيها نفسه^(١) .

ويروى أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمَّا لَعَنَ إِبْلِيسَ . . سَأَلَهُ النَّظْرَةَ ، فَأَنْظَرَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، فَقَالَ : وَعِزَّتِكَ ؛ لَا خَرَجْتُ مِنْ قَلْبِ ابْنِ آدَمَ مَا دَامَ فِيهِ الرُّوحُ ، فَقَالَ اللهُ تَعَالَى : وَعِزَّتِي وَجَلَالِي ؛ لَا حَبِثْتُ عَنْهُ التَّوْبَةَ مَا دَامَ فِيهِ الرُّوحُ^(٢) .
وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنَّ الْحَسَنَاتِ يَذْهَبْنَ السَّيِّئَاتِ كَمَا يَذْهَبُ الْمَاءُ الْوَسْخَ »^(٣) .

والأخبارُ في هذا لا تُحصى .



- (١) رواه أبو طاهر بن العلاف في « زهر الرياض » كما ذكر ذلك ابن الجوزي في « تنوير الغيش في فضل السودان والحبش » (ص ١٤٧) .
- (٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٠٤٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٨٤ / ٢) عن أبي قلابة بلفظ المصنف هنا ، وروى أحمد في « المسند » (٢٩ / ٣) ، وأبو يعلى في « مسنده » (١٣٩٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً : « إن الشيطان قال : وعزتك يا رب ؛ لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم ، قال الرب : وعزتي وجلالي ؛ لا أزال أغفر لهم ما استغفروني » .
- (٣) قال الحافظ العراقي : (لم أجده بهذا اللفظ ، وهو صحيح المعنى ، وهو بمعنى : « أتبع السيئة الحسنة تمحها » رواه الترمذي وتقدم قريباً) ، وعلق عليه الحافظ الزبيدي بقوله : (بل روى أبو نعيم في « الحلية » [٢٧٠ / ١] من حديث شداد بن أوس : « إن التوبة تغسل الحوبة ، وإن الحسنات يذهبن السيئات » الحديث ، فلعل المصنف أشار إلى هذا) . « إتحاف » (٥٢٥ / ٨) .

وَأَمَّا الْآثَارُ :

فَقَدْ قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ : (أَنْزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَإِنَّهُمْ كَانُوا لِلْأَوَّلِينَ غَفُورًا ﴾ فِي الرَّجُلِ يَذْنِبُ ثُمَّ يَتُوبُ ، ثُمَّ يَذْنِبُ ثُمَّ يَتُوبُ) (١) .

وَقَالَ الْفَضِيلُ : (قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : بَشِّرِ الْمَذْنِبِينَ بِأَنَّهُمْ إِنْ تَابُوا .. قَبِلْتُ مِنْهُمْ ، وَحَذَّرِ الصَّادِقِينَ أَنِّي إِنْ وَضَعْتُ عَلَيْهِمْ عَدْلِي .. عَذَّبْتُهُمْ) (٢) .

وَقَالَ طَلْقُ بْنُ حَبِيبٍ : (إِنَّ حَقَّوقَ اللَّهِ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يَقُومَ بِهَا الْعَبْدُ ، وَلَكِنْ أَصْبَحُوا تَائِبِينَ وَأَمْسَوْا تَائِبِينَ) (٣) .

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : (مَنْ ذَكَرَ خَطِيئَةَ أَلَمَ بِهَا ، فَوَجَلَ مِنْهَا قَلْبُهُ .. مَحِيتُ عَنْهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ) (٤) .

وَيُرَوَّى أَنَّ نَبِيَّاً مِنْ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَذْنَبَ ذَنْباً ، فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ : وَعِزَّتِي وَجَلَالِي ؛ لَنْ عَدْتَ .. لِأَعَذِّبَنَّكَ ، فَقَالَ : يَا رَبُّ ؛ أَنْتَ أَنْتَ ، وَأَنَا أَنَا ، وَعِزَّتِكَ لَنْ لَمْ تَعْصِمْنِي .. لِأَعُودَنَّ ، فَعَصَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى (٥) .

(١) رَوَاهُ ابْنُ الْمُبَارَكِ فِي « الزَّهْدِ » (١٠٩٤) .

(٢) رَوَى نَحْوُهُ أَبُو نَعِيمٍ فِي « الْحَلِيَّةِ » (١٩٥ / ٨) عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ أَبِي رَوَادٍ .

(٣) رَوَاهُ ابْنُ الْمُبَارَكِ فِي « الزَّهْدِ » (٣٠٢) ، وَأَبُو نَعِيمٍ فِي « الْحَلِيَّةِ » (٦٥ / ٣) .

(٤) رَوَاهُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي « التَّوْبَةِ » (١١٧) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بِنَحْوِهِ .

(٥) الْخَبَرُ بِنَحْوِهِ فِي « الْقُوتِ » (٦٥ / ٢) عَنْ أَصْفَ بْنِ خَالَةَ سَيِّدِنَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَرَوَى ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي « الْمُصَنَّفِ » (٣٥٩٣٦) عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : رَأَى =

وقال بعضهم : (إِنَّ الْعَبْدَ لِيَذْنُبُ الذَّنْبَ ، فَلَا يَزَالُ نَادِماً حَتَّى يَدْخُلَ الْجَنَّةَ ، فيقول إبليس : لَيْتَنِي لَمْ أَوْقَعُهُ فِي الذَّنْبِ) .

وقال حبيب بن أبي ثابت : (تُعْرَضُ عَلَى الرَّجُلِ ذُنُوبُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فيمرُّ بالذَّنْبِ فيقول : أَمَا إِنِّي قَدْ كُنْتُ مُشْفِقاً مِنْكَ ، فَيُغْفَرُ لَهُ)^(١) .

ويروى أَنَّ رجلاً سأل ابن مسعود عن ذنب ألمَّ به : هلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ ؟ فَأَعْرَضَ عَنْهُ ابْنُ مَسْعُودٍ ، ثُمَّ التَفَتَ إِلَيْهِ ، فَرَأَى عَيْنَيْهِ تَذْرِفَانِ ، فَقَالَ لَهُ : إِنَّ لِلْجَنَّةِ ثَمَانِيَةَ أَبْوَابٍ ، كُلُّهَا تَفْتَحُ وَتُغْلَقُ إِلَّا بَابَ التَّوْبَةِ ، فَإِنَّ عَلَيْهِ مُلْكاً مُوَكَّلًا بِهِ لَا يَغْلِقُ ، فَاعْمَلْ وَلَا تَيْشَنَّ^(٢) .

وقال عبد الرحمن بن أبي القاسم : تَذَاكَرْنَا مَعَ عَبْدِ الرَّحِيمِ تَوْبَةَ الْكَافِرِ وَقَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ ، فَقَالَ : إِنِّي لَا أَرْجُو أَنْ يَكُونَ الْمُسْلِمُ أَحْسَنَ حَالاً عِنْدَ اللَّهِ ، وَلَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ تَوْبَةَ الْمُسْلِمِ كِلَا سَلَامٍ بَعْدَ إِسْلَامٍ^(٣) .

وقال عبد الله بن سلام : (لَا أَحَدُثُكُمْ إِلَّا عَنْ نَبِيِّ مَرْسَلٍ أَوْ كِتَابٍ

= رجل جمجمة ، فحدث نفسه بشيء ، قال : فخرَّ ساجداً تائباً مكانه ، قال : فقيل له : ارفع رأسك ، فإنك أنت أنت ، وأنا أنا .

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التوبة » (٢٠٥) عن عروة بن عامر .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٠٤٢) .

(٣) وعبد الرحيم هو ابن يحيى المعروف بالأسود ، كذا نص عليه في « الإتحاف »

(٥٢٦ / ٨) ، وفي (ب) : (وقد بلغني أن العبد إذا عمل عملاً من أعمال البرّ . . دخل

به الجنة ، ولقد بلغني . . .) .

منزل ، إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا عَمَلَ ذَنْبًا ثُمَّ نَدِمَ عَلَيْهِ طَرَفَةَ عَيْنٍ . . سَقَطَ عَنْهُ أَسْرَعُ مِنْ طَرَفَةِ عَيْنٍ (١) .

وَقَالَ عَمْرٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : (اجلسوا إلى التَّوَّابِينَ ؛ فَإِنَّهُمْ أَرْقُ أَفْئِدَةً) (٢) .

وَقَالَ بَعْضُهُمْ : أَنَا أَعْلَمُ مَتَى يَغْفِرُ اللَّهُ لِي ، قِيلَ : وَمَتَى ؟ قَالَ : إِذَا تَابَ عَلَيَّ (٣) .

وَقَالَ آخَرُ : (أَنَا مِنْ أَنْ أُحْرِمَ التَّوْبَةَ أَخَوْفُ مِنْ أَنْ أُحْرِمَ الْمَغْفِرَةَ) (٤) أَيِ : الْمَغْفِرَةُ مِنْ لَوَازِمِ التَّوْبَةِ وَتَوَابِعِهَا لَا مُحَالَةَ .

وَيُرْوَى أَنَّهُ كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ شَابٌّ عَبْدُ اللَّهِ تَعَالَى عَشْرِينَ سَنَةً ، ثُمَّ عَصَاهُ عَشْرِينَ سَنَةً ، ثُمَّ نَظَرَ فِي الْمِرْآةِ فَرَأَى الشَّيْبَ فِي لَحْيَتِهِ ، فَسَاءَهُ ذَلِكَ ، فَقَالَ : إِلَهِي ؛ أَطَعْتُكَ عَشْرِينَ سَنَةً ، ثُمَّ عَصَيْتُكَ عَشْرِينَ سَنَةً ، فَإِنْ رَجَعْتُ إِلَيْكَ أَتَقْبَلْنِي ؟ فَسَمِعَ قَائِلًا يَقُولُ وَلَا يَرَى شَخْصًا : أَحْبَبْتَنَا فَأَحْبَبْنَاكَ ، وَتَرَكْتَنَا فَتَرَكْنَاكَ ، وَعَصَيْتَنَا فَأَمْهَلْنَاكَ ، وَإِنْ رَجَعْتَ إِلَيْنَا . . قَبَلْنَاكَ (٥) .

(١) رواه بنحوه الطبراني كما نص عليه الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٢٠١ / ١٠) .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٦٠٦) ، وأحمد في « الزهد » (٦٣١) .

(٣) قوت القلوب (١٨١ / ١) .

(٤) قوت القلوب (١٨١ / ١) .

(٥) رواه البيهقي في « الشعب » (٦٧٢٣) عن إبراهيم بن شيان ، يحكي هذا عن شاب كان عندهم بنحوه .

وقال ذو النون المصري رحمه الله تعالى : (إِنَّ لِلَّهِ عِبَاداً نَصَبُوا أَشْجَارَ
الخطايا نَضَبَ رَوَاقِ الْقُلُوبِ ، وَسَقَوْهَا بِمَاءِ التَّوْبَةِ ، فَأَثْمَرَتْ نَدْمًا
وَحُزْنًا ، فَجُتُّوا مِنْ غَيْرِ جُنُونٍ ، وَتَبَلَّدُوا مِنْ غَيْرِ عِيٍّ وَلَا بَكَمٍ ، وَإِنَّهُمْ لَهُمْ
الْبُلْغَاءُ الْفَصَحَاءُ ، الْعَارِفُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، ثُمَّ شَرَبُوا بِكَأْسِ الصَّفَاءِ ،
فَوَرِثُوا الصَّبْرَ عَلَى طَوْلِ الْبَلَاءِ ، ثُمَّ تَوَلَّاهُ قُلُوبُهُمْ فِي الْمَلَكُوتِ ، وَجَالَ
فَكْرُهُمْ بَيْنَ سَرَايَا حُجُبِ الْجَبَرُوتِ ، وَاسْتَظَلُّوا تَحْتَ رِوَاقِ النَّدَمِ ، وَقَرَّوْا
صَحِيفَةَ الْخَطَايَا ، فَأَوْرِثُوا أَنْفُسَهُمُ الْجَزَعَ ، حَتَّى وَصَلُوا إِلَى عُلُوِّ الزَّهْدِ
بِسَلَمِ الْوَرَعِ ، فَاسْتَعَذَبُوا مَرَارَةَ التَّرْكِ لِلدُّنْيَا ، وَاسْتَثَلَّوْا خَشُونَةَ
الْمُضْجِعِ ، حَتَّى ظَفَرُوا بِحَبْلِ النِّجَاةِ وَعُرْوَةِ السَّلَامَةِ ، فَسَرَحَتْ أَرْوَاحُهُمْ
فِي الْعَلَا ، حَتَّى أَنَاخُوا فِي رِيَاضِ النِّعَمِ ، وَخَاضُوا فِي بَحْرِ الْحَيَاةِ ،
وَرَدَمُوا خَنَادِقَ الْجَزَعِ ، وَعَبَرُوا جَسُورَ الْهَوَى ، حَتَّى نَزَلُوا بِفَنَاءِ الْعِلْمِ ،
وَاسْتَقَوْا مِنْ غَدِيرِ الْحِكْمَةِ ، وَرَكَبُوا سَفِينَةَ الْفُطْنَةِ ، وَأَقْلَعُوا بِرِيحِ النِّجَاةِ
فِي بَحْرِ السَّلَامَةِ ، حَتَّى وَصَلُوا إِلَى رِيَاضِ الرَّاحَةِ ، وَمَعْدِنِ الْعِزِّ
وَالْكَرَامَةِ)^(١) .

فهذا القدر كافٍ في بيان أن كلَّ توبةٍ صحيحةٍ فمقبولةٌ لا محالة .



(١) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص ٥٤) واللفظ له ، وينحوه عند
أبي نعيم في «الحلية» (٣٣٢/٩) .

فإن قلت : أفقول ما قاله المعتزلة من أن قبول التوبة واجب على الله؟ (١) .

فأقول : لا أعني بما ذكرته من وجوب قبول التوبة على الله إلا ما يريدُه القائل بقوله : (إنَّ الثوبَ إذا غُسِلَ بالصابونِ . . وجب زوالُ الوسخِ ، وإنَّ العطشانَ إذا شربَ الماءَ . . وجب زوالُ العطشِ ، وإنَّه إذا مُنِعَ الماءَ مدَّةً . . وجب العطشُ ، وإنَّه إذا دامَ العطشُ . . وجب الموتُ) ، وليسَ في شيءٍ من ذلك ما يريدُه المعتزلة بالإيجابِ على الله تعالى .

بل أقول : خلقَ الله تعالى الطاعةَ مكفرةً للمعصية والحسنةَ ماحيةً للسيئة كما خلقَ الماءَ مزيلًا للعطشِ ، والقدرةَ متسعةً بخلافه لو سبقت به المشيئة ، فلا واجبَ على الله تعالى ، ولكن ما سبقت به إرادته الأزلية فواجبٌ كونه لا محالة .



فإن قلت : فما من تائبٍ إلا وهو شاكٌّ في قبولِ توبته ، والشاربُ للماءِ لا يشكُّ في زوالِ عطشه ، فلم يشكُّ في قبولِ التوبة ؟

فأقول : شكُّه في القبولِ كشكُّه في وجودِ شرائطِ الصحة ، فإنَّ للتوبة أركاناً وشروطاً دقيقةً كما سيأتي ، وليسَ يتحقَّقُ وجودُ جميعِ شروطِها ، كالذي يشكُّ في دواءِ شربه للإسهالِ في أنه هل يسهلُ ، وذلكَ لشكِّه في

(١) انظر « الإرشاد » (ص ٤٠٣) .

حصولِ شروطِ الإسْهالِ في الدَّواءِ ؛ باعتبارِ الحالِ والوقتِ ، وكيفيةِ خلطِ
الدَّواءِ وطبيعِهِ ، وجودةِ عقاقيرِهِ وأدويَّتِهِ .

فهذا وأمثلةٌ موجِبُ للخوفِ بعدَ التَّوبَةِ ، وموجِبُ للشكِّ في قبولِها
لا محالةً ، على ما سيأتي في شروطِها إن شاء اللهُ عزَّ وجلَّ .



الرُّكْنُ الثَّانِي فيما عنه التَّوْبَةُ ، وهي الذُّنُوبُ صغائرُها وكبائرُها

اعلم : أنَّ التَّوْبَةَ تركُ الذَّنْبِ ، ولا يمكنُ تركُ الشيءِ إلا بعدَ معرفتهِ ، وإذا كانتِ التَّوْبَةُ واجبةً . . كَانَ ما لا يتوصَّلُ إليها إلا بهِ واجباً ، فمعرفةُ الذَّنْبِ إذاً واجبةٌ .

والذَّنْبُ : عبارةٌ عن كُلِّ ما هوَ مخالفٌ لأمرِ اللهِ مِنْ تركِ أو فعلٍ ، وتفصيلُ ذلكِ يستدعي شرحَ التكاليفاتِ مِنْ أوَّلِها إلى آخِرِها ، وليسَ ذلكِ مِنْ غرضِنَا ، ولكنَّا نشيرُ إلى مجامعِها وروابطِ أقسامِها ، واللهُ الموفقُ للصوابِ برحمتهِ .

بيان أقسام الذُّنُوبِ بالإضافة إلى صفات العبد

اعلم : أنَّ للإنسانِ أخلاقاً وأوصافاً كثيرةً ، على ما عُرِفَ شرحُهُ في كتابِ عجائبِ القلبِ وعوالمِهِ^(١) ، ولكنْ تنحصرُ ماثراتُ الذَّنْبِ في أربعِ صفاتٍ : صفاتٍ ربوبيةٍ ، وصفاتٍ شيطانيةٍ ، وصفاتٍ بهيميةٍ ، وصفاتٍ سبعيةٍ ، وذلكَ لأنَّ طينةَ الإنسانِ عُجِنَتْ مِنْ أخلاطٍ مختلفةٍ ، فافتضى كُلُّ واحدٍ مِنْ الأخلاطِ في المعجونِ منه أثراً مِنَ الآثارِ ، كما يقتضي السُّكَّرُ

(١) في (ن) : (وغوائله) بدل (وعوالمه) .

والخلُّ والزعفرانُ في السكنجيين آثاراً مختلفة^(١) .

فأما ما يقتضيه النزوعُ إلى الصفاتِ الربوبيةِ : فمثلُ الكبرِ ، والفخرِ ، والجبروتِ^(٢) ، وحبُّ المدحِ والثناءِ والعزِّ والغنى ، وحبُّ دوامِ البقاءِ ، وطلبُ الاستعلاءِ على الكافةِ ، حتَّى كأنَّهُ يريدُ أن يقولَ : (أنا ربُّكُمُ الأعلى) . وهذا يتشعَّبُ منه جملةٌ من كبائرِ الذنوبِ ، غفلَ عنها الخلقُ ولم يعدُّوها ذنوباً ، وهي المهلكاتُ العظيمةُ التي هي كالأمَّهاتِ لأكثرِ المعاصي ، كما استقصيناهُ في ربعِ المهلكاتِ .

الثانيةُ : هي الصفةُ الشيطانيةُ : التي منها يتشعَّبُ الحسدُ ، والبغى ، والحيلةُ ، والخداعُ ، والأمرُ بالفسادِ والمنكرِ ، وفيه يدخلُ الغشُّ ، والنفاقُ ، والدعوةُ إلى البدعِ والضلالِ .

الثالثةُ : الصفةُ البهيميةُ : ومنها يتشعَّبُ الشرُّ ، والكَلْبُ ، والحرصُ على قضاءِ شهوةِ البطنِ والفرجِ ، ومنه يتشعَّبُ الزنا ، واللواطُ ، والسرقةُ ، وأكلُ مالِ الأيتامِ ، وجمعُ الحطامِ لأجلِ الشهواتِ .

الرابعةُ : الصفةُ السبعيةُ : ومنها يتشعَّبُ الغضبُ ، والحقدُ ، والتهجُّمُ على الناسِ بالضربِ والشتيمِ والقتلِ واستهلاكِ الأموالِ ، ويتفرَّعُ عنها جملٌ من الذنوبِ .

(١) السكنجيين : هو مخلوط العسل والخل والسكر لدفع الصفراء ، كلمة فارسية معربة ، أصلها سَكَنُجِيَّين .

(٢) في غير (أ) : (والجبرية) بدل (والجبروت) ، وهما بمعنى .

وهذه الصفات لها تدرجٌ في الفطرة ، فالصفة البهيمة هي التي تغلب أولاً ، ثم تتلوها الصفة السبعية ثانياً ، ثم إذا اجتمعتا . . استعملتا العقل في الخداع والمكر والحيلة ، وهي الصفة الشيطانية ، ثم بالآخرة تغلب الصفات الربوبية ، وهي الفخر والعز والعلو ، وطلب الكبرياء ، وقصد الاستيلاء على جميع الخلق .

فهذه أمهات الذنوب ومنابعها ، ثم تتفجر الذنوب من هذه المنابع على الجوارح ؛ فبعضها على القلب خاصة ؛ كالكفر والبدعة والنفاق وإضمار السوء للناس ، وبعضها على العين والسمع ، وبعضها على اللسان ، وبعضها على البطن والفرج ، وبعضها على اليدين والرجلين ، وبعضها على جميع البدن ، ولا حاجة إلى بيان تفصيل ذلك ، فإنه واضح .



قِسْمَةٌ ثَانِيَةٌ :

اعلم : أنَّ الذنوب تنقسم إلى ما بين العبد وبين الله تعالى ، وإلى ما يتعلّق بحقوق العباد .

فما يتعلّق بالعبد خاصة كترك الصلاة ، والصوم ، والواجبات الخاصة به .

وما يتعلّق بحقوق العباد كترك الزكاة ، وقتل النفس ، وغصب الأموال ، وشتيمه الأعراض .

وكلُّ متناولٍ مِنْ حقِّ الغيرِ فإمَّا نفسٌ ، أو طرفٌ ، أو مالٌ ، أو عرضٌ ،
أو دينٌ ، أو جاهٌ .

وتناولُ الدينِ بالإغواءِ ، والدعاءِ إلى البدعةِ ، والترغيبِ في المعاصي ،
وتهيجِ أسبابِ الجراءةِ على الله تعالى ، كما يفعلُهُ بعضُ الوعَّاطِ بتغليبِ
جانبِ الرجاءِ على جانبِ الخوفِ .

وما يتعلَّقُ بالعبادِ فالأمرُ فيه أغلظُ ، وما بينَ العبدِ وبينَ الله تعالى إذا لم
يكنْ شركاً . . فالعفوُ فيه أرجى وأقربُ ، وقد جاءَ في الخبرِ : « الدواوينُ
ثلاثةٌ : ديوانٌ يُغفرُ ، وديوانٌ لا يُغفرُ ، وديوانٌ لا يتركُ ، فالديوانُ الذي
يُغفرُ ذنوبُ العبادِ بينهم وبينَ الله تعالى ، وأمَّا الديوانُ الذي لا يُغفرُ . .
فالشركُ بالله تعالى ، وأمَّا الديوانُ الذي لا يتركُ . . فمظالمُ العبادِ » ^(١) أي :
لا بدَّ أن يطالبَ بها حتَّى يتفصَّي عنها .

قِسْمَةُ ثَالِثَةٌ :

اعلمُ : أنَّ الذنوبَ تنقسمُ إلى صغائرَ وكبائرَ ، وقد كثرَ اختلافُ الناسِ
فيها ، فقالَ قائلونَ : (لا صغيرةٌ ، بل كلُّ مخالفةٍ لله فهي كبيرةٌ) ^(٢) ،

(١) رواه أحمد في « مسنده » (٢٤٠ / ٦) ، والحاكم في « المستدرک » (٥٧٥ / ٤) من
حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً .

(٢) وسيأتي قريباً قول ابن عباس رضي الله عنهما : (كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة) ، وقال
القشيري في « لطائف الإشارات » (٤٨٧ / ٣) : (الذنوب كلها كبائر ؛ لأنها مخالفة =

وهذا ضعيف^(١) ؛ إذ قال الله تعالى : ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا نُهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ﴾ .

وقال صلى الله عليه وسلم : « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة تكفر ما بينهما إن اجتبت الكبائر »^(٢) .

وفي لفظ آخر : « كفارات لما بينهما إلا الكبائر »^(٣) .

وقد قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص : « الكبائر : الإشراف بالله ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس ، واليمين الغموس »^(٤) .

= لأمر الله ، ولكن بعضها أكبر من بعض ، ولا شيء أعظم من الشرك) ، ونقل أبو حيان في « البحر المحيط » (٢٣٣ / ٣) هذا إذ قال : (وقد اختلفوا في ذلك ، فذهب الجمهور إلى انقسام الذنوب إلى كبائر وصغائر . . . ، وذهب جماعة من الأصوليين منهم الأستاذ أبو إسحاق الإسفرايني وأبو المعالي وأبو نصر عبد الرحيم القشيري إلى أن الذنوب كلها كبائر ، وإنما يقال لبعضها : صغيرة بالإضافة إلى ما هو أكبر منها ؛ كما يقال : الزنا صغيرة بالنسبة إلى الكفر) .

(١) انظر « المستصفى » (٢١٣ / ٢) ، و « الإتحاف » (٥٣٠ / ٨) .

(٢) رواه مسلم (٢٣٣) .

(٣) كذا في « القوت » (١٤٧ / ٢) ، ورواه أحمد في « مسنده » (٣٥٩ / ٢) : « كفارات لما بينهما ما اجتبت الكبائر » .

(٤) رواه البخاري (٦٦٧٥) .

واختلف الصحابة والتابعون في عدد الكبائر من أربع ، إلى سبع ، إلى تسع ، إلى إحدى عشرة ، فما فوق ذلك .

فقال ابن مسعود : (هُنَّ أربع)^(١) .

وقال ابن عمر : (هُنَّ سبع)^(٢) .

وقال عبد الله بن عمرو : (هُنَّ تسع)^(٣) .

وكان ابن عباس إذا بلغه قول ابن عمر : (الكبائر سبع) .. يقول :
(هُنَّ إلى سبعين أقرب منها إلى سبع)^(٤) .

وقال مرة : (كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة)^(٥) .

(١) روى الطبراني في « الكبير » (١٥٦/٩) عنه قال : (أكبر الكبائر : الإشراف بالله ، والأمن من مكر الله ، والقنوط من رحمة الله ، واليأس من روح الله) ، وسياق المصنف هنا تبع لصاحب « القوت » (١٤٨/٢) ، وجمع غالبها الطبري في « تفسيره » (٥٢/٥/٤) .

(٢) روى الخرائطي في « مساويء الأخلاق » (٢٤٨) عنه قال : (الكبائر : الإشراف بالله ، وقذف المحصنة - قال الراوي : أقبل الدم ؟ قال : نعم ، ورغماً - وقتل النفس ، والفرار يوم الزحف ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، وعقوق الوالدين) .

(٣) روى البخاري في « الأدب المفرد » (٨) عن ابن عمر لا ابن عمرو رضي الله عنهم جميعاً : (هن تسع : الإشراف بالله ، وقتل نسمة ، والفرار من الزحف ، وقذف المحصنة ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، وإلحاد في المسجد ، والذي يستسحر ، ويكاه الوالدين من العقوق ...) الحديث .

(٤) رواه اللالكائي في « اعتقاد أهل السنة » (١٩١٧) .

(٥) رواه اللالكائي في « اعتقاد أهل السنة » (١٩١٦) .

وقال غيره : (كلُّ ما أوعَدَ اللهُ عليه بالنارِ فهو مِنَ الكبائرِ)^(١) .

وقال بعضُ السلفِ : (كلُّ ما أوجبَ الحدَّ في الدنيا فهو كبيرةٌ)^(٢) .

وقيلَ : (إنَّها مبهمَةٌ لا يُعرفُ عددها ، كليلةِ القدرِ ، وساعةِ يومِ الجمعةِ)^(٣) .

وقال ابنُ مسعودٍ لما سُئِلَ عنها : (اقرأ مِنْ أوَّلِ « سورةِ النساءِ » إلى رأسِ ثلاثين آيةً منها عندَ قولِهِ : ﴿ إِن تَحْتَبِئُوا كِبَارًا مَّا تُنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾ ، فكلُّ ما نهى اللهُ عنه في هذهِ السورةِ إلى ههنا فهو كبيرةٌ)^(٤) .

وقال أبو طالبٍ المكيُّ : (الكبائرُ سبعَ عشرةَ ، جمعتها مِنْ جملةِ

(١) كذا في « القوت » (١٤٨/٢) ، وجاء عن ابن عباس رضي الله عنهما وعن سعيد بن جبير كذلك عند الطبري في « تفسيره » (٥٩/٥/٤) .

(٢) رواه الطبري في « تفسيره » (٥٩/٥/٤) عن الضحاك ومجاهد والحسن .

(٣) كذا في « القوت » (١٤٨/٢) ، وقال الشيخ ابن حجر الهيتمي في « الزواجِر » (١٥/١) : (واعتمده الواحدي من أصحابنا في « بسيطه » ، فقال : الصحيح : أن الكبيرة ليس لها حد يعرفها العباد به ، وإلا . . لاقتحم الناس الصغائر واستباحوها ، ولكن الله عز وجل أخفى ذلك عن العباد ليجتهدوا في اجتناب المنهي عنه رجاء أن تجتنب الكبائر ، ونظائره إخفاء الصلاة الوسطى وليلة القدر وساعة الإجابة ونحو ذلك) ، ولم يرتضه ، والمصنف رحمه الله تعالى أورد هذا ولم يستبعده ، بشرط أن يكون قسماً من الأقسام ، لا على إطلاقه ، وكتاب ابن حجر الهيتمي « الزواجِر عن اقرار الكبائر » أجمع كتاب في هذا الباب كما ذكر الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٥٣٥/٨) .

(٤) رواه الطبري في « تفسيره » (٥٢/٥/٤) .

الأخبار، وجملته ما اجتمع من قول ابن عباس وابن مسعود وابن عمر وغيرهم :
أربعة في القلب : وهي الشرك بالله ، والإصرار على معصيته ، والقنوط
من رحمته ، والأمن من مكره .

وأربعة في اللسان : وهي شهادة الزور ، وقذف المحصن ، واليمين
الغموس ؛ وهي التي يحق بها باطلاً أو يطل بها حقاً ، وقيل : هي التي
يقطع بها مال امرئ مسلم باطلاً ولو سواكاً من أراك ، وسميت غموساً لأنها
تغمس صاحبها في النار ، والسحر ؛ وهو كل كلام يغيّر الإنسان وسائر
الأجسام عن موضوعات الخلقة .

وثلاث في البطن : وهي شرب الخمر والمسكر من كل شراب ، وأكل
مال اليتيم ظلماً ، وأكل الربا وهو يعلم .

واثنتان في الفرج : وهما الزنا ، واللواط .

واثنتان في اليدين ؛ وهما القتل ، والسرقه .

وواحدة في الرجلين : وهي الفرار من الزحف ، الواحد من اثنين ،
والعشرة من عشرين .

وواحدة في جميع الجسد : وهي عقوق الوالدين ، قال : وجملته
عقوقهما أن يقسما عليه في حق فلا يبر قسمهما ، وأن يسألاه حاجة فلا
يعطيهما ، وأن يسبّاه فيضربهما ، ويجوعان فلا يطعمهما (١) .

(١) « قوت القلوب » (١٤٨ / ٢) .

هذا ما قاله ، وهو قريب ، ولكن ليس يحصل به تمام الشفاء ؛ إذ يمكن الزيادة عليه والنقصان منه ، فإنه جعل أكل الربا ومال اليتيم من الكبائر ، وهي جناية على الأموال ، ولم يذكر في كبائر النفوس إلا القتل ، فأما فوق العيين وقطع اليدين وغير ذلك من تعذيب المسلمين بالضرب وأنواع العذاب . فلم يتعرض له ، وضرب اليتيم وتعذيبه وقطع أطرافه لا شك في أنه أكبر من أكل ماله .

كيف وفي الخبر : « من الكبائر السببان بالسببة ، ومن الكبائر استطالة الرجل في عرض أخيه المسلم »^(١) ، وهذا زائد على قذف المحصن ؟! وقال أبو سعيد الخدري وغيره من الصحابة : (إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر ، كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر)^(٢) .

وقالت طائفة : (كل عمدة كبيرة)^(٣) ، (وكل ما نهى الله عنه فهو كبيرة)^(٤) .

(١) رواه أبو داود (٤٨٧٧) .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٣/٣) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، وفيه : (من الموبقات) بدل (من الكبائر) ، وعنده (٢٨٥ / ٣) بلفظه من حديث أنس رضي الله عنه .

(٣) قوت القلوب (١٤٨ / ٢) .

(٤) رواه اللالكائي في « اعتقاد أهل السنة » (١٩١٦) .

وكشف الغطاء عن هذا : أن نظر الناظر في السرقة أهى كبيرة أم لا . .
لا يصح ما لم يفهم معنى الكبيرة والمراد بها ؛ كقول القائل : (السرقة حرام
أم لا) لا مطمع في معرفته إلا بعد تقرير معنى الحرام أولاً ، ثم البحث عن
وجوده في السرقة .

فالكبيرة من حيث اللفظ مبهم ، ليس له موضوع خاص في اللغة ولا في
الشرع ، وذلك لأن الكبير والصغير من المضافات ، وما من ذنب إلا وهو
كبير بالإضافة إلى ما دونه ، وصغير بالإضافة إلى ما فوقه ؛ فالمضاجعة مع
الأجنبية كبيرة بالإضافة إلى النظر ، صغيرة بالإضافة إلى الزنا ، وقطع يد
المسلم كبيرة بالإضافة إلى ضربه ، صغيرة بالإضافة إلى قتله .

نعم ، للإنسان أن يطلق على ما توعد بالنار على فعله خاصة اسم
الكبيرة ، ونعني بوصفه بالكبيرة : أن العقوبة بالنار عظيمة ، وله أن يطلق
على ما أوجب الحد عليه مصيراً إلى أن ما عجل عليه في الدنيا عقوبة
واجبة . . عظيم ، وله أن يطلق على ما ورد في نص الكتاب النهي عنه ،
فيقول : تخصيصه بالذكر في القرآن يدل على عظمه ، ثم يكون
عظيماً وكبيراً - لا محالة - بالإضافة ؛ إذ منصوصات القرآن أيضاً تتفاوت
درجاتها .

فهذه الإطلاقات لا حرج فيها ، وما نقل من ألفاظ الصحابة يتردد بين
هذه الجهات ، ولا يبعد تنزيلها على شيء من هذه الاحتمالات .

نعم ، مِنْ المِهْمَاتِ أَنْ تَعْلَمَ مَعْنَى قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ ، وَقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « الصَّلَاةُ الْخَمْسُ كَفَّارَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ إِلَّا الْكَبَائِرَ »^(١) ؛ فَإِنَّ هَذَا إِبْثَاتٌ حَكْمٌ لِلْكَبَائِرِ .

وَالْحَقُّ فِي ذَلِكَ : أَنَّ الذُّنُوبَ مُنْقَسِمَةٌ فِي نَظَرِ الشَّرْعِ إِلَى مَا يَعْلَمُ اسْتِعْظَامُهُ إِيَّاهَا ، وَإِلَى مَا يَعْلَمُ أَنَّهَا مَعْدُودَةٌ فِي الصَّغَائِرِ ، وَإِلَى مَا يَشْكُ فِيهِ فَلَا يُدْرَى حَكْمُهُ .

فَالطَّمَعُ فِي مَعْرِفَةِ حَدِّ حَاصِرٍ أَوْ عَدَدٍ جَامِعٍ مَانِعٍ طَلَبٌ لِمَا لَا يُمْكِنُ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يُمْكِنُ إِلَّا بِالسَّمَاعِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، بَأَنْ يَقُولَ : إِنِّي أَرَدْتُ بِالْكَبَائِرِ عَشْرًا ، أَوْ خَمْسًا ، وَيَفْصِّلُهَا ، فَإِنْ لَمْ يَرُدْ هَذَا ، بَلْ وَرَدَ فِي بَعْضِ الْأَلْفَاظِ : « ثَلَاثٌ مِنَ الْكَبَائِرِ »^(٢) ، وَفِي بَعْضِهَا : « سَبْعٌ مِنَ الْكَبَائِرِ »^(٣) ، ثُمَّ وَرَدَ أَنَّ السَّبْتَيْنِ بِالسَّبَّةِ الْوَاحِدَةِ مِنَ الْكَبَائِرِ^(٤) ، وَهُوَ خَارِجٌ عَنِ السَّبْعِ وَالثَّلَاثِ . . عَلِمَ أَنَّهُ لَمْ يَقْصِدْ بِهِ الْعَدَدَ وَالْحَصَرَ ، فَكَيْفَ يَطْمَعُ فِي عَدَدٍ مَا لَمْ يَعِدِّهِ الشَّرْعُ ؟! وَرَبَّمَا قَصَدَ الشَّرْعُ إِبْهَامَهُ ؛ لِيَكُونَ الْعِبَادُ مِنْهُ عَلَى وَجَلٍ ، كَمَا أَبْهَمَ لَيْلَةُ الْقَدْرِ لِيَعْظُمَ جَدُّ النَّاسِ فِي طَلِبِهَا .

(١) رواه مسلم (٢٣٣) .

(٢) رواه البخاري (٢٦٥٤) ، ومسلم (٨٧) .

(٣) رواه الطبراني في « الأوسط » (٥٧٠٥) .

(٤) رواه أبو داود (٤٨٧٧) .

نعم ، لنا سبيلٌ كُلِّيٌّ يمكننا أن نعرف به أجناسَ الكبائر وأنواعها بالتحقيق ، وأما أعيانها . . فنعرفها بالظن والتقريب ، ونعرف أيضاً أكبر الكبائر ، فأما أصغر الصغائر . . فلا سبيل إلى معرفته .

وبيانه : أننا نعلم بشواهد الشرع وأنوار البصائر جميعاً أن مقصود الشرائع كلها سياقة الخلق إلى جوار الله تعالى وسعادة لقائه ، وأنه لا وصول لهم إلى ذلك إلا بمعرفة الله ومعرفة صفاته وكتبه ورسله ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ أي : ليكونوا عبيداً لي ، ولا يكون العبد عبداً ما لم يعرف ربه بالربوبية ونفسه بالعبودية ، فلا بد أن يعرف نفسه وربه ، فهذا هو المقصود الأقصى ببعثة الأنبياء .

ولكن لا يتم هذا إلا في الحياة الدنيا ، وهو المعنى بقوله عليه الصلاة والسلام : « الدنيا مزرعة الآخرة »^(١) ، فصار حفظ الدنيا أيضاً مقصوداً تابعاً للدين ؛ لأنه وسيلة إليه .

والمتعلق من الدنيا بالآخرة شيئان ؛ النفوس والأموال ، فكل ما يسد باب معرفة الله تعالى فهو أكبر الكبائر ، ويليه ما يسد باب حياة النفوس ،

(١) قال الحافظ العراقي : (لم أجده بهذا اللفظ مرفوعاً ، ورواه العقيلي في « الضعفاء » [٨٤٣/٣] ، وأبو بكر بن لال في « مكارم الأخلاق » من حديث طارق بن أشيم : « نعمت الدار الدنيا لمن تزود منها لآخرته » الحديث ، وإسناده ضعيف) . « إتحاف » (٥٣٩/٨)

ويلي ذلك ما يسدُّ بابَ المعاشِ التي بها حياةُ النفوسِ ، فهذه ثلاثُ مراتبَ .
 فحفظُ المعرفةِ على القلوبِ ، والحياةُ على الأبدانِ ، والأموالِ على
 الأشخاصِ . . ضروريٌّ في مقصودِ الشرائعِ كُلِّها ، وهذه ثلاثةُ أمورٍ
 لا يُتصوَّرُ أنْ يختلفَ فيها المللُ ، فلا يجوزُ أنْ يبعثَ اللهُ نبياً يريدُ ببعثِهِ
 إصلاحَ الخلقِ في دينِهِم ودنياهم ثمَّ يأمرُهُم بما يمنعُهُم عن معرفتِهِ ومعرفةِ
 رسلِهِ ، أو يأمرُهُم بإهلاكِ النفوسِ وإهلاكِ الأموالِ .



فحصلَ مِنْ هَذَا أَنَّ الكِبائرَ على ثلاثِ مراتبَ :

المرتبةُ الأولى : ما يمنعُ مِنْ معرفةِ اللهِ تعالى ومعرفةِ رسلِهِ : وهو
 الكفرُ ، فلا كبيرةَ فوقَ الكفرِ ؛ إذ الحجابُ بينَ العبدِ وبينَ اللهِ هو الجهلُ ،
 والوسيلةُ المقربةُ لَهُ إليه هي العلمُ والمعرفةُ ، وقربهُ بقدرِ معرفتِهِ ، وبعدهُ
 بقدرِ جهلهِ .

ويتلو الجهلُ الذي يسمَّى كفراً الأمنُ مِنْ مكرِ اللهِ ، والقنوطُ مِنْ رحمتهِ ،
 فَإِنَّ هَذَا أيضاً عينُ الجهلِ ، فَمَنْ عرفَ اللهَ . . لم يُتصوَّرْ أنْ يكونَ آمناً ،
 ولا أنْ يكونَ آيساً .

ويتلو هذهِ الرتبةُ البدعُ كُلُّها المتعلقةُ بذاتِ اللهِ وصفاتهِ وأفعالهِ ،
 وبعضُها أشدُّ مِنْ بعضٍ ، وتفاوتُها على حَسَبِ تفاوتِ الجهلِ بها ، وعلى
 حَسَبِ تعلُّقِها بذاتِ اللهِ سبحانه وصفاتهِ ، وبأفعالهِ وشرائعهِ ، وبأوامرهِ

ونواهيهِ ، ومراتبُ ذلك لا تنحصرُ ، وهي تنقسمُ إلى ما يعلمُ أنَّها داخلةٌ تحتَ ذكرِ الكبائرِ المذكورةِ في القرآنِ ، وإلى ما يُعلمُ أنَّه لا يدخلُ ، وإلى ما يُشكُّ فيه ، وطلبُ رفعِ الشكِّ في القسمِ المتوسطِ طمعٌ في غيرِ مطمعٍ .



المرتبةُ الثانيةُ : النفوسُ : إذ ببقائها وحفظها تدومُ الحياةُ ، وتحصلُ المعرفةُ باللهِ ، فقتلُ النفسِ - لا محالةً - مِنَ الكبائرِ ، وإنْ كانَ دونَ الكفرِ ؛ لأنَّ ذلكَ يصدِّمُ عينَ المقصودِ ، وهذا يصدِّمُ وسيلةَ المقصودِ ؛ إذ الحياةُ الدُّنيا لا تُرادُ إلا للآخرةِ ، والتوصلُ إليها بمعرفةِ اللهِ تعالى .

ويتلو هذه الكبيرةُ قطعُ الأطرافِ ، وكلُّ ما يفضي إلى الهلاكِ ، حتَّى الضربُ ، وبعضُها أكبرُ مِنْ بعضٍ .

ويقعُ في هذه الرتبةِ تحريمُ الزنا واللواطِ ؛ لأنَّه لو اجتمعَ الناسُ على الاكتفاءِ بالذكرِ في قضاءِ الشهواتِ . . انقطعَ النسلُ ، ورفعَ الوجودُ^(١) قريبُ مِنْ قطعِ الوجودِ ، وأمَّا الزنا . . فإنَّه لا يفوتُ أصلَ الوجودِ ، ولكنْ يشوشُ الأنسابَ ، ويطلُّ التوارثَ والتناصرَ ، وجملةٌ مِنَ الأمورِ التي لا ينتظمُ العيشُ إلا بها ، بل كيفَ يتمُّ النظامُ معَ إباحةِ الزنا ولا ينتظمُ أمورُ البهائمِ ما لمَ يتميَّزِ الفحلُ منها بإناتٍ يختصُّ بها عن سائرِ الفحولِ ؟! ولذلك لا يتصورُ أن يكونَ الزنا مباحاً في شرعٍ قُصِدَ به الإصلاحُ .

(١) في غير (أ ، س) : (ودفع الوجود) بدل (ورفع الوجود) .

وينبغي أن يكون الزنا في الرتبة دون القتل ؛ لأنه ليس يفوت دوام الوجود ، ولا يمنع أصله ، ولكن يفوت تمييز الأنساب ، ويحرك من الأسباب ما يكاد يفضي إلى القتال ، وينبغي أن يكون أشد من اللواط ؛ لأن الشهوة داعية إليه من الجانبين ، فيكثر وقوعه ، ويعظم أثر الضرر بكثرتِه .



المرتبة الثالثة : الأموال : فإنها معاش الخلق ، فلا يجوز تسليط الناس على تناولها كيف شاؤوا حتى بالاستيلاء والسرقة وغيرهما ، بل ينبغي أن تحفظ لتبقى ببقائها النفوس ، إلا أن الأموال إذا أخذت . . أمكن استردادها ، وإن أكلت . . أمكن تغريمها ، فليس يعظم الأمر فيها .

نعم ، إذا جرى تناولها بطريق يعسر التدارك له . . فينبغي أن يكون ذلك من الكبائر ، وذلك بأربع طرق :

أحدها : الخفية ، وهي السرقة ، فإنه إذا لم يطلع عليه غالباً . . فكيف يتدارك ؟

الثاني : أكل مال اليتيم ، وهذا أيضاً من الخفية ، وأعني به في حق الولي والقيّم ، فإنه مؤتمن فيه ، وليس له خصم سوى اليتيم ، وهو صغير لا يعرفه ، فتعظيم الأمر فيه واجب ، بخلاف الغصب ؛ فإنه ظاهر يعرف ، وبخلاف الخيانة في الوديعة ؛ فإن المودع خصم فيه ينتصف لنفسه .

الثالث : تفويتها بشهادة الزور .

الرابع : أخذُ الوديعةِ وغيرها باليمينِ الغموسِ .

فإنَّ هذه طرقٌ لا يمكنُ فيها التداركُ ، ولا يجوزُ أنْ تختلفَ الشرائعُ في تحريمِها أصلاً ، وبعضُها أشدُّ مِنْ بعضٍ ، وكلُّها دونَ الرتبةِ الثانيةِ المتعلقةِ بالنفوسِ .

وهذه الأربعةُ جديةٌ بأنْ تكونَ مرادةً بالكبائرِ ، وإنْ لمْ يُوجبِ الشرعُ الحدَّ في بعضها ، ولكنْ كَثُرَ الوعيدُ عليها ، وعظَّمْ في مصالحِ الدنيا تأثيرُها .

وأما أكلُ الربا . . فليسَ فيه إلا أكلُ مالِ الغيرِ بالتراضي ، معَ الإخلالِ بشرطِ وضعه الشرعُ ، ولا يبعدُ أنْ تختلفَ الشرائعُ في مثله ، وإذا لمْ يُجعلِ الغصبُ الذي هو أكلُ مالِ الغيرِ بغيرِ رضاهُ وبغيرِ رضا الشرعِ مِنَ الكبائرِ . . فأكلُ الربا أكلُ برضا المالكِ ، ولكنْ دونَ رضا الشرعِ ، وإنْ عظَّمْ الشرعُ الربا بالزجرِ عنه . . فقدْ عظَّمْ أيضاً الظلمَ بالغصبِ وغيره وعظَّمْ الخيانةَ ، والمصيرُ إلى أنْ أكلَ دانيقٍ بالخيانةِ أو الغصبِ مِنَ الكبائرِ فيه نظراً ، وذلكَ واقعٌ في مظنةِ الشكِّ ، وأكثرُ ميلِ الظنِّ إلى أنَّه غيرُ داخِلٍ تحتِ الكبائرِ ، بلْ ينبغي أنْ تختصَّ الكبيرةُ بما لا يجوزُ اختلافُ الشرائعِ فيه ؛ ليكونَ ضرورياً في الدينِ .



فيبقى ممَّا ذكره أبو طالبٍ المكيُّ : القذفُ ، والشربُ ، والسحرُ ،

والفراؤ من الزحف ، وعقوق الوالدين :

أما الشرب لما يزيل العقل : فهو جدير بأن يكون من الكبائر ، وقد دلّ عليه تشديدات الشرع وطريق النظر أيضاً ؛ لأنّ العقل محفوظ كما أنّ النفس محفوظة ، بل لا خير في النفس دون العقل ، فإزالة العقل من الكبائر ، ولكن هذا لا يجري في قطرة من الخمر ، ولا شك في أنّه لو شرب ماء فيه قطرة من الخمر . . لم يكن ذلك كبيرة ، وإنّما هو شرب ماء نجس ، فالقطرة وحدها في محلّ الشك ، وإيجاب الشرع الحدّ به يدلّ على تعظيم أمره ، فيعدّ ذلك من الكبائر بالشرع ، وليس في القوّة البشريّة الوقوف على جميع أسرار الشرع ، فإنّ ثبت إجماع في أنّه كبيرة . . وجب الاتباع ، وإلا . . فالتوقف فيه مجال^(١) .



وأما القذف : فليس فيه إلا تناول الأعراض ، والأعراض دون الأموال في الرتبة ولتناولها مراتب ، وأعظمها تناول بالقذف بالإضافة إلى فاحشة الزنا ، وقد عظم الشرع أمره ، وأظنّ ظناً غالباً أنّ الصحابة كانوا يعدّون كلّ ما يجب الحدّ به كبيرة ، فهو بهذا الاعتبار لا تكفّره الصلوات الخمس ، وهو الذي نريدّه بالكبيرة الآن ، ولكن من حيث أنّه يجوز أن تختلف فيه

(١) وقال ابن حجر الهيتمي في « الزواجر » (٣١١/٢) : (أما شرب الخمر ولو قطرة منها . . فكبيرة إجماعاً) .

الشرائعُ فالقياسُ بمجرّده لا يدلُّ على كبره وعظمه ، بل كان يجوزُ أن يردَّ الشرعُ بأنَّ العدلَ الواحدَ إذا رأى إنساناً يزني . . فله أن يشهدَ عليه ، ويُجلدُ المشهودُ عليه بمجرّدِ شهادته ، فإن لم تُقبلْ شهادته . . فحدّه ليسَ ضرورياً في مصالحِ الدنيا ، وإن كانَ على الجملةِ مِنَ المصالحِ الظاهرةِ الواقعةِ في رتبةِ الحاجاتِ .

فإذا ؛ هذا أيضاً يلتحقُ بالكبائرِ في حقِّ مَنْ عرفَ حكمَ الشرعِ ، فأما مَنْ ظنَّ أنَّ له أن يشهدَ وحده ، أو ظنَّ أنَّه يساعدهُ على الشهادةِ غيره . . فلا ينبغي أن يُجعلَ في حقِّهِ مِنَ الكبائرِ .



وأما السحرُ : فإن كانَ فيه كفرٌ . . فكبيرةٌ ، وإلا . . فعظمُهُ بحسبِ الضررِ الذي يتولّدُ منه ؛ مِنْ هلاكِ نفسٍ ، أو مرضٍ ، أو غيره .



وأما الفرائضُ مِنَ الزحفِ وعقوقِ الوالدينِ : فهذا أيضاً ينبغي أن يكونَ مِنْ حيثُ القياسُ في محلِّ التوقُّفِ ، وإذا قُطِعَ بأنَّ سبَّ الناسِ بكلِّ شيءٍ سوى الزنا وضربهم والظلمَ لهم بغضبِ أموالهم وإخراجهم مِنْ مساكنهم وبلادهم وإجلالهم مِنْ أوطانهم ليسَ مِنَ الكبائرِ ؛ إذ لم يُنقلْ ذلكَ في السبعِ عشرةِ كبيرةً ، وهو أكثرُ ما قيلَ فيه . . فالتوقُّفُ في هذا أيضاً غيرُ بعيدٍ ، ولكنَّ الحديثَ يدلُّ على تسميتهما كبيرةً ، فلتلحقُ بالكبائرِ .

فإذا ؛ رجَعَ حاصلُ الأمرِ إلى أَنَا نعني بالكبيرة : ما لا تكفرُهُ الصلواتُ الخمسُ بحكمِ الشرع ، وذلك ممَّا انقسمَ إلى ما عَلِمَ أَنَّهُ لا تكفرُهُ قطعاً ، وإلى ما ينبغي أن تكفرُهُ ، وإلى ما يُتوقَّفُ فيه ، والمتوقَّفُ فيه بعضُهُ مَظنونٌ بالنفي والإثبات ، وبعضُهُ مشكوكٌ فيه ، وهو شكٌّ لا يزيلُهُ إلا نصُّ كتابٍ أو سنَّةٌ ، وإذ لا مطمعَ فيهما . . فطلبُ رفعِ الشكِّ فيهما محالٌ .



فإن قلتَ : فهذا إقامةُ برهانٍ على استحالةِ معرفةِ حدِّها ، فكيف يَرُدُّ الشرعُ بما يستحيلُ معرفةُ حدِّه ؟

فاعلم : أن كلَّ ما لا يتعلَّقُ به حكمٌ في الدنيا فيجوزُ أن يتطرَّقَ إليه الإبهامُ ؛ لأنَّ دارَ التكليفِ هي دارُ الدنيا ، والكبيرةُ على الخصوصِ لا حكمَ لها في الدنيا مِنْ حيثُ إنَّها كبيرةٌ ، بل كلُّ موجباتِ الحدودِ معلومةٌ بأسمائها ؛ كالسرقةِ والزنا وغيرهما ، وإنَّما حكمُ الكبيرةِ أنَّ الصلواتِ الخمسَ لا تكفرُها ، وهذا أمرٌ يتعلَّقُ بالآخرةِ ، والإبهامُ أليقُ به ؛ حتَّى يكونَ الناسُ على وَجَلٍ وحذرٍ ، فلا يتجرَّؤونَ على الصغائرِ اعتماداً على الصلواتِ الخمسِ ، وكذلك اجتنابُ الكبائرِ يكفرُ الصغائرَ بموجبِ قوله تعالى : ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ .

ولكنَّ اجتنابَ الكبيرةِ إنَّما يكفرُ الصغيرةَ إذا اجتنَبَها مع القدرةِ والإرادةِ ، كَمَنْ يَتِمَكَّنُ مِنْ امْرَأَةٍ وَمِنْ مَوَاقِعِهَا ، فَيَكْفُ نَفْسَهُ عَنِ الْوَقَاعِ وَيَقْتَصِرُ عَلَى

نظرٍ أو لمسٍ ؛ فَإِنَّ مجاهدةَ نَفْسِهِ فِي الكَفِّ عَنِ الوقاعِ أَشَدُّ تَأْثِيرًا فِي تنويرِ قلبِهِ مِنْ إقدامِهِ عَلَى النظرِ فِي إِظْلَامِهِ ، فهذا معنى تكفيرِهِ ، فَإِنْ كَانَ عَيْنِيًّا ، أَوْ لَمْ يَكُنْ امتناعُهُ إِلَّا بالضرورةِ للعجزِ ، أَوْ كَانَ قَادِرًا وَلَكِنْ امتنعَ لخوفِ أمرٍ آخَرَ . فهذا لَا يصلحُ للتكفيرِ أصلاً .

وَكُلُّ مَنْ لَا يَشْتَهِي الخمرَ بطبعِهِ ، وَلَوْ أُبِيحَ لَهُ . . لما شربَهُ ؛ فاجتنابهُ لَا يَكْفُرُ عَنْهُ الصغائرُ الَّتِي هِيَ مِنْ مَقْدَمَاتِهِ ؛ كَسَمَاعِ المَلاهي والأوتارِ .

نعم ، مَنْ يَشْتَهِي الخمرَ وَسَمَاعَ الأوتارِ ، فَيَمْسِكُ نَفْسَهُ بِالْمَجَاهِدَةِ عَنِ الخمرِ ، وَيُطْلِقُهَا فِي السَّمَاعِ . . فَمَجَاهِدَةُ النَفْسِ بِالْكَفِّ رَبَّمَا تَمَحُّو عَنْ قَلْبِهِ الظلمةُ الَّتِي ارْتَفَعَتْ إِلَيْهِ مِنْ مَعْصِيَةِ السَّمَاعِ .

وَكُلُّ هَذِهِ أَحْكَامٌ أُخْرَوِيَّةٌ يَجُوزُ أَنْ يَبْقَى بَعْضُهَا فِي مَحَلِّ الشُّكِّ ، وَتَكُونَ مِنَ الْمُتَشَابِهَاتِ ، وَلَا يُعْرَفُ تَفْصِيلُهَا إِلَّا بِالنَّصِّ ، وَلَمْ يَرِدِ النَّصُّ بَعْدِي وَلَا حَدٌّ جَامِعٌ ، بَلْ وَرَدَ بِالْفَاطِ مَتَفَرِّقَةٌ مُخْتَلِفَةٌ ، فَقَدْ رَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ : « الصَّلَاةُ إِلَى الصَّلَاةِ كَفَّارَةٌ ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ كَفَّارَةٌ ، إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ : إِشْرَاكِ بِاللَّهِ ، وَتَرْكِ السَّنَةِ ، وَنَكْثِ الصَّفَقَةِ » ، قِيلَ : وَمَا تَرْكُ السَّنَةِ ؟ قَالَ : « الْخُرُوجُ مِنَ الْجَمَاعَةِ ، وَنَكْثُ الصَّفَقَةِ أَنْ يَبَايَعَ رَجُلًا ثُمَّ يَخْرُجَ عَلَيْهِ بِالسَّيْفِ يَقَاتِلُهُ »^(١) ، فَهَذَا

(١) رواه أحمد في « المسند » (٢٢٩/٢) ، والحاكم في « المستدرک » (٢٥٩/٤) .

وأمثاله من الألفاظ لا يحيط بالعدد كله ، ولا يدلُّ على حدٍّ جامع ، فيبقى -
لا محالة - مبهماً .



فإن قلت : الشهادة لا تقبل إلا ممن يجتنب الكبائر ، والورع عن
الصغائر ليس شرطاً في قبول الشهادة ، وهذا من أحكام الدنيا .

فاعلم : أننا لا نخصّص ردّ الشهادة بالكبائر ، فلا خلاف في أن من يسمع
الملاهي ، ويلبس الديباج ، ويتختم بخاتم الذهب ، ويشرب من أواني
الذهب والفضة . . لا تقبل شهادته ، ولم يذهب أحد إلى أن هذه الأمور من
الكبائر .

وقال الشافعي رضي الله عنه : (إذا شرب الحنفي النيذ . . حددته ولم
أردّ شهادته) ، فقد جعله كبيرة بإيجاب الحد عليه ، ولم يردّ به الشهادة ،
فدلّ على أن الشهادة نفيّاً وإثباتاً لا تدور على الصغائر والكبائر .

بل كلّ الذنوب تقدح في العدالة ، إلا ما لا يخلو الإنسان عنه غالباً
بضرورة مجاري العادات ؛ كالغيبة ، والتجسس ، وسوء الظن ، والكذب
في بعض الأقوال ، وسماع الغيبة ، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن
المنكر ، وأكل الشبهات ، وسبّ الولد والغلام ، وضربهما بحكم الغضب
زائداً على حدّ المصلحة ، وإكرام السلاطين الظلمة ، ومصادقة الفجار ،
والتكاسل عن تعليم الأهل والولد جميع ما يحتاجون إليه من أمر الدين ؛

فهذه ذنوبٌ لا يُصوَّرُ أن ينفكَّ الشاهدُ عن قليلها أو كثيرها إلا بأن يعتزلَ الناسَ ، ويتجرَّدَ لأمرِ الآخرةِ ، ويجاهدَ نفسه مدَّةً ، بحيث يبقى على سجيته^(١) مع المخالطة بعد ذلك ، ولو لم يُقبل إلا قولٌ مثله . . لعزَّ وجوده ، وبطلت الأحكامُ والشهاداتُ ، وليس لبسُ الحريرِ ، وسماعُ الملامي ، واللعبُ بالنردِ ، ومجالسةُ أهلِ الشُّربِ في وقتِ الشربِ ، والخلوةُ بالأجنياتِ ، وأمثالُ هذه الصغائرِ . . مِنْ هذا القبيلِ ، فإلى مثلِ هذا المنهاجِ ينبغي أن يُنظرَ في قبولِ الشهادةِ وردِّها ، لا إلى الكبيرة والصغيرة .

ثمَّ آحادُ هذه الصغائرِ التي لا تُردُّ الشهادةُ بها . . لو واطبَ عليها لأثَّرتُ في ردِّ الشهادةِ ؛ كمن اتخذ الغيبةَ وثلبَ الناسِ عادةً ، وكذلك مجالسةُ الفجَّارِ ومصادقتهم .

والصغيرةُ تكبرُ بالمواظبةِ ؛ كما أنَّ المباحَ يصيرُ صغيرةً بالمواظبةِ ، كاللعبِ بالشطرنجِ ، والترنُّمِ بالغناءِ على الدوامِ ، وغيره .

فهذا بيانُ حكمِ الصغائرِ والكبائرِ .



(١) في غير (أ) : (سمته) بدل (سجيته) .

بيان كيفية توزع الدرجات والدركات في الآخرة على الحسنات والسيئات في الدنيا

اعلم : أنَّ الدنيا مِنْ عالمِ الملكِ والشهادةِ ، والآخرةُ مِنْ عالمِ الغيبِ
والملكوتِ ، وأعني بالدنيا : حالتكَ قبلَ الموتِ ، وبالآخرةِ : حالتكَ بعدَ
الموتِ ، فدنياكَ وآخرتكَ صفاتُكَ وأحوالُكَ ، يسمَّى القريبُ الداني منها
دنياً ، والمتأخراً آخرةً .

ونحنُ الآنَ نتكلَّمُ مِنَ الدنيا في الآخرةِ ، فإنَّ الآنَ في الدنيا وهي عالمُ
الملكِ ، وغرضنا شرحُ الآخرةِ وهي عالمُ الملكوتِ ، ولا يُتصوَّرُ شرحُ عالمِ
الملكوتِ في عالمِ الملكِ إلا بضربِ الأمثالِ ، ولذلك قالَ تعالى : ﴿ وَتِلْكَ
الْأَمْثَلُ نُصْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ ، وهذا لأنَّ عالمَ الملكِ
نومٌ بالإضافةِ إلى عالمِ الملكوتِ ، ولذلك قالَ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ :
« النَّاسُ نِيَامٌ ، فإذا ماتوا . انتبهوا » ^(١) ، وما سيكونُ في اليقظةِ لا يتبيَّنُ لك
في النومِ إلا بضربِ الأمثالِ المحوَّجةِ إلى التعبيرِ ، فكذلكَ ما سيكونُ في

(١) قال المحافظ العراقي : (لم أجده مرفوعاً ، وإنما يعزى إلى علي بن أبي طالب) ، قال
الحافظ الزبيدي : (وهكذا أورده الشريف الموسوي في « نهج البلاغة » من كلام أمير
المؤمنين ، وذكره أبو نعيم في « الحلية » [٥٢/٧] في ترجمة سفيان الثوري) .
« إنحاف » (٥٤٨/٨) .

يقظة الآخرة لا يتبين في نوم الدنيا إلا في كسوة الأمثال ، وأعني بكسوة الأمثال : ما تعرفه من علم التعبير^(١) .

ويكفيك منه إن كنت فطناً ثلاثة أمثلة :

فقد جاء رجل إلى ابن سيرين^(٢) فقال : رأيت كأن في يدي خاتماً أختم به أفواه الرجال وفروج النساء ، فقال : إنك مؤذن تؤذن في رمضان قبل طلوع الفجر ، قال : صدقت .

وجاء رجل آخر فقال : رأيت كأنني أصب الزيت في الزيتون ، فقال : إن كان تحتك جارية اشتريتها . ففتش عن حالها ؛ فإنها أمك سبيت في صغرك ؛ لأن الزيتون أصل الزيت ، فهو رد إلى الأصل ، فنظر ، فإذا جاريته كانت أمه وقد سبيت في صغره .

وقال له آخر : رأيت كأنني أفلد الدر في أعناق الخنازير ، فقال : إنك تعلم الحكمة غير أهلها ، فكان كما قال .

والتعبير من أوله إلى آخره مثال يعرفك طريق ضرب الأمثال ، وإنما نعني بالمثال أداء المعنى في صورة إن نظر إلى معناه . . . وجد صادقاً ، وإن نظر إلى صورته . . . وجد كاذباً ، فالمؤذن إن نظر إلى صورة الخاتم والختم به على

(١) انظر للمصنف « مشكاة الأنوار » (ص ٥٢) .

(٢) التابعي البصري الثقة ، رأس المعبرين رحمه الله تعالى ، وكان يضاهي الحسن في علمه وورعه ، وفيه القول المشهور الذي يستدل به على (أو) للتخيير : جالس الحسن أو ابن سيرين . « إتحاف » (٨ / ٥٤٨) .

الفروج .. رآه كاذباً ؛ فإنه لم يختم به قط ، وإن نظر إلى معناه .. وجده صادقاً ؛ إذ قد صدر منه روح الختم ومعناه ، وهو المنع الذي يراود الختم له .
وليس للأنبياء أن يتكلموا مع الخلق إلا بضرب الأمثال ؛ لأنهم كلفوا أن يكلموا الناس على قدر عقولهم ، وقدر عقولهم أنهم في النوم ، والنائم لا يكشف له عن شيء إلا بمثال ، فإذا ماتوا .. انتبهوا وعرفوا أن المثل صادق .

ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن »^(١) ، وهو من المثال الذي لا يعقله إلا العالمون ، فأما الجاهل .. فلا يجاوز قدره ظاهر المثال ؛ لجهله بالتفسير الذي يسمى تأويلاً ؛ كما يسمى تفسير ما يرى من الأمثلة في النوم تعبيراً ، فيثبت الله تعالى يداً وإصبعاً ، تعالى الله عن قوله علواً كبيراً .

وكذلك في قوله صلى الله عليه وسلم : « إن الله خلق آدم على صورته »^(٢) ، فإنه لا يفهم من الصورة إلا اللون والشكل والهيئة ، فيثبت الله تعالى مثل ذلك ، تعالى الله عن قوله علواً كبيراً .

ومن ههنا زلّ من زلّ في صفات الإلهية ، حتّى في الكلام ، وجعلوه صوتاً وحرفاً ، إلى غير ذلك من الصفات ، والقول فيه يطول .

(١) رواه مسلم (٢٦٥٤) .

(٢) رواه مسلم (١١٥/٢٦١٢) ، ويبيّن بعض سرّه في « مشكاة الأنوار » (ص ٥٩) ، وسيأتي قريباً الحديث عنه .

وكذلك قد يرد في أمر الآخرة ضرب أمثلة يكذب بها الملحّد ؛ لجمود نظره على ظاهر المثال ، وتناقضه عنده ؛ كقوله صلى الله عليه وسلم : « يُوتى بالموت يوم القيامة في صورة كبش أملح فيذبح »^(١) ، فيثور الملحّد الأحمق ويكذب به ، ويستدل به على كذب الأنبياء ، ويقول : يا سبحان الله ! الموت عرض ، والكبش جسم ، فكيف ينقلب العرض جسماً ؟ وهل هذا إلا محال ؟ !

ولكنّ الله تعالى عزل هؤلاء الحمقى عن معرفة أسرارهِ فقال : ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ ولا يدري المسكين أنّ مَنْ قَالَ : رأيتُ في منامي أنّه جيء بكبش ، وقيل : هذا هو الوباء الذي في البلد ، وذبح ، فقال المعبرُ : صدقت ، والأمر كما رأيت ، وهذا يدلّ على أنّ هذا الوباء ينقطع ولا يعود قط ؛ لأنّ المذبوح وقع اليأس عنه .

فإذا ؛ المعبرُ صادق في تعبيرهِ^(٢) ، وهو صادق في رؤيته ، وترجع حقيقة إلى أنّ الملك الموكّل بالرؤيا - وهو الذي يُطلّع الأرواح عند النوم على ما في اللوح المحفوظ - عرفه ما في اللوح المحفوظ بمثال ضربه له ؛ لأنّ النائم إنّما يحتمل المثال ، فكان مثاله صادقاً ، وكان معناه صحيحاً .

فالرسل أيضاً إنّما يكلمون الناس في الدنيا ، وهي بالإضافة إلى الآخرة

(١) رواه البخاري (٤٧٣٠) ، ومسلم (٢٨٤٩) .

(٢) في غير (د ، س) : (في تصديقه) بدل (في تعبيره) .

نوم ، فيوصلون المعاني إلى أفهامهم بالأمثلة ؛ حكمة من الله ، ولطفاً بعباده ، وتيسيراً لإدراك ما يعجزون عن إدراكه دون ضرب المثل ، فقولُهُ : « يُؤْتَى بِالْمَوْتِ فِي صُورَةٍ كَبِشٍ أَمْلَحَ » مثالٌ ضربهُ ليوصلَ إلى الأفهام حصولَ اليأسِ مِنَ الْمَوْتِ ، وَقَدْ جُبِلَتِ الْقُلُوبُ عَلَى التَّأَثُّرِ بِالْأَمْثَلَةِ ، وَثُبُوتِ الْمَعَانِي فِيهَا بِوَسْطِطِهَا ، وَلِذَلِكَ عَبَّرَ الْقُرْآنُ بِقَوْلِهِ : ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ عَنْ نَهَايَةِ الْقُدْرَةِ ، وَعَبَّرَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَوْلِهِ : « قَلْبُ الْمُؤْمِنِ بَيْنَ إصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ »^(١) عَنْ سُرْعَةِ التَّقْلِيلِ ، وَقَدْ أَشْرْنَا إِلَى حِكْمَةِ ذَلِكَ فِي كِتَابِ قَوَاعِدِ الْعُقَائِدِ مِنْ رُبْعِ الْعِبَادَاتِ ، فَلنَرْجِعِ الْآنَ إِلَى الْغَرَضِ .

فَالْمَقْصُودُ : أَنَّ تَعْرِيفَ تَوَزُّعِ الدَّرَجَاتِ وَالدَّرَكَاتِ عَلَى الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَفْهَمَ إِلَّا بِضَرْبِ الْأَمْثَالِ ، فَلْيَفْهَمِ مِنَ الْمَثَالِ الَّذِي نَضْرِبُهُ مَعْنَاهُ لَا صُورَتُهُ ، فَنَقُولُ :

النَّاسُ فِي الْآخِرَةِ يَنْقَسِمُونَ أَصْنَافاً ، وَتَتَفَاوَتْ دَرَجَاتُهُمْ وَدَرَكَاتُهُمْ فِي السَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ تَفَاوُتاً لَا يَدْخُلُ تَحْتَ الْحَصْرِ ، كَمَا تَفَاوَتُوا فِي سَعَادَةِ الدُّنْيَا وَشَقَاوَتِهَا ، وَلَا تَفَارِقُ الْآخِرَةُ الدُّنْيَا فِي هَذَا الْمَعْنَى أَصلاً أَلْبَتَ ؛ فَإِنَّ مَدَبَّرَ الْمَلِكِ وَالْمَلَكُوتِ وَاحِداً لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَسَنَّتُهُ الصَّادِرَةُ عَنْ إِرَادَتِهِ الْأَزَلِيَّةِ مَطْرَدَةٌ لَا تَبْدِيلَ لَهَا ، إِلَّا أَنَّا إِنْ عَجَزْنَا عَنْ إِحْصَاءِ آحَادِ الدَّرَجَاتِ . . . فَلَا نَعْجِزُ عَنْ إِحْصَاءِ الْأَجْنَاسِ ، فَنَقُولُ :

(١) تقدم قريباً .

الناس في الآخرة ينقسمون بالضرورة إلى أربعة أقسام : هالكين ، ومعذبين ، وناجين ، وفائزين^(١) .

ومثاله في الدنيا : أن يستولي ملك من الملوك على إقليم ، فيقتل بعضهم فهم الهالكون ، ويعذب بعضهم مدة ولا يقتلهم فهم المعذبون ، ويخلي بعضهم فهم الناجون ، ويخلع على بعضهم فهم الفائزون .

فإن كان الملك عادلاً . . لم يقسمهم كذلك إلا باستحقاق ، فلا يقتل إلا جاحداً لاستحقاقه الملك ، معانداً له في أصل الدولة ، ولا يعذب إلا من قصر في خدمته مع الاعتراف بملكه وعلو درجته ، ولا يخلي إلا معترفاً له برتبة الملك لكنه لم يقصر ليعذب ولم يخدم ليخلع عليه ، ولا يخلع إلا على من أبلى عذره في الخدمة والنصرة^(٢) .

ثم ينبغي أن تكون خلع الفائزين متفاوتة الدرجات بحسب درجات خدمتهم ، وإهلاك الهالكين إما تخفيفاً بحز الرقبة ، أو تنكيلاً بالمثلة بحسب

(١) لأنهم لا يخلون عن سعادة أو شقاوة ، والشقاوة إن كانت بالشرك والكفر وجحود صفات الربوبية . . فهم الهالكون ، فإن كان مع وجود الإقرار بالربوبية نوع عصيان ومخالفة . . فهم المعذبون ، والسعادة إن كانت بالإيمان بالله وبما جاء به الرسل . . فهم الناجون ، فإن كان مع ذلك نبذ الدنيا وإقبال على الله بالكلية . . فهم الفائزون ، فهذا وجه الحصر في الأقسام المذكورة . « إتحاف » (٥٥١ / ٨) .

(٢) أبلى في قوله : (أبلى عذره) بمعنى أظهر ؛ كما يقال : فلان أبلى في الحرب ؛ أي : أظهر بأسه ، وقال المطرزي في « المغرب » (ب ل ي) : (وقوله : أبلى عذره إلا أنه مجارف ؛ أي : اجتهد في العمل إلا أنه مجدود غير مرزوق) .

درجات معانداتهم ، وتعذيب المعذبين في الخفة والشدة ، وطول المدة وقصرها ، واتحاد أنواعها واختلافها . . بحسب درجات تقصيرهم ، فتنقسم كل رتبة من هذه الرتب إلى درجات لا تحصى ولا تنحصر ، فكَذَلِكَ فَافْهَمُ أَنَّ النَّاسَ فِي الْآخِرَةِ هَكَذَا يَتَفَاوَتُونَ ؛ فَمِنْ هَالِكٍ ، وَمِنْ مُعَذَّبٍ مَدَّةً ، وَمِنْ نَاجٍ يَحُلُّ فِي دَارِ السَّلَامَةِ ، وَمِنْ فَائِزٍ .

والفائزون ينقسمون إلى مَنْ يَحْلُونَ فِي جَنَاتِ عَدْنٍ ، أَوْ جَنَاتِ الْمَأْوَى ، أَوْ جَنَاتِ الْفِرْدَوْسِ ، وَالْمُعَذَّبُونَ يَنْقَسِمُونَ إِلَى مَنْ يُعَذَّبُ قَلِيلاً ، وَإِلَى مَنْ يُعَذَّبُ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَى سَبْعَةِ أَلْفِ سَنَةٍ ، وَذَلِكَ آخِرُ مَنْ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ كَمَا وَرَدَ فِي الْخَبَرِ^(١) ، وَكَذَلِكَ الْهَالِكُونَ الْآيِسُونَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَتَفَاوَتُ دَرَكَاتُهُمْ ، وَهَذِهِ الدَّرَجَاتُ وَالدَرَكَاتُ بِحَسَبِ اخْتِلَافِ الطَّاعَاتِ وَالْمَعَاصِي ، فَلْنَذْكُرْ كَيْفِيَّةَ تَوْزُعِهَا عَلَيْهَا .



(١) هذا المعنى عند صاحب « القوت » (١٥٠ / ٢) ولفظه : (وقد جاء في الخبر : « آخر من يخرج من النار وهو أيضاً آخر من يدخل الجنة » ، فلعله - والله أعلم - بعد سبعة آلاف سنة) ، وكان قد روى قبله خبراً عن أبي سعيد الخدري أو غيره من الصحابة كما ذكر : (والله ؛ لا يخرج عبد من النار بعد أن دخلها حتى يقيم فيها سبعة آلاف سنة) .

وحديث « آخر من يدخل الجنة » دون ذكر المدة عند مسلم (١٨٧) ، وجاء عند الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص ١٣٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « وأطولهم مكثاً فيها مثل الدنيا من يوم خلقت إلى يوم أقتت ، وذلك سبعة آلاف سنة » .

أَمَّا الرتبة الأولى : وهي الهلاك :

ونعني بالهلاك : الآيسين من رحمة الله تعالى ؛ إذ الذي قتله الملك في المثال الذي ضربناه آيس من رضا الملك وإكرامه ، فلا تغفل عن معاني المثال .

وهذه الدرجة لا تكون إلا للجاحدين والمعرضين ، المتجردين للدنيا ، المكذبين بالله ورسوله وكتبه ؛ فإن السعادة الأخروية في القرب من الله والنظر إلى وجهه ، وذلك لا يُنال أصلاً إلا بالمعرفة التي يعبر عنها بالإيمان والتصديق ، والجاحدون هم المنكرون ، والمكذبون هم الآيسون من رحمة الله تعالى أبد الآباد ، وهم الذين يكذبون برّب العالمين وبأنبيائه المرسلين ، وهم عن ربهم يومئذ محجوبون لا محالة ، وكل محجوب عن محبوبه فمحول بينه وبين ما يشتهي ، فهو - لا محالة - يكون محترقاً مع جهنم بنار الفراق .

ولذلك قال العارفون : (ليس خوفاً من نار جهنم ، ولا رجاءاً للحدود العين ، وإنما مطلبنا اللقاء ، ومهربنا من الحجاب فقط)^(١) .

وقالوا : من يعبد الله لعوض . . فهو لثيم ؛ كأن يعبدّه لطلب جنته أو

(١) وهذا كقول علي بن الموفق الذي رواه البيهقي في « الشعب » (٤٢٧) : (اللهم ؛ إن كنت تعلم أنني أعبدك خوفاً من نارك ، فعذبني بها ، وإن كنت تعلم أنني أعبدك حباً مني لجنتك وشوقاً إليها . . فاحرمنيها ، وإن كنت تعلم أنني إنما أعبدك حباً مني لك وشوقاً إلى وجهك الكريم . . فأبحنه مرةً واصنع ما شئت) .

لخوفِ ناره ، بل العارفُ يعبدُهُ لذاته ، فلا يطلبُ إلا ذاته فقط ، فأما الحورُ العينُ والفواكهُ . . فقد لا يشتهيها ، وأما النارُ . . فقد لا يتقيها ؛ إذ نارُ الفراقِ إذا استولت . . ربّما غلبتِ النارُ المحرقةُ للأجسامِ ، فإنَّ نارَ الفراقِ هي نارُ الله الموقدة ، التي تطلعُ على الأفئدة ، ونارُ جهنّم لا شغلَ لها إلا مع الأجسامِ ، وألمُ الأجسامِ يستحقرُّ مع ألمِ الفؤادِ ، ولذلك قيل^(١) : [من المنسرح

ففي فؤادِ الْمُحِبِّ نارُ جَوَى أَحَرُّ نارِ الْجَحِيمِ أَبْرَدُهَا

ولا ينبغي أن تنكرَ هذا في عالمِ الآخرة ؛ إذ له نظيرٌ مشاهدٌ في عالمِ الدنيا ، فقد رُئي مَنْ غلبَ عليه الوجدُ فعدا على النارِ ، وعلى أصولِ القصبِ الجارحةِ للقدمِ ، وهو لا يحسُّ به لفرطِ غلبةِ ما في قلبه^(٢) ، وترى الغضبانَ يستولي عليه الغضبُ في القتالِ ، فتصيبُهُ جراحاتٌ وهو لا يشعرُ بها في الحالِ ؛ لأنَّ الغضبَ نارٌ في القلبِ ، قال رسولُ الله صَلَّى اللهُ عليه وسلّمَ : « الغضبُ قطعةٌ مِنَ النارِ »^(٣) .

واحتراقُ الفؤادِ أشدُّ من احتراقِ الأجسادِ ، والأشدُّ يطلُّ الإحساسَ بالأضعفِ كما تراه ، فليس التألمُ مِنَ النارِ والسيِّفِ إلا مِنْ حيثُ إنَّه يفرّقُ بينَ

(١) البيت للمتنبي ، في « ديوانه بشرح العكبري » (٢٩٦ / ١) .

(٢) وهو أبو الحسين التوري ، وقد روى قصته الخطيب في « تاريخ بغداد » (٣٤٢ / ٥) ، والقشيري في « الرسالة » (ص ٥٠٤) ، وأوردها الطوسي في « اللمع » (ص ٣٦٣) .

(٣) رواه الترمذي (٢١٩١) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه بلفظ : « ألا وإن الغضب جمرة في قلب ابن آدم . . . » .

جزأين يرتبط أحدهما بالآخر برابطة التأليف الممكن في الأجسام ، فالذي يفرق بين القلب وبين محبوبه المرتبط به برابطة تأليف أشد إحصاماً من تأليف الأجسام .. فهو أشد إيلاماً إن كنت من أرباب البصائر وأرباب القلوب .

ولا يبعد ألا يدرك من لا قلب له شدة هذا الألم ، ويستحقه بالإضافة إلى ألم الجسم ، فالصبي لو خيّر بين ألم الحرمان عن الكرة والصولجان وبين ألم الحرمان عن رتبة السلطان .. لم يحسّ بألم الحرمان عن رتبة السلطان أصلاً ، ولم يعدّ ذاك ألماً ، بل قال : العدو في الميدان مع الصولجان أحب إليّ من سرير ألف سلطان مع الجلوس عليه ، بل من تغلبه شهوة البطن لو خيّر بين الهريسة والحلواء وبين فعل جميل يقهر به الأعداء ويفرح به الأصدقاء .. لآثر الهريسة والحلواء .

وهذا كله لفقد المعنى الذي بوجوده يصير الجاه محبوباً ، ووجود المعنى الذي بوجوده يصير الطعام لذيذاً ، وذلك لمن استرقته صفات البهائم والسباع ، ولم تظهر فيه صفات الملائكة التي لا يناسبها ولا يلذ لها إلا القرب من رب العالمين ، ولا يؤلمها إلا البعد والحجاب .

وكما لا يكون الذوق إلا في اللسان والسمع إلا في الآذان .. فلا تكون هذه الصفة إلا في القلب ، فمن لا قلب له ليس له هذا الحس ، كمن لا سمع له ولا بصر ليس له لذة الألحان ، وحسن الصور والألوان .

وليس لكل إنسان قلب ، ولو كان . . لما صحَّ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ ، فجعل مَنْ لَمْ يَتَذَكَّرْ بالقرآن مفلساً مِنَ القلب ، ولستُ أعني بالقلب هذا الذي تكتنفه عظام الصدر مِنْ عَالَمِ الخلق ، بل أعني به السرَّ الذي هو مِنْ عَالَمِ الأمر ، وهذا اللحم الذي هو مِنْ عَالَمِ الخلق عرشه ، والصدرُ كرسِيُّه^(١) ، وسائرُ الأعضاء عَالَمُهُ ومملكته ، والله الخلقُ والأمرُ جميعاً ، ولكنَّ ذلك السرَّ الذي قال اللهُ تعالى فيه : ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ هو الملكُ والأميرُ ؛ لأنَّ بينَ عَالَمِ الأمرِ وبينَ عَالَمِ الخلقِ ترتيباً ، وعَالَمُ الأمرِ أميرٌ على عَالَمِ الخلقِ ، وهي اللطيفةُ التي إذا صلحت . . صلحَ لها سائرُ الجسدِ ، مَنْ عرفَهَا . . فقد عرفَ نفسه ، وَمَنْ عرفَ نفسه . . فقد عرفَ ربَّهُ ، وعندَ ذلك يَشْمُ العبدُ مباديَ روائحِ المعنى المطبويِّ تحتَ قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ »^(٢) ، ونظرَ بعينِ الرحمةِ إلى الجامدينَ على ظاهرِ لفظِهِ ، وإلى المتعسِّفينَ في طرقِ تأويلِهِ ، وَإِنْ كَانَتْ رَحْمَتُهُ على الجامدِ على اللفظِ أَكْثَرَ مِنْ رَحْمَتِهِ على المتعسِّفِ في التأويلِ ؛ لأنَّ الرحمةَ على قَدْرِ المصيبةِ ، ومصيبةُ أولئك أَكْثَرُ وَإِنْ اشتركوا في مصيبةِ الحرمانِ عَنْ حَقِيقَةِ الأمرِ ، فالحقيقةُ فَضْلُ اللهِ يُوْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، واللهُ ذو الفضلِ العظيمِ ، وهي حكمةُ يختصُّ بها مَنْ يريدُ ، وَمَنْ يُوْتِ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خيراً كثيراً .

(١) تقدم هذا من قول سهل بن عبد الله ، وانظر « قوت القلوب » (٢٣١ / ١) .

(٢) رواه مسلم (١١٥ / ٢٦١٢) .

ولنعدُ إلى الغرض ، فقد أَرخينا الطَّوْلَ ^(١) ، وطوَّلنا النَّفْسَ في أمرٍ هوَ
أعلى من علومِ المعاملةِ التي نقصدها في هذا الكتابِ ، فقد ظهرَ أنَّ رتبةَ
الهُلَاكِ ليستْ إلا للجهَّالِ المكذِّبِينَ ، وشهادةُ ذلكَ من كتابِ اللهِ وسنَّةِ رسولهِ
صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا تدخلُ تحتَ الحصرِ ، فلذلكَ لمْ نوردها .



الرتبةُ الثانيةُ : رتبةُ المعدِّينَ :

وهذه رتبةٌ مَنْ تحلَّى بأصلِ الإيمانِ ، ولكنْ قصَّرَ في الوفاءِ بمقتضاهُ ،
فإنَّ رأسَ الإيمانِ هوَ التوحيدُ ، وهوَ ألا يعبدَ إلا اللهَ ، وَمَنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ . . فقد
اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ، فهوَ موحِّدٌ بلسانهِ لا بالحقيقةِ ، بلْ معنى قولك : (لا إِلَهَ
إلا اللهُ) معنى قولهِ تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ ، وهو أنْ تذرَ
بالكليةِ غيرَ اللهِ ، ومعنى قولهِ تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ
اسْتَقَمُوا ﴾ ، ولَمَّا كَانَ الصراطُ المستقيمُ الذي لا يكملُ التوحيدُ إلا
بالاستقامةِ عليه أدقُّ مِنَ الشعرِ ، وأحدُّ مِنَ السيفِ ، مثلُ الصراطِ الموصوفِ
في الآخرةِ ، فلا ينفكُ بشرٌّ عن ميلٍ عن الاستقامةِ ولو في أمرٍ يسيرٍ ،
ولا يخلو عن اتباعِ الهوى ولو في فعلٍ قليلٍ ، وذلكَ قادحٌ في كمالِ التوحيدِ
بقدرِ ميلِهِ عن الصراطِ المستقيمِ . . فذلكَ يقتضي - لا محالةً - نقصاناً في
درجةِ القربِ ، ومعَ كُلِّ نقصانٍ نارٍ ؛ نارُ الفراقِ لذلكَ الكمالِ الفائقِ

(١) الطَّوْلُ : الحبل يطوَّل للدابة توسيعاً لمجال رعيها ، وهو مجاز عن تطويل الكلام هنا .

بالنقصان ، ونار جهنم كما وصفها القرآن ، فيكون كل مائل عن الصراط المستقيم معذباً مرتين من وجهين ، ولكن شدة ذلك العذاب وخفته وتفاوته بحسب طول المدة إنما يكون بسبب أمرين :
أحدهما : قوة الإيمان وضعفه .

والثاني : كثرة اتباع الهوى وقلته .

وإذ لا يخلو بشر في غالب الأمر عن واحد من الأمرين .. قال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴾ ثُمَّ نَجَّى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثَاً ، ولذلك قال الخائفون من السلف : (إنما خوفنا لأننا تيقنا أننا على النار واردون ، وشككنا في النجاة)^(١) .

ولما روى الحسن الخبر الوارد فيمن يخرج من النار بعد ألف عام ، وأنه ينادي : يا حنان ، يا منان .. قال الحسن : (يا ليتني كنت ذلك الرجل)^(٢) .

(١) فقد روى ابن المبارك في « الزهد » (٣٠٩) عن بكر بن عبد الله المزني قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ .. ذهب عبد الله بن رواحة إلى بيته فبكى ، فجاءت امرأته فبكت ، فجاءت الخادم فبكت ، وجاء أهل البيت فجعلوا يبكون ، فلما انقطعت عبرته .. قال : يا أهلاه ؛ ما الذي أبكاكم ؟ قالوا : لا ندري ، ولكن رأيناك بكيت فبكينا ، قال : إنه أنزلت على رسول الله آية ينبئني فيها ربي عز وجل أنني وارد النار ، ولم ينبئني أنني صادر عنها ، فذلك الذي أبكاني .

(٢) كذا في « القوت » (١٥٠ / ٢) ، وقد رواه أحمد في « المسند » (٢٣٠ / ٣) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً ، ولم يذكر قول الحسن ، وساق قول الحسن من رواية أبي بكر الأجري ابن حجر في « القول المسدد في الذب عن مسند أحمد » (ص ٣٥) .

واعلم : أنَّ في الأخبار ما يدلُّ على أنَّ آخرَ مَنْ يخرجُ مِنَ النارِ بعدَ سبعةِ آلافِ سنةٍ^(١) ، وأنَّ الاختلافَ في المدةِ بينَ اللحظةِ وبينَ سبعةِ آلافِ سنةٍ ، حتَّى قدَّ يجوزُ بعضُهم على النارِ كبرقٍ خاطفٍ ، ولا يكونُ له فيها لبثٌ^(٢) ، وبينَ اللحظةِ وسبعةِ آلافِ سنةٍ درجاتٌ متفاوتةٌ ، مِنَ اليومِ ، والأسبوعِ ، والشهرِ ، وسائرِ المُددِ ، وإنَّ الاختلافَ بالشدةِ لا نهايةَ لأعلاه ، وأدناه التعذيبُ بالمناقشةِ في الحسابِ ؛ كما أنَّ الملكَ قدَّ يعذبُ بعضَ المقصَّرينَ في الأعمالِ بالمناقشةِ في الحسابِ ، ثمَّ يعفو ، وقدَّ يضربُ بالسياطِ ، وقدَّ يعذبُ بأنواعٍ آخرَ مِنَ العذابِ .

ويتطرَّقُ إلى العذابِ اختلافٌ ثالثٌ في غيرِ المدةِ والشدةِ ، وهو اختلافُ الأنواعِ ؛ إذ ليسَ مَنْ يعذبُ بمصادرةِ المالِ فقط كَمَنْ يُعذبُ بأخذِ المالِ ، وقتلِ الولدِ ، واستباحةِ الحريمِ ، وتعذيبِ الأقاربِ ، والضربِ ، وقطعِ اللسانِ واليدِ والأنفِ والأذنِ وغيرِهِ ، فهذهِ الاختلافاتُ ثابتةٌ في عذابِ الآخرةِ ، دلَّ عليها قواطعُ الشرعِ ، وهي بحسَبِ اختلافِ قوَّةِ الإيمانِ

(١) رواه الحكيم الترمذي في « نواذر الأصول » (ص ١٣٩) .

(٢) روى أبو يعلى في « مسنده » (١٢٥٣) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً : « يمر الناس على جسر جهنم وعليه حسك وكلاليب وخطاطيف تخطف الناس يمينا وشمالاً ، وعلى جنبتيه ملائكة يقولون : اللهم ؛ سلِّم سلِّم ، فمن الناس من يمر مثل البرق ، ومنهم من يمر مثل الريح ، ومنهم من يمر مثل الفرس ، ومنهم من يسعى سعياً ، ومنهم من يمشي مشياً ، ومنهم من يحبو حبواً ، ومنهم من يزحف زحفاً . . . » الحديث .

وضَعَفِهِ ، وكثرة الطاعاتِ وَقَلَّتِهَا ، وكثرة السيئاتِ وَقَلَّتِهَا .

أَمَّا شِدَّةُ الْعَذَابِ .. فَبَشَدَةُ قُبْحِ السَّيِّئَاتِ وَكِبَرِهَا ، وَأَمَّا كَثَرَتُهُ .. فَبِكَثَرَتِهَا ، وَأَمَّا اخْتِلَافُ أَنْوَاعِهِ .. فَباخْتِلَافِ أَنْوَاعِ السَّيِّئَاتِ ، وَقَدْ انْكَشَفَ هَذَا لِأَرْبَابِ الْقُلُوبِ مَعَ شَوَاهِدِ الْقُرْآنِ بنور الإيمانِ ، وَهُوَ الْمَعْنِيُّ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ ، وَبِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ ﴾ ، وَبِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ : ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ ، وَبِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا وَرَدَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَنِ ؛ مِنْ كَوْنِ الْعِقَابِ وَالثَّوَابِ جَزَاءً عَلَى الْأَعْمَالِ .

وَكُلُّ ذَلِكَ بَعْدَلٍ لَا ظُلْمَ فِيهِ ، وَجَانِبُ الْعَفْوِ وَالرَّحْمَةِ أَرْجَحُ ؛ إِذْ قَالَ تَعَالَى فِيمَا حَكَى عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي » (١) .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

فَإِذَا ؛ هَذِهِ الْأُمُورُ الْكَلِيَّةُ مِنْ ارْتِبَاطِ الدَّرَجَاتِ وَالدَّرَكَاتِ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ مَعْلُومَةٌ بِقَوَاطِعِ الشَّرْعِ وَنُورِ الْمَعْرِفَةِ ، فَأَمَّا التَّفْصِيلُ .. فَلَا يُعْرَفُ إِلَّا ظَنًّا ، وَمُسْتَنَدُهُ ظَوَاهِرُ الْأَخْبَارِ وَنَوْعُ حَدْسٍ يُسْتَمَدُّ مِنْ أَنْوَارِ الْإِسْتِبْصَارِ بَعَيْنِ الْإِعْتِبَارِ .

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٧٥١) بِلَفْظِهِ هُنَا ، وَأَصْلُهُ عِنْدَ الْبُخَارِيِّ كَذَلِكَ (٣١٩٤) .

فَنَقُولُ : كُلُّ مَنْ أَحْكَمَ أَصْلَ الْإِيمَانِ ، وَاجْتَنَبَ جَمِيعَ الْكِبَائِرِ ، وَأَحْسَنَ جَمِيعَ الْفَرَائِضِ ؛ أَعْنِي : الْأَرْكَانَ الْخَمْسَةَ ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْهُ إِلَّا صَغَائِرُ مُتَفَرِّقَةٌ لَمْ يَصِرْ عَلَيْهَا . . فَيُشَبَّهُ أَنْ يَكُونَ عَذَابُهُ بِالمُنَاقَشَةِ فِي الْحِسَابِ فَقَطْ ، فَإِنَّهُ إِذَا حُوسِبَ . . رَجَحَتْ حَسَنَاتُهُ عَلَى سَيِّئَاتِهِ ؛ إِذْ وَرَدَ فِي الْأَخْبَارِ : أَنَّ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ ، وَالْجُمُعَةَ ، وَصَوْمَ رَمَضَانَ . . كِفَارَةٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ^(١) ، وَكَذَلِكَ اجْتِنَابُ الْكِبَائِرِ بِحُكْمِ نَصِّ الْقُرْآنِ مَكْفَرٌ لِلصَّغَائِرِ^(٢) ، وَأَقْلُ درَجَاتِ التَّكْفِيرِ أَنْ يُدْفَعَ الْعَذَابُ إِنْ لَمْ يُدْفَعْ الْحِسَابُ ، وَكُلُّ مَنْ هَذَا حَالُهُ فَقَدْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ ، فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ بَعْدَ ظَهْوَرِ الرَّجْحَانِ فِي الْمِيزَانِ ، وَبَعْدَ الْفَرَاغِ مِنَ الْحِسَابِ . . فِي عَيْشَةٍ رَاضِيَةٍ .

نَعَمْ ، التَّحَاقُّهُ بِأَصْحَابِ الْيَمِينِ أَوْ بِالْمُقَرَّبِينَ ، وَنَزُولُهُ فِي جَنَاتٍ عَذْنٍ أَوْ فِي الْفَرْدَوْسِ الْأَعْلَى . . فَذَلِكَ يَتَّبِعُ أَصْنَافَ الْإِيمَانِ ؛ لِأَنَّ الْإِيمَانَ إِيْمَانَانِ : إِيْمَانٌ تَقْلِيدِيٌّ كإِيْمَانِ الْعَوَامِّ ؛ يَصْدُقُونَ بِمَا يَسْمَعُونَ وَيَسْتَمْرُونَ عَلَيْهِ .

وإِيْمَانٌ كَشْفِيٌّ يَحْصُلُ بِإِنْشِرَاحِ الصَّدْرِ بِنُورِ اللَّهِ ، حَتَّى يَنْكَشِفَ فِيهِ الْوُجُودُ كُلُّهُ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ ، فَيَتَضَحَّ أَنَّ الْكُلَّ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُهُ وَمَصِيرُهُ ؛ إِذْ

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٣٣/١٦) .

(٢) وَهُوَ قَوْلُهُ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ : ﴿ إِنْ يَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ ، وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ : ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَثِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّمَمُ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ .

ليس في الوجود إلا الله تعالى وصفاته وأفعاله^(١) .

فهذا الصنف هم المقرَّبون النازلون في الفردوسِ الأعلى ، وهم على غاية القرب من الملائكة الأعلى ، وهم أيضاً على أصناف ؛ فمنهم السابقون ، ومنهم من دونهم ، وتفاوتهم بحسب تفاوت معرفتهم بالله تعالى ، ودرجات العارفين في المعرفة بالله تعالى لا تنحصر ؛ إذ الإحاطة بكنه جلال الله غير ممكنة ، وبحر المعرفة ليس له ساحل وعمق ، وإنما يغوص فيه الغواصون بقدر قواهم ، وبقدر ما سبق لهم من الله تعالى في الأزل ، فالطريق إلى الله تعالى لا نهاية لمنازله ، فالسالكون لسبيل الله لا نهاية لدرجاتهم .

وأما المؤمن إيماناً تقليدياً . فهو من أصحاب اليمين ، ودرجته دون درجة المقرَّبين ، وهم أيضاً على درجات ، فالأعلى من درجات أصحاب اليمين تقارب رتبته رتبة الأدنى من درجات المقرَّبين .

هذا حال من اجتنب كل الكبائر ، وأدى الفرائض كلها ؛ أعني : الأركان الخمسة التي هي النطق بكلمة الشهادة باللسان ، والصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج .

(١) وأن كل شيء هالك إلا وجهه ، لا أنه يصير هالكا من الأوقات ، بل هو هالك أزلاً وأبداً لا يتصور إلا كذلك ، فإن كل شيء سواه إذا اعتبرت ذاته من حيث ذاته . فهو عدم محض ، وإذا اعتبر من الوجه الذي يسري إليه الوجود من الأزل . فيكون الوجود وجه الله فقط ، ولكل شيء وجهان ؛ وجه إلى نفسه ، ووجه إلى ربه ، فهو باعتبار وجه نفسه عدم ، وباعتبار وجه الله موجود ؛ إذ لا موجود إلا الله ووجهه . « إنحاف » (٥٥٦ / ٨) ، وهو من كلام المصنف في « مشكاة الأنوار » (ص ٤٠) .

فأما مَنْ ارتكبَ كبيرةً أو كبائرَ ، أو أهملَ بعضَ أركانِ الإسلامِ ؛ فإنَّ تابَ توبةً نصوحاً قبلَ قُرْبِ الأجلِ . . التحقَ بِمَنْ لَمْ يرتكبْ ؛ لأنَّ التائبَ مِنَ الذنبِ كَمَنْ لا ذنبَ لَهُ ، والثوبُ المغسولُ كالذي لَمْ يتوسَّخْ أصلاً .

وإنَّ ماتَ قبلَ التوبةِ . . فهذا أمرٌ مخطرٌ عندَ الموتِ ؛ إذ ربَّما يكونُ موتهُ على الإصرارِ سبباً لتزلزلِ إيمانه ، فيُختَمُ لَهُ بسوءِ الخاتمةِ ، لا سيما إذا كانَ إيمانهُ تقليدياً .

فإنَّ التقليدَ وإنَّ كانَ جزءاً فهوَ قابلٌ للانحلالِ بأدنى شكٍّ وخیالٍ ، والعارفُ البصيرُ أبعدُ مَنْ أنْ يُخافَ عليه سوءُ الخاتمةِ ، وكلاهما إنَّ ماتا على الإيمانِ يعدَّبانِ - إلا أنْ يعفوَ اللهُ - عذاباً يزيدُ على عذابِ المناقشةِ في الحسابِ ، وتكونُ كثرةُ العقابِ مِنْ حيثُ المدةُ بحسَبِ كثرةِ مدَّةِ الإصرارِ ، وَمِنْ حيثُ الشدَّةُ بحسَبِ قبحِ الكبائرِ ، وَمِنْ حيثُ اختلافُ النوعِ بحسَبِ اختلافِ أصنافِ السيئاتِ .

وعندَ انقضاءِ مدَّةِ العقابِ ينزلُ البُلهُ المقلِّدونَ في درجاتِ أصحابِ اليمينِ ، والعارفونَ المستبصرونَ في أعلى عليينَ ، ففي الخبرِ : « آخِرُ مَنْ يخرجُ مِنَ النارِ يُعطى مثلَ الدنيا كلها عشرةَ أضعافٍ »^(١) .

ولا تظنَّنَّ أنَّ المرادَ بِهِ تقديرُهُ بالمساحةِ لأطرافِ الأجسامِ ، بأنْ يُقابلَ فرسخٌ بفرسخينِ أو عشرةً ، فإنَّ هذا جهلٌ بطريقِ ضربِ الأمثالِ ،

(١) رواه البخاري (٦٥٧١) ، ومسلم (١٨٦) .

بل هذا كقول القائل : (أخذ منه جملاً وأعطاه عشرة أمثاله) ، وكان
الجمال يساوي عشرة دنانير ، فأعطاه مئة دينار ، فإن لم يفهم من المثل إلا
المثل في الوزن والثقل . . فلا تكون مئة دينار لو وضعت في كفة الميزان
والجمال في الكفة الأخرى عشر عشرين ، بل هو موازنة معاني الأجسام
وأرواحها ، دون أشخاصها وهياكلها ، فإنَّ الجمال لا يُقصد لثقله وطوله
وعرضه ومساحته ، بل لماليته ، فروحه المالية ، وجسمه اللحم والدم ،
ومئة دينار عشرة أمثاله بالموازنة الروحانية ، لا بالموازنة الجسمانية ، وهذا
صادق عند من يعرف روح المالية من الذهب والإبل ، بل لو أعطاه جوهرة
وزنها مثقال ، وقيمتها مئة دينار ، وقال : (أعطيتُه عشرة أمثاله) . . كان
صادقاً ، ولكن لا يدرك صدقه إلا الجوهري ؛ فإنَّ روح الجوهريّة
لا تدرك بمجرد البصر ، بل بفطنة أخرى وراء البصر ، فلذلك يكذب به
الصبي بل القروي والبدوي ، ويقول : (ما هذه الجوهرة إلا حجرٌ وزنه
مثقال ، ووزن الجمال ألف ألف مثقال ، فقد كذب في قوله : إنني
أعطيتُه عشرة أمثاله) ، والكاذب بالتحقيق هو الصبي ، ولكن لا سبيل إلى
تحقيق ذلك عنده إلا بأن يُنتظر به البلوغ والكمال ، وأن يحصل في قلبه النور
الذي به يدرك أرواح الجواهر وسائر الأموال ، فعند ذلك ينكشف له
الصدق .

والعارف عاجز عن تفهيم المقلد القاصر صدق رسول الله صلى الله عليه
وسلم في هذه الموازنة ؛ إذ يقول : « الجنة في السماوات » ، كما ورد في

الأخبار^(١) ، والسموات من الدنيا ، فكيف يكون عشرة أمثال الدنيا في الدنيا ؟ وهذا كما يعجزُ البالغُ عن تفهيم الصبي تلك الموازنة ، وكذلك تفهيم البدوي .

وكما أن الجوهريَّ مرحومٌ إذا بُليَ بالبدويِّ والقرويِّ في تفهيم تلك الموازنة . . فالعارفُ أيضاً مرحومٌ إذا بُليَ بالبلد الأبله في تفهيم هذه الموازنة ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « ارحموا ثلاثة : عالماً بين الجهال ، وغنيَّ قومٍ افتقر ، وعزيزَ قومٍ ذلَّ »^(٢) .

والأنبياءُ مرحومون بين الأمة بهذا السبب ، ومقاساتهم لقصور عقول الأمم فتنة لهم ، وامتحانٌ وابتلاءٌ من الله تعالى ، وبلاءٌ موكلٌ بهم سبق بتوكيله القضاء الأزلي ، وهو المعنيُّ بقوله صلى الله عليه وسلم : « البلاء موكلٌ بالأنبياء ، ثم الأولياء ، ثم الأُمثِل فالأُمثِل »^(٣) .

(١) وليس المراد اللفظ بعينه ، وقد روى أبو نعيم في « الحلية » (١٠٣ / ٧) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : (الجنة في السماء السابعة العليا) ، ثم قرأ : ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْآنْبَرِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴾ .

(٢) رواه ابن حبان في « المجروحين » (٩٨ / ٢) بتقديم وتأخير ، من طريق عيسى بن طهمان عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً ، وقد ضعَّف فيه عيسى ، قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٥٥٩ / ٨) : (لكن وجد بخط الحافظ ابن حجر ما نصه : عيسى ثقة ، لم يتكلم فيه غير ابن حبان ، وقد احتج به البخاري والنسائي والأمة ممن دونه) ، وانظر « تهذيب التهذيب » (٣٥٩ / ٣) .

(٣) رواه الترمذي (٢٣٩٨) ، والنسائي في « الكبرى » (٧٤٣٩) ، وابن ماجه (٤٠٢٣) .

فلا تظنَنَّ أَنَّ البلاءَ بلاءُ أيوبَ عليه السلام ، وهو الذي ينزلُ بالبدنِ ، فإنَّ بلاءَ نوحٍ عليه السلامَ أيضاً من البلاءِ العظيمِ ؛ إذ بُليَ بجماعةٍ كانَ لا يزيدُهُم دعاؤُهُ إلى الله إلا فراراً ، ولذلك لَمَّا تَأَذَّى رسولُ الله صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بكلامِ بعضِ الناسِ قالَ : « رحمَ اللهُ أخي موسى ؛ لقد أُوذِيَ بأكثرَ من هذا فصبرَ » (١) .

فإذا ؛ كما لا يخلو الأنبياءُ عن الابتلاءِ بالجاحدين . . فلا يخلو الأولياءُ والعلماءُ عن الابتلاءِ بالجاهلين ، ولذلك قلَّما انفكَّ الأولياءُ عن ضروبٍ من الإيذاءِ وأنواعِ البلاءِ ؛ بالإخراجِ مِنَ البلادِ ، والسعايةِ بِهِم إلى السلاطينِ ، والشهادةِ عَلَيْهِم بالكفرِ والخروجِ عن الدينِ .

وواجبٌ أن يكونَ أهلُ المعرفةِ عندَ أهلِ الجهلِ مِنَ الكافرينَ ؛ كما يجبُ أن يكونَ المعتاضُ عن الجمليِّ الكبيرِ جوهرةً صغيرةً عندَ الجاهلينَ مِنَ المبذُورينَ المضِيِّعينَ .

فإذا عرفتَ هذه الدقائقَ . . فأمِنَ بقوله صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : إِنَّهُ يُعْطَى آخِرُ مَنْ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مِثْلَ الدُّنْيَا عَشْرَ مَرَّاتٍ ، وإيَّاكَ أن يقتصرَ تصديقُكَ على ما يدركُهُ البصرُ والحواسُ فقط ، فتكونَ حماراً برجلينِ ؛ لأنَّ الحمارَ يشاركُكَ في الحواسِّ الخمسِ ، وإنما أنتَ مفارقٌ للحمارِ بسرِّ إلهيٍّ عَرَضَ على السماواتِ والأرضِ والجبالِ فأبينَ أن يحملنَّهُ وأشفقنَ منه ، فإدراكُ

(١) رواه البخاري (٣١٥٠) ، ومسلم (١٠٦٢) .

ما يخرجُ عن عالمِ الحواسِّ الخمسِ لا يُصادفُ إلا في عالمِ ذلك السرِّ الذي بهِ فارقتَ الحمارَ وسائرَ البهائمِ ، فمنْ ذهلَ عن ذلك ، وعطَّلهُ وأهمَّلهُ ، وقعَ بدرجةِ البهائمِ ، ولمْ يجاوزِ المحسوساتِ . . فهو الذي أهلكَ نفسهُ بتعطيلِها ، ونسيها بالإعراضِ عنها ، ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ ﴾ ، فكلُّ مَنْ لمْ يعرفِ إلا المدركَ بالحواسِّ . . فقد نسيَ اللهَ ؛ إذ ليسَ ذاتُ اللهِ مدركاً في هذا العالمِ بالحواسِّ الخمسِ^(١) ، وكلُّ مَنْ نسيَ اللهَ . . أنساهُ اللهُ - لا محالةً - نفسهُ ، ونزلَ إلى رتبةِ البهائمِ ، وتركَ الترقِيَّ إلى أفقِ الملأِ الأعلى ، وخانَ في الأمانةِ التي أودعهُ اللهُ تعالى إيَّاهَا وأنعمَ بها عليه ، كافراً لنعمتهِ ومتعرضاً لنقمتهِ ، إلا أنَّه أسوأ حالاً مِنَ البهيمةِ ؛ فإنَّ البهيمةَ تتخلَّصُ بالموتِ ، وأمَّا هذا . . فعندهُ أمانةٌ سترجعُ - لا محالةً - إلى مودِعِها ، فإليه مرجعُ الأمانةِ ومصيرُها .

وتلكَ الأمانةُ كالشمسِ الزاهرةِ ، وإنَّما هبطتْ إلى هذا القلبِ الفاني وغربتْ فيه ، وستطلعُ هذهِ الشمسُ عندَ خرابِ القلبِ مِنْ مغربِها ، وتعودُ إلى بارئها وخالقِها ؛ إمَّا مظلمةً منكسفةً ، وإمَّا زاهرةً مشرقةً ، والزاهرةُ المشرقةُ غيرُ محجوبةٍ عن حضرةِ الربوبيةِ ، والمظلمةُ أيضاً راجعةٌ إلى الحضرةِ ؛ إذ المرجعُ والمصيرُ للكلِّ إليه ، إلا أنَّها ناكسةٌ رؤوسها عن جهةِ أعلى عليينَ إلى جهةِ أسفلِ السافلينَ ، ولذلك قالَ تعالى :

(١) في (أ) : (في هذا العالمِ المحبوسِ بالحواسِّ الخمسِ) .

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ ، فَبَيَّنَ أَنَّهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، إِلَّا أَنَّهُمْ مَنكُوسُونَ مَنحُوسُونَ ، قَدْ انْقَلَبَتْ وَجُوهُهُمْ إِلَىٰ أَقْفَتِهِمْ ، وَانْتَكَسَتْ رُءُوسُهُمْ عَنْ جِهَةٍ فَوْقَ إِلَىٰ جِهَةٍ أَسْفَلَ ، وَذَلِكَ حَكْمُ اللَّهِ تَعَالَىٰ فَيَمَنْ حَرَمَهُ تَوْفِيقُهُ ، وَلَمْ يَهْدِهِ طَرِيقَهُ ، فَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الضَّلَالِ ، وَالنَّزُولِ إِلَىٰ مَنَازِلِ الْجَهَالِ .

فهذا حَكْمُ انْقِسَامٍ مَنْ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ ، وَيُعْطَىٰ مِثْلَ عَشْرَةِ أَمْثَالِ الدُّنْيَا أَوْ أَكْثَرَ ، وَلَا يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ إِلَّا مُوَحَّدٌ ، وَلَسْتُ أَعْنِي بِالتَّوْحِيدِ أَنْ يَقُولَ بِلِسَانِهِ : (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) ، فَإِنَّ اللِّسَانَ مِنْ عَالَمِ الْمَلِكِ وَالشَّهَادَةِ ، فَلَا يَنْفَعُ إِلَّا فِي عَالَمِ الْمَلِكِ ، فَيَدْفَعُ السِّيفَ عَنْ رَقَبَتِهِ ، وَأَيْدِي الْغَانِمِينَ عَنْ مَالِهِ^(١) ، وَمَدَّةَ الرِّقَبَةِ وَالْمَالِ مَدَّةُ الْحَيَاةِ ، فَحَيْثُ لَا تَبْقَىٰ رَقَبَةٌ وَلَا مَالٌ . . لَا يَنْفَعُ الْقَوْلُ بِاللِّسَانِ ، وَإِنَّمَا يَنْفَعُ الصَّدَقُ فِي التَّوْحِيدِ ، وَكَمَالِ التَّوْحِيدِ : أَلَا يَرَى الْأُمُورَ كُلَّهَا إِلَّا مِنَ اللَّهِ ، وَعَلَامَتُهُ : أَلَا يَغْضَبُ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنَ الْخَلْقِ بِمَا يَجْرِي عَلَيْهِ ؛ إِذْ لَا يَرَى الْوَسَائِطَ ، وَإِنَّمَا يَرَى مُسَبَّبَ الْأَسْبَابِ كَمَا سَيَأْتِي تَحْقِيقُهُ فِي كِتَابِ التَّوَكُّلِ .

وهذا التَّوْحِيدُ مُتَفَاوِتٌ ؛ فَمِنْ النَّاسِ مَنْ لَهُ مِنَ التَّوْحِيدِ مِثْلُ الْجِبَالِ ،

(١) وذلك قوله صلى الله عليه وسلم - الذي رواه البخاري (٢٥) ، ومسلم (٢٢) - : « أَمَرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، فَإِذَا قَالُوهَا . . عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَعْرَاضَهُمْ ، وَحَسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ عِزٌّ وَجَلٌّ » . « إِتْحَافٌ » (٥٦١ / ٨) ، وَيُؤَكِّدُ التَّخْصِصَ بِالْقَلْبِ حَدِيثُ الشَّعِيرَةِ وَالْبَرَةِ وَالذَّرَّةِ الْآتِي تَعْلِيلُهُ .

ومنهم مَنْ لَهُ مِثْقَالُ ، ومنهم مَنْ لَهُ مِقْدَارُ خَرْدَلَةٍ وَذَرَّةٍ ، فَمَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ دِينَارٍ مِنْ إِيْمَانٍ.. فَهُوَ أَوَّلُ مَنْ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ ، وَفِي الْخَبَرِ : « يُقَالُ : أَخْرَجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ دِينَارٍ مِنْ إِيْمَانٍ »^(١) ، وَآخَرُ مَنْ يَخْرُجُ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيْمَانٍ ، وَمَا بَيْنَ الْمِثْقَالِ وَالذَّرَّةِ عَلَى قَدَرٍ تَفَاوُتِ دَرَجَاتِهِمْ يَخْرُجُونَ بَيْنَ طَبَقَةِ الْمِثْقَالِ وَبَيْنَ طَبَقَةِ الذَّرَّةِ^(٢) ، وَالْمَوَازَنَةُ بِالْمِثْقَالِ وَالذَّرَّةِ عَلَى سَبِيلِ ضَرْبِ الْمِثْلِ ؛ كَمَا ذَكَرْنَاهُ فِي الْمَوَازَنَةِ بَيْنَ أَعْيَانِ الْأَمْوَالِ وَبَيْنَ النُّقُودِ .

وَأَكْثَرُ مَا يُدْخَلُ الْمُوَحِّدِينَ النَّارَ مِظَالِمُ الْعِبَادِ ، فَدِيْوَانُ الْعِبَادِ هُوَ الدِّيْوَانُ الَّذِي لَا يُتْرَكُ^(٣) ، فَأَمَّا بَقِيَّةُ السَّيِّئَاتِ . فَيَتَسَارَعُ الْعَفْوُ وَالتَّكْفِيرُ إِلَيْهَا ، ففِي الْأَثَرِ : (إِنَّ الْعَبْدَ لِيُوقَفُ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ تَعَالَى وَلَهُ مِنَ الْحَسَنَاتِ أَمْثَالُ الْجِبَالِ ، لَوْ سَلِمَتْ لَهُ.. لَكَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، فَيَقُومُ أَصْحَابُ الْمِظَالِمِ ، فَيَكُونُ قَدْ سَبَّ عَرَضَ هَذَا ، وَأَخَذَ مَالَ هَذَا ، وَضَرَبَ هَذَا ، فَيَقْتَصُّ لَهُمْ مِنْ حَسَنَاتِهِ حَتَّى لَا تَبْقَى لَهُ حَسَنَةٌ ، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ : يَا رَبُّ هَذَا قَدْ فَنِيَتْ

(١) هُوَ جُزْءٌ مِنْ حَدِيثٍ طَوِيلٍ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٧٤٣٩) ، وَمُسْلِمٌ (١٨٣) .

(٢) فِي حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ الْمَشْهُورِ ، وَهُوَ عِنْدَ الْبُخَارِيِّ (٧٤١٠) ، وَمُسْلِمٌ (١٩٣) : « يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الْخَيْرِ مَا يَزِنُ شَعِيرَةً ، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الْخَيْرِ مَا يَزِنُ بَرَةً ، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مَا يَزِنُ مِنَ الْخَيْرِ ذَرَّةً » .

(٣) فَقَدْ رَوَى ذَلِكَ مَرْفُوعاً عَنِ السَّيِّدَةِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَحْمَدُ فِي « الْمُسْنَدِ » (٢٤٠ / ٦) ، وَالْحَاكِمُ فِي « الْمُسْتَدْرَكِ » (٥٧٥ / ٤) .

حسناته ، وبقي طالبون كثير ، فيقول الله تعالى : ألقوا من سيئاتهم على سيئاته ، وصكوا له صكاً إلى النار (١) .

وكما يهلك هو بسيئة غيره بطريق القصاص فكذلك ينجو المظلوم بحسنة الظالم ؛ إذ ينقل إليه عوضاً عما ظلمه به ، وقد حكي عن ابن الجلاء أن بعض إخوانه اغتابه ، ثم أرسل إليه يستحلّه ، فقال : لا أفعل ، ليس في صحيفتي حسنة أفضل منها ، فكيف أمحوها ؟! (٢) .

وقال هو وغيره : (ذنوب إخواني من حسناتي ، أريد أن أزيّن بها صحيفتي) (٣) .

فهذا ما أردنا أن نذكره من اختلاف أحوال العباد في المعاد في درجات السعادة والشقاوة ، وكل ذلك حكم بظاهر الأسباب ، يضاهي حكم الطبيب على مريض بأنه يموت - لا محالة - ولا يقبل العلاج ، وعلى مريض آخر بأن عارضه خفيف وعلاجه هين ، فإن ذلك ظن يصيب في أكثر الأحوال ، ولكن قد يثوب إلى المشرف على الهلاك نفسه من حيث لا يشعر الطبيب ، وقد يُساق إلى ذي العارض الخفيف أجله من حيث لا يطلع عليه ، وذلك لأسرار الله تعالى الخفية في أرواح الأحياء ، وغموض الأسباب التي رتبها

- (١) كذا في « القوت » (١٤٩ / ٢) ، وهو بنحوه رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٠٢ / ٤)
 عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، وهو قريب من حديث المفلس المشهور .
 (٢) قوت القلوب (١٥٠ / ٢) .
 (٣) هو من تنمة قول ابن الجلاء السابق كما في « القوت » (١٥٠ / ٢) .

مسبَّب الأسباب بقدر معلوم ؛ إذ ليس في قوَّة البشر الوقوف على كنهها ،
فكذلك النجاة والفوز في الآخرة لهما أسباب خفية ، ليس في قوَّة البشر
الاطلاع عليها ، يعبر عن ذلك السبب الخفي المفضي إلى النجاة بالعفو
والرضا ، وعمَّا يفضي إلى الهلاك بالغضب والانتقام ، ووراء ذلك سرُّ
المشيئة الإلهية الأزلية التي لا يطلع الخلق عليها ، فلذلك يجب علينا أن
نجوِّز العفو عن العاصي وإن كثرت سيئاته الظاهرة ، والغضب على المطيع
وإن كثرت طاعاته الظاهرة ؛ فإنَّ الاعتماد على التقوى ، والتقوى في
القلب ، وهو أغمض من أن يطلع عليه صاحبه ، فكيف غيره ؟!

ولكن قد انكشف لأرباب القلوب أنَّه لا عفو عن عبدٍ إلا بسبب خفيٍّ فيه
يقتضي العفو ، ولا غضب إلا بسبب باطنٍ يقتضي البعد من الله تعالى ،
ولولا ذلك . . لم يكن العفو والغضب جزاءً على الأعمال والأوصاف ، ولو
لم يكن جزاءً . . لم يكن عدلاً ، ولو لم يكن عدلاً . . لم يصحَّ قوله تعالى :
﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ ، ولا قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ ،
وكلُّ ذلك صحيح ، فليس للإنسان إلا ما سعى ، وسعيه هو الذي يرى ،
وكلُّ نفس بما كسبت رهينة ، فلما زاغوا . . أزاع الله قلوبهم ، ولما غيروا
ما بأنفسهم . . غيَّر الله ما بهم ؛ تحقيقاً لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا
بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ .

وهذا كله قد انكشف لأرباب القلوب انكشافاً أوضح من المشاهدة
بالبصر ؛ إذ البصر يمكن الغلط فيه ، إذ قد يرى البعيد قريباً ، والكبير

صغيراً ، ومشاهدة القلب لا يمكن الغلط فيها ، وإنما الشأن في انفتاح بصيرة القلب ، وإلا . . فما يرى بها بعد الانفتاح فلا يتصور فيه الكذب^(١) ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾^(٢) .



الرتبة الثالثة : رتبة الناجين :

وأعني بالنجاة : السلامة فقط ، دون السعادة والفوز ، وهم قوم لم يخدموا ليخلع عليهم ، ولم يقصروا فيعذبوا ، ويشبه أن يكون هذا حال المجانين ، والصبيان من الكفار ، والمعتوهين ، والذين لم تبلغهم الدعوة في أطراف البلاد وعاشوا على البله وعدم المعرفة ، فلم يكن لهم معرفة ، ولا جحود ، ولا طاعة ، ولا معصية ، ولا وسيلة تقربهم ، ولا جناية تبعدهم ، فما هم من أهل الجنة ولا من أهل النار ، بل ينزلون في منزلة بين المنزلتين ، ومقام بين المقامين ، عبر الشرع عنه بالأعراف ، وحلول طائفة

(١) فإن قلت : نرى جماعة من أرباب العقول يغلطون في نظرهم . . فاعلم : أن فيهم خيالات وأوهاماً واعتقادات يظنون أن أحكامها أحكام العقل ، فالغلط منسوب إليها ، فأما العقل المجرد إذا تجرد عن غشاوة الوهم والخيال . . لم يتصور أن يغلط ، بل يرى الأشياء على ما هي عليه ، وفي تجرده عسر . « إتحاف » (٥٦٣ / ٨) .

(٢) أي : من عجائب الملكوت الأعلى ، وذلك لأن البصر من عالم الشهادة والحس ، والبصيرة من عالم الملكوت ، لا ترى بالأبصار ، وإنما تشاهد ببصيرة القلب . « إتحاف » (٥٦٤ / ٨) .

وكما تتضاعف أوزارُهُمْ على الذنوبِ فكذلك يتضاعفُ ثوابُهُمْ على الحسناتِ إذا اتَّبَعُوا .

فإذا تركَ التَّجَمُّلَ والميلَ إلى الدنيا ، وقنعَ منها باليسيرِ ، ومنَ الطعامِ بالقوتِ ، ومنَ الكسوةِ بالخلقِ ، فَيَتَّبِعْ عليه ، ويقتدي به العلماءُ والعوامُ ، فيكونُ لَهُ مثلُ ثوابِهِمْ ، وإنْ مالَ إلى التَّجَمُّلِ . . مالتُ طباعُ مَنْ دونهُ إلى التشبُّهِ به ، ولا يقدرُونَ على التَّجَمُّلِ إلا بخدمةِ السلاطينِ ، وجمعِ الحطامِ مِنَ الحرامِ ، ويكونُ هُوَ السَّبَبُ في جميعِ ذلك ، فحركاتُ العلماءِ في طوري الزيادةِ والنقصانِ تتضاعفُ آثارُها ؛ إمَّا بالربحِ ، وإمَّا بالخسرانِ .
وهذا القدرُ كافٍ في تفاصيلِ الذنوبِ التي التوبةُ توبةٌ عنها .



والقدرُ الممكنُ ذكرُهُ ما فصلَهُ القرآنُ ، فليسَ بعدَ بيانِ اللهِ بيانُ ، والذي لا يمكنُ التعبيرُ عنه في هذا العالمِ فهو الذي أجملَهُ قولُهُ تعالى : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ ، وقولُهُ عزَّ وجلَّ : « أعددتُ لعبادي الصالحينَ ما لا عينٌ رأت ، ولا أذنٌ سمعت ، ولا خطرَ على قلبِ بشرٍ » (١) .

والعارفونَ مطلبُهُم تلكَ الحالةَ التي لا يُتصوَرُ أنْ تخطرَ على قلبِ بشرٍ في هذا العالمِ ، فأما الحورُ والقصورُ ، والفواكهُ واللبنُ والعسلُ والخمرُ ، والحليُّ والأساورُ . . فإنَّهُم لا يحرصونَ عليها ، ولو أعطوها . . لم يقنعوا بها ، ولا يطلبونَ إلا لذةَ النظرِ إلى وجهِ اللهِ الكريمِ ، فهي غايةُ السعاداتِ ، ونهايةُ اللذاتِ .

ولذلكَ لما قيلَ لرابعةِ العدويَّةِ رحمةُ اللهِ عليها : كيفَ رغبتُك في الجنةِ ؟ فقالتَ : الجارُ ثمَّ الدارُ .

فهؤلاءِ قومٌ شغلَهُم حبُّ ربِّ الدارِ عن الدارِ وزينتها ، بل عن كلِّ شيءٍ سواه ، حتَّى عن أنفسهم ، ومثالُهُم مثالُ العاشقِ المستهترِ بمعشوقِهِ ، المستوفي همَّةً بالنظرِ إلى وجهِهِ والفكرِ فيه ، فإنه في حالِ الاستغراقِ غافلٌ عن نفسه ، لا يحسُّ بما يصيبُهُ في بدنه ، ويُعبِّرُ عن هذهِ الحالةِ بأنَّه فني عن نفسه ، ومعناه : أنه صارَ مستغرقاً بغيرِهِ ، وصارتْ همومُهُ همّاً واحداً وهو

(١) حديث قدسي رواه البخاري (٣٢٤٤) ، ومسلم (٢٨٢٤) .

محبوبته ، ولم يبق فيه متسع لغير محبوبه حتى يلتفت إليه ، لا إلى نفسه ولا إلى غيره .

وهذه الحالة هي التي توصل في الآخرة إلى قرّة عين لا يُصوّر أن تخطر في هذا العالم على قلب بشر ، كما لا يُصوّر أن تخطر صورة الألوان والألحان على قلب الأصم والأكمه ، إلا أن يُرفع الحجاب عن سمعه وبصره ، فعند ذلك يدرك حالة يعلم قطعاً أنه لم يُصوّر أن تخطر بباليه قبل ذلك صورتها ، فالدنيا حجاب على التحقيق ، ويرفعه ينكشف الغطاء ، فعند ذلك يدرك ذوق الحياة الطيبة ، وأن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون .

فهذا القدر كاف في بيان توزع الدرجات على الحسنات ، والدركات على السيئات ، والله الموفق بلطفه .



بيان ما تعظم به الصغائر من الذنوب

اعلم : أنَّ الصغيرة تكبرُ بأسباب :

منها الإصرارُ والمواظبةُ : ولذلك قيل : « لا صغيرة مع إصرار ، ولا كبيرة مع استغفار »^(١) ، فكبيرةٌ واحدةٌ تنصرمُ ولا يتبعها مثلها لو تصوّر ذلك . . . لكان العفو عنها أرجى من صغيرةٍ يواظبُ العبدُ عليها .

ومثال ذلك مثال قطراتٍ من الماء تقعُ على الحجرِ على توالي فتؤثرُ فيه ، وذلك القدرُ من الماء لو صبَّ عليه دفعةً واحدةً . . لم يؤثر .

ولذلك قال رسولُ الله صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم : « خيرُ الأعمالِ أدومُها وإن قلَّ »^(٢) ، والأشياءُ تُستبانُ بأضدادِها ، فإن كان النافعُ من العملِ هو الدائمُ وإن قلَّ ، والكثيرُ المتصرمُ قليلُ النفعِ في تنويرِ القلبِ وتطهيره . . فكذلك القليلُ من السيئاتِ إذا دام . . عظم تأثيرُهُ في إظلامِ القلبِ .

إلا أنَّ الكبيرةَ قلماً يُصوّرُ الهجومُ عليها بغتةً من غيرِ سوابقٍ ولو اُحِقَ من جملةِ الصغائرِ ، فقلماً يزني الزاني بغتةً من غيرِ مراودةٍ ومقدماتٍ ، وقلماً يقتلُ القاتلُ بغتةً من غيرِ مشاحنةٍ سابقةٍ ومعاداةٍ ، فكلُّ كبيرةٍ تكتنفها صغائرُ

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التوبة » (١٧٣) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٨٥٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً .

(٢) رواه البخاري (٦٤٦٤) ، ومسلم (٧٨٢) بنحوه .

سابقةً ولاحقةً ، ولو تُصوّرت كبيرةً وحدها بغتةً ولم يتفق إليها عودٌ . ربّما كان العفو فيها أرجى من صغيرةٍ واطب الإنسان عليها عمره .



ومنها أن يستصغر الذنب : فإن الذنب كلما استعظمه العبد من نفسه . . صغر عند الله تعالى ، وكلما استصغره . . كبر عند الله تعالى ؛ لأن استعظامه يصدر عن نفور القلب عنه ، وكرهيته له ، وذلك النفور يمنع من شدة تأثيره به ، واستصغاره يصدر عن الإلف به ، وذلك يوجب شدة الأثر في القلب ، والقلب هو المطلوب تنويره بالطاعات ، والمحذور تسويده بالسيئات ، ولذلك لا يؤاخذ بما يجري عليه في الغفلة ، فإن القلب لا يتأثر بما يجري في الغفلة .

وقد جاء في الخبر : « المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه يخاف أن يقع عليه ، والمنافق يرى ذنبه كذباب مرّ على أنفه فأطاره »^(١) .

وقال بعضهم : (الذنب الذي لا يُغفر قول العبد : ليت كل شيء عملته مثل هذا)^(٢) .

(١) رواه البخاري (٦٣٠٨) عن الحارث بن سويد قال : حدثنا عبد الله بن مسعود حديثين ؛ أحدهما عن النبي صلى الله عليه وسلم والآخر عن نفسه ، وذكره أولاً ، وذكر بعد حديث : « لله أفرح بتوبة العبد » ، ولم يبين المرفوع من الموقوف ، وصرح أحمد في « المسند » (٣٨٣/١) برواية بوقفه .

(٢) قوت القلوب (١٨١/١) .

وإنما يعظم الذنبُ في قلبِ المؤمنِ لعلمِهِ بجلالِ الله ، فإذا نظرَ إلى عظمِ مَنْ عصَى بذلكَ الذنبَ . . رأى الصغيرةَ كبيرةً ، وقد أوحى اللهُ تعالى إلى بعضِ أنبيائه : (لا تنظرُ إلى قلَّةِ الهديةِ ، وانظرُ إلى عظمِ مهديها ، ولا تنظرُ إلى صغرِ الخطيئةِ ، وانظرُ إلى كبرياءِ مَنْ واجهتهُ بها)^(١) .

وبهذا الاعتبارِ قالَ بعضُ العارفينَ : (لا صغيرة ، بل كلُّ مخالفةٍ فهي كبيرة)^(٢) .

ولذلكَ قالَ بعضُ الصحابةِ للتابعينَ : (إنَّكُمْ لتعملونَ أعمالاً هي في أعينِكُمْ أدقُّ مِنَ الشعرِ ، كنَّا نعدُّها على عهدِ رسولِ الله صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِنَ الموبقاتِ)^(٣) إذ كانتَ معرفةُ الصحابةِ بجلالِ الله تعالى أتمَّ ، فكانتِ الصغائرُ عندهمُ بالإضافةِ إلى جلالِ الله تعالى كبائرَ .

وبهذا السببِ يعظمُ مِنَ العالمِ ما لا يعظمُ مثلهُ مِنَ الجاهلِ ، ويُتجاوزُ عنِ العامِّيِّ في أمورٍ لا يُتجاوزُ في أمثالِها عنِ العارفِ ؛ لأنَّ الذنبَ والمخالفةَ يكبرُ بمعرفةِ قدرِ المخالفِ .



(١) قوت القلوب (١٨٢ / ١) .

(٢) رواه عن ابن عباس رضي الله عنهما اللالكائي في « اعتقاد أهل السنة » (١٩١٦) بنحوه ، واختار ذلك القول أبو إسحاق الإسفرايني وأبو بكر الباقلاني وإمام الحرمين في « الإرشاد » والقشيري في « المرشدة » ، بل حكاه ابن فورك عن الأشاعرة واختاره في « تفسيره » واعتمد عليه التقي السبكي . « إتحاف » (٥٧١ / ٨) .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (٣ / ٣) .

ومنها السرورُ بالصغيرة : والفرحُ والتبجُّحُ بها ، واعتدادُ التمكنِ مِنْ ذلكَ نعمةً ، والغفلةُ عَنْ كونهِ سببَ الشقاوةِ ، فكلُّما غلبَتْ حلاوةُ الصغيرةِ عِنْدَ العبدِ . . كبرتِ الصغيرةُ ، وعظمَ أثرُها في تسويدِ قلبِهِ ، حتَّى إِنَّ مِنْ المذنبينَ مَنْ يتمدَّحُ بذنبِهِ ويتبجَّحُ بِهِ ؛ لشدةِ فرحهِ بمقارفتهِ إيَّاهُ ، كما يقولُ : أما رأيتني كيفَ مرَّقتُ عرضَهُ ؟ ويقولُ المناظرُ في مناظرتهِ : أما رأيتني كيفَ فضحتُهُ ؟ وكيفَ ذكرتُ مساوئَهُ حتَّى أخجلتُهُ ؟ وكيفَ استخففتُ بِهِ ؟ وكيفَ لبستُ عليهِ ؟ ويقولُ المعاملُ في التجارةِ : أما رأيتَ كيفَ رَوَّجتُ عليهِ الزائفَ ؟ وكيفَ خدعتهُ ؟ وكيفَ غبتهُ في مالِهِ ؟ وكيفَ استحمقتهُ ؟

فهذا وأمثالهُ تكبرُ بِهِ الصغائرُ ، فَإِنَّ الذنوبَ مهلكاتٌ ، وإذا دُفِعَ العبدُ إليها ، وظفرَ الشيطانُ بِهِ في الحملِ عليها . . فينبغي أَنْ يكونَ في مصيبةٍ وتأسُّفٍ بسببِ غلبةِ العدوِّ عليه ، وبسببِ بعدهِ مِنَ اللَّهِ تعالى ، فالمریضُ الذي يفرحُ بأنْ ينكسرَ إناءُهُ الذي فيه دواءُهُ حتَّى يتخلَّصَ مِنْ ألمِ شربه . . لا يُرجى شفاؤُهُ .



ومنها أَنْ يتهاونَ بسترِ اللَّهِ عليهِ وحلمِهِ عنه وإمهالهِ إيَّاهُ : ولا يدري أَنَّهُ إِنَّمَا يُمهَلُ مقتاً ليزدادَ بالإمهالِ إثماً ، فيظنُّ أَنَّ تمكُّنَهُ مِنَ المعاصي عنايةً مِنَ اللَّهِ تعالى بِهِ ، فيكونُ ذلكَ لأمنِهِ مِنْ مكرِ اللَّهِ ، وجهلهِ بمكامنِ الغرورِ باللهِ ، كما

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُكُمْ جَهَنَّمُ يَصَلَوْنَهَا فَيَنْسُ الْمَصِيرُ ﴾ .



ومنها أَنْ يَأْتِيَ الذَّنْبَ وَيُظْهِرَهُ : بَأَنْ يَذْكُرَهُ بَعْدَ إِتْيَانِهِ ، أَوْ يَأْتِيَهُ عَلَى مَلَأٍ وَمَشْهَدٍ مِنْ غَيْرِهِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْهُ جُنَايَةٌ عَلَى سِتْرِ اللَّهِ الَّذِي أَسَدَلَهُ عَلَيْهِ ، وَتَحْرِيكَ لِرَغْبَةِ الشَّرِّ فَيَمُنُ أَسْمَعُهُ ذَنْبُهُ أَوْ أَشْهَدُهُ فَعَلُهُ ، فَهَمَا جُنَايَتَانِ انْضَمَتَا إِلَى جُنَايَتِهِ . . فَعَلَّظَتْ بِهِ .

فَإِنْ انْصَافَ إِلَى ذَلِكَ التَّرغِيبُ لِلْغَيْرِ فِيهِ ، وَالْحَمْلُ عَلَيْهِ ، وَتَهْيِئَةُ الْأَسْبَابِ لَهُ . . صَارَتْ جُنَايَةٌ رَابِعَةً ، وَتَفَاحُشُ الْأَمْرِ ، وَفِي الْخَبَرِ : « كُلُّ النَّاسِ مُعَافَى إِلَّا الْمَجَاهِرِينَ ، يَبِيتُ أَحَدُهُمْ عَلَى ذَنْبٍ قَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ ، فَيَصْبِحُ فَيُكْشَفُ سِتْرُ اللَّهِ وَيَتَحَدَّثُ بِذَنْبِهِ »^(١) ، وَهَذَا لِأَنَّ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ وَنَعَمِهِ أَنَّهُ يَظْهَرُ الْجَمِيلَ وَيَسْتُرُ الْقَبِيحَ ، وَلَا يَهْتِكُ السِّرَّ ، فَالْإِظْهَارُ كَفْرَانٌ لِهَذِهِ النِّعْمَةِ .

وَقَالَ بَعْضُهُمْ : (لَا تَذَنْبُ ، فَإِنْ كَانَ وَلَا بَدَّ . . فَلَا تَرْغَبُ غَيْرَكَ فِيهِ فَتَذَنْبَ ذَنْبَيْنِ)^(٢) .

(١) قوت القلوب (١٨٣/١) ، ورواه بنحوه البخاري (٦٠٦٩) ، ومسلم (٢٩٩٠) .

(٢) قوت القلوب (١٨٣/١) .

ولذلك قال تعالى : ﴿ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ
بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ ﴾ .
وقال بعض السلف : (ما انتهك المرء من أخيه حرمة أعظم من أن
يساعده على معصية ثم يهونها عليه) (١) .



ومنها أن يكون المذنب عالماً يقتدى به : فإذا فعله بحيث يرى ذلك
منه . . كبر ذنبه ؛ كلبس العالم الإبرسم ، وركوبه مراكب الذهب والفضة ،
وأخذه مال الشبهة من أموال السلاطين ، ودخوله على السلاطين ، وتودده
إليهم (٢) ، ومساعدته إياهم بترك الإنكار عليهم ، وإطلاقه اللسان في
الأعراض ، وتعديه باللسان في المناظرة ، وقصده الاستخفاف ، واشتغاله
من العلوم بما لا يقصد منه إلا الجاه ؛ كعلم الجدل والمناظرة ، فهذه
ذنوب تبغ العالم عليها ، فيموت العالم ويبقى شره مستطيراً في العالم آماداً
متطاولة ، فطوبى لمن إذا مات . . مات مع ذنوبه .

وفي الخبر : « مَنْ سَنَّ سَنَةً سيئة . . فعليه وزرها ووزر من عمل بها
لا ينقص من أوزارهم شيئاً » (٣) .

(١) قوت القلوب (١٨٣ / ١) .

(٢) في (ب ، ج) : (وتردده إليهم) بدل (وتودده إليهم) .

(٣) رواه مسلم (١٠١٧) .

وقال تعالى : ﴿ وَنَكُتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاثَرَهُمْ ﴾ ، والآثارُ : ما يلحقُ
مِنَ الأعمالِ بعدَ انقضاءِ العملِ والعاملِ .

وقال ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : (ويلٌ للعالمِ مِنَ الأتباعِ ، يزلُّ زَلَّةٌ
فيرجعُ عنها ، ويحتملُها الناسُ فيذهبونَ بها في الآفاقِ) (١) .

وقال بعضهم : (مثلُ زَلَّةِ العالمِ مثلُ انكسارِ السفينةِ ، تغرقُ ويغرقُ
أهلُها) (٢) .

وفي الإسرائيلياتِ : أَنَّ عالماً كان يُضلُّ الناسَ بالبدعةِ ، ثمَّ أدركتهُ
توبةٌ ، فعملَ في الإصلاحِ دهرًا ، فأوحى اللهُ تعالى إلى نبيِّهم : قُلْ لَهُ : إِنَّ
ذَنْبَكَ لَوْ كَانَ فيما بيني وبينكَ . . لغفرتهُ لك ، ولكنْ كيفَ بمنْ أضللتَ مِنْ
عبادي فأدخلتهمُ النارَ ؟! (٣) .

فهذا يتضحُ أَنَّ أمرَ العلماءِ مخطرٌ ، فعليهم وظيفتان :

إحداهُما : تركُ الذنبِ .

والأخرى : إخفاؤه .

(١) قوت القلوب (١٨٣/١) .

(٢) القول لعبد الله بن المعتز ، رواه عنه الخطيب في « الفقيه والمتفقه » (٦٤٦) .

(٣) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٣١٣) ، والخطيب في « الفقيه والمتفقه »

(١٠٤٦) عن خالد الربيعي ، وقد نقل الخبر صاحب « القوت » (١٨٤/١) وقال

عقبه : (فأما استحلال المعصية وإحلالها للغير . . فليس من هذه الأبواب في شيء ،

إنما ذلك خروج عن الملة وتبديل للشريعة ، وهو الكفر بالله تعالى) .

وكما تتضاعف أوزارهم على الذنوب فكذلك يتضاعف ثوابهم على الحسنات إذا اتبعوا .

فإذا ترك التجمّل والميل إلى الدنيا ، وقنعَ منها باليسير ، ومنَ الطعام بالقوت ، ومنَ الكسوة بالخلق ، فَيُتَّبَعُ عليه ، ويقتدي به العلماء والعوام ، فيكونُ له مثلُ ثوابهم ، وإن مالَ إلى التجمّل . . مالت طباعُ مَنْ دونه إلى التشبّه به ، ولا يقدرُونَ على التجمّل إلا بخدمة السلاطين ، وجمع الحطام من الحرام ، ويكونُ هو السبب في جميع ذلك ، فحركات العلماء في طوري الزيادة والنقصان تتضاعف آثارها ؛ إمّا بالربح ، وإمّا بالخسران .
وهذا القدرُ كافٍ في تفاصيل الذنوب التي التوبةُ توبةٌ عنها .



الرُّكْنُ الثَّالِثُ

في تمام التَّوْبَةِ وشروطها في دوامها إلى آخر العمر

قد ذكرنا أنَّ التَّوْبَةَ عبارةٌ عن ندمٍ يورثُ عزمًا وقصدًا ، وذلك الندمُ أورثهُ العلمُ بكونِ المعاصي حائلًا بينَهُ وبينَ محبوبِهِ .

ولكلِّ واحدٍ مِنَ العلمِ والندمِ والعزمِ دوامٌ وتمامٌ ، ولتمامِها علامةٌ ، ولدوامِها شرطٌ ، فلا بدَّ مِنْ بيانِها .

أَمَّا العلمُ : فالنظرُ فِيهِ نظرٌ في سببِ التَّوْبَةِ ، وسيأتي .

وأَمَّا الندمُ : فهوَ توجُّعُ القلبِ عندَ شعورهِ بفواتِ المحبوبِ ، وعلامتهُ : طولُ الحسرةِ والحزنِ ، وانسكابُ الدمعِ وطولُ البكاءِ والفكرِ ، فَمَنْ استشعرَ عقوبةَ نازلةٍ بولدهِ أو ببعضِ أعزَّتِهِ . . طالَ عليه بكاؤه لمصيبَتِهِ ، وأيُّ عزيزٍ أعزُّ عليه مِنْ نَفْسِهِ ؟! وأيُّ عقوبةٍ أشدُّ مِنَ النارِ ؟! وأيُّ سببٍ أدلُّ على نزولِ العقوبةِ مِنَ المعاصي ؟! وأيُّ مخبرٍ أصدقُ مِنَ اللَّهِ ورسولِهِ ؟!

ولو حَدَّثَهُ إنسانٌ واحدٌ يسمَّى طبيباً أنَّ ولدهُ المريضَ لا يبرأ ، وأنه سيموتُ منه . . طالَ في الحالِ حزنُهُ ، فليسَ ولدهُ بأعزَّ مِنْ نَفْسِهِ ، ولا الطبيبُ بأعلمَ ولا أصدقُ مِنَ اللَّهِ ورسولِهِ ، ولا الموتُ بأشدَّ مِنَ النارِ ، ولا المرضُ بأدلَّ على الموتِ مِنَ المعاصي على سخطِ اللَّهِ تعالى ، والتعرضُ بها للنارِ .

فألم الندم كلما كان أشدَّ . . . كان تكفير الذنوب به أرجى ، فعلامه صحة
الندم رقة القلب ، وغزارة الدمع ، وفي الخبر : (جالسوا التوابين ؛ فإنهم
أرقُّ أفئدة)^(١) .

ومن علامته : أن تتمكّن مرارة تلك الذنوب في قلبه بدلاً من حلاوتها ،
فيستبدل بالميل كراهية ، وبالرغبة نفرة .

وفي الإسرائيليات : أن الله سبحانه وتعالى قال لبعض أنبيائه وقد سأله
قبول توبة عبد بعد أن اجتهد سنين في العبادة ولم ير قبول توبته فقال :
وعزتي وجلالي ؛ لو شفع فيه أهل السماوات والأرض ما قبلت توبته
وحلاوة ذلك الذنب الذي تاب منه في قلبه^(٢) .



فإن قلت : فالذنوب هي أعمالٌ مشتهاةٌ بالطبع ، فكيف يجدُ مرارتها ؟
فأقول : من تناول عسلاً كان فيه سمٌ ولم يدركه بالذوق واستلذه ، ثم
مرضَ وطال مرضه وألمه ، وتناثر شعره ، وفلجت أعضاؤه ، فإذا قدّم إليه
عسلٌ فيه مثلُ ذلك السمِّ وهو في غاية الجوع والشهوة للحلاوة . . فهل تنفّر
نفسه عن ذلك العسل أم لا ؟

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٦٠٦) ، وأحمد في « الزهد » (٦٣١) موقوفاً
على عمر رضي الله عنه .

(٢) قوت القلوب (١٨١ / ١) .

فإن قلت : لا ، فهو جحدٌ للضرورة والمشاهدة ، بل ربّما تنفر عن العسل الذي ليس فيه سمٌ أيضاً ؛ لشبهه به !

فوجدانُ التائبِ مرارةَ الذنبِ كذلك يكونُ ، وذلكَ لعلمِهِ بأنَّ كلَّ ذنبٍ فذوقُهُ ذوقُ العسلِ ، وعملهُ عملُ السمِّ .

ولا تصحُ التوبةُ ولا تصدقُ إلا بمثلِ هذا الإيمانِ ، ولَمَّا عَزَّ مثلُ هذا الإيمانِ .. عزَّتِ التوبةُ والتائبونَ ، فلا ترى إلا معرضاً عن الله تعالى ، متهاوناً بالذنوبِ ، مصراً عليها .

فهذا شرطُ تمامِ الندمِ .

وينبغي أن يدومَ إلى الموتِ ، وينبغي أن يجدَ هذه المرارةَ في جميعِ الذنوبِ وإن لم يكنْ قد ارتكبها من قبلُ ؛ كما يجدُ متناولُ السمِّ في العسلِ النفرةَ من الماءِ الباردِ مهما علمَ أن فيه مثلَ ذلكِ السمِّ ؛ إذ لم يكنْ ضررُهُ من العسلِ ، بل ممّا فيه ، ولم يكنْ ضررُ التائبِ من سرقةِ وزناه من حيثُ إنَّهُ سرقةٌ وزناً ، بل من حيثُ مخالفتُهُ أمرَ الله تعالى ، وذلكَ جارٍ في كلِّ ذنبٍ .

وأما القصدُ الذي ينبعثُ منه ، وهو إرادةُ التداركِ : فلهُ تعلُّقٌ بالحالِ ؛ وهو موجبُ تركِ كلِّ محظورٍ هو ملابسٌ له ، وأداءُ كلِّ فرضٍ هو متوجّهٌ عليه في الحالِ ، ولهُ تعلُّقٌ بالماضي ؛ وهو تداركُ ما فرطَ ، ولهُ تعلُّقٌ بالمستقبلِ ؛ وهو دوامُ الطاعةِ ودوامُ تركِ المعصيةِ إلى الموتِ .

وشرطُ صحتهِ فيما يتعلّقُ بالماضي : أن يردَّ فكرُهُ إلى أوّلِ يومٍ بلغ فيه

بالسنِّ أو الاحتلام ، ويفتَشَّ عَمَّا مضى مِنْ عمرِهِ سنةً سنةً ، وشهراً شهراً ،
ويوماً يوماً ، ونَفْساً نَفْساً ، وينظرُ إلى الطاعاتِ ما الذي قَصَّرَ فِيهِ منها ، وإلى
المعاصي ما الذي قارَفَهُ منها .

فَإِنْ كَانَ قَدْ تَرَكَ صَلَاةً ، أَوْ صَلَّاهَا فِي ثَوْبٍ نَجَسٍ ، أَوْ صَلَّاهَا بِنِيَّةٍ غَيْرِ
صَحِيحَةٍ لجهله بشرطِ النِّيَّةِ . . فيقضيها عن آخرها ، فَإِنْ شَكَّ فِي عَدَدِ مَا فَاتَهُ
منها . . حَسَبَ مَنْ مَدَّةِ بُلُوغِهِ وَتَرَكَ الْقَدَرَ الَّذِي يَسْتَيْقِنُ أَنَّهُ أَدَّاهُ ، ويقضي
الباقِي ، وَلَهُ أَنْ يَأْخُذَ فِيهِ بِغَالِبِ الظَّنِّ ، وَيَصِلُ إِلَيْهِ عَلَى سَبِيلِ التَّحَرِّيِ
وَالاجْتِهَادِ .

وَأَمَّا الصَّوْمُ . . فَإِنْ كَانَ قَدْ تَرَكَهُ فِي سَفَرٍ وَلَمْ يَقْضِهِ ، أَوْ أَفْطَرَ عَمْدًا ، أَوْ
نَسِيَ النِّيَّةَ بِاللَّيْلِ وَلَمْ يَقْضِ . . فَيَتَعَرَّفُ مَجْمُوعَ ذَلِكَ بِالتَّحَرِّيِ وَالاجْتِهَادِ ،
وَيَسْتَغْلُ بِقَضَائِهِ .

وَأَمَّا الزَّكَاةُ . . فَيَحْسَبُ جَمِيعَ مَالِهِ ، وَعَدَدَ السِّنِينَ مِنْ أَوَّلِ مَلِكِهِ ، لَا مِنْ
زَمَانِ الْبُلُوغِ ؛ فَإِنَّ الزَّكَاةَ وَاجِبَةٌ فِي مَالِ الصَّبِيِّ ، فَيُؤَدِّي مَا عَلِمَ بِغَالِبِ الظَّنِّ
أَنَّهُ فِي ذِمَّتِهِ ، فَإِنْ أَدَّاهُ لَا عَلَى وَجْهِ يَوَافِقُ مَذْهَبَهُ ؛ بَأَن لَمْ يُصْرَفْ إِلَى
الْأَصْنَافِ الثَّمَانِيَةِ ، أَوْ أَخْرَجَ الْبَدَلَ وَهُوَ عَلَى مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ
تَعَالَى . . فيقضي جميعَ ذلك ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَجْزئُهُ أَصْلًا ، وَحَسَابُ الزَّكَاةِ
وَمَعْرِفَةُ ذَلِكَ يَطُولُ ، وَيَحْتَاجُ فِيهِ إِلَى تَأَمُّلٍ شَافٍ ، وَيَلْزَمُهُ أَنْ يَسْأَلَ عَنْ كَيْفِيَّةِ
الْخُرُوجِ عَنْهُ الْعُلَمَاءُ .

وأما الحجّ . . فإن كان قد استطاع في بعض السنين ولم يتفق له الخروج وهو الآن قد أفلس . . فعليه الخروج ، فإن لم يقدر مع الإفلاس . . فعليه أن يكتسب من الحلال قدر الزاد ، فإن لم يكن له كسب ولا مال . . فعليه أن يسأل الناس ليصرف إليه من الزكوات أو الصدقات ما يحج به ؛ فإنه إن مات قبل الحجّ . . مات عاصياً ، قال عليه الصلاة والسلام : « من مات ولم يحج . . فليمت إن شاء يهودياً وإن شاء نصرانياً »^(١) ، والعجز الطارئ بعد القدرة لا يسقط عنه الحجّ .

فهذا طريق تفتيشه عن الطاعات وتداركها .

وأما المعاصي . . فينبغي أن يفتش من أول بلوغه عن سمعه ، وبصره ، ولسانه ، وبطنه ، ويده ، ورجله ، وفرجه ، وسائر جوارحه ، ثم ينظر في جميع أيامه وساعاته ، ويفصل عند نفسه ديوان معاصيه ، حتى يطلع على جميعها ؛ صغائرها وكبائرها ، ثم ينظر فيها : فما كان من ذلك بينه وبين الله تعالى من حيث لا يتعلّق بمظلمة العباد ؛ كنظر إلى غير محرم ، وقعود في مسجد مع الجنابة ، ومسّ مصحفٍ بغير وضوء ، واعتقاد بدعة ، وشرب خمر ، وسماع ملاه ، وغير ذلك ممّا لا يتعلّق بمظالم العباد . . فالتوبة عنها بالندم والتحشّر عليها ، وبأن يحسب مقدارها من حيث الكثرة ومن حيث

(١) رواه الترمذي (٨١٢) ، والدارمي في « سننه » (١٨٢٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٥١ / ٩) ، والبيهقي في « السنن الكبرى » (٣٣٤ / ٤) وقال : (وهذا وإن كان إسناده غير قوي . . فله شاهد من قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه) وذكره .

المدة ، ويطلب لكل معصية منها حسنة تناسبها ، فيأتي من الحسنات بمقدار تلك السيئات ، أخذاً من قوله صلى الله عليه وسلم : « اتق الله حيث كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها »^(١) ، بل من قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ .

فيكفر سماع الملاهي بسماع القرآن وبمجالس الذكر ، ويكفر القعود في المسجد جنباً بالاعتكاف فيه مع الاشتغال بالعبادة ، ويكفر مس المصحف محدثاً بإكرام المصحف ، وكثرة قراءة القرآن منه ، وكثرة تقبيله^(٢) ، وبأن يكتب مصحفاً ويجعله وقفاً ، ويكفر شرب الخمر بالتصدق بكل شراب حلال هو أطيب منه وأحب إليه .

وعد جميع المعاصي غير ممكن ، وإنما المقصود سلوك طريق المضادة ، فإن المرض يعالج بضده ، فكل ظلمة ارتفعت إلى القلب بمعصية فلا يمحوها إلا نور يرتفع إليها بحسنة تضادها ، والمتضادات هي المتناسبات ، فلذلك ينبغي أن يمحو كل سيئة بحسنة من جنسها لكي تضادها ، فإن البياض يزال بالسواد ، لا بالحرارة والبرودة .

وهذا التجريد والتحقيق من التلطف في طريق المحو ، فالرجاء فيه أصدق ، والثقة به أكثر من أن يواظب على نوع واحد من العبادات ، وإن كان ذلك أيضاً مؤثراً في المحو .

(١) رواه أحمد في « المسند » (٢٣٦/٥) ، والطبراني في « الكبير » (١٤٥/٢٠) .

(٢) ووضعه على العينين ، ورفع في أشرف المواضع . « إتحاف » (٥٧٦/٨) .

فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى .

ويدلُّ على أنَّ الشيءَ يكفرُ بضده أنَّ حبَّ الدنيا رأسُ كلِّ خطيئةٍ ، وأثرُ اتباع الدنيا في القلبِ السرورُ بها ، والإلفُ لها ، والحنينُ إليها ، فلا جرمَ كانَ كلُّ أذىٍ يصيبُ المسلمَ ينبو بسببه قلبُه عن الدنيا يكونُ كفارةً له ؛ إذ القلبُ يتجافى بالهمومِ والغمومِ عن دارِ الهمومِ ، قالَ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « مِنْ الذنوبِ ذنوبٌ لا يكفرُها إلا الهمومُ » ، وفي لفظٍ آخرَ : « إلا الهمُّ بطلبِ المعيشةِ »^(١) .

وفي حديثِ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها : « إذا كثرتْ ذنوبُ العبدِ ولمْ تكنْ له أعمالٌ تكفرُها . . أدخلَ اللهُ تعالى عليه الهمومَ ، فتكونُ كفارةً لذنوبِهِ »^(٢) . ويُقالُ : (إنَّ الهمَّ الذي يدخلُ على القلبِ والعبدُ لا يعرفُهُ هوَ ظلمةُ الذنوبِ والهمُّ بها ، وشعورُ القلبِ بوقفةِ الحسابِ وهولِ المطلعِ)^(٣) .



فإن قلتَ : همُّ الإنسانِ غالباً بمالهِ وولدهِ وجاهِهِ ، وهوَ خطيئةٌ ، فكيفَ يكونُ كفارةً ؟

-
- (١) رواه الطبراني في « الأوسط » (١٠٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٣٥ / ٦) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٠٠ / ٥٤) .
 (٢) رواه أحمد في « المسند » (١٥٧ / ٦) بنحوه .
 (٣) بنحوه عند صاحب « القوت » (١٨٦ / ١) .

فاعلم : أنَّ الحبَّ له خطيئةٌ ، والحرمان عنه كفَّارةٌ ، ولو تمتَّع به ..
 لتَمَّتِ الخطيئةُ ، فقد رُوِيَ أنَّ جبريلَ عليه السلامُ دخلَ على يوسفَ عليه
 السلامُ في السجنِ ، فقالَ له : كيفَ تركتَ الشيخَ الكئيبَ ؟ فقالَ : قد حزنَ
 عليك حزنٌ مئةَ ثكلى ، قالَ : فما له عندَ الله ؟ قالَ : أجرٌ مئةَ شهيدٍ^(١) .

فإذا ؛ الهمومُ أيضاً مكفَّراتٌ حقوقُ الله .

فهذا حكمُ ما بينه وبينَ الله .

وأما مظالمُ العبادِ .. ففيها أيضاً معصيةٌ وجنايةٌ على حقِّ الله تعالى ،
 فإنَّ الله تعالى نهى عن ظلمِ العبادِ أيضاً ، فما يتعلَّقُ منه بحقُّ الله تعالى تداركهُ
 بالندمِ والتحصُّرِ ، وتركِ مثلهِ في المستقبلِ ، والإتيانِ بالحسناتِ التي هي
 أضدادُها ، فيقابلُ إيذاءهُ الناسَ بالإحسانِ إليهمُ ، ويكفِّرُ غضبَ أموالهمُ
 بالتصدُّقِ بملكِهِ الحلالِ ، ويكفِّرُ تناولَ أعراضِهِم بالغيبةِ والقدحِ فيهمُ بالثناءِ
 على أهلِ الدينِ وإظهارِ ما يعرفُ من خصالِ الخيرِ من أقرانهِ وأمثالهِ ، ويكفِّرُ
 قتلَ النفوسِ بإعتاقِ الرقابِ ؛ لأنَّ ذلكَ إحياءٌ ؛ إذ العبدُ مفقودٌ لنفسِهِ ،
 موجودٌ لسيِّدِهِ ، فالإعتاقُ إيجادٌ لا يقدرُ الإنسانُ على أكثرَ منه ، فيقابلُ
 الإعدامَ بالإيجادِ ، وبهذا تعرفُ أنَّ ما ذكرناه من سلوكِ طريقِ المضادةِ في
 التكفيرِ والمحوِّ مشهودٌ له في الشرعِ ، حيثُ كَفَّرَ القتلَ بإعتاقِ رقيةٍ ، ثمَّ إذا
 فعلَ ذلكَ كلُّهُ .. لم ينجِه ولم يكفِه ما لم يخرجْ عن مظالمِ العبادِ ، ومظالمِ

(١) كذا في « القوت » (١ / ١٨٦) ، وبنحوه رواه الطبري في « تفسيره » (٨ / ١٣ / ٦٠) .

العباد إمّا في النفوس ، أو الأموال ، أو الأعراض ، أو القلوب ؛ أعني به : الإيذاء المحض .

أمّا النفوس : فإن جرى عليه قتلٌ خطئاً . فتوبته بتسليم الدية ووصولها إلى المستحق ؛ إمّا منه أو من عاقلته ، وهو في عهدة ذلك قبل الوصول ، وإن كان عمداً موجباً للقصاص . فبالقصاص ، فإن لم يُعرف . . فيجب عليه أن يعترف عند وليّ الدم ، ويحكمه في روحه ، فإن شاء عفا عنه ، وإن شاء . . قتله ، ولا تسقط عهده إلا بهذا ، ولا يجوز له الإخفاء .

وليس هذا كما لو زنى ، أو شرب ، أو سرق ، أو قطع الطريق ، أو باشر ما يجب فيه حدّ الله تعالى ؛ فإنه لا يلزمه في التوبة أن يفضح نفسه ، ويهتك ستره ، ويلتمس من الوالي استيفاء حقّ الله تعالى ، بل عليه أن يتستر بستر الله عزّ وجلّ ، ويقيم حدّ الله تعالى على نفسه بأنواع المجاهدة والتعذيب ، فالعفو في محض حقوق الله تعالى قريب من التائبين النادمين .

فإن رفع أمره إلى الوالي حتّى أقام عليه الحدّ . . وقع موقعه ، وتكون توبته صحيحة مقبولة عند الله تعالى ؛ بدليل ما روي أنّ ماعز بن مالك أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ؛ إنّي قد ظلمت نفسي وزنيت ، وإنّي أريد أن تطهّرني ، فردّه ، فلمّا كان من الغد . . أتاه ، فقال : يا رسول الله ؛ إنّي قد زنيت ، فردّه الثانية والثالثة ، فلمّا كان في الرابعة . . أمر به فحفر له حفيرة ، ثمّ أمر به فرجم ، فكان الناس فيه فرقتين ؛ قائل يقول : لقد هلك ، لقد أحاطت به خطيئته ، وقائل يقول : ما توبة أفضل من

توبة ماعز ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة . . لو سعتهم »^(١) .

وجاءت الغامدية فقالت : يا رسول الله ؛ إنني قد زينت فطهرتني ، فردّها ، فلمّا كان من الغد . . قالت : يا رسول الله ؛ لم تردّني ؟ لعلك تريد أن تردّني كما ردّدت ماعزاً ، فوالله ؛ إنني لحبلى ، فقال صلى الله عليه وسلم : « إمّا لا . . فاذهبي حتّى تلدي » ، فلمّا ولدت . . أتت بالصبي في خرقة ، فقالت : هذا قد ولدته ، قال : « اذهبي فأرضعيه حتّى تظطمي » ، فلمّا فطمته . . أتت بالصبي وفي يده كسرة خبز ، وقالت : هذا يا نبي الله قد فطمته ، وقد أكل الطعام ، فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين ، ثم أمر بها ، فحفر لها إلى صدرها ، وأمر الناس فرجموها ، فأقبل خالد بن الوليد بحجر ، فرمى رأسها ، فتنضخ الدم على وجهه ، فسبّها ، فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبّه إيّاها ، فقال : « مهلاً يا خالد ، فوالذي نفسي بيده ؛ لقد تابّت توبة لو تابها صاحب مكس . . لغفر له » ، ثم أمر بها فصلي عليها ودفنت^(٢) .

(١) رواه مسلم (١٦٩٥) .

(٢) رواه مسلم (١٦٩٥) متابعة للحديث السابق ، ومفرداً كما هو هنا ، وقوله : « إمّا لا » : هو بكسر الهمز وتشديد الميم وبالإمالة ، وفي غير (ب ، س) : (أما الآن) بدل (إمّا لا) ، وهو غلط كما قاله الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٨ / ٥٨٠) ، قال الإمام النووي في « شرح مسلم » (٢٠٣ / ١١) ، (ومعناه : إذا أبيت أن تستري على نفسك وتتوبى وترجعي عن قولك . . فاذهبي حتّى تلدي فترجمين بعد ذلك) .

وأما القصاصُ وحدُّ القذفِ . . فلا بدَّ مِنْ تحكيمِ المستحقِّ فيه^(١) ، وإنْ كانَ المتناولُ مالاً قد تناوله بغضبٍ أو خيانةٍ أو غبنٍ في معاملةٍ بنوعٍ تلبسٍ ؛ كترويحٍ زائفٍ ، أو سترٍ عيبٍ مِنَ المبيعِ ، أو نقصٍ أجرَةٍ أجيرٍ ، أو منعٍ أجرتهِ ، فكلُّ ذلكَ يجبُ أنْ يفتشَ عنه ، لا مِنْ حدِّ بلوغِهِ ، بل مِنْ أوَّلِ حدِّ وجودِهِ ، فإنَّ ما يجبُ في مالِ الصبيِّ يجبُ على الصبيِّ إخراجُهُ بعدَ البلوغِ إنْ كانَ الوليُّ قد قصَّرَ فيه ، فإنَّ لمْ يفعلْ كانَ ظالماً مطالباً به ؛ إذْ يستوي في الحقوقِ الماليَّةِ الصبيُّ والبالغُ ، وليحاسبَ نفسه على الحَبَّاتِ والذَّرَّاتِ مِنْ أوَّلِ يومِ حياتهِ إلى يومِ توبتهِ قبلَ أنْ يُحاسبَ في القيامةِ ، وليناقشَ نفسه قبلَ أنْ يُناقشَ ، فمَنْ لمْ يُحاسبْ نفسه في الدنيا . . طالَ في الآخرةِ حسابُهُ .

فإذا حصلَ مجموعُ ما عليه بظنٍّ غالبٍ ونوعٍ مِنَ الاجتهادِ ممكنٍ . . فليكتبهُ ، وليكتبَ أساميَ أصحابِ المظالمِ واحداً واحداً ، وليطفِ في نواحي العالمِ وليطلبنَّهُم ، وليستحلَّهُم أو ليؤدِّ حقوقَهُم .

وهذه التوبةُ تشقُّ على الظلمةِ وعلى التجَّارِ ، فإنَّهُم لا يقدرُونَ على طلبِ المعاملينَ كلِّهمْ ، ولا على طلبِ ورثتهمْ ، ولكنْ على كلِّ واحدٍ منهمْ أنْ يفعلَ منه ما يقدرُ عليه ، فإنْ عجزَ . . فلا يبقى له طريقٌ إلا أنْ يكثرَ مِنَ الحسناتِ حتَّى تفيضَ منه يومَ القيامةِ ، فتؤخذَ حسناتُهُ وتوضعَ في موازينِ أربابِ المظالمِ ، ولتكنْ كثرةُ حسناتِهِ بقدرِ كثرةِ مظالمِهِ ، فإنه إنْ لمْ تفِ بها

(١) فإن شاء . . اقتصر ، وإن شاء . . عفا ، وكذا في حدِّ القذفِ . « إتحاف » (٥٨٢ / ٨) .

حسانته . . حُمِّلَ مِنْ سَيِّئَاتِ أَرْبَابِ الْمَظَالِمِ ، فَيَهْلِكُ بِسَيِّئَاتٍ غَيْرِهِ .

فهذا طريقُ كلِّ تائبٍ في ردِّ المظالمِ ، وهذا يوجبُ استغراقَ العمرِ في الحسناتِ لو طالَ العمرُ بحسَبِ طولِ مدَّةِ المظالمِ ، فكيفَ وذلكَ ممَّا لا يُعرفُ وربَّما يكونُ الأجلُ قريباً ؟! فينبغي أن يكونَ تشمُّرُهُ للحسناتِ والوقتُ ضيقاً أشدَّ مِنْ تشمُّرِهِ الذي كانَ في المعاصي في متَّسعِ الأوقاتِ .

هذا حكمُ المظالمِ الثابتةِ في ذمَّتِهِ .

أمَّا أموالُهُ الحاضرةُ . . فليردَّ إلى المالكِ ما يعرفُ لَهُ مالِكاً معيَّناً ، وما لا يعرفُ لَهُ مالِكاً . . فعليه أن يتصدَّقَ بِهِ ، فإنِ اختلطَ الحرامُ بالحلالِ . . عرفَ قَدَرَ الحرامِ بالاجتهادِ ، وتصدَّقَ بذلكَ المقدارِ كما سبقَ تفصيلُهُ في كتابِ الحلالِ والحرامِ .

وأما الجنايةُ على القلوبِ بمشافهةِ الناسِ بما يسوءُهُمْ أو يعيْبُهُمْ في الغيبةِ . . فليطلبْ كُلَّ مَنْ تعرَّضَ لَهُ بلسانِهِ ، أو آذَى قلبَهُ بفعلٍ مِنْ أفعالهِ ، وليستحلَّ واحداً واحداً مِنْهُمْ ، وَمَنْ ماتَ أو غابَ . . فقد فاتَ أمرُهُ ، ولا تداركَ لَهُ إلا بتكثيرِ الحسناتِ ، لتؤخذَ مِنْهُ عوضاً في القيامةِ ، وأمَّا مَنْ وجدَهُ وأحلَّهُ بطيبةِ قلبٍ مِنْهُ . . فذلكَ كفَّارَتُهُ ، وعليهِ أن يعرفَهُ قَدَرَ جنايَتِهِ وتعرُّضِهِ لَهُ ، فلا يستحلَّ المبهمُ لا يكفي ، وربَّما لو عرفَ ذلكَ وكثرةَ تعدِّيهِ عليه . . لم تطبْ نفسُهُ بالإحلالِ ، وادخرَ ذلكَ في القيامةِ ذخيرةً يأخذُهَا مِنْ حسناتِهِ ، أو يحمِّلُهُ مِنْ سيئاتِهِ .

فَإِنْ كَانَ فِي جَمَلَةِ جَنَائِتِهِ عَلَى الْغَيْرِ مَا لَوْ ذَكَرَهُ وَعَرَفَهُ لَتَأَذَّى بِمَعْرِفَتِهِ ؛
 كَزَنَاهُ بِجَارِيَّتِهِ أَوْ أَهْلِهِ ، أَوْ نَسَبَتِهِ بِاللِّسَانِ إِلَى عَيْبٍ مِنْ خَفَايَا عِيُوبِهِ يَعْظُمُ أَذَاهُ
 مَهْمَا شَوَّفَهُ بِهِ . . فَقَدْ انْسَدَّ عَلَيْهِ طَرِيقُ الْإِسْتِحْلَالِ ، فَلَيْسَ لَهُ إِلَّا أَنْ يَسْتَحِلَّ
 مَبْهُمًا ، ثُمَّ تَبْقَى لَهُ مَظْلَمَةٌ فَلْيَجْزِهَا بِالْحَسَنَاتِ كَمَا يَجْبِرُ مَظْلَمَةَ الْمَيِّتِ
 وَالْغَائِبِ ، فَأَمَّا الذِّكْرُ وَالتَّعْرِيفُ . . فَهُوَ سِيئَةٌ جَدِيدَةٌ يَجِبُ الْإِسْتِحْلَالُ مِنْهَا ،
 وَمَهْمَا ذَكَرَ جَنَائِتَهُ وَعَرَفَهُ الْمَجْنِيَّ عَلَيْهِ فَلَمْ تَسْمَحْ نَفْسُهُ بِالْإِحْلَالِ . . بَقِيَتْ
 الْمَظْلَمَةُ عَلَيْهِ ؛ فَإِنَّ هَذَا حَقُّهُ ، فَعَلَيْهِ أَنْ يَتَلَطَّفَ بِهِ ، وَيَسْعَى فِي مَهْمَاتِهِ
 وَأَغْرَاضِهِ ، وَيُظْهِرَ مِنْ حُبِّهِ وَالشَّفَقَةِ عَلَيْهِ مَا يَسْتَمِيلُ بِهِ قَلْبَهُ ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ
 عَبْدُ الْإِحْسَانِ ، وَكُلُّ مَنْ نَفَرَ بِسِيئَةٍ . . مَالَ بِحَسَنَةٍ ، فَإِذَا طَابَ قَلْبُهُ بِكَثْرَةِ
 تَوَدُّدِهِ وَتَلَطُّفِهِ . . سَمَحَتْ نَفْسُهُ بِالْإِحْلَالِ ، فَإِنْ أَبَى إِلَّا الْإِصْرَارَ . . فَيُمْكِنُ أَنْ
 يَكُونَ تَلَطُّفُهُ بِهِ وَاعْتِدَارُهُ إِلَيْهِ مِنْ جَمَلَةِ حَسَنَاتِهِ الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ يَجْبَرَ بِهَا فِي
 الْقِيَامَةِ جَنَائِتَهُ .

وَلِيَكُنْ قَدْرُ سَعْيِهِ فِي فَرْحِهِ وَسُرُورِ قَلْبِهِ بِتَوَدُّدِهِ وَتَلَطُّفِهِ كَقَدْرِ سَعْيِهِ فِي
 إِيْذَائِهِ ؛ حَتَّى إِذَا قَاوَمَ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ أَوْ زَادَ عَلَيْهِ . . أَخَذَ ذَلِكَ مِنْهُ عَوْضًا فِي
 الْقِيَامَةِ بِحُكْمِ اللَّهِ بِهِ عَلَيْهِ ؛ كَمَنْ أَتْلَفَ فِي الدُّنْيَا مَالًا ، فَجَاءَ بِمِثْلِهِ ، فَامْتَنَعَ
 مَنْ لَهُ الْمَالُ عَنِ الْقَبُولِ وَعَنِ الْإِبْرَاءِ ، فَإِنَّ الْحَاكِمَ يَحْكُمُ عَلَيْهِ بِالْقَبْضِ مِنْهُ
 شَاءَ أَمْ أَبَى ، فَكَذَلِكَ يَحْكُمُ فِي صَعِيدِ الْقِيَامَةِ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ وَأَعْدَلُ
 الْمَقْسُطِينَ .

وَفِي الْمَتَفَقِّ عَلَيْهِ مِنْ « الصَّحِيحِينَ » عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ
 نَفْسًا ، فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ ، فذُلَّ عَلَى رَاهِبٍ ، فَأَتَاهُ فَقَالَ : إِنَّهُ قَتَلَ
 تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا ، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ ؟ فَقَالَ : لَا ، فَقَتَلَهُ ، فَكَمَّلَ بِهِ مِئَةً ، ثُمَّ
 سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ ، فذُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ ، فَقَالَ لَهُ : إِنَّهُ قَتَلَ مِئَةً
 نَفْسٍ ، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ ؟ فَقَالَ : نَعَمْ ، وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ ؟ انْطَلِقْ إِلَى
 أَرْضٍ كَذَا وَكَذَا ، فَإِنَّ بِهَا أَنْاسًا يَعْبُدُونَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ ، فَاعْبُدِ اللَّهَ مَعَهُمْ
 وَلَا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ ، فَإِنَّهَا أَرْضُ سُوءٍ ، فَاَنْطَلِقْ ، حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ . .
 أَتَاهُ الْمَوْتُ ، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ ، فَقَالَتْ مَلَائِكَةُ
 الرَّحْمَةِ : جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلًا بِقَلْبِهِ إِلَى اللَّهِ ، وَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ : إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ
 خَيْرًا قَطُّ ، فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ ، فَجَعَلُوهُ حَكَمًا بَيْنَهُمْ ، فَقَالَ : قِيسُوا
 مَا بَيْنَ الْأَرْضَيْنِ ، فَإِلَى أَيِّتَهُمَا كَانَ أَدْنَى . . فَهَوَّ لَهَا ، فَقَاسُوا ، فَوَجَدُوهُ أَدْنَى
 إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ ، فَقَبِضَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ « ، وَفِي رِوَايَةٍ : « فَكَانَ إِلَى
 الْقَرْيَةِ الصَّالِحَةِ أَقْرَبَ مِنْهَا بِشِيرٍ ، فَجُعِلَ مِنْ أَهْلِهَا » ، وَفِي رِوَايَةٍ :
 « فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى هَذِهِ أَنْ تَبَاعِدِي ، وَإِلَى هَذِهِ أَنْ تَقْرَبِي ، وَقَالَ : قِيسُوا
 مَا بَيْنَهُمَا ، فَوَجَدُوهُ إِلَى هَذِهِ أَقْرَبَ بِشِيرٍ ، فَغُفِرَ لَهُ » ^(١) .

فبهذا تعرفُ أنَّه لا خلاصَ إلا برجحانِ ميزانِ الحسناتِ ولو بمِثقالِ
 ذرَّةٍ ، فلا بدَّ للمتائبِ مِنْ تَكْثِيرِ الحسناتِ .

(١) هو كما قال المصنف رحمه الله تعالى عند البخاري (٣٤٧٠) ، ومسلم (٢٧٦٦) واللفظ والروايات له .

هذا حكمُ القصدِ المتعلّقِ بالماضي .

فأمّا العزمُ المرتبطُ بالاستقبالِ : فهو أن يعقدَ معَ اللهِ عقداً مؤكداً ، ويعاهدَهُ بعهدٍ وثيقٍ ألا يعودَ إلى تلكَ الذنوبِ ، ولا إلى أمثالِها ؛ كالذي يعلمُ في مرضِهِ أنّ الفاكهةَ تضرُّهُ مثلاً ، فيعزمُ عزمًا جزمًا أنّه لا يتناولُ الفاكهةَ ما لم يزلَ مرضُهُ ، فإنّ هذا العزمَ يتأكّدُ في الحالِ وإن كان يُصوّرُ أن تغلبهُ الشهوةُ في ثاني الحالِ ، ولكن لا يكونُ نائباً ما لم يتأكّدَ عزمُهُ في الحالِ ، ولا يُصوّرُ أن يتمّ ذلكَ للتائبِ في أوّلِ أمرِهِ إلا بالعزلةِ ، والصمتِ ، وقلةِ الأكلِ والنومِ ، وإحرازِ قوتٍ حلالٍ .

فإن كانَ لَهُ مالٌ موروثٌ حلالٌ ، أو كانتَ لَهُ حرفةٌ يكتسبُ بها قدرُ الكفايةِ .. فليقتصرْ عليه ، فإنّ رأسَ المعاصي أكلُ الحرامِ ، فكيفَ يكونُ نائباً معَ الإصرارِ عليه ؟!

ولا يكتفي بالحلالِ وتركِ الشبهاتِ مَنْ لا يقدرُ على تركِ الشهواتِ في المأكولاتِ والملبوساتِ .

وقالَ بعضهم : (مَنْ صدّقَ في تركِ شهوةٍ ، وجاهدَ نفسَهُ لله سبْعَ مرّاتٍ .. لم يبتلَ بها)^(١) .

(١) قوت القلوب (١٨٨/١) ، وقريب منها كلمة أبي يزيد البسطامي المشهورة التي رواها القشيري في « رسالته » (ص ٦٧) : (ومن صدّقَ في تركِ شهوةٍ .. ذهب الله بها من قلبه ، والله تعالى أكرم من أن يعذب قلباً بشهوة تركت له) .

وقال آخرُ : (مَنْ تابَ مِنْ ذَنْبٍ واستقامَ عليه سبعَ سنينَ . . لم يعدْ إليه أبداً)^(١) .

ومن مهمَّاتِ التائبِ إذا لم يكنْ عالماً : أن يتعلَّم ما يجبُ عليه في المستقبل وما يحرمُ عليه ؛ حتَّى يمكنهُ الاستقامةُ ، وإن لم يؤثرِ العزلةُ . . لم تتمَّ له الاستقامةُ المطلقةُ ، إلا أن يتوبَ عن بعضِ الذنوبِ ؛ كالذي يتوبُ عن الشربِ والزنا والغضبِ مثلاً ، وليستْ هذه توبةً مطلقةً ، وقد قال بعضُ الناسِ : (إنَّ هذه التوبةَ لا تصحُّ)^(٢) .

وقال قائلونَ : (تصحُّ)^(٣) .

ولفظُ الصَّحَّةِ في هذا المقامِ مجملٌ ، بل نقولُ لمنْ قالَ : (لا تصحُّ) : إنْ عنيَتْ به أنْ تركَهُ بعضَ الذنوبِ لا يفيدُ أصلاً ، بل وجودُهُ كعدمِهِ . . فما أعظمَ خطأكَ ، فإنَّا نعلمُ أنَّ كثرةَ الذنوبِ سببٌ لكثرةِ العقابِ ، وقلَّتْها سببٌ لقلَّتِهِ .

ونقولُ لمنْ قالَ : (تصحُّ) : إنْ أردتَ به أنْ التوبةَ عن بعضِ الذنوبِ توجبُ قبولاً يوصلُ إلى النجاةِ والفوزِ . . فهذا أيضاً خطأً ، بل النجاةُ والفوزُ بتركِ الجميعِ .

(١) قوت القلوب (١ / ١٨٨) ، وقوله : (واستقامَ عليه) أي : على توبته من ذلك الذنب ، وسقطت (عليه) من « القوت » وهو المناسب للسياق .

(٢) وهو المحكي عن المعتزلة . « إتحاف » (٨ / ٥٨٤) .

(٣) وهو المحكي عن أهل السنة والجماعة . « إتحاف » (٨ / ٥٨٤) .

هَذَا حُكْمُ الظَّاهِرِ ، وَلِسْنَا نَتَكَلَّمُ فِي خَفَايَا أَسْرَارِ عَفْوِ اللَّهِ .

وَأِنْ قَالَ مَنْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّهَا لَا تَصَحُّ : إِنِّي أُرِدْتُ بِهِ أَنَّ التَّوْبَةَ عِبَارَةٌ عَنِ
النَّدَمِ ، وَإِنَّمَا يَنْدَمُ عَلَى السَّرْقَةِ مِثْلًا لَكُونِهَا مَعْصِيَةً ، لَا لَكُونِهَا سَرْقَةً ،
وَيَسْتَحِيلُ أَنْ يَنْدَمَ عَلَيْهَا دُونَ الزَّانِ إِنْ كَانَ تَوَجُّعُهُ لِأَجْلِ الْمَعْصِيَةِ ؛ فَإِنَّ الْعِلَّةَ
شَامِلَةٌ لِهَمَا ؛ إِذْ مَنْ يَتَوَجَّعُ عَلَى قَتْلِ وَلَدِهِ بِالسَّيْفِ يَتَوَجَّعُ عَلَى قَتْلِهِ
بِالسَّكِينِ ؛ لِأَنَّ تَوَجُّعَهُ بِفَوَاتِ مَحْبُوبِهِ سَوَاءٌ كَانَ بِالسَّيْفِ أَوْ بِالسَّكِينِ ،
فكَذَلِكَ تَوَجُّعُ الْعَبْدِ بِفَوَاتِ مَحْبُوبِهِ ، وَذَلِكَ بِالْمَعْصِيَةِ سَوَاءٌ عَصَى بِالسَّرْقَةِ أَوْ
بِالزَّانِ ، فَكَيْفَ يَتَوَجَّعُ عَلَى الْبَعْضِ دُونَ الْبَعْضِ ؟ ! فَالنَّدَمُ حَالَةٌ يَوْجِبُهَا الْعِلْمُ
بَكُونِ الْمَعْصِيَةِ مَفُوتَةً لِلْمَحْبُوبِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا مَعْصِيَةٌ ، فَلَا يَتَصَوَّرُ أَنْ يَكُونَ
عَلَى بَعْضِ الْمَعَاصِي دُونَ بَعْضٍ ، وَلَوْ جَازَ هَذَا . . لِجَازَ أَنْ يَتُوبَ مَنْ شَرِبَ
الْخَمْرَ مِنْ أَحَدِ الدَّائِنِينَ دُونَ الْآخَرِ ، فَإِنْ اسْتَحَالَ ذَلِكَ مِنْ حَيْثُ إِنَّ الْمَعْصِيَةَ
فِي الْخَمْرَيْنِ وَاحِدَةٌ ، وَإِنَّمَا الدُّنَانُ ظُرُوفٌ . . فَكَذَلِكَ أَعْيَانُ الْمَعَاصِي آلَاتٌ
لِلْمَعْصِيَةِ ، وَالْمَعْصِيَةُ مِنْ حَيْثُ مُخَالَفَةُ الْأَمْرِ وَاحِدَةٌ .

فَإِذَا ؛ مَعْنَى عَدَمِ الصَّحَّةِ : أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَعَدَ النَّائِبِينَ رَتَبَةً ، وَتِلْكَ الرَّتَبَةُ
لَا تُنَالُ إِلَّا بِالنَّدَمِ ، وَلَا يُتَصَوَّرُ النَّدَمُ عَلَى بَعْضِ الْمَتَمَاتِلَاتِ ، فَهَرَّكَ الْمَلِكِ
الْمُرْتَبَ عَلَى الْإِيجَابِ وَالْقَبُولِ ؛ فَإِنَّهُ إِذَا لَمْ يَتِمَّ الْإِيجَابُ وَالْقَبُولُ . . يُقَالُ :
إِنَّ الْعَقْدَ لَمْ يَصَحَّ ؛ أَيْ : لَا تَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ الثَّمَرَةُ ، وَهُوَ الْمَلِكُ .

وَتَحْقِيقُ هَذَا : أَنَّ ثَمَرَةَ مَجَرَّدِ التَّرِكِ أَنْ يَنْقَطَعَ عَنْهُ عِقَابُ مَا تَرَكَهُ ،

وثمره الندم تكفير ما سبق ، فترك السرقة لا يكفر السرقة ، بل الندم عليها يكفرها ، ولا يُصوّر الندم إلا لكونها معصية ، وذلك يعم جميع المعاصي . وهذا كلام مفهوم واقع ، يستنطق المنصف بتفصيل به ينكشف الغطاء ، فنقول : التوبة عن بعض الذنوب لا تخلو : إمّا أن تكون عن الكبائر دون الصغائر ، أو عن الصغائر دون الكبائر ، أو عن كبيرة دون كبيرة .



أما التوبة عن الكبائر دون الصغائر : فأمر ممكن ؛ لأنه يعلم أن الكبائر أعظم عند الله ، وأجلب لسخط الله ومقتته ، والصغائر أقرب إلى تطرّق العفو إليها ، فلا يستحيل أن يتوب عن الأعظم ويتندّم عليه ؛ كالذي يجني على أهل الملك وحرمة ، ويجني على دابّته ، فيكون خائفاً من الجناية على الأهل ، مستحقراً للجناية على الدابّة ، والندم بحسب استعظام الذنب ، واعتقاد كونه مبعداً عن الله تعالى .

وهذا ممكن وجوده في الشرع ، فقد كثّر التائبون في الأعصار الخالية ولم يكن أحد منهم معصوماً ، فلا تستدعي التوبة العصمة ، والطبيب قد يحذر المريض العسل تحذيراً شديداً ، ويحذّره السكر تحذيراً أخفّ منه ، على وجه يشعر معه بأنه ربّما لا يظهر ضرر السكر أصلاً ، فيتوب المريض بقوله عن العسل دون السكر ، فهذا غير محال وجوده ، وإن أكلهما جميعاً بحكم شهوته . . ندم على أكل العسل دون السكر .



الثاني : أن يتوبَ عن بعض الكبائر دون بعض : وهذا أيضاً ممكن ؛ لا اعتقاده أن بعض الكبائر أشد وأغلظ من بعض عند الله ؛ كالذي يتوب عن القتل والنهب والظلم ومظالم العباد لعلمه أن ديوان العباد لا يُترك ، وما بينه وبين الله يتسارع العفو إليه .

فهذا أيضاً ممكن ، كما في تفاوت الكبائر والصغائر ؛ لأن الكبائر أيضاً متفاوتة في أنفسها وفي اعتقاد مرتكبيها .

وكذلك قد يتوب عن بعض الكبائر التي لا تتعلق بالعباد ، كما يتوب عن شرب الخمر دون الزنا مثلاً ؛ إذ يتضح له أن الخمر مفتاح الشرور ، وأنه إذا زال عقله . . ارتكب جميع المعاصي وهو لا يدري ، فبحسب ترجح شرب الخمر عنده ينبعث منه خوفٌ يوجب ذلك تركاً في المستقبل وندماً على الماضي .



الثالث : أن يتوب عن صغيرة أو صغائر وهو مصرٌّ على كبيرة يعلم أنها كبيرة : كالذي يتوب عن الغيبة أو عن النظر إلى غير المحرم أو ما يجري مجراه وهو مصرٌّ على شرب الخمر ، وهو أيضاً ممكن ، ووجه إمكانه : أنه ما من مؤمنٍ إلا وهو خائفٌ على معاصيه^(١) ، ونادمٌ على فعله نداماً إما ضعيفاً وإما قوياً ، ولكن تكون لذّة نفسه في تلك المعصية أقوى من ألم قلبه

(١) كذا (على معاصيه) ، ومن معاني (على) التعليل ؛ أي : خائف لوجود معاصيه .

في الخوف منها لأسبابٍ توجبُ ضعفَ الخوفِ ؛ مِنْ الجهلِ والغفلةِ ،
 وأسبابٍ توجبُ قوَّةَ الشهوةِ ، فيكونُ الندمُ موجوداً ، ولكن لا يكونُ مليئاً
 بتحريكِ العزمِ^(١) ، ولا قوياً عليه ، فإنَّ سلمَ عن شهوةٍ أقوى منه ؛ بأنَّ لم
 يعارضه إلا ما هو أضعفُ . قهرَ الخوفُ الشهوةَ وغلبها ، وأوجبَ ذلكَ تركَ
 المعصيةِ .

وقد تشتدُّ ضراوةُ الفاسقِ بالخميرِ ، فلا يقدرُ على الصبرِ عنها ، وتكونُ له
 ضراوةٌ ما بالغيةِ وثلبِ الناسِ والنظرِ إلى غيرِ المحرمِ ، وخوفُهُ مِنْ اللهِ قد
 بلغَ مبلغاً يقمعُ هذه الشهوةَ الضعيفةَ دونَ القويَّةِ ، فيوجبُ غلبةَ جندِ الخوفِ
 انبعاثَ العزمِ للتركِ ، بل يقولُ هذا الفاسقُ في نفسه : (إنَّ قهرني الشيطانُ
 بواسطةِ غلبةِ الشهوةِ في بعضِ المعاصي . . فلا ينبغي أن أخلعَ العذارَ وأرخي
 العنانَ بالكليَّةِ ، بل أجاهدُهُ في بعضِ المعاصي ، فعساني أغلبُهُ ، فيكونُ
 قهري له في البعضِ كفارةً لبعضِ ذنوبي) ، ولو لم يُصوِّرْ هذا . . لما تصوَّرَ
 مِنْ الفاسقِ أن يصليَّ ويصومَ ، ولقيلَ له : (إنَّ كانتَ صلاتُك لغيرِ اللهِ . .
 فلا تصحَّ ، وإنَّ كانتَ للهِ . . فاتركِ الفسقَ للهِ ، فإنَّ أمرَ اللهِ فيه واحدٌ ، فلا
 يُصوِّرُ أن تقصدَ بصلاتِكَ التقربَ إلى اللهِ تعالى ما لم تتقربَ بتركِ الفسقِ) ،
 وهذا محالٌ ، بل يقولُ : (للهِ تعالى عليَّ أمرانِ ، ولي على المخالفةِ فيهما
 عقوبتانِ ، وأنا مليءٌ في أحدهما بقهرِ الشيطانِ ، عاجزٌ عنه في الآخرةِ ،

(١) المليء : بوزن فعيل هنا ، وفي سياقات آتية بمعنى : قادر .

فأنا أقهره فيما أقدر عليه ، وأرجو بمجاهدتي فيه أن يكفر عني بعض ما عجزت عنه لفرط شهوتي) ، فكيف لا يتصور هذا وهو حال كل مسلم ؟! إذ لا مسلم إلا وهو جامع بين طاعة الله ومعصيته ، ولا سبب له إلا هذا .

وإذا فهم هذا . . فهم أن غلبة الخوف للشهوة في بعض الذنوب ممكن وجودها ، والخوف إذا كان من فعل ماضي أورث الندم ، والندم يورث العزم ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « الندم توبة »^(١) ، ولم يشترط الندم على كل ذنب .

وقال صلى الله عليه وسلم : « التائب من الذنب كمن لا ذنب له »^(٢) ، ولم يقل : التائب من الذنوب كلها .

وبهذه المعاني تبين سقوط قول القائل : إن التوبة عن بعض الذنوب غير ممكنة ؛ لأنها متماثلة في حق الشهوة ، وفي حق التعرض لسخط الله تعالى . نعم ، يجوز أن يتوب عن شرب الخمر دون النبيذ ؛ لتفاوتيهما في اقتضاء السخط ، ويتوب عن الكثير دون القليل ؛ لأن لكثرة المعصية تأثيراً في كثرة العقوبة ، فيساعد الشهوة بالقدر الذي يعجز عنه ، ويترك بعض شهوته لله تعالى ، كالمريض الذي حذره الطبيب الفاكهة ، فإنه قد يتناول قليلها ، ولكن لا يستكثر منها .

(١) رواه ابن ماجه (٤٢٥٢) .

(٢) رواه ابن ماجه (٤٢٥٠) .

فقد حصل من هذا : أنه لا يمكن أن يتوب عن شيء ولا يتوب عن مثله ، بل لا بد وأن يكون ما تاب عنه مخالفاً لما بقي عليه ؛ إمّا في شدة المعصية ، وإمّا في غلبة الشهوة ، وإذا حصل هذا التفاوت في اعتقاد التائب . . تصوّر اختلاف حاله في الخوف والندم ، فيصوّر اختلاف حاله في الترك ، فندمه على ذلك الذنب ووقاؤه بعزمه على الترك يلحقه بمن لم يذنب ، وإن لم يكن قد أطاع الله في جميع الأوامر والنواهي .



فإن قلت : فهل تصح توبة العنّين من الزنا الذي قارفه قبل طريان العنة ؟ فأقول : لا ؛ لأن التوبة عبارة عن ندم يبعث العزم على الترك فيما يقدر على فعله ، وما لا يقدر على فعله فقد انعدم بنفسه ، لا بتركه إيّاه .

ولكنّي أقول : لو طرأ عليه بعد العنة كشف ومعرفة تحقّق به ضرر الزنا الذي قارفه ، وثار منه احتراق وتحسّر وندم ؛ بحيث لو كانت شهوة الوقاع باقية لكانت حرقه الندم تقمع تلك الشهوة وتغلبها . . فإنّي أرجو أن يكون ذلك مكفراً لذنبه ، ومأخياً عنه سيئته ؛ إذ لا خلاف في أنه لو تاب قبل طريان العنة ومات عقيب التوبة . . كان من التائبين وإن لم تطرأ عليه حالة تهيج فيها الشهوة ، وتيسّر فيها أسباب القضاء للشهوة ، ولكنه تائب باعتبار أن ندمه بلغ مبلغاً أوجب صرف قصده عن الزنا لو ظهر قصده .

فإذا ؛ لا يستحيل أن تبلغ قوة الندم في حقّ العنّين هذا المبلغ ، إلا أنه

لا يعرفه من نفسه ، فإنَّ كلَّ مَنْ لا يشتَهي شيئاً يقدِّرُ نفسه قادراً على تركه بأدنى خوفٍ ، واللهُ تعالى مطلعٌ على ضميره وعلى مقدارِ تَنَدُّمِهِ ، فعساهُ يقبلُهُ منه ، بل الظاهرُ أنَّه يقبلُهُ .

والحقيقةُ في هذا كلِّهِ ترجعُ إلى أنَّ ظلمةَ المعصيةِ تنمحي عن القلبِ بشيئين :

أحدهما : حرقةُ الندمِ .

والآخرُ : شدَّةُ المجاهدةِ بالتركِ في المستقبلِ .

وقد امتنعتِ المجاهدةُ بزوالِ الشهوةِ ، ولكن ليسَ محالاً أن يقوى الندمُ بحيثُ يقوى على محوها دونَ المجاهدةِ ، ولولا هذا . . . لقلنا : إنَّ التوبةَ لا تُقبلُ ما لم يعشِ التائبُ بعدَ التوبةِ مدَّةً يجاهدُ نفسه في عينِ تلكَ الشهوةِ مرَّاتٍ كثيرةً ، وذلك ممَّا لا يدلُّ ظاهرُ الشرعِ على اشتراطِهِ أصلاً .



فإن قلتَ : إذا فرضنا تائبين ؛ أحدهما : سكنتُ نفسه عن النزوعِ إلى الذنبِ ، والآخرُ : بقيَ في نفسه نزوعٌ إليه وهو يجاهدُها ويمنعُها ، فأيهما أفضلُ ؟

فاعلمُ : أنَّ هذا ممَّا اختلفَ العلماءُ فيه :

فقالَ أحمدُ بنُ أبي الحواريِّ وأصحابُ أبي سليمان الدارانيِّ : إنَّ المجاهدَ أفضلُ ؛ لأنَّ له معَ التوبةِ فضلَ الجهادِ .

وقال علماء البصرة : ذلك الآخر أفضل ؛ لأنه لو فتر في توبته . . كان أقرب إلى السلامة من المجاهد الذي هو في عرضة القصور عن المجاهدة .
وما قاله كل واحد من الفريقين لا يخلو عن حق وعن قصور عن كمال الحقيقة .

والحق فيه : أن الذي انقطع نزوع نفسه له حالتان :

إحدهما : أن يكون انقطاع نزوعه إليه لفتور في نفس الشهوة فقط ، فالمجاهدة أفضل من هذا ؛ إذ تركه بالمجاهدة قد دل على قوة يقينه ، واستيلاء دينه على شهوته ، فهو دليل قاطع على قوة اليقين ، وعلى قوة الدين ، وأعني بقوة الدين : قوة الإرادة التي تنبعث بإشارة اليقين ، وتقمع الشهوة المنبعثة بإشارة الشياطين ، فهاتان قوتان تدل المجاهدة عليهما قطعاً .

وقول القائل : (إن هذا أسلم ؛ إذ لو فتر . . لا يعود إلى الذنب) ، فهذا صحيح ، ولكن استعمال لفظ الأفضل فيه خطأ ، وهو كقول القائل : (العنبر أفضل من الفحل ؛ لأنه في أمن من خطر الشهوة ، والصبي أفضل من البالغ ؛ لأنه أسلم ، والمفلس أفضل من الملك القاهر القامع لأعدائه ؛ لأن المفلس لا عدو له والملك ربما يغلب مرة وإن غلب مرات) ، وهذا كلام رجل سليم القلب ، قاصر النظر على الظواهر ، غير عالم بأن العز في الأخطار ، وأن العلو شرطه اقتحام الأغوار ، بل هو كقول القائل : (الصياد

الذي ليس له فرسٌ ولا كلبٌ أفضلُ في صناعةِ الاصطيادِ وأعلى رتبةً من صاحبِ الكلبِ والفرسِ ؛ لأنه آمنٌ من أن يجمعَ به فرسه فتتكسرَ أعضاؤه عندَ السقوطِ على الأرضِ ، وآمنٌ من أن يعضَّهُ الكلبُ ويعتديَ عليه) ، وهذا خطأ ، بل صاحبُ الفرسِ والكلبِ إذا كان قوياً عالماً بطريقِ تأديبِهِما أعلى رتبةً وأحرى بدركِ سعادةِ الصيدِ .

الحالة الثانية : أن يكونَ بطلاً النزوعِ بسببِ قوّةِ اليقينِ ، وصدقِ المجاهدةِ السابقة ، إذ بلغَ مبلغاً قمعَ هيجانَ الشهوةِ ، حتّى تأدبتْ بأدبِ الشرعِ ، فلا تهيجُ إلا بإشارةِ الدينِ ، وقد سکنَ بسببِ استيلاءِ الدينِ عليه ، فهذا أعلى رتبةً من المجاهدِ المقاسي لهيجانِ الشهوةِ وقمعِها .

وقولُ القائلِ : (لذلك فضلُ الجهادِ) قصورٌ عن الإحاطةِ بمقصودِ الجهادِ ؛ فإنَّ الجهادَ ليسَ مقصوداً لعينه ، بل المقصودُ قطعُ ضراوةِ العدوِّ حتّى لا يستجركَ إلى شهواتِهِ ، وإن عجزَ عن استجراكِ . . فلا يصدُّك عن سلوكِ طريقِ الدينِ ، فإذا قهرته وحصلتَ المقصودَ . . فقد ظفرتَ ، وما دمتَ في المجاهدةِ . . فأنتَ بعدُ في طلبِ الظفرِ .

ومثاله كمثلِ مَنْ قهرَ العدوَّ واسترقّه بالإضافةِ إلى مَنْ هو مشغولٌ بالجهادِ في صفِّ القتالِ ولا يدري كيفَ يسلمُ .

ومثاله أيضاً مثالُ مَنْ علَّمَ كلبَ الصيدِ وراضَ الفرسَ ، فهما نائمانِ عندهُ بعدَ تركِ الكلبِ الضراوةَ والفرسِ الجماحَ بالإضافةِ إلى مَنْ هو مشغولٌ بمقاساةِ التأديبِ بعدُ .

ولقد زلّ في هذا فريقٌ ، فظنّوا أنّ الجهادَ هو المقصودُ الأقصى ، ولم يعلموا أنّ ذلك طلبٌ للخلاصِ مِنْ عوائقِ الطريقِ ، وظنّ آخرونَ أنّ قمعَ الشهواتِ وإمّاطتها بالكليةِ مقصودٌ ، حتّى جرّبَ بعضهم نفسه فعجزَ عنه ، فقال : (هذا محالٌ) ، فكذبَ بالشرعِ ، وسلكَ سبيلَ الإباحةِ ، واسترسلَ في اتباعِ الشهواتِ ، وكلّ ذلك جهلٌ وضلالٌ ، وقد قرّرنا ذلك في كتابِ رياضةِ النفسِ مِنْ ربعِ المهلكاتِ .



فإن قلتَ : فما قولك في تائبين : أحدهما نسيَ الذنبَ ولم يشتغلْ بالتفكيرِ فيه ، والآخرُ جعلهُ نصبَ عينه فلا يزالُ يتفكّرُ فيه ويحترقُ ندماً عليه ، أيُّهما أفضلُ ؟

فاعلمُ : أنّ هذا أيضاً قد اختلفوا فيه :

فقال بعضهم : (حقيقةُ التوبةِ أنْ تنصبَ ذنبك بينَ عينيك) .

وقال آخرونَ : (حقيقةُ التوبةِ أنْ تنسىَ ذنبك) .

وكلُّ واحدٍ مِنَ المذهبينِ عندنا حقٌّ ، ولكنْ بالإضافةِ إلى حالينِ .

وكلامُ المتصوّفةِ أبداً يكونُ قاصراً ، فإنَّ عادةَ كلِّ واحدٍ منهم أنْ يخبرَ عن حالِ نفسه فقط ، ولا يهتُمُّ حالَ غيره ، فتختلفُ الأجوبةُ لاختلافِ الأحوالِ ، وهذا نقصانٌ بالإضافةِ إلى درجةِ العلمِ ، فإنَّ معرفةَ الأشياءِ على ما هي عليه أفضلُ وأعلى ، ولكنَّهُ كمالٌ بالإضافةِ إلى الهمةِ والإرادةِ

والجدِّ ، حيثُ يكونُ صاحِبُهُ مقصُورَ النظرِ على حالِ نفسِهِ ، لا يَهْمُهُ أمرُ غيره ؛ إذْ طريقُهُ إلى اللهِ نفسُهُ ، ومنازلُهُ أحوالُهُ ، وقد يكونُ طريقُ العبدِ إلى اللهِ العلمَ والتعليمَ ، فالطرقُ إلى اللهِ تعالى كثيرةٌ وإنْ كانتْ مختلفةً في القربِ والبعدِ ، واللهُ أعلمُ بمنْ هوَ أهدى سبيلاً ، معَ الاشتراكِ في أصلِ الهدايةِ .

فأقولُ : تصوُّرُ الذنبِ وذكرُهُ والتفجُّعُ عليه كمالٌ في حقِّ المبتدئِ المريدِ ؛ لأنَّهُ إذا نسيَهُ . . لم يكثرِ احتراقُهُ ، فلا تقوى إرادتهُ وانبعاثُهُ لسلوكِ الطريقِ ، ولأنَّ ذلكَ يستخرجُ منه الحزنَ والخوفَ الوازعَ عنِ الرجوعِ إلى مثلهِ ، فهوَ بالإضافةِ إلى الغافلِ كمالٌ ، ولكنَّهُ بالإضافةِ إلى سالكِ الطريقِ نقصانٌ ؛ فإنَّهُ شغلٌ مانعٌ عنِ سلوكِ الطريقِ ، بل سالكُ الطريقِ ينبغي ألا يعرِّجَ على غيرِ السلوكِ ، فإنْ ظهرتْ له مبادي الوصولِ ، وانكشفتْ له أنوارُ المعرفةِ ولوامعُ الغيبِ . . استغرقَهُ ذلكَ ، ولم يبقَ فيه متسعٌ للالتفاتِ إلى ما سبقَ مِنْ أحوالِهِ ، وهوَ الكمالُ .

بل لو عاقَ المسافرَ عنِ الطريقِ إلى بلدٍ مِنَ البلادِ نهرٌ حاجزٌ . . طالَ تعبُ المسافرِ في عبورهِ مدةً ، مِنْ حيثُ إنَّهُ كانَ قدْ خرَّبَ جسرَهُ مِنْ قَبْلُ ، فلو جلسَ على شاطئِ النهرِ بعدَ عبورهِ يبكي متأسِّفاً على تخريبِهِ الجسرَ . . كانَ هذا مانعاً آخرَ اشتغلَ بِهِ بعدَ الفراغِ عنِ ذلكَ المانعِ .

نعم ، إنْ لم يكنِ الوقتُ وقتَ الرحيلِ ، بأنْ كانَ ليلاً فتعذَّرَ السلوكُ ،

أَوْ كَانَ عَلَى طَرِيقِهِ أَنْهَارٌ وَهُوَ يَخَافُ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يَمْرَ بِهَا^(١) . . فليطْلُ بِاللَّيْلِ
بِكَاءُهُ وَحَزْنُهُ عَلَى تَخْرِيبِ الْجَسْرِ ؛ لِيَتَأَكَّدَ بِطُولِ الْحَزَنِ عَزْمُهُ عَلَى أَلَّا يَعُودَ
إِلَى مِثْلِهِ ، فَإِنْ حَصَلَ لَهُ مِنَ التَّنَبُّهِ مَا وَثَقَ بِنَفْسِهِ أَنَّهُ لَا يَعُودُ إِلَى مِثْلِهِ . .
فسلوكُ الطريقِ أَوْلَى بِهِ مِنَ الاِشْتِغَالِ بِذِكْرِ تَخْرِيبِ الْجَسْرِ والبكاءِ عَلَيْهِ ،
وهذا لَا يَعْرِفُهُ إِلَّا مَنْ عَرَفَ الطَّرِيقَ وَالْمَقْصِدَ ، وَالْعَاقِقَ وَطَرِيقَ السُّلُوكِ ،
وَقَدْ أَشْرْنَا إِلَى تَلْوِيحَاتٍ مِنْهُ فِي كِتَابِ الْعِلْمِ وَفِي رُبْعِ الْمَهْلَكَاتِ .

بَلْ نَقُولُ : شَرْطُ دَوَامِ التَّوْبَةِ أَنْ يَكُونَ كَثِيرَ الْفِكْرِ فِي النِّعَمِ فِي الْآخِرَةِ لِتَزِيدَ
رَغْبَتُهُ ، وَلَكِنْ إِنْ كَانَ شَابًا . . فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَطِيلَ فِكْرُهُ فِي كُلِّ مَا لَهُ نَظِيرٌ فِي
الدُّنْيَا ؛ كَالْحُورِ وَالْقُصُورِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ الْفِكْرَ رَبَّمَا يَحْرِّكُ رَغْبَتَهُ ، فَيَطْلُبُ الْعَاجِلَةَ
وَلَا يَرْضَى بِالْآجِلَةِ ، بَلْ يَنْبَغِي أَنْ يَتَفَكَّرَ فِي لَذَّةِ النَّظَرِ إِلَى وَجهِ اللَّهِ تَعَالَى فَقَطْ ،
فَذَلِكَ لَا نَظِيرَ لَهُ فِي الدُّنْيَا ، فَكَذَلِكَ تَذَكَّرُ الذَّنْبَ قَدْ يَكُونُ مُحَرِّكَاً لِلشَّهْوَةِ ،
فَالْمَبْتَدِئُ أَيْضاً قَدْ يَسْتَضَرُّ بِهِ ، فَيَكُونُ النِّسْيَانُ أَفْضَلَ لَهُ عِنْدَ ذَلِكَ .

وَلَا يَصْدَنُّكَ عَنِ التَّصَدِيقِ بِهَذَا التَّحْقِيقِ مَا يُحْكِي لَكَ مِنْ بَكَاءِ دَاوُودَ
عَلَيْهِ السَّلَامُ وَنِيَاحَتِهِ^(٢) ، فَإِنَّ قِيَاسَكَ نَفْسَكَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ قِيَاسٌ فِي غَايَةِ
الْأَعْوَجَاجِ ؛ لِأَنَّهُمْ قَدْ يَنْزِلُونَ فِي أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ إِلَى الدَّرَجَاتِ اللَّائِقَةِ

(١) فِي (أ) : (أَنْ يَخْرِجَهَا) ، وَفِي (ب) : (أَنْ يَجْرِیْهَا) ، وَفِي بَقِيَةِ النُّسخِ : (أَنْ
يَخْرِبَهَا) بِدَلِّ (أَنْ يَمْرِبَهَا) ، وَالْمُثْبِتِ مِنْ (ق) ، وَلَعَلَّهُ الصَّوَابُ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

(٢) تَقْدِمُ فِي ذَلِكَ أَخْبَارٌ ، وَالْإِعْتِرَاضُ وَجَوَابُهُ أَوْرَدَهُ كَذَلِكَ صَاحِبُ « الْقَوْتِ »
(١٨٢ / ١) ، وَجَوَابُ الْمُصَنِّفِ هُنَا قَرِيبٌ مِنْهُ .

بأمرهم ، فإنهم ما بُعثوا إلا لإرشادهم ، فعليهم التلبس بما تنتفع أممهم بمشاهدته ، وإن كان ذلك نازلاً عن ذروة مقامهم ، فقد كان في الشيوخ من لا يشير على مريد بنوع رياضة إلا ويخوض معه فيها ، وقد كان مستغنياً عنها ؛ لفراغه من المجاهدة وتأديب النفس ، ولكن تسهلاً للأمر على المريد .

ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « أما إنني لا أنسى ، ولكنني أنسى لأشرع »^(١) ، وفي لفظ : « إنما أسهو لأسن » .

ولا تعجب من هذا ؛ فإن الأمم في كنف شفقة الأنبياء كالصبيان في كنف شفقة الآباء ، وكالمواشي في كنف الرعاة ، أما ترى الأب إذا أراد أن يستنطق ولده الصغير كيف ينزل إلى درجة نطق الصبي ، كما قال صلى الله عليه وسلم للحسن رضي الله عنه : « كخ كخ » لَمَّا أخذ تمرَةً مِنْ تمرِ الصدقة ووضعها في فيه^(٢) ، وما كانت فصاحته صلى الله عليه وسلم تقصُر عن أن

(١) رواه مالك في « الموطأ » (١٠٠/١) بلاغاً ، قال ابن عبد البر في « التمهيد » (٣٧٥/٢٤) : (أما هذا الحديث بهذا اللفظ . . فلا أعلمه يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم بوجه من الوجوه مسنداً ولا مقطوعاً من غير هذا الوجه والله أعلم ، وهو أحد الأحاديث الأربعة في « الموطأ » التي لا توجد في غيره مسندة ولا مرسلّة والله أعلم ، ومعناه صحيح في الأصول) ، وقال أبو الطاهر الأنماطي : (وقد طال بحثي عنه وسؤالي عنه الأئمة والحفاظ فلم أظفر به ولا سمعت عن أحد أنه ظفر به ، وادّعى بعض طلبه الحديث أنه وقع له مسنداً) . « إتحاف » (٥٩٢/٨) .

(٢) رواه البخاري (١٤٩١) ، ومسلم (١٠٦٩) وقد تقدم ، وكخ : كلمة ردع للطفل مثل : يَغ ، قيل : هي لفظة فارسية ، وبكونها فارسية جاء التصريح في « البخاري » =

يقول : ارم هذه التمرة ؛ فإنها حرامٌ ، ولكنه صلى الله عليه وسلم إذ علم أنه لا يفهم منطقهُ ترك فصاحته ونزل إلى لُكنتِهِ ، بل الذي يعلمُ شاةً أو طائراً يصوتُ به رغاءً أو صفيراً تشبُّهاً بالبهيمة والطائر ، وتلطُّفاً في تعليمِهِ ، فإيَّاكَ أن تغفلَ عن أمثالِ هذه الدقائق ، فإنها مزلةٌ أقدامِ العارفينَ فضلاً عن الغافلينَ ، نسألُ اللهَ حسنَ التوفيقِ بلطفِهِ وكرَمِهِ .



= (٣٠٧٢) ، وأصلها في الفارسية : كِخِكْجَ مركبة ، وتستعمل عندهم كاستعمال (يَغ) عند العرب .

بيان أقسام العباد في دوام التوبة

اعلم : أن التائبين في التوبة على أربع طبقات :

الطبقة الأولى : أن يتوب العاصي ويستقيم على التوبة إلى آخر عمره ، فيتدارك ما فرط من أمره ، ولا يحدث نفسه بالعود إلى ذنوبه ، إلا الزلات التي لا ينفك البشر عنها في العادات مهما لم يكن في رتبة النبوة .

فهذه هي الاستقامة في التوبة ، وصاحبها هو السابق بالخيرات ، المستبدل بالسيئات حسنات .

واسم هذه التوبة التوبة النصوح ، واسم هذه النفس الساكنة النفس المطمئنة ، التي ترجع إلى ربها راضية مرضية ، وهؤلاء هم الذين إليهم الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم : « سبق المفردون ، المستهترون بذكر الله تعالى ، وضع الذكر عنهم أوزارهم ، فوردوا القيامة خفافاً »^(١) ، فإن فيه إشارة إلى أنهم كانوا تحت أوزار وضعها الذكر عنهم .

وأهل هذه الطبقة على رتب من حيث النزوع إلى الشهوات ؛ فمن تائب سكنت شهواته تحت قهر المعرفة ففتر نزاعها ، ولم يشغله عن السلوك

(١) رواه مسلم (٢٦٧٦) مقتصراً على أوله ، وفيه : « سبق المفردون » ، قالوا : وما المفردون يا رسول الله ، قال : « الذاكرون الله كثيراً والذاكرات » ، وعند الترمذي (٣٥٢٠) وفيه : « المستهترون في ذكر الله » ، يضع الذكر عنهم أثقالهم ، فيأتون يوم القيامة خفافاً .

صراعُها ، وإلى مَنْ لا ينفكُّ عن منازعةِ النفسِ ، ولكنهُ مليءٌ بمجاهدتها وردها .

ثمَّ تتفاوت درجاتُ النزاعِ أيضاً بالكثرةِ والقلَّةِ وباختلافِ المدَّةِ وباختلافِ الأنواعِ ، وكذلك يختلفون مَنْ حيثُ طولُ العمرِ ؛ فمِنْ مختطفٍ يموتُ قريباً مِنْ توبتهِ ، يُغبطُ على ذلك لسلامتهِ وموتهِ قبلَ الفترةِ ، وَمِنْ ممهلٍ طالَ جهادُهُ وصبرُهُ ، وتمادتِ استقامتهُ وكثرتِ حسناتهُ ، وحالُ هذا أعلى وأفضلُ ؛ إذ كلُّ سيئةٍ فإنَّما تمحوها حسنةٌ ، حتَّى قالَ بعضُ العلماءِ : (إنَّما يكفرُ الذنبَ الذي ارتكبهُ العاصي عشرَ مرَّاتٍ أنْ يتمكَّنَ منه عشرَ مرَّاتٍ مع صدقِ الشهوةِ ، ثمَّ يصبرَ عنه ويكسرَ شهوتهُ خوفاً مِنْ اللهِ تعالى) ، واشترائطُ هذا بعيدٌ ، وإنْ كانَ لا يُنكرُ عظمُ أثرِهِ لو فرضَ ، ولكنْ لا ينبغي للمريدِ الضعيفِ أنْ يسلكَ هذا الطريقَ فيهيِّجَ الشهوةَ ، ويحضرَ الأسبابَ حتَّى يتمكَّنَ ، ثمَّ يطمعَ في الانكفافِ ؛ فإنَّه لا يؤمنُ خروجُ عنانِ الشهوةِ عن اختيارِهِ ، فيقدمَ على المعصيةِ وينقضَ توبتهُ ، بل طريقُهُ الفرارُ مِنْ ابتداءِ أسبابِهِ الميسرةِ لَهُ ، حتَّى يسدَّ طرقها على نفسه ، ويسعى مع ذلك في كسرِ شهوتهِ بما يقدرُ عليه ، فيه تسلمُ توبتهُ في الابتداءِ .



الطبقةُ الثانيةُ : تائبٌ سلكَ طريقَ الاستقامةِ في أمَّهاتِ الطاعاتِ وتركِ كبائرِ الفواحشِ كُلِّها ، إلا أنَّه ليسَ ينفكُّ عن ذنوبٍ تعتريه ، لا عن عمدٍ

وتجريد قصد ، ولكن يُبتلى بها في مجاري أحواله من غير أن يقدم عزمًا على الإقدام عليها ، ولكنه كلما أقدم عليها . . لام نفسه وندم وتأسف ، وجدّد عزمه على أن يتشمر للاحتراز من أسبابها التي تعرّضه لها .

وهذه النفس جديرة بأن تكون هي النفس اللوامة ؛ إذ تلوم صاحبها على ما يستهدف له من الأحوال الذميمة ، لا عن تصميم عزم وتخميم رأي وقصد ، وهذه أيضاً رتبة عالية وإن كانت نازلة عن الطبقة الأولى ، وهي أغلب أحوال التائبين ؛ لأن الشرّ معجون بطينة آدمي قلما ينفك عنه ، وإنما غاية سعيه أن يغلب خيره شره حتى يثقل ميزانه ، فترجح كفة الخيرات ، فأما أن تخلو بالكلية كفة السيئات . . فذلك في غاية البعد .

وهؤلاء لهم حسن الوعد من الله تعالى ؛ إذ قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَثِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّمَمُ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ .

فكل إمام يقع بصغيرة لا عن توطين نفسه عليه فهو جدير بأن يكون من اللمم المعفو عنه ، وقد قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ﴾ ، فأثنى عليهم مع ظلمهم لأنفسهم ؛ لتندمهم ولومهم أنفسهم عليه .

والى مثل هذه الرتبة الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه علي رضي الله عنه : « خياركم كل مفتني تواب »^(١) .

(١) رواه البزار في « مسنده » (٧٠٠) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (١٢٧١) ، =

وفي خبر آخر : « المؤمن كالسنبله ، تفيء أحياناً وتميل أحياناً »^(١) .

وفي الخبر : « لا بدّ للمؤمن من ذنب يأتيه الفينة بعد الفينة »^(٢) أي :
الحين بعد الحين .

فكل ذلك أدلة قاطعة على أن هذا القدر لا ينقض التوبة ، ولا يلحق صاحبها بدرجة المصيرين .

ومن يؤسّ مثل هذا عن درجة التائب كالطبيب الذي يؤسّ الصحيح عن دوام الصحة بما يتناوله من الفواكه والأطعمة الحارة مرة بعد أخرى من غير مداومة واستمرار ، وكالفقيه الذي يؤسّ المتفقه عن نيل درجة الفقهاء بفتوره عن التكرار والتعليق في أوقات نادرة غير متطاولة ولا كثيرة^(٣) ، وذلك يدلّ على نقصان الطبيب والفقيه ، بل الفقيه في الدين هو الذي لا يؤسّ الخلق

= والبيهقي في « الشعب » (٦٧١٩) ، ورواه موقوفاً على علي رضي الله عنه ابن أبي الدنيا في « التوبة » (١٧٧) .

(١) رواه أحمد في « المسند » (٣٨٧/٣) من حديث جابر رضي الله عنه مرفوعاً بلفظ : « مثل المؤمن مثل السنبله ، تستقيم مرة وتخثر مرة ، ومثل الكافر مثل الأرزة ، لا تزال مستقيمة حتى تخثر ولا تشعر » ، ورواه البخاري في « التاريخ الكبير » (٢٨٩/٥) ، وأبو يعلى في « مسنده » (٣٠٨٠) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « مثل المؤمن مثل السنبله تميل أحياناً وتقوم أحياناً » .

(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (٣٠٤/١١) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٨٠٩) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٧٢٢) .

(٣) والمراد بالتكرار : إعادة ما يحصله في درسه مرة بعد أخرى حتى يرسخ في الذهن ، والتعليق : أن يعلق ما يسمع من فوائد الشيوخ في أوراق . « إتحاف » (٥٩٦/٨) .

عن درجات السعادات بما يتفق لهم من الفترات ومقارفة السيئات المختطفات .

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « كلُّ بني آدمَ خطَّاءٌ ، وخيرُ الخطَّائينَ التَّوَّابُونَ المستغفرون » (١) .

وقال عليه الصلاة والسلام أيضاً : « المؤمنُ واهٍ راقعٌ ، فخيرُهُم مَنْ ماتَ على رقبته » (٢) أي : واهٍ بالذنوب ، راقعٌ بالتوبة والندم .

وقال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ﴾ ، فما وصفهم بعدم السيئة أصلاً .



الطبقة الثالثة : أن يتوبَ ويستمرَّ على الاستقامة مدَّةً ، ثمَّ تغلبه شهوته في بعض الذنوب ، فيقدم عليها عن قصدٍ وصدقٍ شهوة ؛ لعجزه عن قهر الشهوة ، إلا أنه مع ذلك مواظبٌ على الطاعات ، وتاركٌ جملةً من الذنوب مع القدرة والشهوة ، وإنَّما قهرته هذه الشهوة الواحدة أو الشهوتان وهو يودُّ لو أقدره الله تعالى على قمعها وكفاه شرَّها ، هذا أمنيته في حال قضاء

- (١) كذا في « القوت » (١٨٨ / ١) ، ورواه الترمذي (٢٤٩٩) ، وابن ماجه (٤٢٥١) ، وعند ابن أبي الدنيا في « التوبة » (١٧٨) بلفظ المصنف ولكن من كلام عون العقيلي .
- (٢) كذا في « القوت » (١٨٨ / ١) ، ورواه الطبراني في « الصغير » (٦٦ / ١) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٧٢١) .

النفس ، فكما لا يصلح لمنصب الرئاسة والقضاء والتقدم بالعلم إلا نفس صارت فقيهة بطول التفقيه . . فلا يصلح لملك الآخرة ونعيمها ولا للقرب من رب العالمين إلا قلب سليم صار طاهراً بطول التزكية والتطهير .

هكذا سبق في الأزل بتدبير رب الأرباب .

ولذلك قال تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيْنَاهَا ﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿ ، فمهما وقع العبد في ذنب ، فصار الذنب نقداً والتوبة نسيئة . . كان هذا من علامات الخذلان ، قال صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ الْعَبْدَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ سَبْعِينَ سَنَةً ، حَتَّى يَقُولَ النَّاسُ : إِنَّهُ مِنْ أَهْلِهَا ، وَلَا يَبْقَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ إِلَّا شَبْرٌ ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا » (١) .

فإذا ؛ الخوف من الخاتمة قبل التوبة ، وكل نفس فهو خاتمة ما قبله ؛ إذ يمكن أن يكون الموت متصلاً به ، فليراقب الأنفاس ، وإلا . . وقع المحذور ، ودامت الحسرات حين لا ينفع التحسُّر .



الطبقة الرابعة : أن يتوب ويجري مدة على الاستقامة ، ثم يعود إلى مقارفة الذنب أو الذنوب من غير أن يحدث نفسه بالتوبة ، ومن غير أن

(١) رواه البخاري (٣٢٠٨) ، ومسلم (٢٦٤٣) ، وليس فيه لفظ : (سبعين سنة) ، وهو عند ابن راهويه في « مسنده » (١٤٧) ، وأحمد في « مسنده » (٧٥ / ٣) .

يَنَاسَفَ عَلَى فَعْلِهِ ، بَلْ يَنهَمُكُ انْهَمَاكَ الْغَافِلِ فِي اتِّبَاعِ شَهْوَتِهِ .

فهذا مِنْ جَمَلَةِ الْمَصْرِئِينَ ، وَهَذِهِ النَّفْسُ هِيَ النَّفْسُ الْأَمَّارَةُ بِالسُّوءِ
الْفَرَّارَةُ مِنَ الْخَيْرِ ، وَيُخَافُ عَلَى هَذَا سُوءُ الْخَاتِمَةِ ، وَأَمْرُهُ فِي مَشِيئَةِ اللَّهِ
تَعَالَى ، فَإِنْ خَتَمَ لَهُ بِالسُّوءِ . . شَقِيَّ شَقَاوَةً لَا آخَرَ لَهَا ، وَإِنْ خَتَمَ لَهُ
بِالْحَسَنِ حَتَّى مَاتَ عَلَى التَّوْحِيدِ . . فَيُنْتَظَرُ لَهُ الْخَلَاصُ مِنَ النَّارِ وَلَوْ بَعْدَ
حِينَ ، وَلَا يَسْتَحِيلُ أَنْ يَشْمَلَهُ عَمُومُ الْعَفْوِ بِسَبَبِ خَفِيِّ لَا يُطْلَعُ عَلَيْهِ ؛ كَمَا
لَا يَسْتَحِيلُ أَنْ يَدْخُلَ الْإِنْسَانُ خَرَاباً لِيَجِدَ كَنْزاً فَيَتَفَقَّ أَنْ يَجِدَهُ ، وَلَا أَنْ يَجْلِسَ
فِي الْبَيْتِ لِيَجْعَلَهُ اللَّهُ عَالِماً بِالْعُلُومِ مِنْ غَيْرِ تَعَلُّمٍ كَمَا كَانَ لِلْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللَّهِ
عَلَيْهِمْ ، فَطَلَبُ الْمَغْفِرَةِ بِالطَّاعَاتِ كَطَلَبِ الْعِلْمِ بِالْجَهْدِ وَالتَّكْرَارِ ، وَطَلَبُ
الْمَالِ بِالتَّجَارَةِ وَرُكُوبِ الْبَحَارِ ، وَطَلَبُهَا بِمَجَرَّدِ الرَّجَاءِ مَعَ خَرَابِ الْأَعْمَالِ
كَطَلَبِ الْكُنُوزِ فِي الْمَوَاضِعِ الْخَرِبَةِ ، وَطَلَبِ الْعُلُومِ مِنْ تَعْلِيمِ الْمَلَائِكَةِ ،
وَلَيْتَ مَنْ اجْتَهِدَ وَتَعَبَ . . تَعَلَّمَ ، وَلَيْتَ مَنْ اتَّجَرَ وَرَكِبَ الْبَحَارَ . . اسْتَغْنَى ،
وَلَيْتَ مَنْ صَامَ وَصَلَّى . . غُفِرَ لَهُ ، فَالنَّاسُ كُلُّهُمْ مُحْرَمُونَ إِلَّا الْعَالِمُونَ ،
وَالْعَالِمُونَ كُلُّهُمْ مُحْرَمُونَ إِلَّا الْعَامِلُونَ ، وَالْعَامِلُونَ كُلُّهُمْ مُحْرَمُونَ إِلَّا
الْمَخْلُصُونَ ، وَالْمَخْلُصُونَ عَلَى خَطَرٍ عَظِيمٍ ^(١) .

وَكَمَا أَنَّ مَنْ خَرَّبَ بَيْتَهُ وَضَيَّعَ مَالَهُ وَتَرَكَ نَفْسَهُ وَعِيَالَهُ جِيَاعاً يَزْعُمُ أَنَّهُ

(١) سبق هذا القول أثراً ، وبيان جواز الإبدال في الاستثناء الموجب على لغة أو تأويل ،
وانظر « الدر المصون » (٢ / ٥٢٨) .

ينتظرُ فضلَ الله بأن يرزقه كنزاً يجده تحت الأرض في بيته الخرب يُعدُّ عند ذوي البصائر من الحمقى والمغرورين وإن كان ما ينتظره غير مستحيل في قدرة الله تعالى وفضله.. فكَذَلِكَ مَنْ يَتَنَظَّرُ الْمَغْفِرَةَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى وَهُوَ مَقْصُرٌ عَنِ الطَّاعَةِ مَصْرُوعٌ عَلَى الذُّنُوبِ غَيْرُ سَالِكٍ سَبِيلَ الْمَغْفِرَةِ ، مَعْدُودٌ عِنْدَ أَرْبَابِ الْقُلُوبِ مِنَ الْمَعْتُوهِينَ .

والعجب من عقل هذا المعتوه ، وترويعه حماقة في صيغة حسنة ؛ إذ يقول : (إِنَّ اللَّهَ كَرِيمٌ وَجَّتُهُ لَيْسَتْ تَضِيقُ عَنْ مِثْلِي ^(١)) ، ومعصيتي ليست تضره) ، ثم تراه يركب البحار ، ويقتحم الأخطار في طلب الدينار ، وإذا قيل له : (إِنَّ اللَّهَ كَرِيمٌ ، وَدَنَانِيرُ خَزَائِنِهِ لَيْسَتْ تَقْصُرُ عَنْ فَقْرِكَ ، وَكَسْلُكَ بَتْرَكَ التَّجَارَةِ لَيْسَ يَضُرُّهُ ، فَاجْلِسْ فِي بَيْتِكَ ، فَعَسَاءُ يَرْزُقَكَ مِنْ حَيْثُ لَا تَحْتَسِبُ) ، فيستحمق قائل هذا الكلام ويستهزئ به ، ويقول : (ما هذا الهوس ؟! السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة ، وإنما يُنالُ ذلك بالكسب ، هَلْكَذَا قَدَرَهُ رَبُّ الْأَرْبَابِ وَأَجْرِي بِهِ سِتَّةٌ وَلَا تَبْدِيلَ لِسِتَّةِ اللَّهِ) .

ولا يعلم المغرور أن رب الآخرة ورب الدنيا واحد ، وأن ستة لا تبديل لها فيهما جميعاً ، وأنه قد أخبر إذ قال : ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ ، فكيف يعتقد أنه كريم في الآخرة وليس بكريم في الدنيا ؟! وكيف يقول : ليس مقتضى الكرم الفتور عن كسب المال ، ومقتضاه الفتور عن العمل

(١) في (أ) : (ورحمته واسعة) بدل (وجته) .

للملك المقيم والنعيم الدائم ، وأنَّ ذلك بحكمِ الكرمِ يعطيه من غيرِ جهدٍ في الآخرة ، وهذا يمنعه مع شدة الاجتهاد في غالب الأمر في الدنيا ، وينسى قوله تعالى : ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ !؟

فنعوذ بالله من العمى والضلال ، فما هذا إلا انتكاس على أمِّ الراس ، وانغماس في ظلمات الجهل ، وصاحبه جدير بأن يكون داخلاً تحت قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو أُرُؤِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا ﴾ أي : أبصرنا أنك صدقت إذ قلت : ﴿ وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ ، فارجعنا نسعى ، وعند ذلك لا يمكن من الانقلاب ، ويحق عليه العذاب ، فنعوذ بالله من دواعي الجهل والشك والارتباب السائق بالضرورة إلى سوء المنقلب والمآب .



بيان ما ينبغي أن يبادر إليه الثائب إن جرى عليه ذنب إما عن قصدٍ وشهوةٍ غالبته ، أو عن إلهامٍ بحكم الاتفاق

اعلم : أنَّ الواجب عليه التوبةُ والندمُ والاشتغالُ بالتكفيرِ بحسنةٍ تضادُّه
كما ذكرنا طريقه ، فإن لم تساعدْه النفسُ على العزمِ على التركِ لغلبةِ
الشهوةِ . . فقد عجزَ عن أحدِ الواجبين ، فلا ينبغي أن يترك الواجبَ الثاني ،
وهو أن يدرأ بالحسنةِ السيئةَ لتمحوها ، فيكون ممَّن خلطَ عملاً صالحاً وآخر
سيئاً .

والحسناتُ المكفِّرةُ للسيئاتِ : إمَّا بالقلبِ ، وإمَّا باللسانِ ، وإمَّا
بالجوارحِ ، ولتكن الحسنةُ في محلِّ السيئةِ ، وفيما يتعلَّقُ بأسبابِها .

فأمَّا بالقلبِ : فليكفرْه بالتضرُّعِ إلى الله تعالى في سؤالِ المغفرةِ والعفوِ ،
ويتذلَّلْ تذللَّ العبدِ الآبقِ ، ويكونُ ذلُّه بحيثُ يظهرُ لسائرِ العبادِ ، وذلك بنقصانِ
كبره فيما بينهم ، فما للعبدِ الآبقِ المذنبِ وجهٌ للتكبرِ على سائرِ العبادِ^(١) ،
وكذلك يضمُرُ بقلبه الخيراتِ للمسلمينَ والعزمَ على الطاعاتِ .

وأمَّا باللسانِ : فبالاعترافِ بالظلمِ والاستغفارِ ، فيقولُ : (ربِّ ؛
ظلمتُ نفسي وعملتُ سوءاً ، فاغفرْ لي ذنوبي) ، وكذلك يكثرُ من ضروبِ
الاستغفارِ ، كما أوردناه في كتابِ الدعواتِ والأذكارِ .

(١) والكبر والمعصية لا يجتمعان في قلب مؤمن . « إتحاف » (٦٠٢ / ٨) .

وأما بالجوارح : فبالطاعات ، والصدقات ، وأنواع العبادات ، وفي الآثار ما يدلُّ على أنَّ الذنب إذا أُتبعَ بثمانية أعمالٍ كانَ العفوُّ عنهُ مرجوًّا ، أربعةٌ مِنْ أعمالِ القلوبِ وهي التوبةُ أو العزمُ على التوبة ، وحبُّ الإقلاعِ عن الذنبِ ، وخوفُ العقابِ عليه ، ورجاءُ المغفرةِ له ، وأربعةٌ مِنْ أعمالِ الجوارحِ ، وهي أن يَصَلِّيَ عَقِيبَ الذنبِ ركعتين^(١) ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرَ اللهَ تعالى بعدهُما سبعينَ مرَّةً^(٢) ، ويقولَ : سبحانَ اللهِ العظيمِ وبحمدهِ مئةَ مرَّةٍ ، ثُمَّ يَتَصَدَّقَ بصدقةٍ ، ثُمَّ يَصُومَ يوماً^(٣) .

وفي بعضِ الآثارِ : «يسبغُ الوضوءَ ، ويدخلُ المسجدَ ويصليُّ ركعتين»^(٤) .
وفي بعضِ الأخبارِ : « يصليُّ أربعَ ركعاتٍ »^(٥) .

(١) وذلك بعد أن يتوضأ ، وإن اغتسل . . كان أكمل ، وإن أمكنه أن يغسل الثياب التي عصى الله فيها . . كان أكمل ؛ فإن طهارة الظاهر عنوان طهارة الباطن ، وإذا كانت الصلاة في موضع خال عن اشتغال وعن توهم الرياء والسمعة في بال . . كان أكمل . « إتحاف » (٦٠٢ / ٨) .

(٢) مع البكاء إن أمكن ، وإلا . . فبالتباكي وقلب حزين على ما سبق له من المعصية ، ويجعلها نصب عينيه . « إتحاف » (٦٠٢ / ٨) .

(٣) قوت القلوب (١٩٠ / ١) .

(٤) فقد روى الترمذي (٤٠٦) ، والنسائي في « السنن الكبرى » (١٠١٧٥ ، ١٠١٧٧) مرفوعاً وموقوفاً ، وابن ماجه (١٣٩٥) من حديث الصديق الأكبر رضي الله عنه نحوه ، ولم يذكر المسجد ، وعند البيهقي في « الشعب » (٦٦٨٠) من حديث الحسن مرسلاً : « ما أذنبتُ عبد ذنباً ، ثُمَّ تَوَضَّأْتُ ، فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ ، ثُمَّ خَرَجْتُ إِلَى بَرَّازٍ مِنَ الْأَرْضِ ، فَصَلَّيْتُ رَكْعَتَيْنِ ، وَاسْتَغْفِرُ اللهَ مِنْ ذَلِكَ الذَّنْبِ . . إِلَّا غُفِرَ لِي » .

(٥) إذ روى عبد الرزاق في « المصنف » (٤٤٧ / ٧) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٦٨٣) =

وفي الخبر : « إذا عملت سيئة .. فأتبعها حسنة تكفرها ، السرُّ بالسرِّ والعلانية بالعلانية » (١) .

ولذلك قيل : (صدقة السرِّ تكفر ذنوب الليل ، وصدقة الجهر تكفر ذنوب النهار) (٢) .

وفي الخبر الصحيح : أن رجلاً قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إنني عالجت امرأة ، فأصبت منها كل شيء إلا المسيس ، فاقض عليّ بحكم الله تعالى ، فقال صلى الله عليه وسلم : « أوما صليت معنا صلاة الغداة ؟ » قال : بلى ، فقال صلى الله عليه وسلم : « إن الحسنات يذهبن السيئات » (٣) .

= من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يهوى امرأة ، فكان ذات يوم جالساً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستأذن النبي صلى الله عليه وسلم في حاجة ، فأذن له ، فخرج في يوم مطير ، فإذا هو بامرأة على غدير تغتسل ، فلما رآها . جلس منها مجلس الرجل من امرأته ، وحرك ذكره فإذا هو مثل الهدبة ، فقام نادماً ، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أربع ركعات » ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ .

(١) هو من وصيته صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل رضي الله عنه ، رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٤٦٦) ، والطبراني في « الكبير » (١٥٩/٢٠) .

(٢) هو عند صاحب « القوت » (١٩٠/١) بلفظ : (صدقة الليل تكفر ذنوب النهار ، وصدقة السر تكفر ذنوب الليل) .

(٣) رواه البخاري (٥٢٦) ، ومسلم (٢٧٦٣) واللفظ أقرب له ، والمسيس في الحديث كناية عن الجماع .

وهذا يدلُّ على أنَّ ما دونَ الزنا مِنْ معالجةِ النساءِ صغيرةٌ ؛ إذ جعلَ الصلاةَ كفارةً لَهُ بمقتضى قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « الصلواتُ الخمسُ كفارةٌ لما بينهنَّ إلا الكبائرُ » .

فعلى الأحوالِ كُلِّها ينبغي أن يحاسبَ نفسه كلَّ يومٍ ، ويجمعَ سيئاتِهِ ، ويجتهدَ في دفعِها بالحسناتِ .



فإن قلتَ : فكيفَ يكونُ الاستغفارُ نافعا مِنْ غيرِ حلِّ عقدةِ الإصرارِ وفي الخبرِ : « المستغفرُ مِنَ الذنبِ وهو مصرٌّ عليه كالمستهزئِ بآياتِ الله » ^(١) ، وكانَ بعضهم يقولُ : (استغفرُ الله مِنْ قولي : استغفرُ الله) ^(٢) ، وقيلَ : (الاستغفارُ باللسانِ توبةُ الكذابينِ) ^(٣) ، وقالتِ رابعةُ العدويَّةُ : (استغفارُنا يحتاجُ إلى استغفارٍ) ^(٤) .

فاعلمْ : أنَّه قد وردَ في فضلِ الاستغفارِ أخبارٌ خارجةٌ عنِ الحصرِ ، ذكرناها في كتابِ الأذكارِ والدعواتِ ، حتَّى قرنَ اللهُ الاستغفارَ ببقاءِ الرسولِ

-
- (١) رواه ابن أبي الدنيا في « التوبة » (٨٥) من حديث ابن عباس مرفوعاً .
 (٢) كذا في « القوت » (١٨٩ / ١) ، وذكر الكلاباذي في « التعرف » (ص ٩٣) أنه من قول رابعة .
 (٣) ذكره الخرکوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٤٩) لرابعة ، ونحوه ذكره القشيري في « رسالته » (ص ١٨٤) لذي النون المصري .
 (٤) كذا في « القوت » (١٨٩ / ١) ، وعند الخرکوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٤٩) : (توبتنا تحتاج إلى توبة) .

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كَانَتْ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ ، فَكَانَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ يَقُولُ : (كَانَ لَنَا أَمَانَانِ ، ذَهَبَ أَحَدُهُمَا وَهُوَ كَوْنُ الرَّسُولِ فِيْنَا ، وَبَقِيَ الْإِسْتِغْفَارُ مَعَنَا ، فَإِنْ ذَهَبَ .. هَلَكْنَا)^(١) .

فَنَقُولُ : الْإِسْتِغْفَارُ الَّذِي هُوَ تَوْبَةُ الْكَذَّابِينَ : هُوَ الْإِسْتِغْفَارُ بِمَجَرَّدِ اللِّسَانِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ لِلْقَلْبِ فِيهِ شِرْكَةٌ ؛ كَمَا يَقُولُ الْإِنْسَانُ بِحُكْمِ الْعَادَةِ وَعَنْ رَأْسِ الْغَفْلَةِ : (أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ) ، وَكَمَا يَقُولُ إِذَا سَمِعَ صَفَةَ النَّارِ : (نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْهَا) مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَأَثَّرَ بِهِ قَلْبُهُ ، وَهَذَا يَرْجِعُ إِلَى مَجَرَّدِ حَرَكَةِ اللِّسَانِ ، وَلَا جَدْوَى لَهُ .

فَأَمَّا إِذَا انْضَافَ إِلَيْهِ تَضَرُّعُ الْقَلْبِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَابْتِهَالُهُ فِي سَوَالِ الْمَغْفِرَةِ عَنْ صَدَقِ إِرَادَةٍ وَخُلُوصِ نِيَّةٍ وَرَغْبَةٍ ، فَهَذِهِ حَسَنَةٌ فِي نَفْسِهَا ، فَتَصْلُحُ لِأَنْ تُدْفَعَ بِهَا السَّيِّئَةُ ، وَعَلَى هَذَا تَحْمِلُ الْأَخْبَارُ الْوَارِدَةُ فِي فَضْلِ الْإِسْتِغْفَارِ ، حَتَّى قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مَا أَصْرَّ مَنْ اسْتَغْفَرَ وَلَوْ عَادَ فِي الْيَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةً »^(٢) ، وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنِ الْإِسْتِغْفَارِ بِالْقَلْبِ .

(١) رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي « الْمُسْنَدِ » (٣٩٣ / ٤) مِنْ قَوْلِ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، كَمَا رَوَى أَيْضاً عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ (٣٠٨٢) مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعاً : « أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيَّ أَمَانِينَ لِأُمَّتِي ﴿ وَمَا كَانَتْ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ ، فَإِذَا مَضَتْ .. تَرَكْتُ فِيهِمُ الْإِسْتِغْفَارَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » .

(٢) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ (١٥١٤) ، وَالتِّرْمِذِيُّ (٣٥٥٩) .

وللتوبة والاستغفار درجات ، وأوائلها لا تخلو عن الفائدة وإن لم تنته إلى
أواخرها ، ولذلك قال سهل : (لا بد للعبد في كل حال من مولاة ، فأحسن
أحواله أن يرجع إليه في كل شيء ، فإن عصي .. قال : يا رب ؛ استر علي ،
فإذا فرغ من المعصية .. قال : يا رب ؛ تب علي ، فإذا تاب .. قال :
يا رب ؛ ارزقني العصمة ، وإذا عمل .. قال : يا رب ؛ تقبل مني) (١) .

وسئل أيضاً عن الاستغفار الذي يكفر الذنوب ، فقال : (أول الاستغفار
الاستجابة ، ثم الإنابة ، ثم التوبة ، فالاستجابة أعمال الجوارح ، والإنابة
أعمال القلوب ، والتوبة إقباله على مولاة بأن يترك الخلق ، ثم يستغفر الله
من تقصيره الذي هو فيه ، ومن الجهل بالنعمة وترك الشكر ، فعند ذلك يغفر
له ، ويكون عنده مأواه ، ثم التنقل إلى الانفراد ، ثم الثبات ، ثم البيان ، ثم
القرب ، ثم المعرفة ، ثم المناجاة ، ثم المصافاة ، ثم الموالاتة ، ثم محادثة
السر وهو الخلّة ، ولا يستقر هذا في قلب عبد حتى يكون العلم غذاءه ،
والذكر قوامه ، والرضا زاده ، والتوكل صاحبه ، ثم ينظر الله إليه ، ويرفعه
إلى العرش ، فيكون مقامه مقام حملة العرش) (٢) .

وسئل أيضاً عن قوله صلى الله عليه وسلم : « التائب حبيب الله » (٣) ،

(١) قوت القلوب (١/١٩٠) .

(٢) قوت القلوب (١/١٩٠) ، وقد زاد في المعطوفات : (والتفويض مراده ، والتوكل
صاحبه ...) .

(٣) هذا الحديث قد نص عليه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ ، -

فَقَالَ : (إِنَّمَا يَكُونُ حَبِيبًا إِذَا كَانَ فِيهِ جَمِيعُ مَا ذُكِرَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿التَّكْوِينُ الْكَيْدُوتُ...﴾ (الآيَةُ) ، وَقَالَ : (الْحَبِيبُ هُوَ الَّذِي لَا يَدْخُلُ فِيهَا يَكْرَهُهُ حَبِيبُهُ) .

وَالْمَقْصُودُ : أَنَّ لِلتَّوْبَةِ ثَمَرَتَيْنِ :

إِحْدَاهُمَا : تَكْفِيرُ السَّيِّئَاتِ ، حَتَّى يَصِيرَ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ .

وَالثَّانِيَةُ : نَيْلُ الدَّرَجَاتِ ، حَتَّى يَصِيرَ حَبِيبًا .

وَلِلتَّكْفِيرِ أَيْضًا دَرَجَاتٌ ، فَبَعْضُهُ مَحْوُ الْأَصْلِ الذَّنْبِ بِالْكَلِيَّةِ ، وَبَعْضُهُ تَخْفِيفُ لَهُ ، وَيتفاوت ذلك بتفاوت درجات التوبة ، فالاستغفار بالقلب والتدارك بالحسنات وإن خلا عن حل عقدة الإصرار من أوائل الدرجات فليس يخلو عن الفائدة أصلاً ، فلا ينبغي أن يُظنَّ أن وجودها كعدمها ، بل عرف أهل المشاهدة وأرباب القلوب معرفة لا ريب فيها أن قول الله تعالى : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ صدق ، وأنه لا تخلو ذرة من الخير عن أثر ، كما لا تخلو شعيرة تطرح في الميزان عن أثر ، ولو خلت الشعيرة الأولى عن أثر . . . لكانت الثانية مثلها ، ولكان لا يترجح الميزان بأحمال الذرات ، وذلك بالضرورة محال ، بل ميزان الحسنات يترجح بذرات الخيرات إلى أن يثقل فتشيل كفة السيئات ، فإياك أن تستصغر ذرات الطاعات

= وروى ابن أبي الدنيا في « التوبة » (١٨٤) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً :

« إن الله يحب الشاب التائب » .

فلا تأتيها ، وذرات المعاصي فلا تتقيها ؛ كالمرأة الخرقاء ، تكسل عن الغزل تعللاً بأنها لا تقدر في كل ساعة إلا على خيط واحد وتقول : (أي غنى يحصل بخيط ؟ وما وقع ذلك في الثياب !) ، ولا تدري المعتوهة أن ثياب الدنيا اجتمعت خيطاً خيطاً ، وأن أجسام العالم مع اتساع أقطاره اجتمعت ذرة ذرة .

فإذا ؛ التضرع والاستغفار بالقلب حسنة لا تضيع عند الله أصلاً ، بل أقول : الاستغفار باللسان أيضاً حسنة ؛ إذ حركة اللسان بها عن غفلة خير من حركة اللسان في تلك الساعة بغية مسلم أو فضول كلام ، بل هو خير من السكوت عنه ، فيظهر فضله بالإضافة إلى السكوت عنه ، وإنما يكون نقصاناً بالإضافة إلى عمل القلب ، ولذلك قال بعضهم لشيخه أبي عثمان المغربي : إن لساني في بعض الأحوال^(١) يجري بالذكر والقرآن وقلبي غافل ، فقال : اشكر الله إذ استعمل جارحة من جوارحك في الخير ، وعوده الذكر ، ولم يستعمله في الشر ، ولم يعوده الفضول .

وما ذكره حق ، فإن تعود الجوارح للخيرات حتى يصير لها ذلك كالطبع يدفع جملة من المعاصي ، فمن تعود لسانه الاستغفار إذا سمع من غيره كذباً . . سبق لسانه إلى ما تعوده فقال : (أستغفر الله) ، ومن تعود الفضول . . سبق لسانه إلى أن يقول : (ما أحملك ، وما أقبح كذبك !) ، ومن تعود الاستعادة إذا حدث بظهور مبادي الشر من شرير . . قال بحكم

(١) في (س) : (الأوقات) بدل (الأحوال) .

سبق اللسان : (نعوذ بالله) ، وإذا تعوذ الفضول .. قال : (لعنة الله) ،
 فيعصي في إحدى الكلمتين ويسلم في الأخرى ، وسلامته أثر اعتياد لسانه
 الخير ، وهو من جملة معاني قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ،
 ومعاني قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَعِفَهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

فانظر كيف ضاعفها إذ جعل الاستغفار في الغفلة عادة اللسان حتى دفع
 بتلك العادة شر العصيان بالغيبة واللعن والفضول ، هذا تضعيف في الدنيا
 لأدنى الطاعات ، وتضعيف الآخرة أكبر ، لو كانوا يعلمون .

فإياك وأن تلمح في الطاعات مجرد الآفات ، فتفتتر رغبتك عن
 العبادات ، فإن هذه مكيدة روجها الشيطان بلعنته على المغرورين ، وخيل
 إليهم : إنكم أرباب البصائر ، وأهل التفطن للخفايا والسرائر ، فأئي خير في
 ذكر باللسان مع غفلة القلب ؟!

فانقسم الخلق في هذه المكيدة إلى ثلاثة أقسام : ظالم لنفسه ،
 ومقتصد ، وسابق بالخيرات .

أما السابق : فقال : (صدقت يا ملعون ، ولكن هي كلمة حق أردت بها
 باطلاً ، فلا جرم أعذبك مرتين ، وأرغم أنفك من وجهين ، فأضيف إلى
 حركة اللسان حركة القلب) ، فكان كالذي داوى جرح الشيطان بنثر الملح
 عليه .

وأما الظالم المغرور : فاستشعر في نفسه خيلاء الفطنة لهذه الدقيقة ،

ثمَّ عجزَ عن الإخلاصِ بالقلبِ ، فتركَ معَ ذلكَ تعويدَ اللسانِ بالذكرِ ،
فأسعَفَ الشيطانَ بمراده ، وتدلَّى بحبلِ غروره ، فتمَّتْ بينهما المشاكلةُ
والموافقةُ ، كما قيلَ : (وافقَ شئٌ طبقه ، وافقه فاعتنقه)^(١) .

وأما المقتصدُ : فلمَ يقدرْ على إرغامِهِ بإشراكِ القلبِ في العملِ ، وتفطُنْ
لنقصانِ حركةِ اللسانِ بالإضافةِ إلى القلبِ ، ولكنِ اهتدى إلى كمالِهِ بالإضافةِ
إلى السكوتِ والفضولِ ، فاستمرَّ عليه ، وسألَ اللهَ تعالى أنْ يشركَ القلبَ معَ
اللسانِ في اعتيادِ الخيرِ .

فكانَ السابقُ كالحائكِ الذي دُمَّتْ حياكتهُ فتركها وأصبحَ كاتباً ، والظالمُ
المتخلفُ كالذي تركَ الحياكةَ أصلاً وأصبحَ كنّاساً ، والمقتصدُ كالذي عجزَ
عنِ الكتابةِ فقالَ : (لا أنكرُ مذمةَ الحياكةِ ، ولكنَّ الحائكَ مذمومٌ بالإضافةِ
إلى الكاتبِ ، لا بالإضافةِ إلى الكنّاسِ ، فإذا عجزتُ عنِ الكتابةِ . . فلا أتركُ
الحياكةَ) .

ولذلكَ قالتُ رابعةُ العدويَّةُ : (استغفارُنا يحتاجُ إلى استغفارٍ) ، فلا
تظنَّ أنَّها تذرُّ حركةَ اللسانِ مِنْ حيثُ إنَّه ذكرُ اللهِ ، بلْ تذرُّ غفلةَ القلبِ ، فهوَ

(١) مثل مشهور يضرب لاثنيين جمعتهما حالة واحدة فاتفقا بها ، ومنهم من يجعله رجزاً
مجزوءاً ، وشئٌ وطبقَ اسمانِ لرجلين على الراجح ، أو علمانِ على قبيلتين ، أو على
رجل وامرأة ، وقيل غير ذلك ، والهاء في (طبقه) للسكت لموافقة السجعة في
الأولين ، وانظر « مجمع الأمثال » (٤٨٨ / ٣) ، وقال فيه الميداني : (وزاد
المتأخرون فيه : وافقه فاعتنقه) .

يحتاجُ إلى الاستغفارِ مِنْ غفلةِ قلبِهِ ، لا مِنْ حركةِ لسانِهِ ، فَإِنْ سَكَتَ عَنِ
الاستغفارِ باللسانِ أيضاً . . احتاجَ إلى استغفارين ، لا إلى استغفارٍ واحدٍ .

فهكذا ينبغي أَنْ تفهمَ ذمَّ ما يُذمُّ ، وحمدَ ما يُحمدُ ، وإلا . . جهلتَ
معنى ما قالَ القائلُ الصادقُ : (حسناتُ الأبرارِ سيئاتُ المقربين)^(١) ، فَإِنَّ
هذهِ أمورٌ تثبتُ بالإضافةِ ، فلا ينبغي أَنْ تؤخذَ مِنْ غيرِ إضافةٍ^(٢) ، بل ينبغي
ألا تستحقِرَ ذرَّاتِ الطاعاتِ والمعاصي ، ولذلك قالَ جعفرُ الصادقُ
رحمةُ اللهِ عليه : (إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَبَأَ ثَلَاثًا فِي ثَلَاثٍ ؛ رِضَاً فِي طَاعَتِهِ ، فلا
تحقروا منها شيئاً ؛ فلعلَّ رِضاهُ فِيهِ ، وخَبَأَ غَضَبَهُ فِي معاصيهِ ، فلا تحقروا
منها شيئاً ، فلعلَّ غَضَبَهُ فِيهِ ، وخَبَأَ وِلايَتَهُ فِي عِبَادِهِ ، فلا تحقروا منهم
أحداً ، فلعلَّهُ وَلِيُّ اللَّهِ تَعَالَى) ، وزادَ : (وخَبَأَ إجابَتَهُ فِي دُعَائِهِ ، فلا تتركوا
الدعاءَ ، فربَّما كانتِ الإجابةُ فِيهِ)^(٣) .



(١) كلمة مشهورة لأبي سعيد الخراساني ، تقدمت للمصنف غير مرة .

(٢) في (ب) هنا زيادة : (فلا ينبغي أَنْ توجد وحدها) .

(٣) قوت القلوب (٢٠٧/١) ، ورواه البيهقي في « الزهد » (٧٥٩) من كلام ذي النون
المصري رحمه الله تعالى .

الرُّكْنُ الرَّابِعُ في دواء النُّوبَةِ وطريق العلاج كحل عقدة الإصرار

اعلم : أنَّ النَّاسَ قِسْمَانِ :

- شَابٌّ لَا صَبُورَةَ لَهُ ، نَشَأَ عَلَى الْخَيْرِ وَاجْتَنَابِ الشَّرِّ ، وَهُوَ الَّذِي قَالَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « يَعْجَبُ رَبُّكَ مِنْ شَابٍّ لَيْسَتْ لَهُ صَبُورَةٌ »^(١) ، وَهَذَا عَزِيزٌ نَادِرٌ .

- الْقِسْمُ الثَّانِي : هُوَ الَّذِي لَا يَخْلُو عَنْ مَقَارِفَةِ الذُّنُوبِ ، ثُمَّ هُمْ يَنْقَسِمُونَ إِلَى مُصْرِّينَ وَإِلَى تَائِبِينَ ، وَغَرَضُنَا أَنْ نَبَيِّنَ الْعِلَاجَ فِي حَلِّ عَقْدَةِ الْإِصْرَارِ ، وَنَذَكِّرَ الدَّوَاءَ فِيهِ .

فَاعْلَمْ : أَنَّ شِفَاءَ التَّوْبَةِ لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِالدَّوَاءِ ، وَلَا يَقِفُ عَلَى الدَّوَاءِ مَنْ لَا يَقِفُ عَلَى الدَّاءِ ؛ إِذْ لَا مَعْنَى لِلدَّوَاءِ إِلَّا مَنَاقِضَةُ أَسْبَابِ الدَّاءِ ، فَكُلُّ دَاءٍ حَصَلَ

(١) رواه أحمد في « المسند » (١٥١ / ٤) ، والطبراني في « الكبير » (٣٠٩ / ١٧) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه مرفوعاً ، ورواه موقوفاً عليه ابنُ المبارك في « الزهد » (٣٤٩) ، والعجب : كَوْنُ الشَّيْءِ خَارِجاً عَنْ نَظَائِرِهِ مِنْ جِنْسِهِ حَتَّى يَكُونَ نَظَرُهُ فِي صِفَةٍ وَيَكُونُ اسْتِعْظَامُ الشَّيْءِ وَاسْتِكْبَارُهُ لَخُرُوجِهِ عَنِ الْعَادَةِ وَبَعْدَهُ ، وَذَلِكَ مِمَّا يَنْزَعُ عَنْ مِثْلِهِ الْبَارِي تَعَالَى ، فَيُؤَوَّلُ بِمَعْنَى يَعْظُمُ قَدْرُهُ عِنْدَهُ فَيَحْزِزُ لَهُ أَجْرُهُ ، وَإِنَّمَا عَبَّرَ بِذَلِكَ تَقْرِيباً لِأَفْهَامِ الْعَرَبِ . « إتحاف » (٦٠٨ / ٨) .

مِنْ سَبَبٍ فِدَاؤُهُ حُلٌّ ذَلِكَ السَّبَبِ وَرَفْعُهُ وَإِبْطَالُهُ ، وَلَا يَبْطُلُ الشَّيْءُ إِلَّا بِضَدِّهِ .
وَلَا سَبَبٌ لِلْإِصْرَارِ إِلَّا الْغَفْلَةُ وَالشَّهْوَةُ ، وَلَا يُضَادُّ الْغَفْلَةَ إِلَّا الْعِلْمُ ،
وَلَا يُضَادُّ الشَّهْوَةَ إِلَّا الصَّبْرُ عَلَى قَطْعِ الْأَسْبَابِ الْمَحْرُكَةِ لِلشَّهْوَةِ ، وَالْغَفْلَةُ
رَأْسُ الْخَطَايَا ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاقِلُونَ ﴾ لَا جَرَمَ
أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَسِرُونَ .

فَلَا دَوَاءَ إِذَا لِلتَّوْبَةِ إِلَّا مَعْجُونٌ يَعْجَنُ مِنْ حَلَاوَةِ الْعِلْمِ وَمَرَارَةِ الصَّبْرِ ؛ كَمَا
يَجْمَعُ السَّكَنْجَبِيُّ بَيْنَ حَلَاوَةِ السَّكْرِ وَحَمُوضَةِ الْخَلِّ ، وَيُقْصَدُ بِكُلِّ وَاحِدٍ
مِنْهُمَا غَرَضٌ آخَرُ فِي الْعِلَاجِ بِمَجْمُوعِهِمَا ، بِقَمْعِ الْأَسْبَابِ الْمَهْيِجَةِ
لِلصَّفَرَاءِ ؛ فَهَكَذَا يَنْبَغِي أَنْ تَفْهَمَ عِلَاجَ الْقَلْبِ عَمَّا بِهِ مِنْ مَرَضِ الْإِصْرَارِ .
فَإِذَا ؛ لِهَذَا الدَّوَاءِ أَصْلَانِ : أَحَدُهُمَا : الْعِلْمُ ، وَالْآخَرُ : الصَّبْرُ ، فَلَا
بَدَّ مِنْ بَيَانِهِمَا .



فَإِنْ قُلْتَ : أَيْنَعُ كُلُّ عِلْمٍ لِحُلِّ الْإِصْرَارِ أَمْ لَا بَدَّ مِنْ عِلْمٍ مَخْصُوصٍ ؟
فَاعْلَمْ : أَنَّ الْعُلُومَ بِجَمَلِهَا أَدْوِيَةٌ لَأَمْرَاضِ الْقُلُوبِ ، وَلَكِنْ لِكُلِّ مَرَضٍ
عِلْمٌ يَخْصُهُ ؛ كَمَا أَنَّ عِلْمَ الطَّبِّ نَافِعٌ فِي عِلَاجِ الْأَمْرَاضِ بِالْجَمْلَةِ ، وَلَكِنْ
يَخْصُ كُلَّ عِلَّةٍ عِلْمٌ مَخْصُوصٌ ؛ فَكَذَلِكَ دَاءُ الْإِصْرَارِ .
فَلَنَذْكُرْ خُصُوصَ ذَلِكَ الْعِلْمِ عَلَى مُوَازَنَةِ مَرَضِ الْأَبْدَانِ ؛ لِيَكُونَ أَقْرَبَ
إِلَى الْفَهْمِ ، فَنَقُولُ :

يحتاجُ المريضُ إلى التصديقِ بأُمورٍ أربعة :

الأوّلُ : أن يصدّقَ على الجملةِ بأنّ للمرضِ والصحّةِ أسباباً يتوصّلُ إليها بالاختيارِ ، على ما ربّهُ مسبّبُ الأسبابِ ، وهذا هو الإيمانُ بأصلِ الطبِّ ، فإنّ مَنْ لا يؤمنُ به . . لا يشتغلُ بالعلاجِ ، ويحقُّ عليه الهلاكُ .

وهذا وزانه ممّا نحنُ فيه الإيمانُ بأصلِ الشرعِ ، وهو أنّ للسعادةِ في الآخرةِ سبباً هو الطاعةُ ، وللشقاوةِ سبباً هو المعصيةُ ، وهذا هو الإيمانُ بأصلِ الشرائعِ ، وهذا لا بدّ من حصوله إمّا عن تحقيقٍ أو تقليدٍ ، وكلاهما من جملةِ الإيمانِ .

الثاني : أنّه لا بدّ أن يعتقَدَ المريضُ في طبيبٍ معيّنٍ أنّه عالمٌ بالطبِّ ، حاذقٌ فيه ، صادقٌ فيما يعبّرُ عنه ، لا يلبّسُ ولا يكذبُ ، فإنّ إيمانهُ بأصلِ الطبِّ لا ينفعُهُ بمجردِه دونَ هذا الإيمانِ .

ووزانه ممّا نحنُ فيه العلمُ بصدقِ الرسولِ صلّى اللهُ عليه وسلّمَ ، والإيمانُ بأنّ كلّ ما يقوله حقٌّ وصدقٌ ، لا كذبَ فيه ولا خُلفَ .

الثالثُ : أنّه لا بدّ أن يصغّيَ إلى الطبيبِ فيما يحذّرهُ مضرّتهُ ؛ من تناولِ الفواكهِ ، والأسبابِ المضرّةِ على الجملةِ ، حتّى يغلبَ عليه الخوفُ في تركِ الاحتماءِ ، فتكونَ شدّةُ الخوفِ باعثةً له على الاحتماءِ .

ووزانه من الدينِ الإصغاءُ إلى الآياتِ والأخبارِ المشتملةِ على الترغيبِ في التقوى والتحذيرِ من ارتكابِ الذنوبِ واتباعِ الهوى ، والتصديقُ بجميعِ

ما يُلقَى إلى سَمْعِهِ مِنْ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ وَاسْتِرَايَةٍ ، حَتَّى يَنْبَعَثَ بِهِ الْخَوْفُ الْمَقْوِيُّ عَلَى الصَّبْرِ ، الَّذِي هُوَ الرُّكْنُ الْآخَرُ فِي الْعِلَاجِ .

الرَّابِعُ : أَنْ يَصْغِيَ إِلَى الطَّبِيبِ فِيمَا يَخْصُ مَرَضُهُ ، وَفِيمَا يُلْزِمُهُ فِي نَفْسِهِ الْإِحْتِمَاءُ عَنْهُ ؛ لِيَعْرِفَهُ أَوَّلًا تَفْصِيلَ مَا يَضُرُّهُ مِنْ أَعْمَالِهِ وَأَحْوَالِهِ ، وَمَأْكُولِهِ وَمَشْرُوبِهِ ، فَلَيْسَ عَلَى كُلِّ مَرِيضٍ الْإِحْتِمَاءُ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ ، وَلَا يَنْفَعُهُ كُلُّ دَوَاءٍ ، بَلْ لِكُلِّ عِلَّةٍ خَاصَّةٌ عِلْمٌ خَاصٌّ ، وَعِلَاجٌ خَاصٌّ .

وَوِزَانُهُ مِنَ الدِّينِ أَنَّ كُلَّ عَبْدٍ فَلَيْسَ يُبْتَلَى بِكُلِّ شَهْوَةٍ ، وَارْتِكَابِ كُلِّ ذَنْبٍ ، بَلْ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ ذَنْبٌ مَخْصُوصٌ أَوْ ذَنْوبٌ مَخْصُوصَةٌ ، وَإِنَّمَا حَاجَتُهُ فِي الْحَالِ مَرَهَقَةٌ إِلَى الْعِلْمِ بِأَنَّهَا ذَنْوبٌ ، ثُمَّ إِلَى الْعِلْمِ بِآفَاتِهَا وَقَدْرِ ضَرَرِهَا فِي الدِّينِ ، ثُمَّ إِلَى الْعِلْمِ بِكَيْفِيَةِ التَّوَصُّلِ إِلَى الصَّبْرِ عَنْهَا ، ثُمَّ إِلَى الْعِلْمِ بِكَيْفِيَةِ تَكْفِيرِ مَا سَبَقَ مِنْهَا ، فَهَذِهِ عُلُومٌ يَخْتَصُّ بِهَا أَطْبَاءُ الدِّينِ ، وَهُمْ الْعُلَمَاءُ الَّذِينَ هُمْ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ .

فَالْعَاصِي إِنْ عَلِمَ عَصْيَانَهُ . . فَعَلَيْهِ طَلِبُ الْعِلَاجِ مِنَ الطَّبِيبِ ، وَهُوَ الْعَالِمُ ، فَإِنْ كَانَ لَا يَدْرِي أَنَّ مَا يَرْتَكِبُهُ ذَنْبٌ . . فَعَلَى الْعَالِمِ أَنْ يَعْرِفَهُ ذَلِكَ ، وَذَلِكَ بِأَنْ يَتَكَفَّلَ كُلُّ عَالِمٍ بِإِقْلِيمٍ أَوْ بِلَدَةٍ أَوْ مُحَلَّةٍ أَوْ مَسْجِدٍ أَوْ مَشْهَدٍ فَيَعْلَمَ أَهْلَهُ دِينَهُمْ ، وَيُمَيِّزَ مَا يَضُرُّهُمْ عَمَّا يَنْفَعُهُمْ ، وَمَا يَشْقِيهِمْ عَمَّا يَسْعِدُهُمْ ، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَصْبَرَ إِلَى أَنْ يُسْأَلَ عَنْهُ ، بَلْ يَنْبَغِي أَنْ يَتَصَدَّقَ لِدَعْوَةِ النَّاسِ إِلَى نَفْسِهِ ، فَإِنَّهُمْ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ ، وَالْأَنْبِيَاءُ مَا تَرَكُوا النَّاسَ عَلَى جَهْلِهِمْ ، بَلْ كَانُوا

ينادونهم في مجامعهم ، ويدورون على أبواب دورهم في الابتداء ،
ويطلبون واحداً واحداً فيرشدونهم ، فإن مرضى القلوب لا يعرفون
مرضهم ؛ كما أن الذي ظهر على وجهه برص ولا مرآة معه لا يعرف برصه
ما لم يعرفه غيره ، وهذا فرض عين على العلماء كافة .

وعلى السلاطين كافة أن يرتبوا في كل قرية وكل محلة فقيهاً متديناً ،
يعلم الناس دينهم ، فإن الخلق لا يؤلدون إلا جهالاً ، فلا بد من تبليغ
الدعوة إليهم في الأصل والفرع ، فالدنيا دار المرضي ؛ إذ ليس في بطن
الأرض إلا ميت ، ولا على ظهرها إلا سقيم ، ومرض القلوب أكثر من
مرض الأبدان ، والعلماء أطباء القلوب ، والسلاطين قوأم دار المرضي ،
فكل مريض لم يقبل العلاج بمداواة العالم يسلم إلى السلطان ليكف شره ،
كما يسلم الطبيب المريض الذي لا يحتمي أو الذي غلب عليه الجنون إلى
القيم ليقيدته بالسلاسل والأغلال ويكف شره عن نفسه وعن سائر الناس .

وإنما صار مرض القلوب أكثر من مرض الأبدان لثلاث علي :

إحداها : أن المريض به لا يدري أنه مريض .

والثانية : أن عاقبته غير مشاهدة في هذا العالم ، بخلاف مرض البدن ،
فإن عاقبته موتٌ مشاهد ، تنفر الطباع منه ، وما بعد الموت غير مشاهد ،
وعاقبة الذنوب موت القلب ، وهو غير مشاهد في هذا العالم ، فقلت النفرة
عن الذنوب وإن علمها مرتكبها ، فلذلك تراه يتكل على فضل الله في مرض

القلب ويجتهد في علاج مرض البدن من غير اتكال .

والثالثة - وهي الداء العضال - : فقد الطبيب ، فإن الأطباء هم العلماء ،

وقد مرضوا في هذه الأعصار مرضاً شديداً عجزوا عن علاجه ، وصارت
لهم سلوة في عموم المرض حتى لا يظهر نقصانهم ، فاضطروا إلى إغواء
الخلق ، والإشارة عليهم بما يزيدهم مرضاً ؛ لأن الداء المهلك هو حب
الدنيا ، وقد غلب هذا الداء على الأطباء ، فلم يقدرُوا على تحذير الخلق
منه ؛ استكفاً من أن يقال لهم : فما بالكُم تأمرون بالعلاج وتنسون
أنفسكم ؟ ! فبهذا السبب عم على الخلق الداء ، وعظم الوباء ، وانقطع
الدواء ، وهلك الخلق لفقد الأطباء ، بل اشتغل الأطباء بفنون الإغواء ،
فليتهم إذ لم ينصحوا . . لم يغشوا ، وإذ لم يصلحوا . . لم يفسدوا ، وليتهم
سكتوا وما نطقوا ، فإنهم إذا تكلموا . . لم يهتمهم في مواعظهم إلا ما يرغب
العوام^(١) ، ويستميل قلوبهم ، ولا يتوصلون إلى ذلك إلا بالإرجاء وتغليب
أسباب الرجاء ، وذكر دلائل الرحمة ؛ لأن ذلك ألد في الأسماع ، وأخف
على الطباع ، فتصرف الخلق عن مجالس الوعظ وقد استفادوا مزيد جرأة
على المعاصي ، ومزيد ثقة بفضل الله .

ومهما كان الطبيب جاهلاً أو خائناً . . أهلك بالدواء حيث يضعه في غير
موضعه ، فالرجاء والخوف دواءان ، ولكن لشخصين متضادين العلة ؛ أما

(١) في (د) : (يدعن العوام) ، وفي بقية النسخ : (يزعق العوام) بدل (يرغب العوام) ،
والمثبت من (ق) .

الذي غلب عليه الخوف حتى هجر الدنيا بالكلية ، وكلف نفسه ما لا تطيق ،
وضيق العيش على نفسه بالكلية . . فتكسر سورة إسرائيه في الخوف بذكر
أسباب الرجاء ؛ ليعود إلى الاعتدال .

وكذا المصير على الذنوب المشتبه للتوبة الممتنع عنها بحكم القنوط
والياس استعظاما لذنوبه التي سبقت . . يُعالج أيضاً بأسباب الرجاء ؛ حتى
يطمع في قبول التوبة فيتوب .

فأمّا معالجة المغرور المسترسل في المعاصي بذكر أسباب الرجاء . .
فيضاهي معالجة المحرور بالعسل طلباً للشفاء ، وذلك من دأب الجهال
والأغبياء .

فإذا ؛ فساد الأطباء هو الداء المعضل الذي لا يقبل الدواء أصلاً .



فإن قلت : فاذكر الطريق الذي ينبغي أن يسلكه الواعظ في وعظه مع
الخلق .

فاعلم : أن ذلك يطول ولا يمكن استقصاؤه .



نعم ، نشير إلى الأنواع النافعة في حل عقدة الإصرار ، وحمل الناس
على ترك الذنوب ، وهي أربعة أنواع :

النوع الأول : أن يذكر ما في القرآن من الآيات المخوفة للمذنبين والعاصين ، وكذلك ما ورد من الأخبار والآثار :

مثل قوله صلى الله عليه وسلم : « ما من يوم طلع فجره ولا ليلة غاب شفقها إلا وملكان يتجاوبان بأربعة أصوات ؛ يقول أحدهما : يا ليت هذا الخلق لم يُخلقوا ، ويقول الآخر : يا ليتهم إذ خُلِقوا . علموا لماذا خُلِقوا ، فيقول الآخر : يا ليتهم إذ علموا لماذا خُلِقوا . عملوا بما علموا - وفي بعض الروايات : تجالسوا فتذكروا ما علموا - ويقول الآخر : يا ليتهم إذ لم يعملوا بما علموا . تابوا ممّا عملوا »^(١) .

وقال بعض السلف : (إذا أذنب العبد . . أمر صاحب اليمين صاحب الشمال وهو أمير عليه أن يرفع القلم عنه ست ساعات ، فإن تاب واستغفر . . لم يكتبها عليه ، وإن لم يستغفر . . كتبها)^(٢) .

(١) كذا في « القوت » (١ / ١٩٠) ، ووقع في النسخ : (إذ لم يعلموا) بدل (علموا) ، وصحح من « القوت » ، وقد قال الإمام أبو طالب في هذا : (وفي أخبار متفرقة جمعناها) ، وقال الحافظ العراقي : (غريب لم أجده هكذا ، وروى الديلمي في « مسند الفردوس » من حديث ابن عمر : « إن ملكاً ينادي في كل يوم وليلة أبناء الأربعين زرع قد دنا حصاده » الحديث ، وفيه : « ليت الخلاق لم يخلقوا ، وليتهم إذ خلقوا . . علموا لماذا خلقوا ، فتجالسوا بينهم فتذكروا . . » الحديث) . « إتحاف » (٨ / ٦١٢) ، وانظر « تفسير الثعلبي » (٨ / ٩٢) ، و« المجالسة وجواهر العلم » (ص ٣٣٤) ، و« حلية الأولياء » (٦ / ١٤٢) .

(٢) كذا في « القوت » (١ / ١٩٠) ، وقد رواه الطبراني في « الكبير » (٨ / ١٩١) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٦٤٨) من حديث أبي أمامة مرفوعاً .

وقال بعضُ السلفِ : (ما مِنْ عَبْدٍ يَعْصِي إِلَّا اسْتَأْذَنَ مَكَانَهُ مِنَ الْأَرْضِ أَنْ يَخْسَفَ بِهِ ، وَاسْتَأْذَنَ سَقْفَهُ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ يَسْقُطَ عَلَيْهِ كَسْفاً ، فيقولُ اللهُ تعالى للارضِ والسَّمَاءِ : كُفَّا عَنْ عِبْدِي وَأَمْهَلَاهُ ، فَإِنَّكُمَا لَمْ تَخْلُقَاهُ ، وَلَوْ خَلَقْتُمَاهُ.. لَرَحِمْتُمَاهُ ، وَلَعَلَّهُ يَتُوبُ إِلَيَّ فَأَغْفِرَ لَهُ ، وَلَعَلَّهُ يَسْتَبْدِلُ صَالِحاً فَاِبدَلَهُ لَهُ حَسَنَاتٍ ، فَذلكَ معنى قولِهِ تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ (١) .

وفي حديثِ عمرَ بنِ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ : (الطابعُ معلقٌ بقائمةِ العرشِ ، فإذا انتهكتِ الحرماتُ واستحلَّتِ المحارمُ.. أرسلَ اللهُ الطابعَ ، فيطبعُ على القلوبِ بما فيها) (٢) .

وفي حديثِ مجاهدٍ : (القلبُ مثلُ الكفِّ المفتوحةِ ، كلما أذنبَ العبدُ ذنباً.. انقبضتْ إصبعٌ حتَّى تنقبضَ الأصابعُ كلها ، فيُسدُّ على القلبِ ، فَذلكَ هوَ القفلُ) (٣) .

وقالَ الحسنُ : (إن بينَ العبدِ وبينَ اللهِ حدّاً مِنَ المعاصي معلوماً ، إذا بلغه العبدُ.. طبعَ اللهُ على قلبِهِ ، فلمْ يوقَّعهُ بعدَها لخيرٍ) (٤) .

(١) كذا في « القوت » (١٨٧ / ١) .

(٢) الخبر في جميع النسخ عن عمر الفاروق رضي الله عنه ، وهو في « القوت » (١٨٥ / ١) عن ابن عمر رضي الله عنهما ، وكذا رواه عنه ابن أبي الدنيا في « التوبة » (٢٣) مرفوعاً .

(٣) قوت القلوب (١٨٥ / ١) .

(٤) نسبه الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٦١٣ / ٨) لصاحب « القوت » .

والأخبار والآثار في ذم المعاصي ومدح التائبين لا تحصى ، فينبغي أن يستكثر الواعظ منها إن كان وارث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنه ما خلف ديناراً ولا درهماً ، إنما خلف العلم والحكمة ، وورثته كل عالم بقدر ما أصابه .



النوع الثاني : حكايات الأنبياء والسلف الصالحين ، وما جرى عليهم من المصائب بسبب ذنوبهم :

فذلك شديد الوقع ظاهر النفع في قلوب الخلق ، مثل أحوال آدم صلى الله عليه وسلم في عصيانه ، وما لقيه من الإخراج من الجنة ، حتى روي أنه لما أكل من الشجرة . . تطايرت الحلل عن جسده ، وبدت عورته ، فاستحيا التاج والإكليل من وجهه أن يرتفعا عنه ، فجاءه جبريل عليه السلام ، فأخذ التاج عن رأسه ، وحل الإكليل عن جبينه ، ونودي من فوق العرش : اهبطا من جوارى ؛ فإنه لا يجاورني من عصاني ، قال : فالتفت آدم إلى حواء باكياً وقال : هذا أول شؤم المعصية ، أخرجنا من جوار الحبيب^(١) .

وروي أن سليمان بن داود عليهما السلام لما عُوقب على خطيئته لأجل

(١) كذا في « القوت » (١٨٤ / ١) ، وينحوه رواه أبو نعيم في « الحلية » (١١٣ / ٥) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٠٩ / ٧) عن مجاهد .

التمثال الذي عُبِدَ في دارِهِ أربعين يوماً^(١) ، وقيلَ : لأنَّ المرأةَ سألتُهُ أنْ يحكُمَ لأبيها ، فقالَ : نعم ، ولمْ يفعلْ ، وقيلَ : بلْ أحبَّ بقلبه أنْ يكونَ الحكمُ لأبيها على خصمِهِ لمكانِها منه ؛ فسُلِبَ ملكُهُ أربعينَ يوماً ، فهربَ تائهاً على وجهِهِ ، فكانَ يسألُ بكفِّهِ فلا يطعمُ ، فإذا قالَ : أطعموني فإنِّي سليمانُ بنُ داوودَ . شُجَّ وضربَ ، وحُكِيَ أَنَّهُ استطعمَ مِنْ بَيْتِ لامرأةٍ ، فطرَدَتْهُ وبزَقَتْ في وجهِهِ ، وفي روايةٍ فأخرجَتْ عجوزٌ جرَّةً فيها بولٌ فصَبَّتْهُ على رأسِهِ ، إلى أنْ أخرجَ الخاتمُ مِنْ بطنِ الحوتِ ، فلبسَهُ بعدَ انقضاءِ الأربعينَ أيامَ العقوبةِ ، قالَ : فجاءَتِ الطيرُ فعكفتْ على رأسِهِ ، وجاءَتِ الجنُّ والشیاطینُ والوحوشُ فاجتمعتْ حولهَ ، واعتذَرَ إليه بعضُ مَنْ كانَ جنى عليه ، فقالَ : لا المومَّكُم فيما فعلتُم مِنْ قبلُ ، ولا أحمدُکُم في عذرِکُم ؛ لأنَّ هذا أمرٌ کانَ مِنَ السماءِ ولا بدَّ منه^(٢) .

وروي في الإسرائيليات أن رجلاً تزوج امرأة من بلدة أخرى ، وأرسل عبده ليحملها إليه ، فراودته نفسه وطالبتة بها ، فجاهدها واستعصم ، قالَ : فنباهُ اللهُ تعالى ببركة تقواه ، فكانَ نبياً في بني إسرائيل^(٣) .

(١) والخبر مبسوط عند الطبري في « تاريخه » (٤٩٦ / ١) من رواية وهب بن منبه ، وكان ذلك من زوجه جرادة ، ولم يكن اتخاذ التماثيل محرماً في شريعته ، كما أن هذا التمثال عُبِدَ بغير علمه ، فتسمية ذلك خطيئة لرفع مقامه عليه الصلاة والسلام .

(٢) كذا برواياته في « القوت » (١٨٤ / ١) ، وقد رواه بنحوه النسائي في « السنن الكبرى » (١٠٩٢٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٣) قوت القلوب (١٨٧ / ١) .

وفي قصص موسى عليه السلام أَنَّهُ قَالَ لِلْخَضِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : بِمَ أَطْلَعَكَ اللَّهُ عَلَى عِلْمِ الْغَيْبِ ؟ قَالَ : بتركِ المعاصي لأجلِ اللَّهِ تعالى^(١) .

وَرُوي أَنَّ الرِّيحَ كَانَتْ تَسِيرُ بِسَلِيمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَنَظَرَ إِلَى قَمِيصِهِ نَظْرَةً ، وَكَانَ عَلَيْهِ قَمِيصٌ جَدِيدٌ ، فَكَأَنَّهُ أُعْجِبُهُ ، قَالَ : فَوَضَعْتُهُ الرِّيحُ ، فَقَالَ : لِمَ فَعَلْتَ وَلَمْ أَمُرْكَ ؟ قَالَتْ : إِنَّمَا نَظِيعُكَ إِذَا أَطَعْتَ اللَّهَ^(٢) .

وَرُوي أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْحَى إِلَى يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : أَتَدْرِي لِمَ فَرَّقْتُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ وَلَدِكَ يَوْسُفَ ؟ قَالَ : لَا ، قَالَ : لَقَوْلِكَ لِإِخْوَتِهِ : ﴿ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ ، لِمَ خَفْتَ عَلَيْهِ الذِّئْبَ وَلَمْ تَرْجُنِي ؟ وَلِمَ نَظَرْتَ إِلَى غَفْلَةِ إِخْوَتِهِ وَلَمْ تَنْظُرْ إِلَى حَفْظِي لَهُ ؟ وَتَدْرِي لِمَ رَدَدْتُهُ عَلَيْكَ ؟ قَالَ : لَا ، قَالَ : لِأَنَّكَ رَجَوْتَنِي وَقُلْتَ : ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ﴾ ، وَبِمَا قُلْتَ : ﴿ أَذْهَبُوا فَتَعَسَّسُوا مِنْ يَوْسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ ﴾^(٣) .

وَكَذَلِكَ لَمَّا قَالَ يَوْسُفُ لَصَاحِبِ الْمَلِكِ : ﴿ أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ .. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَأَنسَنَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَيْتَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾^(٤) .

(١) قوت القلوب (١/ ١٨٧) .

(٢) قوت القلوب (١/ ١٨٤) .

(٣) قوت القلوب (١/ ١٩١) .

(٤) قوت القلوب (١/ ١٩١) .

وأمثال هذه الحكايات لا تنحصر ، ولم يرد بها القرآن والأخبار ورود
الأسمار ، بل الغرض بها الاعتبار والاستبصار ؛ لتعلم أن الأنبياء عليهم
السلام لم يتجاوز عنهم في الذنوب الصغار ، فكيف يتجاوز عن غيرهم في
الذنوب الكبار ؟!

نعم ، كانت سعادتهم في أن عوجلوا بالعقوبة ولم يؤخروا إلى الآخرة ،
والأشقياء يمهلون ليزدادوا إثماً ، ولأن عذاب الآخرة أشد وأكبر ، فهذا
أيضاً مما ينبغي أن يكثر جنسه على أسماع المصيرين ؛ فإنه نافع في تحريك
دواعي التوبة .



النوع الثالث : أن يقرّر عندهم أن تعجيل العقوبة في الدنيا متوقع على
الذنب ، وأن كل ما يصيب العبد من المصائب فهو بسبب جنائياته :

فربّ عبد يتساهل في أمر الآخرة ، ويخاف من عقوبة الله في الدنيا
أكثر ؛ لفرط جهله ، فينبغي أن يخوّف به ؛ فإن الذنوب كلها يتعجل في
الدنيا شؤمها في غالب الأمر ، كما حكي في قصة داود وسليمان عليهما
السلام ، حتّى إنّه قد يضيق على العبد رزقه بسبب ذنوبه ، وقد تسقط
منزلته من القلوب ويستولي عليه أعداؤه ، قال صلى الله عليه وسلم : « إن
العبد ليُحرّم الرزق بالذنب يصيبه »^(١) .

(١) رواه ابن ماجه (٤٠٢٢) ضمن خبر مرفوع أوله : « لا يزيد في العمر إلا البر » ، وهو =

وقال ابن مسعود : (إِنِّي لَأَحْسِبُ أَنَّ الْعَبْدَ يَنْسَى الْعِلْمَ بِالذَّنْبِ يَصِيبُهُ)^(١) ، وهو معنى قوله عليه الصلاة والسلام : « مَنْ قَارَفَ ذَنْباً . . فَارَقَهُ عَقْلٌ لَا يَعُودُ إِلَيْهِ أَبَداً »^(٢) .

وقال بعضُ السلف : (لَيْسَتْ اللَّعْنَةُ سَوَاداً فِي الْوَجْهِ ، وَنَقْصاً فِي الْمَالِ ، إِنَّمَا اللَّعْنَةُ أَلَا تَخْرُجَ مِنْ ذَنْبٍ إِلَّا وَقَعْتَ فِي مِثْلِهِ أَوْ شَرٍّ مِنْهُ)^(٣) .

وهو كما قال ؛ لأنَّ اللَّعْنَةَ هِيَ الطَّرْدُ وَالْإِبْعَادُ ، فإذا لَمْ يُوفَّقْ لِلْخَيْرِ ، وَيُسَّرَ لَهُ الشَّرُّ . . فَقَدْ أُبْعِدَ ، والحرمانُ مِنْ رِزْقِ التَّوْفِيقِ أَعْظَمُ حَرَمَانٍ ، وكلُّ ذَنْبٍ فَإِنَّهُ يَدْعُو إِلَى ذَنْبٍ آخَرَ وَيَتَضَاعَفُ ، فَيُحْرَمُ الْعَبْدُ بِهِ عَنْ رِزْقِهِ النَّافِعِ مِنْ مَجَالَسَةِ الْعُلَمَاءِ الْمُنْكَرِينَ لِلذَّنُوبِ ، وَمِنْ مَجَالَسَةِ الصَّالِحِينَ ، بَلْ يَمَقَّتُهُ اللَّهُ تَعَالَى فَيَمَقَّتُهُ الصَّالِحُونَ .

وَحِكْمِي عَنْ بَعْضِ الْعَارِفِينَ أَنَّهُ كَانَ يَمْشِي فِي وَسْطِ الْوَحْلِ جَامِعاً ثِيَابَهُ مُحْتَرِزاً ، إِذْ زَلَقَتْ رِجْلُهُ وَسَقَطَ ، فَقَامَ فَجَعَلَ يَمْشِي فِي وَسْطِ الْوَحْلِ وَيَبْكِي

= مفرداً مرفوعاً رواه ابن المبارك في « الزهد » (٨٦) ، وهو في « القوت » (١٨٤ / ١) .

(١) قوت القلوب (١٨٤ / ١) .

(٢) قال الحافظ العراقي : (لم أر له أصلاً) . « إتحاف » (٢٣١ / ٧) .

(٣) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ١٣٢) ، وكذا هو عند صاحب « القوت » (١٨٥ / ١) .

ويقول : هذا مثل العبد ، لا يزال يتوقى الذنوب ويجانبها حتى يقع في ذنب وذنوبين ، فعندها يخوض في الذنوب خوضاً^(١) .

وهو إشارة إلى أن الذنب تُعجل عقوبته بالانجرار إلى ذنب آخر ، ولذلك قال الفضيل : (ما أنكرت من تغير الزمان وجفاء الإخوان فذنوبك ورثتك ذلك)^(٢) .

وقال بعضهم : (إنني لأعرف عقوبة ذنبي في سوء خلق حماري)^(٣) .

وقال آخر : (أعرف العقوبة حتى في فأر بيتي)^(٤) .

وقال بعض صوفية الشام : نظرت إلى غلام نصراني حسن الوجه ، فوقفت أنظر إليه ، فمر بي ابن الجلاء الدمشقي ، فأخذ بيدي ، فاستحييت منه ، فقلت : يا أبا عبد الله ؛ سبحان الله ! تعجبت من هذه الصورة الحسنة وهذه الصنعة المحكمة كيف خلقت للنار ، فغمز يدي وقال : لتجدن عقوبتها بعد حين ، قال : فعوقبت بها بعد ثلاثين سنة^(٥) .

وقال أبو سليمان الداراني : (الاحتلام عقوبة)^(٦) .

(١) قوت القلوب (١٨٧ / ١) .

(٢) قوت القلوب (١٨٥ / ١) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠٩ / ٨) عن الفضيل بن عياض .

(٤) قوت القلوب (١٨٥ / ١) .

(٥) قوت القلوب (١٨٥ / ١) .

(٦) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٦٦ / ٩) .

وقال : (لا تفوت أحداً صلاة جماعة إلا بذنبٍ يذنبُهُ)^(١) .
 وفي الخبر : (ما أنكرتُم من زمانِكُم فيما غيَّرتُم من أعمالِكُم)^(٢) .
 وفي الخبر : (يقولُ اللهُ تعالى : إنَّ أدنى ما أصنعُ بالعبدِ إذا آثرَ شهوةً
 على طاعتي . . أن أحرمهُ لذِيذَ مناجاتي)^(٣) .

وحكي عن أبي عمرو بن علوان في قصّةٍ تطولُ قال فيها : كنتُ قائماً
 أصلي ذاتَ يومٍ ، فخامرَ قلبي هوى طاولتهُ بفكرتي ، حتّى تولّدَ منه شهوةُ
 الرجالِ ، فوقعتُ إلى الأرضِ واسودَّ جسدي كلّهُ ، فاستترتُ في البيتِ ،
 فلم أخرجْ ثلاثةَ أيامٍ ، وكنتُ أعالجُ غسلهُ في الحمامِ بالصابونِ فلا يزدادُ إلا
 سواداً ، حتّى انكشفَ بعدَ ثلاثٍ ، فلقيتُ الجنيدَ وكان قد وجّهَ إليّ
 فأشخصني من الرقّةِ ، فلمّا أتيتُهُ . . قال لي : أما استحييتَ من اللهِ تعالى
 كنتَ قائماً بين يديه فسامرتَ نفسك بشهوةٍ حتّى استولتَ عليك^(٤) وأخرجتَكَ
 من بين يدي اللهِ تعالى ؟! فلو لا أنّي دعوتُ اللهَ لك وتبتُ إليه عنكَ . .
 للقيتَ اللهَ تعالى بذلك اللونِ ، قال : فعجبتُ كيفَ علمَ ذلك وهو بيغدادَ
 وأنا بالرقّةِ !^(٥) .

- (١) قوت القلوب (١٨٥ / ١) .
 (٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٤٩ / ٥) ، والبيهقي في « الزهد الكبير » (٧٠٩) من
 قول أبي الدرداء رضي الله عنه .
 (٣) قوت القلوب (١٨٥ / ١) .
 (٤) في (ج ، د ، س) : (استولت عليك برقة) .
 (٥) قوت القلوب (١٨٦ / ١) ، ورواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٧ / ٤٣) .

واعلم : أنه لا يذنب العبد ذنباً إلا ويسود وجه قلبه ، فإن كان سعيداً . .
 ظهر السواد على ظاهره لينزجر ، وإن كان شقيماً . . أخفي عنه حتى ينهمك
 ويستوجب النار .

والأخبار كثيرة في آفات الذنوب في الدنيا ؛ من الفقر ، والمرض ،
 وغيره ، بل من شؤم الذنب في الدنيا على الجملة : أن يكتسب ما بعده
 صفته ، فإن ابتلي بشيء . . كان عقوبة له ، ويحرم جميل الرزق حتى
 يتضاعف شقاؤه ، وإن أصابته نعمة . . كانت استدراجاً له ، ويحرم جميل
 الشكر حتى يعاقب على كفرانه .

وأما المطيع . . فمن بركة طاعته أن تكون كل نعمة في حقه جزاءً على
 طاعته ، ويوفق لشكرها ، وكل بلية كفارة لذنوبه ، وزيادة في درجاته .



النوع الرابع : ذكر ما ورد من العقوبات على آحاد الذنوب :

كالخمر ، والزنا ، والسرقة ، والقتل ، والغيبة ، والكبر ، والحسد ،
 وذلك مما لا يمكن حصره ، وذكره مع غير أهله وضع للدواء في غير
 موضعه ، بل ينبغي أن يكون العالم كالطبيب الحاذق ؛ ليستدل أولاً
 بالنبض ، والسحنة ووجوه الحركات على العلل الباطنة ، يشتغل بعلاجها ،
 فليستدل بقرائن الأحوال على خفايا الصفات ، وليتعرض لما وقف عليه
 اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ حيث قال له رجل : أوصني

يا رسول الله ولا تكثر عليّ ، فقال : « لا تغضب »^(١) .

وقال له آخر : أوصني يا رسول الله ، فقال عليه الصلاة والسلام :
« عليك باليأس ممّا في أيدي الناس ؛ فإنّ ذلك هو الغنى ، وإيّاك والطمع ؛
فإنّ الفقر الحاضر ، وصلّ صلاة مودّع ، وإيّاك وما يُعْتَذَرُ منه »^(٢) .

وقال رجلٌ لمحمد بن واسع : أوصني ، فقال : أوصيك أن تكون ملكاً
في الدنيا والآخرة ، فقال : كيف لي بذلك ؟ قال : الزم الزهد في
الدنيا^(٣) .

فكأنّه صلّى الله عليه وسلّم توسّم في السائل الأوّل مخايل الغضب فنهاه
عنه ، وفي السائل الآخر مخايل الطمع في الناس وطول الأمل ، وتخيل
محمد بن واسع في السائل مخايل الحرص على الدنيا .

وقال رجلٌ لمعاذ : أوصني ، فقال : (كن رحيماً أكن لك بالجنة
زعيماً)^(٤) .

فكأنّه تفرّس فيه آثار الفظاظ والغلظة .

وقال رجلٌ لإبراهيم بن أدهم : أوصني ، فقال : إيّاك والناس ، وعليك
بالناس ، ولا بدّ من الناس ، فإنّ الناس همّ الناس ، وليس كلّ الناس

(١) رواه البخاري (٦١١٦) .

(٢) رواه ابن ماجه (٤١٧١) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٥٠ / ٢) .

(٤) عزاه الحافظ الزبيدي إلى صاحب « القوت » . « إتحاف » (٦٢٠ / ٨) .

بالناس ، ذهب الناس ، وبقي النسناس ، وما أراهم بالناس ، بل غمسوا في ماء الناس^(١) .

فكأنه تفرس فيه آفة المخالطة ، وأخبر عما كان هو الغالب على حاله في وقته ، وكان الغالب أذاه بالناس ، والكلام على قدر حال السائل أولى من أن يكون بحسب حال القائل .

وكتب معاوية إلى عائشة رضي الله عنهما أن اكتب لي كتاباً توصيني فيه ولا تكثري ، فكتبت إليه : (من عائشة إلى معاوية ، سلام عليك ، أما بعد : فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من التمس رضا الناس بسخط الله .. وكله الله إلى الناس ، ومن التمس رضا الله بسخط الناس .. كفاه الله مؤونة الناس » ، والسلام عليك)^(٢) .

(١) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣١٤ / ٦) ، وقال : (قال إبراهيم : أما قلبي : « عليك بالناس » .. بمجالسة العلماء ، وأما قلبي : « وإياك والناس » .. إياك ومجالسة السفهاء ، وأما قلبي : « لا بد من الناس » .. لا بد من الصلوات الخمس والجمعة والحج والجهاد واتباع الجنائز والشراء والبيع ونحوه ، وأما قلبي : « الناس هم الناس » .. الفقهاء والحكماء ، وأما قلبي : « ليس الناس بالناس » .. أهل الأهواء والبدع ، وأما قلبي : « ذهب الناس » .. ذهب النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وأما قلبي : « وبقي النسناس » .. يعني من يروي عنهم عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وأما قلبي : « وما أراهم بالناس ، إنما هم غمسوا في ماء الناس » .. نحن وأمثالنا) .

(٢) رواه الترمذي (٢٤١٤) ولفظه : « من التمس رضا الله بسخط الناس .. كفاه الله مؤونة الناس ، ومن التمس رضا الناس بسخط الله .. وكله الله إلى الناس » .

فانظر إلى فقهها كيف تعرّضت للآفة التي تكون الولاة بصددها ، وهي مراعاة الناس وطلب مرضاتهم .

وكتبت إليه مرة أخرى : (أمّا بعد : فاتقِ الله ؛ فإنك إذا اتقيت الله . . كفاك الناس ، وإذا اتقيت الناس . . لم يغنوا عنك من الله شيئاً ، والسلام)^(١) .

فإذا ؛ على كل ناصح أن تكون عنايته مصروفة إلى تفرّس الصفات الخفية ، وتوسّم الأحوال اللاتقة ؛ ليكون اشتغاله بالمهم ، فإن حكاية جميع مواعظ الشرع مع كل واحد غير ممكنة ، والاشتغال بوعظ من هو مستغن عن الوعظ فيه تضييع زمان .



فإن قلت : فإن كان الواعظ يتكلّم في جمع ، أو سأله من لا يدري باطن حاله أن يعظه . . فكيف يفعل ؟

فاعلم : أن طريقه في ذلك أن يعظه بما يشترك كافّة الخلق في الحاجة إليه ؛ إمّا على العموم ، وإمّا على الأكثر ، فإن في علوم الشرع أغذية وأدوية ، فالأغذية للكافة ، والأدوية لأرباب العلل .

ومثاله : ما روي أن رجلاً قال لأبي سعيد الخدري : أوصني ، فقال : (عليك بتقوى الله عز وجل ؛ فإنها رأس كل خير ، وعليك بالجهاد ؛ فإنه

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٩١) .

رهبانية الإسلام ، وعليك بالقرآن ؛ فإنه نورٌ لك في أهل الأرض وذكرٌ لك في أهل السماء ، وعليك بالصمتِ إلا من خير ؛ فإنك بذلك تغلب الشيطان (١) .

وقال رجلٌ للحسن : أوصني ، فقال : (أعزَّ أمرُ الله يعزُّكَ الله) (٢) .

وقال لقمان لابنه : (يا بني ؛ زاحم العلماء بركبتك ، ولا تجادلهم فيمقتوك ، وخذ من الدنيا بلاغك ، وأنفق فضول كسبك لآخرتك ، ولا ترفض الدنيا كلَّ الرفض فتكون عيالاً ، وعلى أعناق الرجال كلاً ، وصم صوماً يكسر شهوتك ، ولا تصم صوماً يضر بصلاتك ؛ فإن الصلاة أفضل من الصوم ، ولا تجالس السفية ، ولا تخالط ذا الوجهين) (٣) .

وقال أيضاً لابنه : (يا بني ؛ لا تضحك من غير عجب ، ولا تمش في غير أرب ، ولا تسأل عما لا يعينك ، ولا تضيع مالك وتصلح مال غيرك ؛ فإن مالك ما قدمت ، ومال غيرك ما تركت ، يا بني ؛ إن من يرحم . . يرحم ، ومن يصمت . . يسلم ، ومن يقل الخير . . يغنم ، ومن يقل الشر . . يائثم ، ومن لا يملك لسانه . . يندم) .

وقال رجلٌ لأبي حازم : أوصني ، فقال : (كل ما لو جاءك الموت عليه رأيتَه

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٨٤٠) ، ورواه أحمد في « المسند » (٨٢ / ٣) من حديثه مرفوعاً .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٧٨) .

(٣) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٩١) عن الربيع الخولاني بنحوه .

غنيمةً . . فالزمه، وكلُّ ما لو جاءكَ الموتُ عليه رأيتهُ مصيبةً . . فاجتنبه^(١) .

وقال موسى للخضرِ عليهما السلامُ : أوصني ، فقال : (كُنْ بسَّاماً ولا تكنْ غَضَّاباً ، وَكُنْ نَفَّاعاً ولا تكنْ ضرَّاراً ، وانزعُ عن اللجاجةِ ، ولا تمشِ في غيرِ حاجةٍ ، ولا تضحكُ مِنْ غيرِ عجبٍ ، ولا تعيرِ الخطَّائينَ بخطاياهم ، وابكِ على خطيئتكِ يا بنَ عمران)^(٢) .

وقال رجلٌ لمحمدِ بنِ كَرَّامٍ : أوصني ، فقال : (اجتهدْ في رضا خالقك بقدرِ ما تجتهدُ في رضا نفسك) .

وقال رجلٌ لحامدِ اللفَّافِ : أوصني ، فقال : اجعلْ لدينك غِلافاً كغِلافِ المصحفِ كي لا تدنسهُ الآفاتُ ، فقال : وما غِلافُ الدينِ ؟ قال : تركُ طلبِ الدنيا إلا ما لا بدَّ منه ، وتركُ كثرةِ الكلامِ إلا فيما لا بدَّ منه ، وتركُ مخالطةِ الناسِ إلا فيما لا بدَّ منه .

وكتبَ الحسنُ إلى عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ رحمهُما اللهُ تعالى : (أمَّا بعدُ : فخفْ ما خوّفَكَ اللهُ ، واحذرْ ما حدَّرَكَ اللهُ ، وخذْ ممَّا في يديكَ لما بينَ يديكَ ، فعندَ الموتِ يأتيكَ الخبرُ اليقينُ ، والسلامُ) .

وكتبَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ إلى الحسنِ يسألهُ أنْ يعظهَ ، فكتبَ إليه : (أمَّا بعدُ : فإنَّ الهولَ الأعظمَ والأمرَ المفْطعاتِ أَمَامَكَ ، ولا بدَّ لك مِنْ مشاهدةِ

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣١٧/٥) بنحوه ، والسائل المستوصي هو عمر بن عبد العزيز .

(٢) رواه أحمد في « الزهد » (٣٤٠) .

ذلك ؛ إمّا بالنجاة ، وإمّا بالعطب ، واعلم أنّ مَنْ حاسبَ نفسه .. ربح ، ومَنْ غفلَ عنها .. خسر ، ومَنْ نظرَ في العواقب .. نجا ، ومَنْ أطاعَ هواه .. ضلّ ، ومَنْ حلمَ .. غنم ، ومَنْ خافَ .. أمِن ، ومَنْ أمِنَ .. اعتبر ، ومَنْ اعتبرَ .. أبصر ، ومَنْ أبصرَ .. فهم ، ومَنْ فهمَ .. علم ، فإذا زللت .. فارجع ، وإذا ندمت .. فأقلع ، وإذا جهلت .. فاسأل ، وإذا غضبت .. فامسك .

وكتب مطرّف بن عبد الله إلى عمر بن عبد العزيز رحمه الله : (إمّا بعدُ : فإنّ الدنيا دارٌ عقوبة ، ولها يجمعُ مَنْ لا عقلَ له ، وبها يفتُرُ مَنْ لا علمَ عنده ، فكُنْ فيها يا أميرَ المؤمنين كالمدّوي جرحه ، يصبرُ على شدّةِ الدّواءِ لما يخافُ من عاقبةِ الدّاءِ) (١) .

وكتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إلى عدي بن أرطاة : (إمّا بعدُ : فإنّ الدنيا عدوٌّ أولياءِ الله ، وعدوٌّ أعداءِ الله ، إمّا أولياؤه : فغمّتهم ، وأمّا أعداؤه : ففرتهم) (٢) .

وكتب أيضاً إلى بعضِ عمّالِهِ : (إمّا بعدُ : فقد أمكتك القدرةُ من ظلمِ العبادِ ، فإذا هممتَ بظلمِ أحدٍ .. فاذكرْ قدرةَ الله عليك ، واعلمْ أنّك لا تأتي إلى الناسِ شيئاً إلا كانَ زائلاً عنهم باقياً عليك ، واعلمْ أنّ الله عزّ وجلّ أخذَ للمظلومينَ مِنَ الظالمينَ ، والسلامُ) .

(١) تقدم صدره مرفوعاً ، والخبر هنا عن مطرف أورده المسعودي في « مروج الذهب »

(٢٠ / ٤) نقلاً عن المدائني .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (٤٤٣) .

فهكذا ينبغي أن يكون وعظ العامة ، ووعظ من لا يدري خصوص واقعه ، فهذه المواعظ مثل الأغذية التي يشترك الكافة في الانتفاع بها ، ولأجل فقد مثل هؤلاء الوعّاظ انحسم باب الاتعاض ، وغلبت المعاصي ، واستشرى الفساد ، وبلي الخلق بوعّاظ يزخرفون أسجاعاً ، وينشدون أبياتاً ، ويتكلفون ذكر ما ليس في سعة علمهم ، ويتشبهون بحال غيرهم ، فسقط عن قلوب العامة وقارهم ، ولم يكن كلامهم صادراً من القلب ليصل إلى القلب ، بل القائل متصلف ، والمستمع متكلف ، وكل واحد منهما مدبر ومتخلف .

وإذا كان طلب الطبيب أول علاج المرضى . . فطلب العلماء أول علاج العاصين ، فهذا أحد أركان العلاج وأصوله .

الأصل الثاني : الصبر ، ووجه الحاجة إليه أن المريض إنما يطول مرضه لتناوله ما يضره ، وإنما يتناول ذلك إما لغفلة عن مضرته ، وإما لشدة غلبة شهوته ، فله سببان ، فما ذكرناه هو علاج الغفلة ، فيبقى علاج الشهوة ، وطريق علاجها قد ذكرناه في كتاب رياضة النفس .

وحاصله : أن المريض إذا اشتدت ضراوته لمأكول مضر . . فطريقه أن يستشعر عظم ضرره ، ثم يغيب ذلك عن عينه فلا يحضره ، ثم يتسلى عنه بما يقرب منه في صورته ولا يكثر ضرره ، ثم يصبر بقوة الخوف على الألم الذي يناله في تركه ، فلا بد على كل حال من مرارة الصبر ؛ فكذلك يعالج

الشهوة في المعاصي ، كالشاب مثلاً إذا غلبته الشهوة ، فصار لا يقدر على حفظ عينه ، أو حفظ قلبه ، أو حفظ جوارحه في السعي وراء شهوته . . . فينبغي أن يستشعر ضرر ذنبه ؛ بأن يستقرىء المخوفات التي جاءت فيه من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فإذا اشتد خوفه . . . تباعد من الأسباب المهيئة لشهوته ، ومهيئ الشهوة من خارج هو حضور المشتهي والنظر إليه ، وعلاجه : الهرب والعزلة ، ومن داخل تناول لذائذ الأطعمة ، وعلاجه : الجوع والصوم الدائم ، وكل ذلك لا يتم إلا بصبر ، ولا يصبر إلا عن خوف ، ولا يخاف إلا عن علم ، ولا يعلم إلا عن بصيرة وافتكار أو عن سماع وتقليد .

فأول الأمر حضور مجالس الذكر ، ثم الاستماع من قلب مجرد عن سائر الشواغل ، مصروف إلى السماع ، ثم التفكير فيه لتمام الفهم ، وينبعث من تمامه - لا محالة - خوفه ، وإذا قوي الخوف . . . تيسر بمعونته الصبر ، وانبعثت الدواعي لطلب العلاج ، وتوفيق الله وتيسيره من وراء ذلك .

فمن أعطى من قلبه حسن الإصغاء ، واستشعر الخوف فاتقى ، وانتظر الثواب وصدق بالحسن . . . فسيسر الله تعالى ليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسن . . . فسيسر الله للعسرى ، ثم لا يغني عنه ما اشتغل به من ملاذ الدنيا مهما هلك وتردى ، وما على الأنبياء إلا شرح طرق الهدى ، وإنما لله الآخرة والأولى .

فإن قلت : فقد رجع الأمر كله إلى الإيمان ؛ لأن ترك الذنب لا يمكن إلا بالصبر ، والصبر لا يمكن إلا بمعرفة الخوف ، والخوف لا يحصل إلا بالعلم ، والعلم لا يحصل إلا بالتصديق بعظم ضرر الذنوب ، والتصديق بعظم ضرر الذنوب هو تصديق الله ورسوله ، وهو الإيمان ، فكأن من أصر على الذنب . . لم يصر إلا لأنه غير مؤمن !

فاعلم : أن هذا لا يكون لفقد الإيمان ، بل يكون لضعف الإيمان ؛ إذ كل مؤمن مصدق بأن المعصية سبب البعد من الله تعالى ، وسبب العقاب في الآخرة ، ولكن سبب وقوعه في الذنب أمور :

أحدها : أن العقاب الموعود غيب ليس بحاضر ، والنفس جبلت متأثرة بالحاضر ، فتأثرها بالموعود ضعيف بالإضافة إلى تأثرها بالحاضر .

الثاني : أن الشهوات الباعثة على الذنوب لذاتها ناجزة ، وهي في الحال أخذة بالمُخْتَقِ^(١) ، وقد قوي ذلك واستولى بسبب الاعتياد والإلف ، والعادة طبيعة خامسة ، والنزوع عن العاجل لخوف الآجل شديد على النفس ، ولذلك قال تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴾ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ، وقال عز وجل : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ .

وقد عبر عن شدة الأمر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حُفَّتْ

(١) المَخْتَق : موضع الخنق من العنق .

الجنة بالمكاريه ، وحُفَّتِ النارُ بالشهواتِ « (١) .

وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنَّ اللهَ خَلَقَ النَّارَ ، فَقَالَ لَجَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا ، فَذَهَبَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا ، فَقَالَ : وَعِزَّتِكَ ؛ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ فَيَدْخُلُهَا ، فَحَفَّهَا بِالشَّهَوَاتِ ثُمَّ قَالَ : اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا ، فَذَهَبَ فَنَظَرَ ، فَقَالَ : وَعِزَّتِكَ ؛ لَقَدْ خَشِيتُ أَلَّا يَبْقَى أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا ، وَخَلَقَ الْجَنَّةَ ، فَقَالَ لَجَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا ، فَذَهَبَ فَنَظَرَ ، فَقَالَ : وَعِزَّتِكَ ؛ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا ، فَحَفَّهَا بِالمَكَارِهِ ثُمَّ قَالَ : اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا ، فَذَهَبَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا ، فَقَالَ : وَعِزَّتِكَ ؛ لَقَدْ خَشِيتُ أَلَّا يَدْخُلَهَا أَحَدٌ » (٢) .

فإذا ؛ كَوْنُ الشَّهْوَةِ مَرَهَقَةً فِي الْحَالِ وَكَوْنُ الْعِقَابِ مُتَأَخِّرًا إِلَى الْمَالِ سَبَبَانِ ظَاهِرَانِ فِي الْإِسْتِرْسَالِ مَعَ حَصُولِ أَصْلِ الْإِيمَانِ .

فَلَيْسَ كُلُّ مَنْ شَرِبَ فِي مَرَضِهِ مَاءَ الثَّلَجِ لَشِدَّةِ عَطَشِهِ مَكْذِبًا بِأَصْلِ الطَّبِّ ، وَلَا مَكْذِبًا بِأَنَّ ذَلِكَ مُضِرٌّ فِي حَقِّهِ ، وَلَكِنَّ الشَّهْوَةَ تَغْلِبُهُ ، وَالْمُ الصَّبِرُ عَنْهُ نَاجِزٌ ، فِيهِوْنُ عَلَيْهِ الْأَلَمُ الْمُتَنَظَّرُ .

الثالثُ : أَنَّهُ مَا مِنْ مُذْنِبٍ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَهُوَ فِي الْغَالِبِ عَازِمٌ عَلَى التَّوْبَةِ ، وَتَكْفِيرِ السَّيِّئَاتِ بِالْحَسَنَاتِ ، وَقَدْ وُعِدَ بِأَنَّ ذَلِكَ يُجْبِرُهُ ، إِلَّا أَنَّ طَوْلَ الْأَمَلِ

(١) رواه مسلم (٢٨٢٣) ، وبنحوه هو عند البخاري كذلك (٦٤٨٧) .

(٢) رواه أبو داود (٤٧٤٤) ، والترمذي (٢٥٦٠) ، والنسائي (٣ / ٧) .

غالبٌ على الطباع ، فلا يزالُ يسوِّفُ التوبةَ والتكفيرَ ، فمن حيثُ رجاؤُهُ التوفيقَ للتوبة ربَّما يقدمُ عليه مع الإيمانِ .

الرابعُ : أنَّه ما مِنْ مؤمنٍ موقنٍ إلا وهو معتقدٌ أنَّ الذنبَ لا يوجبُ العقوبةَ إيجاباً لا يمكنُ العفوُ عنها ، فهو يذنبُ ويتنظرُ العفوَ ؛ اتكالاً على فضلِ الله تعالى .

فهذه أسبابُ أربعةٍ موجبةٌ للإصرارِ على الذنبِ مع بقاءِ أصلِ الإيمانِ .
نعم ، قدَّ يقدمُ المذنبُ بسببِ خامسٍ يقدحُ في أصلِ إيمانه ، وهو كونهُ شاكاً في صدقِ الرسلِ ، وهذا هو الكفرُ ؛ كالذي يحذِّره الطبيبُ عن تناولِ ما يضرُّه في المرضِ ، وكان المحذَّرُ ممَّن لا يَعتقدُ فيه أنَّه عالمٌ بالطبِّ ، فيكذِّبه أو يشكُّ فيه ، فلا يبالي به ، فهذا هو الكفرُ .



فإن قلتَ : فما علاجُ الأسبابِ الخمسةِ ؟

فأقولُ : هو الفكرُ ، وذلك بأنَّ يقرَّرَ على نفسه في السببِ الأوَّلِ - وهو تأخُّرُ العقابِ - أنَّ كلَّ ما هو آتٍ آتٍ ، وأنَّ غداً لناظره قريبٌ ، وأنَّ الموتَ أقربُ إلى كلِّ أحدٍ مِنْ شراكِ نَعْلِهِ ، فما يدرِيه لعلَّ الساعةَ قريبٌ ، والمتأخَّرُ إذا وقعَ . صارَ ناجزاً ، ويذكرُ نفسه أنَّه أبداً في دنياه يتعبُ في الحالِ لخوفِ أمرٍ في الاستقبالِ ؛ إذ يركبُ البحارَ ويقاسي الأسفارَ لأجلِ الربحِ الذي يظنُّ أنَّه قد يحتاجُ إليه في ثاني الحالِ ، بل لو مرضَ فأخبره نصرانيٌّ طبيبٌ بأنَّ

شربَ الماءِ الباردِ يضرُّهُ ويسوقُهُ إلى الموتِ ، وكانَ الماءُ الباردُ الذِّ الأشياءَ عندهُ . . تركهُ معَ أنَّ الموتَ أَلُمُّ لحظةٌ إذا لم يخفَ ما بعدهُ ، ومفارقتهُ للدنيا لا بدَّ منها ، فكُم نسبةٌ وجودِهِ في الدنيا إلى عَدَمِهِ أزلًا وأبدًا ؟!

فليَنظُرْ كيفَ يبادرُ إلى تركِ ملاذِّهِ بقولِ ذَمِّيٍّ لم تقمُ معجزةٌ على طَبِّهِ ، فيقولُ : كيفَ يليقُ بعقلي أن يكونَ قولُ الأنبياءِ المؤيدينَ بالمعجزاتِ عندي دونَ قولِ نصرانيٍّ يدَّعي الطبَّ لنفسِهِ بلا معجزةٍ على طَبِّهِ ، ولا يشهدُ له إلا عوامُ الخلقِ ؟!

وكيفَ يكونُ عذابُ النارِ أخفَّ عندي مِنْ عذابِ المرضِ وكلِّ يومٍ في الآخرةِ بمقدارِ خمسينَ ألفَ سنةٍ مِنْ أيامِ الدنيا ؟!

وبهذا التفكُّرِ بعَيْنِهِ يعالجُ اللذَّةَ الغالبةَ عليه ، ويكلفُ نفسَهُ تركَهَا ، ويقولُ : إذا كنتُ لا أقدرُ على تركِ لذاتي أيامَ العمرِ وهي أيامٌ قلائلٌ . . فكيفَ أقدرُ على ذلكَ أبدَ الآبادِ ؟!

وإذا كنتُ لا أطيقُ أَلَمَ الصبرِ . . فكيفَ أطيقُ أَلَمَ النارِ ؟!

وإذا كنتُ لا أصبرُ عن زخارفِ الدنيا معَ كدوراتِها وتنغصصِها وامتزاجِ صفوها بكدرِها . . فكيفَ أصبرُ عن نعيمِ الآخرةِ ؟!

وأما تسويفُ التوبةِ . . فيعالجُهُ بالفكرِ في أنَّ أكثرَ صياحِ أهلِ النارِ مِنَ التسويفِ ؛ لأنَّ المسوِّفَ يَني الأمرَ على ما ليسَ إليه ، وهو البقاءُ ، فلعلَّهُ لا يبقى ، وإن بقي . . فلا يقدرُ على التركِ غداً كما لا يقدرُ عليه اليومَ .

فليت شعري ؛ هل عجزَ في الحالِ إلا لغلبة الشهوة ، والشهوة ليست تفارقه غداً بل تتضاعف ؛ إذ تتأكد بالاعتیاد ، فليست الشهوة التي أكّدها الإنسان بالعادة كالتي لم يؤكدها ، وعن هذا هلك المسوفون ؛ لأنهم يظنون الفرق بين المتماثلين ، ولا يظنون أن الأيام متشابهة في أن ترك الشهوات فيها أبداً شاق ، وما مثال المسوف إلا مثال من احتاج إلى قلع شجرة ، فرآها قويّة لا تنقلع إلا بمشقة شديدة ، فقال : (أوخرها سنة ثم أعود إليها) ، وهو يعلم أن الشجرة كلما بقيت ازداد رسوخها ، وهو كلما طال عمره . . ازداد ضعفه ، فلا حماقة في الدنيا أعظم من حماقته ؛ إذ عجز مع قوته عن مقاومة ضعيف ، فأخذ ينتظر الغلبة عليه إذا ضعف هو في نفسه وقوي الضعيف .

وأما المعنى الرابع - وهو انتظار عفو الله تعالى - فعلاجه ما سبق ، فمن ينفق جميع أمواله ويترك نفسه وعياله فقراء ، منتظراً من فضل الله تعالى أن يرزقه العثور على كنز في أرض خربة . . فإن إمكان العفو عن الذنب مثل هذا الإمكان ، وهو مثل من وقع النهب من الظلمة في بلده ، وذخائر أمواله في صحن داره وقدر على دفنها وإخفائها ، فلم يفعل ، وقال : أنتظر من فضل الله تعالى أن يسلب غفلة أو عقوبة على الظالم الناهب حتى لا يتفرغ إلى داري ، أو إذا انتهى إلى داري . . مات على باب الدار ، فإن الموت ممكن ، والغفلة ممكنة ، وقد حكي في الأسفار أن مثل ذلك وقع ، فانا أنتظر من فضل الله مثله !

فمنتظرٌ هذا منتظرٌ أمرٍ ممكنٍ ، ولكنه في غاية الحماسة والجهل ؛ إذ قد لا يمكن ولا يكون .

وأما الخامس - وهو الشك - فهذا كفرٌ ، وعلاجه الأسباب التي تعرفه صدق الرسل ، وذلك يطول ، ولكن يمكن أن يُعالج بعلم قريب يليق بحدِّ عقله ، فيقال له : ما قاله الأنبياء المؤيِّدون بالمعجزات هل صدقه ممكنٌ أو تقول : أعلم أنه محالٌ كما أعلم استحالة كون شخصٍ واحدٍ في مكانين في حالةٍ واحدةٍ ؟

فإن قال : (أعلم استحالة ذلك) .. فهو أخرقٌ معتوهٌ ، وكأنه لا وجودَ لمثلٍ هذا في العقلاء .

وإن قال : (أنا شاكٌّ فيه) .. فيقال : لو أخبرك شخصٌ واحدٌ مجهولٌ عند تركك طعامك في البيت لحظةً أنه قد ولغث فيه حيَّةٌ وألقت سمَّها فيه ، وجوزت صدقه .. فهل تأكله أو تتركه وإن كان الذُّ الأظعمة ؟ فيقول : (أتركه لا محالة ؛ لأنِّي أقول : إن كذب .. فلا يفوتني إلا هذا الطعام ، والصبرُ عنه وإن كان شديداً فهو قريبٌ ، وإن صدق .. فتفوتني الحياة ، والموتُ بالإضافة إلى ألم الصبرِ عن الطعام وإضاعته شديداً) ، فيقال له : يا سبحان الله ! كيف تؤخِّرُ صدقَ الأنبياء كلَّهم مع ما ظهرَ لهم من المعجزات وصدقِ كافةِ العلماء والأولياء والحكماء بل جميع أصنافِ العقلاء ولست أعني بهم جهَّالَ العوامِّ ، بل ذوي الأبواب .. عن صدقِ رجلٍ واحدٍ مجهولٍ لعلَّ له غرضاً فيما يقول ؟!

فليس في العقلاء إلا مَنْ صدَّق باليوم الآخر ، وأثبت ثواباً وعقاباً ، وإن اختلفوا في كَيْفِيَّتِهِ ، فإن صدقوا . . فقد أشرفت على عذابٍ يبقى أبداً الآباد ، وإن كذبوا . . فلا يفوتك إلا بعض شهوات هذه الدنيا الفانية المكدره .

فلا يبقى له توقُّفٌ إن كان عاقلاً مع هذا الفكر ؛ إذ لا نسبة لمدَّة العمر إلى أبد الآباد ، بل لو قدرنا أنَّ الدنيا مملوءةٌ بالذُّرَّةِ ، وقدرنا طائراً يلتقط في كلِّ ألف ألف سنة حبةً واحدةً منها . . لفنيت الذُّرَّةُ ، ولم ينقص من أبد الآباد شيءٌ ، فكيف يفترُّ رأي العاقل في الصبر عن الشهواتِ مئة سنة مثلاً لأجل سعادةٍ تبقى أبداً الآباد وذلك لا منتهى له ؟!

ولذلك قال أبو العلاء المعرِّي^(١) :

قال المُنْجِمُ والطَّيِّبُ كلاهما لا تُبْعَثُ الْأَمْوَاتُ قُلْتُ إِيَّكُمَا
إنَّ صَحَّ قَوْلُكُمَا فَلَسْتُ بِخَاسِرٍ أَوْ صَحَّ قَوْلِي فَالْخَسَارُ عَلَيَّكُمَا

ولذلك قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه لبعض مَنْ قصر عقله عن فهم تحقيق الأمور وكان شاكاً : (إنَّ صَحَّ ما قلت . . فقد تخلصنا جميعاً ، وإلا . . فقد تخلصنا وهلكنا)^(٢) أي : العاقل يسلك طريق الأمن في جميع الأحوال .



(١) شرح اللزوميات (١٣٣ / ٣) .

(٢) أورده الشريف في « نهج البلاغة » . « إتحاف » (٤٣٢ / ٨) .

فإن قلت : هذه الأمور جليّة ، ولكنها ليست تُنالُ إلا بالفكر ، فما بالُ
القلوب هجرت الفكر فيها واستقلّته ؟ وما علاجُ القلوب لردّها إلى الفكر
لا سيما مَنْ آمَنَ بأصلِ الشرع وتفصيله ؟
فاعلم : أنَّ المانعَ مِنَ الفكرِ أمران :

أحدهما : أنَّ الفكرَ النافعَ هو الفكرُ في عقابِ الآخرة ، وأهوالها
وشدائدها ، وحسراتِ العاصين في الحرمانِ عن النعيمِ المقيم ، وهذا فكرٌ
لِدَاغٍ مؤلمٍ للقلب ، فينفِرُ القلبُ عنه ، ويتلذّذُ بالفكرِ في أمورِ الدنيا على
سبيلِ التفرُّجِ والاستراحة .

والثاني : أنَّ الفكرَ شغلٌ في الحالِ مانعٌ مِنَ لذائذِ الدنيا وقضاءِ
الشهوات ، وما مِنَ إنسانٍ إلا وله في كلِّ حالةٍ مِنَ أحواله ونفْسٍ مِنَ أنفاسِهِ
شهوةٌ قد تسلّطت عليه واسترقّته ، فصارَ عقلُهُ مسخّراً لشهوته ، فهو مشغولٌ
بتدبيرِ حيلِهِ ، وصارت لذّته في طلبِ الحيلةِ فيه أو في مباشرةِ قضاءِ
الشهوة ، والفكرُ يمنعُهُ مِنْ ذلك .

وأما علاجُ هذينِ المانعين :

فهو أن يقولَ لقلبه : ما أشدَّ غباوتك في الاحترازِ مِنَ الفكرِ في الموتِ
وما بعده تألماً بذكرِهِ مع استحقارِ ألمِ مواقِعِهِ ! فكيفَ تصبرُ على مقاساته إذا
وقعَ وأنتَ عاجزٌ عن الصبرِ على تقديرِ الموتِ وما بعده وتألماً به ؟ !
وأما الثاني وهو كونُ الفكرِ مفوّتاً للذاتِ الدنيا . . فهو أن يتحقّقَ أنَّ فوات

لذاتِ الآخرة أشدَّ وأعظمُ ، فإنَّها لا آخرَ لها ، ولا كدورةَ فيها ، ولذاتُ الدنيا سريعةُ الدثورِ^(١) ، وهي مشوبةٌ بالمكدراتِ ، فما فيها لذَّةٌ صافيةٌ عن كدرٍ ، وكيفَ وفي التوبةِ عن المعاصي والإقبالِ على الطاعةِ تلذُّدٌ بمناجاةِ الله تعالى ، واستراحةٌ بمعرفتهِ وطاعتهِ وطولِ الأنسِ بهِ ؟! ولو لم يكنْ للمطيعِ جزاءٌ على عمله إلا ما يجدهُ من حلاوةِ الطاعةِ ، وروحِ الأنسِ بمناجاةِ الله تعالى . . . لكانَ ذلكَ كافياً ، فكيفَ بما ينضافُ إليه من نعيمِ الآخرةِ ؟!

نعم ، هذه اللذَّةُ لا تكونُ في ابتداءِ التوبةِ ، ولكنها بعدما يصبرُ عليها مدةً مديدةً^(٢) ، وقد صارَ الخيرُ ديدناً كما كانَ الشرُّ ديدناً ، فالنفسُ قابلةٌ ما عودتها تتعوَّدُ ، والخيرُ عادةً ، والشرُّ لجاجةً .

فإذا ؛ هذه الأفكارُ هي المهيَّجةُ للخوفِ المهيَّجِ لقوَّةِ الصبرِ عن اللذاتِ ، ومهيَّجُ هذه الأفكارِ وعظُّ الوعَّاطِ ، وتنبهاتٌ تقعُ للقلبِ بأسبابٍ تتفقُ لا تدخلُ في الحصرِ ، فيصيرُ الفكرُ موافقاً للطبعِ ، فيميلُ القلبُ إليه ، ويعبرُ عن السببِ الذي أوقعَ الموافقةَ بينَ الطبعِ وبينَ الفكرِ الذي هو سببُ الخيرِ بالتوفيقِ ؛ إذ التوفيقُ هو التأليفُ بينَ الإرادةِ وبينَ المعنى الذي هو طاعةٌ نافعةٌ في الآخرةِ .

وقد روي في حديثٍ طويلٍ أنَّه قامَ عمَّارُ بنُ ياسرٍ فقالَ لعليِّ بنِ

(١) أي : الذهاب والانطماس . « إتحاف » (٦٢٩ / ٨) .

(٢) في النسخ : (ولكنه يصبر عليه مديدة) ، والمثبت من (ق) .

أبي طالب رضي الله عنه : يا أمير المؤمنين ؛ أخبرنا عن الكفر على ماذا بُني ؟ فقال علي رضي الله عنه : على أربع دعائم : على الجفاء ، والعمى ، والغفلة ، والشك ، فمن جفا . . احتقر الحق ، وجهر بالباطل ، ومقت العلماء ، ومن عمي . . نسي الذكر ، ومن غفل . . حاد عن الرشيد ، وغرته الأمانى ، فأخذته الحسرة والندامة ، وبداله من الله ما لم يكن يحتسب^(١) .

فما ذكرناه بيان لبعض آفات الغفلة عن التفكر ، وهذا القدر في التوبة كاف ، وإذا كان الصبر ركناً من أركان دوام التوبة . . فلا بد من بيان الصبر ، فنذكره في كتاب مفرد إن شاء الله تعالى .



تم كتاب التوبة

وهو الكتاب الأول من ربع المنجيات من كتب إحياء علوم الدين

والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على النبي محمد وآله أجمعين وسلامه

يثلوه كتاب الصبر وشكر

(١) كذا في « القوت » (١ / ١٨٨) ، وزاد : (ومن شك . . تاه في الضلالة) .

كِتَابُ
الصَّبْرِ وَالشُّكْرِ

وهو الكتاب الثاني من ربيع المنجيات
من كتب إحياء علوم الدين

كتاب الصبر والشكر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله أهل الحمد والثناء ، المتفرّد برداء الكبرياء ، المتوحد بصفات
المجد والعلاء ، المؤيد صفوة الأولياء ، بقوة الصبر على السراء والضراء ،
والشكر على البلاء والنعماء .

والصلاة على محمد سيّد الأنبياء ، وعلى أصحابه سادة الأصفياء ،
وعلى آله قادة البررة الأتقياء ، صلاة محروسة بالدوام عن الفناء ، ومصونة
بالتعاقب عن التصرّم والانقضاء ، وسلّم تسليماً كثيراً .

أما بعد :

فإنّ الإيمان نصفان ، نصف صبر ونصف شكر ؛ كما وردت به الآثار ،
وشهدت له الأخبار^(١) ، وهما أيضاً وصفان من أوصاف الله تعالى ، واسمان
من أسمائه الحسنی ؛ إذ سمّي نفسه صبوراً وشكوراً ، فالجهل بحقيقة الصبر
والشكر جهلٌ بكلا شطري الإيمان ، ثمّ هو غفلة عن وصفين من أوصاف

(١) فقد روى البيهقي في « الشعب » (٩٢٦٤) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً :
« الإيمان نصفان ، نصف في الصبر ونصف في الشكر » ، وروى الطبراني في « الكبير »
(١٠٤ / ٩) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : (الصبر نصف الإيمان ، واليقين
الإيمان) .

الرحمن ، ولا سبيلَ إلى الوصولِ إلى القربِ مِن الله تعالى إلا بالإيمان ، وكيف يُتصوَّرُ سلوكُ سبيلِ الإيمانِ دونَ معرفةِ ما بهِ الإيمانُ ومَن بهِ الإيمانُ ؟! والتقاعدُ عن معرفةِ الصبرِ والشكرِ تقاعدٌ عن معرفةِ مَن بهِ الإيمانُ ، وعن إدراكِ ما بهِ الإيمانُ ، فما أحوَجَ كلا الشطرينِ إلى الإيضاحِ والبيانِ ، ونحنُ نوضحُ كلا الشطرينِ في كتابٍ واحدٍ لارتباطِ أحدهما بالآخرِ إن شاء الله .



الشَّطْرُ الْأَوَّلُ فِي الصَّبْرِ

وفيه بيانُ فضيلةِ الصبرِ ، وبيانُ حدِّه وحقيقته ، وبيانُ كونه نصفَ الإيمانِ ، وبيانُ اختلافِ أساميهِ باختلافِ متعلقاتِهِ ، وبيانُ أقسامِهِ ، بحسبِ اختلافِ القوَّةِ والضعفِ ، وبيانُ مظانِّ الحاجةِ إلى الصبرِ ، وبيانُ دواءِ الصبرِ وما يُستعانُ به عليه .

فهي سبعةُ فصولٍ تشتملُ على جميعِ مقاصدهِ إن شاء اللهُ تعالى .

بيان فضيلة الصبر

قد وصفَ اللهُ تعالى الصابرينَ بأوصافٍ ، وذكرَ الصبرَ في القرآنِ في نيفٍ وسبعينَ موضعاً ، وأضافَ أكثرَ الخيراتِ والدرجاتِ إلى الصبرِ ، وجعلها ثمرةً له .

فقال عزَّ من قائلٍ : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لِمَا صَبَرُوا ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا ﴾ .

وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ ، فما مِنْ قربةٍ إلا وأجرها بتقدير وحسابٍ إلا الصبر .

ولأجل كون الصوم من الصبر - فإنه نصف الصبر^(١) - قال الله تعالى : « الصوم لي وأنا أجزي به »^(٢) ، فأضافه إلى نفسه من بين سائر العبادات .

ووعده الصابرين بأنه معهم فقال تعالى: ﴿ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ .
وعلق النصر على الصبر فقال تعالى: ﴿ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ .

وجمع للصابرين بين أمورٍ لم يجمعها لغيرهم فقال تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَهَدُونَ ﴾ ، فالهدى والصلوات والرحمة مجموعة للصابرين .

واستقصاء جميع الآيات في مقام الصبر يطول .



وَأَمَّا الْأَخْبَارُ :

فقد قال صلى الله عليه وسلم : « الصبر نصف الإيمان »^(٣) ، على ما سيأتي وجه كونه نصفاً .

(١) هو جزء من حديث مرفوع رواه الترمذي (٣٥١٩) ، وابن ماجه (١٧٤٥) .

(٢) رواه البخاري (١٩٠٤) ، ومسلم (١١٥١) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٤/٥) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٢٢٧/١٣) ، وأوقفه الطبراني في « الكبير » (١٠٤/٩) على عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

وقال صلى الله عليه وسلم : « مِنْ أَقَلِّ مَا أُوتِيتُمْ اليقينُ وعزيمةُ الصبرِ ، وَمَنْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنْهُمَا . . لَمْ يَبَالِ بِمَا فَاتَهُ مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ وَصِيَامِ النَّهَارِ ، وَلَأنَّ تَصْبِرُوا عَلَى مِثْلِ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يُوَافِقَنِي كُلُّ أَمْرٍ مِنْكُمْ بِمِثْلِ عَمَلِ جَمِيعِكُمْ ، وَلَكِنِّي أَخَافُ أَنْ تُفْتَحَ عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا بَعْدِي ، فَيَنْكَرَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً ، وَيَنْكَرَكُمْ أَهْلُ السَّمَاءِ عِنْدَ ذَلِكَ ، فَمَنْ صَبَرَ وَاحْتَسَبَ . . ظَفَرَ بِكَمَالِ ثَوَابِهِ » ، ثُمَّ قرأ قوله تعالى : ﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١) .

وروى جابرٌ أَنَّهُ سُئِلَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْإِيمَانِ ، فَقَالَ : « الصَّبْرُ وَالسَّمَاحَةُ » (٢) .

وقال عليه الصلاة والسلام أيضاً : « الصَّبْرُ كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ » (٣) .

(١) كذا أورده الإمام أبو طالب في « القوت » (١٩٤ / ١) من حديث شهر بن حوشب الأشعري عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه مرفوعاً .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « مكارم الأخلاق » (٦١) ، وأبو يعلى في « مسنده » (١٨٥٤) ، ورواه أحمد في « المسند » (٣٨٥ / ٤) من حديث عمرو بن عبسة رضي الله عنه .

(٣) قال الحافظ العراقي : (غريب لم أجده) ، وروى الخرkowski في « تهذيب الأسرار » (ص ١٩٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١١٧ / ٧) من حديث أنس مرفوعاً : « ثلاث من كنوز البر : إخفاء الصدقة ، وكتمان الشكوى ، وكتمان المصيبة . . . » الحديث .

وسُئِلَ عليه الصلاة والسلام مرّةً : ما الإيمان ؟ فقال : « الصبر »^(١) ،
وهذا يشبه قوله صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « الحجُّ عرفة »^(٢) .
وقال صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أيضاً : « أفضلُ الأعمالِ ما أكرهْتُ عليه
النفوسُ »^(٣) .

وقيلَ : أوحى اللهُ تعالى إلى داودَ عليه السلام : تخلّق بأخلاقِي ، وإنَّ
مِنْ أخلاقِي أنِّي أنا الصبورُ^(٤) .

وفي حديثٍ عطاءٍ عن ابنِ عباسٍ : لمّا دخلَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه
وسلَّمَ على الأنصارِ فقالَ : « أمؤمنونَ أنتم ؟ » فسكتوا ، فقالَ عمرُ
رضيَ اللهُ عنه : نعم يا رسولَ اللهِ ؛ فقالَ : « وما علامةُ إيمانِكُمْ ؟ »
فقالوا : نشكرُ على الرخاءِ ، ونصبرُ على البلاءِ ، ونرضى بالقضاءِ ، فقالَ
صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « مؤمنونَ وربُّ الكعبةِ »^(٥) .

وقالَ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « في الصبرِ على ما تكرهُ خيرٌ كثيرٌ »^(٦) .

(١) روى الديلمي في « مسند الفردوس » (٣٨٤٠) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً :
« الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد » .

(٢) رواه أبو داود (١٩٤٩) ، والترمذي (٨٨٩) ، والنسائي (٢٥٦/٥) .

(٣) كذا في « القوت » (١٩٥/١) ، وقد رواه ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (١١٣) .

(٤) الرسالة القشيرية (ص ٣٢٧) .

(٥) رواه الطبراني في « الأوسط » (٩٤٢٣) بنحوه ، ولفظ المصنف عند صاحب « القوت »
(١٩٤/١) .

(٦) رواه الضياء في « المختارة » (١٤) ، وأحمد في « المسند » (٣٠٧/١) .

وقال المسيح عليه السلام : (إِنَّكُمْ لَا تَدْرِكُونَ مَا تَحْبُونَ إِلَّا بِصَبْرِكُمْ عَلَى مَا تَكْرَهُونَ) (١) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَوْ كَانَ الصَّبْرُ رَجُلًا . . لَكَانَ كَرِيمًا ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ » (٢) .

والأخبارُ في هذا ممَّا لَا يُحصى .



وَأَمَّا الْأَثَارُ :

فقد وُجِدَ في رسالةِ عمرَ بن الخطابٍ إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنهما : (عَلَيْكَ بِالصَّبْرِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ الصَّبْرَ صَبْرَانِ ، أَحَدُهُمَا أَفْضَلُ مِنَ الْآخِرِ ، الصَّبْرُ فِي الْمَصِيبَاتِ حَسَنٌ ، وَأَفْضَلُ مِنْهُ الصَّبْرُ عَمَّا حَرَّمَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَاعْلَمْ أَنَّ الصَّبْرَ مِلَاكُ الْإِيمَانِ ، وَذَلِكَ بِأَنَّ التَّقْوَى أَفْضَلُ الْبِرِّ ، وَالتَّقْوَى بِالصَّبْرِ) (٣) .

وقال علي رضي الله عنه : (يُبَيِّ الْإِيمَانُ عَلَى أَرْبَعِ دَعَائِمَ :

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (٢٨٦) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٩٠ / ٨) من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً .

(٣) قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٦ / ٩) : (رواه إبراهيم بن بشار الرمادي عن سفيان عن والد إدريس بن عبد الله عن سعيد بن أبي بردة بن أبي موسى عن أبيه ، وكان أبو موسى قد أوصى إلى ابنه أبي بردة رسائل عمر التي كان يكتبها إليه) ، ورواه مختصراً ابن أبي حاتم في « تفسيره » (٨٨٢٧) .

اليقين ، والصبر ، والجهد ، والعدل (١) .

وقال أيضاً : (الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، ولا جسد لمن لا رأس له ، ولا إيمان لمن لا صبر له) (٢) .

وكان عمر رضي الله عنه يقول : (نعم العدلان ونعمت العلاوة للصابرين) ؛ يعني بالعدلين : الصلاة والرحمة ، وبالعلاوة : الهدى ، والعلاوة ما يُحمل فوق العدلين على البعير ، وأشار به إلى قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَعَدُونَ ﴾ (٣) .

وكان حبيب بن أبي حبيب إذا قرأ هذه الآية : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ .. بكى وقال : (وا عجابه ! أعطى وأثنى) أي : هو المعطي للصبر وهو المثنى عليه (٤) .

وقال أبو الدرداء : (ذروة الإيمان الصبر للحكم ، والرضا بالقدر) (٥) .

-
- (١) رواه البيهقي في « الشعب » (٣٨) ، وهو في « القوت » (١٩٤ / ١) .
 (٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣١٠٧٩) ، وهو في « القوت » (١٩٤ / ١) .
 (٣) كذا في « القوت » (١٩٤ / ١) ، وقد رواه الحاكم في « المستدرک » (٢٧٠ / ٢) .
 (٤) أورده الطرطوشي في « سراج الملوك » (٣٩٧ / ١) ، والرب إذا أثنى على أعمال عباده .. فقد أثنى على فعل نفسه ؛ لأن أعمالهم من خلقه . « إتحاف » (٧ / ٩) ، وسيؤكد هذا المعنى المصنف ، والمثنى بالمقصورة ، لا بالياء ، كما سيوضح في بيان طريق كشف الغطاء عن الشكر في حق الله تعالى .
 (٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢١٦ / ١) ، وزاد : (والإخلاص في التوكل ، والاستسلام للرب عز وجل) .

هذا بيانُ فضيلةِ الصبرِ مِنْ حيثُ النقلُ .

وأما مِنْ حيثُ النظرُ بعينِ الاعتبارِ . فلا تفهمُهُ إلا بعدَ فهمِ حقيقةِ الصبرِ ومعناه ؛ إذ معرفةُ الفضيلةِ والرتبةِ معرفةُ صفةٍ ، فلا تحصلُ قبلَ معرفةِ الموصوفِ ، فلندكرُ حقيقةَ ومعناه ، وباللهِ التوفيقُ .



بيان حقيقة الصبر ومعناه

اعلم : أنَّ الصبرَ مقامٌ مِنْ مقاماتِ الدينِ ، ومتزلٌّ مِنْ منازلِ السالكينَ ،
وجميعُ مقاماتِ الدينِ إنما تنتظمُ مِنْ ثلاثةِ أمورٍ : معارفٌ ، وأحوالٌ ، وأعمالٌ .

فالمعارفُ هيَ الأصولُ ، وهيَ التي تورثُ الأحوالَ ، والأحوالُ تثمرُ
الأعمالَ ، فالمعارفُ كالأشجارِ ، والأحوالُ كالأغصانِ ، والأعمالُ
كالثمارِ ، وهذا مطردٌ في جميعِ منازلِ السالكينَ إلى الله تعالى .

واسمُ الإيمانِ تارةً يختصُّ بالمعارفِ ، وتارةً يُطلقُ على الكلِّ ؛ كما
ذكرناه في اختلافِ اسمِ الإيمانِ والإسلامِ في كتابِ قواعدِ العقائدِ ، وكذلك
الصبرُ لا يتمُّ إلا بمعرفةٍ سابقةٍ ، وبحالةٍ قائمةٍ ، فالصبرُ على التحقيقِ عبارةٌ
عنها ، والعملُ هوَ كالثمرةِ يصدرُ عنها ، ولا يُعرفُ هذا إلا بمعرفةٍ كيفيةٍ
الترتيبِ بينَ الملائكةِ والإنسِ والبهائمِ ؛ فإنَّ الصبرَ خاصِّيَّةُ الإنسِ ،
ولا يُصوِّرُ ذلكَ في البهائمِ والملائكةِ ؛ أمَّا في البهائمِ .. فلنقصانِها ، وأمَّا
في الملائكةِ .. فلكمالِها .

وبيانهُ : أنَّ البهائمَ سُلِّطَتْ عليها الشهواتُ ، وصارتْ مسخَّرةً لها ، فلا
باعتْ لها على الحركةِ والسكونِ إلا الشهوةُ ، وليسَ فيها قوَّةٌ تصادمُ الشهوةَ
وتردُّها عن مقتضاها حتَّى يُسمَّى ثباتُ تلكَ القوَّةِ في مقابلةٍ مقتضى الشهوةِ
صبراً .

وأما الملائكة عليهم السلام . . فإنَّهُمْ جُرِّدُوا للشوقِ إلى الحضرةِ الربوبيةِ ، والابتهاجِ بدرجةِ القربِ منها ، ولم تُسلَّطْ عليهم شهوةٌ صارفةٌ صادةٌ عنها حتَّى تحتاجَ إلى مصادمةٍ ما يصرفُها عن حضرةِ الجلالِ بجندٍ آخرَ يغلبُ الصوارفَ .

وأما الإنسانُ . . فإنه خُلِقَ في ابتداءِ الصبَا ناقصاً مثلَ البهيمةِ ، لم يُخلقْ فيه إلا شهوةُ الغذاءِ الذي هو محتاجٌ إليه ، ثمَّ تظهرُ فيه شهوةُ اللعبِ والزينةِ ، ثمَّ شهوةُ النكاحِ على الترتيبِ^(١) ، وليسَ له قوَّةُ الصبرِ ألبتَّةَ ؛ إذ الصبرُ عبارةٌ عن ثباتِ جندٍ في مقابلةِ جندٍ آخرَ قامَ القتالُ بينهما لتضادِّ مقتضياتِهِما ومطالبِهِما ، وليسَ في الصبيِّ إلا جندُ الهوى كما في البهائمِ .

ولكنَّ اللهَ تعالى بفضلهِ وسعةِ جودهِ أكرمَ بني آدمَ ، ورفعَ درجتَهُمْ عن درجةِ البهائمِ ، فوكلَّ به عندَ كمالِ شخصِهِ بمقاربةِ البلوغِ ملكينَ ؛ أحدهُما يهديهِ ، والآخرُ يقوِّيه ، فتميّزَ بمعونةِ الملكينِ عن البهائمِ ، واختصَّ بصفتينِ ؛ إحداهُما معرفةُ اللهِ تعالى ومعرفةُ رسولهِ ، ومعرفةُ المصالحِ المتعلقةِ بالعواقبِ ، وكلُّ ذلكَ حاصلٌ مِنَ الملكِ الذي إليه الهدايةُ والتعريفُ ، فالبهيمةُ لا معرفةَ لها ولا هدايةَ إلى مصلحةِ العواقبِ ، بل إلى مقتضى شهوتِها في الحالِ فقط ، فلذلكَ لا تطلبُ إلا اللذيذَ ، فأما الدواءُ النافعُ مع كونهِ مضرّاً في الحالِ . . فلا تطلبُهُ ولا تعرفُهُ .

(١) إلى أن يظهر فيه الرغبة في طلب الكمال ، والنظر للعاقبة ، وعصيان مقتضى تلك الشهوات . « إتحاف » (٩ / ٩) .

فصار الإنسان بنور الهداية يعرف أن اتباع الشهوات له مغبات مكروهة في العاقبة ، ولكن لم تكن هذه الهداية كافية ما لم تكن له قدرة على ترك ما هو مضر ، فكم من مضر يعرفه الإنسان - كالمرض النازل به مثلاً - ولكن لا قدرة له على دفعه ، فافتقر إلى قدرة وقوة يدفع بها في نحر الشهوات فيجاهدها بتلك القوة حتى يقطع عداوتها عن نفسه ، فوكل الله تعالى به ملكاً آخر يسدده ويؤيده ويقويه بجنود لم تروها ، وأمر هذا الجند بقتال جنود الشهوة ، فتارة يضعف هذا الجند ، وتارة يقوى ، وذلك بحسب إمداد الله تعالى عبده بالتأييد ؛ كما أن نور الهداية أيضاً يختلف في الخلق اختلافاً لا ينحصر ، فلنسّم هذه الصفة التي بها فارق الإنسان البهائم في قمع الشهوات وقهرها : باعثاً دينياً ، ولنسّم مطالبة الشهوات بمقتضياتها : باعث الهوى .

وليُفهم أن القتال قائم بين باعث الدين وباعث الهوى ، والحرب بينهما سجال ، ومعركة هذا القتال قلب العبد ، ومدد باعث الدين من الملائكة الناصرين لحزب الله تعالى ، ومدد باعث الشهوة من الشياطين الناصرين لأعداء الله تعالى^(١) ، فالصبر : عبارة عن ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الشهوة ، فإن ثبت حتى قهره واستمر على مخالفة الشهوة . فقد نصر

(١) ومعرفة هذا من الإيمان بالله تعالى ، وهو تصديق الله تعالى فيما أخبر به من عداوة النفس والشیطان والشهوات للعقل والمعرفة والملك الملهم للخير ، وأن الشهوات والنفس من حزب الشيطان ، والمعرفة والعقل والملائكة من جند الله وحزبه ، وهذا الإيمان واجب لا يستغني عنه سالك لطريق الله تعالى . « إتحاف » (٩ / ٩) .

حزب الله والتحق بالصابرين ، وإن تخاذل وضعف حتى غلبت الشهوة ولم يصبر في دفعها . . التحق بأتباع الشياطين .

فإذا ؛ ترك الأفعال المشتهاة عملًا يثمره حالٌ يُسمى الصبر ، وهو ثباتٌ باعث الدين الذي هو في مقابلة باعث الشهوة ، وثباتٌ باعث الدين حالٌ ثمرها المعرفةُ بعداوة الشهوات ومضادتها لأسباب السعادات في الدنيا والآخرة ، فإذا قوي يقينه - أعني المعرفة التي تُسمى إيماناً - وهو اليقينُ بكون الشهوة عدوًّا قاطعاً لطريق الله تعالى . . قوي ثباتٌ باعث الدين ، وإذا قوي ثباته . . تمت الأفعال على خلاف ما تتقاضاه الشهوة ، فلا يتم ترك الشهوة إلا بقوة باعث الدين المضاد لباعث الشهوة ، وقوة المعرفة والإيمان تقبّح مغبة الشهوات وسوء عاقبتها ، وهذان الملكان هما المتكفلان بهذين الجندين بإذن الله تعالى وتسخيره إياهما ، وهما من الكرام الكاتبين ، وهما الملكان الموكلان بكل شخص من آدميين .

وإذا عرفت أن رتبة الملك الهادي أعلى من رتبة الملك المقوي . . لم يخف عليك أن جانب اليمين الذي هو أشرف الجانبين من جنبي الدست ينبغي أن يكون مسلماً له^(١) ، فهو إذاً صاحب اليمين ، والآخر صاحب الشمال .

(١) الدست : لفظة فارسية ، لها معان عديدة ، أشهرها اليد ، ويطلق على المجلس الذي يتصدره الكبراء .

وللعبدِ طورانِ في الغفلةِ والفكرِ ، وفي الاسترسالِ والمجاهدةِ ، فهو بالغفلةِ معرضٌ عن صاحبِ اليمينِ ومسيءٌ إليه ، فيكتبُ إعراضَهُ سيئةً ، وبالفكرِ مقبلٌ عليه ليستفيدَ منه الهدايةَ ، فهو بهِ محسنٌ ، فيكتبُ إقبالَهُ له حسنةً ، وكذا بالاسترسالِ هو معرضٌ عن صاحبِ الشمالِ تاركٌ للاستمدادِ منه ، فهو بهِ مسيءٌ إليه ، فيثبتُ عليه سيئةً ، وبالمجاهدةِ مستمدٌ من جنوده ، فيثبتُ له بهِ حسنةً .

وإنما ثبتتْ هذه الحسناتُ والسيئاتُ بإثباتيهما ، فلذلك سُميا كراماً كاتبين ، أمّا (الكرام) .. فلانتفاعِ العبدِ بكرميهما ، ولأنَّ الملائكةَ كلُّهم كرامٌ بررةً ، وأمّا (الكاتبين) .. فلاإثباتيهما الحسناتِ والسيئاتِ ، وإنما يكتبانِ في صحائفٍ مطويةٍ في سرِّ القلبِ ومطويةٍ عن سرِّ القلبِ ؛ حتَّى لا يُطلعَ عليه في هذا العالمِ ، فإنَّهُما وكتبتهُما وخطَّهُما وصحائفُهُما وجملةُ ما يتعلَّقُ بهما من جملةِ عالمِ الغيبِ والملكوتِ ، لا من عالمِ الشهادةِ ، وكلُّ شيءٍ من عالمِ الملكوتِ لا تدركُهُ الأبصارُ في هذا العالمِ ^(١) .

ثم تُنشرُ هذه الصحائفُ المطويةُ عنه مرَّتين ؛ مرَّةً في القيامةِ الصغرى ، ومرَّةً في القيامةِ الكبرى ، وأعني بالقيامةِ الصغرى : حالة الموتِ ؛ إذ قال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ ماتَ . . فقد قامَتْ قيامتهُ » ^(٢) ، وفي هذه

(١) والعبارة في (ج) : (وسرُّ عالمِ الملكوتِ لا تدركُهُ الأبصارُ في هذا العالمِ) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذكر الموت » والديلمي في « مسند الفردوس » (١١٧) من حديث أنس رضي الله عنه .

القيامة يكونُ العبدُ وحدهُ ، وعندها يُقالُ : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ ، وفيها يُقالُ : ﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ ، أمّا في القيامة الكبرى الجامعة لكافة الخلق . . فلا يكونُ وحدهُ ، بل ربُّما يُحاسبُ على ملأٍ من الخلق ، وفيها يُساقُ المتقونَ إلى الجنةِ والمجرمونَ إلى النارِ زمراً لا آحاداً .

والهولُ الأوَّلُ هوَ هولُ القيامةِ الصغرى ، ولجميعِ أهوالِ القيامةِ الكبرى نظيرٌ في القيامةِ الصغرى ؛ مثلُ زلزلةِ الأرضِ مثلاً ، فإنَّ أرضَكَ الخاصَّةَ بكَ تزلزلُ في الموتِ ؛ فإنَّكَ تعلمُ أنَّ الزلزلةَ إذا نزلتْ ببلدةٍ . . صدقَ أن يُقالَ : (قد زُلزِلتْ أرضُهُمْ) وإنَّ لمْ تزلزلِ البلادُ المحيطةُ بها ، بل لو زُلزلَ مسكنُ الإنسانِ ودائرةُ . . فقد حصلتِ الزلزلةُ في حقِّه ؛ لأنَّه إنَّما يتضرَّرُ عندَ زلزلةِ جميعِ الأرضِ بزلزلةِ مسكنِهِ لا بزلزلةِ مسكنِ غيره ، فحَصَّتُهُ مِنَ الزلزلةِ قد توفَّرتْ مِنْ غيرِ نقصانٍ .

واعلمُ : أنَّكَ أرضيٌّ مخلوقٌ مِنَ الترابِ ، وحظُّكَ الخاصُّ مِنَ الترابِ

= وروى أبو نعيم في « الحلية » (٣٢٥ / ٥) عن ابنِ بشار السلمي قال : خطبَ عمرُ الناسَ فقال : أيُّها الناسَ ؛ لا يبعدنَ عليكم ولا يطولنَ يومَ القيامةِ ؛ فإنه من وافته منيته . . فقد قامت عليه قيامته .

وروى الدولابي في « الكنى » (٨٩ / ٢) عن أبي قيس عبد الرحمن بن ثروان قال : صلَّى علقمة على جنازة فقال : (أما هذا . . فقد قامت قيامته) ، ومن حديثه عن زياد بن علاقة قال : سمعت المغيرة بن شعبة يقول : (يقولون : القيامة القيامة ، وإنما قيامة أحدكم موته) .

بدنك فقط ، فأما بدن غيرك . . فليس بحظك ، والأرض التي أنت جالس عليها بالإضافة إلى بدنك ظرف ومكان ، وإنما تخاف من تزلزله أن يتزلزل بدنك بسببه ، وإلا . . فالهواء أبداً متزلزل وأنت لا تخشاه ؛ إذ ليس يتزلزل به بدنك ، فحظك من زلزلة الأرض كلها زلزلة بدنك فقط ، فهو أرضك وترائب الخاص بك ، وعظامك جبال أرضك ، ورأسك سماء أرضك ، وقلبك شمس أرضك ، وسمعك وبصرك وسائر حواسك نجوم سماءك ، ومفيض العرق من بدنك بحر أرضك ، وشعورك نبات أرضك ، وأطرافك أشجار أرضك ، وهكذا إلى جميع أجزائك ، فإذا انهدم بالموت أركان بدنك . . فقد زلزلت الأرض زلزالها ، فإذا انفصلت العظام من اللحوم . . فقد حُمِلت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ، فإذا رمت العظام . . فقد نُسفت الجبال نسفاً ، فإذا أظلم قلبك عند الموت . . فقد كُورت الشمس تكويراً ، فإذا بطل سمعك وبصرك وسائر حواسك . . فقد انكدرت النجوم انكداراً ، فإذا انشق دماغك . . فقد انشقت السماء انشقاقاً ، فإذا انفجر من هول الموت عرق جبينك . . فقد فُجرت البحار تفجيراً ، فإذا التفت إحدى ساقيك بالأخرى وهما مطيّاك . . فقد عُطلت العشار تعطيلاً ، فإذا فارقت الروح الجسد . . فقد حُمِلت الأرض فمُدت حتى ألفت ما فيها وتخلت .

ولست أطول بموازنة جميع الأحوال والأحوال ، ولكني أقول : بمجرد الموت تقوم عليك هذه القيامة الصغرى ، ولا يفوتك من القيامة الكبرى شيء مما يخصك ، بل ما يخص غيرك ، فإن بقاء الكواكب في حق غيرك

ماذا ينفعك وقد انتشرت حواشك التي بها تنتفع بالنظر إلى الكواكب ، والأعمى يستوي عنده الليل والنهار ، وكسوف الشمس وانجلاؤها ؛ لأنها قد كسفت في حقّه دفعة واحدة ، وهو حصته منها ، فالانجلاء بعد ذلك حصّة غيره ، ومن انشق رأسه . فقد انشقت سماؤه ؛ إذ السماء عبارة عمّا يلي جهة الرأس ، فمن لا رأس له لا سماء له ، فمن أين ينفعه بقاء السماء لغيره ؟!

فهذه هي القيامة الصغرى ، والخوف بعد أسفل ، والهول بعد مدّخر ، وذلك إذا جاءت الطامة الكبرى ، وارتفع الخصوص ، وبطلت السماوات والأرض ، ونُسفت الجبال ، وتمّت الأهوال .

واعلم : أن هذه الصغرى وإن طوّلتنا في وصفها فإننا لم نذكر عشرَ عشرٍ أوصافها ، وهي بالنسبة إلى القيامة الكبرى كالولادة الصغرى بالنسبة إلى الولادة الكبرى ، فإنّ للإنسان ولادتين ؛ إحداهما الخروج من الصلب والترائب إلى مستودع الأرحام ، فهو في الرحم في قرارٍ مكين إلى قدرٍ معلوم ، وله في سلوكه إلى الكمال منازل وأطوار ؛ من نطفة ، وعلقة ، ومضغة ، وغيرها ، إلى أن يخرج من مضيق الرحم إلى فضاء العالم ، فنسبة عموم القيامة الكبرى إلى خصوص القيامة الصغرى كنسبة سعة فضاء العالم إلى سعة فضاء الرحم ، ونسبة سعة العالم الذي يقدم عليه العبد بالموت إلى سعة فضاء الدنيا كنسبة فضاء الدنيا أيضاً إلى الرحم ، بل أوسع وأعظم ، فقس الآخرة بالأولى ، فما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ، وما النشأة الثانية إلا على قياس النشأة الأولى ، بل أعداد النشآت ليست محصورة في

اثنتين ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ وَنُشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

فالمقرئ بالقيامتين مؤمنٌ بعالم الغيب والشهادة ، وموقنٌ بالملك والملكوت ، والمقرئ بالقيامة الصغرى دون الكبرى ناظرٌ بالعين العوراء إلى أحد العالمين ، وذلك هو الجهل والضلال ، والاقتداء بالأعور الدجال ، فما أعظم غفلتك يا مسكين - وكلنا ذلك المسكين - وبين يديك هذه الأهوال ، فإن كنت لا تؤمن بالقيامة الكبرى للجهل والضلال . . أفلا تكفيك دلالة القيامة الصغرى !؟

أوما سمعت قول سيّد الأنبياء صلى الله عليه وسلم : « كفى بالموت واعظاً » ؟ (١)

أوما سمعت بكربه صلى الله عليه وسلم عند الموت حتى قال : « اللهم ؛ هوّن على محمدٍ سكرات الموت » ؟ (٢)

(١) رواه القضاعي في « مسند الشهاب » (١٤١٠) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٧٢) .

(٢) رواه الترمذي (٩٧٨) ، وابن ماجه (١٦٢٣) من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بالموت وعنده قدح فيه ماء وهو يدخل يده في القدح ثم يمسح وجهه بالماء ثم يقول : « اللهم ؛ أعني على غمرات الموت أو سكرات الموت » .

وروى البخاري (٤٤٤٦) ، والنسائي (٦/٤) واللفظ له ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : (مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنه لبين حاقنتي وذاقنتي ، فلا أكره شدة الموت لأحد بعدما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم) .

أَوْ مَا تَسْتَحْي مِنْ اسْتِبْطَائِكَ هَجُومَ الْمَوْتِ اقْتِدَاءَ بَرْعِ الْغَافِلِينَ الَّذِينَ لَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صِيحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ، فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ، فَيَأْتِيهِمُ الْمَرَضُ نَذِيرًا مِنَ الْمَوْتِ فَلَا يَنْزَجِرُونَ ، وَيَأْتِيهِمُ الشَّيْبُ رَسُولًا مِنْهُ فَمَا يَعْتَبِرُونَ ؟!

فِيَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ ، مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ، أَفَیْظَنُّونَ أَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا خَالِدُونَ ؟!

أَوَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ؟!

أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّ الْمَوْتَى سَافَرُوا مِنْ عِنْدِهِمْ فَهُمْ مَعْدُومُونَ ؟!

كَلَّا ، إِنَّ كُلًّا لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ، وَلَكِنْ مَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ، وَذَلِكَ لِأَنَّا جَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا ، فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ، وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنْذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تَنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ .

وَلِنَرْجِعَ إِلَى الْغَرَضِ ، فَإِنَّ هَذِهِ تَلْوِيحَاتٌ تُشِيرُ إِلَى أُمُورٍ هِيَ أَعْلَى مِنْ عُلُومِ الْمَعَامِلَةِ ، فَنَقُولُ :

قَدْ ظَهَرَ أَنَّ الصَّبْرَ عِبَارَةٌ عَنْ ثَبَاتِ بَاعِثِ الدِّينِ فِي مَقَاوِمِ بَاعِثِ الْهَوَى ، وَهَذِهِ الْمَقَاوِمَةُ مِنْ خَاصَّةِ الْآدَمِيِّينَ ؛ لَمَّا وَكَّلَ بِهِمْ مِنَ الْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ ، وَلَا يَكْتَبَانِ شَيْئًا عَلَى الصَّبْيَانِ وَالْمَجَانِينِ ؛ إِذْ قَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ الْحَسَنَةَ فِي الْإِقْبَالِ عَلَى الْإِسْتِفَادَةِ مِنْهُمَا ، وَالسَّيِّئَةَ فِي الْإِعْرَاضِ عَنْهُمَا ، وَمَا لِلصَّبْيَانِ

والمجانين سبيلٌ إلى الاستفادة ، فلا يُتصوّرُ منهما إقبالٌ وإعراضٌ ، وهما لا يكتبان إلا الإقبالَ والإعراضَ مِنَ القادرينَ على الإقبالِ والإعراضِ .

ولعمري ؛ إِنَّهُ قَدْ تَظَهَّرَ مَبَادِي إِشْرَاقِ نَوْرِ الْهَدَايَةِ عِنْدَ سَنِّ التَّمْيِيزِ ، وتنمو على التدرّجِ إلى سَنِّ الْبُلُوغِ ؛ كما يبدو نورُ الصُّبْحِ إلى أن يطلعَ قرصُ الشمسِ ، ولكنها هدايةٌ قاصِرةٌ لا ترشُدُ إلى مضارِّ الآخرةِ ، بل إلى مضارِّ الدنيا ، فلذلك يُضْرَبُ على تركِ الصَّلواتِ ناجزاً ولا يُعاقَبُ في الآخرةِ ، ولا يُكْتَبُ عليه مِنَ الصَّحَافِ ما يُنْشَرُ في الآخرةِ ، بل على القِيَمِ الْعَدْلِ ، والوَلِيِّ الْبَرِّ الشَّفِيقِ ، إِنْ كَانَ مِنَ الْأَبْرَارِ ، وَكَانَ عَلَى سَمْتِ الْكِرَامِ الْبَرَّةِ الْأَخْيَارِ . . . أَنْ يَكْتُبَ عَلَى الصَّبِيِّ سَيِّئَتَهُ وَحَسَنَتَهُ عَلَى صَحِيفَةٍ قَلْبِهِ ، فَيَكْتُبُهُ عَلَيْهِ بِالْحَفِظِ ، ثُمَّ يَنْشُرُهُ عَلَيْهِ بِالتَّعْرِيفِ ، ثُمَّ يَعْذِبُهُ عَلَيْهِ بِالضَّرْبِ ، فَكُلُّ وَلِيٍّ هَذَا سَمْتُهُ فِي حَقِّ الصَّبِيِّ فَقَدْ وَرَثَ أَخْلَاقَ الْمَلَائِكَةِ ، وَاسْتَعْمَلَهَا فِي حَقِّ الصَّبِيِّ ، فَيَنَالُ بِهَا دَرَجَةَ الْقُرْبِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ كَمَا نَالَتْهُ الْمَلَائِكَةُ ، فَيَكُونُ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالْمُقَرَّبِينَ وَالصَّادِقِينَ ، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ كَهَاتَيْنِ فِي الْجَنَّةِ » وَأَشَارَ إِلَى إصْبَعَيْهِ الْكَرِيمَتَيْنِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ^(١) .



(١) رواه البخاري (٥٣٠٤) ، والترمذي (١٩١٨) بنحوه .

بيان كون الصبر نصف الإيمان

اعلم : أن الإيمان تارة يختص في إطلاقه بالتصديقات بأصول الدين ، وتارة يُخصُّ بالأعمال الصالحة الصادرة منها ، وتارة يُطلقُ عليهما جميعاً .
وللمعارف أبوابٌ ، وللأعمال أبوابٌ ، ولاشتمال لفظ الإيمان على جميعها كان الإيمان نيفاً وسبعين باباً ، واختلاف هذه الإطلاقات ذكرناه في كتاب قواعد العقائد من ربيع العبادات ، ولكن الصبر نصف الإيمان باعتبارين ، وعلى مقتضى إطلاقين :

أحدهما : أن يُطلق على التصديقات والأعمال جميعاً ، فيكون للإيمان ركنان : أحدهما اليقين ، والآخر الصبر ، والمراد باليقين : المعارف القطعية الحاصلة بهداية الله تعالى عبده إلى أصول الدين ، والمراد بالصبر : العمل بمقتضى اليقين ؛ إذ اليقين يعرفه أن المعصية ضارّة ، والطاعة نافعة ، ولا يمكن ترك المعصية والمواظبة على الطاعة إلا بالصبر ، وهو استعمال باعث الدين في قهر باعث الهوى والكسل ، فيكون الصبر نصف الإيمان بهذا الاعتبار .

ولهذا جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما فقال : « من أقلّ ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر . . . » الحديث إلى آخره^(١) .

(١) قوت القلوب (١/١٩٤) .

الاعتبار الثاني : أن يُطلقَ على الأحوالِ المثمرةِ للأعمالِ لا على المعارفِ ، وعندَ ذلكَ ينقسمُ جميعُ ما يلاقيه العبدُ إلى ما ينفعُهُ في الدنيا والآخرةِ أو يضرُّهُ فيهما ، وله بالإضافةِ إلى ما يضرُّهُ حالُ الصبرِ ، وبالإضافةِ إلى ما ينفعُهُ حالُ الشكرِ ، فيكونُ الشكرُ أحدَ شطري الإيمانِ بهذا الاعتبارِ كما كانَ اليقينُ أحدَ الشطرينِ بالاعتبارِ الأوَّلِ .

وبهذا النظرِ قالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنه : (الإيمانُ نصفانِ : نصفُ صبرٍ ، ونصفُ شكرٍ) ، وقد يُرفعُ أيضاً إلى رسولِ الله صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم^(١) .

ولمَّا كانَ الصبرُ صبراً عنِ بواعثِ الهوى بثباتِ باعثِ الدينِ ، وكانَ باعثُ الهوى قسمينِ ؛ باعثٌ مِنْ جهةِ الشهوةِ ، وباعثٌ مِنْ جهةِ الغضبِ ، فالشهوةُ لطلبِ اللذيدِ ، والغضبُ للهربِ مِنَ المؤلمِ ، وكانَ الصومُ صبراً عنِ مقتضى الشهوةِ فقط ، وهي شهوةُ البطنِ والفرجِ دونَ مقتضى الغضبِ . قالَ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم بهذا الاعتبارِ : « الصومُ نصفُ الصبرِ »^(٢) ؛ لأنَّ كمالَ الصبرِ بالصبرِ عنِ دواعي الشهوةِ ودواعي الغضبِ جميعاً ، فيكونُ الصومُ بهذا الاعتبارِ ربعَ الإيمانِ .

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (١٠٤ / ٩) بنحوه .

(٢) رواه الترمذي (٣٥١٩) ، وابن ماجه (١٧٤٥) .

فهكذا ينبغي أن تفهم تقديرات الشرع بحدود الأعمال والأحوال ونسبتها
إلى الإيمان ، والأصل فيه : أن تعرف كثرة أبواب الإيمان ، وأن اسم
الإيمان يُطلق على وجوه مختلفة .



بيان الأسمي التي تُحبَد للصبر بالإضافة إلى ما عنه الصبر

اعلم : أنَّ الصبرَ ضربان :

أحدهما : ضربٌ بدنيٌّ ؛ كتحمُّلِ المشاقِّ بالبدنِ والثباتِ عليها ، وهو إمَّا بالفعل ؛ كتعاطي الأعمالِ الشاقَّةِ إمَّا مِنْ العباداتِ أو مِنْ غيرها ، وإمَّا بالاحتمالِ ؛ كالصبرِ على الضربِ الشديدِ والمرضى العَظيمِ والجراحاتِ الهائلةِ ، وذلكَ قد يكونُ محموداً إذا وافقَ الشرعَ .

ولكنَّ المحمودَ التامَّ هو :

الضربُ الآخرُ : وهو الصبرُ النفسيُّ عَنْ مشتَهياتِ الطبعِ ومقتضياتِ الهوى .

ثمَّ هذا الضربُ إنَّ كَانَ صبراً عَنْ شهوةِ البطنِ والفرجِ . . سُمِّيَ عَفَةً ، وإنَّ كَانَ عَنْ احتمالِ مكروهٍ . . اختلفَتْ أَسَامِيهِ عِنْدَ النَّاسِ باختلافِ المكروهِ الذي عَلَيْهِ الصبرُ .

فإنَّ كَانَ فِي مَصِيبَةٍ . . اقتصَرَ عَلَى اسمِ الصبرِ ، وتضادُّهُ حَالَةٌ تُسَمَّى الْجَزَعَ وَالْهَلَعَ ؛ وهو إطلاقُ داعيِ الهوى لِيَسْتَرْسَلَ فِي رَفْعِ الصَّوْتِ وَضَرْبِ الخدودِ وَشَقِّ الجيوبِ وَغَيْرِهَا .

وإنَّ كَانَ فِي احْتِمَالِ الْغِنَى . . سُمِّيَ ضَبْطَ النَّفْسِ ، وتضادُّهُ حَالَةٌ تُسَمَّى الْبَطَرُ .

وإن كان في حربٍ ومقاتلةٍ .. سُمِّيَ شجاعاً ، ويضادُّه الجبنُ .
 وإن كان في كظمِ الغيظِ والغضبِ سُمِّيَ حليماً ، ويضادُّه التذمُّرُ .
 وإن كان في نائيةٍ من نوائِبِ الزمانِ مضجراً .. سُمِّيَ سعةَ الصدرِ ،
 ويضادُّه الضجرُ والتبرُّمُ وضيقُ الصدرِ .
 وإن كان في إخفاءِ كلامٍ .. سُمِّيَ كتمانَ السرِّ ، وسُمِّيَ صاحبه كُتُوماً .
 وإن كان عن فضولِ العيشِ .. سُمِّيَ زهداً ، ويضادُّه الحرصُ .
 وإن كان صبراً على قدرٍ يسيرٍ من الحظوظِ .. سُمِّيَ قناعةً ، ويضادُّه
 الشره .

فأكثرُ أخلاقِ الإيمانِ داخلٌ في الصبرِ ، ولذلك لَمَّا سُئِلَ عليه الصلاةُ
 والسلامُ مرَّةً عن الإيمانِ .. قالَ : « هو الصبرُ »^(١) ؛ لأنَّ أكثرَ أعمالِهِ
 وأعزُّها ؛ كما قالَ : « الحجُّ عرفه »^(٢) .

وقد جمعَ اللهُ تعالى أقسامَ ذلكَ وسَمَّى الكلَّ صبراً ، فقالَ تعالى :
 ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ ﴾ أي : المصيبةِ ، ﴿ وَالضَّرَّاءِ ﴾ أي : الفقرِ ، ﴿ وَحِينَ
 الْبَأْسِ ﴾ أي : المحاربةِ ، ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ .
 فإذا ؛ هذه أقسامُ الصبرِ باختلافِ متعلقاتِها ، ومن يأخذُ المعاني من

(١) رواه أبو يعلى في « مسنده » (١٨٥٤) ، والطبراني في « مكارم الأخلاق » (٣١) .

(٢) رواه أبو داود (١٩٤٩) ، والترمذي (٨٨٩) ، والنسائي (٢٥٦/٥) .

الأسامي يظنُّ أنَّ هذه أحوالٌ مختلفةٌ في ذواتها وحقائقها مِنْ حيثُ رأى
الأساميَ مختلفةً ، والذي يسلكُ الطريقَ المستقيمَ وينظرُ بنورِ الله . . يلحظُ
المعانيَ أولاً ، فيطلعُ على حقائقها ، ثمَّ يلاحظُ الأساميَ ؛ فإنَّها وُضعتْ
دلالةً على المعاني ، فالمعاني هي الأصولُ ، والألفاظُ هي التوابعُ ، ومنْ
يطلبُ الأصولَ مِنَ التوابعِ . . لا بدَّ وأنْ يزلَّ ، وإلى الفريقينِ الإشارةُ بقوله
تعالى : ﴿ أَفَنَ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ فَإِنَّ
الكفارَ لمْ يغلطوا فيما غلطوا فيه إلا بمثلِ هذه الانعكاساتِ ، نسألُ اللهَ حسنَ
التوفيقِ بكرمه ولطفه .



بيان انقسام الصبر بحسب اختلاف القوة والضعف

اعلم : أن باعث الدين بالإضافة إلى باعث الهوى له ثلاثة أحوال :

أحدها : أن يقهر داعي الهوى فلا تبقى له قوة المنازعة :

ويتوصل إليه بدوام الصبر ، وعند هذا يقال : (مَنْ صَبَرَ . . ظَفَرَ) ،
والواصلون إلى هذه الرتبة هم الأقلون ، فلا جرم هم الصديقون المقربون ،
الذين قالوا : (ربُّنا الله) ثم استقاموا ، فهؤلاء لازموا الطريق المستقيم ،
واستووا على الصراط القويم ، واطمأنت نفوسهم على مقتضى بواعث
الدين ، وإياهم ينادي المنادي : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۖ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۖ ﴾ .



الحالة الثانية : أن تغلب دواعي الهوى وتسقط بالكلية منازعة باعث الدين :

فيسلم نفسه إلى جند الشياطين ، ولا يجاهد ليأسه من المجاهدة ،
وهؤلاء هم الغافلون ، وهم الأكثرون ، وهم الذين استرقتهم شهواتهم ،
وغلبت عليهم شقوتهم ، فحكّموا أعداء الله في قلوبهم التي هي سرٌّ من
أسرار الله تعالى ، وأمر من أمور الله ، وإليهم الإشارة بقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ
شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ
وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ ، وهؤلاء هم الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة ،

فخسرت صفقتهم ، وقيل لمن قصد إرشادهم : ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۚ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ۚ ۞ ﴾ .

وهذه الحالة علامتها اليأس والقنوط والغرور بالأمانى ، وهو غاية الحمق ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله » (١) .

وصاحب هذه الحالة إذا وعظ . . قال : (أنا مشتاق إلى التوبة ، ولكنها قد تعذرت علي ، فلست أطمع فيها) ، أو لم يكن مشتاقاً إلى التوبة ، ولكن قال : (إن الله غفورٌ رحيمٌ كريمٌ ، فلا حاجة به إلى توبتي) .

وهذا المسكين قد صار عقله رقيقاً لشهوته ، فلا يستعمل عقله إلا في استنباط دقائق الحيل التي بها يتوصل إلى قضاء شهوته ، فقد صار عقله في يد شهواته كمسلم أسير في أيدي الكفار ، فهم يستسخرونه في رعاية الخنازير ، وحفظ الخمور وحملها ، ومحلّه عند الله تعالى محلٌّ من يقهر مسلماً ويسلمه إلى الكفار ويجعله أسيراً عندهم ؛ لأنّ تفاحش جنايته سببه أنّه سخر ما كان حقّه ألا يستسخره (٢) وسلط ما حقّه أن يُسلط عليه ، وإنما

(١) رواه الترمذي (٢٤٥٩) ، وابن ماجه (٤٢٦٠) ، وفيهما : « العاجز » بدل « الأحمق » ، وورد لفظ (الأحمق) عند ابن سلام في « غريب الحديث » (١٣٤/٣) ، دان نفسه : جعلها منقادة مطيعة لربّها تعالى ، وتمنى على الله : فهو مع تقصيره في طاعة الله واتباع الشهوات . . لا يعتذر ولا يرجع ، بل يتمنى على الله العفو والجنة مع الإصرار وترك التوبة والاستغفار . انظر « الإنحاف » (٤٤/٧) .

(٢) في النسخ : (أن يستسخر) بدل (ألا يستسخره) ، والمثبت من نسخة الحافظ الزبيدي .

استحقَّ المسلمُ أن يكونَ متسلِّطاً لما فيه مِنْ معرفةِ اللهِ وباعثِ الدينِ ، وإنَّما استحقَّ الكافرُ أن يكونَ متسلِّطاً عليه لما فيه مِنْ الجهلِ بالدينِ وباعثِ الشياطينِ ، وحقُّ المسلمِ على نفسه أوجبٌ مِنْ حقِّ غيره عليه ، فمهما سخرَ المعنى الشريفَ الذي هو مِنْ حزبِ اللهِ وجنْدِ الملائكةِ للمعنى الخسيسِ الذي هو مِنْ حزبِ الشياطينِ المبعدينَ عنِ اللهِ تعالى . . . كَانَ كَمَنْ أَرَقَّ مسلماً لكافرٍ ، بلْ هو كَمَنْ قَصَدَ الملكَ المنعمَ عليه فأخذَ أعزَّ أولادِهِ وسَلَّمَهُ إلى أبغضِ أعدائِهِ .

فانظرْ كيفَ يكونُ كفرانُهُ لنعمتهِ ، واستيجابُهُ لنقمتهِ ؛ لأنَّ الهوى أبغضُ إلهِ عُبْدَ في الأرضِ عندَ اللهِ تعالى ، والعقلَ أعزُّ موجودٍ خُلِقَ على وجهِ الأرضِ .



الحالةُ الثالثةُ : أن تكونَ الحربُ سِجَالاً بينَ الجندينِ ، فتارةً له اليدُ عليها ، وتارةً لها عليه :

وهذا مِنْ المجاهدينَ يُعَدُّ مثلهُ لا مِنْ الظافرينَ ، وأهلُ هذهِ الحالةِ همُ الذينَ خلطوا عملاً صالحاً وآخرَ سيئاً ، عسى اللهُ أن يتوبَ عليهم .
هذا باعتبارِ القوَّةِ والضعفِ .

ويتطرَّقُ إليه أيضاً ثلاثةُ أحوالٍ باعتبارِ عددِ ما يُصبرُ عنه ؛ فإنَّهُ إمَّا أن يغلبَ جميعَ الشهواتِ ، أو لا يغلبَ شيئاً منها ، أو يغلبَ بعضها دونَ

بعض ، وتنزيل قوله تعالى : ﴿ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا ﴾ على مَنْ عَجَزَ عَنْ بعضِ الشهواتِ دونَ بعضِ أولى ، والتاركون للمجاهدة مع الشهواتِ مطلقاً يُشَبَّهون بالأنعام ، بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ؛ إذ البهيمة لم تُخلَقْ لها المعرفة والقدرة التي بها تجاهد مقتضى الشهواتِ ، وهذا قد خُلِقَ ذلك له ولكن عطَّله ، فهو الناقصُ حقاً ، المدبرُ يقيناً ، ولذلك قيل^(١) : [من الوافر]

وَلَمْ أَرَ فِي عُيُوبِ النَّاسِ عَيْبًا كَنَقْصِ الْقَادِرِينَ عَلَى الثَّمَامِ



وينقسم الصبرُ أيضاً باعتبارِ اليسرِ والعسرِ إلى ما يشقُّ على النفسِ فلا يمكنُ الدوامُ عليه إلا بجهدٍ جهيدٍ وتعَبٍ شديدٍ ، ويُسمَّى ذلك تصبراً ، وإلى ما يكونُ مِنْ غيرِ شِدَّةٍ تعبٍ ، بل يحصلُ بأدنى تحامِلٍ على النفسِ ، ويُخصَّصُ ذلك باسمِ الصبرِ ، وإذا دامَ التقوى وقويَ التصديقُ بما في العاقبة مِنْ الحسنِ .. تيسَّرَ الصبرُ ، ولذلك قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَانْتَفَى ﴾ وَصَدَّقَ بِالْحَقِّ ﴿ فَسَيَسِّرُهُ لِّلْيَسْرَى ﴾ .

ومثالُ هذه القسمةِ قدرةُ المصارعِ على غيره ؛ فإنَّ الرجلَ القويَّ يقدرُ على أن يصرعَ الضعيفَ بأدنى حملةٍ وأيسرِ قوَّةٍ ، بحيثُ لا يلقاهُ في مصارعته إعياءٌ ولا لغوبٌ ، ولا تضطربُ فيه نفسه ولا ينهرُ ، ولا يقوى على أن يصرعَ الشديدَ إلا بتعبٍ ومزيدٍ جهدٍ وعرقٍ جبينٍ ، فهكذا تكونُ المصارعةُ

(١) البيت للمتنبي في « ديوانه بشرح العكبري » (١٤٥ / ٤) .

بين باعث الدين وباعث الهوى ، فإنه على التحقيق صراعٌ بين جنود الملائكة وجنود الشياطين ، ومهما أذعنَت الشهواتُ وانقمَعَت ، وتسَلَّطَ باعثُ الدين واستولى ، وتيسَّرَ الصبرُ بطولِ المواظبةِ . . أورثَ ذلكَ مقامَ الرضا كما سيأتي في كتابِ الرضا ، فالرضا أعلى من الصبر ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « اعبد الله على الرضا ، فإن لم تستطع . . ففي الصبر على ما تكره خيرٌ كثيرٌ » (١) .

وقال بعضُ العارفينَ : (أهل الصبر على ثلاثِ مقاماتٍ ؛ أولُها : تركُ الشكوى ، وهذه درجةُ التائبينَ ، والثانيةُ : الرضا بالمقدور ، وهذه درجةُ الزاهدينَ ، والثالثةُ : المحبةُ لما يصنعُ بهِ مولاهُ ، وهذه درجةُ الصديقينَ) (٢) .

وسنبيِّنُ في كتابِ المحبةِ أنَّ مقامَ المحبةِ أعلى من مقامِ الرضا ؛ كما أنَّ مقامَ الرضا أعلى من مقامِ الصبر ، وكأنَّ هذا الانقسامَ يجري في صبرٍ خاصٍّ ، وهو الصبرُ على المصائبِ والبلايا .

واعلمُ : أنَّ الصبرَ أيضاً ينقسمُ باعتبارِ حكمِهِ إلى فرضٍ ، ونفلٍ ، ومكروهٍ ، ومحرمٍ .

فالصبرُ عن المحظوراتِ فرضٌ ، وعلى المكروهِ نفلٌ ، والصبرُ على

(١) رواه الضياء في « المختارة » (١٤) ، وأحمد في « المسند » (٣٠٧ / ١) .

(٢) قوت القلوب (١٩٩ / ١) .

الأذى المحظور محظور ؛ كَمَنْ تَقَطَّعَ يَدُهُ أَوْ يَدُ وَلَدِهِ وَهُوَ يَصْبِرُ عَلَيْهِ سَاكِتاً ،
وَكَمَنْ يُقْصِدُ حَرِيمَهُ بِشَهْوَةٍ مُحْظُورَةٍ فَتَهَيَّجُ غَيْرَتُهُ ، فَيَصْبِرُ عَنْ إِظْهَارِ الْغَيْرَةِ ،
وَيَسْكُتُ عَلَى مَا يَجْرِي عَلَى أَهْلِهِ ، فَهَذَا الصَّبْرُ مُحَرَّمٌ ، وَالصَّبْرُ الْمَكْرُوهُ هُوَ
الصَّبْرُ عَلَى أَدَى يَنَالُهُ بِجَهَّةٍ مَكْرُوهَةٍ فِي الشَّرْعِ .

فَلْيَكُنِ الشَّرْعُ مُحَكِّمَ الصَّبْرِ ، فَكَوْنُ الصَّبْرِ نَصْفَ الْإِيمَانِ لَا يَنْبَغِي أَنْ
يُخَيَّلَ إِلَيْكَ أَنَّ جَمِيعَهُ مَحْمُودٌ ، بَلِ الْمُرَادُ بِهِ أَنْوَاعٌ مِنَ الصَّبْرِ مَخْصُوصَةٌ .



بيان مظان الحاجة إلى الصبر وأن العبد لا يستغنى عنه في حال من الأحوال

اعلم : أن جميع ما يلقي العبد في هذه الحياة لا يخلو من نوعين :
أحدهما : هو الذي يوافق هواه .
والآخر : هو الذي لا يوافقه بل يكرهه .

وهو محتاج إلى الصبر في كل واحد منهما ، وهو في جميع الأحوال لا يخلو عن أحد هذين النوعين أو عن كليهما ، فهو إذاً لا يستغنى قط عن الصبر .



النوع الأول : ما يوافق الهوى :

وهو الصحة ، والسلامة ، والمال ، والجاه ، وكثرة العشرة ، واتساع الأسباب ، وكثرة الأتباع والأنصار ، وجميع ملاذ الدنيا ، وما أحوج العبد إلى الصبر على هذه الأمور ؛ فإنه إن لم يضبط نفسه عن الاسترسال والركون إليها ، والانهماك في ملاذها المباحة منها . أخرجته ذلك إلى البطر والطغيان ، فإن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى ، حتى قال بعض العارفين :
(البلاء يصبر عليه المؤمن ، والعوافي لا يصبر عليها إلا صديق)^(١) .

(١) قوت القلوب (١٩٧ / ١) ، والسياق عنده .

وقال سهل : (الصبرُ على العافية أشدُّ من الصبرِ على البلاء) (١) .
ولمَّا فُتِحَتْ أبوابُ الدنيا على الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهمُ . . قالوا : (ابتلينا
بفتنةِ الضراءِ فصبرنا ، وابتلينا بفتنةِ السراءِ فلمْ نصبرْ) (٢) .

ولذلك حذَّرَ اللهُ تعالى عبادهُ من فتنةِ المالِ والزوجِ والولدِ فقال جلَّ
تأوُّه : ﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ ءَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ .
وقال عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنِّ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ
فَاَحْذَرُوهُمْ ﴾ .

وقال صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم : « الولدُ مبخلٌ مجبنٌ محزنةٌ » (٣) .
ولمَّا نظرَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى ابنهِ الحسنِ رضيَ اللهُ عنه
يتعثَّرُ في قميصِهِ . . نزلَ عن المنبرِ واحتضنه ثمَّ قال : « صدقَ اللهُ : ﴿ إِنَّمَا
ءَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ ، إِنِّي لَمَّا رَأَيْتُ ابْنِي يَتَعَثَّرُ . . لَمْ أَمْلِكْ نَفْسِي أَنْ
أُخَذْتُهُ » (٤) .

ففي ذلك عبرةٌ لأولي الأبصارِ .

فالرجلُ كلُّ الرجلِ مَنْ يصبرُ على العافية ، ومعنى الصبرِ عليها : ألا

(١) قوت القلوب (١٩٧/١) .

(٢) رواه الخرائطي في « اعتلال القلوب » (٢١٩) عن معاذ بن جبل رضي الله عنه .

(٣) رواه أبو يعلى في « مسنده » (١٠٣٢) .

(٤) رواه أبو داود (١١٠٩) ، والترمذي (٣٧٧٤) ، والنسائي (١٠٨/٣) ، وابن ماجه

(٣٦٠٠) ، وقالوا : (الحسن والحسين) رضي الله عنهما .

يركن إليها ، ويعلم أن كل ذلك مستودعٌ عنده ، وعسى أن يُسترجعَ على القرب ، وألا يرسلَ نفسه في الفرح بها ، ولا ينهمك في التمتع واللذة واللهو واللعب ، وأن يرعى حقوقَ الله في ماله بالإنفاق ، وفي بدنه ببذل المعونة للخلق ، وفي لسانه ببذل الصدق ، وكذلك في سائر ما أنعم الله به عليه ، وهذا الصبرُ متصلٌ بالشكر ، فلا يتمُّ إلا بالقيام بحقِّ الشكر كما سيأتي .

وإنما كان الصبرُ على السراء أشدَّ لأنه مقرونٌ بالقدرة ، ومن العصمة ألا تقدر ، والصبرُ على الحجامة والفسد إذا تولاه غيرُك أيسرُ من الصبرِ على فسادك نفسك وحجامةك نفسك ، والجائع عند غيبة الطعام أقدرُ على الصبر منه إذا حضرته الأكلة الطيبة اللذيذة وقدر عليها ، فلهذا عظمت فتنة السراء .



النوع الثاني : ما لا يوافق الهوى والطبع :

وذلك لا يخلو : إمّا أن يرتبط باختيار العبد ؛ كالطاعات والمعاصي ، أو لا يرتبط باختياره ؛ كالمصائب والنوائب ، أو لا يرتبط أوّلُه باختياره ولكن له اختيارٌ في إزالته ؛ كالتسقي من المؤذي بالانتقام منه ، فهي ثلاثة أقسام .



القسم الأول : ما يرتبط باختياره :

وهو سائر أفعاله التي توصفُ بكونها طاعةً أو معصيةً ، وهما ضربان :

الضرب الأول : الطاعة : والعبدُ يحتاجُ إلى الصبرِ عليها ، فالصبرُ على الطاعةِ شديدٌ ؛ لأنَّ النفسَ بطبيعتها تنفرُ عن العبوديةِ ، وتشتهي الربوبيةَ ، ولذلك قال بعضُ العارفينَ : ما مِنْ نفسٍ إلا وهي مضمرةٌ ما أظهره فرعونُ مِنْ قوله : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ ، ولكن فرعونُ وجدَ له مجالاً وقبولاً فأظهره ؛ إذ استخفَّ قومه فأطاعوه ، وما مِنْ أحدٍ إلا وهو يدَّعي ذلك مع عبده وخادمه وأتباعه وكلُّ مَنْ هوَ تحتَ قهره وطاعته وإن كان ممتنعاً مِنْ إظهاره ، فإنَّ امتعاضه وغيظه عندَ تقصيرهم في خدمته واستعباده ذلك ليس يصدرُ إلا عن إضرارِ الكبرِ ومنازعةِ الربوبيةِ في رداءِ الكبرياءِ .

فإذا ؛ العبوديةُ شاقَّةٌ على النفسِ مطلقاً ، ثمَّ مِنْ العباداتِ ما يُكرهُ بسببِ الكسلِ كالصلاةِ ، ومنها ما يُكرهُ بسببِ البخلِ كالزكاةِ ، ومنها ما يُكرهُ بسببِهما جميعاً كالحجِّ والجهادِ ، فالصبرُ على الطاعةِ صبرٌ على الشدائدِ ، ويحتاجُ المطيعُ إلى الصبرِ على طاعته في ثلاثِ أحوالٍ :

- الحالة الأولى : قبل الطاعة : وذلك في تصحيحِ النيةِ ، والإخلاصِ ، والصبرِ عن شوائبِ الرياءِ ودواعي الآفاتِ ، وعقدِ العزمِ على الإخلاصِ والوفاءِ ، وذلك مِنْ الصبرِ الشديدِ عندَ مَنْ يعرفُ حقيقةَ النيةِ والإخلاصِ وآفاتِ الرياءِ ومكاييدِ النفسِ ، وقد نبّه عليه صلَّى الله عليه وسلَّم إذ قال :

« إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْ شَيْءٍ مَا نَوَى » (١) ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ .

ولهذا المعنى قدَّم الله تعالى الصبر على العمل فقال تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ .

- الحالة الثانية : حالة العمل : كي لا يغفل عن الله تعالى في أثناء عمله ، ولا يتكاسل عن تحقيق آدابه وسنته ، ويدوم على شرط الأدب إلى آخر العمل ، فيلازم الصبر عن دواعي الفتور إلى الفراغ ، وهذا أيضاً من شذائذ الصبر ، ولعلَّه المراد بقوله تعالى : ﴿ نِعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا أي : صبروا إلى تمام العمل .

- الحالة الثالثة : بعد الفراغ من العمل : إذ يحتاج إلى الصبر عن إفشائه والتظاهر به للسمعة والرياء ، والصبر عن النظر إليه بعين العجب ، وعن كل ما يبطل عمله ويحبط أثره ؛ كما قال تعالى : ﴿ لَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾ ، وكما قال تعالى : ﴿ لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَى ﴾ ، فمن لم يصبر بعد الصدقة عن المن والأذى .. فقد أبطل عمله .

والطاعات تنقسم إلى فرض ونفل ، وهو محتاج إلى الصبر عليهما جميعاً ، وقد جمعهما الله تعالى في قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى ﴾ ، فالعدل هو الفرض ، والإحسان هو النفل ، وإيتاء

(١) رواه البخاري (١) ، ومسلم (١٩٠٧) .

ذي القربى هو المروءة وصلة الرحم ، وكلُّ ذلك يحتاج إلى صبر .

الضربُ الثاني : المعاصي : فما أحوج العبدَ إلى الصبرِ عنها ! وقد جمعَ اللهُ تعالى أنواعَ المعاصي في قوله تعالى : ﴿ وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ﴾ .

وقالَ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « المهاجرُ مَنْ هجرَ السَّوءَ ، والمجاهدُ مَنْ جاهدَ هواه » (١) .

والمعاصي مقتضى باعِثِ الهوى ، وأشدُّ أنواعِ الصبرِ عنِ المعاصي الصبرُ عنِ المعاصي التي صارتْ مألوفةً بالعادةِ ، فإنَّ العادةَ طبيعةٌ خامسةٌ ، فإذا انضافتِ العادةُ إلى الشهوةِ . . تظاهرَ جندانِ مِنْ جنودِ الشيطانِ على جندِ اللهِ تعالى ، فلا يقوى باعِثُ الدينِ على قمعِهما .

ثمَّ إنَّ كانَ ذلكَ الفعلُ ممَّا يتيسَّرُ فعلُهُ . . كانَ الصبرُ عنه أثقلَ على النفسِ ؛ كالصبرِ عنِ معاصي اللسانِ ؛ مِنَ الغيبةِ ، والكذبِ ، والمراءِ ، والثناءِ على النفسِ تعريضاً وتصريحاً ، وأنواعِ المزحِ المؤذي للقلوبِ ، وضروبِ الكلماتِ التي يُقصدُ بها الإضرارُ والاستحقارُ ، وذكرِ الموتى والقدحِ فيهم وفي علومِهِم وسيرِهِم ومناصبِهِم ، فإنَّ ذلكَ في ظاهرِهِ غيبةٌ ،

(١) رواه بنحوه الحاكم في « المستدرک » (١١ / ١) ضمن خطبة له صلى الله عليه وسلم من حديث فضالة رضي الله عنه ، ولفظه : « والمجاهد من جاهد نفسه ، والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب » .

وفي باطنه ثناء على النفس ، فللنفس فيه شهوتان : إحداهما : نفي الغير ،
والأخرى : إثبات نفسه ، وبهما تتم له الربوبية التي في طبعه ، وهي ضد
ما أمر به من العبودية ، والاجتماع الشهوتين وتيسر تحريك اللسان ، ومصير
ذلك معتاداً في المحاورات . . يعسر الصبر عنها ، وهي أكبر الموبقات ، حتى
بطل استنكارها واستقباحها من القلوب ؛ لكثرة تكررها ، وعموم الأنس
بها ، فترى الإنسان يلبس حريراً مثلاً فيستبعد ذلك منه غاية الاستبعاد ،
ويطلق لسانه طول النهار في أعراض الناس ولا يستنكر ذلك مع ما ورد في
الخبر من أن الغيبة أشد من الزنا^(١) ، ومن لم يملك لسانه في المحاورات ،
ولم يقدر على الصبر على ذلك . . فيجب عليه العزلة والانفراد ، فلا ينجيه
غيره ، فالصبر على الانفراد أهون من الصبر على السكوت مع المخالطة .

وتختلف شدة الصبر في آحاد المعاصي باختلاف داعية تلك المعصية في
قوتها وضعفها ، وأيسر من حركة اللسان حركة الخواطر باختلاج
الوساوس ، فلا جرم يبقى حديث النفس في العزلة ، ولا يمكن الصبر عنه
أصلاً ، إلا بأن يغلب على القلب هم آخر في الدين يستغرقه ؛ كمن أصبح
وهمومه هم واحد ، وإلا . . فإن لم يستعمل الفكر في شيء معين . . لم
يتصور فتور الوسواس عنه .



(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٦٤) .

القسم الثاني : ما لا يرتبط هجوؤه باختياره وله اختيار في دفعه :

كما لو أودى بفعل أو قول ، أو جنى عليه في نفسه أو ماله ، فالصبر على ذلك بترك المكافأة تارة يكون واجباً ، وتارة يكون فضيلة .

قال بعض الصحابة : (ما كنا نعد إيمان الرجل إيماناً إذا لم يصبر على الأذى)^(١) .

وقد أخبر الله تعالى عنهم في قوله : ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ .

وقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة مالا ، فقال بعض الأعراب من المسلمين : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله ، فأخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاحمرت وجنتاه ثم قال : « رحم الله أخي موسى ، لقد أودى بأكثر من هذا فصبر »^(٢) .

وقال الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام : ﴿ وَدَعِ أَذْنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ .

(١) هو في « القوت » (١٩٥ / ١) بلفظ : (وقال بعض العلماء : ما كنا نعد إيمان من لم يؤذ فيحتمل الأذى ويصبر عليه إيماناً) .

(٢) رواه البخاري (٣١٥٠) ، ومسلم (١٠٦٢) .

وقال تعالى : ﴿ وَلِتَسْمَعُ مِنْ الَّذِينَ أَوْثُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنْ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾
 أي : تصبروا عن المكافأة ، ولذلك مدح الله تعالى العافين عن حقوقهم في القصاص وغيره فقال تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾ .

وقال صلى الله عليه وسلم : « صل من قطعك ، وأعط من حرمك ، واعف عمن ظلمك » (١) .

ورأيت في الإنجيل : قال عيسى ابن مريم عليه السلام : لقد قيل لكم من قبل (٢) : إن السن بالسن والأنف بالأنف ، وأنا أقول لكم : لا تقاوموا الشر بالشر ، بل من ضرب خدك الأيمن . . فحوّل إليه الخد الأيسر ، ومن أخذ رداءك . . فأعطه إزارك ، ومن سخرّك لتسير معه ميلاً . . فسير معه ميلين .

وكل ذلك أمر بالصبر على الأذى ، فالصبر على أذى الناس من أعلى مراتب الصبر ؛ لأنه يتعاون فيه باعث الدين وباعث الشهوة والغضب جميعاً .



(١) رواه أحمد في « المسند » (١٥٨ / ٤) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٧٢٣) .

(٢) أي : في التوراة ، وذلك مصداق قول الحق جل وعلا : ﴿ وَكَبَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴾ .

القسم الثالث : ما لا يدخل تحت الاختيار أوّلُهُ وآخرُهُ :

كالمصائب ؛ مثل موت الأعرّة ، وهلاك الأموال ، وزوال الصحة بالمرض ، وعمى العين ، وفساد الأعضاء ، وبالجملة سائر أنواع البلاء ، فالصبر على ذلك من أعلى مقامات الصبر ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : (الصبر في القرآن على ثلاثة أوجه : صبر على أداء فرائض الله تعالى ، فله ثلاث مئة درجة ، وصبر عن محارم الله تعالى ، فله ست مئة درجة ، وصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى ، فله تسع مئة درجة)^(١) .

وإنما فضّلت هذه الرتبة مع أنّها من الفضائل على ما قبلها وهي من الفرائض . . لأن كل مؤمن يقدر على الصبر عن المحارم ، فأما الصبر على بلاء الله تعالى . . فلا يقدر عليه إلا الأنبياء ؛ لأنّه بضاعة الصديقين ، فإنّ ذلك شديد على النفس ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلّم : « أسألك من اليقين ما تهوّن به عليّ مصائب الدنيا »^(٢) ، فهذا صبر مستندة حسن اليقين .

وقال أبو سليمان الداراني : (والله ؛ ما نصبر على ما نحب ، فكيف نصبر على ما نكره ؟)^(٣) .

(١) كذا في « القوت » (١٩٨/١) ، وروى الديلمي نحوه مرفوعاً في « مسند الفردوس » (٣٨٤٦) من حديث علي رضي الله عنه .

(٢) رواه الترمذي (٣٥٠٢) ، والنسائي في « الكبرى » (١٠١٦١) ، والحاكم في « المستدرک » (٥٢٨/١) .

(٣) رواه القشيري في « رسالته » (ص ٣٢٥) .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « قال الله عز وجل : إذا وجهت إلى عبدٍ من عبيدي مصيبةً في بدنه أو ماله أو ولده ثم استقبل ذلك بصبرٍ جميل . . استحييتُ منه يومَ القيامةِ أنْ أنصبَ له ميزاناً أو أنشرَ له ديواناً » (١) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « انتظرُ الفرجَ بالصبرِ عبادةً » (٢) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « ما من عبدٍ مؤمنٍ أُصيبَ بمصيبةٍ فقال كما أمره الله عز وجل : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ ، اللهم ؛ أجزني في مصيبتِي وأعقبني خيراً منها . . إلا فعلَ الله ذلكَ بهِ » (٣) .

وقال أنسٌ : حدَّثني رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أنَّ الله عز وجل قال : « يا جبريلُ ؛ ما جزاءُ مَنْ سلبتُ كريمتهِ ؟ قال : سبحانه لا علمَ لنا إلا ما علمتنا ، قال تعالى : جزاؤُهُ الخلودُ في داري ، والنظرُ إلى وجهي » (٤) .

وقال عليه الصلاة والسلامُ : « يقولُ الله عز وجل : إذا ابتليتُ عبدي ببلاءٍ فصبرَ ولمْ يشكُنِي إلى عَوَادِهِ . . أبدلتُهُ لحماً خيراً من لحمِهِ ، ودماً خيراً

(١) رواه الحكيمة الترمذي في « نوارد الأصول » (ص ٢٢٢) ، وابن عدي في « الكامل » (١٥٠ / ٧) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (١٤٦٢) .

(٢) رواه القضاعي في « مسند الشهاب » (٤٦) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٥٣١) .

(٣) رواه مسلم (٩١٨) .

(٤) رواه الطبراني في « الأوسط » (٨٨٥٠) ، وعند البخاري (٥٦٥٣) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « إن الله قال : إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر . . عوضته منهما الجنة » .

مِنْ دَمِهِ ، فَإِنْ أْبْرَأْتُهُ . . أْبْرَأْتُهُ وَلَا ذَنْبَ لَهُ ، وَإِنْ تَوَفَّيْتُهُ . . فَأَلِي رَحْمَتِي » (١) .

وَقَالَ دَاوُودُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : يَا رَبِّ ؛ مَا جَزَاءُ الْحَزِينِ الَّذِي يَصْبِرُ عَلَى الْمَصَائِبِ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِكَ ؟ قَالَ : جَزَاؤُهُ أَنْ أَلْبَسَهُ لِبَاسَ الْإِيمَانِ فَلَا أَنْزَعَهُ عَنْهُ أَبَدًا (٢) .

وَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي خُطْبَتِهِ : (مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى عَبْدٍ نِعْمَةً فَاَنْتَزَعَهَا مِنْهُ وَعَوَّضَهُ مِنْهَا الصَّبْرَ إِلَّا كَانَ مَا عَوَّضَهُ مِنْهَا أَفْضَلَ مِمَّا اَنْتَزَعَ مِنْهُ) ، وَقَرَأَ : ﴿ إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٣) .

وَسُئِلَ الْفَضِيلُ عَنِ الصَّبْرِ فَقَالَ : هُوَ الرِّضَا بِقَضَاءِ اللَّهِ ، قِيلَ : وَكَيْفَ ذَلِكَ ؟ قَالَ : الرَّاظِي لَا يَتَمَنَّى فَوْقَ مَنْزِلَتِهِ (٤) .

وَقِيلَ : حُبَسَ الشُّبْلِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي الْمَارِسْتَانِ ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ جَمَاعَةٌ فَقَالَ : مَنْ أَنْتُمْ ؟ قَالُوا : أَحِبَّاؤُكَ جَاؤُوكَ زَائِرِينَ ، فَأَخَذَ يَرْمِيهِمْ بِالْحِجَارَةِ ، فَأَخَذُوا يَهْرَبُونَ مِنْهُ ، فَقَالَ : لَوْ كُنْتُمْ أَحِبَّائِي . . لَصَبَرْتُمْ عَلَى بَلَائِي (٥) .

(١) رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي « الْمُسْتَدْرَكِ » (٣٤٨ / ١) ، وَابْنُ بَيْهَقٍ فِي « السَّنَنِ الْكُبْرَى » (٣٧٥ / ٣) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعاً ، وَهُوَ عِنْدَ مَالِكٍ فِي « الْمَوْطَأِ » (٩٤٠ / ٢) عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ مَرْسَلاً .

(٢) رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي « الشَّعْبِ » (٨٨٤١) ، وَأَبُو نَعِيمٍ فِي « الْحَلِيَةِ » (٤٧ / ٤) .

(٣) رَوَاهُ أَبُو نَعِيمٍ فِي « الْحَلِيَةِ » (٢٩٨ / ٥) .

(٤) رَوَى ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي « الرِّضَا عَنْ اللَّهِ بِقَضَائِهِ » (١٦) عَنْ الْفَضِيلِ يَقُولُ : (الرَّاظِي لَا يَتَمَنَّى فَوْقَ مَنْزِلَتِهِ) .

(٥) الرِّسَالَةُ الْقَشِيرِيَّةُ (ص ٣٢٨) .

وكان بعض العارفين في جيبه رقعة يخرجها كل ساعة ويطالعها ، وكان فيها : ﴿ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ ^(١) .

ويقال : إن امرأة فتح الموصلي عثرت ، فانقطع ظفرها ، فضحكت ، فقيل لها : أما تجدين الوجع ؟ فقالت : إن لذة ثوابه أزالَتْ عن قلبي مرارة وجعه ^(٢) .

وقال داوود لسليمان عليهما السلام : (يُسْتَدَلُّ عَلَى تَقْوَى الْمُؤْمِنِ بِثَلَاثٍ : حَسَنُ التَّوَكُّلِ فِيمَا لَمْ يَنْلُ ، وَحَسَنُ الرِّضَا فِيمَا قَدْ نَالَ ، وَحَسَنُ الصَّبْرِ فِيمَا قَدْ فَاتَ) ^(٣) .

وقال نبينا صلى الله عليه وسلم : « مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ وَمَعْرِفَةِ حَقِّهِ أَلَا تَشْكُو وَجَعَكَ وَلَا تَذْكُرْ مَصِيبَتَكَ » ^(٤) .

ويروى عن بعض الصالحين أنه خرج يوماً وفي كمه صرّة ، فافتقدتها ،

(١) الرسالة الفشيرية (ص ٣٢٨) ولفظه : وقال بعضهم : كنت بمكة ، فرأيت فقيراً طاف بالبيت ، وأخرج من جيبه رقعة ونظر فيها ومرّ ، فلما كان بالغد . . فعل مثل ذلك ، فترقبته أياماً وهو يفعل مثل ذلك ، فيوماً من الأيام طاف ونظر في الرقعة ، وتباعد قليلاً وسقط ميتاً ، فأخرجت الرقعة من جيبه ، فإذا فيها : ﴿ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ .

(٢) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٥١٩) .

(٣) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٩٦٦) .

(٤) قال الحافظ العراقي : (لم أجده مرفوعاً ، وإنما رواه ابن أبي الدنيا في « المرض والكفارات » [٢٢٣] من رواية سفيان عن بعض الفقهاء قال : من الصبر ألا تحدث بمصيبتك ولا بوجعك ولا تزكي نفسك) . « إتحاف » (٢٩/٩) ، وقول سفيان رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٨٩/٦) أيضاً .

فإذا هي قد أخذت من كمه ، فقال : بارك الله له فيها ، لعله أحوج إليها مني .

وروي عن بعضهم أنه قال : مررت على سالم مولى أبي حذيفة في القتلى - وذلك باليمامة في ردة بني حنيفة - وبه رمق ، فقلت له : أسقيك ماء ؟ فقال : جرتني قليلاً إلى العدو واجعل الماء في الترس فإنني صائم ، فإن عشت إلى الليل . . شربته .

فهكذا كان صبر سالكى طريق الآخرة على بلاء الله تعالى .



فإن قلت : فيماذا تنال درجة الصبر في المصائب وليس الأمر إلى اختياره ، فهو مضطرّ شاء أم أبى ، فإن كان المراد به ألا تكون في نفسه كراهية للمصيبة . . فذلك غير داخل في الاختيار ؟

فاعلم : أنه إنما يخرج عن مقام الصابرين بالجزع ، وشقّ الجيوب ، وضرب الخدود ، والمبالغة في الشكوى ، وإظهار الكآبة ، وتغيير العادة في الملبس والمفرش والمطعم ، وهذه الأمور داخلة تحت اختياره ، فينبغي أن يجتنب جميعها ، ويظهر الرضا بقضاء الله تعالى ، ويبقى مستمراً على عادته ، ويعتقد أن ذلك كان وديعة فاسترجعت ؛ كما روي عن الرّميصاء أمّ سليم رحمها الله أنها قالت : توفي ابن لي وزوجي أبو طلحة غائب ، فقمت فسجّيته في ناحية البيت ، فقدم أبو طلحة ، فقمت فهيأت له إفطاره ، فجعل

يأكلُ ، وقالَ : كيفَ الصَّبِيُّ ؟ فقلتُ : بأحسنِ حالٍ بحمدِ اللهِ ومنه ؛ فإنه لم يكنْ منذُ اشتكى بأسكنَ منه الليلةَ ، ثمَّ تصنَّعتُ له أحسنَ ما كنتُ أتصنَّعُ قبلَ ذلكَ ، حتَّى أَصابَ مِنِّي حاجتُهُ ، ثمَّ قلتُ : ألا تعجبُ مِن جيراننا ؟ قالَ : وما لَهُم ؟ قلتُ : أُعيروا عاريةً ، فلمَّا طُلِبَتْ مِنْهُم واسترجعتُ . . جزعوا ، فقالَ : بئسَ ما صنعوا ، فقلتُ : هذا ابنُكَ كانَ عاريةً مِنَ اللهِ تعالى ، وإنَّ اللهَ قد قبضَهُ إليه ، فحمدَ اللهَ واسترجعَ ، ثمَّ غدا على رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فأخبرَهُ ، فقالَ : « اللهم ؛ باركْ لَهُم في ليلَتِهِم » ، قالَ الراوي^(١) : فلقد رأيتُ لَهُم بعدَ ذلكَ في المسجدِ سبعةً ، كُلُّهُم قد قرؤوا القرآنَ^(٢) .

وروى جابرٌ أَنَّهُ عليه الصلاة والسلامُ قالَ : « رأيتُني دخلتُ الجنةَ ؛ فإذا أنا بالرُّميصاءِ امرأةٍ أبي طلحة »^(٣) .

وقد قيلَ : (الصبرُ الجميلُ هوَ ألا يُعرفَ مَنْ صاحبُ المصيبةِ إذ يشبهُ غيره)^(٤) .

ولا يخرجهُ عن حدِّ الصابرينَ توجُّعُ القلبِ ، ولا فيضانُ العينِ بالدمعِ ؛

(١) وهو عَباية بن رِفاعَة .

(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (١٢٨ / ٢٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥٩ / ٢) ، وأصله عند البخاري (٥٤٧٠) ، ومسلم (٢١٤٤) .

(٣) رواه البخاري (٣٦٧٩) .

(٤) الرسالة القشيرية (ص ٣٢٨) بنحوه .

إذ يكون من جميع الحاضرين لأجل الموت سواءً ، ولأنَّ البكاء توجُّع القلبِ على الميتِ ؛ فإنَّ ذلك مقتضى البشريَّة ، ولا يفارق الإنسانَ إلى الموتِ ، ولذلك لما مات إبراهيمُ ولدُ رسولِ الله صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم . . فاضت عيناهُ ، فقيلَ لهُ : أما نهيتنا عن هذا ؟ فقالَ : « إنَّ هذه رحمةٌ ، وإنَّما يرحمُ اللهُ من عبادهِ الرحماءَ » (١) .

بل ذلك أيضاً لا يخرج عن مقامِ الرضا ، فالمقدم على الفصدِ والحجامةِ راضٍ به وهو متألِّمٌ بسببه لا محالةً ، وقد تفيضُ عينُهُ إذا عظمَ ألمُهُ ، وسيأتي ذلك في كتابِ الرضا إن شاء اللهُ تعالى .

وكتبَ ابنُ أبي نجيعٍ يُعزِّي بعضَ الخلفاءِ فكتبَ : (إنَّ أحقَّ من عرف حقَّ اللهِ تعالى فيما أخذَ منه من عظمِ حقِّ اللهِ تعالى عندهُ فيما أبقاهُ لهُ ، واعلم أنَّ الماضيَ قبلكَ هو الباقي لك ، والباقي بعدك هو المأجورُ فيك ، واعلم أنَّ أجرَ الصابرينَ فيما يُصابونَ به أعظمُ من النعمةِ عليهم فيما يُعافونَ فيه) (٢) .

فإذا ؛ مهما دفعَ الكراهةَ بالتفكُّرِ في نعمةِ اللهِ تعالى عليهِ بالثوابِ . . نالَ درجةَ الصابرينَ .

(١) رواه البخاري (١٣٠٣) ، ومسلم (٢٣١٥) بنحوه ، ووقع هذا القول عندما رفع إليه عليه الصلاة والسلام ابن لابتة له كما هو عند البخاري (١٣٨٤) ، ومسلم (٩٢٣) .

(٢) قوت القلوب (١/١٩٥) .

نعم ، مِنْ كَمَالِ الصَّبْرِ كَتْمَانُ الْمَرْضَى وَالْفَقْرِ وَسَائِرِ الْمَصَائِبِ ، وَقَدْ قِيلَ : (مِنْ كُنُوزِ الْبِرِّ كَتْمَانُ الْمَصَائِبِ وَالْأَوْجَاعِ وَالصَّدَقَةِ)^(١) .

فَقَدْ ظَهَرَ لَكَ بِهَذِهِ التَّقْسِيمَاتِ أَنَّ وَجُوبَ الصَّبْرِ عَامٌّ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ وَالْأَفْعَالِ ، فَإِنَّ الَّذِي كُفِيَ الشَّهَوَاتِ كُلَّهَا وَاعْتَزَلَ وَحْدَهُ . . فلا يَسْتَغْنِي عَنِ الصَّبْرِ عَلَى الْعِزْلَةِ وَالْإِنْفِرَادِ ظَاهِرًا ، وَعَنِ الصَّبْرِ عَنْ وَسَاوِسِ الشَّيْطَانِ بَاطِنًا ، فَإِنَّ اخْتِلَاجَ الْخَوَاطِرِ لَا يَسْكُنُ ، وَأَكْثَرُ جَوْلَانِ الْخَاطِرِ إِنَّمَا يَكُونُ فِي فَائِثٍ لَا تَدَارِكُ لَهُ ، أَوْ فِي مُسْتَقْبَلٍ لَا بَدَأَ وَأَنْ يَحْصَلَ مِنْهُ مَا هُوَ مُقَدَّرٌ ، فَهُوَ كَيْفَمَا كَانَ تَضْيِيعُ زَمَانٍ ، وَآلَةُ الْعَبْدِ قَلْبُهُ وَيَضَاعَتُهُ عَمْرُهُ ، فَإِذَا غَفَلَ الْقَلْبُ فِي نَفْسٍ وَاحِدَةٍ عَنْ ذِكْرِ يَسْتَفِيدُ بِهِ أَنْسَاءَ بِاللَّهِ تَعَالَى ، أَوْ عَنْ فِكْرِ يَسْتَفِيدُ بِهِ مَعْرِفَةَ بِاللَّهِ تَعَالَى لِيَسْتَفِيدَ بِالْمَعْرِفَةِ مَحَبَّةَ اللَّهِ تَعَالَى . . فَهُوَ مَغْبُورٌ ، هَذَا إِنْ كَانَ فِكْرُهُ وَوَسْوَأَتُهُ فِي الْمُبَاحَاتِ مَقْصُورًا عَلَيْهِ ، وَلَا يَكُونُ كَذَلِكَ غَالِبًا ، بَلْ يَتَفَكَّرُ فِي وَجْهِهِ الْحَيْلِ لِقَضَاءِ الشَّهَوَاتِ ؛ إِذْ لَا يَزَالُ يَنَازِعُ كُلَّ مَنْ تَحَرَّكَ عَلَى خِلَافِ غَرَضِهِ فِي جَمِيعِ عَمْرِهِ ، أَوْ مَنْ يَتَوَهَّمُ بِهِ أَنَّهُ يَنَازِعُهُ وَيَخَالِفُ أَمْرَهُ أَوْ غَرَضَهُ بِظُهُورِ أَمَارَةٍ لَهُ مِنْهُ ، بَلْ يَقْدَرُ الْمَخَالَفَةُ مِنْ أَخْلَاصِ النَّاسِ فِي حُبِّهِ ، حَتَّى فِي أَهْلِهِ وَوَلَدِهِ ، وَيَتَوَهَّمُ مَخَالَفَتَهُمْ لَهُ ، ثُمَّ يَتَفَكَّرُ فِي كَيْفِيَةِ زَجْرِهِمْ وَكَيْفِيَةِ قَهْرِهِمْ وَجَوَابِهِمْ عَمَّا يَتَعَلَّلُونَ بِهِ فِي مَخَالَفَتِهِ ، وَلَا يَزَالُ فِي شُغْلٍ دَائِمٍ .

فَلِلشَّيْطَانِ جَنْدَانِ ؛ جَنْدٌ يَطِيرُ ، وَجَنْدٌ يَسِيرُ ، وَالْوَسْوَسُ عِبَارَةٌ عَنْ

(١) رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي « الشَّعْبِ » (٩٥٧٥) ، وَأَبُو نَعِيمٍ فِي « الْحَلِيَّةِ » (١٩٧/٨) مَرْفُوعًا .

حركة جنده الطيَّار ، والشهوة عبارة عن حركة جنده السيَّار ، وهذا لأنَّ الشيطانَ خُلِقَ مِنَ النَّارِ ، وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ، والفَخَّارُ قد اجتمعَ فيه مع النَّارِ الطينُ ، والطينُ طبعُهُ السكونُ ، والنَّارُ طبعُها الحركةُ ، فلا يُتَصَوَّرُ نارٌ مُشْتَعِلَةٌ لا تتحرَّكُ ، بل لا تزالُ تتحرَّكُ بطبيعتها ، وقد كُلفَ الملعونُ المخلوقُ مِنَ النَّارِ أَنْ يطمئنَّ عن حركتهِ ساجداً لما خُلِقَ مِنَ الطينِ ، فأبى واستكبرَ واستعصى ، وعبرَ عن سببِ استعصائه بأن قالَ : ﴿ خَلَقْنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتُكَ مِنْ طِينٍ ﴾ .

فإذا ؛ حيثُ لم يسجدِ الملعونُ لأبينا آدمَ صلواتُ الله عليه وسلامُهُ . . فلا ينبغي أن يُطمعَ في سجوده لأولاده ، ومهما كفَّ عن القلبِ وسواسه وعدوانه ، وطيْرانَه وجولانَه . . فقد أظهرَ انقياده وإذعانَه ، وانقياده بالإذعانِ سجودٌ منه ، فهو رُوحُ السجودِ ، وإنَّما وُضِعَ الجبهةُ على الأرضِ قالبةً وعلامةً الدالةً بالاصطلاحِ عليه ، ولو جُعِلَ وُضِعَ الجبهةُ على الأرضِ علامةً استخفافٍ بالاصطلاحِ . . لتُصَوَّرَ ذلكَ ، كما أنَّ الانبطاحَ بينَ يدي المعظمِ المحترمِ يُرى استخفافاً بالعادةِ .

فلا ينبغي أن يدهشَكَ صدفُ الجوهرِ عن الجوهرِ ، وقالِبُ الروحِ عن الروحِ ، وقشرُ اللبِّ عن اللبِّ ، فتكونَ ممَّنَ قيَّدهُ عالمُ الشهادةِ بالكليةِ عن عالمِ الغيبِ ، وتحقِّقَ أَنَّ الشيطانَ مِنَ المنظَرينَ ، فلا يتواضعُ لك بالكفِّ عن الوسواسِ إلى يومِ الدينِ ، إلا أن تصبَحَ وهمومُك همَّ واحدٌ ، فتشغلَ قلبَكَ باللهِ وحدهُ ، فلا يجدُ الملعونُ مجالاً فيكَ ، فعندَ ذلكَ تكونُ مِنَ عبادِ اللهِ

المخلصين ، الداخلين في الاستثناء عن سلطنة هذا اللعين .

ولا تظنَّ أنه يخلو عنه قلب فارغ ، بل هو سيَّال يجري من ابنِ آدمَ مجرى الدم ، وسيلانه مثلُ الهواءِ في القدح ، فإنَّك إن أردتَ أن يخلو القدحُ عن الهواءِ من غير أن تشغله بالماءِ أو غيره . . فقد طمعتَ في غيرِ مطمع ، بل بقدر ما يخلو من الماءِ يدخل فيه الهواءُ لا محالة ، فكذلك القلبُ المشغولُ بفكرٍ مهمٍّ في الدينِ يخلو عن جولانِ الشياطينِ ، وإلا . . فمن غفلَ عن الله تعالى ولو في لحظةٍ فليس له في تلكَ اللحظة قرينٌ إلا الشيطانُ ، ولذلك قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ اللَّهَ يَغْضُ الشَّابَّ الْفَارِغَ »^(١) ، وهذا لأنَّ الشابَّ إذا تعطلَ عن عملٍ يشغلُ باطنه بمباحٍ يستعينُ به على دينه . . كان ظاهره فارغاً ، ولم يبق قلبه فارغاً ، بل يعيش فيه الشيطانُ ويبضُ ويفرِّخُ ، ثمَّ تزودجُ أفراخه أيضاً وتبيضُ مرةً أخرى وتفرِّخُ ، وهكذا يتوالدُ نسلُ الشيطانِ توالداً أسرعَ من توالدِ سائرِ الحيواناتِ ؛ لأنَّ طبعه من النارِ ، وإذا وجدَ الحلفاءَ اليابسة . . كثرَ توالدهُ ، فلا يزالُ تتوالدُ النارُ من النارِ ، ولا تنقطعُ ألبتهُ ، بل تسري شيئاً فشيئاً على الاتصالِ ، فالشهوةُ في نفسِ

(١) قال الحافظ العراقي : (غريب لم أجده) . « إتحاف » (٣٣ / ٩) ، وروى الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٢٢٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١ / ١٣٠) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : (إني لأكره أن أرى الرجل فارغاً ليس في أمر دنيا ولا آخرة) .

الشاب للشیطان كالحلفاء الیاسة للنار ، وكما لا تبقى النار إذا لم یبق لها قوتٌ وهو الحطبُ . . فلا یبقى للشیطان مجالٌ إذا لم تكن شهوةٌ .

فإذا ؛ إذا تأملت . . علمت أن أعدی عدوك شهوتك ، وهي صفة نفسك ، ولذلك قال الحسین بن منصور الحلاج حين كان یصلبُ وقد سُئل عن التصوف ما هو ؟ فقال : (هي نفسك ، إن لم تشغلها . . شغلتك)^(١) .

فإذا ؛ حقيقة الصبر وكماله الصبر عن كل حركة مذمومة ، وحركة الباطن أولى بالصبر عن ذلك ، وهذا صبرٌ دائمٌ لا یقطعهُ إلا الموت ، نسأل الله حسنَ التوفیق بمنه وكرمه .



(١) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (١٢٨ / ٨) .

بيان دوار الصبر وما يستعان به عليه

اعلم : أنَّ الذي أنزل الداء أنزل الدواء ووعد الشفاء ، فالصبر وإن كان شاقاً أو ممتنعاً فتحصيله يمكن بمعجون العلم والعمل ، فالعلم والعمل هما الأخلاط التي منها تُركب الأدوية لأمراض القلوب كلها ، ولكن يحتاج كلُّ مريض إلى علم آخر وعمل آخر .

وكما أنَّ أقسام الصبر مختلفة فأقسام العلل المانعة منه مختلفة ، وإذا اختلفت العلل .. اختلف العلاج ؛ إذ معنى العلاج مضادة العلة وقمعها ، واستيفاء ذلك ممّا يطول ، ولكننا نعرف الطريق في بعض الأمثلة فنقول :

إذا افتقر إلى الصبر عن شهوة الوقاع مثلاً وقد غلبت عليه الشهوة بحيث ليس يملك معها فرجة ، أو يملك فرجة ولكن ليس يملك عينه ، أو يملك عينه ولكن ليس يملك قلبه ونفسه ؛ إذ لا تزال تحدّثه بمقتضيات الشهوة ، ويصرفه ذلك عن المواظبة على الذكر والفكر والأعمال الصالحة .. فنقول :

قد قدّمنا أنَّ الصبر عبارة عن مصارعة باعث الدين مع باعث الهوى ، وكلُّ متصارعين أردنا أن يغلب أحدهما الآخر فلا طريق لنا فيه إلا بتقوية مَنْ أردنا أن تكون له اليد العليا وتضعيف الآخر ، فلزّمنا ههنا تقوية باعث الدين وتضعيف باعث الشهوة .

فأما باعث الشهوة . . فسيبيل تضعيفه ثلاثة أمور :

أحدها : أن ننظر إلى مادة قوته ، وهي الأغذية الطيبة المحركة للشهوة من حيث نوعها ومن حيث كثرتها ، فلا بد من قطعها بالصوم الدائم مع الاقتصار عند الإفطار على طعام قليل في نفسه ، ضعيف في جنسه ، فيحترز من اللحم والأطعمة المهيجة للشهوة .

والثاني : قطع أسباب المهيجة له في الحال ، فإنه إنما يهيج بالنظر إلى مظان الشهوة ؛ إذ النظر يحرك القلب ، والقلب يحرك الشهوة ، وهذا يحصل بالعزلة ، والاحتراز عن مظان وقوع البصر على الصور المشتهاة ، والفرار منها بالكلية ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « النظر سهم مسموم من سهام إبليس »^(١) ، وهذا سهم يسدده الملعون ولا ترس يمنع منه إلا تغميض الأجفان ، أو الهرب من صوب رميهِ ، فإنه إنما يرمي هذا السهم عن قوس الصور ، فإذا انفتحت عن صوب الصور . . لم يصبك سهمه .

والثالث : تسليّة النفس بالمباح من الجنس الذي تشتبه ، وذلك بالنكاح ، فإن كل ما يشتبه الطبع ففي المباحات من جنسه ما يغني عن المحظورات منه ، وهذا هو العلاج الأنفع في حق الأكثر ، فإن قطع الغذاء يضعف عن سائر الأعمال ، ثم قد لا يقمع الشهوة في حق أكثر الرجال ،

(١) رواه الحاكم في « المستدرک » (٣١٤ / ٤) .

ولذلك قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « عَلَيْكُمْ بِالْبَاءَةِ ، فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ ..
فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ ؛ فَإِنَّ الصَّوْمَ لَهُ وَجَاءٌ » (١) .

فهذه ثلاثة أسباب ، فالعلاجُ الأوَّلُ - وهو قطعُ الطعام - يضاهي قطعَ
العلقِ عن البهيمةِ الجموحِ وعن الكلبِ الضاري ليضعفَ فتسقطَ قُوَّتُهُ ،
والثاني يضاهي تغييبَ اللحمِ عن الكلبِ وتغييبَ الشعيرِ عن البهيمةِ حتَّى
لا تتحرَّكَ بواطنها بسببِ مشاهدتها ، والثالثُ يضاهي تسليتها بشيءٍ قليلٍ ممَّا
يميلُ إليه طبعُها حتَّى يبقى معها مِنَ القوَّةِ ما تصبرُ به على التأديبِ .



وأما تقويةُ باعِثِ الدينِ .. فإنَّما تكونُ بطريقتين :

أحدهما : إطماعُهُ في فوائدِ المجاهدةِ وثمراتها في الدينِ والدنيا ،
وذلك بأنَّ يكثرَ فكرُهُ في الأخبارِ التي أوردناها في فضلِ الصبرِ ، وفي حسنِ
عواقبِهِ في الدنيا والآخرةِ ، وفي الأثرِ أنَّ ثوابَ الصبرِ على المصيبةِ أكثرُ ممَّا
فاتَ (٢) ، وأنَّهُ بسببِ ذلك مغبوطٌ بالمصيبةِ ؛ إذ فاتَهُ ما لا يبقى معه إلا مدَّةُ
الحياةِ ، وحصلَ لَهُ ما يبقى بعدَ موتهِ أبدَ الآبَادِ ، وَمَنْ أَسْلَمَ خَسِيساً في
نَفْسِهِ .. فلا ينبغي أنْ يحزنَ لفواتِ الخسيسِ في الحالِ .

وهذا مِنْ بابِ المعارفِ ، وهو مِنَ الإيمانِ ، فتارةً يضعفُ وتارةً

(١) رواه الضياء في « المختارة » (١٨٥٣) ، والطبراني في « الأوسط » (٨١٩٩) .

(٢) لعله يشير إلى قول ابن عباس رضي الله عنهما : (...) وصبر على المصيبة عند
الصدمة الأولى ، فله تسع مئة درجة) ، وهو مروي في « القوت » (١٩٨ / ١) .

يقوى ، فإن قوي.. قوي باعث الدين ، وهيجه تهيجاً شديداً ، وإن ضعف.. ضعفه ، وإنما قوة الإيمان يُعبر عنها باليقين ، وهو المحرك لعزيمة الصبر ، وأقل ما أوتي الناس اليقين وعزيمة الصبر^(١) .

والثاني : أن يعود هذا باعث مصارعة باعث الهوى تدريجاً ، قليلاً قليلاً ، حتى يدرك لذة الظفر بها ، فيستجريء عليها ، وتقوى مُنته في مصارعيتها ؛ فإن الاعتياد والممارسة للأعمال الشاقة تؤكد القوى التي تصدر منها تلك الأعمال ، ولذلك تزيد قوة الحمّالين والفلاحين والمقاتلين وبالجمله : فقوة الممارسين للأعمال الشاقة تزيد على قوة الخياطين والعطارين والفقهاء والصالحين ، وذلك لأن قواهم لم تتأكد بالممارسة .

فالعلاج الأول يضاهي إطماع المصارع في الخلعة عند الغلبة ، ووعد الكرامة ؛ كما وعد فرعون سحرته عند إغرائه إيّاهم بموسى عليه السلام حيث قال : ﴿وَلَكُمْ إِذَا لِمَنَ الْمُقْرَبِينَ﴾ .

والثاني يضاهي تعويد الصبي الذي يُراد منه المصارعة والمقاتلة بمباشرة أسباب ذلك منذ الصبا حتى يأنس به ، ويستجريء عليه ، وتقوى فيه مُنته ، فمن ترك بالكلية المجاهدة بالصبر.. ضعف فيه باعث الدين ، ولا يقوى على الشهوة وإن ضعف ، ومن عود نفسه مخالفة الهوى.. غلبها مهما أراد .

فهذا منهاج العلاج في جميع أنواع الصبر ، ولا يمكن استيفاءه ، وإنما

(١) قوت القلوب (٩٤ / ١) .

أشدّها كَفُّ الباطنِ عَنْ حديثِ النفسِ ، وإنّما يشتدُّ ذلكَ عَلَى مَنْ تفرَّغَ لَهُ ؛
بأنَّ قمعَ الشهواتِ الظاهرةِ والباطنةِ كُلِّها ، وآثرَ العزلةِ ، وجلسَ للمراقبةِ
والذكرِ والفكرِ ، فإنَّ الوسواسَ لا يزالُ يجاذبُهُ مِنْ جانبٍ إِلَى جانبٍ ، وهذا
لا علاجَ لَهُ ألبتَّةَ إِلَّا قطعُ العلائقِ كُلِّها ظاهراً وباطناً ؛ بالفرارِ عَنِ الأهلِ
والولدِ ، والمالِ والجاهِ ، والرفقاءِ والأصدقاءِ ، والاعتزالِ إِلَى زاويةٍ بعدَ
إحرازِ قَدَرٍ يسيرٍ مِنَ القوتِ ، وبعدَ القناعةِ بِهِ .

ثمَّ كُلُّ ذلكَ لا يكفي ما لَمْ تصرِ الهومُ هَمّاً واحداً ، وهوَ اللهُ تعالى ، ثمَّ
إذا غلبَ ذلكَ عَلَى القلبِ . . فلا يكفي ذلكَ ما لَمْ يَكُنْ لَهُ مجالٌ فِي الفكرِ ،
وسيرٌ بالباطنِ فِي ملكوتِ السماواتِ والأرضِ ، وعجائبِ صنعِ اللهِ تعالى ،
وسائرِ أبوابِ معرفةِ اللهِ تعالى ، حتَّى إذا استولى ذلكَ عَلَى قلبِهِ . . دفعَ
اشتغالهُ بذلكَ محادثةَ^(١) الشيطانِ ووسواسه .

وإنَّ لَمْ يَكُنْ لَهُ سيرٌ بالباطنِ . . فلا ينجيهُ إِلَّا الأورادُ المتواصلةُ المترتبةُ
فِي كُلِّ لحظةٍ ؛ مِنَ القراءةِ ، والأذكارِ ، والصلواتِ ، ويحتاجُ معَ ذلكَ إِلَى
تكليفِ القلبِ الحضورَ ، فإنَّ الفكرَ بالباطنِ هوَ الذي يستغرقُ القلبَ دونَ
الأورادِ الظاهرةِ .

ثمَّ إذا فعلَ كُلَّ ذلكَ . . لَمْ يَسْلَمْ لَهُ مِنَ الأوقاتِ إِلَّا بعضها ؛ إذْ لا يخلو
فِي جميعِ أوقاتهِ عَنْ حوادثٍ تتجدَّدُ فتشغلهُ عَنِ الفكرِ والذكرِ ؛ مِنْ مرضٍ ،

(١) فِي (ن) : (بذلك مجاذبة) بدل (بذلك محادثة) .

وخوف ، وإيذاء من إنسان ، وطغيان من مخالط ؛ إذ لا يستغني عن مخالطة من يعينه في بعض أسباب المعيشة .

فهذا أحد الأنواع الشاغلة .

وأما النوع الثاني فهو ضروري أشد ضرورة من الأول ، وهو اشتغاله بالمطعم والملبس وأسباب المعاش ، فإن تهيئة ذلك أيضاً تحوج إلى شغل إن تولاه بنفسه ، وإن تولاه غيره . . فلا يخلو عن شغل قلب بمن يتولاه ، ولكن بعد قطع العلائق كلها تسلم له أكثر الأوقات إن لم تهجم عليه ملامة أو واقعة ، وفي تلك الأوقات يصفو القلب ، ويتيسر له الفكر ، وينكشف فيه من أسرار الله تعالى في ملكوت السماوات والأرض ما لا يقدر على عشرين عشرينه في زمان طويل لو كان مشغول القلب بالعلائق ، والانتهاه إلى هذا هو أقصى المقامات التي يمكن أن تنال بالاكساب والجهد .

فأما مقادير ما ينكشف ، ومبالغ ما يرد من لطف الله تعالى في الأحوال والأعمال . . فذلك يجري مجرى الصيد ، وهو بحسب الرزق ، فقد يقل الجهد ويجل الصيد ، وقد يطول الجهد ويقل الحظ ، والمعول وراء هذا الاجتهاد على جذبة من جذبات الرحمن ، فإنها توازي أعمال الثقلين ، وليس ذلك باختيار العبد .

نعم ، اختيار العبد في أن يتعرض لتلك الجذبة ؛ بأن يقطع عن قلبه جواذب الدنيا ، فإن المجدوب إلى أسفل سافلين لا ينجذب إلى أعلى

عليين ، وكلُّ منهومٍ بالدنيا فهو منجذبٌ إليها ، فقطعُ العلائقِ الجاذبةِ هو المرادُ بقوله عليه الصلاة والسلامُ : « إِنَّ لِرَبِّكُمْ فِي أَيَّامِ دَهْرِكُمْ نَفَحَاتٍ ، أَلَا فَتَعَرَّضُوا لَهَا »^(١) ، وذلكَ لأنَّ تلكَ النفحاتِ والجذباتِ لها أسبابٌ سماويةٌ ؛ إذ قال اللهُ تعالى : ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ ، وهذا من أعلى أنواعِ الرزقِ ، والأمورُ السماويةُ غائبةٌ عنا ، فلا ندري متى ييسرُ اللهُ أسبابَ الرزقِ ، فما علينا إلا تفريغُ المحلِّ والانتظارُ لنزولِ الرحمةِ وبلوغِ الكتابِ أجله ؛ كالذي يصلحُ الأرضَ وينقيها من الحشيشِ ، ويبتُّ البذرَ فيها ، وكلُّ ذلكَ لا ينفعُهُ إلا بمطرٍ ، ولا يدري متى يقدرُ اللهُ أسبابَ المطرِ ، إلا أنه يثبُّ بفضلِ اللهِ تعالى ورحمته أنه لا يخلي سنةً عن مطرٍ ، فكذلكَ قلماً تخلو سنةٌ وشهرٌ ويومٌ عن جذبةٍ من الجذباتِ ونفحةٍ من النفحاتِ .

فينبغي أن يكونَ العبدُ قد طهرَ القلبَ من حشيشِ الشهواتِ ، وبذرَ فيه بذرَ الإرادةِ والإخلاصِ ، وعرضه لمهابِ رياحِ الرحمةِ ، وكما يقوى انتظارُ الأمطارِ في أوقاتِ الربيعِ وعندَ ظهورِ الغيمِ . . فيقوى انتظارُ تلكَ النفحاتِ في الأوقاتِ الشريفةِ وعند اجتماعِ الهممِ وتساعدِ القلوبِ ؛ كما في يومِ عرفةَ ، ويومِ الجمعةِ ، وأيامِ رمضانَ ؛ فإنَّ الهممَ والأنفاسَ أسبابٌ بحكمِ تقديرِ اللهِ تعالى لاستدراهِ رحمةٍ ، حتَّى تستدرُّ بها الأمطارُ في أوقاتِ الاستسقاءِ ، وهي لاستدراهِ أمطارِ المكاشفاتِ ولطائفِ المعارفِ من خزائنِ

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (٢٣٣ / ١٩) ، وابن عبد البر في « التمهيد » (٣٣٩ / ٥) بنحوه .

الملوكِ أشدُّ مناسبةً منها لاستدرارِ قطراتِ الماءِ واستجرارِ الغيومِ مِنْ أقطارِ الجبالِ والبحارِ .

بلِ الأحوالِ والمكاشفاتِ حاضرةٌ معَكَ في قلبِكَ ، وإنما أَنْتَ مشغولٌ عنها بعلائقِكَ وشهواتِكَ ، فصارَ ذلكَ حجاباً بينَكَ وبينها ، فلا تحتاجُ إلا إلى أَنْ تكسرَ البثقَ^(١) ، ويُرفعَ الحجابُ ، فتشرقُ أنوارُ المعارفِ مِنْ باطنِ القلبِ ، وإظهارُ ماءِ الأرضِ بحفرِ القنَى أسهلُّ وأقربُ مِنْ استنزالِ الماءِ إليها مِنْ مكانٍ بعيدٍ منخفضٍ عنها ، ولكونه حاضراً في القلبِ ومنسياً بالشغلِ عنه سَمَّى اللهُ تعالى جميعَ معارفِ الإيمانِ تذكُّراً ، فقالَ تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ ، وقالَ تعالى : ﴿ وَلِتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ ، وقالَ تعالى : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ .

فهذا هوَ علاجُ الصبرِ عنِ الوسوسِ والشواغلِ ، وهوَ آخرُ درجاتِ الصبرِ .
وإنما الصبرُ عنِ العلائقِ كُلِّها مقدَّمٌ على الصبرِ عنِ الخواطرِ ، قالَ الجنيدُ رحمهُ اللهُ : (المسيرُ مِنَ الدنيا إلى الآخرةِ سهلٌ على المؤمنِ ، وهجرانُ الخلقِ في جنبِ الحقِّ شديدٌ ، والمسيرُ مِنَ النفسِ إلى اللهِ تعالى صعبٌ شديدٌ ، والصبرُ معَ اللهِ أشدُّ)^(٢) .

(١) البثق : اسم الموضع الذي حفره الماء ، واسم للمكان المكسور ، واستعمال هذه اللفظة يناسب قوله : (بل الأحوال والمكاشفات حاضرة معك في قلبك) ، وفي (ب) : (تكسر النفس) .

(٢) رواه القشيري في « رسالته » (ص ٣٢٤) .

فذكر شدة الصبر عن شواغل القلب ، ثم شدة هجران الخلق ، وأشدّ العلائق على النفس علاقة الخلق وحبّ الجاه ؛ فإنّ لذة الرئاسة والغلبة والاستعلاء والاستتباع أغلب اللذات في الدنيا على نفوس العقلاء ، وكيف لا تكون أغلب اللذات ومطلوبها صفة من صفات الله تعالى وهي الربوبية ؟! والربوبية محبوبة ومطلوبة بالطبع للقلب ؛ لما فيه من المناسبة للأمور الربوبية ، وعنه العبارة بقوله تعالى : ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ .

وليس القلب مذموماً على حبّه ذلك ، وإنّما هو مذموماً على غلط وقع له بسبب تغرير الشيطان اللعين المبعّد عن عالم الأمر ، إذ حسده على كونه من عالم الأمر ، فأضله وأغواه ، وكيف يكون مذموماً عليه وهو يطلب سعادة الآخرة ؟! ليس يطلب إلا بقاء لا فناء فيه ، وعزّاً لا ذلّ فيه ، وأمناً لا خوف فيه ، وغنى لا فقر فيه ، وكمالاً لا نقصان فيه ، وهذه كلّها من أوصاف الربوبية ، وليس مذموماً على طلب ذلك ، بل حقّ كلّ عبد أن يطلب ملكاً عظيماً لا آخر له ، وطالب الملك طالب للعلو والعز والكمال لا محالة ، ولكن الملك ملكان :

ملك مشوب بأنواع الآلام ، وملحوق بسرعة الانصرام ، ولكنه عاجل ، وهو في الدنيا .

وملك مخلّد دائم لا يشوبه كدر ولا ألم ، ولا يقطعه قاطع ، ولكنه آجل .

وقد خلق الإنسان عجولاً راغباً في العاجلة ، فجاء الشيطان وتوسّل إليه بواسطة العجلة التي في طبيعته ، فاستغواه بالعاجلة ، وزيّن له الحاضرة ، وتوسّل إليه بواسطة الحمق ، فوعده بالغرور في الآخرة ، ومنّاه مع ملك الدنيا ملك الآخرة ، كما قال عليه الصلاة والسلام : « والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى »^(١) ، فانخدع المخذول بغروره ، واشتغل بطلب عز الدنيا وملكها على قدر إمكانه ، ولم يتدلّ الموفق بحبل غروره ؛ إذ علم مداخل مكره ، فأعرض عن العاجلة ، فعبر عن المخذولين وقيل : ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴾ وتذرون الآخرة .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّكَ هَؤُلَاءِ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْ مَن تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ ذلك مبطلهم من العِلْمِ .

ولما استطار مكر الشيطان في كافة الخلق . . أرسل الله الملائكة إلى الرسل ، فأوحوا إليهم ما تمّ على الخلق من إهلاك العدو وإغوائه ، فاشتغلوا بدعوة الخلق إلى الملك الحقيقي عن الملك المجازي الذي لا أصل له إن سلم ، ولا دوام له أصلاً ، فنادوا فيهم : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَالٌ كَثِيرٌ إِذَا قِيلَ لَكُمُ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَثَأَقْلُبُ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ .

(١) رواه الترمذي (٢٤٥٩) ، وابن ماجه (٤٢٦٠) .

فالتوراة والإنجيل والزيور والفرقان وصحف موسى وإبراهيم وكل كتاب منزل . . ما أنزل إلا لدعوة الخلق إلى الملك الدائم المخلّد ، والمراد منهم أن يكونوا ملوكاً في الدنيا ملوكاً في الآخرة ، أمّا ملك الدنيا . . فبالزهد فيها ، والقناعة باليسير منها ، وأمّا ملك الآخرة . . فبالقرب من الله تعالى بدرك بقاء لا فناء فيه ، وعز لا ذل فيه ، وقرّة عين أخفيت في هذا العالم لا تعلمها نفس من النفوس .

والشيطان يدعوهم إلى ملك الدنيا لعلمه بأن ملك الآخرة يفوت به ؛ إذ الدنيا والآخرة ضربتان ، ولعلمه بأن الدنيا لا تسلم له أيضاً ، ولو كانت تسلم له . . لكان يحسده أيضاً ، ولكن ملك الدنيا لا يخلو عن المنازعات والمكدرات وطول الهموم في التدبيرات ، وكذا سائر أسباب الجاه ، ثم كما تسلم وتم الأسباب ينقضي العمر ، ﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَرَ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَىٰ أَثْنِهَا أَمَرْنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَقَفْ بِالْأَمْسِ ﴾ ، فضرب الله تعالى لها مثلاً فقال : ﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلِ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ ﴾ .

والزهد في الدنيا لما أن كان ملكاً حاضراً . . حسده الشيطان عليه ، فصده عنه ، ومعنى الزهد : أن يملك العبد شهوته وغضبه ، فينقادان لباعث الدين وإشارة الإيمان ، وهذا ملك بالاستحقاق ؛ إذ به يصير صاحبه حراً ، وباستيلاء الشهوة عليه يصير عبداً لفرجه وبطنه وسائر أغراضه ، فيكون

مسخرًا مثل البهيمة ، مملوكًا يستجره زمام الشهوة آخذًا بمُخَنَّقِهِ إلى حيث يريد ويهوى .

فما أعظم اغترار الإنسان ! إذ ظنَّ أنه ينال الملك بأن يصير مملوكًا ، وينال الربوبية بأن يصير عبدًا ! ومثل هذا هل يكون إلا معكوساً في الدنيا ، منكوساً في الآخرة ؟!

ولهذا قال بعض الملوك لبعض الزهاد : هل من حاجة ؟ فقال : كيف أطلب منك حاجة وملكي أعظم من ملكك ، فقال : كيف ؟ قال : من أنت عبده فهو عبد لي ، فقال : كيف ذلك ؟ قال : أنت عبد شهوتك وغضبك وفرجك وبطنك ، وقد ملكت هؤلاء كلهم فهُمْ عبيد لي ^(١) .

فهذا إذاً هو الملك في الدنيا ، وهو الذي يسوق إلى الملك في الآخرة ، فالمنخدعون بغرور الشيطان خسروا الدنيا والآخرة جميعاً ، والذين وفقوا للاشتداد على الصراط المستقيم فازوا بالدنيا والآخرة جميعاً .

فإذا عرفت الآن معنى الملك والربوبية ، ومعنى التسخير والعبودية ، ومدخل الغلط في ذلك ، وكيف تعمية الشيطان وتليسه . . سهل عليك النزوع عن الملك والجاه والإعراض عنهما ، والصبر عند فواتيهما ؛ إذ تصير بتركهما ملكاً في الحال ، وترجوه ملكاً في الآخرة .

(١) وممن حكى عنه هذا بعد عصر المصنف الشيخ الجليل أبو الغيث بن جميل ، انظر « الإرشاد والتطريز » (ص ١٤٢) .

وَمَنْ كُوشِفَ بِهِذِهِ الْأُمُورِ بَعْدَ أَنْ أَلْفَ الْجَاهَ وَأَنْسَرَ بِهِ وَرَسَخَتْ فِيهِ
بِالْعَادَةِ مَبَاشِرَةُ أَسْبَابِهِ.. فلا يكفيه في العلاج مجرد العلم والكشف ، بل
لا بدَّ وأن يضيف إليه العمل ، وعمله في ثلاثة أمور :

أحدها : أن يهربَ عن موضع الجاه كي لا يشاهد أسبابه ، فيعسرَ عليه
الصبرُ مع الأسباب ؛ كما يهربُ مَنْ غلبته الشهوة عن مشاهدة الصور
المحرّكة ، وَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ هَذَا.. فَقَدْ كَفَرَ نِعْمَةَ اللَّهِ تَعَالَى فِي سَعَةِ الْأَرْضِ ؛
إِذْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ﴾ .

الثاني : أن يكلفَ نفسه في أعماله أفعالا تخالف ما اعتاده ، فيبدلُ
التكلفَ بالتبدل ، وزِيَّ الحشمة بزيِّ التواضع ، وكذلك كلَّ هيئة وحالٍ
وفعلٍ في مسكنٍ وملبسٍ ومطعمٍ وقيامٍ وقعودٍ كان يعتاده وفاءً بمقتضى
جاهه ، فينبغي أن يبدلها بنقائضها ، حتَّى يرسخَ باعتياد ذلك ضدَّ ما رسخَ
فيه مِنْ قَبْلُ باعتيادِ ضده ، فلا معنى للمعالجة إلا المضادة .

الثالث : أن يراعي في ذلك التلطفَ والتدرجَ ، فلا ينتقل دفعة واحدة
إلى الطرفِ الأقصى مِنَ التبدل ، فَإِنَّ الطبعَ نفورٌ ، ولا يمكنُ نقله عن أخلاقه
إلا بالتدرج ، فيتركُ البعضَ ويسلِّي نفسه بالبعض ، ثمَّ إذا قنعت نفسه بذلك
البعض .. ابتداءً بتركِ البعضِ مِنْ ذَلِكَ البعضِ ، إلى أن يقنعَ بالبقية ، وهكذا
يفعلُ شيئاً فشيئاً ، إلى أن يجمعَ تلكَ الصفاتِ التي رسخت فيه .

وإلى هذا التدرجِ الإشارةُ بقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنَّ هَذَا الدِّينَ

متين ، فأوغل فيه برفق ، ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله ؛ فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى ^(١) .

والله الإشارة بقوله عليه الصلاة والسلام : « لا تشاؤوا هذا الدين ؛ فإن من يشاؤه يغلبه » ^(٢) .

فإذا ؛ ما ذكرناه في علاج الصبر عن الوسواس وعن الشهوة وعن الجاه .. أضفه إلى ما ذكرناه من قوانين طرق المجاهدة في كتاب رياضة النفس من ربع المهلكات واتخذة دستورك ؛ لتعرف به علاج الصبر في جميع الأقسام التي فصلناها من قبل ؛ فإن تفصيل الآحاد يطول ، ومن راعى التدرج .. ترقى به الصبر إلى حالة يشق عليه الصبر دونه كما كان يشق عليه الصبر معه ، فتعكس أموره ، فيصير ما كان محبوباً عنده ممقوتاً ، وما كان مكروهاً عنده مشرباً هنيئاً لا يصبر عنه ، وهذا لا يعرف إلا بالتجربة والذوق ، وله نظير في العادات ، فإن الصبي يحمل على التعلم في الابتداء قهراً ، فيشق عليه الصبر عن اللعب والصبر مع العلم ، حتى إذا انفتحت بصيرته وأنس بالعلم .. انقلب الأمر ، فصار يشق عليه الصبر عن العلم والصبر على اللعب .

والى هذا يشير ما حكى عن بعض العارفين أنه سأل الشبلي عن الصبر :

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١١٧٨) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٣٦٠٢) .

(٢) رواه البخاري (٣٩) بنحوه .

أَيُّهُ أَشَدُّ ؟ فَقَالَ : الصَّبْرُ فِي اللَّهِ تَعَالَى ، فَقَالَ : لَا ، فَقَالَ : الصَّبْرُ لِلَّهِ ،
قَالَ : لَا ، قَالَ : الصَّبْرُ مَعَ اللَّهِ ، قَالَ : لَا ، قَالَ : فَأَيْشِ ؟ قَالَ : الصَّبْرُ
عَنِ اللَّهِ ، فَصَرَخَ الشَّبْلِيُّ صَرْخَةً كَادَتْ رَوْحُهُ تَتَلَفُ (١) .

وَقَدْ قِيلَ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا ﴾ : (اصبروا
فِي اللَّهِ ، وَصَابِرُوا بِاللَّهِ ، وَرَابِطُوا مَعَ اللَّهِ) (٢) .

وَقِيلَ : (الصَّبْرُ لِلَّهِ عَنَاءٌ) (٣) ، وَالصَّبْرُ بِاللَّهِ بَقَاءٌ ، وَالصَّبْرُ مَعَ اللَّهِ وِفَاءٌ ،
وَالصَّبْرُ عَنِ اللَّهِ جَفَاءٌ (٤) .

وَقَدْ قِيلَ فِي مَعْنَاهُ (٥) :

وَالصَّبْرُ عَنْكَ فَمَذْمُومٌ عَوَاقِبُهُ وَالصَّبْرُ فِي سَائِرِ الْأَشْيَاءِ مَحْمُودٌ
وَقِيلَ أَيْضًا (٦) :

الصَّبْرُ يَجْمَلُ فِي الْمَوَاطِنِ كُلِّهَا إِلَّا عَلَيْكَ فَإِنَّهُ لَا يَجْمَلُ
هَذَا آخِرُ مَا أَرَدْنَا شَرْحَهُ مِنْ عِلْمِ الصَّبْرِ وَأَسْرَارِهِ .



- (١) الخبير عند الطوسي في « اللمع » (ص ٧٦) ، والقشيري في « رسالته » (ص ٣٢٦) .
- (٢) الرسالة القشيرية (ص ٣٢٧) .
- (٣) في غير (ب ، د) : (غنى) بدل (عناء) .
- (٤) الرسالة القشيرية (ص ٣٢٧) .
- (٥) البيت للحلاج . انظر « ذيل تاريخ بغداد » لابن النجار (٨٩ / ١٩) .
- (٦) البيت للشبلي في « ديوانه » (ص ١١٩) .

الشَّطْرُ الثَّانِي مِنَ الْكِتَابِ فِي الشُّكْرِ

وله ثلاثة أركان :

- الركنُ الأوَّلُ : في فضيلةِ الشُّكْرِ وحقيقتهِ ، وأقسامِهِ وأحكامِهِ .
- الركنُ الثاني : في حقيقةِ النعمةِ ، وأقسامِها الخاصَّةِ والعامةِ .
- الركنُ الثالثُ : في بيانِ الأفضلِ مِنَ الصبرِ والشُّكْرِ .

الركن الأول : في نفسِ الشُّكْرِ

بيان فضيلةِ الشُّكْرِ

اعلمُ : أنَّ اللهَ تعالى قرنَ الشُّكْرَ بالذكرِ في كتابِهِ معَ أَنَّهُ قالَ : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ ، فقالَ تعالى : ﴿ فَادْكُرُوا فِي آذَانِكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ .
وقالَ تعالى : ﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَائِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ ﴾ .
وقالَ تعالى : ﴿ وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴾ .
وقالَ تعالى إخباراً عنِ إبليسَ اللعينِ : ﴿ لَا فَعْدَنَ لَّهُمْ صِرْطَكَ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ ،
قيلَ : هوَ طريقُ الشُّكْرِ ^(١) .

(١) قوت القلوب (٢٠٣/١) .

ولعلو رتبة الشكر طعن اللعين في الخلق فقال : ﴿ وَلَا تَحِدْ أَكْثَرَهُمْ شَكْرًا ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ ﴾ .

وقد قطع الله تعالى بالمزيد مع الشكر ولم يستثن فقال تعالى : ﴿ لِّئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ ، واستثنى في خمسة أشياء ؛ في الإغناء ، والإجابة ، والرزق ، والمغفرة ، والتوبة ، فقال تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ ﴾ ، وقال : ﴿ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ ﴾ ، وقال : ﴿ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ ، وقال : ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ ، وقال : ﴿ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ﴾ .

وهو خلق من أخلاق الربوبية ؛ إذ قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾ .

وقد جعل الله الشكر مفتاح كلام أهل الجنة ، فقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ ﴾ ، وقال : ﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .



وأما الأخبار :

فقد قال صلى الله عليه وسلم : « الطاعمُ الشاكرُ بمنزلة الصائم الصابر »^(١) .

(١) رواه الترمذي (٢٤٨٦) ، وابن ماجه (١٧٦٤) .

وروي عن عطاء أنه قال : دخلت على عائشة رضي الله عنها فقلت : أخبرينا بأعجب ما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبكت وقالت : وأي شأنه لم يكن عجباً ؟ ! إنه أتاني ليلة فدخل معي في فراشي - أو قالت : في لحافي - حتى مسّ جلده جلدي ، ثم قال : « يا بنّة أبي بكر ، ذريني أتعبّد لربّي ؟ » ، قالت : قلت : إني أحبّ قربك لكنني أوثر هواك ، فأذنت له ، فقام إلى قربة ماء ، فتوضأ فلم يكثر صبّ الماء ، ثم قام يصلي ، فبكى حتى سالت دموعه على صدره ، ثم ركع فبكى ، ثم سجد فبكى ، ثم رفع رأسه فبكى ، فلم يزل كذلك حتى جاء بلال فأذنه بالصلاة ، فقلت : يا رسول الله ؛ ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر ؟ قال : « أفلا أكون عبداً شكوراً ، ولم لا أفعل وقد أنزل الله تعالى عليّ : ﴿ إِنَّكَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ... ﴾ الآيات ؟ ! » (١) .

وهذا يدلّ على أنّ البكاء ينبغي ألا ينقطع أبداً ، وإلى هذا السرّ يشير ما روي أنه مرّ بعض الأنبياء بحجر صغير يخرج منه ماء كثير ، فتعجب منه ، فأنطقه الله تعالى فقال : منذ سمعت قوله تعالى : ﴿ وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ فأنابني من خوفه ، فسأله أن يجيره من النار ، فأجاره ، ثم رآه بعد مدة

(١) رواه أبو الشيخ في « أخلاق النبي » (٥٢١) ، وابن حبان في « صحيحه » (٦٢٠) ، والقشيري في « رسالته » (ص ٣١٠) ، عن عطاء ومعه عبيد بن عمير رحمهما الله تعالى ، ورواه مختصراً من حديثها رضي الله عنها مسلم (٢٨٢٠) .

مثل ذلك ، فقال : لِمَ تبكي الآن ؟ فقال : ذلك بكاءُ الخوفِ ، وهذا بكاءُ الشكرِ والسرورِ^(١) .

وقلبُ العبدِ كالحجارةِ أَوْ أَشَدُّ قسوةً ، ولا تزولُ قسوتهُ إلا بالبكاءِ في حالِ الخوفِ والشكرِ جميعاً .

وروي عنه صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ : « يُنادي يومَ القيامةِ : ليقيم الحمّادونَ ، فتقومُ زمرةٌ ، فيُصبُّ لهمُ لواءٌ فيدخلونَ الجنةَ » ، قيلَ : ومَن الحمّادونَ ؟ قَالَ : « الذينَ يشكرونَ اللهَ تعالى على كلِّ حالٍ » ، وفي لفظٍ آخرَ : « على السراءِ والضراءِ »^(٢) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « الحمدُ رداءُ الرحمنِ »^(٣) .

وأوحى اللهُ تعالى إلى أيوبَ عليه السلامُ : (إِنِّي رَضِيتُ بالشكرِ مكافأةً مِنْ أُولِيائِي) في كلامٍ طويلٍ^(٤) .

وأوحى اللهُ تعالى إليه أيضاً في صفةِ الصابرينَ : (دَارُهُمْ دَارُ السَّلامِ ،

(١) الرسالة القشيرية (ص ٣١٤) .

(٢) كذا في « القوت » (٢٠٦/١) بالروایتين ، ورواه الطبراني في « الكبير » (١٩/١٢) ، والحاكم في « المستدرک » (٥٠٢/١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦٩/٥) .

(٣) كذا في « القوت » (٢٠٥/١) حيث قال : (وفي الخبر...) ، ورواه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (٢٦/١) عن الضحاك ولم يرفعه ، وتقدم : « الكبرياء رداؤه » .

(٤) قوت القلوب (٢٠٣/١) .

إذا دخلوها . . ألهمتهمُ الشكرَ وهو خيرُ الكلام ، وعندَ الشكرِ أَسْتَزِيدُهُمْ ،
وبالنظرِ إليَّ أَزِيدُهُمْ (١) .

ولمَّا نَزَلَ في الكنوزِ ما نَزَلَ (٢) . . قَالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنه : فَأَيُّ المَالِ
تَتَّخِذُ ؟ فَقَالَ عليه الصلاة والسلامُ : « لِيَتَّخِذَ أَحَدُكُمْ لِسَانًا ذَاكِرًا ، وَقَلْبًا
شَاكِرًا » (٣) ، فَأَمَرَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِاِقْتِنَاءِ القَلْبِ الشَّاكِرِ بدلًا مِنَ المَالِ .
وَقَالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنه : (الشكرُ نصفُ الإِيمانِ) (٤) .



(١) قوت القلوب (٢٠٤ / ١) .

(٢) وهو قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَفْقَهُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ . « إتحاف » (٤٨ / ٩) .

(٣) رواه الترمذي (٣٠٩٤) ، وابن ماجه (١٨٥٦) .

(٤) قوت القلوب (٢٠٣ / ١) .

بيان حدّ شكر وحقّيته

اعلم : أنّ الشكرَ مِنْ جملةِ مقاماتِ السالكينَ ، وهو أيضاً ينتظمُ مِنْ علمٍ وحالٍ وعملٍ ، فالعلمُ هو الأصلُ ، فيورثُ الحالَ ، والحالُ يورثُ العملَ .
أمّا العلمُ : فهو معرفةُ النعمةِ مِنَ المنعمِ ، والحالُ : هو الفرحُ الحاصلُ بإنعامِهِ ، والعملُ : هو القيامُ بما هو مقصودُ المنعمِ ومحبوبُهُ ، ويتعلّقُ ذلكَ العملُ بالقلبِ وبالجوارحِ وباللسانِ ، ولا بدّ مِنْ بيانِ جميعِ ذلكَ ليحصلَ بمجموعِهِ الإحاطةُ بحقيقةِ الشكرِ ، فإنّ كلّ ما قيلَ في حدّ الشكرِ قاصرٌ عن الإحاطةِ بكَمالِ معانيهِ .



فالأصلُ الأوّلُ : العلمُ :

وهو علمٌ بثلاثةِ أمورٍ : بعينِ النعمةِ ، ووجهِ كونها نعمةً في حقِّهِ ، وبذاتِ المنعمِ ووجودِ صفاتِهِ التي بها يتمُّ الإنعامُ ويصدرُ الإنعامُ منه عليه ، فإنّه لا بدّ مِنْ نعمةٍ ومنعمٍ عليه تصلُّ إليه النعمةُ مِنَ المنعمِ بقصدٍ وإرادةٍ ، فهذهِ الأمورُ لا بدّ مِنْ معرفتها ، لهذا في حقِّ غيرِ الله تعالى .

فأمّا في حقِّ الله تعالى . . فلا يتمُّ الإيمانُ إلا بأنَّ يعرفَ أنّ النعمَ كلّها مِنْ الله ، وأنّه هو المنعمُ ، والوسائطُ مسخرونَ مِنْ جهتهِ ، وهذهِ المعرفةُ وراءَ التقديسِ والتوحيدِ ؛ إذ دخلَ التقديسُ والتوحيدُ فيها ، بل الرتبةُ الأولى

في معارف الإيمانِ التقديسُ ، ثمَّ إذا عرفَ ذاتاً مقدسةً.. فيعرفُ أنَّه لا مقدَّسَ إلا واحدٌ ، وما عداه غيرُ مقدَّسٍ ، وهو التوحيدُ ، ثمَّ يعلمُ أنَّ كلَّ ما في العالمِ فهو موجودٌ مِنْ ذلك الواحدِ فقط ، فالكلُّ نعمةٌ منه ، فتقعُ هذه المعرفةُ في الرتبةِ الثالثةِ ؛ إذ ينطوي فيها مع التقديسِ والتوحيدِ كمالُ القدرةِ والانفرادِ بالفعلِ ، وعن هذا عبَّرَ رسولُ الله صَلَّى الله عليه وسلَّم حيثُ قالَ : « مَنْ قالَ : سبحانَ الله.. فلهُ عشرُ حسناتٍ ، ومَنْ قالَ : لا إلهَ إلا اللهُ.. فلهُ عشرونَ حسنةً ، ومَنْ قالَ : الحمدُ لله.. فلهُ ثلاثونَ حسنةً » (١) .

وقالَ عليه الصلاةُ والسلامُ : « أفضلُ الذكرِ لا إلهَ إلا اللهُ ، وأفضلُ الدعاءِ الحمدُ لله » (٢) .

وقالَ عليه الصلاةُ والسلامُ : « ليسَ شيءٌ مِنَ الأذكارِ يُضاعفُ كما يُضاعفُ الحمدُ لله » (٣) .

ولا تظنَّ أنَّ هذه الحسناتِ بإزاءِ تحريكِ اللسانِ بهذه الكلماتِ مِنْ غيرِ حصولِ معانيها في القلبِ ، فسبحانَ الله كلمةٌ تدلُّ على التقديسِ ، ولا إلهَ إلا اللهُ كلمةٌ تدلُّ على التوحيدِ ، والحمدُ لله كلمةٌ تدلُّ على معرفةِ النعمةِ مِنْ

(١) قوت القلوب (٢٠٥/١) .

(٢) رواه الترمذي (٣٣٨٣) ، وابن ماجه (٣٨٠٠) .

(٣) كذا في « القوت » (٢٠٥/١) ، وروى أبو نعيم في « الحلية » (٢٣١/٤) ، والبيهقي في « الشعب » (٤٠٨٣) من كلام إبراهيم النخعي بلفظ : (إن الحمد لله أكثر الكلام تضعيفاً) .

الواحد الحق ، فالحسنات بإزاء هذه المعارف التي هي من أبواب الإيمان واليقين .

واعلم : أن تمام هذه المعرفة ينفي الشرك في الأفعال ، فمن أنعم عليه ملك من الملوك بشيء ؛ فإن رأى لوزيره أو لوكيله دخلاً في تسيير ذلك وإيصاله إليه . . فهو إشراك به في النعمة ، فلا يرى النعمة من الملك من كل وجه ، بل منه بوجه ، ومن غيره بوجه ، فيتوزع فرحها عليهما ، فلا يكون موحداً في حق الملك .

نعم ، لا يغض من توحيد في حق الملك وكمال شكره أن يرى النعمة الواصلة إليه بتوقيعه الذي كتبه بقلمه ، وبالكاغد الذي كتبه عليه ، فإنه لا يفرح بالقلم والكاغد ولا يشكرهما ؛ لأنه لا يثبت لهما دخلاً من حيث هما موجودان بأنفسهما ، بل من حيث هما مسخران تحت قدرة الملك ، وقد يعلم أن الوكيل الموصل والخازن أيضاً مضطربان من جهة الملك في الإيصال ، وأنه لو رد الأمر إليه ولم يكن من جهة الملك إرهاق وأمر جزم يخاف عاقبته . . لما سلم إليه شيئاً ، فإذا عرف ذلك . . كان نظره إلى الخازن الموصل كنظره إلى القلم والكاغد ، فلا يورث ذلك شركاً في توحيد من إضافة النعمة إلى الملك .

وكذلك من عرف الله سبحانه وعرف أفعاله . . علم أن الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره كالقلم مثلاً في يد الكاتب ، وأن الحيوانات التي لها

اختيارٌ مسخراتٌ في نفسٍ اختيارها ، فإنَّ اللهَ هوَ المسلَّطُ للدواعي عليها لتفعلَ شَاءَتْ أَمْ أَبَتْ ؛ كَالخازِنِ المضطَّرِّ الذي لا يجدُ سبيلاً إلى مخالفةِ الملكِ ، ولو خُلِّيَ ونفسه . . لما أعطاك ذرَّةً ممَّا في يده ، فكلُّ مَنْ وصلَ إليك نعمةً مِنَ اللهِ تعالى على يدهِ فهوَ مضطَّرٌّ ؛ إذ سلَّطَ اللهُ تعالى عليه الإرادةَ وهيَّجَ عليه الدواعي ، وألقى في نفسه أن خيره في الدنيا والآخرة في أن يعطيك ما أعطاك ، وأنَّ غرضه المقصودَ عنده في الحالِ والمآلِ لا يحصلُ إلا به ، وبعدَ أن خلقَ اللهُ له هذا الاعتقاد . . فلا يجدُ سبيلاً إلى تركه ، فهوَ إذاً إنَّما يعطيك لغرضٍ نفسه لا لغرضك ، ولو لم يكنْ غرضه في العطاء . . لما أعطاك ، ولو لم يعلمْ أنَّ منفعةً في منفعتك . . لما نفَعَكَ ، فهوَ إذاً إنَّما يطلبُ نفعَ نفسه بنفعك ، فليسَ منعماً عليك ، بل اتخذَكَ وسيلةً إلى نعمةٍ أخرى هوَ يرجوها ، وإنَّما الذي أنعمَ عليك هوَ الذي سخره لك ، وألقى في قلبه مِنَ الاعتقاداتِ والإراداتِ ما صارَ به مضطراً إلى الإيصالِ إليك .

فإنَّ عرفتَ الأمورَ كذلك . . فقد عرفتَ اللهَ وعرفتَ فعله ، وكنتَ موحداً ، وقدرتَ على شكره ، بل كنتَ بهذه المعرفة بمجردها شاكراً .

ولذلك قالَ موسى عليه السلامُ في مناجاته : إلهي ؛ خلقتَ آدمَ بيدك ، وفعلتَ وفعلتَ ، فكيفَ شكرَكَ ؟ فقالَ : علمَ أنَّ كلَّ ذلكَ مِنِّي ، فكانتَ معرفتهُ شكرًا (١) .

(١) كذا في « الرسالة القشيرية » (ص ٣١٣) ، ورواه بنحوه هناد في « الزهد » (٧٧٧) .

فإذا ؛ لا شكرَ إلا بأن تعرفَ أنَّ الكلَّ منه ، فإن خالَجَكَ ريبٌ في هذا .
 لم تكن عارفاً لا بالنعمة ولا بالمنعم ، فلا تفرح بالمنعم وحده بل بغيره ،
 فبنقصان معرفتك ينقصُ حالُك في الفرح ، وبنقصان فرحك ينقصُ عملُك .
 فهذا بيانُ هذا الأصلِ .



الأصلُ الثاني : الحالُ المستمَدَّةُ مِنْ أصلِ المعرفة :

وهو الفرحُ بالمنعمِ مع هيئةِ الخضوعِ والتواضعِ ، وهو أيضاً في نفسه
 شكرٌ على تجرُّده ؛ كما أنَّ المعرفةَ شكرٌ ، ولكن إنَّما يكونُ شكراً إذا كانَ
 جامعاً شروطَهُ ، وشروطُهُ أن يكونَ فرحُك بالمنعم لا بالنعمة ولا بالإنعام ،
 ولعلَّ هذا ممَّا يتعذَّرُ عليك فهمُهُ ، فنضربُ لك مثلاً فنقولُ :

الملكُ الذي يريدُ الخروجَ إلى سفرٍ فأنعمَ بفرسٍ على إنسانٍ يُصوِّرُ أن
 يفرحَ المنعمُ عليه بالفرسِ مِنْ ثلاثةِ أوجهٍ :

أحدها : أن يفرحَ بالفرسِ مِنْ حيثُ إنَّه فرسٌ ، وإنَّه مالٌ يُنتفعُ به ،
 ومركوبٌ يوافقُ غرضَهُ ، وإنَّه جوادٌ نفيسٌ ، وهذا فرحٌ مَنْ لا حظَّ له في
 الملكِ ، بل غرضُهُ الفرسُ فقط ، ولو وجدَهُ في صحراءٍ فأخذه . . لكانَ
 فرحُهُ مثلَ هذا الفرحِ .

الوجهُ الثاني : أن يفرحَ به لا مِنْ حيثُ إنَّه فرسٌ ، بل مِنْ حيثُ يستدلُّ به
 على عنايةِ الملكِ به وشفقتهِ عليه واهتمامِهِ بجانبِهِ ، حتَّى لو وجدَ هذا

الفرس في صحراء أو أعطاه إياه غيرُ الملك . . لكان لا يفرحُ به أصلاً ؛ لاستغنائهِ عنِ الفرسِ أصلاً ، واستحقاقِهِ لَهُ بالإضافةِ إلى مطلوبِهِ مِنْ نيلِ المحلِّ في قلبِ الملكِ .

الوجهُ الثالثُ : أن يفرحَ به ليركبهُ فيخرجَ في خدمةِ الملكِ ويحتملَ مشقةَ السفرِ لينالَ بخدمتهِ رتبةَ القربِ منه ، وربما يرتقي إلى درجةِ الوزارةِ ، مِنْ حيثُ إنَّهُ ليسَ يقنعُ بأن يكونَ محلهُ في قلبِ الملكِ أن يعطيهُ فرساً ويُعنى به هذا القدرَ مِنَ العنايةِ ، بل هو طالبٌ لثلا ينعمَ الملكُ بشيءٍ مِنْ مالهِ على أحدٍ إلا بواسطتهِ ، ثمَّ إنَّهُ ليسَ يريدُ مِنَ الوزارةِ الوزارةَ أيضاً ، بل يريدُ مشاهدةَ الملكِ والقربَ منه ، حتَّى لو خيَّرَ بينَ القربِ دونَ الوزارةِ ، وبينَ الوزارةِ دونَ القربِ . . لاختارَ القربَ .

فهذه ثلاثُ درجاتٍ .

فالأولى لا يدخلُ فيها معنى الشكرِ أصلاً ؛ لأنَّ نظرَ صاحبِها مقصورٌ على الفرسِ ، ففرحُهُ بالفرسِ لا بالمعطي ، وهذا حالُ كلِّ مَنْ فرحَ بنعمةٍ مِنْ حيثُ إنَّها لذيذةٌ وموافقةٌ لغرضِهِ ، فهو بعيدٌ عن معنى الشكرِ .

والثانيةُ داخلةٌ في معنى الشكرِ مِنْ حيثُ إنَّهُ فرحٌ بالمنعمِ ، ولكن لا مِنْ حيثُ ذاته ، بل مِنْ حيثُ معرفةُ عنايتهِ التي تستحقُّه على الإنعامِ في المستقبلِ ، وهذا حالُ الصالحينَ الذينَ يعبدونَ اللهَ ويشكرونَهُ خوفاً مِنْ عقابهِ ورجاءٍ لثوابِهِ .

وإنَّما الشكرُ التامُّ في الفرِحِ الثالثِ ، وهو أن يكونَ فرحُ العبدِ بنعمةِ اللهِ

مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ يَقْدَرُ بِهَا عَلَى التَّوَصُّلِ إِلَى الْقُرْبِ مِنْهُ تَعَالَى وَالتَّزَوُّلِ فِي جَوَارِهِ
وَالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِهِ عَلَى الدَّوَامِ ، فَهَذَا هُوَ الرِّبَّةُ الْعُلْيَا ، وَأَمَارَتُهُ : أَلَا يَفْرَحَ
مِنْ الدُّنْيَا إِلَّا بِمَا هُوَ مَزْرَعَةٌ الْآخِرَةِ وَيَعِينُهُ عَلَيْهَا ، وَيَحْزَنَ بِكُلِّ نِعْمَةٍ تَلْهِيهِ عَنْ
ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَصُدُّهُ عَنْ سَبِيلِهِ ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ يَرِيدُ النِّعْمَةَ لِأَنَّهَا لَذِيذَةٌ كَمَا لَمْ
يَرِدْ صَاحِبُ الْفَرَسِ الْفَرَسَ لِأَنَّهُ جَوَادٌ وَمَهْمَلَجٌ^(١) ، بَلْ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ يَحْمِلُهُ
فِي صَحْبَةِ الْمَلِكِ حَتَّى تَدُومَ مَشَاهِدَتُهُ لَهُ وَقُرْبُهُ مِنْهُ ، وَلِذَلِكَ قَالَ الشَّيْبِيُّ
رَحِمَهُ اللَّهُ : (الشُّكْرُ رُؤْيَا الْمَنْعِمِ لَا رُؤْيَا النِّعْمَةِ)^(٢) .

وَقَالَ الْخَوَّاصُ : (شُكْرُ الْعَامَّةِ عَلَى الْمَطْعَمِ وَالْمَلْبَسِ وَالْمَشْرَبِ ،
وَشُكْرُ الْخَاصَّةِ عَلَى وَارِدَاتِ الْقُلُوبِ)^(٣) .

وهذه رتبة لا يدركها كلٌّ مَنْ انحصرت عنده اللذات في البطن والفرج
ومدركات الحواس من الألوان والأصوات وخلا عن لذة القلب ، فإن القلب
لا يلتذ في حال الصحة إلا بذكر الله تعالى ومعرفته ولقائه ، وإنما يلتذ بغيره إذا
مرض بسوء العادات كما يلتذ بعض الناس بأكل الطين ، وكما يستبشع بعض
المرضى الأشياء الحلوة ويستحلي الأشياء المرة ، كما قيل^(٤) : [من الوافر]

وَمَنْ يَكْ ذَا فَمِ مُرٌّ مَرِيضٍ يَجِدُ مُرّاً بِهِ أَلْمَاءُ الزُّلَالَا

(١) المهملج : لفظة فارسية ، السريع السير في بخترة وحسن .

(٢) الرسالة القشيرية (ص ٣١٢) .

(٣) الرسالة القشيرية (ص ٣١٢) .

(٤) البيت للمتنبي في « ديوانه بشرح العكبري » (٢٢٨ / ٣) .

فإذا ؛ هذا شرطُ الفرحِ بنعمةِ الله تعالى ، فإن لم تكنِ إيل . . فمِعْزَى ، فإن لم يكنْ هذا . . فالدرجةُ الثانيةُ ، أمّا الأولى . . فخارجةٌ عن كلِّ حسابٍ ، فكم من فرقٍ بين مَنْ يريدُ الملكَ للفرسِ ، ومَنْ يريدُ الفرسَ للملكِ ، وكم من فرقٍ بين مَنْ يريدُ اللهَ لينعمَ عليه ، وبين مَنْ يريدُ نعمَ الله ليصلَ بها إليه .



الأصلُ الثالثُ : العملُ بموجبِ الفرحِ الحاصلِ من معرفةِ المنعمِ :

وهذا العملُ يتعلّقُ بالقلبِ ، وباللسانِ ، وبالجوارحِ .

أمّا بالقلبِ . . فقصْدُ الخيرِ وإضمارُهُ لكافةِ الخلقِ .

وأمّا باللسانِ . . فإظهارُ الشكرِ لله تعالى بالتحميداتِ الدالةِ عليه .

وأمّا بالجوارحِ . . فاستعمالُ نعمِ الله تعالى في طاعتهِ ، والتوقي من الاستعانةِ بها على معصيتهِ ، حتّى إن شَكَرَ العَيْنينِ أن تستَرَ كلَّ عيبٍ تراه لمسلمٍ ، وشَكَرَ الأذنينِ أن تستَرَ كلَّ عيبٍ تسمعهُ فيه ، فيدخلُ هذا في جملةِ شكرِ النعمِ لهذهِ الأعضاءِ ، والشكرُ باللسانِ لإظهارِ الرضا عنِ الله تعالى ، وهو مأمورٌ به ؛ فقد قال رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لرجلٍ : « كَيْفَ أَصْبَحْتَ ؟ » فقال : بخيرٍ ، فأعادَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السؤالَ ، فأعادَ الرجلُ الجوابَ ، حتّى قال في الثالثةِ : بخيرٍ أحمدُ اللهَ وأشكرُهُ ، فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « هذا الذي أردتُ منك »^(١) .

(١) كذا في « القوت » (٢٠٤ / ١) ، ورواه ابن المبارك في « الزهد » (٩٣٧) ، والطبراني

في « الدعاء » (١٩٣٩) من حديث فضيل بن عمرو معصلاً بنحوه ، ورواه في =

وكان السلف يتساءلون ويتَّهَمُ استخراجُ الشكرِ لله تعالى ؛ ليكونَ الشاكرُ مطيعاً ، والمستنطقُ له به مطيعاً ، وما كانَ قصدُهُم الرياءَ بإظهارِ الشوقِ ^(١) .

وكلُّ عبدٍ سُئِلَ عن حالٍ فهو بين أن يشكرَ أو يشكوَ أو يسكتَ ، فالشكرُ طاعةٌ ، والشكوى معصيةٌ قبيحةٌ من أهلِ الدين ، وكيف لا تقبحُ الشكوى من ملكِ الملوكِ وبيده كلُّ شيءٍ إلى عبدٍ مملوكٍ لا يقدرُ على شيءٍ ؟ ! فالأحرى بالعبدِ إن لم يحسنِ الصبرَ على البلاءِ والقضاءِ ، وأفضى به الضعفُ إلى الشكوى . . أن تكونَ شكواه إلى الله تعالى ، فهو المبلي وهو القادرُ على إزالةِ البلاءِ ، وذلك العبدُ لمولاهُ عزٌّ ، والشكوى إلى غيره ذلٌّ ، وإظهارُ الذلِّ للعبيدِ مع كونهم أذلاءً قبيحٌ ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَمْثَلُكُمْ ﴾ .

فالشكرُ باللسانِ من جملةِ الشكرِ .

وقد روي أن وفداً قدموا على عمر بن عبد العزيز رحمه الله عليه ، فقام شابٌ ليتكلَّم ، فقال عمرُ : الكبرَ الكبرَ ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ لو كان

= « الأوسط » (٤٣٧٤) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما وليس فيه ذكر تكرار السؤال .

(١) فقد روى مالك في « الموطأ » (٩٦١ / ٢) عن أنس بن مالك أنه سمع عمر بن الخطاب ، وسلم عليه رجل فردَّ عليه السلام ، ثم سأل عمرُ الرجلَ : كيف أنت ؟ فقال : أحمد إليك الله ، فقال عمر : ذلك الذي أردت منك .

الأمرُ بالسَّنِّ .. لكانَ في المسلمينَ مَنْ هوَ أسنُّ منك ، فقالَ : تكلَّم ، فقالَ : لسنا وفدَ الرغبةِ ، ولا وفدَ الرهبةِ ، أمَّا الرغبةُ .. فقد أوصلها إلينا فضلكَ ، وأمَّا الرهبةُ .. فقد آمَنَّا منها عدلكَ ، وإنَّما نحنُ وفدُ الشكرِ ، جئناكَ نشكركَ باللسانِ وننصرفُ^(١) .

فهذه هي أصولُ معاني الشكرِ المحيطةُ بمجموعِ حقيقتهِ .



فأمَّا قولُ مَنْ قالَ : (إنَّ الشكرَ هوَ الاعترافُ بنعمةِ المنعمِ على وجهِ الخضوعِ)^(٢) .. فهوَ نظرٌ إلى فعلِ اللسانِ معَ بعضِ أحوالِ القلبِ .

وقولُ مَنْ قالَ : (إنَّ الشكرَ هوَ الثناءُ على المحسنِ بذكرِ إحسانِهِ)^(٣) نظرٌ إلى مجردِ عملِ اللسانِ .

وقولُ القائلِ : (إنَّ الشكرَ هوَ اعتكافٌ على بساطِ الشهودِ بإدامةِ حفظِ الحرمةِ)^(٤) جامعٌ لأكثرِ معاني الشكرِ ، لا يشدُّ منه إلا عملُ اللسانِ .

وقولُ حمدونِ القصارِ : (شكرُ النعمةِ أنْ ترى نفسك في الشكرِ طفيليتاً)^(٥)

(١) رواه البلاذري في « أنساب الأشراف » (١٣٣ / ٨) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٩٤ / ٦٨) ، وكذا أورده القشيري في « رسالته » (ص ٣١٤) .

(٢) الرسالة القشيرية (ص ٣١١) .

(٣) هذا ما جعله حقيقة الشكر الإمام القشيري في تفسيره « لطائف الإشارات » (٣٨٠ / ١) ، وأورده في « رسالته » (ص ٣١١) .

(٤) وهو شكر القلب كما أورده القشيري في « رسالته » (ص ٣١١) .

(٥) الرسالة القشيرية (ص ٣١١) .

إشارة إلى أن معنى المعرفة من معاني الشكر فقط .

وقول الجنيد : (الشكر ألاً ترى نفسك أهلاً للنعمة)^(١) إشارة إلى حال

من أحوال القلب على الخصوص .

وهؤلاء أقوالهم تعرب عن أحوالهم ، ولذلك تختلف أجوبتهم ولا تتفق ، ثم قد يختلف جواب كل واحد في حالتين ؛ لأنهم لا يتكلمون إلا عن حالتهم الراهنة الغالبة عليهم ؛ اشتغالاً بما يهتفهم عما لا يهتفهم ، أو يتكلمون بما يرونه لاثقاً بحال السائل ؛ اقتصاراً على ذكر القدر الذي يحتاج إليه ، وإعراضاً عما لا يحتاج إليه ، فلا ينبغي أن تظن أن ما ذكرناه طعن عليهم ، وأنه لو عرض عليهم جميع المعاني التي شرحناها . . كانوا ينكرونها ، بل لا يُظن ذلك بعقل أصلاً ، إلا أن تفرض منازعة من حيث اللفظ في أن اسم الشكر في وضع اللسان هل يشمل جميع المعاني ، أم يتناول بعضها مقصوداً وبقية المعاني تكون من توابعها ولوازمها ؟

ولسنا نقصد في هذا الكتاب شرح موضوعات اللغات ، فليس ذلك من

علم طريق الآخرة في شيء ، والله الموفق برحمته .



(١) الرسالة القشيرية (ص ٣١٢) .

بيان طريق كشف الغطاء عن شكر في حق الله تعالى

لعلَّه يخطرُ ببالِكَ : أنَّ الشكرَ إنَّما يُعقلُ في حقِّ منعمٍ هوَ صاحبُ حظٍّ في الشكرِ ، فإنَّنا نشكرُ الملوكَ إمَّا بالثناءِ ليزيدَ محلُّهم في القلوبِ ، ويظهرَ كرمُهم عندَ الناسِ فيزيدَ بهِ صيتُهم وجاهُهم ، أو بالخدمةِ التي هي إعانةٌ لهم على بعضِ أغراضِهِمْ ، أو بالمثولِ بينَ أيديهِمْ في صورةِ الخدمِ وذلكَ تكثيرُ لسوادِهِمْ وسببٌ لزيادةِ جاهِهِمْ ، فلا يكونُ شاكرًا لهم إلا بشيءٍ من ذلكَ ، وهذا محالٌ في حقِّ الله تعالى من وجهين :

أحدهما : أنَّ الله تعالى منزَّهٌ عن الحظوظِ والأغراضِ ، مقدَّسٌ عن الحاجةِ إلى الخدمةِ والإعانةِ ، وعن نشرِ الجاهِ والحشمةِ بالثناءِ والإطراءِ ، وعن تكثيرِ سوادِ الخدمِ بالمثولِ بينَ يديهِ راعياً أو ساجداً ، فشكرُنا إيَّاهُ بما لا حظَّ له فيه يضاھي شكرَنا الملكَ المنعمَ علينا بأنْ ننامَ في بيوتنا أو نسجدَ أو نركعَ ؛ إذ لا حظَّ للملكِ فيه وهو غائبٌ لا علمَ له ، ولا حظَّ لله تعالى في أفعالنا كلها .

والوجهُ الثاني : أنَّ جميعَ ما نتعاطاهُ باختيارنا فهوَ نعمةٌ أخرى علينا من نعمِ الله ؛ إذ جوارحُنا وقدرتُنا وإرادتُنا وداعيتُنا وسائرُ الأمورِ التي هي أسبابُ حركتِنا ونفسُ حركتِنا . من خلقِ الله تعالى ونعمتهِ ، فكيفَ نشكرُ نعمتهِ بنعمتهِ ؟ ولو أعطانا الملكُ مركوباً ، فأخذنا مركوباً آخرَ له وركبناه أو أعطانا الملكَ مركوباً آخرَ . لم يكنِ الثاني شكراً للأوّلِ منّا ، بل كانَ الثاني يحتاجُ

إلى شكرٍ كما يحتاجُ الأوَّلُ ، ثمَّ لا يمكنُ شكرُ الشكرِ إلا بنعمةٍ أخرى ،
فيؤدي ذلكَ إلى أن يكونَ الشكرُ محالاً في حقِّ الله تعالى مِنْ هذينِ
الوجهينِ ، ولسنا نشكُّ في الأمرينِ جميعاً ، والشرعُ قد وردَ بهِ ، فكيفَ
السييلُ إلى الجمعِ ؟

فاعلمُ : أنَّ هذا الخاطرَ قد خطرَ لداوودَ عليه السلامُ ، وكذلك لموسى
عليه السلامُ ، فقالَ : يا ربُّ ، كيفَ أشكركَ وأنا لا أستطيعُ أن أشكرَكَ إلا
بنعمةٍ ثانيةٍ مِنْ نِعَمِكَ ؟ وفي لفظٍ آخرَ : وشكري لكَ نعمةٌ أخرى منكَ
توجبُ عليَّ الشكرَ لكَ ؟ فأوحى اللهُ تعالى إليه : إذا عرفتَ هذا.. فقد
شكرتني ، وفي خبرٍ آخرَ : إذا عرفتَ أنَّ النعمَ مِنِّي .. رضيتُ منكَ بذلكَ
شكراً^(١) .



فإن قلتَ : فقد فهمتُ السؤالَ وفهمي قاصرٌ عن إدراكِ معنَى ما أوحى
إليهمُ ، فإني أعلمُ استحالةَ الشكرِ لله تعالى ، فأما كونُ العلمِ باستحالةِ
الشكرِ شكراً.. فلا أفهمُهُ ، فإنَّ هذا العلمَ أيضاً نعمةٌ منه ، فكيفَ صارَ
شكراً ؟ وكأنَّ الحاصلَ يرجعُ إلى أنَّ مَنْ لم يشكرْ فقد شكرَ ، وأنَّ قبولَ
الخلعةِ الثانيةِ مِنَ الملكِ شكرٌ للخلعةِ الأولى ، والفهمُ قاصرٌ عن دركِ السرِّ
فيه ، فإنَّ أمكنَ تعريفُ ذلكَ بمثالٍ ؛ فهو مهمٌّ في نفسه .

(١) كذا في « القوت » (٢٠٤ / ١) .

فاعلم : أنَّ هذا قرعُ بابٍ مِنَ المعارفِ ، وهي أعلى مِنْ علومِ
المعاملةِ ، ولكنَّا نشيرُ منها إلى ملامحَ ونقولُ : ههنا نظران :

نظرٌ بعينِ التوحيدِ المحضِ : وهذا النظرُ يعرفُكَ قطعاً أنَّه الشاكرُ وأنَّه
المشكورُ ، وأنَّه المحبُّ وأنَّه المحبوبُ ، وهذا نظرٌ مَنْ عرفَ أنَّ ليسَ في
الوجودِ غيرهُ ، وأنَّ كلَّ شيءٍ هالكٌ إلا وجهه ، وأنَّ ذلكَ صدقٌ في كلِّ حالٍ
أزلاً وأبداً ؛ لأنَّ الغيرَ هو الذي يُتصوَّرُ أنَّ يكونَ له بنفسِه قوامٌ ، ومثلُ هذا
الغيرِ لا وجودَ له ، بل هو محالٌّ أن يوجدَ ؛ إذ الموجودُ المحقَّقُ هو القائمُ
بنفسِه ، وما ليسَ له بنفسِه قوامٌ فليسَ له بنفسِه وجودٌ ، بل هو قائمٌ بغيرِه ،
فهو موجودٌ بغيرِه ، فإن اعتبرَ ذاته ولم يُلْتَفَتْ إلى غيرِه . . لم يكنْ له وجودٌ
ألبتةً ، وإنما الموجودُ هو القائمُ بنفسِه ، والقائمُ بنفسِه هو الذي لو قُدِّرَ عدمُ
غيرِه . . بقيَ موجوداً ، فإن كانَ مع قيامِه بنفسِه يقومُ بوجودِه وجودٌ غيرِه . .
فهو قيومٌ ، ولا قيومٌ إلا واحدٌ ، ولا يُتصوَّرُ أن يكونَ غيرُ ذلكَ .

فإذا ؛ ليسَ في الوجودِ غيرُ الحيِّ القيومِ ، وهو الواحدُ الصمدُ ، فإن
نظرتَ مِنْ هذا المقامِ . . علمتَ أنَّ الكلَّ منه مصدرُهُ ، وإليه مرجعُهُ ، فهو
الشاكرُ وهو المشكورُ ، وهو المحبُّ وهو المحبوبُ .

وَمِنْ ههنا نظرَ حبيبُ بنِ أبي حبيبٍ حيثُ قرأ قولهُ تعالى : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ
صَابِرًا نَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ فقال : (واعجبه ! أعطى وأثنى)^(١) ، أشارَ إلى أنَّه

(١) أورده الطرطوشي في « سراج الملوك » (١ / ٣٩٧) .

إذا أثنى على عطائه .. فعلى نفسه أثنى ، فهو المثنى وهو المثنى عليه .

ومن ههنا نظر الشيخ أبو سعيد الميهني حيث قرىء بين يديه قوله تعالى : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ ، فقال : (لعمرى يحبُّهم ، ودعه يحبُّهم ، فبحق يحبُّهم لأنه إنما يحب نفسه) ، أشار به إلى أنه المحب وأنه المحبوب .

وهذه رتبة عالية لا تفهمها إلا بمثال على حدِّ عقلك ، ولا يخفى عليك أنَّ المصنَّف إذا أحبَّ تصنيفه .. فقد أحبَّ نفسه ، والصانع إذا أحبَّ صنْعته .. فقد أحبَّ نفسه ، والوالد إذا أحبَّ ولده من حيث إنه ولده .. فقد أحبَّ نفسه ، وكلُّ ما في الوجود سوى الله فهو تصنيفُ الله وصنْعته ، فإنَّ أحبه فما أحبَّ إلا نفسه ، وإذا لم يحبَّ إلا نفسه .. فبحق أحبَّ ما أحبَّ .

وهذا كلُّه نظرٌ بعين التوحيد ، وتعبُّرُ الصوفيَّة عن هذه الحالة بفناء النفس ؛ أي : فني عن نفسه وعن غير الله ، فلم يرَ إلا الله ، فمن لم يفهم هذا .. ينكرُ عليهم ويقول : كيف فني وطولُ طلبه أربعة أذرع^(١) ، ولعله يأكل في كلِّ يومٍ أرطالاً من الخبز ؟! فيضحكُ عليهم الجهالُ ؛ لجهلهم بمعاني كلامهم ، وضرورة العارفين أن يكونوا ضحكةً للجاهلين ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴾ وإذا مروا بهم يتغامزون ﴿ وإذا أنقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهم ﴾ وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون ﴿ وما أرسلوا عليهم حافظين ﴾ ، ثم بيَّن سبحانه أن ضحك

(١) الظل : الشخص ، يقال : حيا الله ظلك وطلالك ؛ أي : شخصك .

العارفين عليهم غداً أعظمُ إذ قال تعالى : ﴿ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴾ ، وكذلك أمةُ نوحٍ كانوا يضحكون عليه عند اشتغاله بعمل السفينة ، ﴿ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ .
فهذا أحدُ النظرين .



النظرُ الثاني : نظرُ مَنْ لَمْ يَلِغْ إِلَى مَقَامِ الْفَنَاءِ عَنْ نَفْسِهِ : وهؤلاءِ قسمان :

- قسمٌ لَمْ يَثْبَتُوا إِلَّا وَجُودَ أَنْفُسِهِمْ ، وأنكروا أَنْ يَكُونَ لَهُمْ رَبٌّ يُعْبَدُ ، وهؤلاءِ هُمُ الْعَمِيَانُ الْمُنْكَوسُونَ ، وعماهُمْ فِي كِلْتَا الْعَيْنَيْنِ ؛ لِأَنَّهُمْ نَفَوَا مَا هُوَ الثَّابِتُ تَحْقِيقاً ، وَهُوَ الْقَيُّومُ الَّذِي هُوَ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ ، وَقَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ، وَكُلُّ قَائِمٍ فَقَائِمٌ بِهِ ، وَلَمْ يَقْتَصِرُوا عَلَى هَذَا حَتَّى أُثْبِتُوا أَنْفُسَهُمْ ! وَلَوْ عَرَفُوا . . لَعَلِمُوا أَنَّهُمْ مِنْ حَيْثُ هُمْ هُمْ لَا ثَبَاتَ لَهُمْ ، وَلَا وَجُودَ لَهُمْ ، وَإِنَّمَا وَجُودُهُمْ مِنْ حَيْثُ أُوجِدُوا ، لَا مِنْ حَيْثُ وُجِدُوا ، وَفَرَقٌ بَيْنَ الْمَوْجُودِ وَبَيْنَ الْمَوْجِدِ ، وَلَيْسَ فِي الْوُجُودِ إِلَّا مَوْجُودٌ وَاحِدٌ وَمَوْجِدٌ ، فَالْمَوْجُودُ حَقٌّ ، وَالْمَوْجِدُ بَاطِلٌ مِنْ حَيْثُ هُوَ هُوَ ، وَالْمَوْجُودُ قَائِمٌ وَقَيُّومٌ ، وَالْمَوْجِدُ هَالِكٌ وَفَانٍ ، وَإِذَا كَانَ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانِيًا . . فَلَا يَبْقَى إِلَّا وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ .

- الْفَرِيقُ الثَّانِي لَيْسَ بِهِمْ عَمَى ، وَلَكِنْ بِهِمْ عَوْرٌ ، يَبْصُرُونَ بِإِحْدَى

العينين وجود الموجود الحق فلا ينكرونه ، والعين الأخرى إن تمّ عماها . . لم يُبصر بها فناء غير الموجود الحق ، فأثبت وجوداً آخر مع الله تعالى ، وهذا شركٌ تحقيقاً ، كما كان الذي قبله جاحداً تحقيقاً ، فإن جاوز حدَّ العمى إلى العمش . . أدرك تفاوتاً بين الموجودين ، فأثبت عبداً وربّاً ، فبهذا القدر من إثبات التفاوت والنقص من الموجود الآخر دخل في حدّ التوحيد .

ثم إن كحلَّ بصره بما يزيد في أنواره . . فيقلَّ عمشه ، وبقدر ما يزيد في بصره يظهر له نقصان ما أثبتته سوى الله تعالى ، فإن بقي في سلوكه كذلك . . فلا يزال يفضي به النقصان إلى المحو ، فينمحي عن رؤية ما سوى الله ، فلا يرى إلا الله ، فيكون قد بلغ كمال التوحيد .

وحيث أدرك نقصاً في وجود ما سوى الله تعالى . . دخل في أوائل التوحيد ، وبينهما درجات لا تُحصى ، فيها تتفاوت درجات الموحدين .

وكتب الله المنزلة على السنة رسوله هي الكحل الذي به يحصل أنوار الأبصار ، والأنبياء هم الكحالون ، وقد جاؤوا داعين إلى التوحيد المحض ، وترجمته قول : لا إله إلا الله ، ومعناه : ألا يرى إلا الواحد الحق ، والواصلون إلى كمال التوحيد هم الأقلون ، والجاحدون والمشركون أيضاً قليلون ، وهم على الطرف الأقصى المقابل لطرف التوحيد ؛ إذ عبدة الأوثان قالوا : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ ، فكانوا داخلين في أوائل أبواب التوحيد دخولاً ضعيفاً ، والمتوسطون هم

الأكثرُونَ ، وفيهِمْ مَنْ تَنَفَّحُ بِصِيرَتُهُ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ ، فَتَلَوُحُ لَهُ حَقَائِقُ التَّوْحِيدِ وَلَكِنْ كَالْبَرْقِ الْخَاطِفِ لَا يَثْبُتُ ، وَفِيهِمْ مَنْ يَلَوُحُ لَهُ ذَلِكَ وَيَثْبُتُ زَمَانًا وَلَكِنْ لَا يَدُومُ ، وَالِدَوَامُ فِيهِ عَزِيزٌ .

لِكُلِّ إِلَى شَأْنٍ أَلْعَلَّ حَرَكَاتُ وَلَكِنْ عَزِيزٌ فِي الرِّجَالِ ثَبَاتٌ^(١)

وَلَمَّا أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِطَلَبِ الْقُرْبِ ، فَقِيلَ لَهُ : ﴿ وَاقْتَرِبْ ﴾ . . . قَالَ فِي سَجُودِهِ : « أَعُوذُ بِعَفْوِكَ مِنْ عِقَابِكَ ، وَأَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ ، لَا أَحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَيَّ نَفْسِكَ »^(٢) ، فَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أَعُوذُ بِعَفْوِكَ مِنْ عِقَابِكَ » كَلَامٌ عَنْ مَشَاهِدَةِ فِعْلِ اللَّهِ فَقَطْ ، فَكَأَنَّهُ لَمْ يَرَ إِلَّا اللَّهَ وَأَفْعَالَهُ ، فَاسْتَعَاذَ بِفِعْلِهِ مِنْ فِعْلِهِ ، ثُمَّ اقْتَرَبَ فَفَنِيَ عَنْ مَشَاهِدَةِ الْأَفْعَالِ ، وَتَرَقَّى إِلَى مَصَادِرِ الْأَفْعَالِ وَهِيَ الصِّفَاتُ فَقَالَ : « أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ » ، وَهُمَا صِفَتَانِ ، ثُمَّ رَأَى ذَلِكَ نَقْصَانًا فِي التَّوْحِيدِ ، فَاقْتَرَبَ وَرَقِيَ مِنْ مَقَامِ مَشَاهِدَةِ الصِّفَاتِ إِلَى مَشَاهِدَةِ الذَّاتِ فَقَالَ : « أَعُوذُ بِكَ مِنْكَ » ، وَهَذَا فِرَارٌ مِنْهُ إِلَيْهِ مِنْ غَيْرِ رُؤْيَا فِعْلٍ وَصِفَةٍ ، وَلَكِنَّهُ رَأَى نَفْسَهُ فَارًّا مِنْهُ إِلَيْهِ ، وَمُسْتَعِيدًا وَمُثْنِيًا ، فَفَنِيَ عَنْ مَشَاهِدَةِ نَفْسِهِ ؛ إِذْ رَأَى ذَلِكَ نَقْصَانًا ، وَاقْتَرَبَ فَقَالَ : أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَيَّ نَفْسِكَ لَا أَحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ ، فَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لَا أَحْصِي » خَيْرٌ عَنْ فَنَاءِ نَفْسِهِ وَخُرُوجِهِ

(١) البيت من الطويل ، وهو لابن الحَرِيش الأصبهاني . انظر « تَمَّةُ يَتِيمَةِ الدَّهْرِ » (١٣٦/٥) .

(٢) رواه مسلم (٤٨٦) ، والنسائي (٢٨٣/٨) .

عن مشاهدتها^(١) ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « أنت كما أثبتت على نفسك » بيان أنه المثني وهو المثني عليه ، وأن الكل منه بدأ وإليه يعود ، وأن كل شيء هالك إلا وجهه ، فكان أول مقاماته نهاية مقامات الموحدين ، وهو ألا يرى إلا الله تعالى وأفعاله ، فيستعبد بفعل من فعل ، فانظر إلى ماذا انتهت نهايته إذ انتهى إلى الواحد الحق ، حتى ارتفع من نظره ومشاهدته سوى الذات الحق .

ولقد كان صلى الله عليه وسلم لا يرقى من رتبة إلى أخرى إلا ويرى الأولى بعداً بالإضافة إلى الثانية ، فكان يستغفر الله من الأولى ، ويرى ذلك نقصاناً في سلوكه وتقصيراً في مقامه ، وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم : « إنه ليغان على قلبي حتى أستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة »^(٢) ، فكان ذلك لترقيه إلى سبعين مقاماً بعضها فوق البعض ، أوائلها وإن كان مجاوزاً أقصى غايات الخلق ، ولكن كان نقصاناً بالإضافة إلى أواخرها ، فكان استغفاره لذلك .

ولما قالت له عائشة رضي الله عنها : أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فما هذا البكاء في السجود ، وما هذا الجهد الشديد ؟ قال عليه الصلاة والسلام : « أفلا أكون عبداً شكوراً »^(٣) ، معناه : أفلا أكون

(١) في غير (د) : (عن مشاهدته) بدل (عن مشاهدتها) .

(٢) رواه مسلم (٢٧٠٢) ، وأبو داود (١٥١٥) بلفظ : « مئة مرة » بدل « سبعين مرة » ، وعند البخاري (٦٣٠٧) : « والله إنني لأستغفر الله وأتوب في اليوم أكثر من سبعين مرة » .

(٣) رواه مسلم (٢٨٢٠) .

طالباً للمزيد في المقامات ، فإنَّ الشكرَ سببُ الزيادة ، حيثُ قالَ تعالى : ﴿لَيْنَ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ .

وإذ تغلغلنا في بحارِ علومِ المكاشفة.. فلنقبضِ العِنانَ ، ولنرجعْ إلى ما يليقُ بعلومِ المعاملة ، فنقولُ :

الأنبياءُ عليهمُ السلامُ بُعثوا لدعوةِ الخلقِ إلى كمالِ التوحيدِ الذي وصفناه ، ولكنَّ بينهم وبينَ الوصولِ إليه مسافةٌ بعيدةٌ ، وعقباتٌ شديدةٌ ، وإنما الشرعُ كلُّهُ تعريفُ طريقِ سلوكِ تلكَ المسافةِ ، وقطعِ تلكَ العقباتِ ، وعندَ ذلكَ يكونُ النظرُ عنُ مشاهدةٍ أخرى ومقامٍ آخر ، فيظهرُ في ذلكَ المقامِ وبالإضافةِ إلى تلكَ المشاهدةِ الشكرُ والشاكرُ والمشكورُ ، ولا يُعرفُ ذلكَ إلا بمثالٍ ، فأقولُ :

يمكنك أن تفهمَ أنَّ ملكاً من الملوكِ أرسلَ إلى عبدٍ قد بُعدَ منه مراكباً وملبوساً ونقداً ؛ لأجلِ زادهِ في الطريقِ حتَّى يقطعَ به مسافةَ البعدِ ويقربَ منُ حضرةِ الملكِ ، ثمَّ يكونُ لهُ حالتانِ :

إحداهما : أن يكونَ قصدهُ منُ وصولِ العبدِ إلى حضرةِ أن يقومَ ببعضِ مهمَّاته ، ويكونُ لهُ عنايةٌ في خدمتهِ .

والثانيةُ : ألا يكونَ للملكِ حظُّ في العبدِ ، ولا حاجةٌ بهِ إليه ، بلْ حضورُهُ لا يزيدُ في ملكهِ ؛ لأنَّه لا يقوى على القيامِ بخدمةٍ تغني منه غناءً^(١) ، وغيبتهُ

(١) الغناء : النفع .

لا تنقص من ملكه ، فيكون قصده من الإنعام عليه بالمركوب والزاد أن يحظى العبد بالقرب منه ، وينال سعادة حضرته ؛ ليتفجع هو في نفسه ، لا ليتفجع الملك به وبنفقائه . فينزل العباد من الله تعالى في المنزل الثانية ، لا في المنزل الأولى ، فإن الأولى محال على الله ، والثانية غير محال .

ثم اعلم أن العبد لا يكون شاكراً في الحالة الأولى بمجرد الركوب والوصول إلى حضرته ما لم يقم بخدمته التي أرادها الملك منه ، وأما في الحالة الثانية . . فلا يحتاج إلى الخدمة أصلاً ، ومع ذلك يُصور أن يكون شاكراً وكافراً ، ويكون شكره بأن يستعمل ما أنفذه إليه مولاة فيما أحبه لأجله لا لأجل نفسه ، وكفره ألا يستعمل ذلك فيه بأن يعطله أو يستعمله فيما يزيد في بعده منه .

فمهما لبس العبد الثوب وركب المركوب ولم ينفق الزاد إلا في الطريق . . فقد شكر مولاة ؛ إذ استعمل نعمته في محبته ؛ أي : فيما أحبه لعبده لا لنفسه .

وإن ركب واستدبر حضرته ، وأخذ يبعد منه . . فقد كفر نعمته ؛ أي : استعملها فيما كرهه مولاة لعبده لا لنفسه .

وإن جلس ولم يركب لا في طلب القرب ولا في طلب البعد . . فقد كفر أيضاً نعمته ؛ إذ أهملها وعطلها ، وإن كان هذا دون ما لو بعد منه .

فكذلك خلق الله سبحانه الخلق ، وهم في ابتداء فطرتهم يحتاجون إلى

استعمال الشهوات ؛ لتكمل بها أبدانهم ، فيعدون بها عن حضرته ، وإنما سعادتهم في القرب منه ، فأعد لهم من النعم ما يقدرُونَ على استعمالها في نيل درجة القرب ، وعن بعدهم وقربهم عبّر الله تعالى إذ قال : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا... ﴾ الآية .

فإذا ؛ نعم الله تعالى آلات يترقى العبد بها عن أسفل السافلين ، خلقها الله تعالى لأجل العبد حتى ينال بها سعادة القرب ، والله تعالى غني عنه قرب أم بعد ، والعبد فيها بين أن يستعملها في الطاعة فيكون قد شكر لموافقته محبة مولاة ، وبين أن يستعملها في معصيته فقد كفر لاقتحامه ما يكرهه مولاة ولا يرضاه له ، فإن الله لا يرضى لعباده الكفر والمعصية ، وإن عطّلها ولم يستعملها في طاعة ولا معصية . . فهو أيضاً كفران للنعمة بالتضييع ، وكل ما خلق في الدنيا إنما خلق آلة للعبد ليتوصل به إلى سعادة الآخرة ونيل القرب من الله تعالى ، فكل مطيع فهو بقدر طاعته شاكر نعمة الله في الأسباب التي استعملها في الطاعة ، وكل كسلان ترك الاستعمال أو عاص استعملها في طريق البعد . . فهو كافر جارٍ في غير محبة الله تعالى ، فالمعصية والطاعة تشملهما المشيئة ، ولكن لا تشملهما المحبة والكراهة ، بل رُبّ مراد محبوب ، ورُبّ مراد مكروه ، ووراء بيان هذه الدقيقة سرُّ القدر الذي مُنِعَ مِنْ إفشائه ، وقد انحل بهذا الإشكال الأول ، وهو أنه إذا لم يكن للمشكور حظ فكيف يكون الشكر .

وبهذا أيضاً ينحل الإشكال الثاني ، فإننا لم نعين بالشكر إلا انصراف

نعمة الله في جهة محبة الله ، فإذا انصرفت النعمة في جهة المحبة بفعل الله تعالى . . فقد حصل المراد ، وفعلك عطاء من الله تعالى ، ومن حيث أنت محلّه فقد أثنى عليك ، وثناؤه نعمة أخرى منه إليك ، فهو الذي أعطى ، وهو الذي أثنى ، فصار أحد فعليه سبباً لانصراف فعله الثاني إلى جهة محبته ، فله الشكر على كل حال ، وأنت موصوف بأنك شاكراً ؛ بمعنى أنك محلّ المعنى الذي الشكر عبارة عنه ، لا بمعنى أنك موجد له ؛ كما أنك موصوف بأنك عارف وعالم لا بمعنى أنك خالق العلم وموجدّه ولكن بمعنى أنك محلّ له ، وقد وجد بالقدرة الأزليّة فيك ، فوصفك بأنك شاكراً إثبات شيتيّة لك ، وأنت شيءٌ إذ جعلك خالق الأشياء شيئاً ، وإنّما أنت لا شيء إذا كنت أنت ظاناً لنفسك شيتيّة من ذاتك ، فأما باعتبار النظر إلى الذي جعل الأشياء أشياء . . فأنت شيءٌ إذ جعلك شيئاً ، فإن قطع النظر عن جعله . . كنت لا شيء تحقيقاً .

والى هذا أشار صلى الله عليه وسلم حيث قال : « اعملوا ؛ فكلٌ ميسرٌ لما خُلِقَ له » لما قيل له : ففيم العمل إذا كانت الأشياء قد فرغ منها من قبل ؟ (١) .

فبيّن صلى الله عليه وسلم أنّ الخلق مجاري قدرة الله تعالى ومحلّ أفعاله وإن كانوا هم أيضاً من أفعاله ، ولكن بعض أفعاله محلّ للبعض ، وقوله :

(١) رواه البخاري (٤٩٤٩) ، ومسلم (٢٦٤٧) .

« اعملوا » وإن كَانَ جَارِيًا عَلَى لِسَانِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . . فهو فَعْلٌ مِنْ أَعْمَالِهِ ، وهو سَبَبٌ لِعِلْمِ الْخَلْقِ بِأَنَّ الْعَمَلَ نَافِعٌ ، وَعَلِمُهُمْ فَعْلٌ مِنْ أَعْمَالِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَالْعِلْمُ سَبَبٌ لَانْبِعَاثِ دَاعِيَةٍ جَازِمَةٍ إِلَى الْحَرَكَةِ وَالطَّاعَةِ ، وَانْبِعَاثِ الدَّاعِيَةِ أَيْضًا مِنْ أَعْمَالِ اللَّهِ تَعَالَى ، وهو سَبَبٌ لِحَرَكَةِ الْأَعْضَاءِ ، وَهِيَ أَيْضًا مِنْ أَعْمَالِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَلَكِنْ بَعْضُ أَعْمَالِهِ سَبَبٌ لِبَعْضٍ ؛ أَيِ : الْأَوَّلُ شَرْطٌ لِلثَّانِي ؛ كَمَا كَانَ خَلْقُ الْجِسْمِ سَبَبًا لَخَلْقِ الْعَرَضِ ؛ إِذْ لَا يُخْلَقُ الْعَرَضُ قَبْلَهُ ، وَخَلْقُ الْحَيَاةِ شَرْطٌ لَخَلْقِ الْعِلْمِ ، وَخَلْقُ الْعِلْمِ شَرْطٌ لَخَلْقِ الْإِرَادَةِ ، وَالْكُلُّ مِنْ أَعْمَالِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَبَعْضُهَا سَبَبٌ لِلْبَعْضِ ؛ أَيِ : هو شَرْطٌ ، وَمَعْنَى كَوْنِهِ شَرْطًا : أَنَّهُ لَا يَسْتَعِدُّ لِقَبُولِ فَعْلِ الْحَيَاةِ إِلَّا جَوْهَرٌ ، وَلَا يَسْتَعِدُّ لِقَبُولِ الْعِلْمِ إِلَّا ذُو حَيَاةٍ ، وَلَا لِقَبُولِ الْإِرَادَةِ إِلَّا ذُو عِلْمٍ ، فَيَكُونُ بَعْضُ أَعْمَالِهِ سَبَبًا لِلْبَعْضِ بِهَذَا الْمَعْنَى ، لَا بِمَعْنَى أَنَّ بَعْضَ أَعْمَالِهِ مَوْجِدٌ لْغَيْرِهِ ، بَلْ مُمَهِّدٌ شَرْطٌ الْحَصُولِ لْغَيْرِهِ ، وَهَذَا إِذَا حُقِّقَ . . ارْتَقَى إِلَى دَرَجَةِ التَّوْحِيدِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ .



فَإِنْ قُلْتَ : فَلِمَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : اعملوا ، وَإِلَّا . . فَأَنْتُمْ مُعَاقِبُونَ وَمَذْمُومُونَ عَلَى الْعَصْيَانِ ، وَمَا إِلَيْنَا شَيْءٌ ، فَكَيْفَ نَذْمُ وَإِنَّمَا الْكُلُّ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ؟

فَاعْلَمْ : أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى سَبَبٌ لِحَصُولِ اعْتِقَادِ فِينَا ، وَالْاعْتِقَادُ سَبَبٌ لِهَيْجَانِ الْخَوْفِ ، وَهَيْجَانُ الْخَوْفِ سَبَبٌ لِتَرْكِ الشَّهَوَاتِ

والتجافي عن دار الغرور ، وذلك سبب للوصول إلى جوار الله ، والله تعالى
مسبب الأسباب ومرتبها ، فمن سبق له في الأزل السعادة . . يسر له هذه
الأسباب حتى يقوده بسلسلتها إلى الجنة ، ويُعبر عن مثله بأن كلاً ميسر لما خلق
له ، ومن لم يسبق له من الله الحسن . . بعد عن سماع كلام الله تعالى وكلام
رسوله صلى الله عليه وسلم وكلام العلماء ، فإذا لم يسمع . . لم يعلم ، وإذا لم
يعلم . . لم يخف ، وإذا لم يخف . . لم يترك الركون إلى الدنيا ، وإذا لم يترك
الركون إلى الدنيا . . بقي في حزب الشيطان ، وإن جهنم لم وعدهم أجمعين .

فإذا عرفت هذا . . تعجبت من قوم يُقادون إلى الجنة بالسلاسل ، فما
من أحد إلا وهو مقود إلى الجنة بسلاسل الأسباب ، وهو تسليط العلم
والخوف عليه ، وما من مخدول إلا وهو مقود إلى النار بالسلاسل ، وهو
تسليط الغفلة والأمن والغرور عليه ، فالمتقون يُساقون إلى الجنة قهراً ،
والمجرمون يُقادون إلى النار قهراً ، ولا قاهر إلا الله الواحد القهار ،
ولا قادر إلا الملك الجبار ، وإذا انكشف الغطاء عن أعين الغافلين فشهدوا
الأمر كذلك . . سمعوا عند ذلك نداء المنادي : ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ
الْقَهَّارِ ﴾ ، ولقد كان الملك لله الواحد القهار كل يوم لا ذلك اليوم على
الخصوص ، ولكن الغافلون لا يسمعون هذا النداء إلا ذلك اليوم ، فهو نبأ
عمّا يتجدد للغافلين من كشف الأحوال ، حيث لا ينفعهم الكشف ، فنعود
بالله الحليم الكريم من الجهل والعمى ، فإنه أصل أسباب الهلاك .



بيان تميز ما يحب الله تعالى عما يكره

اعلم : أن فعل الشكر وترك الكفران لا يتم إلا بمعرفة ما يحبُّه الله تعالى عما يكرهه ؛ إذ معنى الشكر استعمال نعم الله تعالى في محابته ، ومعنى الكفر نقيض ذلك ؛ إمّا بترك الاستعمال ، أو باستعمالها في مكارهه ، ولتمييز ما يحبُّه الله تعالى عما يكرهه مدركان :

أحدهما : السمع ، ومستنده الآيات والأخبار .

والثاني : بصيرة القلب ، وهو النظر بعين الاعتبار .

وهذا الأخير عسير ، وهو لأجل ذلك عزيز ، فلذلك أرسل الله تعالى الرسل ، وسهل بهم الطريق على الخلق ، ومعرفة ذلك تنبني على معرفة جميع أحكام الشرع في أفعال العباد ، فمن لا يطلع على أحكام الشرع في جميع أفعاله . . لم يمكنه القيام بحق الشكر أصلاً .

وأما الثاني - وهو النظر بعين الاعتبار - فهو إدراك حكمة الله تعالى في كل موجود خلقه ؛ إذ ما خلق شيئاً في العالم إلا وفيه حكمة ، وتحت الحكمة مقصود ، وذلك المقصود هو المحبوب ، وتلك الحكمة منقسمة إلى جلية وخفية .

أما الجلية . . فكالعلم بأن من الحكمة في خلق الشمس أن يحصل بها الفرق بين الليل والنهار ، فيكون النهار معاشاً ، والليل لباساً ، فتيسر

الحركة عند الإبصار ، والسكون عند الاستتار ، فهذا من جملة حكم الشمس لا كل الحكم فيها ، بل فيها حكم أخرى كثيرة دقيقة .

وكذلك معرفة الحكمة في الغيم ونزول الأمطار ، وذلك لانشقاق الأرض بأنواع النبات مطعماً للخلق ومرعى للأنعام ، وقد انطوى القرآن على جملة من الحكم الجليلة التي تحتملها أفهام الخلق دون الدقيق الذي يقصرون عن فهمه ، إذ قال تعالى : ﴿ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ۖ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ۖ فَأَبْتَنَّا فِيهَا حَبًّا ۖ وَنَبَاتًا ۖ ﴾ . الآيات .

وأما الحكمة في سائر الكواكب السيارة منها والثوابت . . فخفية ، لا يطلع عليها أكثر الخلق ، والقدر الذي يحتمله فهم الخلق أنها زينة للسماء ؛ لتستلذ العين بالنظر إليها ، وأشار إليه قوله تعالى : ﴿ إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوْكَبِ ۖ ﴾ ، فجميع أجزاء العالم ؛ سماؤه وكواكبه ، ورياحه وبحاره ، وجباله ومعادنه ، ونباته وحيواناته وأعضاء حيواناته . . لا تخلو ذرة من ذراته عن حكم كثيرة ، من حكمة واحدة إلى عشرة إلى ألف إلى عشرة آلاف .

وكذلك أعضاء الحيوان تنقسم إلى ما يُعرف بحكمتها ؛ كالعلم بأن العين للإبصار لا للبطش ، واليد للبطش لا للمشي ، والرجل للمشي لا للشم ، فأما الأعضاء الباطنة من الأمعاء والمرارة والكلية والكبد ، وآحاد العروق والأعصاب والعضلات ، وما فيها من التجاويف والالتفاف والاشتباك والانحراف والدقة والغلظ ، وسائر الصفات . . فلا يعرف الحكمة فيها كافة الناس ، والذين يعرفونها لا يعرفون منها إلا قدراً يسيراً بالإضافة إلى

ما في علم الله تعالى ، ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ .

فإذا ؛ كلٌّ مَنْ استعمل شيئاً في جهةٍ غيرِ الجهة التي خُلِقَ لها ، ولا على الوجه الذي أُريدَ به . . فقد كفرَ فيه نعمة الله تعالى ، فمَنْ ضربَ غيرهَ بيده . . فقد كفرَ نعمة اليد ؛ إذ خُلِقَتْ له اليدُ ليدفعَ بها عَنْ نفسه ما يهلكُهُ ويأخذُ ما ينفعُهُ ، لا ليهلكَ بها غيره ، وَمَنْ نظرَ إلى وجهٍ غيرِ المحرَّم . . فقد كفرَ نعمة العين ونعمة الشمس ؛ إذ الإبصارُ يتمُّ بهما ، وإنما خُلِقتا ليصرا بهما ما ينفعُهُ في دينه ودنياه ، ويتقي بهما ما يضرُّه فيهما ، فقد استعملهُما في غيرِ ما أُريدتا به ، وهذا لأنَّ المرادَ مِنْ خلقِ الخلقِ وخلقِ الدنيا وأسبابِها أن يستعينَ الخلقُ بهما على الوصولِ إلى الله تعالى ، ولا وصولَ إليه إلا بمحبَّته والأنسِ به في الدنيا ، والتجافي عن غرورِ الدنيا ، ولا أنسَ إلا بدوامِ الذكرِ ، ولا محبةَ إلا بالمعرفةِ الحاصلةِ بدوامِ الفكرِ ، ولا يمكنُ الدوامُ على الذكرِ والفكرِ إلا بدوامِ البدنِ ، ولا يبقى البدنُ إلا بالغذاءِ ، ولا يتمُّ الغذاءُ إلا بالأرضِ والماءِ والهواءِ ، ولا يتمُّ ذلكُ إلا بخلقِ السماءِ والأرضِ ، وخلقِ سائرِ الأعضاء ظاهراً وباطناً ، فكلُّ ذلكَ لأجلِ البدنِ ، والبدنُ مطيئة النفسِ ، والراجعُ إلى الله تعالى هي النفسُ المطمئنة بطولِ العبادَةِ والمعرفة ، فلذلك قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ مَا أُريدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ .

فكلٌّ مَنْ استعملَ شيئاً في غيرِ طاعةِ الله . . فقد كفرَ نعمة الله في جميعِ الأسبابِ التي لا بدَّ منها لإقدامه على تلكِ المعصية ، ولندكرُ مثلاً واحداً للحكمِ الخفية التي ليست في غاية الخفاءِ حتَّى تعتبرَ بها ،

وتعلم طريقة الشكر والكفران على النعم ، فنقول :

مِنْ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى خَلَقَ الدَّرَاهِمَ وَالْدَنَانِيرَ ، وَبِهِمَا قَوَامُ الدُّنْيَا ، وَهُمَا حِجْرَانِ لَا مَنَفْعَةَ فِي أَعْيَانِهِمَا ، وَلَكِنْ يُضْطَرُّ الْخَلْقُ إِلَيْهِمَا مِنْ حَيْثُ إِنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ مُحْتَاجٌ إِلَى أَعْيَانٍ كَثِيرَةٍ فِي مَطْعِمِهِ وَمَلْبَسِهِ وَسَائِرِ حَاجَاتِهِ ، وَقَدْ يَعْجُزُ عَمَّا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ ، وَيَمْلِكُ مَا يَسْتَغْنِي عَنْهُ ؛ كَمَنْ يَمْلِكُ الزَّعْفَرَانَ مَثَلًا وَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى جَمَلٍ يَرْكَبُهُ ، وَمَنْ يَمْلِكُ الْجَمَلَ رَبَّمَا يَسْتَغْنِي عَنْهُ وَيَحْتَاجُ إِلَى الزَّعْفَرَانِ ، فَلَا بَدَّ بَيْنَهُمَا مِنْ مَعَاوِضَةٍ ، وَلَا بَدَّ فِي مَقْدَارِ الْعَوَاضِ مِنْ تَقْدِيرٍ ؛ إِذْ لَا يَبْذُلُ صَاحِبُ الْجَمَلِ جَمَلَهُ بِكُلِّ مَقْدَارٍ مِنَ الزَّعْفَرَانِ ، وَلَا مَنَاسِبَةً بَيْنَ الزَّعْفَرَانِ وَالْجَمَلِ حَتَّى يُقَالَ : يُعْطَى مِنْهُ مِثْلُهُ فِي الْوِزْنِ أَوْ الصُّورَةِ ، وَكَذَا مَنْ يَشْتَرِي دَارًا بِثِيَابٍ ، أَوْ عَبْدًا بِخَفٍّ ، أَوْ دَقِيقًا بِحِمَارٍ ، فَهَذِهِ الْأَشْيَاءُ لَا تَنَاسِبُ فِيهَا ، فَلَا يَدْرِي أَنَّ الْجَمَلَ كَمْ يَسَاوِي بِالزَّعْفَرَانِ ، فَتَتَعَذَّرُ الْمَعَامَلَاتُ جَدًّا ، فَافْتَقَرَتْ هَذِهِ الْأَعْيَانُ الْمُتَنَافِرَةُ الْمُتَبَاعِدَةُ إِلَى مُتَوَسِّطٍ بَيْنَهَا يَحْكُمُ فِيهَا بِحُكْمٍ عَدْلٍ ، فَيَعْرِفُ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ رَتْبَهُ وَمَنْزِلَتَهُ ، حَتَّى إِذَا تَقَرَّرَتِ الْمَنَازِلُ ، وَتَرْتَبَتِ الرُّتَبُ . . . عَلِمَ بَعْدَ ذَلِكَ الْمَسَاوِي مِنْ غَيْرِ الْمَسَاوِي ، فَخَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى الدَّنَانِيرَ وَالْدَّرَاهِمَ حَاكِمِينَ وَمُتَوَسِّطِينَ بَيْنَ سَائِرِ الْأَمْوَالِ ، حَتَّى تُقَدَّرَ الْأَمْوَالُ بِهِمَا ، فَيُقَالُ : هَذَا الْجَمْلُ يَسَاوِي مِثَّةَ دِينَارٍ ، وَهَذَا الْقَدْرُ مِنَ الزَّعْفَرَانِ يَسَاوِي مِثَّةً ، فَهُمَا مِنْ حَيْثُ إِنَّهُمَا مُتَسَاوِيَانِ بِشَيْءٍ وَاحِدٍ إِذَا مُتَسَاوِيَانِ ، وَإِنَّمَا أُمِكنَ التَّعْدِيلُ بِالنَّقْدِينَ إِذْ لَا غَرَضَ فِي أَعْيَانِهِمَا ، وَلَوْ كَانَ فِي أَعْيَانِهِمَا غَرَضٌ . . . رَبَّمَا اقْتَضَى خُصُوصُ ذَلِكَ الْغَرَضِ فِي حَقِّ

صاحب الغرض ترجيحاً ولم يقتض ذلك في حق مَنْ لا غرض له ، فلا ينتظم الأمر ، فإذا ؛ خلقهما الله تعالى لتداولهما الأيدي ، ويكونا حاكمين بين الأموال بالعدل .

ولحكمة أخرى ؛ وهي التوصل بهما إلى سائر الأشياء ؛ لأنهما عزيزان في أنفسهما ، ولا غرض في أعيانهما ، ونسبتهما إلى سائر الأموال نسبة واحدة ، فمن ملكهما فكأنه ملك كل شيء ، لا كمَنْ ملك ثوباً ، فإنه لم يملك إلا الثوب ، فلو احتاج إلى طعام . ربّما لم يرغب صاحب الطعام في الثوب ؛ لأن غرضه في دابة مثلاً ، فاحتيج إلى شيء هو في صورته كأنه ليس بشيء ، وهو في معناه كأنه كل الأشياء ، والشيء إنما تستوي نسبته إلى المختلفات إذا لم تكن له صورة خاصة يفيدُها بخصوصها ؛ كالمرأة لا لون لها وتحكي كل لون ، فكذلك النقد لا غرض فيه وهو وسيلة إلى كل غرض ، وكالحرف لا معنى له في نفسه وتظهر به المعاني في غيره ، فهذه هي الحكمة الثانية .

وفيهما أيضاً حكم يطول ذكرها ، فكل مَنْ عمل فيهما عملاً لا يليق بالحكم بل يخالف الغرض المقصود بالحكم . . فقد كفر نعمة الله تعالى فيهما ، فإذا ؛ مَنْ كنزهما . . فقد ظلمهما وأبطل الحكمة فيهما ، وكان كمَنْ حبس حاكم المسلمين في سجنٍ يمتنع عليه الحكم بسببه ؛ لأنه إذا كنز . . فقد ضيع ، ولا يحصل الغرض المقصود به ، وما خلقت الدراهم والدنانير لزيد خاصة ولا لعمرو خاصة ؛ إذ لا غرض للأحاد في أعيانهما ، فإنهما

حجران ، وإنما خُلقا لتتداولهُما الأيدي فيكونا حاكمين بين الناس ، وعلامة معرفة للمقادير مقومة للمراتب ، فأخبر الله الذين يعجزون عن قراءة الأسطر الإلهية المكتوبة على صفحات الموجودات بخط إلهي لا حرف فيه ولا صوت ، الذي لا يُدرك بعين البصر بل بعين البصيرة . . أخبر هؤلاء العاجزين بكلام سمعوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى وصل إليهم بواسطة الحرف والصوت المعنى الذي عجزوا عن إدراكه فقال : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ .

وكل من اتخذ من الدراهم والدنانير آنية من ذهب أو فضة . . فقد كفر النعمة ، وكان أسوأ حالاً ممن كنز ؛ لأن مثال هذا مثال من استسخر حاكم البلد في الحياكة والكس والاعمال التي يقوم بها أخصاء الناس ، والحبس أهون منه ، وذلك أن الخزف والحديد والرصاص والنحاس تنوب مناب الذهب والفضة في حفظ المائعات عن أن تبدد ، وإنما الأواني لحفظ المائعات ، ولا يكفي الخزف والحديد في المقصود الذي أريد به النقود ، فمن لم ينكشف له هذا . . انكشف له بالترجمة الإلهية وقيل له : « من شرب في آنية من ذهب أو فضة . . فكأنما يجر جر في بطنه نار جهنم » (١) .

وكل من عامل معاملة الربا على الدراهم والدنانير . . فقد كفر النعمة وظلم ؛ لأنهما خُلقا لغيرهما لا لأنفسهما ؛ إذ لا غرض في عينهما ، فإذا

(١) كما روى ذلك البخاري (٥٦٣٤) ، ومسلم (٢٠٦٥) .

اتَّجَرَ فِي عَيْنَيْهِمَا . . فَقَدْ اتَّخَذَهُمَا مَقْصُوداً عَلَى خِلَافِ وَضْعِ الْحِكْمَةِ ؛ إِذْ طَلَبُ النِّقْدِ لَغَيْرِ مَا وُضِعَ لَهُ ظَلَمٌ ، وَمَنْ مَعَهُ ثَوْبٌ وَلَا نَقْدٌ مَعَهُ فَقَدْ لَا يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَشْتَرِيَ بِهِ طَعَاماً وَدَابَّةً ؛ إِذْ رُبَّمَا لَا يُبَاعُ الطَّعَامُ وَالِدَابَّةُ بِالثَّوْبِ ، فَهُوَ مَعْدُورٌ فِي بَيْعِهِ بِنَقْدٍ لِيَحْصَلَ النِّقْدُ فَيَتَوَصَّلَ بِهِ إِلَى مَقْصُودِهِ ، فَإِنَّهُمَا وَسِيلَتَانِ إِلَى الْغَيْرِ ، لَا غَرَضَ فِي أَعْيَانِهِمَا ، وَوَقَعَهُمَا مِنْ الْأَمْوَالِ كَوَقْعِ الْحَرْفِ مِنَ الْكَلَامِ ؛ كَمَا قَالَ النُّحَوِيُّونَ : (إِنَّ الْحَرْفَ هُوَ الَّذِي جَاءَ لِمَعْنَى فِي غَيْرِهِ) ، وَكَمَوْعِ الْمِرَاةِ مِنَ الْأَلْوَانِ ، فَأَمَّا مَنْ مَعَهُ نَقْدٌ فَلَوْ جَازَ لَهُ أَنْ يَبِيعَ بِالنَّقْدِ ، فَيَتَّخِذَ التَّعَامَلَ عَلَى النَّقْدِ غَايَةً عَمَلِهِ . . فَيَبْقَى النَّقْدُ مُتَقَيِّداً عِنْدَهُ ، وَيَنْزِلُ مَنْزِلَةَ الْمَكْنُوزِ ، وَتَقْيِيدُ الْحَاكِمِ وَالْبَرِيدِ الْمَوْصِلِ إِلَى الْغَيْرِ ظَلَمٌ ؛ كَمَا أَنَّ حَبْسَهُ ظَلَمٌ ، فَلَا مَعْنَى لِبَيْعِ النَّقْدِ بِالنَّقْدِ إِلَّا بِاتِّخَاذِ النَّقْدِ مَقْصُوداً لِلدَّخَارِ ، وَهُوَ ظَلَمٌ .



فَإِنْ قُلْتَ : فَلِمَ جَازَ بَيْعُ أَحَدِ النَّقْدَيْنِ بِالْآخَرِ ؟ وَلِمَ جَازَ بَيْعُ الدَّرْهَمِ بِمِثْلِهِ ؟

فَاعْلَمْ : أَنَّ أَحَدَ النَّقْدَيْنِ يَخَالِفُ الْآخَرَ فِي مَقْصُودِ التَّوَصُّلِ ؛ إِذْ قَدْ تَيَسَّرَ التَّوَصُّلُ بِأَحَدِهِمَا مِنْ حَيْثُ كَثْرَتُهُ كَالدِّرَاهِمِ ، فَتَتَفَرَّقُ فِي الْحَاجَاتِ قَلِيلاً قَلِيلاً ، فَفِي الْمَنْعِ مِنْهُ مَا يَشَوِّشُ الْمَقْصُودَ الْخَاصَّ بِهِ ، وَهُوَ تَيَسُّرُ التَّوَصُّلِ بِهِ إِلَى غَيْرِهِ .

وأما بيع الدرهم بدرهم يماثلُهُ . . فجائزٌ مِنْ حيثُ إنَّ ذلكَ لا يرغبُ فيه عاقلٌ مهما تساويا ، ولا يشتغلُ به تاجرٌ ؛ فإنه عبثٌ يجري مجرى وضع الدرهم على الأرضِ وأخذِهِ بعينِهِ ، ونحنُ لا نخافُ على العقلاءِ أن يصرفوا أوقاتهمُ إلى وضعِ الدرهمِ على الأرضِ وأخذِهِ بعينِهِ ، فلا نمنعُ ممَّا لا تشوّفُ النفوسُ إليه ، إلا أن يكونَ أحدهما أجودَ مِنَ الآخرِ ، وذلكَ أيضاً لا يُتصوّرُ جريانه ؛ إذ صاحبُ الجيّدِ لا يرضى بمثله مِنَ الرديءِ ، فلا ينتظمُ العقدُ ، وإن طلبَ زيادةً في الرديءِ . . فذلكَ ممَّا قد يقصدهُ ، فلا جرمَ نمنعُهُ منه ، ونحكمُ بأنَّ جيّدَها ورديئُها سواءٌ ؛ لأنَّ الجودةَ والرداءةَ ينبغي أن يُنظرَ إليهما فيما يُقصدُ في عينِهِ ، وما لا غرضَ في عينِهِ فلا ينبغي أن يُنظرَ إلى مصارفٍ دقيقةٍ في صفاته ، وإنَّما الذي ظلمَ هو الذي ضربَ النقودَ مختلفةً في الجودةِ والرداءةِ حتّى صارتَ مقصودةً في أعيانِها ، وحقُّها ألا تُقصدَ .

وأما إذا باعَ درهماً بدرهمٍ مثله نسيئةً . . فإنَّما لمَ يجرُ ذلكَ لأنَّه لا يقدمُ على هذا إلا مسامحٌ قاصدٌ للإحسانِ ، ففي القرضِ - وهو مكرمةٌ - مندوحةٌ عنه ؛ لتبقى صورةُ المسامحةِ ، فيكونَ له حمداً وأجرٌ ، والمعاوضةُ لا حمداً فيها ولا أجرَ ، فهو أيضاً ظلمٌ ؛ لأنَّه إضاعةٌ خصوصِ المسامحةِ وإخراجُها في معرضِ المعاوضةِ .

وكذلكَ الأطعمةُ خلقتْ ليُغذَّى بها ، أو يُتداوى بها ، فلا ينبغي أن تُصرفَ عن جَهِتِها ، فإنَّ فتحَ بابِ المعاملةِ فيها يوجبُ تقييدها في الأيدي ، ويؤخرُ عنها الأكلَ الذي أريدتْ له ، فما خلِقَ الطعامُ إلا ليؤكلَ ، والحاجةُ

إلى الأطعمة شديدة ، فينبغي أن تُخرجَ عن يد المستغني عنها إلى المحتاج ، ولا يتعامل على الأطعمة إلا مستغني عنها ؛ إذ مَنْ مَعَهُ طعامٌ فَلِمَ لا يأكُلُهُ إِنْ كَانَ محتاجاً ، وَلِمَ يجعلُهُ بضاعةً تجاريةً ؟ وَإِنْ جعلَهُ بضاعةً تجاريةً . . فليبعهُ مِمَّنْ يطلبُهُ بعوضٍ غيرِ الطعامِ ليكونَ محتاجاً إليه ، فأما مَنْ يطلبُهُ بعينِ ذلكِ الطعامِ . . فهو أيضاً مستغني عنه ، ولهذا وردَ في الشرعِ لعنُ المحتكرِ ، ووردَ فيه مِنَ التشديداتِ ما ذكرناه في كتابِ آدابِ الكسبِ .

نعم ، بائعُ البرِّ بالتمرِ معذورٌ ؛ إذ أحدهما لا يسدُّ مسدَّ الآخرِ في الغرضِ ، وبائعُ صاعٍ مِنَ البرِّ بصاعٍ مِنْهُ غيرُ معذورٍ ، ولكنَّهُ عابثٌ ، فلا يحتاجُ إلى منعٍ ؛ لأنَّ النفوسَ لا تسمحُ بهِ إلا عندَ التفاوتِ في الجودةِ ، ومقابلةُ الجيِّدِ بمثلهِ مِنَ الرديءِ لا يرضى بها صاحبُ الجيِّدِ ، وأما جيِّدٌ برديئينِ . . فقد يُقصدُ ، ولكنَّ لَمَّا كانتِ الأطعمةُ مِنَ الضرورياتِ ، والجيِّدُ يساوي الرديءَ في أصلِ الفائدةِ ، ويخالِفُهُ في وجوهِ التَّعَمُّ . . أسقطَ الشرعُ غرضَ التَّعَمُّ فيما هو القوامُ .

فهذه حكمةُ الشرعِ في تحريمِ الربا ، وقد انكشفَ لنا هذا بعدَ الإعراضِ عَنْ فنِّ الفقه^(١) ، فليُحققْ هذا بفنِّ الفقهيَّاتِ ؛ فإنَّهُ أقوى مِنْ جميعِ ما أوردناه في الخلافاتِ .

وبهذا يتضحُ رجحانُ مذهبِ الشافعيِّ رضيَ اللهُ عنه في التخصيصِ

(١) وذلك عند خروجه من دار السلام ببغداد . « إتحاف » (٦٨ / ٩) .

بالأطعمة دون المكيلات ، إذ لو دخل الجص فيه . . . لكانت الثياب والدواب أولى بالدخول ، ولولا الملح . . . لكان مذهب مالك رحمة الله عليه أقوم المذاهب فيه ؛ إذ خصصه بالأقوات ، ولكن كل معنى يراعاه الشرع فلا بد أن يضبط بحد ، وتحديد هذا كان ممكناً بالقوت ، وكان ممكناً بالمطعوم ، فرأى الشرع التحديد بجنس المطعوم أخرى لكل ما هو ضرورة البقاء ، وتحديدات الشرع قد تحيط بأطراف لا يقوى فيها أصل المعنى الباعث على الحكم ، ولكن التحديد يقع كذلك بالضرورة ، ولو لم يحد . . . لتحير الخلق في تتبع جوهر المعنى مع اختلافه بالأحوال والأشخاص ، فعين المعنى بكمال قوته يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص ، فيكون الحد ضرورياً ، فلذلك قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ ، ولأن أصول هذه المعاني لا تختلف فيها الشرائع ، وإنما تختلف في وجوه التحديد ؛ كما يحد شرع عيسى ابن مريم عليه السلام تحريم الخمر بالسكر ، وقد حده شرعنا بكونه من جنس المسكر ؛ لأن قليله يدعو إلى كثيره ، والداخل في الحدود داخل في التحريم بحكم الحسم^(١) ، كما دخل أصل المعنى بالحكمة الأصلية .

فهذا مثال واحد لحكمة خفية من حكم النقيدين ، فينبغي أن يعتبر شكر النعمة وكفرانها بهذا المثال ، فكل ما خلق لحكمة . . . فلا ينبغي أن يُصرف عنها ، ولا يعرف هذا إلا من قد عرف الحكمة ، ﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ ، ولكن لا تصادف جواهر الحكم في قلوب هي مزابل

(١) وفي بعض النسخ : (بحكمة الحسم) بدل (بحكم الحسم) .

الشهوات وملاعب الشياطين ، بل لا يتذكر إلا أولو الألباب ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم . . . لنظروا إلى ملكوت السماء » (١) .

وإذا عرفت هذا المثال . . . فقس عليه حركتك وسكونك ، ونطقك وسكونك ، وكل فعل صادر منك ؛ فإنه إما شكر وإما كفر ؛ إذ لا يتصور أن ينفك عنهما ، وبعض ذلك نصفه في لسان الفقه الذي تناطق به عوام الناس بالكرامة وبعضه بالحظر ، وكل ذلك عند أرباب القلوب موصوف بالحظر ، فأقول مثلاً :

لو استنجيت باليمين . . . فقد كفرت نعمة اليدين ؛ إذ خلق الله لك اليدين ، وجعل إحداهما أقوى من الأخرى ، فاستحق الأقوى بمزيد رجحانه في الغالب الشريف والتفضيل ؛ إذ تفضيل الناقص عدول عن العدل ، والله لا يأمر إلا بالعدل ، ثم أحوجك من أعطاك اليدين إلى أعمال بعضها شريفة كأخذ المصحف ، وبعضها خسيئة كإزالة النجاسة ، فإذا أخذت المصحف باليسار وأزلت النجاسة باليمين . . . فقد خصصت الشريف بما هو خسيس ، فغضضت من حقه وظلمته وعدلت عن العدل .

وكذلك إذا بصقت مثلاً في جهة القبلة أو استقبلتها في قضاء الحاجة . . . فقد كفرت نعمة الله تعالى في خلق الجهات وخلق سعة العالم ؛ لأنه خلق

(١) رواه أحمد في « المسند » (٢ / ٣٥٣) .

الجهات لتكون متسَعَكَ في حركتك ، وقسم الجهات إلى ما لم يشرفها ، وإلى ما شرفها بأن وضع فيها بيتاً أضافه إلى نفسه استمالة لقلبك إليه ؛ ليتقيد به قلبك ، فيتقيد بسببه بدنك في تلك الجهة على هيئة الثبات والوقار إذا عبت ربك ، وكذلك انقسمت أفعالك إلى ما هي شريفة كالطاعات ، وإلى ما هي خسيصة كقضاء الحاجة ورمي البصاق ، فإذا رميت بصاقتك إلى جهة القبلة . . فقد ظلمتها وكفرت نعمة الله تعالى عليك بوضع القبلة التي بوضعها كمال عبادتك .

وكذلك إذا لبست خفك فابتدأت باليسرى . . فقد ظلمت ؛ لأن الخف وقاية للرجل ، فللرجل فيه حظ ، والبداية في الحفظ ينبغي أن تكون بالأشرف ، فهو العدل والوفاء بالحكمة ، ونقيضه ظلم وكفران لنعمة الرجل والخف ، وهذا عند العارفين كبيرة وإن سمّاه الفقيه مكروهاً ، حتى إن بعضهم كان قد جمع أكراراً من الحنطة ، وكان يتصدق بها ، فسئل عن سببه فقال : لبست المداثر مرة فابتدأت بالرجل اليسرى سهواً ، فأريد أن أكفره بالصدقة .

نعم ، الفقيه لا يقدر على تفخيم الأمر في هذه الأمور ؛ لأنه مسكين ، بلي بإصلاح العوام الذين تقرب درجاتهم من درجة الأنعام وهم منغمسون في ظلمات أطم وأعظم من أن تظهر أمثال هذه الظلمات بالإضافة إليها ، فقيح أن يقال : الذي شرب الخمر وأخذ القدح بيساره فقد تعدى من وجهين : أحدهما : الشرب ، والآخر : الأخذ باليسار ، ومن باع خمراً في وقت

النداء يوم الجمعة فقيح أن يقال : خالف من وجهين : أحدهما : بيع الخمر ، والآخر : البيع في وقت النداء ، ومن قضى حاجته في محراب المسجد مستدبر القبلة فقيح أن يذكر تركه الأدب في قضاء الحاجة من حيث إنه لم يجعل القبلة عن يمينه !

فالمعاصي كلها ظلمات ، وبعضها فوق بعض ، فيمنحوق بعضها في جنب البعض ، فالسيد قد يعاقب عبده إذا استعمل سكينه بغير إذنه ، ولكن لو قتل بتلك السكين أعز أولاده . . لم يبق لاستعمال السكين بغير إذنه حكم ونكاية في نفسه ، فكل ما راعاه الأنبياء والأولياء من الآداب وتسامحنا فيه في الفقه مع العوام . . فسببه هذه الضرورة ، وإلا . . فكل هذه المكاره عدول عن العدل ، وكفران للنعمة ، ونقصان عن الدرجة المبلغة للعبد إلى درجات القرب .

نعم ، بعضها يؤثر في العبد بنقصان القرب وانحطاط المنزلة ، وبعضها يخرج بالكلية عن حدود القرب إلى عالم البعد الذي هو مستقر الشياطين .

وكذلك من كسر غصناً من شجرة من غير حاجة ناجزة مهمة ومن غير غرض صحيح . . فقد كفر نعمة الله تعالى في خلق الأشجار وخلق اليد .
أمّا اليد . . فإنها لم تخلق للعبث ، بل للطاعة والأعمال المعينة على الطاعة .

وأمّا الشجر . . فإنما خلقه الله تعالى ، وخلق له العروق ، وساق إليه

الماء ، وخلق فيه قوة الاغتذاء والنماء . . ليلبغ منتهى نشوته فينتفع به عباده ، فكسره قبل منتهى نشوته لا على وجه ينتفع به عباده مخالفة لمقصود الحكمة ، وعدول عن العدل ، فإن كان له غرض صحيح . . فله ذلك ؛ إذ الشجر والحيوان جُعِلَا فداء لأغراض الإنسان ؛ فإنهما جميعاً فانيان هالكان ، إفناء الأخص في بقاء الأشرف مدة ما أقرب إلى العدل من تضييعهما جميعاً ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ .

نعم ، إن كسر ذلك من ملك غيره . . فهو ظالم أيضاً وإن كان محتاجاً ؛ لأن كل شجرة بعينها لا تفي بحاجات عباد الله كلهم ، بل تفي بحاجة واحدة ، ولو خُصَّصَ واحدٌ بها من غير رجحان واختصاص . . كان ظلماً ، وصاحب الاختصاص هو الذي حصَّل البذر ووضعه في الأرض وساق إليه الماء وقام بالتعهد ، فهو أولى به من غيره ، فيرجح جانبه بذلك ، فإن نبت ذلك في موات الأرض لا بسعي آدمي اختص بمغرسه أو بغرسه . . فلا بد من طلب اختصاص آخر ، وهو السبق إلى أخذه ، فللسابق خاصية السبق ، فالعدل أن يكون هو أولى به ، وعبر الفقهاء عن هذا الترجيح بالملك ، وهو مجاز محض ؛ إذ لا ملك إلا لملك الملوك الذي له ما في السماوات والأرض ، وكيف يكون العبد مالكا وهو في نفسه ليس يملك نفسه بل هو ملك غيره ؟ !

نعم ، الخلق عباد الله ، والأرض مائدة الله ، وقد أذن لهم في الأكل من مائدته بقدر حاجتهم ؛ كالملك ينصب مائدة لعبيده ، فمن أخذ لقمة يمينه

واحتوت عليها براجمته ، فجاء عبد آخر وأراد انتزاعها من يده . . لم يمكن منه ، لا لأن اللقمة صارت ملكاً له بالأخذ باليد ؛ فإن اليد وصاحب اليد أيضاً مملوك ، ولكن إذا كانت كل لقمة بعينها لا تفي بحاجة كل العبيد . . فالعدل في التخصيص عند حصول ضرب من الترجيح والاختصاص والأخذ . . اختصاصاً ينفرد به العبد ، فممنع من لا يدلي بذلك الاختصاص عن مزاحمته . . عدل .

فهكذا ينبغي أن تفهم أمر الله في عبادته ، ولذلك نقول : من أخذ من أموال الدنيا أكثر من حاجته وكنزته وأمسكه وفي عباد الله من يحتاج إليه . . فهو ظالم ، وهو من الذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله ، وإنما سبيل الله طاعته ، وزاد الخلق في طاعته أموال الدنيا ؛ إذ بها تندفع ضروراتهم وترتفع حاجاتهم .

نعم ، لا يدخل هذا في حد فتاوى الفقه ؛ لأن مقادير الحاجات خفية ، والنفوس في استشعار الفقر في الاستقبال مختلفة ، وأواخر الأعمار غير معلومة ، فتكليف العوام ذلك يجري مجرى تكليف الصبيان الوقار والتؤدة والسكوت عن كل كلام غير مهم ، وهم بحكم نقصانهم لا يطبقونه ، فتركنا الاعتراض عليهم في اللعب واللهو ، وإباحتنا إياهم ذلك لا يدل على أن اللهو واللعب حق ؛ فكذلك إباحتنا للعوام حفظ الأموال والاقتصار في الإنفاق على قدر الزكوات لضرورة ما جبلوا عليه من البخل . . لا يدل على أنه غاية الحق .

وقد أشار القرآن إليه إذ قال تعالى : ﴿ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُخْفِكُمْ
تَبَخَّلُوا ﴾^(١) ، بل الحق الذي لا كدورة فيه والعدل الذي لا ظلم فيه ألا يأخذ
أحد من عباد الله من مال الله إلا بقدر زاد الراكب ، وكل عباد الله ركاب
لمطايا الأبدان إلى حضرة الملك الديان ، فمتى أخذ زيادة عليه ، ومنعه عن
راكب آخر محتاج إليه . . فهو ظالم تارك للعدل ، وخارج عن مقصود
الحكمة ، وكافر نعمة الله تعالى عليه بالقرآن والرسول والعقل وسائر
الأسباب التي بها عرف أن ما سوى زاد الراكب وبال عليه في الدنيا
والآخرة .

فمن فهم حكمة الله تعالى في جميع أنواع الموجودات . . قدر على القيام
بوظيفة الشكر ، واستقصاء ذلك يحتاج إلى مجلدات ، ثم لا يفي إلا
بالقليل ، وإنما أوردنا هذا القدر ليعلم علّة الصدق في قوله تعالى : ﴿ وَقَلِيلٌ
مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ ﴾ ، وفرح إبليس لعنه الله بقوله : ﴿ وَلَا يَجِدُ أَكْثَرَهُمْ
شَاكِرِينَ ﴾ ، فلا يعرف معنى هذه الآية من لم يعرف هذا كله وأموراً أخرى
وراء هذا تنقضي الأعمار دون استقصاء مبادئها ، فأما تفسير الآية ومعنى
لفظها . . فيعرفه كل من يعرف اللغة ، وبهذا يتبين لك الفرق بين المعنى
والتفسير .



(١) أي : متى يبالغ في سؤالكم حتى لا تبقوا منها شيئاً إلا وقد صرفتموه في سبيل الحق . .
تبخلوا ، وذلك مقتضى الجبلية . « إتحاف » (٧١ / ٩) .

فإن قلت : فقد رجع حاصل هذا الكلام إلى أن الله تعالى حكمة في كل شيء ، وأنه جعل بعض أفعال العباد سبباً لتمام تلك الحكمة وبلوغها غاية المراد منها ، وجعل بعض أفعالهم مانعاً من تمام الحكمة ، فكل فعل وافق مقتضى الحكمة حتى انساق الحكمة إلى غايتها . . فهو شكر ، وكل ما خالف ومنع الأسباب من أن تنساق إلى الغاية المرادة بها . . فهو كفران ، وهذا كله مفهوم ، ولكن الإشكال باقي ، وهو أن فعل العبد المنقسم إلى ما يتم الحكمة وإلى ما يدفعها . . هو أيضاً من فعل الله تعالى ، فأين العبد في البين حتى يكون شاكراً مرةً وكافراً أخرى ؟

فاعلم : أن تمام التحقيق في هذا يستمد من تيار بحر عظيم من علوم المكاشفات ، وقد رمزنا فيما سبق إلى تلويحات بمباديها ، ونحن الآن نعبرُ بعبارة وجيزة عن آخرها وغايتها ، يفهمها من عرف منطق الطير ، ويجعلها من عجز عن الإيضاح في السير^(١) ، فضلاً عن أن يجول في جو الملكوت جولان الطير ، فنقول :

إنَّ لله سبحانه في جلاله وكبريائه صفة عنها يصدرُ الخلق والاختراع ، وتلك الصفة أعلى وأجل من أن تلمحها عين واضع اللغة حتى يعبر عنها بعبارة تدل على كنه جلالها وخصوص حقيقتها ، فلم يكن لها في العالم عبارة لعلو شأنها وانحطاط رتبة واضعي اللغات عن أن يمتد طرفهم إلى

(١) أي : الإسراع في السير .

مبادي إشراقها ، فانخفضت عن ذروتها أبصارهم كما تنخفض أبصار الخفافيش عن نور الشمس ، لا لغموض في نور الشمس ، ولكن لضعف في أبصار الخفافيش ، فاضطرّ الذين فتحت أبصارهم لملاحظة جلالها إلى أن يستعبروا من حضيض عالم المتناطقين باللغات عبارة تفهم من مبادي حقائقها شيئاً ضعيفاً جداً ، فاستعاروا لها اسم القدرة ، فتجاسرنا بسبب استعارتهم على النطق فقلنا : لله تعالى صفة هي القدرة ، عنها يصدر الخلق والاختراع .

ثم الخلق ينقسم في الوجود إلى أقسام وخصوص صفات ، ومصدر انقسام هذه الأقسام واختصاصها بخصوص صفاتها صفة أخرى استعير لها بمثل الضرورة التي سبقت عبارة المشيئة ، فهي توهم منها أمراً مجملاً عند المتناطقين باللغات التي هي حروف وأصوات المتفاهمين بها ، وقصور لفظ المشيئة عن الدلالة على كنه تلك الصفة وحقيقتها كقصور لفظ القدرة .

ثم انقسمت الأفعال الصادرة من القدرة إلى ما ينساق إلى المنتهى الذي هو غاية حكميتها وإلى ما يقف دون الغاية ، وكان لكل واحد نسبة إلى صفة المشيئة ؛ لرجوعها إلى الاختصاصات التي بها تتم القسمة والاختلاف ، فاستعير لنسبة البالغ غايته عبارة المحبة ، واستعير لنسبة الواقف دون غايته عبارة الكراهة ، وقيل : إنهما جميعاً داخلان في وصف المشيئة ، ولكن لكل واحد خاصية أخرى في النسبة ، يوهم لفظ المحبة والكراهة منهما أمراً مجملاً عند طالبي الفهم من الألفاظ واللغات .

ثم انقسم عباده الذين هم أيضاً من خلقه واختراعه إلى من سبقت له في المشيئة الأزلية أن يستعمله لاستيقاف حكمته دون غايتها ، ويكون ذلك قهراً في حقهم بتسليط الدواعي والبواعث عليهم ، وإلى من سبقت لهم في الأزل أن يستعملهم لسياقة حكمته إلى غايتها في بعض الأمور ، فكان لكل واحد من الفريقين نسبة إلى المشيئة خاصة ، فاستعير لنسبة المستعملين في إتمام الحكمة بهم عبارة الرضا ، واستعير للذين استوقف بهم أسباب الحكمة دون غايتها عبارة الغضب ، فظهر على من غضب عليه في الأزل فعل وقف الحكمة به دون غايتها ، فاستعير له الكفران ، وأردف ذلك بنقمة اللعن والمذمة زيادة في النكال ، وظهر على من ارتضاه في الأزل فعل انساقت بسببه الحكمة إلى غايتها ، فاستعير له عبارة الشكر ، وأردف بخلعة الثناء والإطراء زيادة في الرضا والقبول والإقبال .

فكان الحاصل أنه تعالى أعطى الجمال ثم أثنى ، وأعطى النكال ثم قبح وأردى ، وكان مثاله أن ينظف الملك عبده الوسخ عن أوساخه ، ثم يلبسه من محاسن ثيابه ، فإذا تمم زينته . . قال : يا جميل ؛ ما أجملك وأجمل ثيابك وأنظف وجهك ! فيكون بالحقبة هو المجلل وهو المثنى على الجمال ، فهو المثنى عليه بكل حال ، وكأنه لم يثن من حيث المعنى إلا على نفسه ، وإنما العبد هدف الثناء من حيث الظاهر والصورة .

فهكذا كانت الأمور في أزل الآزال ، وهكذا تسلسلت الأسباب والمسببات بتقدير رب الأرباب ومسبب الأسباب ، ولم يكن ذلك عن اتفاق

وبحث ، بل عن إرادة وحكمة ، وحكم حق وأمر جزم استعير له لفظ القضاء ، وقيل : إنه كلمح بالبصر أو هو أقرب ، ففاضت بحار المقادير بحكم ذلك القضاء الجزم بما سبق به التقدير ، فاستعير لترتب آحاد المقدورات بعضها على بعض لفظ القدر ، فكان لفظ القضاء بإزاء الأمر الواحد الكلّي ، ولفظ القدر بإزاء التفصيل المتماذي إلى غير نهاية ، وقيل : إن شيئاً من ذلك ليس خارجاً عن القضاء والقدر ، فخطر لبعض العباد أن القسمة لماذا اقتضت هذا التفصيل ؟ وكيف انتظم العدل مع هذا التفاوت والتفصيل ؟ وكان بعضهم لقصوره لا يطيق ملاحظة كنه هذا الأمر والاحتواء على مجاميعه ، فألجموا عما لم يطبقوا خوض غمرته بلجام المنع ، وقيل لهم : اسكتوا ، فما لهذا خلقتم ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون .

وامتلات مشكاة بعضهم نوراً مقتبساً من نور الله تعالى في السماوات والأرض ، وكان زيتهم أولاً صافياً يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار ، فمسته نار ، فاشتعل نوراً على نور ، فأشرقت أقطار الملكوت بين أيديهم بنور ربها ، فأدركوا الأمور كلها على ما هي عليه ، فقل لهم : تأدّبوا بأداب الله تعالى واسكتوا ، وإذا ذكر القدر . . فأمسكوا ؛ فإنّ للحيطان آذاناً ، وحواليكم ضعفاء الأبصار ، فسيروا بسير أضعفكم ، ولا تكشفوا حجاب الشمس لأبصار الخفافيش ، فيكون ذلك سبب هلاكهم ، فتخلّقوا بأخلاق الله تعالى ، وانزلوا إلى سماء الدنيا من منتهى علوكم ليأنس بكم الضعفاء ، ويقتبسوا من بقايا أنواركم المشرقة من وراء حجابكم ؛ كما

يقتبس الخفافيش من بقايا نور الشمس والكواكب في جنح الليل ، فيحيا به حياة يحتملها شخصه وحاله ، وإن كان لا يحيا به حياة المترددين في كمال نور الشمس ، وكونوا كمن قيل فيهم^(١) :

شَرِبْنَا شَرَاباً طَيِّباً عِنْدَ طَيِّبٍ كَذَلِكَ شَرَابُ الطَّيِّبِينَ يَطِيبُ
شَرِبْنَا وَأَهْرَقْنَا عَلَى الْأَرْضِ فَضْلَهُ وَلِلْأَرْضِ مِنْ كَأْسِ الْكِرَامِ نَصِيبُ

فهكذا كان أول هذا الأمر وآخره ، ولا تفهمه إلا إذا كنت أهلاً له ، وإذا كنت أهلاً له . فتحت العين وأبصرت ، فلا تحتاج إلى قائد يقودك ، والأعمى يمكن أن يقاد ، ولكن إلى حد ما ، فإذا ضاقت الطريق وصار أحد من السيف وأدق من الشعر . قدر الطائر على أن يطير عليه ، ولم يقدر على أن يستجر وراءه أعمى ، وإذا دق المجال ولطف لطف الماء مثلاً ، ولم يمكن العبور إلا بالسباحة . فقد يقدر الماهر بصنعة السباحة أن يعبر بنفسه ، وربما لم يقدر على أن يستجر وراءه آخر .

فهذه أمور نسبة السير عليها إلى السير على ما هو مجال جماهير الخلق كنسبة المشي على الماء إلى المشي على الأرض ، والسباحة يمكن أن تتعلم ، فأما المشي على الماء . فلا يكتسب بالتعلم ، بل يُنال بقوة اليقين ، ولذلك قيل للنبي صلى الله عليه وسلم : إن عيسى عليه السلام

(١) انظر « زهر الأكم » (١/٢٦٥) .

يُقالُ : إِنَّهُ مشى على الماءِ ، فقالَ عليه الصلاة والسلامُ : « لو ازدادَ يقيناً . .
لمشى على الهواءِ » (١) .

فهذه رموز وإشارات إلى معنى الكراهة والمحبة ، والرضا والغضب ،
والشكر والكفران ، لا يليقُ بعلم المعاملة أكثر منها .

وقد ضرب الله مثلاً لذلك تقريباً إلى أفهام الخلق ؛ إذ عرّف أنه ما خلق
الجنّ والإنس إلا ليعبدوه ، فكانت عبادتهم غاية الحكمة في حقهم ، ثم
أخبر أن له عبيدين ؛ يحب أحدهما ، واسمُه جبريلُ وروح القدس والأمينُ ،
وهو عنده محبوب مطاع أمين مكين ، ويبغض الآخر ، واسمُه إبليسُ ، وهو
اللعينُ ، المُنظرُ إلى يوم الدين .

ثم أحال الإرشاد إلى جبريل فقال تعالى : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ
رَبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ يُلْقَى الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ ،
وأحال الإغواء على إبليس فقال تعالى : ﴿ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ ، والإغواء :
هو استيقاف العباد دون بلوغ غاية الحكمة ، فانظر كيف نسبة إلى العبد الذي
غضب عليه ، والإرشاد : سياقة لهم إلى الغاية ، فانظر كيف نسبة إلى العبد
الذي أحبه .

وعندك في العادة له مثال ؛ فالملك إذا كان محتاجاً إلى من يسقيه

(١) رواه المروزي في « تعظيم قدر الصلاة » (ص ٤٨٧) من حديث معاذ بن جبل رضي الله
عنه ، وهو كذلك عند الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص ٣٠٣) ، وانظر
« الإتحاف » (٧٥ / ٩) .

الشرابَ وإلى مَنْ يحجمُهُ وينظفُ فناءَ منزلهِ عنِ القاذوراتِ وكانَ لهُ عبدانِ ..
فلا يعيْنُ للحجامةِ والتنظيفِ إلا أقبحَهُما وأخسَهُما ، ولا يفوّضُ حملَ
الشرابِ الطيّبِ إلا إلى أحسنِهِما وأكملِهِما وأحبَّهُما إليه .

ولا ينبغي أن تقولَ : هذا فعلي ، فلمَ يكونَ فعلُهُ على وزانِ فعلي ؟
فإنَّكَ أخطأتَ إذ أضفتَ ذلكَ إلى نفسِكَ ، بل هو الذي صرفَ داعيتَكَ
لتخصيصِ الفعلِ المكروهِ بالشخصِ المكروهِ والفعلِ المحبوبِ بالشخصِ
المحبوبِ ؛ إتماماً للعدلِ ، فإنَّ عدْلَهُ تارةً يتمُّ بأمورٍ لا مدخلَ لكَ فيها ،
وتارةً يتمُّ فيكَ ، فإنَّكَ أيضاً مِنْ أفعاليهِ ، فداعيتَكَ وقدرتَكَ ، وعلمُكَ
وعملُكَ ، وسائرُ أسبابِ حركاتِكَ في التعيينِ .. هو فعلُهُ الذي رتبَهُ بالعدلِ
ترتيباً تصدرُ منهُ الأفعالُ المعتدلةُ ، إلا أنَّكَ لا ترى إلا نفسَكَ ، فتظنُّ أنَّ
ما يظهرُ عليكَ في عالمِ الشهادةِ ليسَ لهُ سببٌ مِنْ عالمِ الغيبِ والملكوتِ ،
فلذلكَ تضيفُهُ إلى نفسِكَ .

وإنَّما أنتَ مثلُ الصبيِّ الذي ينظرُ ليلاً إلى لعبِ المشعوذِ الذي يخرجُ
صوراً مِنْ وراءِ حجابِ ترقصُ وتزعقُ وتقومُ وتقعُدُ ، وهي مؤلَّفةٌ مِنْ خرقٍ
لا تتحرَّكُ بأنفسِها ، وإنَّما تحركُها خيوطُ شعريَّةٍ دقيقةٌ لا تظهرُ في ظلامِ
الليلِ ، ورؤوسُها في يدِ المشعوذِ ، وهو محتجبٌ عنِ أبصارِ الصبيانِ ،
فيفرحونَ ويتعجَّبونَ ؛ لظنِّهِمْ أنَّ تلكَ الخرقَ ترقصُ وتلعبُ وتقومُ وتقعُدُ ،
وأما العقلاءُ .. فإنَّهِمْ يعلمونَ أنَّ ذلكَ تحريكٌ وليسَ بتحريكٍ ، ولكنَّهِمْ
ربَّما لا يعلمونَ كيفَ تفصيلُهُ ، والذي يعلمُ بعضَ تفصيلِهِ لا يعلمُهُ كما

يعلمهُ المشعوذ الذي الأمرُ إليه والجاذبةُ بيده .

فكذلك صبيانُ أهلِ الدنيا ، والخلقُ كلُّهُم صبيانٌ بالنسبةِ إلى العلماءِ ، ينظرونَ إلى هذهِ الأشخاصِ فيظنونَ أنها المتحرِّكةُ ، فيحيلونَ عليها ، والعلماءُ يعلمونَ أنَّهم محرَّكونَ إلا أنَّهم لا يعرفونَ كيفيةَ التحريكِ وهمُ الأكثرونَ ، إلا العارفونَ والعلماءُ الراسخونَ ، فإنَّهم أدركوا بحدَّةِ أبصارِهِم خيوطاً دقيقةً عنكبوتيَّةً ، بل أدقُّ منها بكثيرٍ ، معلقةً مِنَ السماءِ متشبَّهةً الأطرافِ بأشخاصِ أهلِ الأرضِ ، لا تُدرِكُ تلكَ الخيوطُ لدقَّتِها بهذهِ الأبصارِ الظاهرةِ ، ثمَّ شاهدوا رؤوسَ تلكَ الخيوطِ في مناطاتٍ لها هي معلقةٌ بها ، وشاهدوا لتلكَ المناطاتِ مقابضَ هي في أيدي الملائكةِ المحرِّكينَ للسماءاتِ ، وشاهدوا أبصارَ ملائكةِ السماءاتِ مصروفةً إلى حملةِ العرشِ ، ينتظرونَ منهم ما ينزلُ عليهم مِنَ الأمرِ مِنْ حضرةِ الربوبيَّةِ كي لا يعصوا اللهَ ما أمرَهُم ويفعلونَ ما يُؤْمرونَ .

وعُبِّرَ عن هذهِ المكاشفاتِ في القرآنِ فقيلَ : ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ ، وعُبِّرَ عن انتظارِ ملائكةِ السماءاتِ لما ينزلُ إليهم مِنَ الأمرِ والقدرِ فقيلَ : ﴿ خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ .

وهذهِ أمورٌ لا يعلمُ تأويلُها إلا اللهُ والراسخونَ في العلمِ ، وعُبِّرَ ابنُ عباسٍ رضي اللهُ عنهُما عن اختصاصِ الراسخينَ في العلمِ بعلومٍ لا تحتملُها

أفهامُ الخلقِ حيثُ قرأ قوله تعالى : ﴿يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ فقال : (لو ذكرتُ ما أعرفهُ مِنْ معنى هذه الآية .. لرجمتُوني) ، وفي لفظٍ آخر : (لقلْتُم : إِنَّهُ كافرٌ) (١) .

ولنقتصرُ على هذا القدرِ ، فقد خرجَ عنانُ الكلامِ عن قبضة الاختيارِ ، وامتزجَ بعلمِ المعاملةِ ما ليسَ منه ، فلنرجعُ إلى مقاصدِ الشكرِ ، فنقولُ :
إذا رجعَ حقيقةُ الشكرِ إلى كونِ العبدِ مستعملاً في إتمامِ حكمةِ الله تعالى .. فأشكرُ العبادِ أحبُّهم إلى الله وأقربُّهم إليه ، وأقربُّهم إلى الله الملائكةُ ، ولهم أيضاً ترتيبٌ ، وما منهم إلا له مقامٌ معلومٌ ، وأعلامُهم في رتبةِ القربِ ملكُ اسمه إسرافيلُ عليه السلامُ ، وإنما علوُ درجتِهِم لأنَّهُم في أنفسهم كرامٌ برةً ، وقد أصلحَ الله تعالى بهمُ الأنبياءَ عليهمُ السلامُ وهمُ أشرفُ مخلوقِ على وجهِ الأرضِ ، وتلي درجتَهُم درجةُ الأنبياءِ عليهمُ السلامُ ، فإنَّهُم في أنفسهم أخيارٌ ، وقد هدى اللهُ بهمُ سائرَ الخلقِ ، وتممَ بهمُ حكمتهُ ، وأعلامُهم رتبةُ نبينا صلى اللهُ عليه وسلَّمَ ؛ إذ أكملَ اللهُ بهِ الدينَ ، وختمَ بهِ النبيينَ ، ويليهِمُ العلماءُ الذين همُ ورثةُ الأنبياءِ ، فإنَّهُم في أنفسهم صالحونَ ، وقد أصلحَ اللهُ بهمُ سائرَ الخلقِ ، ودرجةُ كلِّ واحدٍ منهمُ بقدرِ ما أصلحَ مِنْ نفسه ومنْ غيره ، ثم يليهِمُ السلاطينُ بالعدلِ ؛ لأنَّهُم أصلحوا دنيا الخلقِ كما أصلحَ العلماءُ دينَهُم ، ولأجلِ اجتماعِ الدينِ والملكِ

(١) كذا في « القوت » (٢٥٣ / ١) ، ونحنوه رواه الطبري في « تفسيره »

والسلطنة لنبيِّنا محمدٍ صلى الله عليه وسلم . . . كَانَ أَفْضَلَ مِنْ سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ؛ فَإِنَّهُ أَكْمَلَ اللَّهُ بِهِ صَلَاحَ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ ، وَلَمْ يَكُنِ السِّيفُ وَالْمَلِكُ لغيرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ، ثُمَّ يَلِي الْعُلَمَاءَ وَالسَّلَاطِينَ الصَّالِحُونَ الَّذِينَ أَصْلَحُوا نَفُوسَهُمْ فَقَطْ ، فَلَمْ تَتَمَّ حِكْمَةُ اللَّهِ بِهِمْ إِلَّا فِيهِمْ ، وَمَنْ عَدَا هَؤُلَاءِ . . . فَهَمَجٌ رَعَاغٌ .

واعلم : أَنَّ السُّلْطَانَ بِهِ قِوَامُ الدِّينِ ، فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُسْتَحَقَرَ وَإِنْ كَانَ ظَالِمًا فَاسِقًا ، قَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ : (إِمَامٌ غَشُومٌ خَيْرٌ مِنْ فِتْنَةٍ تَدُومُ) (١) .
وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « سَيَكُونُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ يَفْسِدُونَ وَمَا يَصْلُحُ اللَّهُ بِهِمْ أَكْثَرُ ، فَإِنْ أَحْسَنُوا . . . فَلَهُمُ الْأَجْرُ وَعَلَيْكُمْ الشُّكْرُ ، وَإِنْ أَسَاءُوا . . . فَعَلَيْهِمُ الْوِزْرُ وَعَلَيْكُمْ الصَّبْرُ » (٢) .

وَقَالَ سَهْلٌ : (مَنْ أَنْكَرَ إِمَامَةَ السُّلْطَانِ . . . فَهُوَ زَنْدِيقٌ ، وَمَنْ دَعَاهُ السُّلْطَانُ فَلَمْ يَجِبْ . . . فَهُوَ مُبْتَدِعٌ ، وَمَنْ أَتَاهُ مِنْ غَيْرِ دَعْوَةٍ . . . فَهُوَ جَاهِلٌ) (٣) .

(١) قوت القلوب (١٢٥ / ٢) ، والغشوم : الظالم .

(٢) كذا في « القوت » (١٢٥ / ٢) ، ورواه ابن عدي في « الكامل » (٢٢٠ / ٢) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٩٨٣) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً ، وروى الطبراني في « الكبير » (١٣٢ / ١٠) من حديثه رضي الله عنه : اصبروا ؛ فإن جور إمام خمسين عاماً خير من هرج شهر ، وذلك أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لَا بَدَ لِلنَّاسِ مِنْ إِمَارَةِ بَرَةٍ أَوْ فَاجِرَةٍ ، فَأَمَّا الْبَرَةُ . . . فَتَعْدِلُ فِي الْقِسْمِ ، وَيَقْسِمُ بَيْنَكُمْ فَيُثَكِّمُ بِالسُّوِيَّةِ ، وَأَمَّا الْفَاجِرَةُ . . . فَيَبْتَلِي فِيهَا الْمُؤْمِنَ ، وَالْإِمَارَةُ الْفَاجِرَةُ خَيْرٌ مِنَ الْهَرَجِ » ، قيل : يا رسول الله ؛ وما الهرج ؟ قال : « الْقَتْلُ وَالْكَذِبُ » .

(٣) قوت القلوب (١٢٥ / ٢) .

وسئِلَ : أيُّ الناسِ خيرٌ ؟ فقالَ : السلطانُ ، فقيلَ : كُنَّا نرى أنَّ شرَّ الناسِ السلطانُ ! فقالَ : مهلاً ، إنَّ لله تعالى كلَّ يومٍ نظرتين ، نظرةً إلى سلامةِ أموالِ المسلمين ، ونظرةً إلى سلامةِ أبقارِهِمْ ، فيطلعُ في صحيفتهِ ، فيغفرُ لَهُ جميعَ ذنوبِهِ^(١) .

وكانَ يقولُ : (الخشبُ السَّودُ المعلقُ على أبوابِهِمْ خيرٌ مِنْ سبعينَ قاصّاً يقصُّونَ)^(٢) .



(١) قوت القلوب (١٢٥ / ٢) . وفي (أ) : (أبصارهم) ، وفي (د) : (أبدانهم) .

(٢) قوت القلوب (١٢٥ / ٢) .

الركن الثاني من أركان شكر : ما عليه شكر

وهو النعمة ، ولندكر فيه حقيقة النعمة ، وأقسامها ، ودرجاتها ، وأصنافها ، ومجامعها فيما يخص ويعم ، فإن إحصاء نعم الله على عباده خارج عن مقدور البشر ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ﴾ .

فنقدم أمورا كلية تجري مجرى القوانين في معرفة النعم ، ثم نشتغل بذكر الأحاد ، والله الموفق للصواب .

بيان حقيقة النعمة وأقسامها

اعلم : أن كل خير ولذة وسعادة ، بل كل مطلوب ومؤثر فإنه يُسمى نعمة ، ولكن النعمة بالحقيقة هي السعادة الأخرى ، وتسمية ما عداها نعمة وسعادة إما غلط وإما مجاز ؛ كتسمية السعادة الدنيوية التي لا تعين على الآخرة نعمة ، فإن ذلك غلط محض ، وقد يكون اسم النعمة للشيء صدقا ، ولكن يكون إطلاقه على السعادة الأخرى أصدق ؛ ككل سبب يوصل إلى سعادة الآخرة ويعين عليها ، إما بواسطة واحدة أو بوسائط ، فإن تسميته نعمة صحيح وصدق ؛ لأجل أنه يفضي إلى النعمة الحقيقية .

والأسبابُ المعينةُ واللذاتُ المسماةُ نعمةً نشرحُها بتقسيمات :

القسمَةُ الأولى :

أنَّ الأمورَ كُلَّها بالإضافةِ إلينا تنقسمُ إلى ما هو نافعٌ في الدنيا والآخرةِ جميعاً ؛ كالعلمِ وحسنِ الخلقِ ، وإلى ما هو ضارٌّ فيهما جميعاً ؛ كالجهلِ وسوءِ الخلقِ ، وإلى ما ينفعُ في الحالِ ويضرُّ في المآلِ ؛ كالتلذُّذِ باتِّباعِ الشهواتِ ، وإلى ما يضرُّ في الحالِ ويؤلُمُ ولكنْ ينفعُ في المآلِ ؛ كقمعِ الشهواتِ ومخالفةِ النفسِ .

فالنافعُ في الحالِ والمآلِ هو النعمةُ تحقيقاً ؛ كالعلمِ وحسنِ الخلقِ ، والضارُّ فيهما هو البلاءُ تحقيقاً ؛ وهو ضدُّهُما .

والنافعُ في الحالِ المضرُّ في المآلِ بلاءٌ محضٌ عندَ ذوي الأبصارِ وتظنُّهُ الجهَّالُ نعمةً ، ومثالهُ : الجائعُ إذا وجدَ عسلاً فيه سُمٌّ ، فإنه يعدُّهُ نعمةً إنْ كانَ جاهلاً ، وإذا علمهُ . . علمَ أنَّ ذلكَ بلاءٌ سيقَ إليه .

والضارُّ في الحالِ النافعُ في المآلِ نعمةٌ عندَ ذوي الألبابِ ، بلاءٌ عندَ الجهَّالِ ، ومثالهُ : الدواءُ البشعُ في الحالِ مذاقُهُ ، إلا أنَّه شافٍ مِنَ الأمراضِ والأسقامِ وجالبٌ للصحةِ والسلامةِ ، فالصبيُّ الجاهلُ إذا كُلَّفَ شربه . . ظنَّهُ بلاءً ، والعاقلُ يعدُّهُ نعمةً ويتقلَّدُ المنَّةَ ممَّنْ يهديهِ إليه ويقربُهُ منه ويهيئُ لَهُ أسبابَهُ ، فلذلكَ تمنعُ الأمُّ ولدها مِنَ الحجامَةِ والأبُّ يدعوهُ إليها ، فإنَّ الأبَّ بكمالِ عقلِهِ يلحظُ العاقبةَ ، والأمُّ لقصورِها وفرطِ حبِّها تلحظُ الحالَ ،

والصبي لجهله يتقلد منه من أمه دون أبيه ، ويأنس إليها وإلى شفقتها ،
ويقدّر الأب عدواً له ، ولو عقل . . لعلم أن الأم عدوٌّ باطنٌ في صورة
صديق ؛ لأنّ منعها إيّاه من الحجامة يسوقه إلى أمراض وآلام أشدّ من
الحجامة ، ولكن الصديق الجاهل شرٌّ من العدو العاقل ، وكلّ إنسان فإنّه
صديق نفسه ، ولكنه صديق جاهل ، فلذلك تعمل به ما لا يعمل به العدو .



قصة ثانية :

اعلم : أن الأسباب الدنيويّة مختلطة ، قد امتزج خيرها بشرّها ، فقلّما
يصفو خيرها ؛ كالمال والأهل والولد والأقارب والجاه وسائر الأسباب ،
ولكن تنقسم إلى ما نفعه أكثر من ضرره ؛ كقدر الكفاية من المال والجاه
وسائر الأسباب ، وإلى ما ضره أكثر من نفعه في حق أكثر الأشخاص ؛
كالمال الكثير والجاه الواسع ، وإلى ما يكافئ ضرره نفعه ، وهذه
أمور تختلف بالأشخاص ، فربّ إنسان صالح ينتفع بالمال الصالح وإن
كثر ، فينفقه في سبيل الله ، ويصرفه إلى الخيرات ، فهو مع هذا التوفيق
نعمة في حقّه ، وربّ إنسان يستضرّ بالقليل أيضاً ؛ إذ لا يزال مستصغراً له
شاكياً من ربّه ، طالباً للزيادة عليه ، فيكون ذلك مع هذا الخذلان بلاء في
حقّه .



قِسْمَةٌ ثَالِثَةٌ :

اعلمُ : أنَّ الخيراتِ باعتبارِ آخرَ تنقسمُ إلى ما هو مؤثِّرٌ لذاته لا لغيره ،
وإلى مؤثِّرٍ لغيره ، وإلى مؤثِّرٍ لذاته ولغيره .

فالأوَّلُ : ما يُؤثِّرُ لذاته لا لغيره ؛ كلدَّةِ النظرِ إلى وجهِ الله تعالى ،
وسعادةِ لقاءه ، وبالجملَةِ سعادةُ الآخرةِ التي لا انقضاءَ لها ؛ فإنَّها لا تُطلبُ
ليُتوصَلَ بها إلى غايةٍ أخرى مقصودةٍ وراءها ، بل تُطلبُ لذاتها .

الثاني : ما يُقصدُ لغيره ولا غرضَ أصلاً في ذاته ؛ كالدرهمِ والدنانيرِ ،
فإنَّ الحاجاتِ لو كانت لا تنقضي بها . . لكانت هي والحصباءُ بمثابةً
واحدةً ، ولكنَّ لما كانت وسيلةً إلى اللذاتِ سريعةِ الإيصالِ إليها . . صارت
عندَ الجهالِ محبوبَةً في أنفسِها ، حتَّى يجمعونها ويكنزونها ويتصارفونَ عليها
بالربا ، ويظنونَ أنَّها مقصودةٌ ، ومثالُ هؤلاءِ مثالُ مَنْ يحبُّ شخصاً ، فيحبُّ
بسببِهِ رسولَهُ الذي يجمعُ بينَهُ وبينَهُ ، ثمَّ ينسى في محبةِ الرسولِ محبةَ
الأصلِ ، فيعرضُ عنه طولَ عمرِهِ ولا يزالُ مشغولاً بتعهدِ الرسولِ ومراعاتِهِ
وتفقيدهِ ، وهو غايةُ الجهلِ والضلالِ .

الثالثُ : ما يُقصدُ لذاته ولغيره ؛ كالصحَّةِ والسلامةِ ، فإنَّها تُقصدُ ليقدرَ
بسببِها على الفكرِ والذكرِ الموصِلينِ إلى لقاءِ الله تعالى ، أو ليتوصَلَ بها إلى
استيفاءِ لذاتِ الدنيا ، وتُقصدُ أيضاً لذاتها ، فإنَّ الإنسانَ وإن استغنى عن المشي
الذي تُرادُ سلامةُ الرجلِ لأجلِهِ ف يريدُ أيضاً سلامةَ الرجلِ مِنْ حيثُ إنَّها سلامةٌ .

فإذا ؛ المؤثر لذاته فقط هو الخيرُ والنعمةُ تحقيقاً ، وما يُؤثر لذاته ولغيره أيضاً فهو نعمةٌ ، ولكن دون الأول ، فأما ما لا يُؤثر إلا لغيره ؛ كالنقدين . . فلا يُوصفان في أنفسهما من حيث إنهما جوهراَنِ بأنَّهما نعمةٌ ، بل من حيث هما وسيلتانِ ، فيكونانِ نعمةً في حقِّ مَنْ يقصدُ أمراً ليسَ يمكنُهُ أن يتوصَّلَ إليه إلا بهما ، فلو كان مقصدهُ العلمَ والعبادةَ ومعه الكفايةُ التي هي ضرورةُ حياته . . استوى عندَهُ الذهبُ والمدرُّ ، فكان وجودُهُما وعدمُهُما عندَهُ بمثابة واحدةٍ ، بل ربما شغلهُ وجودُهُما عن الفكرِ والعبادةِ ، فيكونانِ بلاءً في حقِّه ولا يكونانِ نعمةً .

قِسْمَةُ رَابِعَةٌ :

اعلمُ : أنَّ الخيراتِ باعتبارِ آخرَ تنقسمُ إلى نافعٍ ، وجميلٍ ، ولذيذٍ ؛ فاللذيذُ : هو الذي تُدركُ راحتهُ في الحالِ ، والنافعُ : هو الذي يفيدُ في المالِ ، والجميلُ : هو الذي يُستحسنُ في سائرِ الأحوالِ .

والشُرورُ أيضاً تنقسمُ إلى ضارٍّ ، وقبيحٍ ، ومؤلمٍ .

وكلُّ واحدٍ من القسمينِ ضربانِ : مطلقٌ ومقيَّدٌ .

فالمطلقُ : هو الذي اجتمعَ فيه الأوصافُ الثلاثةُ ؛ أمّا في الخيرِ . . فكالعلمِ والحكمةِ ؛ فإنَّها نافعةٌ وجميلةٌ ولذيذةٌ عندَ أهلِ العلمِ والحكمةِ ، وأمّا في الشرِّ . . فكالجهلِ ، فإنَّه ضارٌّ وقبيحٌ ومؤلمٌ ، وإنَّما يحسُّ الجاهلُ

بألم جهله إذا عرف أنه جاهل ؛ بأن يرى غيره عالماً ، ويرى نفسه جاهلاً ،
 فيدرك ألم النقص ، فتنبعث منه شهوة العلم اللذيذة ، ثم قد يمنعه الحسد
 والكبر والشهوات البدنية عن التعلم ، فيتجاذبه متضادان ، فيعظم ألمه ،
 فإنه إن ترك التعلم . . تألم بالجهل ودرك النقصان ، وإن اشتغل بالتعلم . .
 تألم بترك الشهوات أو بترك الكبر وذل التعلم ، ومثل هذا الشخص لا يزال
 في عذاب دائم لا محالة .

والضرب الثاني : مقيّد : وهو الذي جمع بعض هذه الأوصاف دون
 بعض ، فربّ نافع مؤلم ؛ كقطع الإصبع المتأكلة والسلعة الخارجة من
 البدن^(١) ، وربّ نافع قبيح ؛ كالحمق ، فإنه بالإضافة إلى بعض الأحوال
 نافع ، وقد قيل : (استراح من لا عقل له) ، فإنه لا يهتم بالعاقبة ،
 فيستريح في الحال إلى أن يحين وقت هلاكه ، وربّ نافع من وجه ضار من
 وجه ؛ كالقاء المال في البحر عند خوف الغرق ، فإنه ضار للمال ، ونافع
 للنفس في نجاتها .

والنافع قسمان : ضروري ؛ كالإيمان وحسن الخلق في الإيصال إلى
 سعادة الآخرة ، وأعني بهما العلم والعمل ؛ إذ لا يقوم مقامهما ألبته
 غيرهما ، وإلى ما لا يكون ضرورياً ؛ كالسكنجبين مثلاً في تسكين
 الصفراء ، فإنه قد يمكن تسكينها بما يقوم مقامه .



(١) السلعة : زيادة تحدث في الجسد ؛ كالغدة والخراج .

قِسْمَةٌ خَامِسَةٌ :

اعلم : أنَّ النعمة يُعَبَّرُ بها عَنْ كُلِّ لَذِيذٍ ، واللذاتُ بِالإضافةِ إِلَى الإنسانِ مِنْ حَيْثُ اخْتِصَاصُهَا بِهَا أَوْ مِشَارَكَتُهُ لغيرِهِ ثَلَاثَةٌ أَنْوَاعٍ : عَقْلِيَّةٌ ، وَبَدَنِيَّةٌ مُشْتَرَكَةٌ مَعَ بَعْضِ الْحَيَوَانَاتِ ، وَبَدَنِيَّةٌ مُشْتَرَكَةٌ مَعَ جَمِيعِ الْحَيَوَانَاتِ .

أَمَّا الْعَقْلِيَّةُ . . فَكَلَذَةُ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ ؛ إِذْ لَيْسَ يَسْتَلْذُّهَا السَّمْعُ وَالْبَصَرُ وَالشَّمُّ ، وَلَا الْبَطْنُ وَلَا الْفَرْجُ ، وَإِنَّمَا يَسْتَلْذُّهَا الْقَلْبُ ؛ لِاخْتِصَاصِهَا بِصِفَةِ يُعَبَّرُ عَنْهَا بِالْعَقْلِ ، وَهَذِهِ أَقْلُ اللَّذَاتِ وَجُوداً ، وَهِيَ أَشْرَفُهَا .

أَمَّا قَلَّتُهَا . . فَلَأَنَّ الْعِلْمَ لَا يَسْتَلْذُّهُ إِلَّا عَالِمٌ ، وَالْحِكْمَةَ لَا يَسْتَلْذُّهَا إِلَّا حَكِيمٌ ، وَمَا أَقْلُ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ ، وَمَا أَكْثَرُ الْمُتَسَمِّينَ بِاسْمِهِمُ وَالْمُتَرَسِّمِينَ بِرِسْوَمِهِمْ .

وَأَمَّا شَرَفُهَا . . فَلَأَنَّهَا لَازِمَةٌ لَا تَزُولُ أَبَداً لَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ ، وَدَائِمَةٌ لَا تُمَلُّ ، فَالطَّعَامُ يُشْبِعُ مِنْهُ فَيُمَلُّ ، وَشَهْوَةُ الْوَقَاعِ يُفْرِغُ مِنْهَا فَتُسْتَقَلُّ ، وَالْعِلْمُ وَالْحِكْمَةُ قَطُّ لَا يَتَصَوَّرُ أَنْ تُمَلَّ وَتُسْتَقَلَّ .

وَمَنْ قَدَرَ عَلَى الشَّرِيفِ الْبَاقِي أَبَدَ الْآبَادِ إِذَا رَضِيَ بِالْخَسِيرِ الْفَانِي فِي أَقْرَبِ الْأَمَادِ . . فَهُوَ مُصَابٌ فِي عَقْلِهِ ، مُحْرَمٌ لَشَقَاوَتِهِ وَإِدْبَارِهِ ، وَأَقْلُ أَمْرِ فِيهِ أَنَّ الْعِلْمَ وَالْعَقْلَ لَا يَحْتَاجُ إِلَى أَعْوَانٍ وَحِفْظَةٍ بِخِلَافِ الْمَالِ ؛ إِذْ الْعِلْمُ يَحْرُسُكَ وَأَنْتَ تَحْرُسُ الْمَالَ ، وَالْعِلْمُ يَزِيدُ بِالْإِنْفَاقِ وَالْمَالُ يَنْقُصُ بِالْإِنْفَاقِ ، وَالْمَالُ يُسْرَقُ وَالْوِلَايَةُ يُعْزَلُ عَنْهَا وَالْعِلْمُ لَا تَمْتَدُّ إِلَيْهِ أَيْدِي السَّرَاقِ

بالأخذ ، ولا أيدي السلاطين بالعزل ، فيكون صاحبه في رَوْحِ الأَمَنِ أبداً ،
وصاحب المال والجاه في كَرْبِ الخوفِ أبداً .

ثمَّ العلمُ نافعٌ ولذيذٌ وجميلٌ في كلِّ حالٍ أبداً ، والمالُ تارةً يجذبُ إلى
الهلاكِ ، وتارةً يجذبُ إلى النجاةِ ، ولذلك ذمَّ اللهُ تعالى المالَ في القرآنِ في
مواضعٍ وإن سَمَّاهُ خيراً في مواضعٍ .

وأمَّا قصورُ أكثرِ الخلقِ عن إدراكِ لَذَّةِ العلمِ . . فإمَّا لعدمِ الذوقِ ، فَمَنْ
لَمْ يَذُقْ . . لَمْ يَعْرِفْ وَلَمْ يَشْتَقْ ؛ إذ الشوقُ تبعُ الذوقِ ، وإمَّا لفسادِ أمزجتِهِمْ
ومرضِ قلوبِهِمْ بسببِ اتباعِ الشهواتِ ؛ كالمريضِ الذي لا يدركُ حلاوةَ
العسلِ ويراهُ مرّاً ، وإمَّا لقصورِ فطرتِهِمْ ؛ إذ لَمْ تُخَلَقْ لَهُمْ بعدُ الصفةُ التي بها
يُستلذُّ العلمُ ؛ كالطفلِ الرضيعِ الذي لا يدركُ لَذَّةَ العسلِ والطيورِ السمانِ ،
ولا يستلذُّ إلا اللبنَ ، وذلك لا يدلُّ على أنها ليستْ لذيدةً ، ولا استطابتهُ
للبنِ تدلُّ على أنه ألذُّ الأشياءِ .

فالقاصرونَ عن دركِ لَذَّةِ العلمِ والحكمةِ ثلاثةٌ : إمَّا مَنْ لَمْ يَحْيَ بعدُ
باطنهُ كالطفلِ ، وإمَّا مَنْ ماتَ بعدَ الحياةِ باتباعِ الشهواتِ ، وإمَّا مَنْ مرضَ
بسببِ اتباعِ الشهواتِ .

وقوله تعالى : ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ ﴾ إشارةٌ إلى مرضِ العقولِ ، وقوله عزَّ
وجلَّ : ﴿ لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا ﴾ إشارةٌ إلى مَنْ لَمْ يَحْيَ حياةً باطنةً ، وكلُّ حيٍّ
بالبدنِ ميّتٌ بالقلبِ فهو عندَ اللهِ مِنَ الموتى وإن كانَ عندَ الجهَّالِ مِنَ

الأحياء ، ولذلك كَانَ الشهداءُ أحياءَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فرحينَ وإنْ كانوا موتى بالأبدانِ .

الثانيةُ : لذةُ يشاركُ الإنسانُ فيها بعضَ الحيواناتِ : كلذةُ الرئاسةِ والغلبةِ والاستيلاءِ ، وذلكَ موجودٌ في الأسدِ والنمرِ وبعضِ الحيواناتِ .

الثالثةُ : ما يشاركُ الإنسانُ بها سائرَ الحيواناتِ : كلذةُ البطنِ والفرجِ ، وهذهُ أكثرُها وجوداً ، وهي أخسُّها ، ولذلكَ اشتركَ فيها كلُّ ما دبَّ ودرجَ حتَّى الديدانُ والحشراتُ .

ومَنْ جاوزَ هذهَ الرتبةَ . . تشبَّثَ بِهَ لذةُ الغلبةِ ، وهي أشدُّها التصاقاً بالمتعافلين^(١) ، فإنْ جاوزَ ذلكَ . . ارتقى إلى الثالثةِ ، فصارَ أغلبُ اللذاتِ عليه لذةُ العلمِ والحكمةِ ، لا سيما لذةُ معرفةِ اللهِ تعالى ومعرفةِ صفاتهِ وأفعالهِ ، وهذهِ رتبةُ الصديقينَ ، ولا يُنالُ تمامُها إلا بخروجِ استيلاءِ حبِّ الرئاسةِ مِنَ القلبِ ، وآخرُ ما يخرجُ مِنْ رُؤوسِ الصديقينَ حبُّ الرئاسةِ ، وأمَّا شرُّ البطنِ والفرجِ . . فكسرُهُ ممَّا يقوى عليه الصالحونَ ، وشهوةُ الرئاسةِ لا يقوى على قهرِها إلا الصديقونَ ، فأما قمعُها بالكليةِ حتَّى لا يقعَ بها الإحساسُ على الدوامِ وفي اختلافِ الأحوالِ . . فيشبهُ أَنْ يكونَ خارجاً عن مقدورِ البشرِ .

(١) في (د) : (المتعافلين) .

نعم ، تغلب لذّة معرفة الله في أحوال لا يقع معها الإحساس بلذّة الرئاسة والغلبة ، ولكن ذلك لا يدوم طول العمر ، بل تعتريه الفترات ، فتعود إليه الصفات البشريّة ، فتكون موجودة ولكن تكون مقهورة لا تقوى على حمل النفس على العدول عن العدل .

وعند هذا تنقسم القلوب إلى أربعة أقسام :

قلب لا يحب إلا الله تعالى ، ولا يستريح إلا بزيادة المعرفة به والفكر فيه ، وقلب لا يدري ما لذّة المعرفة ، وما معنى الأنس بالله ، وإنما لذته بالجاه والرئاسة والمال وسائر الشهوات البدنيّة ، وقلب أغلب أحواله الأنس بالله سبحانه والتلذذ بمعرفته والفكر فيه ، ولكن قد يعتريه في بعض الأحوال الرجوع إلى أوصاف البشريّة ، وقلب أغلب أحواله التلذذ بالصفات البشريّة ويعتريه في بعض الأحوال تلذذ بالعلم والمعرفة .

أمّا الأوّل . . فإن كان ممكناً في الوجود فهو في غاية البعد .

وأمّا الثاني . . فالدنيا طافحة به .

وأمّا الثالث والرابع . . فموجودان ولكن على غاية الدور ، ولا يتصور أن يكون ذلك إلا نادراً شاذّاً ، وهو مع الدور يتفاوت في القلّة والكثرة ، وإنما تكون كثرتة في الأعصار القريبة من أعصار الأنبياء عليهم السلام ، فلا يزال يزداد العهد طولاً وتزداد مثل هذه القلوب قلّة إلى أن تقرب الساعة ، ويقضي الله أمراً كان مفعولاً .

وإنما وجب أن يكون هذا نادراً ؛ لأنه مبادي ملك الآخرة ، والملك عزيز ، والملوك لا يكثرون ، فكما لا يكون الفائق في الملك والجمال إلا نادراً وأكثر الناس من دونهم . . فكذا في ملك الآخرة ، فإن الدنيا مرآة الآخرة ، فإنها عبارة عن عالم الشهادة ، والآخرة عبارة عن عالم الغيب ، وعالم الشهادة تابع لعالم الغيب ؛ كما أن الصورة في المرآة تابعة لصورة الناظر في المرآة ، والصورة في المرآة وإن كانت هي الثانية في رتبة الوجود فإنها أولى في حق رؤيتك ، فإنك لا ترى نفسك ، وترى صورتك في المرآة أولاً ، فتعرف بها صورتك التي هي قائمة بك ثانياً على سبيل المحاكاة ، فانقلب التابع في الوجود متبوعاً في حق المعرفة ، وانقلب المتأخر متقدماً ، وهذا نوع من الانعكاس ، ولكن الانعكاس والانتكاس ضرورة هذا العالم ، فكذلك عالم الملك والشهادة محال لعالم الغيب والملوكوت .

فمن الناس من يُسرَّ له نظر الاعتبار ، فلا ينظر في شيء من عالم الملك إلا ويعبر به إلى عالم الملوكوت ، فيسمى عبوره عبرة ، وقد أمر الخلق به ، فقل : ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴾ .

ومنهم من عميت بصيرته فلم يعبر ، فاحتبس في عالم الملك والشهادة ، وستفتح إلى حبه أبواب جهنم ، وهذا الحبس مملوء ناراً من شأنها أن تطلع على الأفئدة ، إلا أن بينه وبين إدراك ألمها حجاباً ، فإذا رُفِعَ ذلك الحجاب بالموت . . أدرك .

وعن هذا أظهر الله الحق على لسان قوم استنطقهم بالحق^(١) ، فقالوا :
 (الجنة والنار مخلوقتان) ، ولكن الجحيم تدرك مرة بإدراك يُسمى علم
 اليقين ، ومرة بإدراك آخر يُسمى عين اليقين ، وعين اليقين لا يكون إلا في
 الآخرة ، وعلم اليقين قد يكون في الدنيا ، ولكن للذين وفر حظهم من نور
 اليقين ، فلذلك قال تعالى : ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴾ لَتَرَوُنَّ
 الْجَحِيمَ ﴿ أَيُّ : في الدنيا ، ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾ أَيُّ : في الآخرة .
 فإذا ؛ قد ظهر أن القلب الصالح لملك الآخرة لا يكون إلا عزيزاً
 كالشخص الصالح لملك الدنيا .



قِسْمَةُ سَادِسَةٌ حَاوِيَةٌ لِمَجَامِعِ النِّعَمِ :

اعلم : أن النعم تنقسم إلى ما هي غاية مطلوبة لذاتها ، وإلى ما هي
 مطلوبة لأجل الغاية .

أما الغاية . . فإنها سعادة الآخرة ، ويرجع حاصلها إلى أربعة أمور : بقاء
 لا فناء له ، وسرور لا غم فيه ، وعلم لا جهل معه ، وغنى لا فقر بعده ، وهي
 النعمة الحقيقية ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا عيش إلا
 عيش الآخرة » ، وقال ذلك مرة في الشدة تسلياً للنفس ، وذلك في وقت حفر

(١) قوله : (وعن هذا) أي : بسبب ما ذكر ، فعن هنا للتسبب ، والمراد بالقوم : أهل
 السنة والجماعة .

الخندق في شدّة الضرّ ، وقالَ ذلكَ مرّةً في السرورِ منعاً للنفسِ مِنَ الركونِ إلى سرورِ الدنيا ، وذلكَ عندَ إحداقِ الناسِ بهِ في حجّةِ الوداعِ ^(١) .

وقالَ رجلٌ : اللهمّ ؛ إنّي أسألكَ تمامَ النعمةِ ، فقالَ النبيُّ صلّى اللهُ عليه وسلّمَ : « وهلْ تعلمُ ما تمامُ النعمةِ ؟ » ، قالَ : لا ، قالَ : « تمامُ النعمةِ دخولُ الجنةِ » ^(٢) .

وأما الوسائلُ . . فتقسمُ إلى الأقربِ الأخصّ ؛ كفضائلِ النفسِ ، وإلى ما يليه في القربِ ؛ كفضائلِ البدنِ ، وهو الثاني ، وإلى ما يليه في القربِ ويجاوزُ إلى غيرِ البدنِ ؛ كالأسبابِ المطيفةِ بالبدنِ مِنَ المالِ والأهلِ والعشيرةِ ، وإلى ما يجمعُ بينَ هذهِ الأسبابِ الخارجةِ عنِ النفسِ وبينَ الحاصلةِ للنفسِ ؛ كالتوفيقِ والهدايةِ ، فهي إذاً أربعةُ أنواعٍ .

النوعُ الأوّلُ وهو الأخصّ : الفضائلُ النفسيّةُ : ويرجعُ حاصلُها مع انشعابِ أطرافِها إلى الإيمانِ وحسنِ الخلقِ ، وينقسمُ الإيمانُ إلى علمِ المكاشفةِ ؛ وهو العلمُ باللهِ تعالى وصفاتهِ وملائكتهِ ورسولهِ ، وإلى علومِ المعاملةِ .

وحسنُ الخلقِ ينقسمُ إلى قسمينِ : تركُ مقتضى الشهوةِ والغضبِ واسمُهُ العفّةُ ، ومراعاةُ العدلِ في الكفِّ عن مقتضى الشهواتِ والإقدامِ حتّى

(١) رواه الشافعي كما في « الأم » (٣ / ٣٩١) عن مجاهد مرسلًا .

(٢) رواه الترمذي (٣٥٢٧) .

لا يمتنع أصلاً ولا يقدم كيف شاء ، بل يكون إقدامه وإحجامه بالميزان العدل الذي أنزله الله سبحانه وتعالى على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم إذ قال تعالى : ﴿ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ .

فمن خصى نفسه ليزيل شهوة النكاح ، أو ترك النكاح مع القدرة والأمن من الآفات ، أو ترك الأكل حتى ضعف عن العبادة والذكر والفكر . فقد أخسر الميزان ، ومن انهماك في شهوة البطن والفرج . فقد طغى في الميزان ، وإنما العدل أن يخلو وزنه وتقديره عن الطغيان والخسران ، فتعتدل به كفتا الميزان .

فإذا ؛ الفضائل الخاصة بالنفس المقربة إلى الله تعالى أربعة : علم مكاشفة ، وعلم معاملية ، وعفة ، وعدالة ، ولا يتم هذا في غالب الأمر إلا بالنوع الثاني ، وهي الفضائل البدنية ، وهي أربعة : الصحة ، والقوة ، والجمال ، وطول العمر ، ولا تتهيأ هذه الأمور الأربعة إلا بالنوع الثالث ، وهي النعم الخارجة المطيفة بالبدن ، وهي أربعة : المال ، والأهل ، والجاه ، وكرم العشيرة ، ولا يتفعل بشيء من هذه الأسباب الخارجة والبدنية إلا بالنوع الرابع ، وهي الأسباب التي تجمع بينها وبين ما يناسب الفضائل النفسية الداخلة ، وهي أربعة : هداية الله ، ورشده ، وتسديده ، وتأييده .

فمجموع هذه النعم ست عشرة ؛ إذ قسمناها إلى أربعة وقسمنا كل واحدة من الأربعة إلى أربعة .

وهذه الجملة يحتاج البعض منها إلى البعض ؛ إمّا حاجة ضرورية ، أو نافعة .

أمّا الحاجة الضرورية . . فكحاجة سعادة الآخرة إلى الإيمان وحسن الخلق ؛ إذ لا سبيل إلى الوصول إلى سعادة الآخرة ألبتة إلا بهما ، فليس للإنسان إلا ما سعى ، وليس لأحد في الآخرة إلا ما تزود من الدنيا ، وكذلك حاجة الفضائل النفسية بكسب العلوم وتهذيب الأخلاق إلى صحة البدن ضروري .

وأمّا الحاجة النافعة على الجملة . . فكحاجة هذه النعم النفسية والبدنية إلى النعم الخارجة ؛ مثل المال والعز والأهل ؛ فإن ذلك لو عُدِم . . ربما تطرّق الخلل إلى بعض النعم الداخلة .



فإن قلت : فما وجه الحاجة لطريق الآخرة إلى النعم الخارجة من المال والأهل والجاه والعشيرة ؟

فاعلم : أن هذه الأسباب جارية مجرى الجناح المبلّغ والآلة المسهّلة للمقصود .

أمّا المال : فالفقير في طلب العلم والكمال وليس معه كفاية كساع إلى

الهيجا بغير سلاح ، وكباز يروم الصيد بلا جناح^(١) .
ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « نعم المال الصالح للرجل
الصالح »^(٢) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « نعم العون على تقوى الله المال »^(٣) .
وكيف لا ومن عدم المال . . صار مستغرق الأوقات في طلب الأوقات ،
وفي تهيئة اللباس والمسكن وضرورات المعيشة ؟ !
ثم يتعرض لأنواع من الأذى تشغله عن الذكر والفكر ، ولا تندفع إلا
بسلاح المال ، ثم مع ذلك يحرم عن فضيلة الحج والزكاة والصدقات
وإفاضة الخيرات !

وقال بعض الحكماء وقد قيل له : ما النعيم ؟ فقال : الغنى ؛ فإنني
رأيت الفقير لا عيش له ، قيل : زدنا ، قال : الأمن ؛ فإنني رأيت الخائف
لا عيش له ، قيل : زدنا ، قال : العافية ؛ فإنني رأيت المريض لا عيش له ،
قيل : زدنا ، قال : الشباب ؛ فإنني رأيت الهرم لا عيش له^(٤) .

(١) الهيجا : الحرب .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (١٩٧ / ٤) ، وابن حبان في « صحيحه » (٣٢١٠) .

(٣) رواه الديلمي في « مسند الفردوس » (٦٧٥٦) من حديث جابر رضي الله عنه مرفوعاً ،
ورواه القضاعي في « مسند الشهاب » (١٣١٧) من حديث محمد بن المنكدر مرسلاً ،
ورواه ابن حبان في « روضة العقلاء » (ص ٢٢٤) من كلام محمد بن المنكدر .

(٤) قوت القلوب (٢٠٩ / ١) .

وكأنَّ ما ذكره إشارةً إلى نعيم الدنيا ، ولكنَّه مِنْ حيثُ إِنَّه معيْنٌ على الآخرة فهو نعمةٌ ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : « مَنْ أَصْبَحَ معافى في بدنه ، آمناً في سربه ، عنده قوتٌ يومه .. فكأنما حيزتْ له الدنيا بحذاقٍ » (١) .

وأما الأهلُ والولدُ الصالحُ : فلا يخفى وجهُ الحاجةِ إليهما ؛ إذ قال صلى الله عليه وسلم : « نِعْمَ العونُ على الدينِ المرأةُ الصالحةُ » (٢) .
وقال صلى الله عليه وسلم في الولدِ : « إذا ماتَ العبدُ .. انقطعَ عمله إلا مِنْ ثلاثٍ : ولدٌ صالحٌ يدعو له .. » الحديث (٣) ، وقد ذكرنا فوائدَ الأهلِ والولدِ في كتابِ النكاحِ .

وأما الأقاربُ : فمهما كثرَ أولادُ الرجلِ وأقاربهُ .. كانوا له مثلَ الأعينِ والأيدي ، فيتيسَّرُ له بسببِهِمْ مِنَ الأمورِ الدنيويَّةِ المهمَّةِ في دينِهِ ما لو انفردَ به .. لطالَ شغلُهُ ، وكلُّ ما يفرغُ قلبُكَ عنِ ضروراتِ الدنيا فهو معيْنٌ لك على الدينِ ، فهو إذاً نعمةٌ .

(١) رواه الترمذي (٢٣٤٦) ، وابن ماجه (٤١٤١) من حديث عبيد بن محصن رضي الله عنه مرفوعاً ، وليس عندهما : (بحذاقٍ) ، وهي عند أبي نعيم في « الحلية » (٢٤٩/٥) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه مرفوعاً .

(٢) رواه مسلم (١٤٦٧) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما مرفوعاً بلفظ : « الدنيا متاع ، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة » .

(٣) رواه مسلم (١٦٣١) .

وأما العز والجاه : فيه يدفع الإنسان عن نفسه الذل والضميم ، ولا يستغني عنه مسلم ، فإنه لا ينفك عن عدو يؤذيه ، وظالم يشوش عليه علمه وعمله وفراغه ، ويشغل قلبه ، وقلبه رأس ماله ، وإنما تدفع هذه الشواغل بالعز والجاه ، ولذلك قيل : (الدين والسلطان توءمان) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾ .

ولا معنى للجاه إلا ملك القلوب ؛ كما لا معنى للغنى إلا ملك الدراهم ، ومن ملك القلوب . . تسخرت له أرباب القلوب لدفع الأذى عنه ، فكما يحتاج الإنسان إلى سقف يدفع عنه المطر ، وجبة تدفع عنه البرد ، وكلب يدفع الذئب عن ماشيته . . فيحتاج أيضاً إلى من يدفع الشر به عن نفسه .

وعلى هذا القصد كان الأنبياء الذين لا ملك لهم ولا سلطنة يراعون السلاطين ويطلبون عندهم الجاه ، وكذلك علماء الدين ، لا على قصد التناول من خزائنها أو الاستئثار والاستكثار في الدنيا بمتابعتهم .

ولا تظن أن نعمة الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم حيث نصره وأكمل دينه وأظهره على جميع أعدائه ومكن له في القلوب حبه حتى اتسع به عزه وجاهه . . كانت أقل من نعمته عليه حيث كان يؤذى ويضرب حتى افتقر إلى الهرب والهجرة .

فإن قلت : كرم العشيرة وشرف الأهل هو من النعم أم لا ؟
 فأقول : نعم ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الأئمة
 من قريش »^(١) .

ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أكرم الناس أرومة في
 نسب آدم عليه السلام^(٢) .

ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « تخيروا لنطفكم الأكفاء »^(٣) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إياكم وخضراء الدمن » ، فقيل :
 وما خضراء الدمن ؟ قال : « المرأة الحسناء في المنبت السوء »^(٤) .

فهذا أيضاً من النعم ، ولست أعني به الانتساب إلى الظلمة وأرباب
 الدنيا ، بل الانتساب إلى شجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإلى أئمة
 العلماء ، وإلى الصالحين والأبرار المتزئنين بالعلم والعمل .



(١) رواه النسائي في « السنن الكبرى » (٥٩٠٩) .

(٢) الأرومة : الأصل ، وروى مسلم (٢٢٧٦) عن وائلة بن الأسقع رضي الله عنه مرفوعاً :
 « إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى من
 قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم » .

(٣) رواه ابن ماجه (١٩٦٨) ، والحاكم في « المستدرک » (١٦٣ / ٢) .

(٤) رواه الرامهرمزي في « أمثال الحديث » (٨٤) ، والشهاب في « مسنده » (٩٥٧) ،
 والديلمي في « مسند الفردوس » (١٥٣٧) .

فإن قلت : فما غناء الفضائل البدنيّة ؟

فأقول : لا خفاء بشدّة الحاجة إلى الصحة وإلى القوّة وإلى طول العمر ؛ إذ لا يتمُّ علمٌ وعملٌ إلا بهما ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلّم : « أفضلُ السعاداتِ طولُ العمرِ في طاعةِ الله تعالى »^(١) .

وإنّما يُستحقرُّ من جملة أمر الجمال ، فيقال : يكفي أن يكون البدنُ سليماً من الأمراضِ الشاغلة عن تحرّي الخيرات ، ولعمري ؛ الجمالُ قليلُ الغناء ، ولكنّه من الخيرات أيضاً ، أمّا في الدنيا . فلا يخفى نفعه فيها ، وأمّا في الآخرة . فمن وجهين :

أحدهما : أن القبيحَ مذمومٌ ، والطباعُ عنه نافرةٌ ، وحاجاتُ الجميلِ إلى الإجابة أقربُ ، وجاهه في الصدورِ أوسعُ ، فكأنّه من هذا الوجهِ جناحٌ مبلغُ كالمالِ والجاهِ ؛ إذ هو نوعُ قدرةٍ ، إذ يقدرُ الجميلُ الوجهَ على تنجيزِ حاجاتٍ لا يقدرُ عليها القبيحُ ، وكلُّ معينٍ على قضاءِ حاجاتِ الدنيا فمعينٌ على الآخرةِ بواسطتها .

(١) رواه القضاعي في « مسند الشهاب » (٣١٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (١٦ / ٦) من حديث عبد الله بن حنطب ، ولفظ : « إن السعادة كل السعادة طول العمر في طاعة الله عز وجل » ، وروى الترمذي (٢٣٢٩) عن عبد الله بن بسر رضي الله عنه : أن أعرابياً قال : يا رسول الله ؛ من خير الناس ؟ قال : « من طال عمره وحسن عمله » .

والثاني : أنَّ الجمالَ في الأكثرِ يدلُّ على فضيلةِ النفسِ ؛ لأنَّ نورَ النفسِ إذا تمَّ إشراقُهُ . . تأدَّى إلى البدنِ^(١) ، فالمنظرُ والمخبرُ كثيراً ما يتلازمان .

ولذلك عوَّل أصحابُ الفراسةِ في معرفةِ مكارمِ النفسِ على هيئاتِ البدنِ وقالوا : الوجهُ والعينُ مرآةُ الباطنِ ، ولذلك يظهرُ فيه أثرُ الغضبِ والسرورِ والغمِّ .

ولذلك قيلَ : (طلاقةُ الوجهِ عنوانُ ما في النفسِ) .

وقيلَ : (ما في الأرضِ قبيحٌ إلا ووجهُهُ أحسنُ ما فيه) .

واستعرضَ المأمونُ جيشاً ، فعرضَ عليه رجلٌ قبيحٌ ، فاستنطقَهُ ، فإذا هو أَلْكَنُ ، فأسقطَ اسمَهُ مِنَ الديوانِ وقالَ : الروحُ إذا أشرقتْ على الظاهرِ . . فصباحَةٌ ، أو على الباطنِ . . ففصاحَةٌ ، وهذا ليسَ له ظاهرٌ ولا باطنٌ .

وقد قالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « اطلبوا الخيرَ عندَ حسانِ الوجوهِ »^(٢) .

(١) وكلُّ شخصٍ فله حكمان : أحدهما من قبل جسمه وهو منظره ، والآخر من قبل نفسه وهو مخبره . « إتحاف » (٩٠ / ٩) .

(٢) رواه أحمد في « فضائل الصحابة » (١٢٤٦) ، وأبو يعلى في « مسنده » (٤٧٥٩) ، والخرائطي في « اعتلال القلوب » (٣٤٢) من حديث جبرة بنت محمد بن ثابت عن أبيها عن عائشة مرفوعاً ، ورواه عبد بن حميد في « مسنده » (٧٥٢) من حديث ابن عمر مرفوعاً ، والطبراني في « الكبير » (٨١ / ١١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً .

وقال عمر رضي الله تعالى عنه : (إذا بعثتم رسولاً . . فاطلبوا حسن الوجه ، حسن الاسم)^(١) .

وقال الفقهاء : إذا تساوت درجات المصلين . . فأحسنهم وجهاً أولاهم بالإمامة^(٢) .

وقال الله تعالى ممتناً بذلك : ﴿ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾ .
ولسنا نعني بالجمال ما يحرّك الشهوة ؛ فإنّ ذلك أنوثة ، وإنّما نعني به ارتفاع القامة على الاستقامة ، مع الاعتدال في اللحم ، وتناسب الأعضاء ، وتناسف خلقه الوجه ، بحيث لا تنبو الطباع عن النظر إليه .



فإن قلت : فقد أدخلت المال والجاه والنسب والأهل والولد في حيز النعم وقد ذمّ الله تعالى المال والجاه ، وكذا رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٣) ، وكذا العلماء ؛ قال تعالى : ﴿ إِنِّمَنْ أَزْوَاجُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ عَدُوٌّ لَّكُمْ فَأَحْذَرُوهُمْ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ ، وقال

(١) روى هذا مرفوعاً أبو الشيخ في « أخلاق النبي » (٧٥٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) وروى فيه البيهقي حديثاً مرفوعاً في « السنن الكبرى » (١٢١ / ٣) .

(٣) روى الترمذي (٢٣٧٦) من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه مرفوعاً : « ما ذنبان جائعان أرسلاني غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه » .

عليّ رضي الله عنه في ذمّ النسب : (الناسُ أبناءُ ما يحسنون)^(١) ، و (قيمة كل امرئ ما يحسنه)^(٢) ، وقيل : (المرء بنفسه لا بأبيه) ، فما معنى كونها نعمة مع كونها مذمومة شرعاً ؟

فاعلم : أن من يأخذ العلوم من الألفاظ المنقولة المؤولة والعمومات المخصصة . . كان الضلال عليه أغلب ما لم يهتد بنور الله تعالى إلى إدراك العلوم على ما هي عليه ، ثم ينزل النقل على وفق ما ظهر له منها ؛ بالتأويل مرة ، وبالتخصيص أخرى ، فهذه نعم معينة على أمر الآخرة لا سبيل إلى جحدّها ، إلا أن فيها فتناً ومخاوف .

فمثال المال مثال الحية التي فيها ترياق نافع وسم نافع ، فإن أصابها المعزّم الذي يعرف وجه الاحتراز عن سمّها وطريق استخراج ترياقها النافع . . كانت نعمة ، وإن أصابها السوادي الغرّ . . فهي عليه بلاء وهلاك .

وهو مثل البحر الذي تحته أصناف الجواهر واللالى ، فمن ظفر بالبحر ؛ فإن كان عالماً بالسباحة وطريق الغوص وطريق الاحتراز عن مهلكات البحر . . فقد ظفر بنعمه ، وإن خاضه جاهلاً بذلك . . فقد هلك .

فلذلك مدح الله تعالى المال وسمّاه خيراً ، ومدحه رسول الله صلى الله

(١) كذا أورده الماوردي في « أدب الدنيا والدين » (ص ٤٨) .

(٢) كذا أورده العسكري في « ديوان المعاني » (١٤٦ / ١) .

عليه وسلّم وقال : « نعم العون على تقوى الله تعالى المال » (١) .

وكذلك مدح الجاه والعز ؛ إذ من الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم بأن أظهره على الدين كله ، وحببه في قلوب الخلق ، وهو المعني بالجاه ، ولكن المنقول في مدحهما قليل ، والمنقول في ذم المال والجاه كثير ، وحيث ذم الرياء فهو ذم الجاه ، إذ الرياء مقصوده اجتلاب القلوب ، ومعنى الجاه ملك القلوب ، وإنما كثر هذا وقل ذلك لأن الناس أكثرهم جهال بطريق الرقية لحيّة المال ، وطريق الغوص في بحر الجاه ، فوجب تحذيرهم ؛ فإنهم يهلكون بسبب المال قبل الوصول إلى ترياقه ، ويهلكهم تمساح بحر الجاه قبل العثور على جواهره ، ولو كانا في أعينهما مذمومين بالإضافة إلى كل أحد . . لما تصوّر أن ينضاف إلى النبوة الملك ؛ كما كان لرسولنا صلى الله عليه وسلم ، ولا أن ينضاف إليها الغنى ؛ كما كان لسليمان عليه السلام .

فالناس كلهم صبيان ، والأموال حيّات ، والأنبياء والعارفون معزّمون ، فقد يضر الصبي ما لا يضر المعزّم .

نعم ، المعزّم لو كان له ولد يريد بقاءه وإصلاحه وقد وجد حيّة وعلم أنه لو أخذها لأجل ترياقها لاقتدى به ولده وأخذ الحيّة إذا رآها ليلعب بها

(١) رواه الديلمي في « مسند الفردوس » (٦٧٥٦) من حديث جابر رضي الله عنه مرفوعاً ، ورواه القضاعي في « مسند الشهاب » (١٣١٧) من حديث محمد بن المنكدر مرسلاً ، ورواه ابن حبان في « روضة العقلاء » (ص ٢٢٤) من كلام محمد بن المنكدر .

فيهلك.. فله غرضٌ في الترياق ، وله غرضٌ في حفظِ الولدِ ، فواجبٌ عليه أن يزنَ غرضه في الترياقِ بغرضه في حفظِ الولدِ ، فإذا كانَ يقدرُ على الصبرِ عن الترياقِ ولا يستضرُّ به ضرراً كثيراً ، ولو أخذها لأخذها الصبيُّ ، ويعظمُ ضررهُ بهلاكه.. فواجبٌ عليه أن يهربَ عن الحيَّةِ إذا رآها ويشيرُ على الصبيِّ بالهربِ ، ويقبِّحُ صورتها في عينه ، ويعرفه أن فيها سمّاً قاتلاً لا ينجو منه أحدٌ ، ولا يحدثه أصلاً بما فيها من نفعِ الترياقِ ؛ فإنَّ ذلكَ ربما يغره فيقدمُ عليه من غيرِ تمامِ المعرفة .

وكذلك الغواصُّ إذا علمَ أنه لو غاصَ في البحرِ بمرأى من ولدهِ لاتبعهُ وهلك.. فواجبٌ عليه أن يحذّرَ الصبيَّ ساحلَ البحرِ والنهرِ ، فإنَّ كانَ لا ينزجرُ الصبيُّ بمجردِ الزجرِ مهما رأى أباهُ يحومُ حولَ الساحلِ.. فواجبٌ عليه أن يبعدَ من الساحلِ مع الصبيِّ ولا يقربَ منه بينَ يديه .

فكذلك الأُمَّةُ في حجرِ الأنبياءِ عليهمُ السلامُ كالصبيانِ الأغبياءِ ، ولذلك قالَ صلى الله عليه وسلمَ : « إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ مِثْلُ الْوَالِدِ لَوْلَدِهِ »^(١) .

وقالَ عليه الصلاة والسلامُ : « إِنَّكُمْ تَتَهَاوَنُونَ عَلَى النَّارِ تَهَاوَتِ الْفَرَاشِ وَأَنَا آخِذٌ بِحُجْزِكُمْ »^(٢) .

وحظُّهم الأوفرُ في حفظِ أولادِهِم عن المهالكِ ، فإنَّهم لم يُبعثوا إلا

(١) رواه أبو داود (٨) ، والنسائي (٣٨/١) ، وابن ماجه (٣١٣) .

(٢) رواه البخاري (٦٤٨٣) ، ومسلم (٢٢٨٤) .

لذلك ، وليس لهم في المال حظٌ إلا بقدرِ القوتِ ، فلا جرمَ اقتصروا على قدرِ القوتِ ، وما فضلَ فلمْ يمسكوه ، بلْ أنفقوه ؛ فإنَّ الإنفاقَ فيه الترياقُ ، وفي الإمساكِ السُّمُّ ، ولو فُتِحَ للناسِ بابُ كسبِ المالِ ورُغِبوا فيه . . لمالوا إلى سُمِّ الإمساكِ ، ورغبوا عن ترياقِ الإنفاقِ ، فلذلك قُبِّحَتِ الأموالُ ، والمعنيُّ به تقبيحُ إمساكِها ، والحرصُ عليها للاستكثارِ منها ، والتوسعُ في نعيمِها بما يوجبُ الركونَ إلى الدنيا ولذاتها ، فأما أخذُها بقدرِ الكفايةِ ، وصرفُ الفاضلِ إلى الخيراتِ . . فليسَ بمذمومٍ .

وحقُّ كلِّ مسافرٍ ألا يحملَ إلا بقدرِ زادِهِ في السفرِ إذا صمَّم العزمَ على أن يختصَّ بما يحمله ، فأما إن سمحتَ نفسُهُ بإطعامِ الطعامِ وتوسيعِ الزادِ على الرفقاء . . فلا بأسَ بالاستكثارِ ، وقولُهُ عليه الصلاةُ والسلامُ : « ليكنْ بلاغُ أحدِكُمْ مِنَ الدُّنيا كزادِ الراكِبِ »^(١) معناه : لأنفسِكُمْ خاصَّةً ، وإلا . . فقد كانَ فيمنْ يروي هذا الحديثَ ويعملُ به مَنْ يأخذُ مئةَ ألفِ درهمٍ في موضعٍ واحدٍ ويفرِّقُها في موضعِهِ ، ولا يمسكُ منها حَبَّةً^(٢) .

(١) رواه الترمذي (١٧٨٠) عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا أردتِ اللُّحوقَ بي . . فليَكفِكِ مِنَ الدُّنيا كزادِ الراكِبِ . . » ، ورواه ابن ماجه (٤١٠٤) عن سلمان رضي الله عنه قال : (عهد إليّ - رسول الله صلى الله عليه وسلم - أنه يكفي أحدكم مثل زاد الراكِبِ . .) .

(٢) منهم السيدة المبجلة عائشة رضي الله عنها ، كما سبق ذكر ذلك عنها في كتاب (ذم البخل) عند بدء الكلام على حكايات الأسخياء وكذا سلمان رضي الله عنه ، فقد روى أبو نعيم في « الحلية » (١ / ١٩٨) : (أن عطاءه كان خمسة آلاف درهم ، وكان أميراً =

ولمَّا ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ الْأَغْنِيَاءَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِشِدَّةٍ . . . اسْتَأْذَنَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي أَنْ يَخْرُجَ عَنْ جَمِيعِ مَا يَمْلِكُهُ ، فَأُذِنَ لَهُ ، فَتَزَلَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَالَ : مُرُّهُ بِأَنْ يَطْعَمَ الْمَسْكِينَ ، وَيَكْسُوَ الْعَارِيَ ، وَيَقْرِيَ الضَّيْفَ . . . الْحَدِيثُ (١) .

فَإِذَا ؛ النِّعَمُ الدُّنْيَوِيَّةُ مَشُوبَةٌ ، قَدْ امْتَزَجَ دَاوُهَا بِدَوَائِهَا ، وَمَرْجُوُّهَا بِمَخُوفِهَا ، وَنَفْعُهَا بِضَرِّهَا ، فَمَنْ وَثَّقَ بِبَصِيرَتِهِ وَكَمَالِ مَعْرِفَتِهِ . . . فَلَهُ أَنْ يَقْرُبَ مِنْهَا مُتَقِيًا دَاءَهَا وَمُسْتَخْرَجًا دَوَاءَهَا ، وَمَنْ لَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ . . . فَالْبَعْدَ الْبَعْدَ ، وَالْفِرَارَ الْفِرَارَ عَنْ مَظَانِّ الْأَخْطَارِ ، فَلَا تَعْدِلْ بِالسَّلَامَةِ شَيْئًا فِي حَقِّ هَؤُلَاءِ ، وَهُمْ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ إِلَّا مَنْ عَصَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَهَدَاهُ لَطَرِيقِهِ .



فَإِنْ قُلْتَ : فَمَا مَعْنَى النِّعَمِ التَّوْفِيقِيَّةِ الرَّاجِعَةِ إِلَى الْهَدَايَةِ وَالرُّشْدِ وَالتَّائِيدِ وَالتَّسْدِيدِ ؟

فَاعْلَمْ : أَنَّ التَّوْفِيقَ لَا يَسْتَغْنِي عَنْهُ أَحَدٌ ، وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنِ التَّأْلِيفِ وَالتَّلْفِيقِ بَيْنَ إِرَادَةِ الْعَبْدِ وَبَيْنَ قَضَاءِ اللَّهِ وَقُدْرِهِ ، وَهَذَا يَشْمَلُ الشَّرَّ وَالْخَيْرَ ، وَمَا هُوَ سَعَادَةٌ وَمَا هُوَ شَقَاوَةٌ ، وَلَكِنْ جَرَتْ الْعَادَةُ بِتَخْصِيصِ اسْمِ التَّوْفِيقِ بِمَا يُوَافِقُ

= عَلَى زَهَاءِ ثَلَاثِينَ أَلْفًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَكَانَ يَخْطُبُ النَّاسَ فِي عِبَادَةِ يَفْتَرِشُ بَعْضُهَا وَيَلْبَسُ بَعْضُهَا ، وَإِذَا خَرَجَ عَطَاوَهُ . . . أَمْضَاهُ وَيَأْكُلُ مِنْ سَفِيفِ يَدِهِ .

(١) رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي « الْمُسْتَدْرَكِ » (٣ / ٣١١) ، وَأَبُو نَعِيمٍ فِي « الْحَلِيَّةِ » (١ / ٩٩) ، وَابْنُ بَيْهَقٍ فِي « الشَّعْبِ » (٣٠٦٤) .

السعادة مِنْ جملة قضاء الله تعالى وقدره ، كما أَنَّ الإلحادَ عبارةٌ عن الميلِ ،
فخُصَّصَ بِمَنْ يميلُ إلى الباطلِ عن الحقِّ ، وكذا الارتدادُ .

ولا خفاءً بالحاجةِ إلى التوفيقِ ، ولذلك قيلَ ^(١) :

إِذَا لَمْ يَكُنْ عَوْنُ مِنَ اللَّهِ لِلْفَتَى فَأَكْثَرُ مَا يَجْنِي عَلَيْهِ أَجْتِهَادُهُ
فَأَمَّا الهدايةُ :

فلا سبيلَ لأحدٍ إلى طلبِ السعادةِ إلا بها ؛ لأنَّ داعيةَ الإنسانِ قد تكونُ
مائلةً إلى ما فيه صلاحُ آخرتهِ ، ولكن إذا لم يعلمْ ما فيه صلاحُ آخرتهِ حتَّى
يظنُّ الفسادَ صلاحاً . فَمِنْ أَيْنَ ينفعُهُ مجردُ الإرادةِ ؟ ! فلا فائدةَ في الإرادةِ
والقدرةِ والأسبابِ إلا بعدَ الهدايةِ .

ولذلك قال تعالى : ﴿ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ ﴾ .

وقال صلى الله عليه وسلم : « ما مِنْ أَحَدٍ يدخلُ الجنةَ إلا برحمةِ الله
تعالى » أي : بهدائِهِ ، فقليلٌ : ولا أنتَ يا رسولَ الله ؟ قال : « ولا
أنا » ^(٢) .

(١) البيت لسيدنا علي في « ديوانه » الموسوم بـ « أنوار العقول لوصي الرسول »
(ص ٢٦٤) .

(٢) رواه البخاري (٥٦٧٣) ، ومسلم (٢٨١٦) بنحوه .

وللهداية ثلاث منازل :

الأولى : معرفة طريق الخير والشر المشار إليه بقوله تعالى : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ ، وقد أنعم الله تعالى به على كافة عباده ، بعضه بالعقل ، وبعضه على لسان الرسل ، ولذلك قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾ ، فأسباب الهدى هي الكتب والرسل وبصائر العقول ، وهي مبذولة ، ولا يمنع منها إلا الحسد ، والكبر ، وحب الدنيا ، والأسباب التي تعمي القلوب وإن كانت لا تعمي الأبصار .

قال تعالى : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ .

ومن جملة المعميات الإلف والعادة وحب استصحابيهما ، وعنه العبارة بقوله تعالى : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ آبَاءَ نَاعِلٍ أُمَةٍ ... ﴾ الآية .

وعن الكبر والحسد العبارة بقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ أَبَشْرًا مِّثَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ ﴾ .
فهذه المعميات هي التي منعت الاهتداء .

والهداية الثانية : وراء هذه الهداية العامة ، وهي التي يمدُّ الله تعالى بها العبد حالاً بعد حال ، وهي ثمرة المجاهدة ، حيث قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ ، وهو المراد بقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آهَدُوا زَادَهُمْ هُدًى ﴾ .

والهداية الثالثة : وراء الثانية ، وهو النور الذي يشرق في عالم النبوة

والولاية بعدَ كمالِ المجاهدةِ ، فيهتدي بها إلى ما لا يهتدي إليه بالعقل الذي يحصلُ التكليفُ وإمكانُ تعلُّمِ العلومِ بهِ ، وهو الهدى المطلقُ ، وما عداهُ حجابٌ له ومقدماتٌ ، وهو الذي شَرَّفَهُ اللهُ تعالى بتخصيصِ الإضافةِ إليه وإن كان الكلُّ مِنْ جِهَتِهِ تعالى ، فقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ هَدَى اللهُ هُوَ الْمُهْدَى ﴾ .

وهو المسمَّى حياةً في قوله تعالى : ﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ﴾ ، والمعنى بقوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ .

وأما الرشدُ :

فنعني بهِ العنايةُ الإلهيَّةُ التي تعينُ الإنسانَ عندَ توجُّهِهِ إلى مقاصدهِ ، فتقوِّيه على ما فيه صلاحُه ، وتفتِّره عما فيه فسادُه ، ويكونُ ذلكَ مِنَ الباطنِ ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾ ، فالرشدُ : عبارةٌ عن هدايةٍ باعثةٍ إلى جهةِ السعادةِ ، محرِّكةٍ إليها ، فالصبيُّ إذا بلغَ خبيراً بحفظِ المالِ وطرقِ التجارةِ والاستنماءِ ولكنه مع ذلكَ يبدُرُ ولا يريدُ الاستنماءَ . . لا يُسمَّى رشيداً ، لا لعدمِ هدايتهِ ، بل لقصورِ هدايتهِ عن تحريكِ داعيتهِ ، فكَمُ مِنْ شخصٍ يقدمُ على ما يعلمُ أنَّه يضرُّه ، فقد أُعطيَ الهدايةَ وميَّزَ بها عن الجاهلِ الذي لا يدري أنَّه يضرُّه ، ولكن ما أُعطيَ الرشدَ ، فالرشدُ بهذا الاعتبارِ أكملُ مِنْ مجردِ الهدايةِ إلى وجوهِ الأعمالِ ، وهي نعمةٌ عظيمةٌ .

وأما التسديد :

فهو توجيه حركاته إلى صوب المطلوب ، وتيسرها عليه ليستد في صوب الصواب في أسرع وقت ، فإن الهداية بمجردِها لا تكفي ، بل لا بد من هداية محرّكة للداعية وهي الرشد ، والرشد لا يكفي ، بل لا بد من تيسير الحركات بمساعدة الأعضاء والآلات حتّى يتم المراد ممّا انبعثت الداعية إليه .

فالهداية : محض التعريف ، والرشد : هو تنبيه الداعية لتستيقظ وتحرك ، والتسديد : إعانة ونصرة بتحريك الأعضاء في صوب السداد .

وأما التأييد :

فكأنه جامع للكل ، وهو عبارة عن تقوية أمره بالبصيرة من داخل وتقوية البطش ومساعدة الأسباب من خارج ، وهو المراد بقوله تعالى : ﴿ إِذْ أَيْدُوكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ ، وتقرب منه العصمة ، وهي عبارة عن جود إلهي يسبح في الباطن يقوى به الإنسان على تحري الخير وتجنب الشر ، حتّى يصير كمانع من باطنه غير محسوس ، وإيأه عني بقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ هَمَمْتُ بِهِ ، وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَنَ رَبِّي ﴾ .

فهذه هي مجامع النعم ، ولن تثبت إلا بما يخولّه الله من الفهم الصافي الثاقب ، والسمع الواعي ، والقلب البصير المتواضع المراعي ، والمعلم الناصح ، والمال الزائد على ما يقصر عن المهمات بقلته ، القاصر عما

يشغل عن الدين بكثرتِه ، والعزُّ الذي يصونه عن سفه السفهاء وظلم الأعداء .

ويستدعي كل واحد من هذه الأسباب الستة عشر أسباباً ، وتستدعي تلك الأسباب أسباباً ، إلى أن تنتهي بالآخرة إلى دليل المتحيرين وملجأ المضطرين ، وذلك ربُّ الأرباب ومسبب الأسباب .

وإذا كانت تلك الأسباب طويلة لا يحتمل مثل هذا الكتاب استقصاءها . فلندكر منها أنموذجاً ؛ ليُعلم به معنى قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ نَعْدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ﴾ ، وبالله التوفيق .



بيان وجه الأنموذج في كثرة نعم الله تعالى وتسلسلها وخروجها عن الحصر والإحصاء

اعلم : أنا جمعنا النعم في ستة عشر ضرباً ، وجعلنا صحّة البدن نعمة من النعم الواقعة في الرتبة المتأخرة .

فهذه النعمة الواحدة لو أردنا أن نستقصي الأسباب التي بها تمت هذه النعمة . . لم نقدر عليها ، ولكن الأكل أحد أسباب الصحّة . فلنذكر نبذة من جملة الأسباب التي بها تتم نعمة الأكل .

ولا يخفى أن الأكل فعل ، وكل فعل من هذا النوع فهو حركة ، وكل حركة فلا بد لها من جسم متحرك هو آلتها ، ولا بد لها من قدرة على الحركة ، ولا بد من إرادة للحركة ، ولا بد من علم بالمراد وإدراك له ، ولا بد للأكل من مأكول ، ولا بد للمأكول من أصل منه يحصل ، ولا بد له من صانع يصلحه .

فلنذكر أسباب الإدراك ، ثم أسباب الإرادات ، ثم أسباب القدرة ، ثم أسباب المأكول على سبيل التلويح لا على سبيل الاستقصاء .



الطرف الأول : في نعم الله تعالى في خلق أسباب الإدراك

اعلم : أن الله تعالى خلق النبات ، وهو أكمل وجوداً من الحجر والمدر ، والحديد والنحاس ، وسائر الجواهر التي لا تنمو ولا تغذي ، فإن النبات خلق فيه قوة بها يجتذب الغذاء إلى نفسه من جهة أصله وعروقه التي في الأرض ، وهي له آلات فيها يجتذب الغذاء ، وهي العروق الدقيقة التي تراها في كل ورقة ، ثم تغلط أصولها ثم تتشعب ، ولا تزال تستدق وتتشعب إلى عروق شعريّة تنبسط في أجزاء الورقة حتى تغيب عن البصر .

إلا أن النبات مع هذا الكمال ناقص ، فإنه لو أعوزة غذاء يساق إليه ويماس أصله . . جفّ ويس ، ولم يمكنه طلب الغذاء من موضع آخر ، فإن الطلب إنما يكون بمعرفة المطلوب وبالانتقال إليه ، والنبات عاجز عن ذلك ، فمن نعمة الله تعالى عليك أن خلق لك آلة الإحساس ، وآلة الحركة في طلب الغذاء ، فانظر إلى ترتيب حكمة الله تعالى في خلق الحواس الخمس التي هي آلة الإدراك .

فأولها حاسة اللمس ، وإنما خلقت لك حتى إذا مسّتك نارٌ محرقة أو سيفٌ جارح . . تحسّ به فتهرب منه ، وهذا أول حسّ يُخلق للحيوان ، ولا يتصور حيوان إلا ويكون له هذا الحسّ ؛ لأنه إن لم يحسّ أصلاً . . فليس بحيوان ، وأنقص درجات الحس أن يحسّ بما يلاصقه ويماسّه ، فإن

الإحساس بما يبعد منه إحساسٌ أتمُّ لا محالة ، وهذا الحسُّ موجودٌ لكلِّ حيوانٍ ، حتَّى الدودةُ التي في الطينِ ، فإنَّها إذا غُرِزَ فيها إبرَةٌ . . انقبضتْ للهربِ ، لا كالنباتِ ؛ فإنَّ النباتَ يُقطعُ فلا ينقبضُ ؛ إذ لا يحسُّ بالقطعِ .

إلا أنَّكَ لو لم يُخلقْ لك إلا هذا الحسُّ . . لكنتَ ناقصاً كالود لا تقدُرُ على طلبِ الغذاءِ مِنْ حيثُ يبعدُ عنكَ ، بل ما يمسُّ بدنَكَ فتحسُّ بهِ ، فتجذبُهُ إلى نفسِكَ فقط ، فافتقرتَ إلى حسِّ تدركُ بهِ ما بعدَ عنكَ ، فخلقَ لك الشمَّ .

إلا أنَّكَ تدركُ بهِ الرائحةَ ، ولا تدري أنَّها جاءتْ مِنْ أيِّ ناحيةٍ ، فتحتاجُ إلى أن تطوفَ كثيراً مِنَ الجوانِبِ ، فربَّما تعثرُ على الغذاءِ الذي شملتَ ريحَهُ وربَّما لم تعثرُ ، فتكونُ في غايةِ النقصانِ لو لم يخلقْ لك إلا هذا ، فخلقَ لك البصرَ لتدركُ بهِ ما بعدَ عنكَ ، وتدركُ جهتهُ ، فتقصدُ تلكَ الجهةَ بعينها .

إلا أنَّه لو لم يخلقْ لك إلا هذا . . لكنتَ ناقصاً ؛ إذ لا تدركُ بهذا ما وراءَ الجدرانِ والحجبِ ، فتبصرُ غذاءَ ليسَ بينَكَ وبينَهُ حجابٌ ، وتبصرُ عدواً لا حجابَ بينَكَ وبينَهُ ، وأمَّا ما بينَكَ وبينَهُ حجابٌ فلا تبصرُهُ وقد لا ينكشفُ الحجابُ إلا بعدَ قربِ العدوِّ فتعجزُ عن الهربِ ، فخلقَ لك السمعَ حتَّى تدركَ بهِ الأصواتَ مِنْ وراءِ الجدرانِ والحجبِ عندَ جريانِ الحركاتِ ، ولأنَّكَ لا تدركُ بالبصرِ إلا شيئاً حاضراً ، وأمَّا الغائبُ . . فلا يمكنكُ معرفتهُ إلا بكلامِ

ينتظم من حروف وأصوات تدرك بحس السمع ، فاشتدت إليه حاجتك ؛ فخلق لك ذلك ، وميّرت بفهم الكلام عن سائر الحيوانات .

وكل ذلك ما كان يغنيك لو لم يكن لك حس الذوق ؛ إذ يصل الغذاء إليك فلا تدري أنه موافق لك أو مخالف ، فتأكله فتهلك ؛ كالشجرة يُصب في أصلها كل مائع ولا ذوق لها ، فتجذبه وربما يكون ذلك سبب جفافها .

ثم كل ذلك لا يكفيك لو لم يُخلق في مقدمة دماغك إدراك آخر يُسمى حساً مشتركاً تتأذى إليه هذه المحسوسات الخمس وتجتمع فيه ، ولولاه . . لطال الأمر عليك ، فإنك إذا أكلت شيئاً أصفر مثلاً ، فوجدته مرّاً مخالفاً لك فتركته ؛ فإذا رأيته مرةً أخرى . . فلا تعرف أنه مضرّ ما لم تذقه ثانياً لولا الحس المشترك ؛ إذ العين تبصر الصفرة ولا تدرك المرارة ، فكيف تمتنع عنه والذوق يدرك المرارة ولا يدرك الصفرة ، فلا بد من حاكم تجتمع عنده الصفرة والمرارة جميعاً ، حتّى إذا أدرك الصفرة . . حكم بأنه مرّ ، فيمتنع عن تناوله ثانياً .

وهذا كله تشاركك فيه الحيوانات ؛ إذ للشاة هذه الحواس كلها ، فلو لم يكن لك إلا هذا . . لكنت ناقصاً ، فإن البهيمة يُحتال عليها فتؤخذ ، فلا تدري كيف تدفع الحيلة عن نفسها وكيف تتخلص إذا قيّدت ، وقد تلقي نفسها في البر ولا تدري أن ذلك يهلكها ، وكذلك قد تأكل البهيمة ما تستلذه في الحال ويضرّها في ثاني الحال ، فتمرض وتموت ؛ إذ ليس لها

إلا الإحساسُ بالحاضرِ ، فأما إدراكُ العواقبِ . . فلا ، فمَيَّرَكَ اللهُ تعالى وأكرمَكَ بصفةٍ أخرى هيَ أشرفُ مِنَ الكلِّ ، وهيَ العقلُ ، فيه تدركُ مضرَّةَ الأطعمةِ ومنفعتَها في الحالِ والمآلِ ، وبه تدركُ كيفيةَ طبخِ الأطعمةِ وتأليفِها وإعدادِ أسبابِها ، فتستفَعُ بعقلِكَ في الأكلِ الذي هوَ سببُ صحتِكَ ، وهوَ أحسُّ فوائدِ العقلِ وأقلُّ الحِكمِ فيه ، بلِ الحكمةُ الكبرى فيه معرفةُ اللهِ تعالى ومعرفةُ أفعالهِ ومعرفةُ الحكمةِ في عالمِهِ .

وعندَ ذلكَ تنقلبُ فائدةُ الحواسِّ الخمسِ في حقِّكَ ، فتكونُ الحواسُّ الخمسُ كالجواسيسِ وأصحابِ الأخبارِ الموكَّلينَ بنواحيِ المملكةِ ، وقد وُكِّلَتْ كُلُّ واحدةٍ منها بأمرٍ تختصُّ بهِ ، فواحدةٌ منها بأخبارِ الألوانِ ، والأخرى بأخبارِ الأصواتِ ، والأخرى بأخبارِ الروائحِ ، والأخرى بأخبارِ الطعومِ ، والأخرى بأخبارِ الحرِّ والبردِ ، والخشونةِ والملاسَةِ ، واللينِ والصلابةِ ، وغيرها .

وهذه البرُدُ والجواسيسُ يقتنصونَ الأخبارَ مِنْ أَقْطَارِ المملكةِ ، ويسلمونها إلى الحسِّ المشتركِ ، والحسُّ المشتركُ قاعدٌ في مقدمةِ الدماغِ ، مثلُ صاحبِ القصصِ والكتبِ على بابِ الملكِ ، يجمعُ القصصَ والكتبَ الواردةَ مِنْ نواحيِ العالمِ ، فيأخذُها وهيَ مختومةٌ ؛ ويسلِّمُها إِذْ ليسَ لَهُ إِلا أخذُها وجمعُها وحفظُها ، فأما معرفةُ حقائقِ ما فيها . . فلا ، ولكنْ إِذَا صادفَ القلبَ العاقلَ الذي هوَ الأميرُ والملكُ . . سلَّمَ الإنهاءاتِ المختومةَ إليه ، فيفتشُها الملكُ ويطلعُ منها على أسرارِ المملكةِ ، ويحكمُ فيها بأحكامِ

عجيبه لا يمكنُ استقصاؤها في هذا المقام ، وبحسبِ ما يلوحُ له من الأحكامِ والمصالحِ يحركُ الجنودَ ، وهي الأعضاء ، مرّةً في الطلبِ ، ومرّةً في الهربِ ، ومرّةً في إتمامِ التدبيراتِ التي تعنُّ له .

فهذه سياقةُ نعمةِ اللهِ عليك في الإدراكاتِ ، ولا تظنَّ أنّا استوفيناها ؛ فإنَّ الحواسَّ الظاهرةَ هي بعضُ الإدراكاتِ ، والبصرُ واحدٌ من جملةِ الحواسِّ ، والعينُ آلةٌ واحدةٌ له ، وقد رُكبتِ العينُ من عشرِ طبقاتٍ مختلفةٍ ، بعضها رطوباتٌ وبعضها أغشيةٌ ، وبعضُ الأغشيةِ كأنّها نسجُ العنكبوتِ ، وبعضها كالمشيمةِ ، وبعضُ تلكَ الرطوباتِ كأنّه بياضُ البيضِ ، وبعضها كأنّه الجمُدُ ، ولكلِّ واحدةٍ من هذه الطبقاتِ العشرِ صفةٌ وصورةٌ ، وشكلٌ وهيئةٌ ، وعرضٌ وتدويرٌ وتركيبٌ ، لو اختلَّت طبقةٌ واحدةٌ من جملةِ العشرِ ، أو صفةٌ واحدةٌ من صفاتِ كلِّ طبقةٍ .. لاختلَّ البصرُ ، وعجزَ عنه الأطباءُ والكخّالونَ كلّهمُ .

فهذا في حسٍّ واحدٍ ، فقسْ به حاسةَ السمعِ وسائرَ الحواسِّ ، بل لا يمكنُ أن تُستوفى حِكْمُ اللهِ تعالى وأنواعُ نِعَمِهِ في جسمِ البصرِ وطبقاتِهِ في مجلّداتٍ كثيرةٍ ، مع أنّ جملتهُ لا تزيدُ على جوزةٍ صغيرةٍ ، فكيفَ ظنُّكَ بجميعِ البدنِ وسائرِ أعضائه وعجائبِهِ !؟

فهذه مرامزُ إلى نعمِ اللهِ تعالى بخلقِ الإدراكاتِ .



الطرف الثاني : في أصناف النعيم في خلق الإرادات

اعلم : أنه لو خُلِقَ لك البصرُ حتَّى تدرك به الغذاء من بعد ولم يُخلق لك ميلٌ في الطبع وشوقٌ إليه وشهوةٌ له تستحثك على الحركة . . . لكان البصرُ معطلاً ، فكَم من مريض يرى الطعام وهو أنفعُ الأشياء له وقد سقطتْ شهوتهُ ، فلا يتناولهُ ، فيبقى البصرُ والإدراكُ معطلاً في حقّه .

فاضطرت إلى أن يكون لك ميلٌ إلى ما يوافقك يُسمّى شهوةً ، ونفرةً عما يخالفك تُسمّى كراهةً ؛ لتطلب بالشهوة ، وتهرب بالكراهة ، فخلق الله تعالى فيك شهوةَ الطعام ، وسلطها عليك ، ووكلها بك ؛ كالمتقاضي الذي يضطرُّك إلى التناول ، حتَّى تتناول وتتغذى ، فتبقى بالغذاء ، وهذا ممّا يشاركك فيه الحيوان دون النبات .

ثم هذه الشهوة لو لم تسكن إذا أخذت مقدار الحاجة . . . أسرفت وأهلكت نفسك ، فخلق الله لك الكراهة عند الشبع ؛ لتترك الأكل بها ، لا كالزراع ، فإنه لا يزال يجتذب الماء إذا انصب في أسافله حتَّى يفسد ، فيحتاج إلى آدميٍّ يقدّرُ غذاءه بقدر الحاجة ، فيسقيه مرّةً ويقطع عنه الماء أخرى .

وكما خلقت لك هذه الشهوة حتَّى تأكل فيبقى به بدنك . . . خلق لك شهوةَ الوقاع حتَّى تجامع فيبقى به نسلك .

ولو قصصنا عليك عجائب صنع الله تعالى في خلق الرحم ، وخلق دم الحيض ، وتأليف الجنين من المنى ودم الحيض ، وكيفية خلق الأنثيين والعروق السالكة إليها من الفقار الذي هو مستقر النطفة ، وكيفية انصباب ماء المرأة من الترائب بواسطة العروق ، وكيفية انقسام مقعر الرحم إلى قوالب تقع النطفة في بعضها فتتشكل بشكل الذكور ، وتقع في بعضها فتتشكل بشكل الإناث ، وكيفية إدارتها في أطوار خلقها مضغة وعلقة ، ثم عظماً ولحماً ودماً ، وكيفية قسمة أجزائها إلى رأس ورجل وبطن وظهر ويد وسائر الأعضاء .. لقضيت من أنواع نعم الله تعالى عليك في مبدأ خلقك كل العجب فضلاً عما تراه الآن ، ولكننا لسنا نريد أن نتعرض إلا لنعم الله تعالى في الأكل وحده كي لا يطول الكلام .

فإذا ؛ شهوة الطعام أحد ضروب الإرادات ، وذلك لا يكفيك ، فإنه تأتيك المهلكات من الجوانب ، فلو لم يخلق فيك الغضب الذي به تدفع كل ما يضاؤلك ولا يوافقك . لبقيت عرضة للآفات ، ولأخذ منك كل ما حصلتة من الغذاء ، فإن كل واحد يشتهي ما في يديك ، فتحتاج إلى داعية في دفعه ومقاتلته ، وهي داعية الغضب الذي به تدفع كل ما يضاؤلك ولا يوافقك .

ثم هذا لا يكفيك ؛ إذ الشهوة والغضب لا يدعوان إلا إلى ما يضر وينفع في الحال ، وأما في المآل .. فلا تكفي فيه هذه الإرادة ، فخلق الله تعالى لك إرادة أخرى مسخرة تحت إشارة العقل المعرف للعواقب ؛ كما خلق

الشهوة والغضب مسخرة تحت إدراك الحس المدرك للحالة الحاضرة ، فتمّ بها انتفاعك بالعقل ؛ إذ كان مجرد المعرفة بأن هذه الشهوة مثلاً تضرّك لا يغنيك في الاحتراز عنها ما لم يكن لك ميلٌ إلى العمل بموجب المعرفة ، وهذه الإرادة أفردت بها عن البهائم إكراماً لبني آدم ، كما أفردت بمعرفة العواقب ، وقد سمّينا هذه الإرادة باعثاً دينياً ، وفصلناه في كتاب الصبر تفصيلاً أوفى من هذا .



الطرف الثالث : في نعم الله تعالى في خلق القدرة وآلات الحركة

اعلم : أنَّ الحسَّ لا يفيدُ إلا الإدراكَ ، والإرادةُ لا معنى لها إلا الميلُ إلى الطلبِ أو الهربِ ، وهذا لا كفاية فيه ما لم تكن فيك آلة الطلبِ والهربِ ، فكم من زمنٍ مشتاقٍ إلى شيءٍ بعيدٍ عنه مدركٍ له ، ولكنه لا يمكنه أن يمشي إليه لفقد رجله ، أو لا يمكنه أن يتناوله لفقد يده ، أو لفلجٍ وخدرٍ فيهما ، فلا بدَّ من آلاتٍ للحركة ، وقدرةٍ في تلك الآلاتِ على الحركة ؛ لتكون حركتها بمقتضى الشهوة طلباً ، وبمقتضى الكراهة هرباً ، فلذلك خلق الله تعالى لك الأعضاء التي تنظرُ إلى ظاهرها ولا تعرفُ أسرارها ، فمنها ما هو للطلبِ والهربِ ؛ كالرجل للإنسان ، والجنح للطير ، والقوائم للدواب ، ومنها ما هو للدفع ؛ كالأسلحة للإنسان ، والقرون للحيوانات ، وفي هذا تختلف الحيواناتُ اختلافاً كثيراً ؛ فمنها ما يكثرُ أعداؤه ويبعدُ غذاؤه ، فيحتاجُ إلى سرعة الحركة ، فخلقَ له الجناحَ ليطيرَ بسرعة ، ومنها ما خلقَ له أربعُ قوائم ، ومنها ما له رجلان ، ومنها ما يدبُّ ، وذكرُ ذلك يطول .

فلنذكرِ الأعضاء التي بها يتمُّ الأكلُ فقط ؛ ليقاسَ عليها غيرها ، فنقولُ :

رؤيتك الطعامَ من بعدِ وحركتكِ إليه لا تكفي ما لم تتمكَّن من أن تأخذه ، فافتقرتِ إلى آلة باطشة ، فأنعم الله تعالى عليك بخلقِ اليدين ، وهما طويلتان ممتدتان إلى الأشياء ، ومشملتان على مفاصل كثيرة لتحركك في الجهات ،

فتمتدُّ وتنشي إليك ، فلا تكون كخشبة منصوبة ، ثمَّ جعلَ رأسَ اليدِ عريضاً بخلقِ الكفِّ ، ثمَّ قسَّمَ رأسَ الكفِّ بخمسةِ أقسامٍ هي الأصابعُ ، وجعلَهَا في صَفَيْنِ بحيثُ يكونُ الإبهامُ في جانبٍ ويدورُ على الأربعةِ الباقيةِ ، ولو كانتُ مجتمعةً أو متراكمةً . . لم يحصلْ بها تمامُ غرضِكَ ، فوضعَهَا وضعاً إنْ بسطتها . . كانتْ لكْ مجرَّةٌ ، وإنْ ضممتَهَا . . كانتْ لكْ مغرَّةٌ ، وإنْ جمعتها . . كانتْ لكْ آلةٌ للضربِ ، وإنْ نشرتها ثمَّ قبضتها . . كانتْ لكْ آلةٌ في القبضِ ، ثمَّ خلقَ لها أظفاراً ، وأسندَ إليها رؤوسَ الأصابعِ حتَّى لا تتفتَّتَ ، وحتَّى تلتقطَ بها الأشياءَ الدقيقةَ التي لا تحويها الأصابعُ ، فتأخذُها برؤوسِ أظفارِكَ .

ثمَّ هبْ أنَّكَ أخذتَ الطعامَ باليدِ . . فمِنْ أينَ يكفيكَ هذا ما لم يصلْ إلى المعدةِ وهي في الباطنِ ، فلا بدَّ وأنْ يكونَ مِنَ الظاهرِ دهليزٌ إليها ؛ حتَّى يدخلَ الطعامُ منه ، فجعلَ الفمَّ منفذاً إلى المعدةِ معَ ما فيه مِنَ الحِكَمِ الكثيرةِ سوى كونهِ منفذاً للطعامِ إلى المعدةِ .

ثمَّ إنْ وضعتَ الطعامَ في الفمِّ وهو قطعةٌ واحدةٌ . . فلا يتيسَّرُ ابتلاعهُ ، فتحْتَاجُ إلى طاحونةٍ تطحنُ بها الطعامَ ، فخلقَ لكْ اللحيينِ مِنْ عَظْمينِ ، وركَّبَ فيهما الأسنانَ ، وطبَّقَ الأضراسَ مِنَ العليا على السفلى لتطحنَ بهما الطعامَ طحناً .

ثمَّ الطعامُ تارةً يحتاجُ إلى الكسرِ ، وتارةً إلى القطعِ ، ثمَّ يحتاجُ إلى طحنٍ بعدَ ذلكَ ، فقسَّمَ الأسنانَ إلى عريضةٍ طواحنَ كالأضراسِ ، وإلى حادَّةٍ قواطعَ كالرِّبَاعِيَّاتِ ، وإلى ما يصلحُ للكسرِ كالأنيابِ .

ثُمَّ جَعَلَ مَفْصِلَ اللَّحْيَيْنِ مَتَخَلِّلاً بَحِثُ يُتَقَدَّمُ الْفَكُّ الْأَسْفَلُ وَيَتَأَخَّرُ ؛
 حَتَّى يَدُورَ عَلَى الْفَكِّ الْأَعْلَى دُورَانِ الرَّحَى ، وَلَوْ لَا ذَلِكَ . . لَمَا تَيَسَّرَ إِلَّا
 ضَرْبُ أَحَدِهِمَا عَلَى الْآخَرِ ؛ مِثْلَ تَصْفِيقِ الْيَدَيْنِ مِثْلًا ، وَبِذَلِكَ لَا يَتِمُّ
 الطَّحْنُ ، فَجَعَلَ اللَّحْيَ الْأَسْفَلَ مَتَحَرِّكًا حَرَكَةً دَوْرِيَّةً ، وَاللَّحْيَ الْأَعْلَى ثَابِتًا
 لَا يَتَحَرَّكُ ، فَانْظُرْ إِلَى عَجِيبِ صَنِيعِ اللَّهِ تَعَالَى ! فَإِنَّ كُلَّ رَحَى صَنَعَهُ الْخَلْقُ
 فَيُثَبِّتُ مِنْهُ الْحَجَرُ الْأَسْفَلُ وَيَدُورُ الْأَعْلَى إِلَّا هَذَا الرَّحَى الَّذِي صَنَعَهُ اللَّهُ
 تَعَالَى ؛ إِذْ يَدُورُ مِنْهُ الْأَسْفَلُ عَلَى الْأَعْلَى ، فَسُبْحَانَهُ مَا أَعْظَمَ شَأْنَهُ وَأَعَزَّ
 سُلْطَانَهُ وَأَتَمَّ بَرَهَانَهُ وَأَوْسَعَ امْتِنَانَهُ !

ثُمَّ هَبْ أَنْتَ وَضَعْتَ الطَّعَامَ فِي فُضَاءِ الْفَمِ . . فَكَيْفَ يَتَحَرَّكُ الطَّعَامُ إِلَى
 مَا تَحْتَ الْأَسْنَانِ ؟ أَوْ كَيْفَ تَسْتَجِرُّهُ الْأَسْنَانُ إِلَى نَفْسِهَا ؟ أَوْ كَيْفَ يَتَصَرَّفُ
 بِالْيَدِ فِي دَاخِلِ الْفَمِ ؟ فَانْظُرْ كَيْفَ أَنْعَمَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْكَ بِخَلْقِ اللِّسَانِ ، فَإِنَّهُ
 يَطُوفُ فِي جَوَانِبِ الْفَمِ وَيَرُدُّ الطَّعَامَ مِنَ الْوَسْطِ إِلَى الْأَسْنَانِ بِحَسَبِ الْحَاجَةِ
 كَالْمَجْرَفَةِ الَّتِي تَرُدُّ الطَّعَامَ إِلَى الرَّحَى ، هَذَا مَعَ مَا فِيهِ مِنْ فَائِدَةِ الذَّوْقِ ،
 وَعَجَائِبِ قُوَّةِ النُّطْقِ الَّتِي لَسْنَا نَطْنُبُ بِذِكْرِهَا .

ثُمَّ هَبْ أَنْتَ قَطَعْتَ الطَّعَامَ وَطَحْنْتَهُ وَهُوَ يَابَسٌ . . فَلَا تَقْدِرُ عَلَى الْإِبْتِلَاعِ
 إِلَّا بِأَنْ يَنْزِلِقَ إِلَى الْحَلْقِ بِنَوْعِ رَطوبَةٍ ، فَانْظُرْ كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى تَحْتَ
 اللِّسَانِ عَيْنًا يَفِيضُ اللَّعَابُ مِنْهَا وَيَنْصَبُ بِقَدْرِ الْحَاجَةِ ؛ حَتَّى يَنْعَجْنَ بِهِ
 الطَّعَامُ ، فَانْظُرْ كَيْفَ سَخَّرَهَا لِهَذَا الْأَمْرِ ، فَإِنَّكَ تَرَى الطَّعَامَ مِنْ بَعْدِ ، فَتَشُورُ

المسكينة للخدمة^(١) ، وينصبُّ اللعابُ حتَّى تتحلَّب أشداقك والطعامُ بعدُ بعيدٌ عنك .

ثمَّ هذا الطعامُ المطحونُ المنعجنُ مَنْ يوصلُهُ إلى المعدةِ وهوَ في الفمِ ولا تقدرُ على أن تدفعهُ باليدِ ، ولا في المعدةِ يدٌ حتَّى تمتدَّ فتجذبَ الطعامَ ؟ فانظرْ كيفَ هيأَ اللهُ تعالى المريءَ والحنجرةَ ، وجعلَ على رأسِها طبقاتٍ تنفتحُ لأخذِ الطعامِ ، ثمَّ تنطبقُ وتنضغطُ حتَّى يتقلَّبَ الطعامُ بضغطةٍ ، فيهويَ إلى المعدةِ في دهليزِ المريءِ .

فإذا وردَ الطعامُ على المعدةِ وهوَ خبزٌ وفاكهةٌ مقطعةٌ . . فلا يصلحُ لأنَّ يصيرَ لحمًا وعظمًا ودمًا على هذه الهيئةِ ، بل لا بدَّ وأنَّ يُطبخَ طبخاً تاماً حتَّى تتشابهَ أجزاؤه ، فخلقَ اللهُ تعالى المعدةَ على هيئةِ قدرٍ ، فيقعُ فيها الطعامُ ، فتحوي عليه ، وتنغلقُ عليه الأبوابُ ، فلا يزالُ لاثناً فيها حتَّى يتمَّ الهضمُ والنضجُ بالحرارةِ التي تحيطُ بالمعدةِ مِنَ الأعضاءِ الباطنةِ ؛ إذ مِنْ جانبِها الأيمنِ الكبدُ ، وَمِنْ الأيسرِ الطحالُ ، وَمِنْ قَدَامِ الثَّرْبِ^(٢) ، وَمِنْ خَلْفِ لحمِ الصلبِ ، فتتعدَّى الحرارةُ إليها مِنْ تسخينِ هذهِ الأعضاءِ مِنَ الجوانِبِ ، حتَّى ينطبخَ الطعامُ ويصيرَ مائعاً متشابهاً ، يصلحُ للنفوذِ في تجاويفِ العروقِ ، وعندَ ذلكَ يشبهُ ماءَ الشعيرِ في تشابهِ أجزائه ورقَّتِه ، وهوَ

(١) في نسخة الحافظ الزبيدي (١٠٨/٨) : (فيثور الحنكان للخدمة) .

(٢) الثرب : شحم رقيق يغشي الكرش والأمعاء .

بعدُ لا يصلحُ للتغذية ، فخلق الله تعالى بينها وبين الكبد مجاري من العروق ، وجعل لها فوهات كثيرة حتى ينصب الطعام فيها ، فينتهي إلى الكبد .

والكبد معجون من طينة الدم حتى كأنه دم ، وفيه عروق كثيرة شعريّة متشرة في أجزاء الكبد ، فينصب الطعام الرقيق النافذ فيها ، وينتشر في أجزائها ، حتى تستولي عليه قوة الكبد ، فتصبغه بلون الدم ، فيستقر فيها ريثما يحصل له نضج آخر ، ويحصل له هيئة الدم الصافي الصالح لغذاء الأعضاء ، إلا أن حرارة الكبد هي التي تنضج هذا الدم ، فيتولد من هذا الدم فضلتان كما يتولد في جميع ما يطبخ : إحداهما : شبيهة بالدردي والعكر^(١) ، وهو الخلط السوداوي ، والأخرى : شبيهة بالرغوة ، وهي الصفراء ، ولو لم تُفصل عنهما هاتان الفضلتان . . فسد مزاج الأعضاء ، فخلق الله تعالى المرارة والطحال ، وجعل لكل واحد منهما عنقاً ممدوداً إلى الكبد داخلاً في تجويفه ، فتجذب المرارة الفضلة الصفراوية ، ويجذب الطحال العكر السوداوي ، فيبقى الدم صافياً ليس فيه إلا زيادة رقة ورطوبة لما فيه من المائيّة ، ولولاها . . لما انتشر في تلك العروق الشعريّة ، ولا خرج منها متصاعداً إلى الأعضاء ، فخلق الله تعالى الكليتين ، وأخرج من كل واحدة منهما عنقاً طويلاً إلى الكبد ، ومن عجائب حكمة الله تعالى أن عنقهما ليس داخلاً في تجويف الكبد ، بل متصل بالعروق الطالعة من

(١) الدردي والعكر : ما يركد في أسفل كل مائع كالأشربة والأدهان .

حَدَبَةُ الكَبِدِ ، حَتَّى يَجْذِبَ مَائِيتَهَا بَعْدَ الطَّلُوعِ مِنَ العُرُوقِ الدَّقِيقَةِ الَّتِي فِي الكَبِدِ ، إِذْ لَوْ اجْتَذَبَ قَبْلَ ذَلِكَ . . لَغَلِظَ وَلَمْ يَخْرُجْ مِنَ العُرُوقِ ، فَإِذَا انْفَصَلَتْ مِنْهُ الْمَائِيَّةُ . . فَقَدْ صَارَ الدَّمُ صَافِيًا مِنَ الْفَضَلَاتِ الثَّلَاثِ ، نَقِيًّا مِنْ كُلِّ مَا يَفْسِدُ الْغِذَاءَ .

ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَطْلَعَ مِنَ الكَبِدِ عُرُوقًا ، ثُمَّ قَسَمَهَا بَعْدَ الطَّلُوعِ أَقْسَامًا ، وَشَعَبَ كُلَّ قِسْمٍ بِشَعْبٍ ، وَانْتَشَرَ ذَلِكَ فِي الْبَدَنِ كُلِّهِ مِنَ الْفَرْقِ إِلَى الْقَدَمِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا ، فَيَجْرِي الدَّمُ الصَّافِي فِيهَا ، وَيَصِلُ إِلَى سَائِرِ الْأَعْضَاءِ ، حَتَّى تُصِيرَ العُرُوقُ الْمُنْقَسِمَةُ شَعْرِيَّةً كَعُرُوقِ الْأَوْراقِ فِي الْأَشْجَارِ ، بِحَيْثُ لَا تَدْرُكُ بِالْأَبْصَارِ ، فَيَصِلُ مِنْهَا الْغِذَاءُ بِالرَّشْحِ إِلَى سَائِرِ الْأَعْضَاءِ .

وَلَوْ حَلَّتْ بِالْمَرَارَةِ آفَةٌ فَلَمْ تَجْذِبِ الْفَضْلَةَ الْصَفْرَاوِيَّةَ . . فَسَدَ الدَّمُ ، وَحَصَلَ مِنْهُ الْأَمْرَاضُ الْصَفْرَاوِيَّةُ ؛ كَالْيَرْقَانِ وَالْبُثُورِ وَالْحَمْرَةِ ، وَإِنْ حَلَّتْ بِالطَّحَالِ آفَةٌ فَلَمْ يَجْذِبِ الْخُلْطُ السُّودَاوِيَّ . . حَدَثَتِ الْأَمْرَاضُ السُّودَاوِيَّةُ ؛ كَالْبَهْقِ وَالْجَذَامِ وَالْمَالِيخُولِيَا وَغَيْرِهَا^(١) ، وَإِنْ لَمْ تَنْدَفِعِ الْمَائِيَّةُ نَحْوَ الْكُلَى . . حَدَثَ مِنْهُ الْاسْتِسْقَاءُ وَغَيْرُهُ^(٢) .

ثُمَّ انْظُرْ إِلَى حِكْمَةِ الْفَاطِرِ الْحَكِيمِ كَيْفَ رَتَّبَ مَنَافِعَ عَلَى هَذِهِ الْفَضَلَاتِ
الثَّلَاثِ الْخَسِيسَةِ :

(١) الْمَالِيخُولِيَا : مَرَضٌ يَثُورُ الْوَسَاوِسُ وَالظُّنُونُ وَالْخَوْفُ .

(٢) الْاسْتِسْقَاءُ : مَرَضٌ احْتِبَاسُ السَّوَائِلِ فِي الْجِسْمِ .

أما المرارة.. فإنها تجذب بأحد عنقيها وتقذف بعنقٍ آخر إلى الأمعاء ؛
ليحصل به في ثقل الطعام رطوبة مزلقة ، ويحدث في الأمعاء لدغٌ يحركها
للدفع ، فتضغط حتى يندفع الثفل وينزلق ، وتكون صفرته لذلك .

وأما الطحال.. فإنه يحيل تلك الفضلة إحالة يحصل بها فيه حموضة
وقبض ، ثم يرسل منها في كل يوم شيئاً إلى فم المعدة ، فيحرك الشهوة
بحموضته ، وينبها ويثيرها ، ويخرج الباقي مع الثفل .

وأما الكلية.. فإنها تغذي بما في تلك المائية من دم ، وترسل الباقي
إلى المثانة .

ولنقتصر على هذا القدر من بيان نعم الله تعالى في الأسباب التي أعدت
للأكل ، ولو ذكرنا كيفية احتياج الكبد إلى القلب والدماغ ، واحتياج كل
واحد من هذه الأعضاء الرئيسة إلى صاحبه ، وكيفية انشعاب العروق
الضواري من القلب إلى سائر البدن التي بواسطتها تصل الروح^(١) ، وكيفية
انشعاب الأعصاب من الدماغ إلى سائر البدن وبواسطتها يصل الحس ،
وكيفية انشعاب العروق السواكن من الكبد إلى سائر البدن وبواسطتها يصل
الغذاء ، ثم كيفية تركيب الأعضاء ، وعدد عظامها وعضلاتها وعروقها ،
وأوتارها ورباطاتها ، وغضاريفها ورطوباتها.. لطال الكلام ، وكل ذلك
محتاج إليه للأكل ولأمرٍ آخر سواه .

(١) والمراد بالروح هنا : البخار اللطيف الذي محله القلب ، كما سيبينه المصنف قريباً .

بل في الآدمي آلاف من العضلات والعروق والأعصاب ، مختلفة بالصغر والكبر ، والدقة والغلظ ، وكثرة الانقسام وقلته ، ولا شيء منها إلا وفيه حكمة أو اثنتان أو ثلاث أو أربع إلى عشر وزيادة ، وكل ذلك نعم من الله تعالى عليك ، لو سكن من جملتها عرق متحرك ، أو تحرك عرق ساكن . . لهلك يا مسكين .

فانظر إلى نعمة الله تعالى عليك أولاً ؛ لتقوى بعدها على الشكر ، فإنك لا تعرف من نعمة الله تعالى إلا الأكل وهو أحسها ، ثم لا تعرف منها إلا أنك تجوع فتأكل ، والحمار أيضاً يعلم أنه يجوع فيأكل ، ويتعب فينام ، ويشتهي فيجامع ، ويستريح فيشمص ويرمح^(١) ، فإذا لم تعرف أنت من نفسك إلا ما يعرفه الحمار . . فكيف تقوم بشكر نعم الله عليك ؟!

وهذا الذي رمزنا إليه على الإيجاز قطرة من بحر واحد من بحار نعم الله عز وجل فقط ، فقس على الإجمال ما أهملناه من جملة ما عرفناه حذراً من التطويل .

وجملة ما عرفناه وعرفه الخلق كلهم بالإضافة إلى ما لم يعرفوه من نعم الله تعالى أقل من قطرة من بحر ، إلا أن من علم شيئاً من هذا . . أدرك شمة من معاني قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ﴾ .

ثم انظر كيف ربط الله تعالى قوام هذه الأعضاء وقوام منافعها وإدراكاتها

(١) الشمص : ضرب الدابة وطردها لاستنهاضها ، والرمح مثله ، أو هو وصف للدابة إن رفت .

وقوّاهَا ببخارٍ لطيفٍ يتصاعدُ مِنَ الأخلاطِ الأربعةِ ، ومستقرُّهُ القلبُ ، ويسري في جميعِ البدنِ بواسطةِ العروقِ الضواريبِ ، فلا ينتهي إلى جزءٍ مِنْ أجزاءِ البدنِ إلا ويحدثُ عندَ وصولِهِ في تلكَ الأجزاءِ ما يحتاجُ إليه مِنْ قوّةٍ حسّ وإدراكٍ ، وقوّةٍ حركةٍ وغيرها ؛ كالسراجِ الذي يُدارُ في أطرافِ البيتِ ، فلا يصلُ إلى جزءٍ إلا ويحصلُ بسببِ وصولِهِ ضوءٌ على أجزاءِ البيتِ مِنْ خلقِ الله تعالى واختراعِهِ ، ولكنه جعلَ السراجَ سبباً لَهُ بحكمتهِ .

وهذا البخارُ اللطيفُ هو الذي تسمّيه الأطباءُ الروحَ ، ومحلهُ القلبُ ، ومثالهُ جرمُ نارِ السراجِ ، والقلبُ لَهُ كالمسرجة^(١) ، والدمُ الأسودُ الذي في باطنِ القلبِ لَهُ كالفتيلةِ ، والغذاءُ لَهُ كالزيتِ ، والحياةُ الظاهرةُ في سائرِ أعضاءِ البدنِ بسببه كالضوءِ للسراجِ في جملةِ البيتِ ، وكما أَنَّ السراجَ إذا انقطعَ زيتُهُ انطفأ . فسراجُ الروحِ أيضاً ينطفئُ مهما انقطعَ غذاؤه .

وكما أَنَّ الفتيلةَ قد تحترقُ وتصيرُ رماداً ، بحيثُ لا تقبلُ الزيتَ ، فينطفئُ السراجُ معَ كثرةِ الزيتِ . فكذلكَ الدمُ الذي تشبَّثَ بِهِ هذا البخارُ في القلبِ قد يحترقُ بفِرطِ حرارةِ القلبِ ، فينطفئُ معَ وجودِ الغذاءِ ، فإنه لا يقبلُ الغذاءَ الذي يبقى بِهِ الروحُ كما لا يقبلُ الرمادُ الزيتَ قبولاً تشبَّثُ النارُ بِهِ .

وكما أَنَّ السراجَ تارةً ينطفئُ بسببِ مِنْ داخلٍ كما ذكرناه ، وتارةً بسببِ

(١) المسرجة : التي فيها الفتيلة والزيت .

مِنْ خَارِجٍ كَرِيحٍ عَاصِفٍ . . فَكَذَلِكَ الرُّوحُ تَارَةً تَنْطَفِئُ بِسَبَبٍ مِنْ دَاخِلٍ ،
وَتَارَةً بِسَبَبٍ مِنْ خَارِجٍ وَهُوَ الْقَتْلُ ، وَكَمَا أَنَّ انْطِفَاءَ السَّرَاجِ بِفَنَاءِ الزَّيْتِ ، أَوْ
بِفَسَادِ الْفَتِيلَةِ ، أَوْ بِرِيحٍ عَاصِفٍ ، أَوْ بِإِطْفَاءِ إِنْسَانٍ لَا يَكُونُ إِلَّا بِأَسْبَابٍ
مُقَدَّرَةٍ فِي عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى مُرْتَبَةً ، وَيَكُونُ كُلُّ ذَلِكَ بِقَدَرٍ . . فَكَذَلِكَ انْطِفَاءُ
الرُّوحِ ، وَكَمَا أَنَّ انْطِفَاءَ السَّرَاجِ هُوَ مُنْتَهَى وَقْتِ وَجُودِهِ ، فَيَكُونُ ذَلِكَ أَجَلَهُ
الَّذِي أُجِّلَ لَهُ فِي أَمِّ الْكِتَابِ . . فَكَذَلِكَ انْطِفَاءُ الرُّوحِ .

وَكََمَا أَنَّ السَّرَاجَ إِذَا انْطَفَأَ أَظْلَمَ الْبَيْتُ كُلُّهُ . . فَالرُّوحُ إِذَا انْطَفَأَ أَظْلَمَ الْبَدَنُ
كُلُّهُ ، وَفَارَقَتْهُ أَنْوَارُهُ الَّتِي كَانَ يَسْتَفِيدُهَا مِنَ الرُّوحِ ، وَهِيَ أَنْوَارُ الْإِحْسَاسَاتِ
وَالْقُدَرِ وَالْإِرَادَاتِ وَسَائِرِ مَا يَجْمَعُهَا مَعْنَى لَفْظِ الْحَيَاةِ .

فَهَذَا أَيْضاً رَمِزٌ وَجِيزٌ إِلَى عَالِمٍ آخَرَ مِنْ عَوَالِمِ نَعَمِ اللَّهِ تَعَالَى وَعَجَائِبِ
صَنْعِهِ وَحِكْمَتِهِ ؛ لِيَعْلَمَ أَنَّهُ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي . . لَنَفَدَ الْبَحْرُ
قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي ، فَتَعَسَا لِمَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ تَعَسَا ، وَسُحِقَا لِمَنْ كَفَرَ نِعْمَتَهُ
سُحِقَا .



فَإِنْ قُلْتَ : فَقَدْ وَصَفْتَ الرُّوحَ وَمَثَلْتَهُ ، وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
سُئِلَ عَنِ الرُّوحِ فَلَمْ يَزِدْ عَلَى أَنْ قَالَ : ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ ، فَلِمَ لَمْ
يُصِفْهُ لَهُمْ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ ؟ ^(١) .

(١) أي : على أنه بخار لطيف محلّه القلب ، وحديث السؤال عن الروح رواه البخاري
(٤٧٢١) ، ومسلم (٢٧٩٤) .

فاعلم : أنَّ هذه غفلة عن الاشتراك الواقع في لفظ الروح ، فإنَّ الروح يُطلق لمعانٍ كثيرة لا نطوّل بذكرها ، ونحنُ إنَّما وصفنا من جمليتها جسماً لطيفاً تسمّيه الأطباء روحاً ، وقد عرفوا صفته ووجوده ، وكيفيّة سريانه في الأعضاء ، وكيفيّة حصول الإحساس والقوى في الأعضاء به ، حتّى إذا خدر بعض الأعضاء .. علموا أنَّ ذلك لوقوع سدة في مجرى هذا الروح ، فلا يعالجون موضع الخدر ، بل منابت الأعصاب ومواقع السدة فيها ، ويعالجونها بما يفتح السدة ، فإنَّ هذا الجسم بلطفه ينفذ في شبك العصب ، وبواسطته يتأدّى من القلب إلى سائر الأعضاء ، وما ترتقي إليه معرفة الأطباء فأمره سهل نازل .

وأما الروح التي هي الأصل ، وهي التي إذا فسدت فسدت لها سائر البدن .. فذلك سرٌّ من أسرار الله لم نصفه ، ولا رخصة في وصفه إلا بأن يُقال : هو أمر ربّاني كما قال تعالى : ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ ، والأمور الربّانيّة لا تحتمل العقول وصفها ، بل تتحيّر فيها عقول أكثر الخلق ، وأما الأوهام والخيالات .. فقاصرة عنها بالضرورة قصور البصر عن إدراك الأصوات ، وتنزل في ذكر مبادي وصفها معاقد العقول المقيدة بالجوهر والعرض ، المحبوسة في مضيقها ، فلا يدرك بالعقل شيء من وصفه ، بل بنور آخر أعلى وأشرف من العقل ، يشرق ذلك النور في عالم النبوة والولاية ، نسبته إلى العقل نسبة العقل إلى الوهم والخيال .

وقد خلق الله تعالى الخلق أطواراً ، فكما يدرك الصبي المحسوسات

ولا يدرك المعقولات ؛ لأنَّ ذلك طورٌ لم يبلغه بعدُ . فكذلك يدرك البالغ المعقولات ولا يدرك ما وراءها ؛ لأنَّ ذلك طورٌ لم يبلغه بعدُ ، وإنَّه لمقام شريف ، ومشربٌ عذب ، ورتبةٌ عالية ، فيها يلحظ جنابُ الحق بنور الإيمان واليقين ، وذلك المشرب أعزُّ من أن يكون شريعة لكلِّ وارد ، بل لا يطلع عليه إلا واحدٌ بعدَ واحدٍ ، ولجنابِ الحق صدرٌ ، وفي مقدمة الصدرِ مجالٌ وميدانٌ رحبٌ ، وعلى أوَّل الميدانِ عتبةٌ هي مستقرُّ ذلك الأمرِ الربَّانيِّ ، فمن لم يكن له على هذه العتبةِ جوازٌ ، ولا لحافظِ العتبةِ مشاهدةٌ . استحالَ أن يصلَ إلى الميدانِ ، فكيف بالانتهاء إلى ما وراءه من المشاهداتِ العاليةِ ؟!

ولذلك قيلَ : (مَنْ لَمْ يَعْرِفْ نَفْسَهُ . . لَمْ يَعْرِفْ رَبَّهُ)^(١) ، وأنِّي يُصادفُ هذا في خزانةِ الأطباءِ ؟! ومن أين للطبيبِ أن يلاحظه ؟ بل المعنى المسمَّى روحاً عندَ الطبيبِ بالإضافةِ إلى هذا الأمرِ الربَّانيِّ كالكرةِ التي يحركُها صولجانُ الملكِ بالإضافةِ إلى الملكِ ، فمن عرفَ الروحَ الطَّبِّيَّ فظنَّ أنَّه أدركَ الأمرَ الربَّانيَّ . . كانَ كَمَنْ رَأَى الكرةَ التي يحركُها صولجانُ الملكِ فظنَّ أنَّه رأى الملكَ ، ولا يُشكُّ في أنَّ خطأه فاحشٌ ، وهذا الخطأُ أفحشُ منه جداً .

ولمَّا كانتِ العقولُ التي بها يحصلُ التكليفُ وبها تُدركُ مصالحُ الدنيا

(١) أورده ابن عطية في « المحرر الوجيز » (٢٩١ / ٥) عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

عقولا قاصرة عن ملاحظة كنه هذا الأمر.. لم يأذن الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يتحدث عنه ، بل أمره أن يكلم الناس على قدر عقولهم ، ولم يذكر الله تعالى في كتابه من حقيقة هذا الأمر شيئا ، لكن ذكر نسبته وفعله ، ولم يذكر ذاته ؛ أمّا نسبته.. ففي قوله تعالى : ﴿ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ ، وأمّا فعله.. فقد ذكر في قوله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ أرجع إلى ربك راضية مرضية ﴿ فَأَدْخِلْنِي عِبْدِي ﴾ و﴿ وَأَدْخِلْنِي جَنَّاتِ ﴾ .

ولنرجع الآن إلى الغرض ، فإن المقصود ذكر نعم الله تعالى في الأكل ، فقد ذكرنا بعض نعم الله تعالى في آلات الأكل .



الطرف الرابع : في نِعَمِ اللَّهِ تعالى في الأصول التي منها تحصل الأُطعمَةُ وتصير صاحبها لأن يصلحها الآدمي بعد ذلك بصنعته

اعلم : أنَّ الأُطعمَةَ كثيرةٌ ، وللهِ تعالى في خلقها عجائبٌ كثيرةٌ لا تُحصى ، وأسبابٌ متواليةٌ لا تتناهى ، وذكرُ ذلك في كلِّ طعامٍ ممَّا يطولُ ، فإنَّ الأُطعمَةَ إمَّا أدويةٌ ، وإمَّا فواكهٌ ، وإمَّا أغذيةٌ ، فلنأخذِ الأغذيةَ ؛ فإنَّها الأصلُ ، ولنأخذُ مِنْ جملتها حَبَّةَ مِنَ البُرِّ ، ولنُدعُ سائرَ الأغذيةَ ، فنقولُ :

إذا وجدتَ حَبَّةَ أو حَبَّاتٍ ، فلو أكلتها . . فنيَتْ وبقيتَ جائعاً ، فما أحوَجَكَ إلى أن تنموَ الحَبَّةُ في نفسها ، وتزيدَ وتتضاعفَ حتَّى تفيَ بتمامِ حاجتِكَ ، فخلقَ اللهُ تعالى في حَبَّةِ الحنطةِ مِنَ القوى ما تغذي بهِ كما خلقَ فيكَ ؛ فإنَّ النباتَ إنَّما يفارقُكَ في الحسِّ والحركةِ ، ولا يخالفُكَ في الاغْتذاءِ ؛ لأنَّه يغتذي بالماءِ ويجتذبُ إلى باطنِهِ بواسطةِ العروقِ كما تغتذي أنتَ وتجتذبُ ، ولسنا نطنبُ في ذكرِ آلاتِ النباتِ في اجتذابِ الغذاءِ إلى نفسهِ ، ولكنْ نشيرُ إلى غذائهِ فنقولُ :

كما أنَّ الخشبَ والترابَ لا يغذِّيكَ ، بل تحتاجُ إلى طعامٍ مخصوصٍ . . فكذلكَ الحَبَّةُ لا تغتذي بكلِّ شيءٍ ، بل تحتاجُ إلى شيءٍ مخصوصٍ ؛ بدليلِ أنَّكَ لو تركتها في البيتِ . . لم تزدْ ؛ لأنَّه ليسَ يحيطُ بها إلا الهواءُ ، ومجرَّدُ

ثُمَّ الْأَرْضُ رَبَّمَا تَكُونُ مَرْتَفَعَةً وَالْمِيَاهُ لَا تَرْتَفِعُ إِلَيْهَا ، فَانْظُرْ كَيْفَ خَلَقَ

الغيوم وكيف سلط الرياح عليها لتسوقها بإذنه إلى أقطار الأرض ، وهي سُحِبَ ثِقَالٌ حواملٌ بالماء ، ثم انظر كيف يرسله مداراً على الأراضي في وقت الربيع والخريف على حسب الحاجة .

وانظر كيف خلق الجبال حافظة للمياه ، تتفجر منها العيون تدريجاً ، فلو خرجت دفعةً . . لغرقت البلاد ، وهلك الزرع والمواشي ، ونعم الله تعالى في الجبال والسحاب والبحار والأمطار لا يمكن إحصاؤها .

وأما الحرارة . . فإنها لا تحصل بين الماء والأرض ، وكلاهما باردان ، فانظر كيف سخّر الشمس ، وكيف خلقها مع بعدها عن الأرض مسخنة للأرض في وقت دون وقت ؛ ليحصل البرد عند الحاجة إلى البرد ، والحر عند الحاجة إلى الحر ، فهذه إحدى حكيم الشمس ، والحكم فيها أكثر من أن تحصى .

ثم النبات إذا ارتفع عن الأرض . . كان في الفواكه انعقاد وصلابة ، فتفتقر إلى رطوبة تنضجها ، فانظر كيف خلق القمر وجعل من خاصيته الترطيب ، كما جعل من خاصية الشمس التسخين ، فهو ينضج الفواكه ويصبغها بتقدير الفاطر الحكيم ، ولذلك لو كانت الأشجار في ظل يمنع شروق الشمس والقمر وسائر الكواكب عليها . . لكانت فاسدة ناقصة ، حتى إن الشجرة الصغيرة تفسد إذا أظلتها شجرة كبيرة ، وتعرف ترطيب القمر بأن تكشف رأسك له بالليل ، فتغلب على رأسك الرطوبة التي يُعبر عنها بالزكام ، فكما يرطب رأسك يرطب الفواكه أيضاً .

ولا نطوّل فيما لا مطمع في استقصائه ، بل نقول :

كلّ كوكبٍ في السماء فقد سُخِّرَ لنوعٍ فائدةٍ كما سُخِّرَتِ الشمسُ للتسخينِ والقمرُ للترطيبِ ، فلا يخلو واحدٌ منها عن حكمٍ كثيرةٍ لا تفي قوّةُ البشرِ بإحصائها ، ولو لم يكنْ كذلكَ . . . لكانَ خلقُها عبثاً وباطلاً ، ولم يصحّ قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلاً ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِبٍ ﴾ ، وكما أنّه ليسَ في أعضاءِ بدنِكَ عضوٌ إلا لفائدةٍ . . . فليسَ في أعضاءِ بدنِ العالمِ عضوٌ إلا لفائدةٍ ، والعالمُ كلّهُ كشخصٍ واحدٍ ، وآحادُ أجسامِهِ كالأعضاءِ لَهُ ، وهي متعاونةٌ تعاونَ أعضاءِ بدنِكَ في جملةِ بدنِكَ ، وشرحُ ذلك يطول .

ولا ينبغي أنْ تظنَّ أنَّ الإيمانَ بأنَّ النجومَ والشمسَ والقمرَ مسخراتٌ بأمرِ الله تعالى في أمورٍ جعلتْ أسباباً لها بحكمِ الحكمةِ . . . مخالفٌ للشرعِ ؛ لما وردَ فيه مِنَ النهيِ عَنْ تصديقِ المنجِّمينَ وعنْ علمِ النجومِ^(١) ، بل المنهيُّ عنه في النجومِ أمرانِ :

أحدهما : أنْ تصدّقَ بأنّها فاعلةٌ لآثارها مستقلةٌ بها ، وأنّها ليستْ مسخرةٌ تحتَ تدبيرِ مدبّرٍ خلقها وقهرها ، وهذا كفرٌ .

(١) فقد روى أبو داود (٣٩٠٥) ، وابن ماجه (٣٧٢٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً : « من اقتبس علماً من النجوم . . . اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد » ، وروى أحمد في « المسند » (٧٨ / ١) ، والخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (٧٧٦) مرفوعاً : « يا علي ؛ لا تجالس أصحاب النجوم » .

والثاني : تصديق المنجمين في تفصيل ما يخبرون عنه من الآثار التي لا يشترك كافة الخلق في دركها ؛ لأنهم يقولون ذلك عن جهل ، فإن علم أحكام النجوم كان معجزة لبعض الأنبياء^(١) ، ثم اندرس ذلك العلم ، فلم يبق منه إلا ما هو مختلط لا يتميز فيه الصواب عن الخطأ ، فاعتقاد كون الكواكب أسباباً لآثار تحصل بخلق الله تعالى في الأرض وفي النبات وفي الحيوان . . ليس قادحاً في الدين ، بل هو حق ، ولكن دعوى العلم بتلك الآثار على التفصيل مع الجهل قادح في الدين ، ولذلك إذا كان معك ثوب غسلته وتريد تجفيفه ، فقال لك غيرك : (أخرج الثوب وابسطه ؛ فإن الشمس قد طلعت وحمي الهواء) . . لا يلزمك تكذيبه ، ولا يلزمك الإنكار عليه بحوالته حمي الهواء على طلوع الشمس ، وإذا سألت عن تغير وجه الإنسان بذلك ، فقال : (قرعتني الشمس في الطريق فاسود وجهي) . . لم يلزمك تكذيبه بذلك ، وقس بهذا سائر الآثار .

إلا أن الآثار بعضها معلوم وبعضها مجهول ، فالمجهول لا يجوز دعوى العلم فيه ، والمعلوم بعضه معلوم للناس كافة ؛ كحصول الضياء والحرارة بطلوع الشمس ، وبعضه لبعض الناس ؛ كحصول الزكام بشروق القمر . فإذا ؛ الكواكب ما خلقت عبثاً ، بل فيها حكم كثيرة لا تحصى ، ولهذا

(١) قيل : هو إدريس ، وقيل : هو دانيال . « إتحاف » (١١٨ / ٩) ، وفي (أ) : (لأنهم لا يقولون ذلك عن جهل ؛ فإن علم أحكام . . .) ، ولا يبعد .

نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السماء وقرأ قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ ثم قال : « ويلٌ لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبيلته »^(١) ، ومعناه : أن يقرأ ويترك التأمل ، ويقتصر من فهم ملكوت السماوات على أن يعرف لون السماء وضوء الكواكب ، وذلك ممّا تعرفه البهائم أيضاً ، فمن قنع منه بمعرفة ذلك . فهو الذي مسح بها سبيلته .

فلله تعالى في ملكوت السماوات والآفاق والأنفس والحيوانات والنبات عجائب يطلب معرفتها المحبّون لله تعالى ، فإن من أحبّ عالماً . فلا يزال مشغولاً بطلب تصانيفه ؛ ليزداد بمزيد الوقوف على عجائب علمه حباً له ، وكذلك الأمر في عجائب صنع الله تعالى ، فإن العالم كلّهُ من تصانيفه ، بل تصنيف المصنّفين من تصنيفه الذي صنّفه بواسطة قلوب عباده ، فإن تعجّبت من تصنيف . فلا تتعجّب من المصنّف ، بل من الذي سخر المصنّف لتصنيفه بما أنعم عليه من هدايته وتسديده وتعريفه ، كما إذا رأيت لعب المشعوذ ترقص وتتحرك حركات موزونة متناسبة . فلا تتعجّب من اللعب ؛ فإنها خرق محرّكة لا متحرّكة ، ولكن تعجّب من حذق المشعوذ المحرّك لها بروابط دقيقة خفية عن الأبصار .

فإذا ؛ المقصود أن غذاء النبات لا يتم إلا بالماء والهواء والشمس والقمر

(١) كذا لفظه في « القوت » (٢٥٤ / ١) ، وروى ابن حبان في « صحيحه » (٦٢٠) نحوه ، والسبلة : الشارب ، أو الدائرة في وسط الشفة العليا ، أو ما على الذقن إلى طرف اللحية .

والكواكب ، ولا يتمُّ ذلك إلا بالأفلاك التي هي مركوزة فيها ، ولا تتمُّ
الأفلاك إلا بحركاتها ، ولا تتمُّ حركاتها إلا بملائكة سماوية يحركونها ،
وكذلك يتمادى ذلك إلى أسباب بعيدة تركنا ذكرها تنبيهاً بما ذكرناه على
ما أهملناه ، ولنقتصر على هذا من ذكر أسباب غذاء النبات .



الطرف الخامس : في نعم الله تعالى في الأسباب الموصلة للأطعمة إليك

اعلم : أنَّ هذه الأطعمة كلها لا توجد في كلِّ مكانٍ ، بل لها شروطٌ مخصوصةٌ لأجلها توجد في بعض الأماكن دون بعض ، والناس منتشرون على وجه الأرض ، وقد تبعد عنهم الأطعمة ، ويحول بينهم وبينها البحار والبراري .

فانظر كيف سخر الله تعالى التجار ، وسلط عليهم حِصصَ المالِ وشره الربح ، مع أنَّه لا يغنيهم في غالب الأمر شيئاً ، بل يجمعون ؛ فإمَّا أن تغرق بها السفن ، أو تنهبها قطاعُ الطريق ، أو يموتوا في بعض البلاد فيأخذها السلاطين ، وأحسن أحوالهم أن يأخذها ورثتهم وهم أشدُّ أعدائهم لو عرفوا .

فانظر كيف سلط الله الجهل والغفلة عليهم ، حتَّى يقاسون الشدائد في طلبِ الربح ويركبون الأخطار ، ويغرون بالأرواح في ركوبِ البحار ، فيحملون الأطعمة وأنواع الحوائج من أقصى الشرق والغرب إليك .

وانظر كيف علَّمهم الله تعالى صناعة السفن ، وكيفية الركوب فيها ، وانظر كيف خلق الحيوانات ، وسخرها للركوب والحمل في البراري ، وانظر إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى الفرس كيف أمدت بسرعة الحركة ، وإلى الحمار كيف جعل صبوراً على التعب ، وإلى الجمال كيف تقطع

البراري وتطوي المراحل تحت الأعباء الثقيلة على الجوع والعطش ، وانظر كيف سَيَّرَهُمُ اللهُ تعالى بواسطة السفن والحيوانات في البر والبحر ليحملوا إليك الأطعمة وسائر الحوائج .

وتأمل ما يحتاج إليه الحيوانات من أسبابها وأدواتها وعلفها ، وما تحتاج إليه السفن ، فقد خلق الله تعالى جميع ذلك إلى حدّ الحاجة وفوق الحاجة ، وإحصاء ذلك غير ممكن ، ويتمادى هذا إلى أمور خارجة عن الحصر نرى تركها طلباً للإيجاز .



الطرف السادس : في إصلاح الأطعمه

اعلم : أن الذي ينبت في الأرض من النبات ، وما يُخلق من الحيوانات . . لا يمكن أن يُقضم ويؤكل وهو كذلك ، بل لا بد في كل واحد من إصلاح وطبخ وتركيب وتنظيف بإلقاء البعض وإبقاء البعض ، إلى أمور آخر لا تحصى ، واستقصاء ذلك في كل طعام طويل ، فلنعين رغيفاً واحداً ، ولننظر إلى ما يحتاج إليه الرغيف الواحد حتى يستدير ويصلح للأكل من بعد إلقاء البذر في الأرض .

فأول ما يحتاج إليه الحرث ؛ ليزرع ويصلح الأرض ، ثم الثور الذي يثري به الأرض والفدان وجميع أسبابه ، ثم بعد ذلك التعهد بسقي الماء مدة ، ثم تنقية الأرض من الحشيش ، ثم الحصاد ، ثم الفك والتنقية ، ثم الطحن ، ثم العجن ، ثم الخبز .

فتأمل عدد هذه الأفعال التي ذكرناها وما لم نذكره ، وعدد الأشخاص القائمين بها ، وعدد الآلات التي يحتاج إليها من الحديد والخشب والحجر وغيره .

وانظر إلى أعمال الصناع في إصلاح آلات الحرث والطحن والخبز ؛ من نجار وحداد وغيرهما ، وانظر إلى حاجة الحداد إلى الحديد والرصاص والنحاس ، وانظر كيف خلق الله تعالى الجبال والأحجار والمعادن ، وكيف جعل الأرض قطعاً متجاورات مختلفة .

فإن فتشت.. علمت أن رغيماً واحداً لا يستديرُ بحيث يصلحُ لأكلِك
يا مسكينُ ما لم يعملْ عليه أكثرُ من ألفِ صانعٍ ، فابتدئَ من المَلِكِ الذي
يزجي السحابَ لينزلَ الماءَ ، إلى آخرِ الأعمالِ من جهةِ الملائكةِ ، حتَّى
تنتهيَ النوبةُ إلى عملِ الإنسانِ ، فإذا استدارَ . طلبهُ قريبٌ من سبعةِ آلافِ
صانعٍ ، كلُّ صانعٍ أصلٌ من أصولِ الصنائعِ التي بها تتمُّ مصلحةُ الخلقِ .

ثم تأملْ كثرةَ أعمالِ الإنسانِ في تلكَ الآلاتِ ، حتَّى إنَّ الإبرةَ التي هي
آلةٌ صغيرةٌ فائدتها خياطةُ اللباسِ الذي يمنعُ البردَ عنك لا تكملُ صورتها من
حديدٍ تصلحُ للإبرةِ إلا بعدَ أن تمرَّ على يدِ الإبريِّ خمساً وعشرينَ مرَّةً ،
يتعاطى في كلِّ مرَّةٍ منها عملاً ، فلو لم يجمعِ اللهُ تعالى البلادَ ، ولم يسخرِ
العبادَ ، وافتقرتِ إلى عملِ المنجلِ الذي تحصِّدُ به البرَّ مثلاً بعدَ نباتِهِ . لنفدَ
عمرُك وعجزتَ عنه .

أفلا ترى كيفَ هدى اللهُ عبدهُ الذي خلقهُ من نطفةٍ قدرةً لأنَّ يعملَ هذه
الأعمالَ العجيبةَ والصنائعَ الغريبةَ ؟!

فانظرْ إلى المقراضِ مثلاً وهما جَلَمَانِ متطابقانِ ، ينطبقُ أحدهما على
الآخرِ ، فيتناولانِ الشيءَ معاً ويقطعانهِ بسرعةٍ ، ولو لم يكشفِ اللهُ تعالى
طريقَ اتخاذِهِ بفضلِهِ وكرمِهِ لِمَنْ قبلنا ، وافتقرنا إلى استنباطِ الطريقِ فيه
بفكرنا ، ثمَّ إلى استخراجِ الحديدِ من الحجرِ ، وإلى تحصيلِ الآلاتِ التي
بها يُعملُ المقراضُ ، وعُمَرُ الواحدِ منَّا عمرَ نوحٍ ، وأوتيَ أكملَ العقولِ ..

لقصر عمره عن استنباط الطريق في إصلاح هذه الآلة وحدها فضلاً عن غيرها .

فسبحان مَنْ أَلْحَقَ ذَوِي الْأَبْصَارِ بِالْعَمِيَانِ ! وسبحان مَنْ مَنَعَ التَّبَيُّنَ مَعَ هَذَا الْبَيَانِ !

فانظرِ الْآنَ لَوْ خَلَا بِلْدُكَ عَنِ الطَّحَانِ مَثَلًا ، أَوْ عَنِ الْحَدَّادِ ، أَوْ عَنِ الْحَجَّامِ الَّذِي هُوَ أَحْسَنُ الْعَمَالِ ، أَوْ عَنِ الْحَاثِكِ ، أَوْ عَنْ وَاحِدٍ مِنْ جَمَلَةِ الصَّنَاعِ . . ماذا يَصِيْبُكَ مِنَ الْأَذَى ، وكيفَ تَضْطَرُّ عَلَيْكَ أُمُورُكَ كُلُّهَا ، فسبحان مَنْ سَخَّرَ بَعْضَ الْعِبَادِ لِبَعْضٍ حَتَّى نَفَذْتُ بِهِ مَشِيئَتَهُ ، وَتَمَّتْ بِهِ حِكْمَتُهُ .

ولنوجز القول في هذه الطبقة أيضاً ، فَإِنَّ الْغَرَضَ التَّنْبِيْهُ عَلَى النِّعَمِ دُونَ الْإِسْتِقْصَاءِ .



الطرف السابع : في إصلاح المصالحين

اعلم : أنَّ هؤلاء الصنَّاع المصلحين للأطعمة وغيرها لو تفرقت آراؤهم وتنافرت طباعهم تنافر طباع الوحش . . لتبددوا وتباعدوا ، ولم ينتفع بعضهم ببعض ، بل كانوا كالوحوش لا يحويهم مكان واحد ، ولا يجمعهم غرض واحد ، فانظر كيف أَلَفَ اللهُ تعالى بين قلوبهم ، وسلَّطَ الأنسَ والمحبة عليهم ، ﴿لَو أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ ، فلأجل الإلف وتعارف الأرواح اجتمعوا واثقفوا ، وبنوا المدن والبلاد ورتبوا المساكن والدور متقاربة متجاورة ، ورتبوا الأسواق والخانات وسائر أصناف البقاع ، ممَّا يطول إحصاؤه .

ثمَّ هذه المحبة تزول بأغراض يتزاحمون عليها ، ويتنافسون فيها ، ففي جلبة الإنسان الغيظ والحسد والمنافسة ، وذلك مما يؤدي إلى التقاتل والتنافر ، فانظر كيف سلَّطَ اللهُ تعالى السلاطين وأمدَّهم بالقوَّة والعدة والأسباب ، وألقى رعبهم في قلوب الرعايا حتَّى أذعنوا لهم طوعاً وكرهاً ، وكيف هدى السلاطين إلى طريق إصلاح البلاد ، حتَّى رتبوا أجزاء البلد كأنها أجزاء شخص واحد ، تتعاون على غرض واحد ، ينتفع البعض منها البعض ، فرتبوا الرؤساء والقضاة والشُّحَن وزعماء الأسواق^(١) ، واضطروا

(١) الشُّحَن : جمع شحنة ، لفظة فارسية بمعنى نائب الحاكم ومسؤول الأمن .

الخلق إلى قانون العدل ، وألزمهمُ التساعدَ والتعاونَ ، حتَّى صارَ الحدَّادُ ينتفعُ بالقصَّابِ والخبَّازِ وسائرِ أهلِ البلدِ ، وكلُّهمُ ينتفعونَ بالحدَّادِ ، وصارَ الحجَّامُ ينتفعُ بالحرَّاثِ ، والحرَّاثُ بالحجَّامِ ، وينتفعُ كلُّ واحدٍ بكلِّ واحدٍ بسببِ ترتُّبهمُ واجتماعهمُ وانضباطهمُ تحتَ ترتيبِ السلطانِ وجمعه ؛ كما يتعاونُ جميعُ أعضاءِ البدنِ وينتفعُ بعضها ببعضٍ .

وانظرُ كيفَ بعثَ الأنبياءَ عليهمُ السلامُ حتَّى أصلحوا السلاطينَ المصلحينَ للرعايا ، وعرفوهمُ قوانينَ الشرعِ في حفظِ العدلِ بينَ الخلقِ ، وقوانينَ السياسةِ في ضبطهمُ ، وكشفوا منَ أحكامِ الإمامةِ والسلطنةِ وأحكامِ الفقهِ ما اهتمَّوا بهِ إلى إصلاحِ الدنيا ، فضلاً عما أرشدوهمُ إليه منَ إصلاحِ الدينِ .

وانظرُ كيفَ أصلحَ اللهُ تعالى الأنبياءَ بالملائكةِ ، وكيفَ أصلحَ الملائكةَ بعضهمُ ببعضٍ ، إلى أنَ ينتهيَ إلى الملكِ المقربِ الذي لا واسطةَ بينَهُ وبينَ اللهِ تعالى .

فالخبَّازُ يخبزُ العجينَ ، والطَّحَّانُ يصلحُ الحبَّ بالطحنِ ، والحرَّاثُ يصلحُهُ بالحصادِ ، والحدَّادُ يصلحُ آلاتِ الحراثةِ ، والنجَّارُ يصلحُ آلاتِ الحدَّادِ ، وكذا جميعُ أربابِ الصناعاتِ المصلحينَ لآلاتِ الأُطعمةِ ، والسلطانُ يصلحُ الصنَّاعَ ، والأنبياءُ يصلحونَ العلماءَ الذينَ همُ ورثتهمُ ، والعلماءُ يصلحونَ السلاطينَ ، والملائكةُ يصلحونَ الأنبياءَ ، إلى أنَ ينتهيَ إلى حضرةِ الربوبيةِ التي هي ينبوعُ كلِّ نظامٍ ، ومطلعُ كلِّ حسنٍ وجمالٍ ،

ومنشأ كل ترتيب وتأليف ، وكل ذلك نعم من رب الأرباب ومسبب الأسباب ، ولولا فضله وكرمه إذ قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ .. لما اهتدينا إلى معرفة هذه النبذة اليسيرة من نعم الله تعالى ، ولولا عزله إيانا عن أن نطمح بعين الطمع إلى الإحاطة بكنهه نعمه .. لتشوفنا إلى طلب الإحاطة والاستقصاء ، ولكنه تعالى عزلنا بحكم القهر والقدرة فقال تعالى : ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ﴾ .

فإن تكلمنا .. فبإذنه انبسطنا ، وإن سكتنا .. فبقهره انقبضنا ؛ إذ لا معطي لما منع ، ولا مانع لما أعطى ؛ لأننا في كل لحظة من لحظات العمر قبل الموت نسمع بسمع القلوب نداء الملك الجبار : ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ ، فالحمد لله الذي ميزنا عن الكفار ، وأسمعنا هذا النداء قبل انقضاء الأعمار .



الطرف الثامن : في بيان نعمة الله تعالى في خلق الملائكة عليهم السلام

ليس يخفى عليك ما سبق من نعمة الله في خلق الملائكة بإصلاح الأنبياء عليهم السلام وهدايتهم ، وتبليغ الوحي إليهم ، ولا تظننَّ أنَّهم مقتصرون في أفعالهم على ذلك القدر ، بل طبقات الملائكة مع كثرتها وترتب مراتبها تنحصر بالجملة في ثلاث طبقات : الملائكة الأرضية ، والسماوية ، وحملة العرش .

فانظر كيف وكلهم الله تعالى بك فيما يرجع إلى الأكل والغذاء الذي ذكرناه دون ما يجاوز ذلك من الهداية والإرشاد وغيرهما .

واعلم : أنَّ كلَّ جزء من أجزاء بدنك ، بل من أجزاء النبات . . لا يتغذى إلا بأن يؤكل به سبعة من الملائكة هو أقلُّه إلى عشرة ، إلى مئة ، إلى ما وراء ذلك .

وبيانه : أنَّ معنى الغذاء أن يقوم جزء من الغذاء مقام جزء قد تلف ، وذلك الغذاء يصير دماً في آخر الأمر ، ثم يصير لحماً وعظماً ، فإذا صار لحماً وعظماً . . تمَّ اغتداؤك ، والدُّم واللحم أجسام ليس لها قدرة ومعرفة واختيار ، فهي لا تتحرك بأنفسها ، ولا تتغير بأنفسها ، ومجرد الطبع لا يكفي في ترددها في أطوارها ، كما أنَّ البرَّ بنفسه لا يصير طحيناً ، ثمَّ عجينة ، ثمَّ خبزاً مستديراً مخبوزاً إلا بصنَّاع ؛ فكذلك الدُّم بنفسه لا يصير لحماً وعظماً وعرقاً وعصباً إلا بصنَّاع ، والصنَّاع في الباطن هم الملائكة ؛

كما أَنَّ الصَّنَاعَ فِي الظَّاهِرِ هُمْ أَهْلُ الْبَلَدِ ، وَقَدْ أَسْبَغَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْكَ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ، فَلَا يَنْبَغِي أَنْ تَغْفَلَ عَنْ نِعْمَةِ الْبَاطِنَةِ ، فَأَقُولُ :

لَا بَدَّ مِنْ مَلِكٍ يَجْذِبُ الْغِذَاءَ إِلَى جَوَارِ اللَّحْمِ وَالْعَظْمِ ، فَإِنَّ الْغِذَاءَ لَا يَتَحَرَّكُ بِنَفْسِهِ ، وَلَا بَدَّ مِنْ مَلِكٍ آخَرَ يُمْسِكُ الْغِذَاءَ فِي جَوَارِهِ ، وَلَا بَدَّ مِنْ ثَالِثٍ يَخْلَعُ عَنْهُ صُورَةَ الدِّمِ ، وَلَا بَدَّ مِنْ رَابِعٍ يَكْسُوهُ صُورَةَ اللَّحْمِ وَالْعَظْمِ وَالْعَرَقِ ، وَلَا بَدَّ مِنْ خَامِسٍ يَدْفَعُ الْفَضْلَ الْفَاضِلَ عَنْ حَاجَةِ الْغِذَاءِ ، وَلَا بَدَّ مِنْ سَادِسٍ يَلْصِقُ مَا اكْتَسَبَ صِفَةَ الْعَظْمِ بِالْعَظْمِ ، وَمَا اكْتَسَبَ صِفَةَ اللَّحْمِ بِاللَّحْمِ ؛ حَتَّى لَا يَكُونَ مَنفَصَلًا ، وَلَا بَدَّ مِنْ سَابِعٍ يَرعى الْمَقَادِيرَ فِي الْإِلْصَاقِ ، فَيَلْحَقُ بِالْمُسْتَدِيرِ مَا لَا يَبْطُلُ اسْتِدَارَتُهُ ، وَبِالْعَرِيضِ مَا لَا يَزِيلُ عَرْضُهُ ، وَبِالْمَجُوفِ مَا لَا يَبْطُلُ تَجْوِيفُهُ ، وَيَحْفَظُ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ قَدْرَ حَاجَتِهِ ، فَإِنَّهُ لَوْ جُمِعَ مِثْلًا مِنَ الْغِذَاءِ عَلَى أَنْفِ الصَّبِيِّ مَا يَجْمَعُ عَلَى فَخْذِهِ . . لَكَبَرِ أَنْفُهُ ، وَبَطُلَ تَجْوِيفُهُ ، وَتَشَوَّهَتْ صُورَتُهُ ، بَلْ يَنْبَغِي أَنْ يَسُوقَ إِلَى الْأَجْفَانِ مَعَ رَقَّتَيْهَا ، وَإِلَى الْحَدَقَةِ مَعَ صَفَائِيهَا ، وَإِلَى الْأَفْخَازِ مَعَ غَلْظِهَا ، وَإِلَى الْعَظْمِ مَعَ صَلَابَتِهِ . . مَا يَلِيقُ بِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا مِنْ حَيْثُ الْقَدْرُ وَالشَّكْلُ ، وَإِلَّا . . بَطَلَتِ الصُّورَةُ ، وَرَبَا بَعْضُ الْمَوَاضِعِ ، وَضَعُفَ بَعْضُ الْمَوَاضِعِ ، بَلْ لَوْ لَمْ يَرَاعِ هَذَا الْمَلِكُ الْعَدْلَ فِي الْقِسْمَةِ وَالتَّقْسِيطِ ؛ فَسَاقَ إِلَى رَأْسِ الصَّبِيِّ وَسَائِرِ بَدْنِهِ مِنَ الْغِذَاءِ مَا يَنْمُو بِهِ إِلَّا إِحْدَى الرَّجْلَيْنِ مِثْلًا . . لَبَقِيَتْ تِلْكَ الرَّجْلُ كَمَا كَانَتْ فِي حَدِّ الصَّغَرِ ، وَكَبَرَ جَمِيعُ الْبَدَنِ ، فَكَنتَ تَرَى شَخْصًا فِي ضَخَامَةِ رَجُلٍ وَلَهُ رَجُلٌ وَاحِدَةٌ كَأَنَّهَا رَجُلٌ صَبِيٌّ ، فَلَا يَنْتَفِعُ بِنَفْسِهِ أَلْبَتَّةَ .

فمراعاة هذه الهندسة في هذه القسمة مفوضة إلى ملك من الملائكة ،
ولا تظنن أن الدم بطبعه يهندس شكل نفسه ، فإن محيل هذه الأمور على
الطبع جاهل لا يدري ما يقول .
فهذه هي الملائكة الأرضية .

وقد شغلوا بك وأنت في النوم تستريح ، وفي الغفلة تتردد ، وهم
يصلحون الغذاء في باطنك ، ولا خبر لك منهم ، وذلك في كل جزء من
أجزاء التي لا تتجزأ ، حتى يفتقر بعض الأجزاء كالعين والقلب إلى أكثر
من مئة ملك ، تركنا تفصيل ذلك للإيجاز .

والملائكة الأرضية مددوهم من الملائكة السماوية على ترتيب معلوم ،
لا يحيط بكنهه إلا الله تعالى ، ومدد الملائكة السماوية من حملة العرش ،
والمنعم على جميعهم بالتأييد والهداية والتسيد المهيمن القدوس المنفرد
بالملك والملكوت والعزة والجبروت ، جبار السماوات والأرض ، مالك
الملك ذو الجلال والإكرام .

والأخبار الواردة في الملائكة الموكلين بالسماوات والأرض وأجزاء
النبات والحيوانات حتى كل قطرة من المطر ، وكل سحاب ينجر من جانب
إلى جانب . . أكثر من أن تحصى ، فلذلك تركنا الاستشهاد به^(١) .



(١) ينظر « الحباثك في أخبار الملائك » لمزيد التوسع ، ففيه ما يشفي ويكفي .

فإن قلت : فهلاً فوّضت هذه الأفعال إلى ملكٍ واحدٍ ، ولم افتقر إلى سبعة أملاكٍ ، والحنطة أيضاً تحتاج إلى من يطحن أولاً ، ثم إلى من يميز عنه النخالة ويدفع الفضلة ثانياً ، ثم إلى من يصب الماء عليه ثالثاً ، ثم إلى من يعجن رابعاً ، ثم إلى من يقطع كراتٍ مدورةً خامساً ، ثم إلى من يرققها رغفاناً عريضةً سادساً ، ثم إلى من يلصقها بالنور سابعاً ، ولكن قد يتولى جميع ذلك رجلٌ واحدٌ يستقلُّ به ، فهلاً كانت أعمال الملائكة باطناً كأعمال الإنس ظاهراً .

فاعلم : أن خلق الملائكة تخالف خلق الإنس ، وما من واحدٍ منهم إلا وهو وحدانيُّ الصفة ، ليس فيه خلطٌ وتركيبٌ ألبتة ، فلا يكون لكل واحدٍ منهم إلا فعلٌ واحدٌ ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ وَمَا مِثًا إِلَّا لِمُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴾ ، فلذلك ليس بينهم تنافسٌ وتقاتلٌ ، بل مثالهم في تعيين مرتبة كل واحدٍ منهم وفعله مثال الحواس الخمس ، فإن البصر لا يزاحم السمع في إدراك الأصوات ، ولا الشم يزاحمهما ، ولا هما ينازعان الشم ، وليس كاليد والرجل ؛ فإنك قد تبطش بأصابع الرجل بطشاً ضعيفاً ، فتزاحم به اليد ، وقد تضرب غيرك برأسك فتزاحم اليد التي هي آلة الضرب ، ولا كالإنسان الواحد الذي يتولى بنفسه الطحن والعجن والخبز ؛ فإن هذا نوعٌ من الاعوجاج والعدول عن العدل ، سببه اختلاف صفات الإنسان واختلاف دواعيه ، فإنه ليس وحدانيُّ الصفة ، فلم يكن وحدانيُّ الفعل .

ولذلك ترى الإنسان يطيع الله مرةً ويعصيه أخرى ؛ لاختلاف دواعيه

وصفاته ، وذلك غير ممكن في طباع الملائكة ، بل هم مجبولون على الطاعة ، لا مجال للمعصية في حقهم ، فلا جرم لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون ، ويسبحون الليل والنهار لا يفترون ، والراکع منهم راكع أبداً ، والساجد منهم ساجد أبداً ، والقائم قائم أبداً ، لا اختلاف في أفعالهم ولا فتور ، ولكل واحد مقام معلوم لا يتعداه^(١) .

وطاعتهم لله تعالى من حيث لا مجال للمخالفة فيهم يمكن أن تشبه بطاعة أطرافك لك ؛ فإنك مهما جزمت الإرادة بفتح الألفان . . لم يكن للجفن الصحيح تردد واختلاف في طاعتك مرة ومعصيتك أخرى ، بل كأنه منتظر لأمرك ونهيك ، يفتح وينطبق متصلاً بإشارتك ، فهذا يشبهه من وجه ، لكن يخالفه من وجه ؛ إذ الجفن لا علم له بما يصدر منه من الحركة فتحاً وإطباقاً ، والملائكة أحياء عالمون بما يفعلون .

فإذا ؛ هذه نعمة الله عليك في الملائكة الأرضية والسموية ، وحاجتك إليهما في غرض الأكل فقط دون ما عداها من الحركات والحاجات كلها ، فإننا لم نطوّل بذكرها .

(١) وقد روى المروزي في « تعظيم قدر الصلاة » (٢٦٠) ، وأبو الشيخ في « العظمة » (٥١٥) مرفوعاً : « إن لله ملائكة ترعد فرائصهم من خيفته ، ما منهم ملك يقطر دمة من عينه إلا وقعت ملكاً قائماً يصلي ، وإن منهم ملائكة سجوداً منذ خلق الله السماوات والأرض ، لم يرفعوا رؤوسهم ، لا يرفعونها إلى يوم القيامة ، وإن منهم ركوعاً لم يرفعوا رؤوسهم منذ خلق الله السماوات والأرض ، فلا يرفعونها إلى يوم القيامة ، فإذا رفعوا رؤوسهم ونظروا إلى وجه الله . . قالوا : سبحانك ما عبدناك كما ينبغي لك » .

فهذه طبقة أخرى من طبقات النعم ، ومجامع الطبقات لا يمكن إحصاؤها ، فكيف أحاد ما يدخل تحت مجامع الطبقات ؟!

فإذا ؛ قد أسبغ الله تعالى عليك نعمة ظاهرة وباطنة ، ثم قال : ﴿ وَذَرُوا ظَهْرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ﴾ ، فترك باطن الإثم ممّا لا يعرفه الخلق من الحسد وسوء الظنّ والبدعة وإضرار الشرّ للناس إلى غير ذلك من آثام القلوب . . هو الشكر للنعم الباطنة ، وترك الإثم الظاهر بالجوارح شكر للنعمة الظاهرة .

بل أقول : كل من عصى الله تعالى ولو في تطريفة واحدة ؛ بأن فتح جفنه مثلاً حيث يجب غض البصر . . فقد كفر كل نعمة لله تعالى عليه في السماوات والأرض وما بينهما ، فإن كل ما خلقه الله تعالى حتى الملائكة والسماوات والأرض والحيوان والنبات بجمليته نعمة على كل واحد من العباد ، قد تمّ به انتفاعه وإن انتفع غيره أيضاً به ؛ فإن لله تعالى في كل تطريفة بالجفن نعمتين في نفس الجفن ؛ إذ خلق تحت كل جفن عضلات ولها أوتار ورباطات متصلة بأعصاب الدماغ ، بها يتم انخفاض الجفن الأعلى وارتفاع الجفن الأسفل ، وعلى كل جفن شعور سودّ ، ونعمة الله في سوادها أنها تجمع ضوء العين ؛ إذ البياض يفرّق الضوء ، والسواد يجمعه ، ونعمة الله تعالى في ترتيبها صفّاً واحداً أن يكون مانعاً للهوام من الدبيب إلى باطن العين ، ومتشبهاً للأقذاء التي تتناثر في الهواء ، وله في كل شعرة منها نعمتان من حيث لين أصلها ، ومع اللين قوّم نصبها ، وله في اشتباك الأهداب نعمة أعظم من الكل ، وهو أن غبار الهواء قد يمنع من فتح العين ،

ولو طبق... لم يبصر ، فيجمع الأجفان مقدار ما تتشابك الأهداب ، فينظر من وراء شبك الشعر ، فيكون شبك الشعر مانعاً من وصول القذى من خارج ، وغير مانع من امتداد البصر من داخل .

ثم إن أصاب الحدقة غبار . . فقد خلق أطراف الأجفان حادة منطبقة على الحدقة ، كالمصقلة للمرأة ، فيطبقها مرة أو مرتين وقد انصقلت الحدقة من الغبار ، وخرجت الأقداء إلى زوايا العين والأجفان ، والذباب لما لم يكن لحدقته جفن . . خلق له يدين ، فتراه على الدوام يمسح بهما حدقته ليصقلهما من الغبار .

وإذ تركنا الاستقصاء لتفاصيل النعم لافتقاره إلى تطويل يزيد على أصل هذا الكتاب ، ولعلنا نستأنف له كتاباً مقصوداً فيه إن أمهل الزمان وساعد التوفيق ، نسّميه : « عجائب صنع الله تعالى »^(١) . . فلنرجع إلى غرضنا ، فنقول :

من نظر إلى غير محرم . . فقد كفر بفتح العين نعمة الله في الأجفان^(٢) ،

(١) ذكره ابن السبكي في « طبقات الشافعية الكبرى » (٢٢٧ / ٦) ضمن ما سرد للمصنف رحمه الله تعالى من مؤلفات ، ولعله هو كتاب « الحكمة من مخلوقات الله عز وجل » نفسه ؛ إذ يقول الإمام الغزالي في مقدمته : (إنه لما كان الطريق إلى معرفة الله سبحانه التعظيم له بالنظر إلى مخلوقاته ، والتفكير في عجائب مصنوعاته ، وفهم الحكمة . . .) ، والله تعالى أعلم .

(٢) قوله : (من نظر إلى غير محرم) سقط من جميع النسخ ، وأثبت من (ق) ونسخة الحافظ الزبيدي .

ولا تقومُ الأجفانُ إلا بعينٍ ، ولا العينُ إلا برأسٍ ، ولا الرأسُ إلا بجميعِ
البدنِ ، ولا البدنُ إلا بالغذاءِ ، ولا الغذاءُ إلا بالماءِ والأرضِ والهواءِ
والمطرِ والغيمِ والشمسِ والقمرِ ، ولا يقومُ شيءٌ من ذلك إلا بالسمواتِ ،
ولا السمواتُ إلا بالملائكةِ ، فإنَّ الكلَّ كالشيءِ الواحدِ ، يرتبطُ البعضُ منه
بالبعضِ ارتباطاً أعضاءِ البدنِ بعضها ببعضٍ ، فإذا ؛ قد كفرَ كلُّ نعمةٍ لله تعالى
في الوجودِ من منتهى الثرى إلى منتهى الثرى ، فلم يبقَ فلكٌ ولا ملكٌ
ولا حيوانٌ ولا نباتٌ ولا جمادٌ إلا ويلعنه ، ولذلك وردَ في الأخبارِ أنَّ البقعةَ
التي يجتمعُ فيها الناسُ إمّا أن تلعنهم إذا تفرّقوا أو تستغفرَ لهم^(١) ، وكذلك
وردَ أنَّ العالمَ يستغفرُ له كلُّ شيءٍ حتّى الحوتُ في البحرِ^(٢) ، وأنَّ الملائكةَ
يلعنونَ العصاةَ^(٣) ، في ألفاظٍ كثيرةٍ لا يمكنُ إحصاؤها ، وكلُّ ذلك إشارةٌ

(١) بهذا اللفظ قد قال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) ، والمعنى مبثوث في كتب
السنة ، روى الترمذي (٣٢٥٥) عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « ما من مؤمن إلا وله
بابان ، باب يصعد منه عمله ، وباب ينزل منه رزقه ، فإذا مات .. بكيا عليه ، فذلك
قوله عز وجل : ﴿ فَمَا يَكُنْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴾ » .

وروى أبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٢٤٦٨ / ٥) عن مالك بن عتاهية رضي الله عنه
مرفوعاً : « إن الأرض لتستغفر للمصلي في السراويل » ، وفي خبر أيوب عليه السلام
الآتي ما يفيد هذا المعنى كذلك .

(٢) رواه أبو داود (٣٦٤١) ، والترمذي (٢٦٨٢) ، وابن ماجه (٢٢٣) .

(٣) روى مسلم (٢٦١٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « من أشار إلى أخيه
بحديدة .. فإن الملائكة تلعه حتى يدهه وإن كان أخاه لآبيه وأمه » .

وروى الطبري في « تفسيره » (٧٥ / ٢ / ٢) في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ ﴾
عن قتادة : (هم الملائكة) .

إلى أن العاصي بتطريفة واحدة جنى على جميع ما في الملك والملكوت ،
وقد أهلك نفسه ، إلا أن يتبع السيئة بحسنة تمحوها ، فيتبدل اللعن
بالاستغفار ، فعسى الله أن يتوب عليه ويتجاوز عنه .

وأوحى الله تعالى إلى أيوب عليه السلام : (يا أيوب ؛ ما من عبد لي من
الآدميين إلا ومعه ملكان ، فإذا شكرني على نعمائي .. قال الملكان :
اللهم ؛ زده نعماً على نعم ، فإنك أهل الحمد والشكر ، فكن من الشاكرين
قريباً ، فكفى بالشاكرين علو رتبة عندي أنني أشكر شكرهم ، وملائكتي
يدعون لهم ، والبقاع تحبهم ، والآثار تبكي عليهم)^(١) .

وكما عرفت أن في كل طرفة عين نعماً كثيرة .. فاعلم أن في كل نفس
ينسط وينقبض نعمتين ؛ إذ بانساطه يخرج الدخان المحترق من القلب ،
ولو لم يخرج .. لهلك ، وبانقباضه يجمع روح الهواء إلى القلب ، ولو سُدَّ
متنفسه .. لا حرق قلبه بانقطاع روح الهواء وبرودته عنه وهلك .

بل اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة ، وفي كل ساعة قريب من ألف
نفس ، وكل نفس قريب من عشر لحظات ، فعليك في كل لحظة آلاف آلاف
نعمة في كل جزء من أجزاء بدنك ، بل في كل جزء من أجزاء العالم ، فانظر
هل يُتصور إحصاء ذلك أم لا ؟ !

ولمّا انكشف لموسى عليه السلام حقيقة قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ

(١) قوت القلوب (١/٢١٠) .

اللَّهُ لَا تَخْضُوهَا) .. قَالَ : (إلهي ؛ كيف أشكركَ ولكَ في كلِّ شعرةٍ مِن جسدي نعمتانِ ؛ أنَ لينتَ أصلها ، وأنَ طمستَ رأسها ؟) (١) .

ولذلك وردَ في الأثرِ : (مَنْ لَمْ يَعْرِفْ نِعَمَ اللَّهِ إِلَّا فِي مَطْعِمِهِ وَمَشْرَبِهِ . فَقَدْ قَلَّ عِلْمُهُ ، وَحَضَرَ عَذَابُهُ) (٢) .

وجميعُ ما ذكرناهُ يرجعُ إلى المَطْعَمِ والمَشْرَبِ ، فاعتبرْ ما سواهُ مِنَ النعمِ بهِ ، فإنَّ البصيرَ لا تقعُ عينُهُ في العالمِ على شيءٍ ولا يلمُّ خاطرُهُ بموجودٍ إلا ويتحققُ أنَّ لله فيه نعمةً عليه .

فلتتركِ الاستقصاءَ والتفصيلَ ؛ فإنَّه طمعٌ في غيرِ مَطْمَعٍ .



(١) قوت القلوب (٢٠٩ / ١) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢١٠ / ١) عن أبي الدرداء رضي الله عنه .

بيان اسباب الضارف للخلق عن الشكر

اعلم : أنه لم يقصر بالخلق عن شكر النعمة إلا الجهل والغفلة ، فإنهم منعوا بالجهل والغفلة عن معرفة النعم ، ولا يتصور شكر النعمة إلا بعد معرفتها ، ثم إنهم إن عرفوا نعمة ظنوا أن الشكر عليها أن يقول بلسانه : الحمد لله ، الشكر لله ، ولم يعرفوا أن معنى الشكر أن يستعمل النعمة في إتمام الحكمة التي أريدت بها ، وهي طاعة الله تعالى ، فلا يمنع من الشكر بعد حصول هاتين المعرفتين إلا غلبة الشهوة واستيلاء الشيطان .

أما الغفلة عن النعم . . فلها أسباب ، وأحد أسبابها أن الناس بجهلهم لا يعدون ما يعظم الخلق ويسلم لهم في جميع أحوالهم نعمة ، فلذلك لا يشكرون على جملة ما ذكرناه من النعم ؛ لأنها عامة للخلق مبذولة لهم في جميع أحوالهم ، فلا يرى كل واحد لنفسه اختصاصاً به ، فلا يعدّه نعمة ، فلا تراهم يشكرون الله تعالى على روح الهواء ، ولو أخذ بمخنقهم لحظة حتى انقطع الهواء عنهم . . ماتوا ، ولو حبسوا في بيت حمام فيه هواء حار ، أو في بئر فيه هواء ثقل برطوبة الماء . . ماتوا غمّاً ، فإن ابتلي واحد منهم بشيء من ذلك ثم نجا . . ربّما قدر ذلك نعمة ، وشكر الله عليها ، وهذا غاية الجهل ؛ إذ صار شكرهم موقوفاً على أن تسلب عنهم النعمة ثم تردّ عليهم في بعض الأحوال ، والنعمة في جميع الأحوال أولى بأن تُشكر

مِنَ النِّعْمَةِ فِي بَعْضِهَا ، فَلَا تَرَى الْبَصِيرَ يَشْكُرُ صِحَّةَ بَصَرِهِ إِلَى أَنْ تَعْمَى عَيْنُهُ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ لَوْ أُعِيدَ عَلَيْهِ بَصَرُهُ . . أَحْسَنَ بِهِ وَشَكَرَهُ وَعَدَّهُ نِعْمَةً .

وَلَمَّا كَانَتْ رَحْمَةُ اللَّهِ وَاسِعَةً عَلَى الْخَلْقِ ، مَبْذُولَةً لَهُمْ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ^(١) . . فَلَمْ يَعُدَّهُ الْجَاهِلُ نِعْمَةً ، وَهَذَا الْجَاهِلُ مِثْلُ الْعَبْدِ السَّوِّءِ ، حَقُّهُ أَنْ يُضْرَبَ دَائِمًا ، حَتَّى إِذَا تَرَكَ ضَرْبَهُ سَاعَةً . . تَقَلَّدَ بِهِ مَنَّةً ، فَإِنْ تَرَكَ ضَرْبَهُ عَلَى الدَّوَامِ . . غَلَبَهُ الْبَطَرُ وَتَرَكَ الشُّكْرَ ، فَصَارَ النَّاسُ لَا يَشْكُرُونَ إِلَّا الْمَالَ الَّذِي يَتَطَرَّقُ الْاِخْتِصَاصُ إِلَيْهِ مِنْ حَيْثُ الْكَثْرَةُ وَالْقِلَّةُ ، وَيَنْسُونَ جَمِيعَ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ .

كَمَا شَكَا بَعْضُهُمْ فَقْرَهُ إِلَى بَعْضِ أَرْبَابِ الْبَصَائِرِ ، وَأَظْهَرَ شِدَّةَ اغْتِمَامِهِ بِهِ ، فَقَالَ لَهُ : أَيْسْرُكَ أَنْتَ أَعْمَى وَلَكَ عَشْرَةُ آلَافِ دِرْهَمٍ ؟ فَقَالَ : لَا ، فَقَالَ : أَيْسْرُكَ أَنْتَ أَحْرَسُ وَلَكَ عَشْرَةُ آلَافٍ ؟ فَقَالَ : لَا ، فَقَالَ : أَيْسْرُكَ أَنْتَ أَقْطَعُ الْيَدَيْنِ وَالرَّجْلَيْنِ وَلَكَ عَشْرُونَ أَلْفًا ؟ فَقَالَ : لَا ، فَقَالَ : أَيْسْرُكَ أَنْتَ مَجْنُونٌ وَلَكَ عَشْرَةُ آلَافِ دِرْهَمٍ ؟ فَقَالَ : لَا ، فَقَالَ : أَمَا تَسْتَحْيِي أَنْ تَشْكُوَ مَوْلَاكَ وَلَهُ عِنْدَكَ عَرُوضٌ بِخَمْسِينَ أَلْفًا ؟^(٢) .

وَحُكِيَ أَنَّ بَعْضَ الْقُرَّاءِ اشْتَدَّ بِهِ الْفَقْرُ حَتَّى ضَاقَ بِهِ ذِرْعًا ، فَرَأَى فِي الْمَنَامِ كَأَنَّ قَائِلًا يَقُولُ لَهُ : تَوَدُّ أَنَا أَنْسِيَنَّكَ سُورَةَ الْأَنْعَامِ وَأَنَّ لَكَ أَلْفَ دِينَارٍ ؟

(١) والعبارة في غير (أ) : (ولما كانت رحمة الله واسعة . . عَمَّ الْخَلْقَ ، وَبَذَلَ لَهُمْ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ . .) .

(٢) قوت القلوب (١/٢١٠) .

قَالَ : لا ، قَالَ : فسورة هود ؟ قَالَ : لا ، قَالَ : فسورة يوسف ؟ قَالَ : لا ، فلم يزل يعدد عليه سوراً ، ثُمَّ قَالَ : فمَعَكَ قِيَمَةُ مِئَةِ أَلْفِ دِينَارٍ وَأَنْتَ تَشْكُو ؟ ! فَأَصْبَحَ وَقَدْ سُرِّي عَنْهُ^(١) .

ودخل ابن السماك على بعض الخلفاء وبيده كوز ماء يشربه ، فقال له : عطني ، فقال : لو لم تُعطَ هذه الشربة إلا ببذل جميع أموالك وإلا . بقيت عطشان . . فهل كنت تعطيه ؟ قَالَ : نعم ، فقال : لو لم تُعطَ إلا بملكك كله . . فهل كنت تتركه ؟ قَالَ : نعم ، قَالَ : فلا تفرح بملك لا يساوي شربة ماء^(٢) .

فبهذا يتبين أن نعمة الله تعالى على العبد في شربة ماء عند العطش أعظم من ملك الأرض كلها .

وإذا كانت الطباع مائلة إلى اعتداد النعمة الخاصة نعمة دون العامة وقد ذكرنا النعم العامة . . فلندكر إشارة وجيزة إلى النعم الخاصة ، فنقول : ما من عبد إلا ولو أنعم النظر في أحواله . . رأى من الله تعالى نعمة أو نعماً كثيرة تخصه ، لا يشاركه فيها الناس كافة ، بل يشاركه عدد يسير من

(١) قوت القلوب (١/٢١٠) .

(٢) والخبر في (أ) : (ودخل ابن السماك على الرشيد وفي يده كوز ماء ليشربه ، فقال : عطني ، قال : أرأيت لو منعت هذه الشربة أكنت مفتديها بملكك ؟ قال : بلى ، قال : اشرب هنيئاً ، فشرب ، ثم قال : أرأيت لو منعت إخراجها أكنت مفتديها بملكك ؟ قال : بلى ، قال : يا أمير المؤمنين ؛ وما قدر ملك لا يساوي شربة وبولة ؟ !) ، وقد رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ١٣٤) .

الناس ، وربّما لا يشاركه فيها أحدٌ ، وذلك يعترف به كلُّ عبدٍ في ثلاثة أمورٍ : في العقل ، والخلق ، والعلم .

أما العقل : فما من عبدٍ لله تعالى إلا وهو راضٍ عن الله تعالى في عقله ، يعتقد أنه أعقل الناس ، وكلّما يسأل الله العقل ، وإنّ من شرف العقل أن يفرح به الخالي عنه كما يفرح به المتصف به ، فإذا كان اعتقاده أنه أعقل الناس . . فواجب عليه أن يشكره ؛ لأنه إن كان كذلك . . فالشكر واجب عليه ، وإن لم يكن ولكنه يعتقد أنه كذلك . . فهو نعمة في حقه ، فمن وضع كنزاً تحت الأرض فهو يفرح به ويشكر عليه ، فإن أخذ الكنز من حيث لا يدري . . فيبقى فرحه بحسب اعتقاده ، ويبقى شكره ؛ لأنه في حقه كالباقي .

وأما الخلق : فما من عبدٍ إلا ويرى من غيره عيوباً يكرهها وأخلاقاً يذمها ، وإنما يذمها من حيث يرى نفسه بريئاً عنها ، فإذا لم يشغل بدم الغير . . فينبغي أن يشغل بشكر الله ؛ إذ حسن خلقه وابتلى غيره بالخلق السيئ .

وأما العلم : فما من أحدٍ إلا ويعرف من بواطن أمور نفسه وخفايا أفكاره ما هو منفرد به ، ولو كشف الغطاء حتى اطلع عليه أحدٌ من الخلق . . لافتضح ، فكيف لو اطلع الناس كافة ؟!

فإذا ؛ لكل عبدٍ علمٌ بامرٍ خاص لا يشاركه فيه أحدٌ من عباد الله ، فلم

لا يشكرُ سترَ الله الجميل الذي أرسله على وجه مساوئه ، فأظهرَ الجميلَ
وسترَ القبيحَ ، وأخفى ذلك عن أعين الخلق ، وخصَّصَ علمه به حتَّى
لا يطلعَ عليه أحدٌ ؟!

فهذه ثلاثٌ مِنَ النعمِ خاصَّةٌ يعترفُ بها كلُّ عبدٍ ؛ إمَّا مطلقاً ، وإمَّا في
بعضِ الأمورِ ، فلننزلُ عن هذه الطبقةِ إلى طبقةٍ أخرى أعمَّ منها قليلاً ،
فنقولُ :

ما مِنْ عبدٍ إلا وقد رزقه اللهُ تعالى في صورته أو شخصه ، أو أخلاقه أو
صفاته ، أو أهله أو ولده ، أو مسكنه أو بلده ، أو رفيقه أو أقاربه ، أو عزه
أو جاهه ، أو في سائرِ محابته . . أموراً لو سُلِبَ ذلك منه وأُعطِيَ ما خُصَّصَ
به غيره . . لكانَ لا يرضى به ، وذلك مثلُ أن جعله مؤمناً لا كافراً ، وحيّاً
لا جماداً ، وإنساناً لا بهيمةً ، وذكرأ لا أنثى ، وصحيحاً لا مريضاً ،
وسليماً لا معيباً ، فإنَّ كلَّ هذه خصائصُ وإن كانَ فيها عمومٌ أيضاً ؛ فإنَّ
هذه الأحوالَ لو بُدِّلَتْ بأضدادِها . . لم يرضَ بها ، بلْ لَهُ أمورٌ لا يبدِّلُها
بأحوالِ الآدميينَ أيضاً ، وذلك إمَّا أن يكونَ بحيثُ لا يبدِّلُهُ بما خُصَّ به أحدٌ
مِنَ الخلقِ ، أو لا يبدِّلُهُ بما خُصَّ به الأكثرُ ، فإذا كانَ لا يبدِّلُ حالَ نفسه
بحالِ غيره . . فإذا حالُهُ أحسنُ مِنْ حالِ غيره ، فإنَّ كانَ لا يعرفُ شخصاً
يرتضي لنفسه حاله بدلاً عن حالِ نفسه إمَّا على الجملةِ وإمَّا في أمرٍ خاصٍّ . .
فإذا اللهُ تعالى عليه نعمٌ ليستَ لَهُ على أحدٍ مِنْ عبادِهِ سواه ، وإنَّ كانَ يبدِّلُ
حالَ نفسه بحالِ بعضهم دونَ البعض . . فليُنظرُ إلى عددِ المغبوطينَ عنده ،

فإنَّهُ - لا محالة - يراهم أقلّ بالإضافة إلى غيرهم ، فيكون من دونه في الحال أكثر بكثير ممّن هو فوقه ، فما بالله ينظر إلى من فوقه ليزدري نعم الله تعالى على نفسه ولا ينظر إلى من دونه ليستعظم نعم الله تعالى عليه ؟! وما بالله لا يسوّي دنياهُ بدينه ؟ أليس إذا لامته نفسه على سيئة يقارفها يعتذر إليها بأنّ في الفساق كثرة ، فينظر أبدأ في الدين إلى من دونه لا إلى من فوقه ؟! فلم لا يكون نظره في الدنيا كذلك ؟

فإذا كان حال أكثر الخلق في الدين خيراً منه ، وحاله في الدنيا خيراً من حال أكثر الخلق .. فكيف لا يلزمه الشكر ؟!

ولهذا قال صلى الله عليه وسلم : « من نظر في الدنيا إلى من هو دونه ، ونظر في الدين إلى من هو فوقه .. كتبه الله صابراً وشاكراً ، ومن نظر في الدنيا إلى من هو فوقه ، وفي الدين إلى من هو دونه .. لم يكتبه الله صابراً ولا شاكراً » (١) .

فإذا ؛ كل من اعتبر حال نفسه وفتش عما خصّ به .. وجد الله تعالى على نفسه نعماً كثيرة ، لا سيّما من خصّ بالسنة والإيمان ، والعلم والقرآن ، ثم الفراغ والصحة والأمن وغير ذلك .

ولذلك قيل (٢) :

[من البسيط]

من شاء عيشاً رحيباً يستطيع به في دينه ثم في دنياه إقبالا

(١) رواه الترمذي (٢٥١٢) .

(٢) البيتان لأبي الفتح البستي في « ديوانه » (ص ٢٨٤) .

فليَنْظَرَنَّ إِلَى مَنْ فَوْقَهُ وَرِعَا وَلِيَنْظَرَنَّ إِلَى مَنْ دُونَهُ مَا لَا
وَلِذَلِكَ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مَنْ لَمْ يَسْتَغْنِ بِآيَاتِ اللَّهِ . . فلا
أَغْنَاهُ اللَّهُ »^(١) ، وهذا إشارة إلى نعمة العلم .
وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : « إِنَّ الْقُرْآنَ هُوَ الْغَنَى الَّذِي لَا غِنَى بَعْدَهُ
وَلَا فَقْرَ مَعَهُ »^(٢) .

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : « مَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ فَظَنَّ أَنَّ أَحَدًا أَغْنَى
مَنْهُ . . فَقَدْ اسْتَهْزَأَ بِآيَاتِ اللَّهِ »^(٣) .

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : « لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ »^(٤) .

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : « كَفَى بِالْيَقِينِ غِنًى »^(٥) .

وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : (يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : إِنَّ عَبْدًا أَغْنَيْتُهُ عَنْ ثَلَاثَةِ لَقَدْ
أَتَمَمْتُ عَلَيْهِ نِعْمَتِي ؛ عَنْ سُلْطَانٍ يَأْتِيهِ ، وَطَبِيبٍ يَدَاوِيهِ ، وَعَمَّا فِي يَدِ أَخِيهِ)^(٦) ،

(١) كذا في « القوت » (٢١٠ / ١) ، وقال الحافظ العراقي : (لم أجده بهذا اللفظ) .

« إتحاف » (١٣٢ / ٩) .

(٢) رواه أبو يعلى في « مسنده » (٢٧٧٣) ، والطبراني في « الكبير » (٢٥٥ / ١) من
حديث أنس رضي الله عنه بنحوه .

(٣) قوت القلوب (٢١٠ / ١) ، وروى البخاري في « التاريخ الكبير » (٢٦٥ / ٣) نحوه .

(٤) رواه البخاري (٧٥٢٧) .

(٥) رواه القضاعي في « مسند الشهاب » (١٤١٠) ، والبيهقي في « الشعب »
(١٠٠٧٢) .

(٦) قوت القلوب (٢١٠ / ١) .

[من الهزج]

وعَبَّرَ الشاعرُ عن هذا فقال^(١) :

إِذَا أَلْقَوْتُ تَأْتِي لَكَ وَالصَّحَّةُ وَالْأَمْنُ
وَأَصْبَحْتَ أَخَا حُزْنٍ فَلَا فَارَقَكَ الْحُزْنُ

بل أُرِشِقُ العباراتِ وَأُفصِحُ الكلماتِ كلامُ أَفصَحِ مَنْ نَطَقَ بِالضَّادِ ، حيثُ
عَبَّرَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ هَذَا الْمَعْنَى فَقَالَ : « مَنْ أَصْبَحَ آمِنًا فِي سَرِيرِهِ ،
مَعَافَى فِي بَدَنِهِ ، عِنْدَهُ قُوَّةٌ يَوْمِهِ . . فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا
بِحِذَافِيرِهَا »^(٢) .

ومهما تَأَمَّلْتَ النَّاسَ كُلَّهُمْ . . وَجَدْتَهُمْ يَشْكُونَ وَيَتَأَلَّمُونَ مِنْ أُمُورٍ وَرَاءَ
هَذِهِ الثَّلَاثِ مَعَ أَنَّهَا وَبَالٌ عَلَيْهِمْ ، وَلَا يَشْكُرُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ فِي هَذِهِ الثَّلَاثِ ،
وَلَا يَشْكُرُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ فِي الْإِيمَانِ الَّذِي بِهِ وَصُولُهُمْ إِلَى النِّعَمِ الْمَقِيمِ
وَالْمَلِكِ الْعَظِيمِ .

بل الْبَصِيرُ يَنْبَغِي أَلَّا يَفْرَحَ إِلَّا بِالْمَعْرِفَةِ وَالْيَقِينِ وَالْإِيمَانِ ، بَلْ نَحْنُ نَعْلَمُ
مِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ لَوْ سُلِّمَ إِلَيْهِ جَمِيعُ مَا دَخَلَ تَحْتَ قُدْرَةِ مُلُوكِ الْأَرْضِ مِنَ
الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ مِنْ أَمْوَالٍ وَأَتْبَاعٍ وَأَنْصَارٍ وَقِيلَ لَهُ : خُذْ هَذَا عَوْضًا عَنْ
عِلْمِكَ ، بَلْ عَنْ عَشْرِ عَشِيرٍ عِلْمِكَ . . لَمْ يَأْخُذْهُ ، وَذَلِكَ لِرَجَائِهِ أَنَّ نِعْمَةَ

(١) البيتان متنازع في نسبتها ، فهما في « زهر الآداب » (٨٢٧/٢) لمنصور الفقيه ، وفي
« محاضرات الأدباء » (٣١٣-٣١٤) لأبي العتاهية ، وفي « تاريخ دمشق »
(٤١٦/٥١) للإمام الشافعي .

(٢) رواه الترمذي (٢٣٤٦) ، وابن ماجه (٤١٤١) .

العلم تفضي به إلى قرب الله سبحانه وتعالى في الآخرة ، بل لو قيل له : لك في الآخرة ما ترجوه بكماله ، فخذ هذه اللذات في الدنيا بدلاً عن التذاذك بالعلم في الدنيا وفرحك به . . . لكان لا يأخذه ؛ لعلمه بأن لذة العلم دائمة لا تنقطع وثابتة لا تُسرق ولا تُغصب ولا يُنافس فيها ، وأنها صافية لا كدورة فيها ، ولذات الدنيا كلها ناقصة ومكدرة ومشوشة لا يفي مرجوها بمخوفها ، ولا لذتها بألمها ، ولا فرحها بغمها ، هكذا رُئيَ إلى الآن ، وهكذا تكون ما بقي الزمان ، إذ ما خلقت لذات الدنيا إلا لتُجلب بها العقول الناقصة وتُخدع ؛ حتى إذا انخدعت وتقيدت بها . . . أثبت عليها واستعصت ؛ كالمرأة الجميل ظاهرها ، تترين للشاب الشبق الغبي ، حتى إذا تقيدت بها قلبه . . . استعصت عليه واحتجبت عنه ، فلا يزال معها في عناء دائم وتعب قائم ، وكل ذلك باغتراره بلذة النظر إليها في لحظة ، ولو عقل وغض البصر واستهان بتلك اللذة . . . سلم جميع عمره ، فهكذا وقعت أرباب الدنيا في شباك الدنيا وحبائلها .

ولا ينبغي أن نقول : إن المعرض عن الدنيا متألم بالصبر عنها ؛ فإنَّ المقبل عليها أيضاً متألم بالصبر عليها وحفظها وتحصيلها ودفع القُصود عنها^(١) ، وتألم المعرض يفضي إلى لذة في الآخرة ، وتألم المقبل يفضي إلى آلام في الآخرة ، فليقرأ المعرض عن الدنيا على نفسه قوله تعالى :

(١) وفي (ق) ونسخة الحافظ الزبيدي : (اللصوص) بدل (القصود) . « إتحاف » (١٣٣/٩).

﴿ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلُمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ وَتَرْجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ فإذا ؛ إنما انسدَّ طريقُ الشكرِ على الخلقِ لجهلِهِمْ بضروبِ النعمِ الظاهرةِ والباطنةِ ، والخاصةِ والعامَّةِ .



فإن قلت : فما علاجُ هذه القلوبِ الغافلةِ حتَّى تشعرَ بنعمِ اللهِ تعالى فعاها تشكرُ ؟

فأقول : أمَّا القلوبُ البصيرةُ .. فعلاجُها التأملُ فيما رمزنا إليه مِنْ أصنافِ نعمِ اللهِ تعالى العامَّةِ ، وأمَّا القلوبُ البليدةُ التي لا تعدُّ النعمةَ نعمةً إلا إذا خصَّتها ، أو أشعرَ بالبلاءِ معها .. فسيَّلهُ أن ينظرَ أبداً إلى مَنْ دونهُ ، ويفعلَ ما كان يفعلُه بعضُ الصوفيَّةِ ، إذ كان يحضرُ كلَّ يومٍ دارَ المرضى والمقابرَ والمواضعَ التي تُقامُ فيها الحدودُ ، فكان يحضرُ دارَ المرضى ويشاهدُ أنواعَ بلاءِ اللهِ تعالى عليهم ، ثمَّ يتأملُ في صحتهِ وسلامتهِ ؛ ليشعرَ قلبُه بنعمةِ الصَّحَّةِ عندَ شعورهِ ببلاءِ الأمراضِ ويشكرَ اللهَ تعالى ، ويشاهدُ الجناةَ الذين يُقتلونَ وتُقطعُ أطرافُهُمْ ويُعذبونَ بأنواعِ العذابِ ؛ ليشكرَ اللهَ تعالى على عصمتهِ مِنَ الجناياتِ وَمِنْ تلكَ العقوباتِ ، ويشكرَ اللهَ تعالى على نعمةِ الأمنِ ، ويحضرُ المقابرَ فيعلمُ أنَّ أحبَّ الأشياءِ إلى الموتى أن يُردُّوا إلى الدنيا ولو يوماً واحداً ؛ أمَّا مَنْ عصى اللهَ .. فليتداركْ ، وأمَّا مَنْ أطاعَ .. فليزيدَ في طاعتهِ ، فإنَّ يومَ القيامةِ يومُ التغابنِ ، فالمطيعُ مغبونٌ ؛ إذ يرى

جزاء طاعته فيقول : كنت أقدرُ على أكثر من هذه الطاعات ، فما أعظم غبني إذ ضيَّعتُ بعضَ الأوقاتِ في المباحاتِ ! وأما العاصي . . فغبتهُ ظاهرٌ ، فإذا شاهدَ المقابرَ ، وعلمَ أنَّ أحبَّ الأشياءِ إليهم أن يكونَ قَدْ بقيَ لهم من العمرِ ما بقيَ له . . فيصرفُ بقيَّةَ العمرِ إلى ما يشتهي أهلُ القبورِ العودَ لأجلِهِ ؛ ليكونَ ذلكَ معرفةً لنعمةِ الله في بقيَّةِ العمرِ ، بل في الإمهالِ في كلِّ نفسٍ من الأنفاسِ ، وإذا عرفَ تلكَ النعمةَ . . شكرَ بأنَّ يصرِفَ العمرَ إلى ما خُلِقَ العمرُ لأجلِهِ ، وهو التزوُّدُ مِنَ الدنيا لِلْآخِرَةِ .

فهذا علاجُ هذه القلوبِ الغافلةِ لتشعرَ بنعمِ الله تعالى فعساها تشكرُ .
ولقد كانَ الربيعُ بنُ خُثيمٍ معَ تمامٍ استبصارِهِ يستعينُ بهذه الطريقِ تأكيداً للمعرفةِ ، فكانَ قد حفرَ في دارِهِ قبراً ، فكانَ يضعُ غِلاً في عنقه ويناُمُ في لحدهِ ثمَّ يقولُ : ﴿ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً ، ثمَّ يقومُ ويقولُ : يا ربيعُ ؛ قد أُعْطيتَ ما سألتَ ، فاعملْ قبلَ أن تسألَ الرجوعَ فلا ترجعَ^(١) .
وممَّا ينبغي أن تُعالجَ به القلوبُ البعيدةُ عن الشكرِ أن تعرفَ أنَّ النعمةَ إذا لم تُشكرْ . . زالتْ ولم تعدْ ، ولذلك كانَ الفضيلُ بنُ عياضٍ رحمه الله يقولُ :
(عليكمُ بمداومةِ الشكرِ على النعمِ ، فقلَّ نعمةٌ زالتْ عن قومٍ فعادتْ إليهم)^(٢) .
وقال بعضُ السلفِ : (النعمُ وحشيَّةٌ ، فقيِّدوها بالشكرِ)^(٣) .

(١) رواه البلاذري في « أنساب الأشراف » (٣١١ / ١١) .

(٢) قوت القلوب (٢٠٩ / ١) ، والسياق عنده .

(٣) قوت القلوب (٢٠٩ / ١) .

وفي الخبر : (ما عظمَتُ نعمةُ اللهِ تعالى على عبدٍ إلا كثرتْ حوائجُ
الناسِ إليه ، فمنْ تهاونَ بهم .. عرَّضَ تلكَ النعمةَ للزوالِ) (١) .
وقال اللهُ سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا
بِأَنفُسِهِمْ ﴾ .

فهذا تمامُ هذا الركنِ .



(١) كذا في « القوت » (٢٠٩ / ١) ، وأصله من كلام لسيدنا علي رضي الله عنه رواه له ابن
الطيوري في « الطيوريات » (٤٦٢) .

الركن الثالث من كتاب الصبر والشكر فيما يشترك فيه الصبر والشكر ويرتبط أحدهما بالآخر

بيان وجه اجتماع الصبر والشكر على شيء واحد

لعلَّكَ تقولُ : ما ذكرته في النعم إشارة إلى أن الله تعالى في كلِّ موجودٍ نعمة ، وهذا يشير إلى أن البلاء لا وجودَ له أصلاً ، فما معنى الصبر إذا ؟ وإن كان البلاء موجوداً . . فما معنى الشكر على البلاء وقد ادَّعى مدَّعون أنا نشكرُ على البلاء فضلاً عن الشكرِ على النعمة ، فكيف يُتصورُ الشكرُ على البلاء ؟ وكيف يُشكرُ على ما يُصبرُ عليه والصبرُ على البلاء يستدعي ألماً والشكرُ يستدعي فرحاً وهما متضادان ؟ وما معنى ما ذكرتموه من أن الله تعالى في كلِّ ما أوجده نعمة على عباده ؟

فاعلم : أن البلاء موجودٌ كما أن النعمة موجودة ، والقولُ بإثباتِ النعمة يوجبُ القولَ بإثباتِ البلاء ؛ لأنَّهما متضادان ، ففقدُ البلاءِ نعمة ، وفقدُ النعمةِ بلاءٌ ، ولكن قد سبق أن النعمة تنقسم إلى نعمة مطلقة من كلِّ وجهٍ ؛ أمَّا في الآخرة . . فكسعادة العبد بالنزول في جوارِ الله تعالى ، وأمَّا في الدنيا . . فكالإيمان وحسن الخلق وما يعينُ عليهما ، وإلى نعمة مقيدة من وجهٍ دون وجهٍ ؛ كالمال الذي يصلحُ الدين من وجهٍ ويفسده من وجهٍ .

فكذلك البلاء ينقسم إلى مطلق ومقيّد ؛ أمّا المطلق في الآخرة . . فالبعد من الله تعالى إمّا مدّة وإمّا أبداً ، وأمّا في الدنيا . . فالكفر والمعصية وسوء الخلق ، وهي التي تفضي إلى البلاء المطلق ، وأمّا المقيّد . . فالفقر والمرض والخوف وسائر أنواع البلاء التي لا تكون بلاء في الدين بل في الدنيا .

فالشكر المطلق للنعمة المطلقة ، أمّا البلاء المطلق في الدنيا . . فقد لا يؤمر بالصبر عليه ؛ لأنّ الكفر بلاء ، ولا معنى للصبر عليه ، وكذا المعصية ، بل حقّ الكافر أن يترك كفره وكذا حقّ العاصي .

نعم ، الكافر قد لا يعرف أنّه كافر ، فيكون كمن به علة وهو لا يتألم بها بسبب غشية أو غيرها ، فلا صبر عليه ، والعاصي يعرف أنّه عاصي ، فعليه ترك المعصية ، بل كلّ بلاء يقدر الإنسان على دفعه فلا يؤمر بالصبر عليه ، فلو ترك الإنسان الماء مع طول العطش حتّى عظم ألمه . . فلا يؤمر بالصبر عليه ، بل يؤمر بإزالة الألم ، وإنّما الصبر على ألم ليس إلى العبد إزالته .

فإذا ؛ يرجع الصبر في الدنيا إلى ما ليس ببلاء مطلق ، بل يجوز أن يكون نعمة من وجه ، فلذلك يُصوّر أن تجتمع عليه وظيفة الصبر والشكر ، فإنّ الغنى مثلاً يجوز أن يصير سبب هلاك الإنسان ، حتّى يُقصد بسبب ماله ، فيقتل وتقتل أولاده ، والصحة أيضاً كذلك ، فما من نعمة من هذه النعم الدنيوية إلا ويجوز أن تصير بلاء ، ولكن بالإضافة إليه ، فكذلك ما من بلاء

إلا ويجوزُ أن يصيرَ نعمةً ، ولكنْ بالإضافةِ إلى حالِهِ ، فربَّ عبدٍ تكونُ
الخيرةُ لَهُ في الفقرِ والمرضِ ، ولو صحَّ بدنُهُ وكثرَ مالهُ . . لبَطَرَ وبغى ،
قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ ﴾ .

وقالَ تعالى : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ ﴾ .

وقالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنَّ اللَّهَ لِيَحْمِي عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ مِنَ الدُّنْيَا وَهُوَ
يَحِبُّهُ كَمَا يَحْمِي أَحَدَكُمْ مَرِيضَهُ » (١) .

وكذلكَ الزوجةُ والولدُ والقريبُ وكلُّ ما ذكرناه في الأقسامِ الستة عشرَ
مِنَ النعمِ سوى الإيمانِ وحسنِ الخلقِ . . فإنَّها يُتَصَوَّرُ أن تكونَ بلاءً في حقِّ
بعضِ الناسِ ، فتكونُ أضدادها إذاً نعماً في حقِّهم ، إذ قد سبقَ أنَّ المعرفةَ
كمالٌ ونعمةٌ ، فإنَّها صفةٌ مِنْ صفاتِ اللهِ تعالى ، ولكنْ قد تكونُ على العبدِ
في بعضِ الأمورِ بلاءً ، ويكونُ فقدُها نعمةً .

مثالُهُ : جهلُ الإنسانِ بأجلِهِ ، فإنَّه نعمةٌ عليه ؛ إذ لو عرفَهُ . . ربما
تنغصَّ عليه العيشُ ، وطالَ بذلكَ غمُّهُ .

وكذلكَ جهلُهُ بما يضمُرُهُ الناسُ عليه مِنْ معارفِهِ وأقاربِهِ نعمةٌ عليه ؛ إذ
لو رُفِعَ السُّرُّ وأُطْلِعَ عَلَيْهِ . . لطالَ ألمُهُ وحقَّدُهُ وحسدُهُ واشتغالُهُ بالانتقامِ .
وكذلكَ جهلُهُ بالصفاتِ المذمومةِ مِنْ غيرِهِ نعمةٌ عليه ؛ إذ لو عرفَهَا . .
أبغضَهُ وآذاهُ ، وكانَ ذلكَ وبالأعلى عليه في الدنيا والآخرة .

(١) رواه الترمذي (٢٠٣٦) ، والحاكم في « المستدرک » (٣٠٩/٤) .

بل جهله بالخصال المحموده في غيره قد يكون نعمة عليه ، فإنه ربما يكون ولياً لله تعالى وهو يضطر إلى إيذائه وإهانته ، ولو عرف ذلك وأذى . . . كان إثمهُ أعظم لا محالة ، فليس من أذى نبياً أو ولياً وهو يعرف كمن أذى وهو لا يعرف .

ومنها إبهامُ الله تعالى أمر القيامة ، وإبهامُهُ ليلة القدر ، وساعة يوم الجمعة ، وإبهامُهُ بعض الكبائر ، فكل ذلك نعمة ؛ لأن هذا الجهل يوفر دواعيك على الطلب والاجتهاد .

فهذه وجوه نعم الله تعالى في الجهل ، فكيف في العلم ؟!

وحيث قلنا : إن الله تعالى في كل موجود نعمة . . فهو حق ، وذلك مطرد في حق كل أحد ، ولا يُستثنى عنه بالظن إلا الآلام التي يخلقها في بعض الناس ، وهي أيضاً قد تكون نعمة في حق المتألم بها ، فإن لم تكن نعمة في حقه ؛ كالألم الحاصل من المعصية ، كقطعه يد نفسه ، ووشمه بشرته ، فإنه يتألم به وهو عاص به ، وألم الكفار في النار . . فهي أيضاً نعمة ، ولكن في حق غيرهم من العباد لا في حقهم ، فإن مصائب قوم عند قوم فوائد ، ولولا أن الله تعالى خلق العذاب وعذب به طائفة . . لما عرف المتنعمون قدر نعمته ، ولا كثر فرحهم بها ، وفرح أهل الجنة إنما يتضاعف إذا تفكروا في آلام أهل النار ، أما ترى أهل الدنيا ليس يشتد فرحهم بنور الشمس مع شدة حاجتهم إليها من حيث إنها عامّة مبدولة ؟

ولا يشتد فرحهم بالنظر إلى زينة السماء وهي أحسن من كل بستان لهم في الأرض يجتهدون في عمارته ، ولكن زينة السماء لمّا عمّت . . لم يشعروا بها ، ولم يفرحوا بسببها ؟

فإذا ؛ قد صحّ ما ذكرناه من أن الله تعالى لم يخلق شيئاً إلا وفيه حكمة ، ولا خلق شيئاً إلا وفيه نعمة ، إمّا على جميع عباده ، أو على بعضهم ، فإذا في خلق الله تعالى البلاء أيضاً نعمة ، إمّا على المبتلى أو على غير المبتلى ، فإذا كل حالة لا توصف بأنها بلاء مطلق ولا نعمة مطلقة فيجتمع فيها على العبد وظيفتان : الصبر والشكر جميعاً .



فإن قلت : فهما متضادان ، فكيف يجتمعان ؟ إذ لا صبر إلا على غم ، ولا شكر إلا على فرح .

فاعلم : أن الشيء الواحد قد يُغتم به من وجه ، ويُفرح به من وجه آخر ، فيكون الصبر من حيث الاغتمام ، والشكر من حيث الفرح .

وفي كل فقر ومرض وخوف وبلاء في الدنيا خمسة أمور ينبغي أن يفرح العاقل بها ويشكر عليها :

أحدها : أن كل مصيبة ومرض فيصوّر أن يكون أكبر منها ؛ إذ مقدورات الله تعالى لا تتناهى ، فلو ضعفها الله تعالى وزادها . . ماذا كان يرده ويحجزه ؟ فليشكر إذ لم تكن أعظم منها في الدنيا .

الثاني : أَنَّهُ كَانَ يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ مَصِيبَتُهُ فِي دِينِهِ ، قَالَ رَجُلٌ لِّسَهْلِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : دَخَلَ اللَّصْرُ بَيْتِي وَأَخَذَ مَتَاعِي ، فَقَالَ : اشْكِرِ اللَّهَ تَعَالَى ، لَوْ دَخَلَ الشَّيْطَانُ قَلْبَكَ وَأَفْسَدَ التَّوْحِيدَ . . ماذا كنتَ تصنعُ ؟^(١) .

ولذلك استعاذَ عيسى عليه الصلاة والسلامُ في دعائه إِذْ قَالَ : (اللَّهُمَّ ؛ لَا تَجْعَلْ مَصِيبَتِي فِي دِينِي)^(٢) .

وقالَ عمرُ بنُ الخطابِ رضيَ اللهُ تعالى عنه : (ما ابتليتُ ببلاءٍ إلا كانَ اللهُ تعالى عليَّ فيه أربعُ نَعَمٍ ؛ إِذْ لَمْ يَكُنْ في ديني ، وَإِذْ لَمْ يَكُنْ أعظمَ منه ، وَإِذْ لَمْ أَحْرِمِ الرضا به ، وَإِذْ أَرْجُو الثوابَ عليه)^(٣) .

وكانَ لبعضِ أربابِ القلوبِ صديقٌ ، فحبسهُ السلطانُ ، فأرسلَ إليه يعلمُهُ ويشكو إليه ، فقالَ لَهُ : اشْكِرِ اللَّهَ ، فضرِبُهُ ، فأرسلَ إليه يعلمُهُ ويشكو إليه ، فقالَ : اشْكِرِ اللَّهَ ، فجيءَ بمجوسيٍّ فحبسَ عندهُ وكانَ مبطوناً ، فقيَّدَ ، وجُعِلَ حلقةٌ مِنْ قِيدِهِ في رِجْلِهِ وحلقةٌ في رِجْلِ المَجُوسِيِّ ، فأرسلَ إليه ، فقالَ : اشْكِرِ اللَّهَ ، فكانَ يحتاجُ المَجُوسِيُّ إلى أنْ يقومَ مرَّاتٍ وهو يحتاجُ أنْ يقومَ معهُ ويقفَ على رأسِهِ حتَّى يقضيَ حاجتَهُ ، فكتبَ إليه بذلكَ ، فقالَ : اشْكِرِ اللَّهَ ، فقالَ : إلى متى هذا ؟ وأيُّ بلاءٍ أعظمُ مِنْ هذا ؟! فقالَ : لو جُعِلَ الزنَّارُ

(١) الرسالة القشيرية (ص ٣١٣) .

(٢) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (٣٧ / ١١) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٣٧٧) ، والبيهقي في « الشعب » (٢٣٧) .

(٣) قوت القلوب (٢١١ / ١) دون نسبة بنحوه .

الذي في وسطه على وسطك . . ماذا كنت تصنعُ؟^(١) .

فإذا ؛ ما مِنْ إنسانٍ قد أُصيبَ ببلاءٍ إلا ولو تأملَ حقَّ التأملِ في سوءِ أدبه
ظاهراً وباطناً في حقِّ مولاهُ . . لكانَ يرى أَنَّهُ يستحقُّ أكثرَ ممَّا أُصيبَ بهِ عاجلاً
وآجلاً ، وَمَنْ استحقَّ عليكَ أنْ يضربَكَ مئةَ سوطٍ ، فاقصرَ على عشرةٍ . .
فهو مستحقٌّ للشكرِ ، وَمَنْ استحقَّ عليكَ أنْ يقطعَ يديكَ ، فتركَ إحداهما . .
فهو مستحقٌّ للشكرِ .

ولذلكَ مرَّ بعضُ الشيوخِ في شارعٍ ، فصبَّ على رأسِهِ طشتٌ مِنْ رمادٍ ،
فسجدَ لله تعالى سجدةَ الشكرِ ، فقيلَ لَهُ : ما هذهِ السجدةُ ؟ فقالَ : كنتُ
أنتظرُ أنْ تُصبَّ عليَّ النارُ ، فالأقتصارُ على الرمادِ نعمةٌ^(٢) .

وقيلَ لبعضِهِمْ : ألا تخرجُ إلى الاستسقاءِ ؛ فقدِ احتبستِ الأمطارُ ؟
فقالَ : أنتم تستبطلونَ المطرَ وأنا أستبطلُ الحجرَ^(٣) .



فإن قلتَ : كيفَ أفرحُ وأرى جماعةً ممَّنْ زادتْ معصيتُهُمْ على معصيتي
ولم يُصابوا بمثلِ ما أُصبتُ بهِ حتَّى الكفارِ ؟ !
فاعلمُ : أنَّ الكافرَ قد خُبِيَ لَهُ ما هو أكثرُ ، وإنَّما أمهلَ حتَّى يستكثرَ مِنْ

(١) الرسالة القشيرية (ص ٣١٣) .

(٢) وهو أبو عثمان الزاهد ، وعبارته كما في « الرسالة القشيرية » (ص ٤١٤) : (من
استحق أن يصب عليه النار فصولح على الرماد . . لم يجز له أن يغضب) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢ / ٣٧٣) ، وصاحب الخبر هو مالك بن دينار .

الإثم ، ويطول عليه العقاب ؛ كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا نُمِلُّ لَهُمْ لِيَزِدَادُوا إِثْمًا ﴾ .

وأما العاصي . . فمن أين تعلم أن في العالم من هو أعصى منك ؟! ورب خاطر بسوء أدب في حق الله تعالى وفي صفاته أعظم وأطم من شرب الخمر والزنا وسائر المعاصي بالجوارح ، ولذلك قال تعالى في مثله : ﴿ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ ، فمن أين تعلم أن غيرك أعصى منك ؟!

ثم لعله قد أخرت عقوبته إلى الآخرة وعجلت عقوبتك في الدنيا ، فلم لا تشكر الله تعالى على ذلك ؟

وهذا هو الوجه الثالث في الشكر ، وهو أنه ما من عقوبة إلا وكان يتصور أن تؤخر إلى الآخرة ، ومصائب الدنيا يسلي عنها بأسباب أخر تهون المصيبة فيخف وقعها ، ومصيبة الآخرة تدوم ، وإن لم تدم . . فلا سبيل إلى تخفيفها بالتسلي ، إذ أسباب التسلي مقطوعة بالكلية في الآخرة عن المعذبين .

ومن عجلت عقوبته في الدنيا . . فلا يعاقب ثانياً ؛ إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن العبد إذا أذنب ذنباً ، فأصابته شدة أو بلاء في الدنيا . . فالله أكرم من أن يعذبه ثانياً »^(١) .

(١) رواه الترمذي (٢٦٢٦) ، وابن ماجه (٢٦٠٤) ولفظه : « من أصاب حداً فعجل عقوبته في الدنيا . . فالله أعدل من أن يشي على عبده العقوبة في الآخرة ، ومن أصاب حداً فستره الله عليه وعفا عنه . . فالله أكرم من أن يعود إلى شيء قد عفا عنه » .

الرابع : أن هذه المصيبة والبليّة كانت مكتوبةً عليه في أم الكتاب ، وكان لا بدّ من وصولها إليه ، وقد وصلت ، ووقع الفراغ ، واستراح من بعضها أو من جميعها ، فهذه نعمة .

الخامس : أن ثوابها أكثر منها ؛ فإن مصائب الدنيا طرق إلى الآخرة من وجهين :

- أحدهما : الوجه الذي يكون به الدواء الكريه نعمة في حق المريض ، ويكون المنع من أسباب اللعب نعمة في حق الصبي ، فإنه لو خلى واللعب . . كان يمنعه ذلك عن العلم والأدب ، فكان يخسر جميع عمره ؛ فذلك المال والأهل والأقارب والأعضاء حتى العين التي هي أعز الأشياء قد تكون سبباً لهلاك الإنسان في بعض الأحوال .

بل العقل الذي هو أعز الأمور قد يكون سبباً لهلاكه ، فالملحده غداً يتمنون لو كانوا مجانين أو صبياناً ولم يتصرفوا بعقولهم في دين الله تعالى ، فما من شيء من هذه الأسباب يوجد من العبد إلا ويُصوّر أن يكون له فيه خيرة دينيّة ، فعليه أن يحسن الظن بالله تعالى ، ويقدر فيه الخيرة ويشكره عليه ؛ فإن حكمة الله تعالى واسعة ، وهو بمصالح العباد أعلم من العباد ، وغداً يشكره العباد على البلايا إذا رأوا ثواب الله على البلايا كما يشكر الصبي بعد العقل والبلوغ أستاذه وأباه على ضربه وتأديبه ؛ إذ يدرك ثمرة ما استفاده من التأديب ، والبلاء تأديب من الله تعالى ، وعنايته بعباده أتم وأوفر من

عناية الآباء بالأولاد ؛ فقد رُوِيَ أَنَّ رجلاً قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أوصني ، فَقَالَ : « لَا تَتَّهَمِ اللَّهَ فِي شَيْءٍ قَضَاهُ عَلَيْكَ » (١) .

وَنَظَرَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى السَّمَاءِ فَضَحَكَ ، فَسُئِلَ ، فَقَالَ : « عَجِبْتُ لِقَضَاءِ اللَّهِ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِ ؛ إِنَّ قَضَى لَهُ بِالسَّرَّاءِ . . رَضِيَ وَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ قَضَى لَهُ بِالضَّرَّاءِ . . رَضِيَ وَكَانَ خَيْرًا لَهُ » (٢) .

- الوجه الثاني : أَنَّ رَأْسَ الْخَطَايَا الْمَهْلَكَةِ حُبُّ الدُّنْيَا ، وَرَأْسُ أَسْبَابِ النِّجَاجِ التَّجَافِي بِالْقَلْبِ عَنْ دَارِ الْغُرُورِ ، وَمَوَاتَاةُ النِّعَمِ عَلَى وَفْقِ الْمَرَادِ مِنْ غَيْرِ امْتِزَاجٍ بِبِلَاءٍ وَمَصِيبَةٍ تَوْرَثُ طَمَأْنِينَةَ الْقَلْبِ إِلَى الدُّنْيَا وَأَنْسَاءَ بِهَا ، حَتَّى تُصِيرَ كَالْجَنَّةِ فِي حَقِّهِ ، فَيَعْظُمُ بِلَاؤُهُ عِنْدَ الْمَوْتِ بِسَبَبِ مَفَارِقَتِهِ ، وَإِذَا كَثُرَتْ عَلَيْهِ الْمَصَائِبُ . . انْزَعَجَ قَلْبُهُ عَنِ الدُّنْيَا ، وَلَمْ يَسْكُنْ إِلَيْهَا ، وَلَمْ يَأْنَسْ بِهَا ، وَصَارَتْ سَجْنًا عَلَيْهِ ، وَكَانَتْ نَجَاتُهُ مِنْهَا غَايَةَ اللَّذَّةِ ؛ كَالْخَلَاصِ مِنَ السَّجْنِ .

وَلِذَلِكَ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « الدُّنْيَا سَجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ » (٣) ، وَالْكَافِرُ كُلُّ مَنْ أَعْرَضَ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى وَلَمْ يَرُدْ إِلَّا الْحَيَاةَ

(١) كَذَا فِي « الْقَوْتُ » (٢١٧/١) ، وَقَدْ رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي « الْمُسْنَدِ » (٢٠٤/٤) ، (٣١٨/٥) ، وَالْبَيْهَقِيُّ فِي « الشَّعْبِ » (٩٢٦٣) .

(٢) كَذَا فِي « الْقَوْتُ » (٢١٧/١) ، وَهُوَ عِنْدَ مُسْلِمٍ (٢٩٩٩) دُونَ ذِكْرِ النَّظَرِ إِلَى السَّمَاءِ وَالضَّحْكَ ، وَقَدْ وَرَدَ ذِكْرُ ذَلِكَ فِي أَخْبَارٍ مُقَارِبَةٍ ، انْظُرْ « الْإِتْحَافَ » (١٤١/٩) .

(٣) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٩٥٦) .

الدنيا ، ورضيَ بها ، واطمأنَّ إليها ، والمؤمنُ كلُّ منقلعٍ بقلبه عن الدنيا ، شديد الحنين إلى الخروج منها ، والكفرُ بعضُهُ ظاهرٌ وبعضُهُ خفيٌّ ، وبقدرِ حبِّ الدنيا في القلبِ يسري فيه الشركُ الخفيُّ ، بل الموحَّدُ المطلقُ هو الذي لا يحبُّ إلا الواحدَ الحقَّ .

فإذا ؛ في البلاءِ نعمٌ من هذا الوجهِ ، فيجبُ الفرحُ به .

وأما التألمُ . . فهو ضروريٌّ ، وذلك يضاهي فرحَكَ عندَ الحاجةِ إلى الحمامةِ بمن يتولَّى حمامتكِ مجاناً ، أو يسقيك دواءً نافعاً بشعاً مجاناً ؛ فإنَّك تتألمُ وتفرحُ ، فتصبرُ على الألمِ ، وتشكرهُ على سببِ الفرحِ ، فكلُّ بلاءٍ في الأمورِ الدنيويَّةِ مثاله الدواءُ الذي يؤلمُ في الحالِ وينفعُ في المالِ .

بل من دخلَ دارَ ملكٍ للنضارة^(١) ، وعلمَ أنَّه يخرجُ منها لا محالةً ، فرأى وجهاً حسناً لا يخرجُ معه من الدارِ . . كان ذلك وبالاً وبلاءً عليه ؛ لأنَّه يورثه الأُنسَ بمنزِلٍ لا يمكنه المُقامُ فيه ، ولو كان عليه في المُقامِ خطرٌ من أنْ يطلعَ عليه الملكُ فيعذِّبُهُ ، فأصابهُ ما يكرهُ حتَّى نفرهُ عن المُقامِ . . كان ذلك نعمةً عليه ، والدنيا منزلٌ ، وقد دخلها الناسُ من بابِ الرحِمِ ، وهُم خارجونَ عنها من بابِ اللحدِ ، فكلُّ ما يحققُ أنسَهُم بالمنزلِ فهو بلاءٌ ، وكلُّ ما يزعجُ قلوبَهُم عنها ويقطعُ أنسَهُم بها فهو نعمةٌ ، فمن عرفَ هذا . .

(١) أي : التفرج .

تُصَوِّرُ مِنْهُ أَنْ يَشْكُرَ عَلَى الْبَلَاءِ ، وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ هَذِهِ النِّعْمَةَ فِي الْبَلَاءِ . . لَمْ يُتَصَوِّرْ مِنْهُ الشُّكْرُ ؛ لِأَنَّ الشُّكْرَ يَتَّبِعُ مَعْرِفَةَ النِّعْمَةِ بِالضَّرُورَةِ ، وَمَنْ لَا يُؤْمِنُ بِأَنَّ ثَوَابَ الْمَصِيبَةِ أَكْبَرُ مِنْ الْمَصِيبَةِ . . لَمْ يُتَصَوِّرْ مِنْهُ الشُّكْرَ عَلَى الْمَصِيبَةِ .

وَحُكِيَ أَنَّ أَعْرَابِيًّا عَزَّى ابْنَ عَبَّاسٍ عَلَى أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فَقَالَ^(١) : [من الكامل]

إِصْبِرْ نَكُنْ بِكَ صَابِرِينَ فَإِنَّمَا صَبِرُ الرَّعِيَّةِ بَعْدَ صَبْرِ الرَّاسِ
خَيْرٌ مِنَ الْعَبَّاسِ أَجْرُكَ بَعْدَهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ مِنْكَ لِلْعَبَّاسِ

فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : مَا عَزَّانِي أَحَدٌ أَحْسَنَ مِنْ تَعَزِّيْتِهِ^(٢) .

وَالْأَخْبَارُ الْوَارِدَةُ فِي الصَّبْرِ عَلَى الْمَصَائِبِ كَثِيرَةٌ ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مَنْ يَرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا . . يَصِبْ مِنْهُ »^(٣) .

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : إِذَا وَجَّهْتُ إِلَى عَبْدٍ مِنْ عِبِيدِي مَصِيبَةً فِي بَدَنِهِ أَوْ مَالِهِ أَوْ وَلَدِهِ ، ثُمَّ اسْتَقْبَلَ ذَلِكَ بِصَبْرٍ جَمِيلٍ . . اسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ أُنْصِبَ لَهُ مِيزَانًا أَوْ أَنْشُرَ لَهُ دِيوَانًا »^(٤) .

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : « مَا مِنْ عَبْدٍ أُصِيبَ بِمَصِيبَةٍ ، فَقَالَ كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ ، اللَّهُمَّ ؛ أَجْرُنِي فِي مَصِيبَتِي ،

(١) البیتان فی « التذکرة الحمدونیة » (٢٤٧ / ٤) بسیاق مختلف .

(٢) قوت القلوب (٢١١ / ١) .

(٣) رواه البخاری (٥٦٤٥) .

(٤) رواه الحکیم الترمذی فی « نوادر الأصول » (ص ٢٢٢) ، وابن عدي فی « الكامل »

(١٥٠ / ٧) ، والقضاعي فی « مسند الشهاب » (١٤٦٢) .

وأعقبني خيراً منها.. إلا فعلَ اللهُ ذلكَ بهِ»^(١) .

وقالَ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قالَ اللهُ تعالى : مَنْ سلبتُ كريمتيه .. فجزاؤُهُ الخلودُ في داري ، والنظرُ إلى وجهي »^(٢) .

ورويَ أنَّ رجلاً قالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ ذهبَ مالي ، وسقمَ جسمي ، فقالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا خيرَ في عبدٍ لا يذهبُ مالهُ ولا يسقمُ جسمُهُ ، إنَّ اللهَ إذا أحبَّ عبداً .. ابتلاه ، وإذا ابتلاه .. صبرَهُ »^(٣) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إنَّ الرَّجلَ لتكونُ لَهُ الدرجةُ عندَ اللهِ تعالى لا يبلغُها بعملٍ حتَّى يُبتلى ببلاءٍ في جسمِهِ ، فيبلغُها بذلكَ »^(٤) .

وعنُ خَبَّابِ بنِ الأَرث قالَ : أتينا رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وهوَ متوسِّدٌ بردائه في ظلِّ الكعبةِ ، فشكونا إليه ، فقلنا : يا رسولَ اللهِ ؛ ألا تدعو اللهَ تستنصرُهُ لنا ، فجلسَ محمراً لونهُ ، ثمَّ قالَ : « إنَّ مَنْ كانَ قبلكُم

(١) رواه مسلم (٩١٨) ، و(أجرني) : يجوز فيه أيضاً مد الهمزة والقصر والوصل ، (أجرني ، أجرني ، أجرني) ؛ بمعنى طلب الأجر على المد والوصل ، أو من الإجارة على القصر .

(٢) رواه الطبراني في « الأوسط » (٨٨٥٠) ، وعند البخاري (٥٦٥٣) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « إن الله قال : إذا ابتليت عبدي بحبيتيه فصبر .. عوضته منهما الجنة » .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « المرض والكفارات » (٢٥٤) .

(٤) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٢٩٠٨) ، والحاكم في « المستدرک » (٣٤٤/١) بنحوه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

ليؤتى بالرجل ، فيحفز له في الأرض حفيرة ، ويجاء بالمنشار ، فيوضع على رأسه ، فيجعل فرقتين ، ما يصرفه ذلك عن دينه » (١) .

وعن عليّ كرم الله وجهه قال : (أيما رجل حبسه السلطان ظلماً فمات .. فهو شهيد ، وإن ضربه فمات .. فهو شهيد) (٢) . وقال أيضاً : (من إجلال الله ومعرفة حقه ألا تشكو وجعك ، ولا تذكر مصيبتك) (٣) .

وقال أبو الدرداء رضي الله تعالى عنه : (تولدون للموت ، وتعمرون للخراب ، وتحرصون على ما يفنى ، وتذرون ما يبقى ، ألا حبذا المكروهات الثلاث : الفقر والمرض والموت) (٤) .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا أراد الله بعبد خيراً ، وأراد أن يصابه .. صب عليه البلاء صباً ، وثجّه عليه ثجاً ، فإذا دعاه .. قالت الملائكة : صوت معروف ، فإن دعاه ثانياً فقال : يا رب .. قال الله تعالى : لبيك عبي وسعديك ، لا تسألني شيئاً إلا أعطيتك أو دفعت عنك ما هو خير ، وأدخرت لك عندي ما هو أفضل منه ، فإذا كان يوم القيامة .. جيء بأهل الأعمال ، فوفوا أعمالهم بالميزان ، أهل

(١) رواه البخاري (٣٦١٢) ، وأبو داود (٢٦٤٩) .

(٢) أورده الألباني في « المستطرف » (٣٣٥/٢) .

(٣) قال الحافظ العراقي : (لم أجده مرفوعاً ، وإنما رواه ابن أبي الدنيا في « المرض والكفارات » [٢٢٣] من رواية سفيان عن بعض الفقهاء) . « الإنحاف » (٢٩/٩) .

وقول سفيان رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٨٩/٦) أيضاً .

(٤) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٢٦٢) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٦٣/٤٧) .

الصلاة والصيام والصدقة والحج ، ثم يُؤتى بأهل البلاء .. فلا يُنصبُ لَهُمْ ميزانٌ ، ولا ينشرُ لَهُمْ ديوانٌ ، يُصبُّ عَلَيْهِمُ الأجرُ صَبًّا كما كان يُصبُّ عَلَيْهِمُ البلاءُ صَبًّا ، فيودُّ أهلُ العافية في الدنيا لو أَنَّهُمْ كَانَتْ تُقرضُ أجسادُهُمْ بالمقاريضِ لما يرونَ ما يذهبُ بهِ أهلُ البلاءِ مِنَ الثوابِ ، فذلكَ قولُهُ تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (١) .

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : (شكَا نبيٌّ مِنَ الأنبياءِ إلى رَبِّهِ فَقَالَ : يا رَبِّ ؛ العبدُ المؤمنُ يطيعُكَ ويجتنبُ معاصيكَ ، تزوي عنه الدنيا ، وتعرضُ لَهُ البلاءُ ، ويكونُ العبدُ الكافرُ لا يطيعُكَ ويجترىءُ عَلَيْكَ وعلى معاصيكَ ، تزوي عنه البلاءُ ، وتبسطُ لَهُ الدنيا ، فأوحى اللهُ تعالى إِلَيْهِ : إِنَّ العبادَ لي ، والبلاءَ لي ، وكلُّ يسبِّحُ بحمدي ، فيكونُ المؤمنُ عليه مِنَ الذنوبِ ، فأزوي عنه الدنيا ، وأعرضُ لَهُ البلاءُ ، فيكونُ كفارةً لذنوبِهِ ؛ حتَّى يلقاني فأجزِيَهُ بحسناتِهِ ، ويكونُ الكافرُ لَهُ الحسناتُ ، فأبسطُ لَهُ في الرزقِ ، وأزوي عنه البلاءُ ، فأجزِيَهُ بحسناتِهِ في الدنيا ؛ حتَّى يلقاني فأجزِيَهُ بسيئاتِهِ) (٢) .

وروي أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَ قولُهُ تعالى : ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ .. قال

(١) رواه بتمامه التميمي في « المحن » (ص ٢٨٦) ، والترمذي (٢٤٠٢) روى بعضه ، وهو قوله : « يود أهل العافية يوم القيامة حين يعطى أهل البلاء الثواب لو أن جلودهم كانت قرضت في الدنيا بالمقاريض » .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٢٣ / ٨) .

أبو بكر الصديق رضي الله عنه : كيف الفرح بعد هذه الآية ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « غفر الله لك يا أبا بكر ؛ ألسْتَ تمرضُ ؟ ألسْتَ يصيبُكَ الأذى ؟ ألسْتَ تحزنُ ؟ فهذا ما تُجزون به »^(١) ؛ يعني : أنَّ جميع ما يصيبُكَ يكونُ كفارةً لذنوبِكَ .

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا رأيتمُ الرجلَ يعطيه الله ما يحبُّ وهو مقيمٌ على معصيته .. فاعلموا أنَّ ذلك استدراجٌ ، ثمَّ قرأ قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِم أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾^(٢) ، يعني : لمَّا تركوا ما أمروا به .. فتحتنا عليهم أبوابَ الخيراتِ ، ﴿ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا ﴾ أي : بما أعطوا مِنَ الخيرِ ، ﴿ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً ﴾ .

وعن الحسن البصري رحمه الله : أنَّ رجلاً مِنَ الصحابة رأى امرأةً كان يعرفها في الجاهلية ، فكلَّمها ثمَّ تركها ، فجعلَ الرجلُ يلتفتُ إليها وهو يمشي ، فصدمةٌ حائِطٌ ، فأثّرَ في وجهه ، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم ، فأخبره ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا أرادَ اللهُ بعبدٍ خيراً .. عَجَّلَ لَهُ عِقوبةً ذنبه في الدنيا »^(٣) .

(١) رواه أحمد في « المسند » (١١ / ١) ، وابن حبان في « صحيحه » (٢٩١٠) .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (١٤٥ / ٤) ، والطبراني في « الأوسط » (٩٢٦٨) .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (٨٧ / ٤) ، وابن حبان في « صحيحه » (٢٩١١) عن الحسن عن عبد الله بن مغفل رضي الله عنه .

وَقَالَ عَلِيٌّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ : أَلَا أَخْبَرُكُمْ بِأَرْجَى آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ؟ قَالُوا : بَلَى ، فَقَرَأَ عَلَيْهِمْ : ﴿ وَمَا أَصْبَحَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴾ ، فَاَلْمَصَائِبُ فِي الدُّنْيَا بِكَسْبِ الْأَوْزَارِ ، فَإِذَا عَاقَبَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا . . فَاللَّهُ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يَعَذِّبَهُ ثَانِيًا ، وَإِنْ عَفَا عَنْهُ فِي الدُّنْيَا . . فَاللَّهُ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يَعَذِّبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ^(١) .

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « مَا تَجَرَّعَ عَبْدٌ قَطْرًا جَرْعَتَيْنِ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ مِنْ جُرْعَةٍ غِيْظٍ رَدَّهَا بِحِلْمٍ ، وَجُرْعَةٍ مُصِيبَةٍ يَصْبِرُ الرَّجُلُ لَهَا ، وَلَا قَطَرَتْ قَطْرَةٌ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ مِنْ قَطْرَةٍ دَمٍ أَهْرَيْقَتْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أَوْ قَطْرَةٍ دَمٍ فِي سَوَادِ اللَّيْلِ وَهُوَ سَاجِدٌ وَلَا يَرَاهُ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى ، وَمَا خَطَا عَبْدٌ خَطَوَتَيْنِ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ خُطْوَةٍ إِلَى صَلَاةِ الْفَرِيضَةِ ، وَخُطْوَةٍ إِلَى صَلَاةِ الرَّحِمِ » ^(٢) .

- (١) رواه مرفوعاً الحاكم في « المستدرک » (٣٨٨ / ٤) ، وأحمد في « المسند » (١٥ / ١) .
 (٢) قال الحافظ العراقي : (رواه أبو بكر بن لال في « مكارم الأخلاق » من حديث علي بن أبي طالب ، دون ذكر القطرتين ، وفيه محمد بن صدقة ، وهو الفدكي ، منكر الحديث ، وروى ابن ماجه [٤١٨٩] من حديث ابن عمر بإسناد جيد : « ما من جرعة أعظم أجراً عند الله من جرعة غيظ كظمها عبد ابتغاء وجه الله » ، وروى الديلمي في « مسند الفردوس » [٦٢٠٥] من حديث أبي أمامة : « ما قطر في الأرض قطرة أحب إلى الله عز وجل من دم رجل مسلم في سبيل الله أو قطرة دمع في سواد الليل » ، وفيه محمد بن صدقة ، وهو الفدكي ، منكر الحديث) . « إتحاف » (١٤٥ / ٩) . وروى ابن وهب في « جامع » (٤٧٨) حديث الجرعتين مرفوعاً من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

وعن أبي الدرداء قال : توفي ابن سليمان بن داود عليهما السلام ، فوجد عليه وجداً شديداً ، فأتاه ملكان ، فجلسا بين يديه في زيِّ الخصوم ، فقال أحدهما : بذرت بذراً ، فلمّا استحصد . . مرّ به هذا فأفسده ، فقال للآخر : ما تقول ؟ فقال : أخذت الجادة فأتيت على زرع ، فنظرت يمينا وشمالاً فإذا الطريق عليه ، فقال سليمان عليه السلام : ولمّ بذرت على الطريق ؟ أما علمت أن لا بدّ للناس من الطريق ؟! قال : فلمّ تحزن على ولدك ؟ أما علمت أن الموت سبيل الآخرة ؟! فتاب سليمان عليه السلام إلى ربّه ، ولمّ يجزغ على ولده بعد ذلك^(١) .

ودخل عمر بن عبد العزيز رحمه الله عليه على ابن له مريض ، فقال : يا بني ؛ لأن تكون في ميزاني أحبّ إليّ من أن أكون في ميزانك ، فقال : يا أبت ؛ لأن يكون ما تحبّ أحبّ إليّ من أن يكون ما أحبّ^(٢) .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنّه نعي إليه ابنة له ، فاسترجع وقال : عورة سترها الله ، ومؤنة كفاها الله ، وأجر قد ساقه الله ، ثمّ نزل فصلين ركعتين ، ثمّ قال : قد صنعنا ما أمر الله تعالى ، قال الله تعالى : ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾^(٣) .

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٤١٣) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (١٥٥) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٣٨١) .

(٣) عزاه الحافظ السخاوي في « المقاصد الحسنة » (ص ٢١٥) لابن أبي الدنيا في « العزاء » .

وعن ابن المبارك أنه مات له ابن ، فعزاه مجوسياً يعرفه فقال له : ينبغي للعاقل أن يفعل اليوم ما يفعله الجاهل بعد خمسة أيام ، فقال ابن المبارك : اكتبوا عنه هذه^(١) .

وقال بعض العلماء : (إن الله تعالى ليتلي العبد بالبلاء بعد البلاء ، حتى يمشي على الأرض وما له ذنب)^(٢) .

وقال الفضيل : (إن الله عز وجل ليتعاهد عبده المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الرجل أهله بالخير)^(٣) .

وقال حاتم الأصم : (إن الله عز وجل يحتج على الخلق يوم القيامة بأربعة أنفس على أربعة أجناس : على الأغنياء بسليمان ، وعلى الفقراء بعيسى ، وعلى العبيد يوسف ، وعلى المرضى بأيوب ، صلوات الله عليهم أجمعين) .

وروي أن زكريا عليه السلام لما هرب من الكفار من بني إسرائيل ،

(١) أورده الراغب في « محاضرات الأدباء » (٣٣٨ / ٤) .

(٢) روى الحاكم في « المستدرک » (٣٤٧ / ١) عن أبي هريرة رضي الله عنه نحوه مرفوعاً ، والطبراني في « الكبير » (١٢٩ / ٢) عن جبير بن مطعم رضي الله عنه نحوه مرفوعاً .

(٣) روي هذا من حديث حذيفة رضي الله عنه مرفوعاً كما هو عند البيهقي في « الشعب » (٩٦٤٨) ، ويلفظ : « إن الله ليتعاهد عبده المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الوالد ولده بخير » ، قال حذيفة : وإن أقر أيامي لعيني يوم أدخل على أهلي فيشكون إلي الحاجة .

واختفى في الشجرة ، فعرفوا ذلك ، فجيء بالمنشار ، فنشرت الشجرة حتى بلغ المنشار إلى رأس زكريا ، فأن منه أنه ، فأوحى الله تعالى إليه : يا زكريا ؛ لئن صعدت منك أنه ثانية لأمحونك من ديوان النبوة ، فعص زكريا عليه السلام على الصبر حتى قطع بشطرين^(١) .

وقال أبو مسعود البلخي : (من أصيب بمصيبة فمزق ثوباً ، أو ضرب صدرأ . . فكأنما أخذ رمحاً يريد أن يقاتل به ربّه عز وجل)^(٢) .

وقال لقمان رحمه الله لابنه : (يا بني ؛ إن الذهب يُجرب بالنار ، والعبد الصالح يُجرب بالبلاء ، فإذا أحب الله قوماً . . ابتلاهم ، فمن رضي . . فله الرضا ، ومن سخط . . فله السخط)^(٣) .

وقال الأحنف بن قيس : أصبحت يوماً أشتكي ضرسي ، فقلت لعمي : ما نمت البارحة من وجع الضرس ، حتى قلتها ثلاثاً ، فقال : لقد أكثرت من

(١) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ١٥) عن وهب بن منبه .

(٢) أورده الراغب في « محاضرات الأدباء » (٣٥٧ / ٤) .

(٣) هذا القول متوازع في المرفوع ، فقد روى الطبراني في « الكبير » (١٦٦ / ٨) ، والحاكم في « المستدرک » (٣١٤ / ٤) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه مرفوعاً : « إن الله ليجرب أحدكم بالبلاء وهو أعلم به كما يجرب أحدكم ذهبه بالنار . . » الحديث ، وروى الترمذي (٢٣٩٦) ، وابن ماجه (٤٠٣١) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « إن عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وإن الله إذا أحب قوماً . . ابتلاهم ، فمن رضي . . فله الرضا ، ومن سخط . . فله السخط » .

شكوى ضرسك في ليلة واحدة ، وقد ذهبت عيني هذه منذ ثلاثين سنة
ما علم بها أحد^(١) .

وأوحى الله تعالى إلى عزيز عليه السلام : إذا نزلت بك بليّة .. فلا
تشكني إلى خلقي ، واشكُ إليّ كما لا أشكوك إلى ملائكتي إذا صعدت
بمساوئك وفضائك^(٢) ، نسأل الله من عظيم لطفه وكرمه ستره الجميل في
الدنيا والآخرة .



-
- (١) رواه البيهقي في « الشعب » (٩٥٨٣) عن ابن أخ للأحنف ، وصاحب القول هو
الأحنف نفسه ، ورواه البلاذري في « أنساب الأشراف » (٣٢٩/١٢) عن الأحنف
وعمه المتشمس بن معاوية ولم يعين الشكوى .
- (٢) رواه الديلمي في « مسند الفردوس » (٥١٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه
مرفوعاً : « أوحى الله عز وجل إلى أخي العزيز : يا عزيز ... الخبر .

بيان فضل الثمّة على البلاء

لعلّك تقول : هذه الأخبار تدلّ على أنّ البلاء في الدنيا خيرٌ مِنَ النعم ،
فهل لنا أن نسأل الله البلاء ؟

فأقول : لا وجه لذلك ؛ لما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّه
كان يستعيزُ في دعائه مِنْ بلاء الدنيا وبلاء الآخرة^(١) ، وكان يقول هو
والأنبياء عليهم السلام : ﴿ رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ
حَسَنَةٌ ﴾^(٢) ، وكانوا يستعيزون مِنْ شماتة الأعداء وغيرها^(٣) .

وقال عليّ كرم الله وجهه : اللهم ؛ إني أسألك الصبر ، فقال صلى الله
عليه وسلم : « لقد سألت الله البلاء . . فأسأله العافية »^(٤) .

وروى الصديق رضوان الله عليه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّه
قال : « سلوا الله العافية ، فما أعطي أحدٌ أفضلَ مِنَ العافية إلا اليقين »^(٥) ،
وأشار باليقين إلى عافية القلب عن مرض الجهل والشك ، فعافية القلب
أعلى مِنَ عافية البدن .

(١) إذ روى أحمد في « مسنده » (١٨١ / ٤) من حديث بسر بن أرطاة رضي الله عنه
مرفوعاً : « وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة » .

(٢) وكان هذا من أكثر دعائه عليه الصلاة والسلام كما روى ذلك مسلم (٣٦٩٠) .

(٣) رواها النسائي (٢٦٥ / ٨) ، والحاكم في « المستدرک » (٥٣١ / ١) .

(٤) رواه الترمذي (٣٥٢٧) ولم يذكر أن القائل هو علي رضي الله عنه ، وعينه (٣٥٦٤) .

(٥) رواه ابن ماجه (٣٨٤٩) بنحوه .

وقال الحسن رحمه الله : (الخيرُ الذي لا شرَّ فيه العافيةُ مع الشكرِ ،
فكم من منعمٍ عليه غيرُ شاكرٍ)^(١) .

وقال مطرف بن عبد الله : (لأنَّ أعافى فأشكرَ أحبُّ إليَّ من أن أبتلى
فأصبرَ)^(٢) .

وقال صلى الله عليه وسلم في دعائه : « وعافيتك أحبُّ إليَّ »^(٣) .
وهذا أظهر من أن يُحتاج فيه إلى استشهادٍ ، وهذا لأنَّ البلاء صارَ نعمةً
باعتبارين :

أحدهما : بالإضافة إلى ما هو أكثر منه ؛ إمَّا في الدنيا ، أو في الدين .
والآخر : بالإضافة إلى ما يُرجى من الثواب ، فينبغي أن يسأل الله تمامَ
النعمة في الدنيا ، ودفع ما فوقه من البلاء ، ويسأله الثواب في الآخرة على

(١) كذا في « القوت » (٢٠٦ / ١) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٥٤ / ٤) عن عون بن عبد الله .

(٢) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (٢٥٣ / ١١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٠٠ / ٢) .

(٣) كذا في « القوت » (٢٠٦ / ١) ، وهي قطعة من الدعاء المشهور له صلى الله عليه وسلم يوم خرج إلى الطائف يدعو ثقيفاً ، وأورده ابن هشام في « سيرته » (٤٢٠ / ١) ولفظه : « ولكن عافيتك هي أوسع لي » ، وقال الحافظ العراقي : (رواه ابن الجوزي في « السيرة » . . . ، وكذا رواه ابن أبي الدنيا في كتاب « الدعاء » من رواية حسان بن عطية مرسلاً ، ورواه أبو عبد الله بن منده من حديث عبد الله بن جعفر مسنداً وفيه من يجهل) . « إتحاف » (١٤٨ / ٩) .

الشكرِ على نعمِهِ ، فَإِنَّهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُعْطِيَ عَلَى الشُّكْرِ مَا يُعْطِيهِ عَلَى الصَّبْرِ .



فَإِنْ قُلْتَ : فَقَدْ قَالَ بَعْضُهُمْ : (أَوَدُّ أَنْ أَكُونَ جَسْرًا عَلَى النَّارِ يَعْبرُ عَلَيَّ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ فَيَنْجُونَ ، وَأَكُونَ أَنَا فِي النَّارِ) .

وَقَالَ سَمْنُونٌ^(١) :

[من مَخْلَعِ البسيط]

وَلَيْسَ لِي فِي سِوَاكَ حَظٌّ فَكَيْفَمَا شِئْتَ فَأَخْتَبِرْنِي

فَهَذَا مِنْ هَوَلاءِ سُؤَالٍ لِلْبَلَاءِ .

فَاعْلَمْ : أَنَّهُ حُكِيَ عَنْ سَمْنُونٍ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ بُلِيَ بَعْدَ هَذَا الْبَيْتِ بَعْلَةَ الْحَصْرِ ، فَكَانَ بَعْدَ ذَلِكَ يَدُورُ عَلَى أَبْوَابِ الْمَكَاتِبِ وَيَقُولُ لِلصَّبِيَّانِ : (ادْعُوا لَعْمَكُمُ الْكَذَّابِ) .

وَأَمَّا مُحَبَّةُ الْإِنْسَانِ لِيَكُونَ هُوَ فِي النَّارِ دُونَ سَائِرِ الْخَلْقِ . . فغَيْرُ مُمْكِنَةٍ ، وَلَكِنْ قَدْ تَغَلَّبُ الْمُحَبَّةُ عَلَى الْقَلْبِ ، حَتَّى يَظُنَّ الْمُحِبُّ بِنَفْسِهِ حُبًّا لِمِثْلِ ذَلِكَ ، فَمَنْ شَرِبَ بِكَأْسِ الْمُحَبَّةِ . . سَكَرَ ، وَمَنْ سَكَرَ . . تَوَسَّعَ فِي الْكَلَامِ ، وَلَوْ زَايَلَهُ سَكَرُهُ . . عَلِمَ أَنَّ مَا غَلَبَ عَلَيْهِ كَانَ حَالَةً لَا حَقِيقَةً لَهَا ، فَمَا سَمِعْتَهُ مِنْ هَذَا الْفَنِّ فَهُوَ كَلَامُ الْعَشَّاقِ الَّذِينَ أَفْرَطَ حُبُّهُمْ ، وَكَلَامُ الْعَشَّاقِ يُسْتَلَذُّ سَمَاعُهُ وَلَا يُعَوَّلُ عَلَيْهِ ؛ كَمَا حُكِيَ أَنَّ فَاخْتَةَ كَانَ يَرَاوِدُهَا زَوْجُهَا فَمَنْعَتْهُ ، فَقَالَ : مَا الَّذِي يَمْنَعُكَ عَنِّي وَلَوْ أَرَدْتَ أَنْ أَقْلِبَ لَكَ مَلِكًا

(١) عقلاء المجانين (ص ٣٣٩) ، والرسالة الفشيرية (ص ٨٨) .

سليمانَ ظهراً لبطنٍ .. لفعلته لأجلِك ، فسمعه سليمانُ عليه السلامُ ،
فاستدعاهُ وعاتبهُ ، فقالَ : يا نبيَّ الله ؛ كلامُ العشاقِ لا يُحكى^(١) ، وهو كما
قالَ .

وقولُ الشاعر^(٢) :

أريدُ وصالَهُ وَيُرِيدُ هَجْرِي فَأَتْرُكُ مَا أريدُ لِمَا يُريدُ
هو أيضاً محالٌ ، ومعناه : أني أريدُ ما لا أريدُ ؛ لأنَّ مَنْ أرادَ الوصالَ
ما أرادَ الهجرَ ، فكيفَ أرادَ الهجرَ الذي لم يردّه ؟! بل لا يصدقُ هذا الكلامُ
إلا بتأويلين .

أحدهما : أن يكونَ ذلكَ في بعضِ الأحوالِ حتّى يكتسبَ به رضاُ الذي
يتوصّلُ به إلى مرادِ الوصالِ في الاستقبالِ ، فيكونُ الهجرانُ وسيلةً إلى
الرضا ، والرضا وسيلةً إلى وصالِ المحبوبِ ، والوسيلةُ إلى المحبوبِ
محبوبٌ ، فيكونُ مثالهُ مثالَ محبِّ المالِ إذا أسلمَ درهماً في درهمين ، فهو
بحبِّ الدرهمينِ يتركُ الدرهمَ في الحالِ .

الثاني : أن يصيرَ رضاُ عنده مطلوباً مِنْ حيثُ إنّه رضاٌ فقط ، ويكونُ له
لذةٌ في استشعارِهِ رضا محبوبِهِ منه تزيّدُ تلكَ اللذةُ على لذّتهِ في مشاهدتهِ معَ

(١) الرسالة القشيرية (ص ٥٣٠) بنحوه ، والفاخته : الحمامة المطوقة .

(٢) البيت لابن المنجم الواعظ . انظر « فوات الوفيات » (٣٠١/٢) ، و« الوافي
بالوفيات » (٢٦٨/١٨) .

كراهته ، فعند ذلك يُصوّرُ أن يريد ما فيه الرضا ، فلذلك قد انتهى حال بعض المحبين إلى أن صارت لذتهم في البلاء مع استشعارهم رضا الله عنهم أكثر من لذاتهم في العافية من غير شعور الرضا ، فهؤلاء إذا قدرُوا رضا الله في البلاء.. صار البلاء أحب إليهم من العافية ، وهذه حالة لا يبعد وقوعها في غلبات الحب ، ولكنها لا تثبت ، وإن ثبتت مثلاً.. فهل هي حالة صحيحة أم حالة اقتضتها حالة أخرى وردت على القلب فمالت به عن الاعتدال ؟ هذا فيه نظر ، وذكر تحقيقه لا يليق بما نحن فيه .

وقد ظهر بما سبق أن العافية خير من البلاء ، فنسأل الله تعالى المنان بفضله على جميع خلقه العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة لنا ولجميع المسلمين .



بيان الأفضل من الصبر والشكر

اعلم : أنَّ الناسَ اختلفوا في ذلك :

فقال قائلون : الصبرُ أفضلُ مِنَ الشكرِ .

وقال آخرون : الشكرُ أفضلُ .

وقال آخرون : هما سيِّان .

وقال آخرون : يختلفُ ذلك باختلافِ الأحوالِ .

واستدلَّ كلُّ فريقٍ بكلامٍ شديدٍ الاضطرابِ ، بعيدٍ عنِ التحصيلِ ، فلا معنى للتطويلِ بالنقلِ ، بل المبادرةُ إلى إظهارِ الحقِّ أولى ، فنقولُ : في بيانِ ذلكَ مقامانِ :

المقامُ الأوَّلُ : البيانُ على سبيلِ التساهلِ :

وهو أن يُنظرَ إلى ظاهرِ الأمرِ ، ولا يُطلبَ بالتفتيشِ تحقيقُهُ ، وهو البيانُ الذي ينبغي أن يُخاطبَ به عوامُّ الخلقِ ؛ لقصورِ أفهامِهِمْ عن دركِ الحقائقِ الغامضةِ ، وهذا الفرُّ مِنَ الكلامِ هو الذي ينبغي أن يعتمدَهُ الوعَّاطُ ؛ إذ مقصودُ كلامِهِمْ مِنْ مخاطبةِ العوامِّ إصلاحُهُمْ ، والظنُّ المشفقُ لا ينبغي أن تصلحَ الصبيُّ الطفلُ بالطيورِ السمانِ وضروبِ الحلاواتِ ، بل باللبنِ اللطيفِ ، وعليها أن تؤخَّرَ عنه أطيبُ الأطعمةِ إلى أن يصيرَ محتملاً لها بقوَّتِهِ ، ويفارقَ الضعفَ الذي هو عليه في بِنِيَّتِهِ ، فنقولُ :

هذا المقام في البيان يأبى البحث والتفصيل ، ومقتضاه النظر إلى الظاهر المفهوم من موارد الشرع ، وذلك يقتضي تفضيل الصبر ؛ فإن الشكر وإن وردت أخبار كثيرة في فضله ، فإذا أُضيف إليه ما ورد في فضيلة الصبر . . كانت فضائل الصبر أكثر ، بل فيه ألفاظ صريحة في التفضيل ؛ كقوله عليه الصلاة والسلام : « من أفضل ما أُوتيتُم اليقين وعزيمة الصبر »^(١) .

وفي الخبر : (يُؤتى بأشكر أهل الأرض ، فيجزيه الله جزاء الشاكرين ، ويُؤتى بأصبر أهل الأرض ، فيقال له : أترضى أن نجزيك كما جزينا هذا الشاكر ، فيقول : نعم يا رب ، فيقول الله تعالى : كلاً ، أنعمت عليه فشكر ، وابتليتك فصبرت ، لأضعف لك الأجر عليه ، فيعطى أضعاف جزاء الشاكرين)^(٢) .

وقد قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

وأما قوله عليه الصلاة والسلام : « الطاعمُ الشاكرُ بمنزلة الصائم الصابر »^(٣) . فهو دليل على الفضيلة في الصبر ؛ إذ ذكر ذلك في معرض المبالغة لرفع درجة الشكر ، فألحقه بالصبر ، فكان هذا منتهى درجته ، ولولا أنه فهم من الشرع علو درجة الصبر . . لما كان إلحاق الشكر به مبالغة

(١) أورده الإمام أبو طالب في « القوت » (١٩٤ / ١) من حديث شهر بن حوشب الأشعري عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه مرفوعاً بلفظ : « من أقل » بدل « من أفضل » .

(٢) كذا في « القوت » (١٩٥ / ١) ، ولم يذكر رفعه .

(٣) رواه الترمذي (٢٤٨٦) ، وابن ماجه (١٧٦٤) .

في الشكر ، وهو كقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « الجمعة حجُّ المساكين »^(١) ، « جهادُ المرأةِ حسنُ التَّبَعْلِ »^(٢) ، وكقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « شاربُ الخمرِ كعابدٍ وثنٍ »^(٣) ، وأبدأُ المشبّهةَ بهِ ينبغي أن يكونَ أعلى رتبةً ، فكذلكَ قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « الصبرُ نصفُ الإيمانِ »^(٤) لا يدلُّ على أنَّ الشكرَ مثلهُ ، وهو كقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « الصومُ نصفُ الصبرِ »^(٥) ؛ فإنَّ كلَّ ما ينقسمُ بقسمينِ يُسمَّى أحدهُما نصفاً وإن كانَ بينهما تفاوتٌ ؛ كما يُقالُ : الإيمانُ هو العلمُ والعملُ ، فالعملُ نصفُ الإيمانِ ، فلا يدلُّ ذلكَ على أنَّ العملَ يساوي العلمَ .

وفي الخبرِ عنِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « آخرُ الأنبياءِ دخولاً الجنةَ سليمانُ بنُ داودَ عليهما السلامُ ؛ لمكانِ ملكِهِ ، وآخرُ أصحابي دخولاً

(١) رواه أبو نعيم في « تاريخ أصبهان » (١٦٠ / ٢) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٧٨) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٣٠ / ٣٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً .

(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (١١٥٢) عن علي رضي الله عنه مرفوعاً ضمن خبر ، وروى ابن أبي الدنيا في « العيال » (٥٢٨) حديث وافدة النساء التي وصفت من حال الرجال ما لا يبلغ شأوه النساء وفيه : « أقرئي النساء عني وقولي لهن : إن طاعة الزوج تعدل ما هناك ، وقليل منكن تفعله . . . » الخبر .

(٣) رواه ابن ماجه (٣٣٧٥) .

(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٤ / ٥) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٢٢٧ / ١٣) ، وأوقفه الطبراني في « الكبير » (١٠٤ / ٩) على عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(٥) رواه الترمذي (٣٥١٩) ، وابن ماجه (١٧٤٥) .

الجنة عبد الرحمن بن عوف ؛ لمكان غناه ، وفي لفظ آخر : « يدخل سليمان بعد الأنبياء بأربعين خريفاً »^(١) .

وفي الخبر : (أبواب الجنة كلها مصراعان إلا باب الصبر ، فإنه مصراع واحد ، وأول من يدخله أهل البلاء أمامهم أيوب عليه السلام)^(٢) .

وكل ما ورد في فضائل الفقر يدل على فضيلة الصبر ؛ لأن الصبر حال الفقير ، والشكر حال الغني .

فهذا هو المقام الذي يقنع العوام ، ويكفيهم في الوعظ اللائق بهم ، والتعريف لما فيه صلاح دينهم .



المقام الثاني : هو البيان الذي نقصد به تعريف أهل العلم والاستبصار بحقائق الأمور بطريق الكشف والإيضاح :

فنقول فيه : كل أمرين مبهمين لا تمكن الموازنة بينهما مع الإبهام ما لم

(١) كذا في « القوت » (٢٠٣/١) ، وقد روى الطبراني في « الأوسط » (٤١٢٥) من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه مرفوعاً : « الأنبياء كلهم يدخلون الجنة قبل داود وسليمان بألفي عام ... » الحديث ، وهو عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٨٩٠٩) بلفظ : « يدخل الأنبياء كلهم قبل داود وسليمان الجنة بأربعين عاماً » ، وروى البزار في « مسنده » (٧٠٠٣) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « إن أول من يدخل الجنة من أغنياء أمتي عبد الرحمن بن عوف ، والذي نفس محمد بيده لن يدخلها إلا حبواً » .

(٢) كذا في « القوت » (٢٠٣/١) ، ولم يرفعه ، بل قال : (وقد جاء في الآثار ...) .

يكشف عن حقيقة كل واحد منهما ، وكل مكشوف يشتمل على أقسام لا تمكن الموازنة بين الجملة والجملة ، بل يجب أن تُفرد الأحاد بالموازنة حتى يتبين الرجحان ، والصبر والشكر أقسامهما وشعبهما كثيرة ، فلا يتبين حكمهما في الرجحان والنقصان مع الإجمال ، فنقول :

قد ذكرنا أن هذه المقامات تنظم من ثلاثة أمور : علوم ، وأحوال ، وأعمال ، والشكر والصبر وسائر المقامات هي كذلك ، وهذه الثلاثة إذا وزن البعض منها ببعض .. لاح للناظرين إلى الظواهر أن العلوم تُراد للأحوال ، والأحوال تُراد للأعمال ، والأعمال هي الأفضل ، وأمّا أرباب البصائر .. فالأمر عندهم بالعكس من ذلك ، فإن الأعمال تُراد للأحوال ، والأحوال تُراد للعلوم ، فالأفضل العلوم ، ثم الأحوال ، ثم الأعمال ؛ لأن كل مراد لغيره فذلك الغير - لا محالة - أفضل منه .

وأمّا آحاد هذه الثلاثة .. فالأعمال قد تتساوى وقد تتفاوت إذا أضيف بعضها إلى بعض ، وكذا آحاد الأحوال إذا أضيف بعضها إلى بعض ، وكذا آحاد المعارف .

وأفضل المعارف علوم المكاشفة ، وهي أرفع من علوم المعاملة ، بل علوم المعاملة دون المعاملة ؛ لأنها تُراد للمعاملة ، ففائدتها إصلاح العمل ، وإنما فضل العالم بالمعاملة على العابد إذا كان علمه ممّا يعم نفعه ، فيكون بالإضافة إلى عمل خاص أفضل ، وإلا .. فالعلم القاصر بالعمل ليس بأفضل من العمل القاصر ، فنقول :

فائدة إصلاح العمل إصلاح حال القلب ، وفائدة إصلاح حال القلب أن ينكشف له جلال الله تعالى في ذاته وصفاته وأفعاله ، فأرفع علوم المكاشفة معرفة الله سبحانه وتعالى ، وهي الغاية التي تطلب لذاتها ؛ فإن السعادة تنال بها ، بل هي عين السعادة ، ولكن قد لا يشعر القلب في الدنيا بأنها عين السعادة ، وإنما يشعر بها في الآخرة ، فهي المعرفة الحرة التي لا قيد عليها ، فلا تتقيّد بغيرها ، وكل ما عداها من المعارف عبيد وخدم بالإضافة إليها ، فإنها إنما تراود لأجلها ، ولما كانت مرادة لأجلها . . . كان تفاوتها بحسب نفعها في الإفضاء إلى معرفة الله تعالى ، فإن بعض المعارف يفضي إلى بعض ؛ إمّا بواسطة وإمّا بوسائط كثيرة ، فكلما كانت الوسائط بينه وبين معرفة الله تعالى أقل . . . فهي أفضل .

وأما الأحوال . . . فنعني بها أحوال القلب في تصفيته وتطهيره عن شوائب الدنيا وشواغل الخلق ، حتّى إذا طهر وصفا . . . اتضح له حقيقة الحق .
فإذا ؛ فضائل الأحوال بقدر تأثيرها في إصلاح القلب وتطهيره وإعدادِه لأن تحصل له علوم المكاشفة ، وكما أن تصقل المرأة يحتاج إلى أن يتقدّم على تمامه أحوال للمرأة ، بعضها أقرب إلى الصقالة من بعض . . . فكذا أحوال القلب ، فالحالة القريبة أو المقربة من صفاء القلب هي أفضل ممّا دونها لا محالة ؛ بسبب القرب من المقصود .

وهكذا ترتيب الأعمال ؛ فإن تأثيرها في تأكيد صفاء القلب وجلب الأحوال إليه ، وكل عمل إمّا أن يجلب إليه حالة مانعة من المكاشفة ،

موجبة لظلمة القلب ، جاذبة إلى زخارف الدنيا ، وإما أن يجلب إليه حالة مهينة للمكاشفة ، موجبة صفاء القلب وقطع علائق الدنيا عنه ، واسم الأول المعصية ، واسم الثاني الطاعة .

والمعاصي من حيث التأثير في ظلمة القلب وقساوته متفاوتة ، وكذا الطاعات في تنوير القلب وتصفيته ، فدرجاتها بحسب درجات تأثيرها ، وذلك يختلف باختلاف الأحوال ، وذلك أننا بالقول المطلق ربما نقول : الصلاة النافلة أفضل من كل عبادة نافلة ، وإن الحج أفضل من الصدقة ، وإن قيام الليل أفضل من غيره .

ولكن التحقيق فيه : أن الغني الذي معه مال وقد غلبه البخل وحب المال على إمساكه . . فإخراج درهم له أفضل من قيام ليل وصيام أيام ؛ لأن الصيام يليق بمن غلبته شهوة البطن فأراد كسرها ، أو منعه الشبع عن صفاء الفكر في علوم المكاشفة فأراد تصفية القلب بالجوع ، فأما هذا المدبر إذا لم تكن حاله هذه الحال . . فليس يستضر بشهوة بطنه ، ولا هو مشغل بنوع فكر يمنعه الشبع منه ، فاشتغاله بالصوم خروج منه عن حاله إلى حال غيره ، وهو كالمريض الذي يشكو وجع البطن ، إذا استعمل دواء الصداع . . لم ينتفع به ، بل حقه أن ينظر في المهلك الذي استولى عليه ، والشح المطاع من جملة المهلكات ، ولا يزيل صيام مئة سنة وقيام ألف ليلة منه ذرة ، بل لا يزيله إلا إخراج المال ، فعليه أن يتصدق بما معه ، وتفصيل هذا ممّا ذكرناه في ربع المهلكات ، فليرجع إليه .

فيهلك . . فله غرض في الترياق ، وله غرض في حفظ الولد ، فواجب عليه أن يزن غرضه في الترياق بغرضه في حفظ الولد ، فإذا كان يقدر على الصبر عن الترياق ولا يستضر به ضرراً كثيراً ، ولو أخذها لأخذها الصبي ، ويعظم ضرره بهلاكه . . فواجب عليه أن يهرب عن الحية إذا رآها ويشير على الصبي بالهرب ، ويقبض صورتها في عينه ، ويعرفه أن فيها سمّاً قاتلاً لا ينجو منه أحد ، ولا يحدثه أصلاً بما فيها من نفع الترياق ؛ فإن ذلك ربما يغره فيقدم عليه من غير تمام المعرفة .

وكذلك الغواص إذا علم أنه لو غاص في البحر بمرأى من ولده لاتبعه وهلك . . فواجب عليه أن يحذر الصبي ساحل البحر والنهر ، فإن كان لا ينزجر الصبي بمجرد الزجر مهما رأى أباه يحوم حول الساحل . . فواجب عليه أن يبعد من الساحل مع الصبي ولا يقرب منه بين يديه .

فكذلك الأمة في حجر الأنبياء عليهم السلام كالصبيان الأغبياء ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « إنما أنا لكم مثل الوالد لولده »^(١) .

وقال عليه الصلاة والسلام : « إنكم تتهافنون على النار تهافت الفراش وأنا آخذ بحجزكم »^(٢) .

وحظهم الأوفر في حفظ أولادهم عن المهالك ، فإنهم لم يُعثنوا إلا

(١) رواه أبو داود (٨) ، والنسائي (٣٨/١) ، وابن ماجه (٣١٣) .

(٢) رواه البخاري (٦٤٨٣) ، ومسلم (٢٢٨٤) .

﴿وَيَأْخُذْ الصَّدَقَتِ﴾ ، فكيف لا يكون الفعل والإنفاق هو الأفضل ؟

فاعلم : أنَّ الطبيب إذا أثنى على الدواء . . لم يدلَّ على أنَّ الدواء مرادُّ لعينه ، أو على أنَّه أفضل من الصحة والشفاء الحاصل به ، ولكن الأعمال علاجٌ لمرضِ القلوب ، ومرضُ القلوب ممَّا لا يُشعرُ به غالباً ، فهو كبرصٍ على وجهٍ من لا مرآة معه ، فإنه لا يشعرُ به ، ولو ذكرَ له لا يصدِّقُ به ، فالسبيلُ معه المبالغةُ في الثناء على غسلِ الوجهِ بماءِ الوردِ مثلاً إنَّ كانَ ماءُ الوردِ يزيلُ البرصَ ؛ حتَّى يستحثَّهُ فرطُ الثناء على المواظبةِ عليه ، فيزولَ مرضُهُ ، فإنه لو ذُكرَ له أنَّ المقصودَ زوالُ البرصِ عن وجهك . . ربما تركَ العلاجَ ، وزعمَ أنَّ وجهه لا عيبَ فيه .



ولنضرب مثلاً أقرب من هذا فنقول :

مَنْ لَهُ وَلَدٌ عَلَّمَهُ الْعِلْمَ وَالْقُرْآنَ ، وَأَرَادَ أَنْ يَثْبِتَ ذَلِكَ فِي حِفْظِهِ بِحَيْثُ لَا يَزُولُ عَنْهُ ، وَعَلِمَ أَنََّّهُ لَوْ أَمَرَهُ بِالتَّكْرَارِ وَالدراسةِ لِيَبْقَى لَهُ مُحْفُوظًا . . لَقَالَ : إِنَّهُ مُحْفُوظٌ ، وَلَا حَاجَةَ بِي إِلَى تَكَرُّارٍ وَدراسةٍ ؛ لِأَنَّهُ يَظُنُّ أَنَّ مَا يَحْفَظُهُ فِي الْحَالِ يَبْقَى كَذَلِكَ أَبَدًا ، وَكَانَ لَهُ عَيْدٌ ، فَأَمَرَ الْوَلَدَ بِتَعْلِيمِ الْعَيْدِ ، وَوَعَدَهُ عَلَى ذَلِكَ بِالْجَمِيلِ ؛ لِتَتَوَفَّرَ دَاعِيَتُهُ عَلَى كَثْرَةِ التَّكْرَارِ بِالتَّعْلِيمِ ، فربما يَظُنُّ الصَّبِيُّ الْمَسْكِينُ أَنَّ الْمَقْصُودَ تَعْلِيمُ الْعَيْدِ الْقُرْآنَ ، وَأَنَّهُ قَدْ اسْتَعْدَمَ لِتَعْلِيمِهِمْ ، فَيَشْكُلُ عَلَيْهِ الْأَمْرُ فَيَقُولُ : مَا بَالِي قَدْ اسْتَعْدَمْتُ

لأجل العبيد وأنا أجلُّ منهم وأعزُّ عند الوالد ؟ وأعلمُ أنَّ أبي لو أرادَ تعليمَ العبيدِ . . لقدَرَ عليه دونَ تكليفي ؟ وأعلمُ أنَّه لا نقصانَ لأبي بفقدِ هؤلاء العبيدِ فضلاً عن عدمِ علمِهِم بالقرآنِ ؟!

فربما يتكاسرُ هذا المسكينُ فيتركُ تعليمَهُم اعتماداً على استغناء أبيه وعلى كرمِهِ في العفوِ عنه ، فينسى العلمَ والقرآنَ ، ويبقى مدبراً محروماً من حيثُ لا يدري .

وقد انخدعَ بمثلِ هذا الخيالِ طائفةٌ ، وسلكوا طريقَ الإباحةِ ، وقالوا : إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى غَنِيٌّ عَنْ عِبَادَتِنَا وَعَنْ أَنْ يَسْتَقْرِضَ مِنَّا ، فَأَيُّ مَعْنَى لِقَوْلِهِ : ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ إِطْعَامَ الْمَسَاكِينِ . . لِأَطْعَمَهُمْ ؟ فَلَاحَاجَةٌ بِنَا إِلَى صَرْفِ أَمْوَالِنَا إِلَيْهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى حِكَايَةً عَنِ الْكَفَّارِ : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ ، وقالوا أيضاً : ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا﴾ ، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانُوا صَادِقِينَ فِي كَلَامِهِمْ وَكَيْفَ هَلَكُوا بِصَدَقِهِمْ .

فسبحانَ مَنْ إِذَا شَاءَ . . أَهْلَكَ بِالْصَدَقِ ، وَإِذَا شَاءَ أَسْعَدَ بِالْجَهْلِ ، يَضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا !

فهؤلاءِ لَمَّا ظَنُّوا أَنَّهُمْ اسْتَخْدَمُوا لِأَجْلِ الْمَسَاكِينِ وَالْفُقَرَاءِ ، أَوْ لِأَجْلِ اللَّهِ تَعَالَى ، ثُمَّ قَالُوا : لَا حَظَّ لَنَا فِي الْمَسَاكِينِ ، وَلَا حَظَّ لِلَّهِ فِيْنَا وَفِي أَمْوَالِنَا ، سَوَاءٌ أَنْفَقْنَا أَوْ أَمْسَكْنَا . . هَلَكُوا كَمَا هَلَكَ الصَّبِيُّ لَمَّا ظَنَّ أَنَّ مَقْصُودَ الْوَالِدِ

استخدامه لأجل العبيد ، ولم يشعر بأنه كان المقصود منه ثبات صفة العلم في نفسه ، وتأكدته في قلبه ، حتى يكون ذلك سبب سعادته في الدنيا ، وإنما كان ذلك من الوالد تلطفاً به في استجراؤه إلى ما فيه سعادته .

فهذا المثال يبين لك ضلال من ضل من هذا الطريق .

فإذا ؛ المسكين الأخذ لمالك يستوفي بواسطة المال خبث البخل وحب الدنيا من باطنك ، فإنه مهلك لك ، فهو كالحجّام ، يستخرج الدم منك ليخرج بخروج الدم العلة المهلكة من باطنك ، فالحجّام خادم لك ، لا أنت خادم للحجّام ، ولا يخرج الحجّام عن كونه خادماً ؛ بأن يكون له غرض في أن يصنع شيئاً بالدم ، ولما كانت الصدقات مطهرة للبواطن ، ومزكية لها عن خباثت الصفات . . امتنع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أخذها ، وانتهى عنها ؛ كما نهى عن كسب الحجّام^(١) ، وسماها : أوساخ أموال الناس ، وشرف أهل بيته بالصيانة عنها^(٢) .

والمقصود : أن الأعمال مؤثرات في القلب كما سبق في ربع المهلكات ، والقلب بحسب تأثيرها يستعد لقبول الهداية ونور المعرفة ، فهذا هو القول الكلّي والقانون الأصلي الذي ينبغي أن يرجع إليه في معرفة فضائل الأعمال والأحوال والمعارف .

(١) رواه النسائي (٣١٠/٧) ، وابن ماجه (٢١٦٥) .

(٢) كما روى ذلك مسلم (١٠٧٢) .

فلنرجع الآن إلى خصوص ما نحن فيه من الصبر والشكر ، فنقول :
 في كل واحد منهما معرفة وحال وعمل ، فلا يجوز أن تقابل المعرفة في
 أحدهما بالحال أو العمل في الآخر ، بل يُقابل كل واحد منها بنظيره ، حتى
 يظهر التناسب ، وبعد التناسب يظهر الفضل .

ومهما قُوبِلَتْ معرفة الشاكر بمعرفة الصابر ربما رجعا إلى معرفة
 واحدة ؛ إذ معرفة الشاكر أن يرى نعمة العينين مثلاً من الله تعالى ، ومعرفة
 الصابر أن يرى العمى من الله ، وهما معرفتان متلازمتان ومتساويتان ، هذا
 إن اعتبر في البلاء والمصائب ، وقد بينّا أن الصبر قد يكون على الطاعة وعن
 المعصية ، وفيهما يتحد الصبر والشكر ؛ لأن الصبر على الطاعة هو عين
 شكر الطاعة ؛ لأن الشكر يرجع إلى صرف نعمة الله تعالى إلى ما هو
 المقصود منها بالحكمة ، والصبر يرجع إلى ثبات باعث الدين في مقابلة
 باعث الهوى ، فالصبر والشكر فيه اسمان لمسمى واحد باعتبارين
 مختلفين ، فثبات باعث الدين في مقابلة باعث الهوى يُسمى صبراً بالإضافة
 إلى باعث الهوى ، ويُسمى شكراً بالإضافة إلى باعث الدين ؛ إذ باعث الدين
 إنما خلق لهذه الحكمة ، وهو أن يصرع به باعث الشهوة ، فقد صرفه إلى
 مقصود الحكمة ، فهما عبارتان عن معنى واحد ، فكيف يفضل الشيء على
 نفسه ؟!

فإذا ؛ مجاري الصبر ثلاثة : الطاعة ، والمعصية ، والبلايا ، وقد ظهر
 حكمهما في الطاعة والمعصية .

وأما البلاء.. فهو عبارة عن فقدِ نعمة ، والنعمة إما أن تقعَ ضرورةً ؛
كالعينين مثلاً ، وإما أن تقعَ في محلِّ الحاجة ؛ كالزيادة على قدر الكفاية من
المال .

أما العينان.. فصبرُ الأعمى عنهما ألا يظهر الشكوى ، ويظهر الرضا
بقضاء الله تعالى ، ولا يترخص بسبب العمى في بعض المعاصي ، وشكرُ
البصير عليهما من حيث العملُ بأمرين :

أحدهما : ألا يستعين بهما على معصية .

والآخر : أن يستعملهما في الطاعة .

وكلُّ واحدٍ من الأمرين لا يخلو عن الصبر ؛ فإنَّ الأعمى كُفِيَ الصبرَ عن
الصور الجميلة لأنه لا يراها ، والبصير إذا وقعَ بصره على جميل فصبر .
كان شاكراً لنعمة العينين ، وإن أتبع النظر . كفرَ نعمة العينين ، فقد دخل
الصبرُ في شكره .

وكذا إذا استعان بالعينين على الطاعة.. فلا بدَّ أيضاً فيه من صبرٍ على
الطاعة ، ثمَّ قد يشكرها بالنظر إلى عجائب صنع الله تعالى ، ليتوصل به إلى
معرفة الله سبحانه وتعالى ، فيكون هذا الشكرُ أفضل من الصبر .

ولولا هذا.. لكانت رتبة شعيب عليه السلام مثلاً - وقد كان ضريباً - من
الأنبياء فوق رتبة موسى عليهما السلام وغيره من الأنبياء ؛ لأنه صبر على فقدِ
البصر ، وموسى عليه السلام لم يصبر مثلاً ، وكان الكمال في أن يُسلبَ

الإنسان الأطراف كلها ويترك كلحم على وضم ، وذلك محال جداً ؛ لأن كل واحد من هذه الأعضاء آله في الدين ، فيفوت بفواتها ذلك الركن من الدين ، وشكرها استعمالها فيما هي آله فيه من الدين ، وذلك لا يكون إلا بصبر .

وأما ما يقع في محل الحاجة ؛ كالزيادة على الكفاية من المال . . فإنه إذا لم يؤت إلا قدر الضرورة وهو محتاج إلى ما وراءه . . ففي الصبر عنه مجاهدة ، وهو جهاد الفقراء ، ووجود الزيادة نعمة ، وشكرها أن تصرف إلى الخيرات ، أو ألا تستعمل في المعصية ، فإن أضيف الصبر إلى الشكر الذي هو صرف إلى الطاعة . . فالشكر أفضل ؛ لأنه تضمن الصبر أيضاً ، وفيه فرح بنعمة الله تعالى ، وفيه احتمال ألم في صرفه إلى الفقراء ، وترك صرفه إلى التمتع المباح ، وكان الحاصل يرجع إلى أن شيئين أفضل من شيء واحد ، وأن الجملة أعلى رتبة من البعض ، وهذا فيه خلل ، إذ لا تصح الموازنة بين الجملة وبين أبعاضها .

وأما إذا كان شكره بآلا يستعين به على معصية ، بل يصرفه إلى التمتع المباح . . فالصبر ههنا أفضل من الشكر ، والفقير الصابر أفضل من الغني الممسك ماله الصارف له إلى المباحات ، لا من الغني الصارف ماله إلى الخيرات ؛ لأن الفقير قد جاهد نفسه وكسر نهمتها ، وأحسن الرضا على بلاء الله تعالى ، وهذه الحالة تستدعي - لا محالة - قوة ، والغني أتبع نهمته وأطاع شهوته ، ولكنه اقتصر على المباح ، والمباح فيه مندوحة عن الحرام ، ولكن لا بد من قوة في الصبر عن الحرام أيضاً ، إلا أن القوة التي عنها

يصدُرُ صبرُ الفقيرِ أعلى وأتمُّ من هذهِ القوَّةِ التي عنها يصدُرُ الاقتصارُ في التَّنعمِ على المباحِ ، والشرفُ لتلكِ القوَّةِ التي يدلُّ العملُ عليها ، فإنَّ الأعمالَ لا تُرادُّ إلا لأحوالِ القلوبِ ، وتلكِ القوَّةُ حالةٌ للقلبِ تختلفُ بحسَبِ قوَّةِ اليقينِ والإيمانِ ، فما دلَّ على زيادةِ قوَّةٍ في الإيمانِ فهو أفضلُ لا محالةٌ .

وجميعُ ما وردَ من تفضيلِ أجرِ الصبرِ على أجرِ الشكرِ في الآياتِ والأخبارِ إنما أريدَ به هذهِ الرتبةُ على الخصوصِ ؛ لأنَّ السابقَ إلى أفهامِ الناسِ من النعمةِ الأموالُ والغنى بها ، والسابقَ إلى الأفهامِ من الشكرِ أن يقولَ الإنسانُ : (الحمد لله) ، ولا يستعينَ بالنعمةِ على المعصيةِ ، لا أن يصرَفَها إلى الطاعةِ ، فإذا ؛ الصبرُ أفضلُ من الشكرِ ؛ أي : الصبرُ الذي تفهمُهُ العامَّةُ أفضلُ من الشكرِ الذي تفهمُهُ العامَّةُ .

والى هذا المعنى على الخصوصِ أشارَ الجنيْدُ رحمه الله حيثُ سُئِلَ عن الصبرِ والشكرِ أيُّهما أفضلُ ؟ فقالَ : (ليسَ مدحُ الغنيِّ بالوجودِ ، ولا مدحُ الفقيرِ بالعدمِ ، وإنما المدحُ في الاثنينِ قيامُهما بشروطٍ ما عليهما ، فشرطُ الغنيِّ يصحُّبه فيما عليه أشياءٌ ثلاثٌ صفتهُ وتمتعُها وتلذُّذُها ، والفقيرُ يصحُّبه فيما عليه أشياءٌ ثلاثٌ صفتهُ وتقبُّضُها وترعُّبُها ، فإذا كانَ الاثنانِ قائمينِ لله عزَّ وجلَّ بشرطٍ ما عليهما . . كانَ الذي أَلَمَ صفتهُ وأزعجَها أتمَّ حالاً ممَّنْ متَّعَ صفتهُ ونعمَها)^(١) .

(١) قوت القلوب (٢٠١ / ١) .

والأمرُ على ما قاله ، وهو صحيحٌ مِنْ جملةِ أقسامِ الصبرِ والشكرِ في القسمِ الأخيرِ الذي ذكرناه ، وهو لم يردْ سواه .

ويُقالُ : كانَ أبو العباسِ بنُ عطاءٍ قد خالفه في ذلك وقالَ : (الغنيُّ الشاكرُ أفضلُ مِنَ الفقيرِ الصابرِ) ، فدعا عليه الجنيدُ ، فأصابه ما أصابه مِنَ البلاءِ مِنْ قتلِ أولاده وإتلافِ أمواله وزوالِ عقله أربعَ عشرةَ سنةً ، فكانَ يقولُ : دعوةُ الجنيدِ أصابني ، ورجعَ إلى تفضيلِ الفقيرِ الصابرِ على الغنيِّ الشاكرِ (١) .

ومهما لاحظتَ المعاني التي ذكرناها . . علمتَ أنَّ لكلَّ واحدٍ مِنَ القولينِ وجهاً في بعضِ الأحوالِ ، فربَّ فقيرٍ صابرٍ أفضلُ مِنْ غنيٍّ شاكرٍ كما سبقَ ، وربَّ غنيٍّ شاكرٍ أفضلُ مِنْ فقيرٍ صابرٍ ، وذلكَ هو الغنيُّ الذي يرى نفسه مثلَ الفقيرِ ، إذ لا يمسكُ لنفسه مِنَ المالِ إلا قدرَ الضرورةِ ، والباقي يصرفه إلى الخيراتِ ، أو يمسكه على اعتقادِ أنه خازنُ المحتاجينَ والمساكينَ ، وإنما ينتظرُ حاجةً تسنحُ حتَّى يصرِفَ إليها ، ثمَّ إذا صرفَ . . لم يصرفه لطلبِ جاهٍ وصيتٍ ، ولا لتقليدِ منَّةٍ ، بل أداءٌ لحقِّ الله تعالى في تفقُّدِ عباده ، فهذا أفضلُ مِنَ الفقيرِ الصابرِ .



فإن قلتَ : فهذا لا يثقلُ على النفسِ ، والفقيرُ يثقلُ عليه الفقرُ ؛ لأنَّ

(١) قوت القلوب (٢٠١/١) .

هذا يستشعر لذة القدرة ، وذاك يستشعر ألم الصبر ، فإن كان متألماً بفراق المال . . فينجبر ذلك بلذته في القدرة على الإنفاق .

فاعلم : أن الذي نراه أن من ينفق ماله عن رغبة وطيب نفس أكمل حالاً ممن ينفقه وهو بخيل به ، وإنما يقتطعه عن نفسه قهراً ، وقد ذكرنا تفصيل هذا فيما سبق من كتاب التوبة ، فيلأم النفس ليس مطلوباً لعينه ، بل لتأديبها ، وذلك يضاهي ضرب كلب الصيد ، والكلب المتأدب أكمل من الكلب المحتاج إلى الضرب وإن كان صابراً على الضرب ، ولذلك يحتاج إلى الإيلاء والمجاهدة في البداية ، ولا يحتاج إليهما في النهاية ، بل النهاية أن يصير ما كان مؤلماً في حقه لذياً عنده ، كما يصير التعلّم عند الصبي العاقل لذياً وقد كان مؤلماً له أولاً ، ولكن لما كان الناس كلهم إلا الأقلين في البداية بل قبل البداية بكثير كالصبيان . . أطلق الجنيد القول بأن الذي يؤلم صفته أفضل ، وهو كما قال صحيح فيما أرادته من عموم الخلق .

فاذا ؛ إذا كنت لا تفصل الجواب ، وتطلقه لإرادة الأكثر . . فأطلق القول بأن الصبر أفضل من الشكر ؛ فإنه صحيح بالمعنى السابق إلى الأفهام .

فأما إذا أردت التحقيق . . ففصل ، فإن للصبر درجات أقلها ترك الشكوى مع الكراهة ، ووراءها الرضا ، وهو مقام وراء الصبر ، ووراءه الشكر على البلاء ، وهو وراء الرضا ، إذ الصبر مع التألم والرضا يمكن بما لا ألم فيه ولا فرح ، والشكر لا يمكن إلا على محبوب مفروح به .

وكذلك للشكر درجات كثيرة ، ذكرنا أقصاها ، ويدخل في جملتها أمورٌ دونها ، فإنَّ حياة العبد من تتابع نعم الله عليه شكرٌ ، ومعرفة بتقصيره عن الشكر شكرٌ ، والاعتذار من قلة الشكر شكرٌ ، والمعرفة بعظيم حلم الله وكنف ستره شكرٌ ، والاعتراف بأنَّ النعم ابتداء من الله تعالى من غير استحقاق شكرٌ ، والعلم بأنَّ الشكر أيضاً نعمة من نعم الله وموهبة منه شكرٌ ، وحسن التواضع للنعم والتذلل فيها شكرٌ ، وشكر الوسائط شكرٌ ؛ إذ قال عليه الصلاة والسلام : « مَنْ لَمْ يَشْكِرِ النَّاسَ .. لَمْ يَشْكِرِ اللَّهَ »^(١) ، وقد ذكرنا حقيقة ذلك في كتاب أسرار الزكاة ، وقلة الاعتراض وحسن الأدب بين يدي المنعم شكرٌ ، وتلقي النعم بحسن القبول واستعظام صغيرها شكرٌ .

فما يندرج من الأعمال والأحوال تحت اسم الشكر والصبر لا تنحصر أحادها ، وهي درجات مختلفة ، فكيف يمكن إجمال القول بتفضيل أحدهما على الآخر إلا على سبيل إرادة الخصوص باللفظ العام كما ورد في الأخبار والآثار ؟

وقد روي عن بعضهم أنه قال : رأيتُ في بعض الأسفار شيخاً كبيراً قد طعن في السن ، فسألته عن حاله ، فقال : إنِّي كنتُ في ابتداء عمري أهوى ابنة عم لي ، وهي كذلك كانت تهواني ، فاتفق أنها زوجت مني ، فليلة زفافها قلتُ : تعالي حتَّى نحبي هذه الليلة شكراً لله تعالى على ما جمعنا ،

(١) رواه أبو داود (٤٨١١) ، والترمذي (١٩٥٤) .

فصلينا تلك الليلة ، ولم يتفرغ أحدنا إلى صاحبه ، فلما كانت الليلة الثانية .. قلنا مثل ذلك ، فصلينا طول الليل ، فمند سبعين أو ثمانين سنة نحن على تلك الحالة كل ليلة ، أليس كذلك يا فلانة ؟ قالت العجوز : هو كما يقول الشيخ^(١) .

فانظر إليهما لو صبرا على بلاء الفرقة أن لو لم يجمع الله بينهما ، وانسب صبر الفرقة إلى شكر الوصال على هذا الوجه .. فلا يخفى عليك أن هذا الشكر أفضل .

فإذا ؛ لا وقوف على حقائق المفضلات إلا بتفصيل كما سبق ، والله أعلم .



تم كتاب الصبر والشكر

وهو الكتاب الثاني من ربع المنجيات من كتب إحياء علوم الدين

والحمد لله وحده ، وصلى الله على نبينا محمد وآله أجمعين وسلم

ينلوه كتاب الزجاء والنخوف

(١) الرسالة القشيرية (ص ٣١٥) ، قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (١٦٣/٩) :
(وفائدة ذكر العجوز والشيخ الإعلام بأنهما داما على الاشتغال بالله من حالة الصبا إلى تلك الحالة) .

كِتَابُ
الْحَيَاءِ وَالْخَوْفِ

وهو الكتاب الثالث من ربيع المنجيات
من كتب إحياء علوم الدين

كتاب الرجاء والخوف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله المرجو لطفه وثوابه ، المَخُوفِ مكره وعقابه ، الذي عَمَرَ قلوب أوليائه بروح رجائه ، حتَّى ساقَهُمْ بلطائف آلائه إلى النزولِ بفنائه ، والعدولِ عن دارِ بلائه ، التي هي مستقرُّ أعدائه ، وصرفَ بسياطِ التخويفِ وزجره العنيفِ وجوهَ المعرضين عن حضرته إلى دارِ ثوابه وكرامته ، وصدَّهُم عن التعرُّضِ لأثمته ، والتهدُّفِ لسخطه ونقمته ، قوداً لأصنافِ الخلقِ بسلاسلِ القهرِ والعنفِ وأزمةِ الرفقِ واللطفِ إلى جنَّته .

والصلاةُ على محمدٍ سيِّدِ أنبيائه وخيرِ خليقته ، وعلى آله وأصحابه وعترته .

أما بعد :

فإنَّ الرجاءَ والخوفَ جناحانِ بهما يطيرُ المقرَّبونَ إلى كلِّ مقامٍ محمودٍ ، ومطيَّانِ بهما يُقَطَّعُ مِنْ طَرِقِ الآخرةِ كلُّ عقبيةِ كؤودٍ ، فلا يقوْدُ إلى قُرْبِ الرحمنِ وروحِ الجنانِ معَ كونهِ بعيدَ الأرجاءِ ، ثَقِيلَ الأعباءِ ، محفوفاً بمكارهِ القلوبِ ومشاقِّ الجوارحِ والأعضاءِ .. إلا أزمةُ الرجاءِ ، ولا يصدُّ عن نارِ الجحيمِ والعذابِ المقيمِ معَ كونهِ محفوفاً بلطائفِ الشهواتِ وعجائبِ

اللذات . . إلا سياتُ التخويفِ و سطواتُ التعنيفِ .

فلا بدَّ إِذَا مِنْ بَيَانِ حَقِيقَتِهِمَا وَفَضِيلَتِهِمَا ، وَسَبِيلِ التَّوَصُّلِ إِلَى الْجَمْعِ
بَيْنَهُمَا مَعَ تَضَادِّهِمَا وَتَعَانِدِهِمَا ، وَنَحْنُ نَجْمَعُ ذِكْرَهُمَا فِي كِتَابٍ وَاحِدٍ مُشْتَمِلٍ
عَلَى شَطَرَيْنِ :

الشَطْرُ الْأَوَّلُ : فِي الرَّجَاءِ .

وَالشَطْرُ الثَّانِي : فِي الْخَوْفِ .



الشَّطْرُ الْأَوَّلُ فِي الرَّجَاءِ^(١)

أَمَّا الشَّطْرُ الْأَوَّلُ . . فيشتملُ على بيان حقيقة الرجاء ، وبيان فضيلة الرجاء ، وبيان دواء الرجاء ، والطريق الذي يُجتلبُ به الرجاء .

بيان حقيقة الرجاء

اعلم : أنَّ الرجاءَ مِنْ جملةِ مقاماتِ السالكين ، وأحوالِ الطالبين ، وإنَّما يُسمَّى الوصفُ مقاماً إذا ثبتَ وأقامَ ، وإنَّما يُسمَّى حالاً إذا كانَ عارضاً سريعَ الزوالِ ، وكما أنَّ الصفرةَ تنقسمُ إلى ثابتةٍ ؛ كصفرةِ الذهبِ ، وإلى سريعةِ الزوالِ ؛ كصفرةِ الوجَلِ ، وإلى ما هوَ بينهما ؛ كصفرةِ المريضِ . . فكَذلكَ صفاتُ القلبِ تنقسمُ هذه الأقسامَ ، فالذي هوَ غيرُ ثابتٍ يُسمَّى حالاً ؛ لأنَّه يحولُ على القربِ ، وهذا جارٍ في كلِّ وصفٍ مِنْ أوصافِ القلبِ^(٢) .

وغرضنا الآنَ حقيقةَ الرجاءِ ، فالرجاءُ أيضاً يتمُّ مِنْ علمٍ وحالٍ وعملٍ ، فالعلمُ سببٌ يثمرُ الحالَ ، والحالُ يقتضي العملَ ، وكأنَّ الرجاءَ اسمٌ للحالِ مِنْ جملةِ الثلاثةِ .

(١) العنوان زيادة من اللجنة العلمية .

(٢) فما يعرف وصف من أوصافه إلا وفيه حال ومقام . « إتحاف » (١٦٥ / ٩) .

وبيانه : أن كل ما يلاقيك من مكروه ومحبوب فينقسم إلى موجود في الحال ، وإلى موجود فيما مضى ، وإلى منتظر في الاستقبال ، فإذا خطر ببالك موجود فيما مضى . . سُمِّيَ ذكراً وتذكراً ، وإن كان ما خطر بقلبك موجوداً في الحال . . سُمِّيَ وجداً وذوقاً وإدراكاً ، وإنما سُمِّيَ وجداً لأنها حالة تجدُّها من نفسك^(١) ، وإن كان قد خطر ببالك وجود شيء في الاستقبال ، وغلب ذلك على قلبك . . سُمِّيَ انتظاراً وتوقعاً ؛ فإن كان المنتظر مكروهاً . . حصل منه ألم في القلب يُسمَّى خوفاً وإشفاقاً ، وإن كان محبوباً . . حصل من انتظاره وتعلق القلب به وإخطار وجوده بالبال لذة في القلب وارتياح يُسمَّى ذلك الارتياح رجاءً ، فالرجاء : هو ارتياح القلب لانتظار ما هو محبوب عنده .

ولكن ذلك المحبوب المتوقع لا بد أن يكون له سبب ، فإن كان انتظاره لأجل حصول أكثر أسبابه . . فاسم الرجاء عليه صادق ، وإن كان ذلك انتظاراً مع انخرام أسبابه واضطرابها . . فاسم الغرور والحمق عليه أصدق من اسم الرجاء ، وإن لم تكن الأسباب معلومة الوجود ولا معلومة الانتفاء . . فاسم التمني أصدق على انتظاره ؛ لأنه انتظار من غير سبب .

وعلى كل حال فلا يُطلق اسم الرجاء والخوف إلا على ما يُتردَّد فيه ، أمّا ما يُقطع به . . فلا ؛ إذ لا يُقال : أرجو طلوع الشمس وقت الطلوع ،

(١) وإنما سمي ذوقاً على التشبيه بالذوق الذي هو تناول الشيء بالغم لإدراك الطعم ، وإنما سمي إدراكاً لأنه أحاط عليه علماً بكماله . « إتحاف » (١٦٥ / ٩) .

وأخاف غروبها وقت الغروب ؛ لأنَّ ذلك مقطوعٌ به ، نعم ، يُقال : أرجو نزول المطرِ وأخاف انقطاعه .

وقد علمَ أربابُ القلوب أنَّ الدنيا مزرعةُ الآخرة ، والقلبُ كالأرضِ ، والإيمانُ كالبذرِ فيه ، والطاعاتُ جاريةٌ مجرى تقليبِ الأرضِ وتطهيرها ، ومجرى حفرِ الأنهارِ وسياقةِ الماءِ إليها ، والقلبُ المستهترُ بالدنيا المستغرقُ بها كالأرضِ السَّبخَةِ التي لا ينمو فيها البذرُ ، ويومُ القيامةِ يومُ الحصادِ ، ولا يحصدُ أحدٌ إلا ما زرعَ ، ولا ينمو زرعٌ إلا مِنْ بذرِ الإيمانِ ، وقلَّما ينفعُ إيمانٌ مع خبثِ القلبِ وسوءِ أخلاقِهِ ، كما لا ينمو بذرٌ في أرضٍ سَبَخَةٍ ، فينبغي أن يُقاسَ رجاءُ العبدِ المغفرةَ برجاءِ صاحبِ الزرعِ .

فكلُّ مَنْ طلبَ أرضاً طيبةً ، وألقى فيها بذراً جيداً غيرَ عفنٍ ولا مسوَّسٍ ، ثمَّ أمدَّه بما يحتاجُ إليه وهو سوقُ الماءِ إليه في أوقاته ، ثمَّ نَقَّى الأرضَ عن الشوكِ والحشيشِ وكلِّ ما يمنعُ نباتَ البذرِ أو يفسدُهُ ، ثمَّ جلسَ منتظراً مِنْ فضلِ اللهِ دفعَ الصواعقِ والآفاتِ المفسدةِ إلى أن يتمَّ الزرعُ ويبلغَ غايتهُ . . سُمِّيَ انتظارُهُ رجاءً .

وإنْ بَثَّ البذرَ في أرضٍ صلبةٍ سبخَةٍ مرتفعةٍ لا ينصبُّ إليها الماءُ ، ولم يشتغلْ بتعهُدِ البذرِ أصلاً ، ثمَّ انتظرَ حصادَ الزرعِ منه . . سُمِّيَ انتظارُهُ حمقاً وغروراً ، لا رجاءً .

وإنْ بَثَّ البذرَ في أرضٍ طيبةٍ ، لكنْ لا ماءَ لها ، وأخذَ ينتظرُ مياهِ الأمطارِ حيثُ لا تغلبُ الأمطارُ ولا تمتنعُ أيضاً . . سُمِّيَ انتظارُهُ تمنياً ، لا رجاءً .

فإذا ؛ اسمُ الرجاءِ إنما يصدقُ على انتظارِ محبوبٍ تمهّدتُ جميعُ أسبابِهِ
الداخلَةِ تحتَ اختيارِ العبدِ ، ولم يبقَ إلا ما ليسَ يدخلُ تحتَ اختيارِهِ ، وهو
فضلُ اللهِ تعالى بصرفِ القواطعِ والمفسداتِ .

فالعبدُ إذا بثَّ بذرَ الإيمانِ ، وسقاهُ بماءِ الطاعاتِ ، وطهرَ القلبَ عن
شوكِ الأخلاقِ الرديئةِ ، وانتظرَ مِنْ فضلِ اللهِ تعالى تهيئةً على ذلكِ إلى
الموتِ ، وحسنَ الخاتمةِ المفضيةِ إلى المغفرةِ .. كانَ انتظارُهُ رجاءً
حقيقياً ، محموداً في نفسه ، باعثاً له على المواظبةِ والقيامِ بمقتضى أسبابِ
الإيمانِ في إتمامِ أسبابِ المغفرةِ إلى الموتِ .

وإن قطعَ عن بذرِ الإيمانِ تعهّدهُ بماءِ الطاعاتِ ، أو تركَ القلبَ مشحوناً
برذائلِ الأخلاقِ ، وانهمكَ في طلبِ لذاتِ الدنيا ، ثمَّ انتظرَ المغفرةَ ..
فانتظارُهُ حمقٌ وغرورٌ ، قالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « الأحمقُ مَنْ أتبعَ نفسه
هواها وتمنّى على الله » (١) .

وقالَ تعالى : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ
غِيَاً ۖ ﴾ .

وقالَ تعالى : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى
وَيَقُولُونَ سَيُعَذِّبُنَا ۚ ﴾ .

وذمَّ اللهُ تعالى صاحبَ البستانِ إذ دخلَ جنتَهُ وقالَ : ﴿ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ ۚ ﴾

(١) رواه الترمذي (٢٤٥٩) ، وابن ماجه (٤٢٦٠) .

أَبَدًا ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا ﴾ (١) .
 فإذا ؛ العبدُ المجتهدُ في الطاعات ، المجتنبُ للمعاصي . . حقيقٌ بأن
 ينتظرَ من فضلِ الله تمامَ النعمة ، وما تمامُ النعمة إلا بدخولِ الجنة ، وأما
 العاصي ؛ فإذا تابَ وتداركَ جميعَ ما فرطَ منه من تقصيرٍ . . فحقيقٌ بأن يرجو
 قبولَ التوبة ، وأما قبلَ التوبة إذا كانَ كارهاً للمعصية ، تسوءُهُ السيئةُ وتسرهُ
 الحسنةُ ، وهو يذمُّ نفسه ويلومُها ، ويشتهي التوبةَ ويشتاقُ إليها . . فحقيقٌ
 بأن يرجو من الله التوفيقَ للتوبة ؛ لأنَّ كراهته للمعصية وحرصه على التوبة
 يجري مجرى السببِ الذي قد يفضي إلى التوبة ، وإنَّما الرجاءُ بعدَ تأكُّدِ
 الأسبابِ .

ولذلك قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ﴾ ، معناه : أولئك يستحقُّون أن يرجوا رحمةَ الله ،
 وما أرادَ به تخصيصَ وجودِ الرجاء ؛ لأنَّ غيرَهُم أيضاً قد يرجو ، ولكن
 خصَّصَ بِهِمُ استحقاقَ الرجاءِ .

فأما مَنْ ينهمكُ فيما يكرههُ الله تعالى ، ولا يذمُّ نفسه عليه ، ولا يعزمُ
 على التوبة والرجوع . . فرجاءُ المغفرةِ حمقٌ ؛ كرجاءِ مَنْ بثَّ البذرَ في
 أرضٍ سبخةٍ وعزمَ على ألا يتعهدهُ بسقيٍ ولا تنقيةٍ .

قال يحيى بن معاذٍ : (مِنْ أعظمِ الاغترارِ عندي : التماذي في الذنوبِ

(١) وروى الطبري في « تفسيره » (٣٠٢ / ١٥ / ٩) عن قتادة في وصف صاحب البستان :
 (كفور لنعم ربه ، مكذب ببلقائه ، متمنٍ على الله) .

مع رجاء العفو من غير ندامة ، وتوقع القرب من الله تعالى بغير طاعة ، وانتظار زرع الجنة ببذر النار ، وطلب دار المطيعين بالمعاصي ، وانتظار الجزاء بغير عمل ، والتمني على الله عز وجل مع الإفراط .

تَرْجُو النَّجَاةَ وَلَمْ تَسْلُكْ مَسَالِكَهَا إِنَّ السَّفِينَةَ لَا تَجْرِي عَلَى الْيَسْرِ^(١) فإذا عرفت حقيقة الرجاء ومَظَنَّتُهُ . فقد علمت أنها حالة أثمرها العلم بجريان أكثر الأسباب ، وهذه الحالة تثمر الجهد للقيام ببقية الأسباب على حسب الإمكان ، فَإِنَّ مَنْ حَسَنَ بَذْرُهُ ، وَطَابَتْ أَرْضُهُ ، وَغَزَرَ مَاؤُهُ . . صدق رجاؤه ، فلا يزال يحمله صدق الرجاء على تفقد الأرض وتعهدّها ، وتنحية كل حشيش ينبت فيها ، فلا يفتر عن تعهدّها أصلاً إلى وقت الحصاد ، وهذا لأنّ الرجاء يضادّه اليأس ، واليأس يمنع من التعهد ، فمن عرف أنّ الأرض سبخة ، وأنّ الماء مُعَوِزٌ^(٢) ، وأنّ البذر لا ينبت . . فترك - لا محالة - تفقد الأرض والتعب في تعهدّها .

والرجاء محمود لأنّه باعث ، واليأس مذموم - وهو ضده - لأنّه صارف عن العمل ، والخوف ليس بضد للرجاء ، بل هو رفيق له كما سيأتي بيانه ، بل هو باعث آخر بطريق الرهبة ، كما أنّ الرجاء باعث بطريق الرغبة .

فإذا ؛ حال الرجاء يورث طول المجاهدة بالأعمال ، والمواظبة على الطاعات كيفما تقلّبت الأحوال ، ومن آثاره التلذذ بدوام الإقبال على الله

(١) البيت من البحر البسيط ، وهو لأبي العتاهية في «ديوانه» (ص ١٩٤) .

(٢) معوز : قليل الوجود .

تعالى ، والتنعمُ بمناجاتِهِ ، والتلطفُ في التملُّقِ لَهُ ، فَإِنَّ هَذِهِ الْأَحْوَالَ لَا بَدَّ وَأَنْ تَظْهَرَ عَلَى كُلِّ مَنْ يَرْجُو مَلِكاً مِنَ الْمُلُوكِ أَوْ شَخْصاً مِنَ الْأَشْخَاصِ ، فَكَيْفَ لَا يَظْهَرُ ذَلِكَ فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى ؟ !

فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ لَا يَظْهَرُ . فَلْيَسْتَدَلَّ بِهِ عَلَى الْحَرَمَانِ عَنْ مَقَامِ الرَّجَاءِ ، وَالنُّزُولِ فِي حُضِيضِ الْغُرُورِ وَالتَّمَنِّي .

فَهَذَا هُوَ الْبَيَانُ لِحَالِ الرَّجَاءِ ، وَلَمَّا أَثْمَرَهُ مِنَ الْعِلْمِ ، وَلَمَّا اسْتَثْمَرَ مِنْهُ مِنَ الْعَمَلِ .

وَيَدُلُّ عَلَى إِثْمَارِهِ لِهَذِهِ الْأَعْمَالِ حَدِيثُ زَيْدِ الْخَيْلِ ؛ إِذْ قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : جِئْتُ لَأَسْأَلَكَ عَنْ عِلَامَةِ اللَّهِ فِيمَنْ يَرِيدُ ، وَعِلَامَتِهِ فِيمَنْ لَا يَرِيدُ ، فَقَالَ : « كَيْفَ أَصْبَحْتَ ؟ » قَالَ : أَصْبَحْتُ أَحَبُّ الْخَيْرِ وَأَهْلُهُ ، وَإِذَا قَدَرْتُ عَلَى شَيْءٍ مِنْهُ . . سَارَعْتُ إِلَيْهِ وَأَيَقَنْتُ بِثَوَابِهِ ، وَإِذَا فَاتَنِي شَيْءٌ مِنْهُ . . حَزَنْتُ عَلَيْهِ وَحَنَنْتُ إِلَيْهِ ، فَقَالَ : « هَذِهِ عِلَامَةُ اللَّهِ فِيمَنْ يَرِيدُ ، وَلَوْ أَرَادَكَ بِالْأُخْرَى . . هَيَّاكَ لَهَا ، ثُمَّ لَا يَبَالِي فِي أَيِّ أَوْدِيَّتِهَا هَلَكْتَ » ^(١) ، فَقَدْ ذَكَرَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِلَامَةَ مَنْ أُرِيدَ بِهِ الْخَيْرُ ، فَمَنْ ارْتَجَى أَنْ يَكُونَ مُرَاداً بِالْخَيْرِ مِنْ غَيْرِ هَذِهِ الْعِلَامَاتِ . . فَهُوَ مَغْرُورٌ .



(١) رواه الطبراني في « الكبير » (٢٠٢ / ١٠) ، وابن عدي في « الكامل » (٢٢ / ٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣٧٦ / ١) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه ، وفيه أنه صلى الله عليه وسلم سماه زيد الخير وغير له اسمه .

بيان فضيلة الرجاء والرغيب فيه

اعلم : أنَّ العملَ على الرجاءِ أعلىُّ منه على الخوفِ ؛ لأنَّ أقربَ العبادِ إلى الله تعالى أحبُّهم له ، والحبُّ يغلبُ بالرجاءِ .
واعتبرْ ذلكَ بمَلِكَيْنِ ؛ يُخَدِّمُ أَحَدُهُمَا خَوْفًا مِنْ عِقَابِهِ ، وَالْآخَرُ رَجَاءً لثَوَابِهِ .

ولذلكَ وردَ في الرجاءِ وحسنِ الظنِّ رغائبٌ ، لا سيما في وقتِ الموتِ ، قالَ تعالى : ﴿ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ﴾ ، فحرَّمَ أصلَ اليأسِ .

وفي أخبارٍ يعقوبُ عليه السلامُ أنَّ الله تعالى أوحى إليه : أتدري لِمَ فرَّقْتُ بينَكَ وبينَ يوسفَ ؟ لقولِكَ : أخافُ أنْ يأكلَهُ الذئبُ وأنتمُ عنه غافلونَ ، لِمَ خفتَ الذئبَ ولمَ ترجُني ؟ ولمَ نظرتَ إلى غفلةِ إخوته ولمَ تنظرَ إلى حفظي له ؟^(١) .

وقالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لا يموتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وهوَ يحسنُ الظنَّ بالله تعالى »^(٢) .

وقالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : أنا عندَ ظنِّ عبدي بي ، فليظنَّ بي ما شاء »^(٣) .

(١) قوت القلوب (١/٢١٥) .

(٢) رواه مسلم (٢٨٧٧) .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (٤٩١/٣) ، وابن حبان في « صحيحه » (٦٣٣) ، وأصله في « الصحيحين » .

ودخل صلى الله عليه وسلم على رجل وهو في النزاع ، فقال : « كيف تجدك ؟ » فقال : أجدني أخافُ ذنوبي وأرجو رحمةَ ربِّي ، فقال صلى الله عليه وسلم : « ما اجتماعا في قلب عبد في هذا الموطن إلا أعطاه الله ما رجا ، وأمنه ممّا يخافُ » (١) .

وقال علي رضي الله عنه لرجلٍ أخرجهُ الخوفُ إلى القنوطِ لكثرةِ ذنوبِهِ : (يا هذا ؛ يأسُكَ مِنْ رحمةِ الله أعظمُ مِنْ ذنوبِكَ) (٢) .

وقال سفيانُ : (مَنْ أذنبَ ذنباً فعلمَ أَنَّ اللهَ تعالى قدَرَهُ عليه ورجا غفرانه .. غفر الله له ذنبه ، قال : لأنَّ الله عزَّ وجلَّ عيَّرَ قوماً فقال : ﴿ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَأَيْتُمْ كَذِبَكُمْ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وَظَنَنْتُمْ ظَنِّي السَّوْءَ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴾) (٣) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ اللهَ تعالى يقولُ للعبدِ يومَ القيامةِ : ما منعَكَ إِذْ رَأَيْتَ الْمُنْكَرَ أَنْ تُنْكِرَهُ ؟ فَإِنْ لَقَّاهُ اللهُ حُجَّتَهُ .. قال : يا ربِّ ؛ رجوتُكَ وخفتُ الناسَ ، قال : فيقولُ اللهُ تعالى : قدْ غفرتُهُ لَكَ » (٤) .

(١) رواه الترمذي (٩٨٣) ، والنسائي في « السنن الكبرى » (١٠٨٣٤) ، وابن ماجه (٤٢٦١) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « حسن الظن بالله » (٩٤) بنحوه ، وهو بلفظه هنا في « القوت » (٢١٥ / ١) .

(٣) كذا في « القوت » (٢١٧ / ١) .

(٤) رواه ابن ماجه (٤٠١٧) .

وفي الخبر الصحيح : « أَنَّ رجلاً كَانَ يَدَايْنِ النَّاسِ فَيَسَامُحُ الْغَنِيِّ ،
وَيَتَجَاوِزُ عَنِ الْمَعْسِرِ ، فَلَقِيَ اللَّهَ وَلَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ :
مَنْ أَحَقُّ بِذَلِكَ مِنَّا ؟ فَعَفَا عَنْهُ لِحَسَنِ ظَنِّهِ وَرَجَائِهِ أَنَّهُ يَعْفُو عَنْهُ مَعَ إِفْلَاسِهِ عَنِ
الطَّاعَاتِ » (١) .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا
رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تَجَارَةً لَّنْ نَّبُورَ ﴾ .

وَلَمَّا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ . . لَضَحَكْتُمْ
قَلِيلًا ، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعْدَاتِ تَلْدُمُونَ صُدُورَكُمْ ،
وَتَجَارُونَ إِلَى رَبِّكُمْ » ، فَهَبَطَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ : إِنَّ رَبَّكَ يَقُولُ
لَكَ : لِمَ تَقْنَطُ عِبَادِي ؟ فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ فَرَجَّاهُمْ وَشَوَّقَهُمْ (٢) .

وفي الخبر : إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْحَى إِلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : أَحَبَّنِي ،
وَأَحَبَّ مَنْ يُحِبُّنِي ، وَحَبَّبَنِي إِلَى خَلْقِي ، فَقَالَ : يَا رَبِّ ؛ كَيْفَ أَحَبُّكَ إِلَى
خَلْقِكَ ؟ قَالَ : اذْكُرْنِي بِالْحَسَنِ الْجَمِيلِ ، وَاذْكُرْ آلَائِي وَإِحْسَانِي ، وَذَكِّرْهُمْ

(١) رواه مسلم (١٥٦٠) ولفظه : « تَلَقَّتِ الْمَلَائِكَةُ رُوحَ رَجُلٍ مِّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، فَقَالُوا :
أَعْمَلْتَ مِنَ الْخَيْرِ شَيْئًا ؟ قَالَ : لَا ، قَالُوا : تَذَكَّرْ ، قَالَ : كُنْتُ أَدَايْنِ النَّاسِ ، فَأَمَر
فَتْيَانِي أَنْ يَنْظُرُوا الْمَعْسِرَ وَيَتَجَوَّزُوا عَنِ الْمَوْسِرِ ، قَالَ : قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : تَجَوَّزُوا
عَنْهُ » ، وَهُوَ مُخْتَصَرٌ عِنْدَ الْبُخَارِيِّ (٢٣٩١) .

(٢) كَذَا فِي « الْقَوْتُ » (٢٢٠ / ١) ، وَرَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ فِي « صَحِيحِهِ » (١١٣) ، وَلَيْسَ فِيهِ
ذِكْرُ الصُّعْدَاتِ ، وَهِيَ عِنْدَ أَحْمَدَ فِي « الْمُسْنَدِ » (١٧٣ / ٥) .

ذلك ، فَإِنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَ مِنِّي إِلَّا الْجَمِيلَ^(١) .

وَرُئِيَ أَبَانُ بْنُ أَبِي عِيَّاشٍ فِي النَّوْمِ وَكَانَ يَكْثُرُ ذِكْرُ أَبْوَابِ الرَّجَاءِ ، فَقَالَ :
أَوْقَفَنِي اللَّهُ تَعَالَى بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَقَالَ : مَا الَّذِي حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ ؟ فَقُلْتُ :
أَرَدْتُ أَنْ أَحْبِبَّكَ إِلَى خَلْقِكَ ، فَقَالَ : قَدْ غَفَرْتُ لَكَ^(٢) .

وَرُئِيَ يَحْيَى بْنُ أَكْثَمٍ فِي النَّوْمِ بَعْدَ مَوْتِهِ ، فَقِيلَ لَهُ : مَا فَعَلَ اللَّهُ بِكَ ؟
فَقَالَ : أَوْقَفَنِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَقَالَ : يَا شَيْخَ السَّوِّءِ ؛ فَعَلْتَ وَفَعَلْتَ ، قَالَ :
فَأَخَذَنِي مِنَ الرَّعْبِ مَا يَعْلَمُ اللَّهُ ، ثُمَّ قُلْتُ : يَا رَبِّ ؛ مَا هَكَذَا حُدِّثْتُ
عَنْكَ ، فَقَالَ : وَمَا حُدِّثْتَ عَنِّي ؟ فَقُلْتُ : حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ ، عَنْ مَعْمَرٍ ،
عَنِ الزَّهْرِيِّ ، عَنْ أَنَسٍ ، عَنْ نَبِيِّكَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ عَنْ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ
السَّلَامُ : أَنَّكَ قُلْتَ : أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي ، فليُظَنَّ بِي مَا شَاءَ ، وَكُنْتُ أَظُنُّ
بِكَ أَلَّا تَعَذَّبَنِي ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : صَدَقَ جَبْرِيلُ ، وَصَدَقَ نَبِيِّي ، وَصَدَقَ
أَنَسٌ ، وَصَدَقَ الزَّهْرِيُّ ، وَصَدَقَ مَعْمَرٌ ، وَصَدَقَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ ، وَصَدَقْتَ ،
قَالَ : فَأَلْبَسْتُ وَمَشَى بَيْنَ يَدَيَّ الْوَلَدَانُ إِلَى الْجَنَّةِ ، فَقُلْتُ : يَا لَهَا مِنْ
فَرَحَةٍ^(٣) .

(١) كذا في « القوت » (٢٢٢ / ١) ، وقد رواه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً
البیهقي في « الشعب » (٧٢٦٢) بنحوه ، ورواه ابن أبي شيبة في « المصنف »
(٣٥٣٩٥) عن عبد الله بن الحارث من كلامه .

(٢) قوت القلوب (٢٢٢ / ١) .

(٣) كذا في « القوت » (٢٢٢ / ١) ، ورواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٢٠٦ / ١٤) ،
وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٩١ / ٦٤) .

وفي الخبر : أَنَّ رجلاً مِنْ بني إِسْرَائِيلَ كَانَ يَقْنُطُ النَّاسَ وَيَشَدُّ عَلَيْهِمْ ،
قَالَ : فيقولُ اللهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ : الْيَوْمَ أُوَيْسُكَ مِنْ رَحْمَتِي كَمَا كُنْتَ تَقْنُطُ
عِبَادِي مِنْهَا ^(١) .

وقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنَّ رجلاً يَدْخُلُ النَّارَ ، فيمكثُ فيها
أَلْفَ سَنَةٍ ينادي : يَا حَنَّانُ ، يَا مَنَّانُ ، فيقولُ اللهُ تَعَالَى لِجَبْرِيلَ : اذْهَبْ
فَاتْنِي بِعَبْدِي ، قَالَ : فيجيءُ بِهِ ، فيوقفُهُ عَلَى رَبِّهِ ، فيقولُ اللهُ تَعَالَى : كَيْفَ
وَجَدْتَ مَكَانَكَ ؟ فيقولُ : شَرَّ مَكَانٍ ، قَالَ : فيقولُ : رُدُّوهُ إِلَى مَكَانِهِ ،
قَالَ : فيمشي ويلتفتُ إِلَى ورائِهِ ، فيقولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : إِلَى أَيِّ شَيْءٍ
تَلْتَفْتُ ؟ فيقولُ : لَقَدْ رَجَوْتُ أَلَّا تَعِيدَنِي إِلَيْهَا بَعْدَ إِذْ أَخْرَجْتَنِي مِنْهَا ،
فيقولُ اللهُ تَعَالَى : اذْهَبُوا بِهِ إِلَى الْجَنَّةِ ^(٢) ، فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ رَجَاءَهُ كَانَ
سَبَبَ نَجَاتِهِ ، نَسَأَ اللهُ حَسَنَ التَّوْفِيقِ بِلَطْفِهِ وَكَرَمِهِ .



(١) كَذَا فِي « الْقَوْتُ » (٢٢٣ / ١) ، وَرَوَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ فِي « الْمَصْنَفِ » (٢٨٨ / ١١) ،
وَأَبُو نَعِيمٍ فِي « الْحَلِيَّةِ » (٢٢٢ / ٣) عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ .
(٢) رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي « الْمُسْنَدِ » (٢٣٠ / ٣) ، وَابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي « حَسَنِ الظَّنِّ بِاللَّهِ »
(١٠٩) ، وَأَبُو يَعْلَى فِي « مُسْنَدِهِ » (٤٢١٠) ، وَالْبَيْهَقِيُّ فِي « الشَّعْبِ » (٣١٥) مِنْ
حَدِيثِ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مَرْفُوعاً .

بيان دواء الرجاء والسبيل الذي يحصل منه حال الرجاء ويغلب

اعلم : أنَّ هذا الدواء يحتاجُ إليه أحدُ رجلين : إمَّا رجلٌ غلبَ عليه اليأسُ فتركَ العبادةَ ، وإمَّا رجلٌ غلبَ عليه الخوفُ فأسرفَ في المواظبةِ على العبادةِ حتَّى أضَرَ بنفسِهِ وأهْلِهِ ، وهذانِ رجلانِ مائلانِ عنِ الاعتدالِ إلى طرفي الإفراطِ والتفريطِ ، فيحتاجانِ إلى علاجٍ يردُّهُما إلى الاعتدالِ .

فأمَّا العاصي المغرورُ المتمنيُّ على اللهِ مع الإعراضِ عنِ العبادةِ واقتحامِ المعاصي . . فأدويةُ الرجاءِ تنقلبُ سموماً في حقِّه مهلكةٌ ، وتنزلُ منزلةَ العسلِ الذي هوَ شفاءٌ لمنْ غلبَ عليه البردُ ، وهوَ سَمٌّ مهلكٌ لمنْ غلبَ عليه الحرارةُ ، بلِ المغرورُ لا يُستعملُ في حقِّه إلا أدويةُ الخوفِ ، والأسبابُ المهيِّجةُ لهُ .

فلهذا يجبُ أن يكونَ واعظُ الخلقِ متلطِّفاً ، ناظراً إلى مواقعِ العللِ ، معالِجاً لكلِّ علَّةٍ بما يضادُّها ، لا بما يزيدُ فيها ، فإنَّ المطلوبَ هوَ العدلُ والقصدُ في الصفاتِ والأخلاقِ كلِّها ، وخيرُ الأمورِ أوسطُها ، فإذا جاوزَ الوسطَ إلى أحدِ الطرفين . . عُولِجَ بما يردُّه إلى الوسطِ ، لا بما يزيدُ في ميلِهِ عنِ الوسطِ .

وهذا الزمانُ زمانٌ لا ينبغي أن يُستعملَ فيه مع الخلقِ أسبابُ الرجاءِ ، بلِ المبالغةُ في التخويفِ أيضاً تكادُ ألا تردَّهُمُ إلى جادةِ الحقِّ وسننِ

الصواب ، فأما ذكر أسباب الرجاء .. فيهلكهم ويرديهم بالكليّة ، ولكنها لما كانت أخفّ على القلوب ، وألذّ عند النفوس ، ولم يكن غرض الوعّاظ إلا استمالة القلوب ، واستنطاق الخلق بالثناء كيفما كانوا .. مالوا إلى الرجاء ، حتّى ازداد الفساد فساداً ، وازداد المنهمكون في طغيانهم تمادياً .

قال عليّ كرّم الله وجهه : (إنّما العالم الذي لا يقنط الناس من رحمة الله تعالى ، ولا يؤمنهم من مكر الله)^(١) .

ونحن نذكر أسباب الرجاء لتستعمل في حقّ الآيس ، أو فيمن غلب عليه الخوف ؛ اقتداءً بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلّم ، فإنّهما مشتملان على الخوف والرجاء جميعاً ؛ لأنّهما جامعان لأسباب الشفاء في حقّ أصناف المرضى ، ليستعمله العلماء الذين هم ورثة الأنبياء بحسب الحاجة استعمال الطبيب الحاذق ، لا استعمال الأخرق الذي يظنّ أنّ كلّ شيء من الأدوية صالح لكلّ مريض كيفما كان !



وحال الرجاء يغلب بشيئين :

أحدهما : الاعتبار .

(١) كذا في « القوت » (٢٢٢ / ١) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٧٧ / ١) بلفظ : (ألا إنّ الفقيه كلّ الفقيه الذي لا يقنط الناس من رحمة الله ، ولا يؤمنهم من عذاب الله ، ولا يرخص لهم في معاصي الله ، ولا يدع القرآن رغبة عنه إلى غيره ، ولا خير في عبادة لا علم فيها ، ولا خير في علم لا فهم فيه ، ولا خير في قراءة لا تدبر فيها) .

والآخر : استقراء الآيات والأخبار والآثار .

أما الاعتبار^(١) : فهو أن يتأمل جميع ما ذكرناه في أصناف النعم من كتاب الشكر ، حتى إذا علم لطائف نعم الله تعالى لعباده في الدنيا ، وعجائب حكمه التي راعاها في فطرة الإنسان ، حتى أعد له في الدنيا كل ما هو ضروري له في دوام الوجود ؛ كآلات الغذاء ، وما هو محتاج إليه كالأصابع والأظفار ، وما هو زينة له ؛ كاستقواس الحاجبين ، واختلاف ألوان العينين ، وحمرة الشفتين ، وغير ذلك مما كان لا ينشأ بفقد غرض مقصود ، وإنما كان يفوت به مزية جمال ، فالعناية الإلهية إذا لم تقصر عن عباده في أمثال هذه الدقائق ، حتى لم يرض لعباده أن تفوتهم المزايد والمزايا في الزينة والحاجة . . كيف يرضى بسياقهم إلى الهلاك المؤبد ؟!

(١) الاعتبار هنا : استقراء أول الوجود ، فإنك ترى الوجود من قمة العرش إلى منتهى الفرش خيراً كله ، ولم يكن فيه من الشر إلا ما ينسب إلى جنس المكلفين ، والمكلفون في جزء يسير من الأرض ، والأرض جزء يسير من الدنيا ، وما الدنيا في الآخرة إلا كما يضع أحدكم إصبعه في اليم ، وهذا ظاهر في الاستقراء ؛ لأن عالم الآخرة أوسع من عالم الدنيا ، بل ملك من الملائكة يعدل الخلق أجمع ، فموجبات الرحمة في الوجود أكثر من موجبات الغضب ، ولذلك آثار كثيرة أثنى بها على نفسه فقال : الرحمن ، الرحيم ، الفتاح ، الكريم ، الجواد ، الأكرم ، التواب ، الوهاب ، العفو ، الغفور ، الشكور ، الصمد ، المجيب ، الودود ، البر ، الرزاق ، اللطيف ، الرؤوف ، المحسن ، المنعم ، المنان ، الرفيق ، الهادي ، مع ما يضاف إلى هذا من الرضا والمحبة والذكر والمشي والهولة ، وما أشبه هذا ، فالنظر إلى آثار هذه الأفعال وما ورد من الأخبار في فضائل الأعمال شفاء للإياس ، وترويح للخائف ، وترغيب للمعتدل . « إتحاف » (١٧٣ / ٩) .

بل إذا نظرَ الإنسانُ نظراً شافياً . . علمَ أنَّ أكثرَ الخلقِ قد هُيئَ له أسبابُ السعادةِ في الدنيا ، حتَّى إِنَّهُ يكرهُ الانتقالَ مِنَ الدنيا بالموتِ وإنْ أُخبرَ بأنَّهُ لا يُعَذَّبُ بعدَ الموتِ مثلاً أو لا يُحسَرُ أصلاً ، فليستْ كراهِتُهُمُ للعدمِ إلا لأنَّ أسبابَ النعمِ أغلبُ لا محالةً ، وإنَّما الذي يتمنَّى الموتَ نادرٌ ، ثمَّ لا يتمنَّاهُ إلا في حالةٍ نادرةٍ ، وواقعةٍ هاجمةٍ غريبةٍ .

فإذا كانَ حالُ أكثرِ الخلقِ في الدنيا الغالبُ عليه الخيرُ والسلامةُ ، فسِنَّةُ اللَّهِ لا تجدُ لها تبديلاً . . فالغالبُ أنَّ أمرَ الآخرةِ هكذا يكونُ ؛ لأنَّ مدبِّرَ الدنيا والآخرةِ واحدٌ ، وهوَ غفورٌ رحيمٌ ، لطيفٌ بعبادِهِ ، متعطفٌ عليهم .

فهذا إذا تؤمَّلَ حقَّ التأملِ . . قويَ به أسبابُ الرجاءِ .

وَمِنَ الاعتبارِ أيضاً النظرُ في حكمةِ الشريعةِ وسننها في مصالحِ الدنيا ، ووجهِ الرحمةِ للعبادِ بها ، حتَّى كانَ بعضُ العارفينَ يرى آيةَ المداينةِ في سورةِ البقرةِ مِنْ أقوى أسبابِ الرجاءِ ، فقيلَ له : وما فيها مِنَ الرجاءِ ؟ فقالَ : الدنيا كُلُّها قليلٌ ، ورزقُ الإنسانِ منها قليلٌ ، والدينُ قليلٌ مِنْ رزقه ، فانظرُ كيفَ أنزلَ اللهُ تعالى فيه أطولَ آيةٍ ليهدي عبدهُ إلى طريقِ الاحتياطِ في حفظِ دينِهِ ، فكيفَ لا يحفظُ دينَهُ الذي لا عوضَ له منه ؟ !



الفن الثاني : استقراء الآيات والأخبار : فما ورد في الرجاء خارج عن الحصر .

أما الآيات :

فقد قال الله تعالى : ﴿ قُلْ يَعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ ، وفي قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ولا يبالي » ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ ^(١) .

وقال تعالى : ﴿ وَالْمَلَكُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ .

وأخبر تعالى أن النار أعدّها لأعدائه ، وإنما خوّف بها أولياءه فقال : ﴿ لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ﴾ لا يصلّنها إلا الآشقى ﴿ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ ﴾ .

ويقال : إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يزل يسأل في أمته حتى قيل

(١) رواه الترمذي (٣٢٣٧) عن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها أنها سمعته صلى الله عليه وسلم يقرؤها كذا .

له : أما ترضى وقد أنزلت عليك هذه الآية : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ ﴾ ؟ (١) .

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ قال : « لا يرضى محمدٌ وأحدٌ من أُمَّته في النار » (٢) .

وكان أبو جعفر محمد بن علي يقول : أنتم - أهل العراق - تقولون : أرجى آية في كتاب الله عز وجل قوله : ﴿ قُلْ يَعْبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ... ﴾ الآية ، ونحن - أهل البيت - نقول : أرجى آية في كتاب الله تعالى قوله تعالى : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ (٣) .



وأما الأخبار :

فقد روى أبو موسى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أمتي أمةٌ مرحومةٌ ، لا عذابَ عليها في الآخرة ، عَجَّلَ عقابُها في الدنيا ؛ الزلازلُ

(١) كذا في « القوت » (٢١٣/١) ، وقد روى ابن أبي حاتم في « تفسيره » (١٢١٤٥) عن سعيد بن المسيب قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لولا عقوبة الله وتجاوزه .. ما هنا أحد العيش ، ولولا وعيده وعقابه .. لا تُكَلَّ كل أحد » .

(٢) رواه الخطيب في « تلخيص المتشابه » (١٧٣/١) ، والديلمى في « مسند الفردوس » (٧١٧٩) .

(٣) كذا في « القوت » (٢١٣/١) ، ورواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٥٠٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٧٩/٣) .

والفتن ، فإذا كان يوم القيامة . . دُفِعَ إِلَى كُلِّ رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، فَقِيلَ : هَذَا فِدَاؤُكَ مِنَ النَّارِ « (١) .

وفي لفظٍ آخَرَ : « يَأْتِي كُلُّ رَجُلٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٍّ أَوْ نَصْرَانِيٍّ إِلَى جَهَنَّمَ فَيَقُولُ : هَذَا فِدَائِي مِنَ النَّارِ ، فَيُلْقَى فِيهَا » (٢) .

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « الْحَمَى مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ ، وَهِيَ حَظُّ الْمُؤْمِنِ مِنَ النَّارِ » (٣) .

وَرُويَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ ﴾ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْحَى إِلَى نَبِيِّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنِّي أَجْعَلُ حَسَابَ أُمَّتِكَ إِلَيْكَ ، قَالَ : « لَا يَارَبِّ ، أَنْتَ خَيْرٌ لَهُمْ مِنِّي » ، فَقَالَ : إِذَا ؛ لَا نَخْزِيكَ فِيهِمْ (٤) .

(١) كَذَا فِي « الْقَوْتُ » (٢١٣ / ١) ، وَالْحَدِيثُ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ (٤٢٧٨) دُونَ قَوْلِهِ : (فَإِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . .) ، وَهَذِهِ رَوَاهَا ابْنُ مَاجَهَ (٤٢٩٢) مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

(٢) رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي « الْمُسْنَدِ » (٤٠٧ / ٤) بِلَفْظِهِ هُنَا ، وَبِنَحْوِهِ عِنْدَ مُسْلِمٍ (٢٧٦٧) .

(٣) رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي « الْمُسْنَدِ » (٢٥٢ / ٥) مِنْ حَدِيثِ أَبِي أَمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعاً بِلَفْظٍ : « الْحَمَى مِنْ كَبِيرِ جَهَنَّمَ ، فَمَا أَصَابَ الْمُؤْمِنَ مِنْهَا كَانَ حَظَّهُ مِنَ النَّارِ » .

(٤) كَذَا فِي « الْقَوْتُ » (٢١٣ / ١) ، وَقَدْ رَوَاهُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي « حَسَنِ الظَّنِّ بِاللَّهِ » (٦٢) عَنْ الْحُسَيْنِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ شَيْخٍ مِنْ قُرَيْشٍ وَذَكَرَهُ ، وَرَوَى أَحْمَدُ فِي « الْمُسْنَدِ » (٣٩٣ / ٥) عَنْ حَذِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : غَابَ عَنَّا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا ، فَلَمْ يَخْرُجْ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ لَنْ يَخْرُجَ ، فَلَمَّا خَرَجَ . . سَجَدَ سَجْدَةً ، فَظَنْنَا أَنَّ نَفْسَهُ قَدْ قَبِضَتْ فِيهَا ، فَلَمَّا رَفَعَ رَأْسَهُ قَالَ : « إِنَّ رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى اسْتَشَارَنِي فِي أُمَّتِي مَاذَا أَفْعَلُ بِهِمْ ، فَقُلْتُ : مَا شِئْتَ أَيُّ رَبِّ ، هُمْ خَلْقُكَ وَعِبَادُكَ ، فَاسْتَشَارَنِي الثَّانِيَةَ ، فَقُلْتُ لَهُ كَذَلِكَ ، فَقَالَ : لَا أَحْزَنُكَ فِي أُمَّتِكَ يَا مُحَمَّدُ . . » الْحَدِيثُ .

وروي عن أنس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل ربه في ذنوب أمته فقال : « يا رب ، اجعل حسابهم إليّ لثلاث يطلع عليّ مساوئهم غيري » ، فأوحى الله تعالى إليه : هم أمّتك ، وهم عبادي ، وأنا أرحمهم بهم منك ، لا أجعل حسابهم إليّ غيري ؛ لثلاث تنظر في مساوئهم أنت ولا غيرك^(١) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « حياتي خير لكم ، وموتي خير لكم ، أمّا حياتي .. فأسرّ لكم السنن ، وأسرّع لكم الشرائع ، وأمّا موتي .. فإنّ أعمالكم تعرض عليّ ؛ فما رأيت منها حسناً .. حمدت الله عليه ، وما رأيت منها سيئاً .. استغفرت الله تعالى لكم »^(٢) .

وقال صلى الله عليه وسلم يوماً : « يا كريم العفو » ، فقال جبريل عليه السلام : أتدري ما تفسير يا كريم العفو ؟ هو أن عفا عن السيئات برحمته ، ثمّ بدّلها حسنات بكرمه^(٣) .

(١) كذا في « القوت » (٢١٣/١) حيث قال : (وروينا في خبر سلمة بن وردان ، عن أنس بن مالك : أن رسول الله ...) وذكره .

(٢) رواه ابن سعد في « طبقاته » (١٧٤/٢) ، والبزار في « مسنده » (١٩٢٥) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٦٨٦) بنحوه .

(٣) كذا في « القوت » (٢١٣/١) ، وفيه : (أنّه) بدل (أن) المخففة ، وقد رواه أبو الشيخ في « العظمة » (١٨٠) عن عتبة بن الوليد قال : (سمع جبريل إبراهيم الخليل ...) ولم يذكره عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وكذا رواه البيهقي في « الشعب » (٦٦٤٣) عن بعض الرهاويين .

وسمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً يقول : اللهم ، إنني أسألك تمام النعمة فقال : « هل تدري ما تمام النعمة ؟ » قال : لا ، قال : « دخول الجنة » (١) .

فقال العلماء : قد أتم نعمته علينا برضاه الإسلام لنا ؛ إذ قال تعالى : ﴿ وَأَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ .

وفي الخبر : « إذا أذنب العبدُ فاستغفرَ الله . . يقولُ الله عز وجل لملائكته : انظروا إلى عبيدي ، أذنب ذنباً ، فعلم أن له رباً يغفرُ الذنوبَ ويأخذُ بالذنب ، أشهدُكم أنني قد غفرتُ له » (٢) .

وفي الخبر : « لو أذنب العبدُ حتى تبلغَ ذنوبُهُ عَنَانَ السماءِ . . غفرتها له ما استغفرتني ورجاني » (٣) .

وفي الخبر : « لو لقيني عبيدي بِقُرَابِ الأرضِ ذنباً . . لقيته بِقُرَابِ الأرضِ مغفرةً » (٤) .

وفي الحديث : « إنَّ الملكَ ليرفعُ القلمَ عن العبدِ إذا أذنبَ ستَّ ساعاتٍ ، فإنَّ تابَ واستغفرَ . . لم يكتبْهُ عليه ، وإلا . . كتبَها سيئةً » ، وفي

(١) رواه الترمذي (٣٥٢٧) ، وأحمد في « المسند » (٢٣١/٥) .

(٢) رواه البخاري (٧٥٠٧) ، ومسلم (٢٧٥٨) بنحوه .

(٣) رواه الترمذي (٣٥٤٠) من حديث أنس رضي الله عنه ، ومطلعه : « يا بن آدم ؛ إنك ما دعوتني . . . الحديث .

(٤) رواه مسلم (٢٦٨٧) ومطلعه : (من جاء بالحسنة . . فله عشر أمثالها . . . الحديث .

لفظ آخر : « فإذا كتبها عليه وعمل حسنة .. قال صاحب اليمين لصاحب الشمال وهو أمير عليه : ألق هذه السيئة حتى ألقى من حسناته واحدة من تضعيف العشر وأرفع له تسع حسنات ، فتلقى عنه هذه السيئة »^(١) .

وروى أنس في حديث : أنه عليه الصلاة والسلام قال : « إذا أذنب العبد ذنباً .. كُتِبَ عليه » ، فقال أعرابي : فإن تاب عنه ؟ قال : « مُحِيَ عنه » ، قال : فإن عاد ؟ قال عليه الصلاة والسلام : « يكتب عليه » ، فقال الأعرابي : فإن تاب ؟ قال : « مُحِيَ من صحيفته » ، قال : إلى متى ؟ قال : « إلى أن يستغفر ويتوب إلى الله عز وجل » ، إن الله لا يملأ من المغفرة حتى يملأ العبد من الاستغفار ، فإذا هم العبد بحسنة .. كتبها صاحب اليمين حسنة قبل أن يعملها ، فإن عملها .. كُتِبَتْ عشر حسنات ، ثم يضاعفها الله

(١) كذا في « القوت » (٢١٤ / ١) بروايته وسياقه ، وقد رواه هناد في « الزهد » (٩٢٠) عن أبي أمامة رضي الله عنه مرفوعاً : « الملك الذي على اليمين أمير على الملك الذي على الشمال ، فإذا عمل حسنة .. قال لصاحب الشمال : اكتبها ، وإذا عمل سيئة .. قال له : دعها ، لا تكتبها سبع ساعات ؛ لعله يستغفر » ورواه الطبراني في « الكبير » (١٩١ / ٨) بنحوه وفيه : « وإذا عمل سيئة .. قال له صاحب اليمين : امكث ست ساعات ، فإن استغفر .. لم يكتب عليه ، وإلا .. أثبت عليه سيئة » . ورواه مطولاً الطبري في « تفسيره » (١٤٧ / ١٣ / ٨) عن عثمان بن عفان رضي الله عنه وقد سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : كم مع العبد من ملك ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « ملك على يمينك على حسناتك ، وهو أمين على الذي على الشمال ، فإذا عملت حسنة .. كتبت عشرأ ، وإذا عملت سيئة .. قال الذي على الشمال للذي على اليمين : أكتب ؟ قال : لا ؛ لعله يستغفر الله ويتوب .. » الحديث .

عزَّ وجلَّ إلى سبع مئة ضعفٍ ، وإذا همَّ بخطيئةٍ .. لم تُكْتَبْ عليه ؛ فإن عملها .. كُتِبَتْ خطيئةً واحدةً ، ووراءها حسنُ عفوِ الله عزَّ وجلَّ» (١) .

وجاء رجلٌ إلى النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ إنِّي لا أصومُ إلا الشهرَ لا أزيدُ عليه ، ولا أصلي إلا الخمسَ لا أزيدُ عليها ، وليسَ اللهُ في مالي صدقةٌ ولا حجٌّ ولا تطوُّعٌ ، أينَ أنا إذا مثَّ ؟ فتبسَّم رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وقالَ : « نعم ، معي إذا حفظتَ قلبك من اثنتين : الغلِّ والحسدِ ، ولسانك من اثنتين : الغيبةِ والكذبِ ، وعينيك من اثنتين : النظرِ إلى ما حرَّم اللهُ ، وأنْ تزدرِي بهما مسلماً .. دخلتَ معي الجنةَ على راحتيَّ هاتينِ » (٢) .

وفي الحديثِ الطويلِ لأنسٍ : أنَّ الأعرابيَّ قالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ مَنْ يلي حسابَ الخلقِ ؟ فقالَ : « اللهُ تبارك وتعالى » ، قالَ : هو بنفسِه ؟ قالَ : « نعم » ، فتبسَّم الأعرابيُّ ، فقالَ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « ممَّ ضحكتَ يا أعرابيُّ ؟ » فقالَ : إنَّ الكريمَ إذا قدر .. عفا ، وإذا حاسبَ .. سامح ،

(١) كذا في « القوت » (٢١٤ / ١) ، ونعته بحديث أنس الطويل ، وستأتي قطعة منه بعد الخبر الآتي . وقد روى البيهقي في « الشعب » (٦٦٨٨) عن أنس رضي الله عنه قال : جاء رجل فقال : يا رسول الله ؛ إنني أذنب ، قال : « استغفر ربك » ، قال : فاستغفر ثم أعود ، قال : « فإذا عدت .. فاستغفر ربك » ثلاث مرات أو أربعاً - شك عمر - فقال : « استغفر ربك حتى يكون الشيطان هو المحسور » ، والحديث عن غيره متوازع معناه في الصحيح .

(٢) قوت القلوب (٢١٥ / ١) .

فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « صَدَقَ الْأَعْرَابِيُّ ، أَلَا وَلَا كَرِيمَ أَكْرَمَ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى ، هُوَ أَكْرَمُ الْأَكْرَمِينَ » ، ثُمَّ قَالَ : « فَقَهُ الْأَعْرَابِيُّ »^(١) ، وَفِيهِ أَيْضاً : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى شَرَّفَ الْكَعْبَةَ وَعَظَّمَهَا ، وَلَوْ أَنَّ عَبْدًا هَدَمَهَا حَجْرًا حَجْرًا ثُمَّ أَحْرَقَهَا . . مَا بَلَغَ جَزْمَ مَنْ اسْتَخَفَّ بُولِيٍّ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى » ، قَالَ الْأَعْرَابِيُّ : وَمَنْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ تَعَالَى ؟ قَالَ : « الْمُؤْمِنُونَ كُلُّهُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ تَعَالَى ، أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ ؟ »^(٢) .

وَفِي بَعْضِ الْأَخْبَارِ : « الْمُؤْمِنُ أَفْضَلُ مِنَ الْكَعْبَةِ »^(٣) ، وَ« الْمُؤْمِنُ طَيِّبٌ طَاهِرٌ »^(٤) ، وَ« الْمُؤْمِنُ أَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْمَلَائِكَةِ »^(٥) .

(١) كَذَا فِي « الْقُوتِ » (٢١٤ / ١) ، وَهُوَ قِطْعَةٌ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ الْمَنْقُولِ قَبْلَ الْخَبَرِ السَّابِقِ ، قَالَ الْحَافِظُ الْعِرَاقِيُّ : (لَمْ أَجِدْ لَهُ أَصْلًا) . « إِتْحَافٌ » (١٧٩ / ٩) .

(٢) كَذَا فِي « الْقُوتِ » (٢١٤ / ١) .

(٣) رَوَى ابْنُ مَاجَهَ (٣٩٣٢) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَطُوفُ بِالْكَعْبَةِ وَيَقُولُ : « مَا أَطْيَبُكَ وَأَطْيَبَ رِيحُكَ ، مَا أَعْظَمَكَ وَأَعْظَمَ حَرَمَتَكَ ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ؛ لِحَرَمَةِ الْمُؤْمِنِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ حَرَمَةً مِنْكَ مَا لَهُ وَدَمُهُ وَأَنْ نَظُنَّ بِهِ إِلَّا خَيْرًا » .

(٤) هَذَا الْخَبَرُ وَالَّذِي قَبْلَهُ وَالَّذِي بَعْدَهُ فِي خَبَرٍ مَفْرُودٍ عِنْدَ صَاحِبِ « الْقُوتِ » (٢١٥ / ١) ، وَعِنْدَ الْبُخَارِيِّ (٢٨٥) ، وَمُسْلِمٍ (٣٧١) .

(٥) رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهَ (٣٩٤٧) وَلَفْظُهُ : « الْمُؤْمِنُ أَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ بَعْضِ مَلَائِكَتِهِ » ، وَرَوَى وَكِيعٌ فِي « الزَّهْدِ » (٨٤) ، وَابْنُ أَبِي حَتْمٍ فِي « الشَّعْبِ » (١٥٠) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَوْقُوفًا عَلَيْهِ : (الْمُؤْمِنُ أَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ عِنْدَهُ) .

وفي الخبر : (خلق الله تعالى جهنم من فضل رحمته سوطاً يسوق الله به عباده إلى الجنة)^(١) .

وفي خبر آخر : (يقول الله عز وجل : إنما خلقتُ الخلق ليربحوا عليّ ، ولم أخلقهم لأربح عليهم)^(٢) .

وفي حديث أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما خلق الله تعالى شيئاً إلا جعل له ما يغلبه ، وجعل رحمته تغلب غضبه »^(٣) .

وفي الخبر المشهور : « إن الله تعالى كتب على نفسه قبل أن يخلق الخلق : إن رحمتي تغلب غضبي »^(٤) .

= وروى البيهقي في « الشعب » (١٥١) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من شيء أكرم على الله من ابن آدم » ، قال : قيل : يا رسول الله ؛ ولا الملائكة ؟ قال : « الملائكة مجبورون بمنزلة الشمس والقمر » .

(١) كذا في « القوت » (٢١٩/١) ، وعند البخاري (٣٠١٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « عجب الله من قوم يدخلون الجنة في السلاسل » .

(٢) كذا في « القوت » (٢١٩/١) ، وأورده القشيري في « رسالته » (ص ٢٥١) من قول داود عليه السلام .

(٣) رواه الحاكم في « المستدرک » (٢٤٩/٤) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٦٢٠٧) ، ورواه عبد الرزاق في « المصنف » (٤٦٣/١١) عن زيد بن أسلم مرسلاً .

(٤) رواه البخاري (٧٥٥٣) ، ومسلم (٢٧٥١) .

وعن معاذ بن جبل وأنس بن مالك أنه صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ .. دَخَلَ الْجَنَّةَ »^(١) ، و« مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ .. لَمْ تَمْسُهُ النَّارُ »^(٢) ، و« مَنْ لَقِيَ اللَّهَ لَا يَشْرِكُ بِهِ شَيْئاً .. حُرِّمَتْ عَلَيْهِ النَّارُ »^(٣) ، و« لَا يَدْخُلُهَا مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيْمَانٍ »^(٤) .

وفي خبر آخر : « لَوْ عَلِمَ الْكَافِرُ سَعَةَ رَحْمَةِ اللَّهِ .. مَا أَيْسَ مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ »^(٥) .

ولمَّا تلا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى : ﴿ إِنَّا زَلَّزَلْنَا السَّاعَةَ شَفْءٌ عَظِيمٌ ﴾ .. قَالَ : « أَتَدْرُونَ أَيَّ يَوْمٍ هَذَا ؟ هَذَا يَوْمٌ يُقَالُ لَأَدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : قُمْ فَابْعَثْ بَعَثَ النَّارِ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ ، فيقول : كم ؟ فيقال : مِنْ كُلِّ

(١) كذا في « القوت » (٢١٩/١) مع الأخبار الثلاثة الآتية بالفاظها وسياقها ، وقد رواه النسائي في « عمل اليوم والليلة » (١١٤١) من حديث معاذ : « اعلم أن من شهد أن لا إله إلا الله .. دخل الجنة » ، وعنده من حديث أنس عن معاذ مرفوعاً كذلك : « من مات يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله موقناً من قلبه .. دخل الجنة » .

(٢) رواه أبو داود (٣١١٦) وفيه : (دخل الجنة) بدل (لم تمسه النار) .

(٣) رواه البخاري (١٢٩) عن أنس رضي الله عنه قال : ذكر لي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ بن جبل : « من لقي الله لا يشرك به شيئاً .. دخل الجنة » ، وهو عند مسلم (٩٣) من حديث جابر رضي الله عنه .

(٤) رواه أحمد في « المسند » (٤١٦/١) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً ولفظه : « ولا يدخل النار رجل في قلبه مثقال ذرة من إيمان » ، وجاء عند البخاري (٧٤٤٠) ، ومسلم (١٨٣) إخراج من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان أو خير من النار .

(٥) رواه البخاري (٦٤٦٩) ، ومسلم (٢٧٥٥) .

ألف تسع مئة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة ، قال : فأبلس القوم ، وجعلوا يكون ، وتعطلوا يومهم عن الأشغال والعمل ، فخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « ما لكم لا تعملون ؟ » فقالوا : ومن يشتغل بعمل بعد ما حدثنا بهذا ؟ فقال : « كم أنتم في الأمم ؟ أين تاويل وتاريس ومنسك ويأجوج ومأجوج ؟ أمم لا يحصيها إلا الله عز وجل ، إنما أنتم في سائر الأمم كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود ، والرقمة في ذراع الدابة » (١) .

فانظر كيف كان يسوق الخلق بسياط الخوف ، ويقودهم بأزمة الرجاء إلى الله تعالى ؛ إذ ساقهم بسياط الخوف أولاً ، فلما خرج ذلك بهم عن حد الاعتدال إلى إفراط اليأس . . داوهم بدواء الرجاء ، وردهم إلى الاعتدال والقصد ، والآخر لم يكن مناقضاً للأول ، ولكن ذكر في الأول ما رآه سبباً للشفاء واقتصر عليه ، فلما احتاجوا إلى المعالجة بالرجاء . . ذكر تمام الأمر .

فعلى الواعظ أن يقتدي بسيّد الوعّاظ ، فيتلفّظ في استعمال أخبار الخوف والرجاء بحسب الحاجة ، بعد ملاحظة العلل الباطنة ، وإن لم يراع

(١) رواه الترمذي (٣١٦٨) بالفاظ مقاربة ، وأصله عند البخاري (٣٣٤٨) ، ومسلم (٢٢٢) ، وليس عندهم ذكر تاويل وتاريس ومنسك ، ووقع ذكرهم عند الطبري في « تهذيب الآثار » مسند ابن عباس (٧١٤) ، والرقمة هنا : الهنة الناتئة في ذراع الدابة من داخل ، وهما رقمتان في ذراعيها .

ذلك . . كَانَ مَا يَفْسُدُهُ بوعِظِهِ أَكْثَرَ مِمَّا يَصْلُحُهُ .

وفي الخبر : « لَوْ لَمْ تَذْنِبُوا . . لَخَلَقَ اللَّهُ خَلْقًا يَذْنِبُونَ لِيُغْفَرَ لَهُمْ » ،
وفي لفظٍ آخَرَ : « لَذَهَبَ بِكُمْ وَجَاءَ بِخَلْقٍ آخَرَ يَذْنِبُونَ فَيُغْفَرُ لَهُمْ ، إِنَّهُ هُوَ
الْغَفُورُ الرَّحِيمُ »^(١) .

وفي الخبر : « لَوْ لَمْ تَذْنِبُوا . . لَخَشِثَ عَلَيْكُمْ مَا هُوَ شَرٌّ مِنَ
الذَّنُوبِ » ، قِيلَ : وَمَا هُوَ ؟ قَالَ : « الْعُجْبُ »^(٢) .

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ؛ اللَّهُ أَرْحَمُ بِعَبْدِهِ
الْمُؤْمِنِ مِنَ الْوَالِدَةِ الشَّفِيقَةِ بَوْلِدِهَا »^(٣) .

وفي الخبر : « لِيُغْفِرَنَّ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَغْفِرَةً مَا خَطَرَتْ قَطُّ عَلَى
قَلْبِ أَحَدٍ ، حَتَّى إِنَّ إبْلِسَ لِيَتَطَاوَلُ لَهَا رَجَاءً أَنْ تُصِيبَهُ »^(٤) .

وفي الخبر : « إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى مِثَّةَ رَحْمَةٍ ، ادَّخَرَ مِنْهَا عِنْدَهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ
رَحْمَةً ، وَأَظْهَرَ مِنْهَا فِي الدُّنْيَا رَحْمَةً وَاحِدَةً ، فَبِهَا يَتَرَاخَمُ الْخَلْقُ ، فَتَحْنُ
الْوَالِدَةُ إِلَى وَلَدِهَا ، وَتَعْطِفُ الْبَهِيمَةُ عَلَى وَلَدِهَا ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ . .
ضُمَّ هَذِهِ الرَّحْمَةُ إِلَى التَّسْعِ وَالتَّسْعِينَ ثُمَّ بَسَطَهَا عَلَى جَمِيعِ خَلْقِهِ ، وَكُلُّ

(١) رواه مسلم (٢٧٤٨ ، ٢٧٤٩) .

(٢) رواه البزار في « مسنده » (٦٩٣٦) .

(٣) رواه البخاري (٥٩٩٩) ، ومسلم (٢٧٥٤) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « حسن الظن بالله » (٩٣) ، وقريب منه عند ابن المبارك في
« الزهد » (١٢٧٠) .

رحمة منها طباق السماوات والأرضين ، قال : فلا يهلك على الله يومئذ إلا هالكٌ « (١) .

وفي الخبر : « ما منكم من أحد يُدخله عمله الجنة ، ولا ينجيه من النار » ، قالوا : ولا أنت ؟ قال : « ولا أنا ، إلا أن يتغمّدني الله برحمته » (٢) .

وقال عليه الصلاة والسلام : « اعملوا وأبشروا ، واعلموا أن أحداً لن ينجيه عمله » (٣) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إنني اختبأت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي » (٤) ، « أترونها للمصفيين المتقين ؟ بل هي للمخلطين المتلوئين » (٥) .
وقال عليه الصلاة والسلام : « بُعثت بالحنيفية السمحة السهلة » (٦) .

(١) كذا في « القوت » (٢٢١ / ١) ، ورواه بنحوه البخاري (٦٠٠٠ ، ٦٤٦٩) ، ومسلم (٢٧٥٢) .

(٢) رواه البخاري (٥٦٧٣) ، ومسلم (٢٨١٦) .

(٣) قوت القلوب (٢٢١ / ١) .

(٤) كذا في « القوت » (٢٢١ / ١) ، جاء الخبر مستقلاً عما بعده ، وقد رواه البخاري (٦٣٠٤) ، ومسلم (١٩٨) بلفظ : « لكل نبي دعوة يدعوها ، فأريد أن أختبئ دعوتي شفاعاً لأمتي يوم القيامة » .

(٥) كذا في « القوت » (٢٢١ / ١) ، ورواه ابن ماجه (٤٣١١) بنحوه ، وفي (أ) : (بل هي للمخطئين المتلوئين) .

(٦) رواه أحمد في « المسند » (٢٦٦ / ٥) ، دون قوله : (السهلة) ، وهي في « القوت » (٢٢٢ / ١) ، ووقعت برواية الشك عند الخطيب في « تاريخ بغداد » (٢١٨ / ٧) .

وقال عليه الصلاة والسلام : « أحبُّ أن يعلم أهل الكتابين أن في ديننا سماحة »^(١) .

ويدلُّ على معناه استجابة الله تعالى للمؤمنين في قولهم : ﴿ وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ .

وروى محمد بن الحنفية عن علي رضي الله تعالى عنهما أنه قال : لما نزل قوله تعالى : ﴿ فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ .. قال : « يا جبريل ؛ وما الصَّفْحُ الجميل ؟ » قال عليه السلام : إذا عفوت عمن ظلمك .. فلا تعاتبه ، فقال : « يا جبريل ؛ فالله تعالى أكرم من أن يعاتب من عفا عنه » ، فبكى جبريل وبكى النبي صلى الله عليه وسلم ، فبعث الله تعالى إليهما ميكائيل عليه السلام وقال : إن ربكما يقرئكما السلام ويقول : كيف أعاتب من عفوت عنه ؟ هذا ما لا يشبه كرمي^(٢) .

والأخبار الواردة في أسباب الرجاء أكثر من أن تحصى .



(١) كذا في « القوت » (٢٢٢ / ١) ، ورواه أحمد في « المسند » (١١٦ / ٦) من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً : « لتعلم يهود أن في ديننا فسحة ، إني أرسلت بحنيفية سمحة » .

(٢) كذا في « القوت » (٢٢٣ / ١) ، وقال الحافظ العراقي : (رواه ابن مردويه في « التفسير » موقوفاً على علي مختصراً ، قال : الرضا بغير عتاب ، ولم يذكر بقية الحديث ، وفي إسناده نظر) . « إتحاف » (١٨٥ / ٩) ، ورواه البيهقي في « الشعب » (٧٩٨٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما .

وَأَمَّا الْآثَارُ :

فَقَدْ قَالَ عَلِيُّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ : (مَنْ أَذْنَبَ ذَنْبًا فَسْتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا . . فَاللَّهُ أَكْرَمُ مَنْ أَنْ يَكْشِفَ سِتْرَهُ فِي الْآخِرَةِ ، وَمَنْ أَذْنَبَ ذَنْبًا فَعُوقِبَ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا . . فَاللَّهُ تَعَالَى أَعْدَلُ مَنْ أَنْ يَشْنِيَ عِقُوبَتَهُ عَلَى عَبْدِهِ فِي الْآخِرَةِ)^(١) .

وَقَالَ الثَّوْرِيُّ : (مَا أَحَبُّ أَنْ يُجْعَلَ حَسَابِي إِلَى أَبِيي ؛ لِأَنِّي أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَرْحَمُ بِي مِنْهُمَا)^(٢) .

وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : (الْمُؤْمِنُ إِذَا عَصَى اللَّهَ تَعَالَى . . سَتَرَهُ اللَّهُ عَنْ أَبْصَارِ الْمَلَائِكَةِ كِي لَا تَرَاهُ فَتَشْهَدَ عَلَيْهِ)^(٣) .

وَكَتَبَ مُحَمَّدُ بْنُ مُصْعَبٍ إِلَى أَسْوَدَ بْنِ سَالِمٍ بِخَطِّهِ : (إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا كَانَ مُسْرِفًا عَلَى نَفْسِهِ ، فَرَفَعَ يَدَيْهِ يَدْعُو يَقُولُ : يَا رَبِّ . . حَجَبَتِ الْمَلَائِكَةُ صَوْتَهُ وَكَذَلِكَ الثَّانِيَةُ وَالثَّالِثَةُ ، حَتَّى إِذَا قَالَ الرَّابِعَةَ : يَا رَبِّ . . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : حَتَّى مَتَى تَحْجُبُونَ عَنِّي صَوْتَ عَبْدِي ؟ قَدْ عَلِمَ عَبْدِي أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ رَبٌّ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ غَيْرِي ، أَشْهَدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ)^(٤) .

(١) قوت القلوب (٢١٤/١) ، ورواه الترمذي (٢٦٢٦) ، وابن ماجه (٢٦٠٤) من حديثه رضي الله عنه بنحوه مرفوعاً .

(٢) قوت القلوب (٢١٣/١) .

(٣) قوت القلوب (٢١٣/١) .

(٤) قوت القلوب (٢١٤/١) .

وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله عليه : خلا لي الطواف ليلة ، وكانت ليلة مطيرة مظلمة ، فوقفت في الملتزم عند الباب ، فقلت : يا ربّي ؛ اعصمني حتّى لا أعصيك أبداً ، فهتف بي هاتف من البيت : يا إبراهيم ؛ أنت تسألني العصمة ، وكلّ عبادي المؤمنين يطلبون ذلك ، فإذا عصمتهم .. فعلى من أنفضل ؟ ولمن أغفر ؟^(١) .

وكان الحسن يقول : (لو لم يذنب المؤمن .. لكان يطير في الملكوت ، ولكن الله تعالى قمعة بالذنوب)^(٢) .

وقال الجنيد رحمه الله تعالى : (إن بدت عين من الكرم .. ألحقت المسيئين بالمحسنين)^(٣) .

ولقي مالك بن دينار أباناً ، فقال له : إلى كم تحدث الناس بالرخص ؟ فقال : يا أبا يحيى ؛ إنني لأرجو أن ترى من عفو الله يوم القيامة ما تخرق له كساءك هذا من الفرح^(٤) .

وفي حديث ربيع بن حراش عن أخيه ، وكان من خيار التابعين ، وهو ممن تكلم بعد الموت ، قال : لما مات أخي .. سجّيت بثوبه ، وألقيناه على نعشه ، فكشف الثوب عن وجهه واستوى قاعداً وقال : إنني لقيت ربّي عزّ

(١) قوت القلوب (٢٢٠ / ١) .

(٢) قوت القلوب (٢٢٠ / ١) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٦٣ / ١٠) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « حسن الظن بالله » (٨٦) .

وجلّ ، فحيّاني بروح وريحان ، وربّ غير غضبان ، وإنّي رأيتُ الأمرَ أيسرَ ممّا تظنّون ، ولا تغتروا ، وإنّ محمداً صلّى الله عليه وسلّم ينتظرني وأصحابه حتّى أرجع إليهم ، قال : ثمّ طرح نفسه ، فكأنّها كانت حصاة وقعت في طست ، فحملناه ودفناه^(١) .

وفي الحديث : « أنّ رجلين من بني إسرائيل تواخيا في الله عزّ وجلّ ، فكان أحدهما يسرف على نفسه ، وكان الآخر عابداً ، وكان يعظّه ويزجره ، فكان يقول : دعني وربّي ، أبعت عليّ رقيباً ، حتّى رآه ذات يوم على كبيرة ، فغضب ، فقال : لا يغفر الله لك ، قال : فيقول الله تعالى يوم القيامة : أيسطيع أحد أن يحظر رحمتي على عبادي ؟! اذهب أنت فقد غفرت لك ، ثمّ يقول للعابد : وأنت فقد أوجبت لك النار » ، قال : فوالذي نفسي بيده ؛ لقد تكلم بكلمة أهلك دنياه وآخرته^(٢) .

وروي أيضاً أنّ لصاً كان يقطع الطريق في بني إسرائيل أربعين سنة ، فمرّ عليه عيسى عليه السلام ، وخلفه عابداً من عبّاد بني إسرائيل من الحواريين ، فقال اللصّ في نفسه : هذا نبيّ الله يمرّ وإلى جنبه حوارية ، لو نزلتُ فكنتُ معهما ثالثاً ، قال : فنزل ، فجعل يريد أن يدنو من الحواريّ ويزدري نفسه تعظيماً للحواريّ ويقول في نفسه : مثلي لا يمشي إلى جنب هذا العابد ، قال : وأحسّ به الحواريّ ، فقال في نفسه : هذا يمشي إلى جانبي ، فضمّ

(١) قوت القلوب (٢٢٢/١) .

(٢) رواه أبو داود (٤٩٠١) ، والقول في آخره لأبي هريرة رضي الله عنه .

منه نفسه وتقدّم إلى عيسى عليه السلام ، فمشى إلى جانبه ، فبقي اللصّ خلفه ، فأوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام : قل لهما يستأنفا العمل^(١) ، فقد أحببت ما سلف من أعمالهما ، أمّا الحواريّ .. فقد أحببت حسناته لعجبه بنفسه ، وأمّا الآخر .. فقد أحببت سيئاته بما أزرى على نفسه ، فأخبرهما بذلك ، وضمّ اللصّ إليه في سياحته ، وجعله من حواريه^(٢) .

وروي عن مسروق : أن نبياً من الأنبياء كان ساجداً ، فوطىء بعض العتاة عنقه حتّى ألزق الحصى بجبهته ، قال : فرفع النبي عليه الصلاة والسلام رأسه مغضباً فقال : اذهب فلن يغفر الله لك ، فأوحى الله تعالى إليه : تتألّى عليّ في عبادي ؟! إنّي قد غفرت له^(٣) .

ويقرب من هذا ما روى ابن عباس رضي الله عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقنت على المشركين ويلعنهم في صلاته ، فنزل قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ۚ... ﴾ الآية ، فترك الدعاء عليهم ، وهدى الله تعالى عامّة أولئك للإسلام^(٤) .

وروي في الأثر : أن رجلين كانا من العابدين ، متساويين في العبادة ،

(١) في (أ) : (ليستأنفا العمل) .

(٢) قوت القلوب (١/ ٢٢٣) .

(٣) قوت القلوب (١/ ٢٢٣) .

(٤) كذا في « القوت » (١/ ٢٢٣) ، ورواه البخاري (٤٠٧٠) ، ومسلم (٦٧٥) من حديث ابن عمر وأبي هريرة رضي الله عنهم .

قَالَ : فَإِذَا أُدْخِلَا الْجَنَّةَ . . رُفِعَ أَحَدُهُمَا فِي الدَّرَجَاتِ الْعَلَا عَلَى صَاحِبِهِ ،
فَيَقُولُ : يَا رَبِّ ، مَا كَانَ هَذَا فِي الدُّنْيَا بِأَكْثَرِ مَنِّي عِبَادَةً ، فَرَفَعْتَهُ عَلَيَّ فِي
عَلَيَّ ، فَيَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ : إِنَّهُ كَانَ يَسْأَلُنِي فِي الدُّنْيَا الدَّرَجَاتِ الْعَلَا وَأَنْتَ
كُنْتَ تَسْأَلُنِي النِّجَاةَ مِنَ النَّارِ ، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ عَبْدٍ سَوْلَهُ ^(١) .

وهذا يدلُّ على أَنَّ الْعِبَادَةَ عَلَى الرَّجَاءِ أَفْضَلُ ؛ لِأَنَّ الْمَحَبَّةَ أَغْلِبُ عَلَى
الرَّاجِي مِنْهَا عَلَى الْخَائِفِ ، فَكَمْ مِنْ فَرْقٍ فِي الْمُلُوكِ بَيْنَ مَنْ يُخْدَمُ اتِّقَاءً
لِعِقَابِهِ ، وَبَيْنَ مَنْ يُخْدَمُ ارْتِجَاءً لِإِنْعَامِهِ وَإِكْرَامِهِ ، وَلِذَلِكَ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى
بِحَسَنِ الظَّنِّ ، وَلِذَلِكَ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « سَلُوا اللَّهَ الدَّرَجَاتِ
الْعَلَا ؛ فَإِنَّمَا تَسْأَلُونَ كَرِيماً » ^(٢) .

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : « إِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ . . فَأَعْظَمُوا الرِّغْبَةَ ، وَسَلُوا
الْفَرْدَوْسَ الْأَعْلَى ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَتَعَاضَمُهُ شَيْءٌ » ^(٣) .

وَقَالَ بَكْرُ بْنُ سَلِيمٍ الصَّوَّافُ : دَخَلْنَا عَلَى مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ فِي الْعَشِيِّ الَّتِي

(١) قوت القلوب (٢٢٤ / ١) .

(٢) كذا في « القوت » (٢٢٤ / ١) ، وروى الترمذي (٢٥٧١) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً : « سلوا الله من فضله ؛ فإن الله عز وجل يحب أن يسأل ، وأفضل العبادة انتظار الفرج » .

(٣) رواه مسلم (٢٦٧٩) ولفظه : « إذا دعا أحدكم . . فلا يقل : اللهم ؛ اغفر لي إن شئت ، ولكن ليعزم المسألة ، وليعظم الرغبة ؛ فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه » . وروى البخاري (٢٧٩٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « فإذا سألت الله . . فاسأله الفردوس ؛ فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة » .

قُبِضَ فِيهَا ، فَقُلْنَا : يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ؛ كَيْفَ تَجِدُكَ ؟ قَالَ : لَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لَكُمْ ، إِلَّا أَنْكُمْ سَتَعَايِنُونَ مِنْ عَفْوِ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُنْ لَكُمْ فِي حِسَابٍ ، ثُمَّ مَا بَرَحْنَا حَتَّى أَعْمَضْنَاهُ^(١) .

وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مَعَاذٍ فِي مَنَاجَاتِهِ : (يَكَادُ رَجَائِي لَكَ مَعَ الذُّنُوبِ يَغْلِبُ رَجَائِي لَكَ مَعَ الْأَعْمَالِ ؛ لِأَنِّي أَعْتَمِدُ فِي الْأَعْمَالِ عَلَى الْإِخْلَاصِ ، وَكَيْفَ أَحْرَزُهَا وَأَنَا بِالْآفَةِ مَعْرُوفٌ ؟ ! وَأَجِدُنِي فِي الذُّنُوبِ أَعْتَمِدُ عَلَى عَفْوِكَ ، وَكَيْفَ لَا تَغْفِرُهَا وَأَنْتَ بِالْجُودِ مَوْصُوفٌ ؟ !)^(٢) .

وَقِيلَ : إِنَّ مَجُوسِيًّا اسْتَضَافَ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَقَالَ : إِنَّ أَسْلَمْتَ . . أَضَفْتُكَ ، فَمَرَّ الْمَجُوسِيُّ ، فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : يَا إِبْرَاهِيمُ ؛ لَمْ تَطْعَمُهُ إِلَّا بِتَغْيِيرِ دِينِهِ وَنَحْنُ مِنْ سَبْعِينَ سَنَةً نَطْعَمُهُ عَلَى كُفْرِهِ ؟ ! فَلَوْ أَضَفْتَهُ لَيْلَةً مَاذَا كَانَ عَلَيْكَ ؟ فَمَرَّ إِبْرَاهِيمُ يَسْعَى خَلْفَ الْمَجُوسِيِّ ، فَدَّهَّ وَأَضَافَهُ ، فَقَالَ لَهُ الْمَجُوسِيُّ : مَا السَّبَبُ فِيمَا بَدَأَ لَكَ ؟ فَذَكَرَ لَهُ : فَقَالَ لَهُ الْمَجُوسِيُّ : أَهَكَذَا يِعَامِلُنِي ؟ ثُمَّ قَالَ : اعْرَضْ عَلَيَّ الْإِسْلَامَ ، فَأَسْلَمَ^(٣) .

(١) رَوَاهُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي « حَسَنِ الظَّنِّ بِاللَّهِ » (٨٥) ، وَمِنْ طَرِيقِهِ رَوَاهُ الْقَشِيرِيُّ فِي « رِسَالَتِهِ » (ص ٢٤٦) .

(٢) الرِّسَالَةُ الْقَشِيرِيَّةُ (ص ٢٤٦) .

(٣) الرِّسَالَةُ الْقَشِيرِيَّةُ (ص ٢٤٧) ، قَالَ الْحَافِظُ الزَّيْدِيُّ فِي « إِتْحَافِهِ » (١٨٩/٩) : (وَجْهٌ تَعَلَّقَ هَذَا بِالرَّجَاءِ : أَنَّهُ تَعَالَى يَجْعَلُ الْأَسْبَابَ الضَّعِيفَةَ مَوْصِلَةً لِمُغْفَرَاتِ الذُّنُوبِ الْعَظِيمَةِ) .

ورأى الأستاذ أبو سهل الصُّغْلُوكِيُّ أبا سهل الزَّجَّاجِيَّ في المنام^(١) ،
وكان يقولُ بوعيدِ الأبد^(٢) ، فقالَ له : كيفَ حالُكَ ؟ فقالَ : وجدنا الأمرَ
أسهلَ ممَّا توهمنا^(٣) .

ورأى بعضهم أبا سهل الصُّغْلُوكِيَّ في المنامِ على هيئةٍ حسنةٍ لا تُوصفُ ،
فقالَ له : يا أستاذُ ؛ بمَ نلتَ هذا ؟ فقالَ : بحسنِ ظني بربي^(٤) .

وحُكِيَ أَنَّ أبا العباسِ بنَ سُرَيْجٍ رحمه الله تعالى رأى في مرضٍ موتهِ في
منامِهِ كأنَّ القيامةَ قد قامتْ ، وإذا الجبارُ سبحانه يقولُ : أينَ العلماءُ ؟ قالَ :
فجاؤوا ، ثمَّ قالَ : ماذا عملتُم فيما علمتُم ؟ قالَ : فقلنا : يا ربَّ ؛ قصّرنا
وأسأنا ، قالَ : فأعادَ السؤالَ كأنَّهُ لم يرضَ بالجوابِ وأرادَ جواباً غيرهَ ،
فقلتُ : أمّا أنا.. فليسَ في صحيفتي الشُّركُ ، وقد وعدتُ أنْ تغفرَ
ما دونهُ ، فقالَ : اذهبوا بهِ ، فقد غفرتُ لَكُم ، وماتَ بعدَ ذلكَ بثلاثِ
ليالٍ^(٥) .

وقيلَ : كانَ رجلٌ شرَّيبٌ جمعَ قومًا منَ ندمائِهِ ، ودفعَ إلى غلامٍ لَهُ أربعةَ

(١) وضبطه الحافظ الزبيدي في «إتحافه» (١٨٩/٩) فقال : (الصعلوكي : بفتح الصاد وسكون العين المهملتين) .

(٢) فسوّى بين الوعد والوعيد من حيث وجوب الإنجاز ، فلو أوعد الله بعقاب.. فعنده لا بدّ من وقوعه .

(٣) رواه القشيري في «رسالته» (ص ٢٤٧) .

(٤) رواه القشيري في «رسالته» (ص ٢٤٧) .

(٥) الرسالة القشيرية (ص ٢٤٩) .

دراهم ، وأمره أن يشتري شيئاً من الفواكه للمجلس ، فمرَّ الغلامُ ببابِ مجلسٍ منصورٍ بنِ عمارٍ ، وهو يسألُ لفقيرٍ شيئاً ويقولُ : مَنْ دفعَ إليه أربعةَ دراهمٍ . . دعوتُ له أربعَ دعواتٍ ، قالَ : فدفعَ الغلامُ الدراهمَ إليه ، فقالَ منصورٌ : ما الذي تريدُ أنْ أدعوكَ لك ؟ فقالَ : لي سيّدٌ أريدُ أنْ أتخلّصَ منه ، فدعا منصورٌ ، وقالَ : الأخرى ؟ فقالَ : أنْ يخلفَ اللهُ عليّ دراهمي ، فدعا ، ثمَّ قالَ : الأخرى ؟ قالَ : أنْ يتوبَ اللهُ عليّ سيّدي ، فدعا ، ثمَّ قالَ : الأخرى ؟ فقالَ : أنْ يغفرَ اللهُ لي ولسيّدي ولكَ وللقومِ ، فدعا منصورٌ .

فرجعَ الغلامُ ، فقالَ له سيّدُهُ : لِمَ أبطأتَ ؟ فقصَّ عليه القصّةَ ، قالَ : وبِمَ دعا ، فقالَ : سألتُ لنفسِي العتقَ ، فقالَ له : اذهبِ فأنْتَ حرٌّ ، قالَ : وأيِّسَ الثاني ؟ قالَ : أنْ يُخلفَ اللهُ عليّ الدراهمَ ، فقالَ : لكَ أربعةُ آلافِ درهمٍ ، وأيِّسَ الثالثُ ؟ قالَ : أنْ يتوبَ اللهُ عليكَ ، قالَ : تبتُ إلى اللهِ تعالى ، وأيِّسَ الرابعُ ؟ قالَ : أنْ يغفرَ اللهُ لي ولكَ وللقومِ وللمذكّرِ ، قالَ : هذا الواحدُ ليسَ إليّ ، فلمّا باتَ تلكَ الليلةَ . . رأى في المنامِ كأنَّ قائلاً يقولُ له : أنتَ فعلتَ ما كانَ إليك ، أفترى أني لا أفعلُ ما إليّ ؟! قد غفرتُ لكَ وللغلامِ ولمنصورٍ بنِ عمارٍ وللقومِ الحاضرينَ أجمعينَ^(١) .

وروي عن عبد الوهّاب بن عبد المجيد الثقفي قالَ : رأيتُ جنازةً يحملُها

(١) الرسالة القشيرية (ص ٢٤٩) .

ثلاثة من الرجال وامرأة ، قال : فأخذت مكان المرأة ، وذهبنا إلى المقبرة ،
وصلينا عليها ، ودفنا الميت ، فقلت للمرأة : مَنْ كان هذا الميت منك ؟
قالت : ابني ، قلت : ولم يكن لكم جيران ؟ قالت : بلى ، ولكن صغروا
أمره ، فقلت : وأيش كان هذا ؟ قالت : مختئاً ، قال : فرحمته وذهبت
بها إلى منزلي ، وأعطيتها دراهم وحنطة وثياباً ، قال : فرأيت تلك الليلة
كأنه أتاني آت كأنه القمر ليلة البدر ، وعليه ثياب بيض ، فجعل يشكر لي ،
فقلت : مَنْ أنت ؟ فقال : المختئ الذي دفتموني اليوم ، رحماني ربّي
باحترار الناس إياي^(١) .

وقال إبراهيم الأطروش : كنا قعوداً ببغداد مع معروف الكرخي على
دجلة ، إذ مرّ قوم أحداث في زورق يضربون بالدف ويشربون ويلعبون ،
فقالوا لمعرف : أما تراهم يعصون الله تعالى مجاهرين ؟ ادع الله عليهم ،
فرفع يديه وقال : إلهي ؛ كما فرحتهم في الدنيا ففرّحهم في الآخرة ، فقال
القوم : إنما سألناك أن تدعو عليهم ، فقال : إذا فرّحهم في الآخرة .. تاب
عليهم^(٢) .

وكان بعض السلف يقول في دعائه : يارب ؛ وأي أهل دهر لم
يعصوك ؟ ثم كانت نعمتك عليهم سابعة ، ورزقك عليهم داراً ، سبحانه
ما أحلمك ! وعزتك ؛ إنك لتعصى ثم تسبغ النعمة وتدرّ الرزق حتى كأنك

(١) الرسالة القشيرية (ص ٢٥٠) .

(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٦٢٧٦) ، والقشيري في « رسالته » (ص ٢٥١) .

يا رَبَّنَا إِنَّمَا تُطَاعُ ، سُبْحَانَكَ مَا أَحْلَمَكَ ! تُعَصِي وَتَدْرُ الرِّزْقَ وَتَسْبِغُ النِّعْمَةَ
حَتَّى لَكَأَنَّكَ يَا رَبَّنَا لَا تَغْضَبُ^(١) .

فهذه هي الأسباب التي يُجْتَلَبُ بها رُوحُ الرجاءِ إلى قلوبِ الخائفينَ
والآيسينَ ، فأما الحمقى المغرورونَ . . فلا ينبغي أن يسمعوها شيئاً من ذلك ،
بل يسمعونَ ما سنوردهُ في أسبابِ الخوفِ ، فإنَّ أكثرَ الناسِ لا يصلحُ إلا
على الخوفِ ؛ كالعبدِ السوءِ والصبيِّ العَرِمِ^(٢) ، لا يستقيمُ إلا بالسوطِ
والعصا ، وإظهارِ الخشونةِ في الكلامِ ، وأما ضدُّ ذلكَ . . فيُسدُّ عليهم بابُ
الصلاحِ في الدينِ والدنيا .



(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٥١ / ٨) .

(٢) العرم : الشرس .

الشَّطْرُ الثَّانِي مِنَ الْكِتَابِ فِي الْخَوْفِ

وفيه بيانُ حقيقةِ الخوفِ ، وبيانُ درجاتِهِ ، وبيانُ أقسامِ المخاوفِ ،
وبيانُ فضيلةِ الخوفِ ، وبيانُ الأفضلِ مِنَ الخوفِ والرجاءِ ، وبيانُ دواءِ
الخوفِ ، وبيانُ معنىِ سوءِ الخاتمةِ ، وبيانُ أحوالِ الخائفينَ مِنَ الأنبياءِ
صلواتُ اللهِ عليهم والصالحينَ رحمةُ اللهِ عليهم .

بيان حقيقة الخوف

اعلم : أنَّ الخوفَ عبارةٌ عن تألمِ القلبِ واحتراقِهِ بسببِ توقُّعِ مكروهٍ في
الاستقبالِ ، وقد ظهرَ هذا في بيانِ حقيقةِ الرجاءِ .

وَمَنْ أَنَسَ بِاللَّهِ ، وَمَلَكَ الْحَقُّ قَلْبَهُ ، وَصَارَ ابْنُ وَقْتِهِ ، مُشَاهِداً لجمالِ
الْحَقِّ عَلَى الدَّوامِ . . لَمْ يَبْقَ لَهُ التَّفَاتُ إِلَى الْمُسْتَقْبَلِ ؛ فَلَمْ يَكُنْ لَهُ خَوْفٌ
وَلَا رَجَاءٌ ، بَلْ صَارَ حَالُهُ أَعْلَى مِنَ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ ، فَإِنَّهُمَا زَمَامَانِ يَمْنَعَانِ
النَّفْسَ عَنِ الْخُرُوجِ إِلَى رِعُونَاتِهَا .

وإلى هذا أشارَ الواسطيُّ حيثُ قالَ : (الخوفُ حجابٌ بينَ اللهِ وبينَ العبدِ) ^(١) .

(١) رواه الأزدي في « طبقات الصوفية » (ص ٢٣٣) ، وأورده القشيري في « رسالته » =

وقال أيضاً : (إذا ظهر الحق على السرائر . . لا يبقى فيها فضلة لرجاء ولا خوف)^(١) .

وبالجملة : فالمحب إذا شغل قلبه في مشاهدة المحبوب بخوف الفراق . . كان ذلك نقصاً في الشهود ، وإنما دوام الشهود غاية المقامات ، ولكننا الآن إنما نتكلم في أوائل المقامات ، فنقول :

حال الخوف ينتظم أيضاً من علم وحال وعمل .

أما العلم : فهو العلم بالسبب المفضي إلى المكروه ، وذلك كمن جنى على ملك ، ثم وقع في يده ، فيخاف القتل مثلاً ، ويجوز العفو أو الإفلات ، ولكن يكون تألم قلبه بالخوف بحسب قوة علمه بالأسباب المفضية إلى قتله ، وهو تفاحش جنايته ، وكون الملك في نفسه حقوداً غضوباً منتقماً ، وكونه محفوفاً بمن يحته على الانتقام ، خالياً عما يتشفع إليه في حقه ، وكان هذا الخائف عاطلاً عن كل وسيلة وحسنة تمحو أثر جنايته عند الملك . فالعلم بتظاهر هذه الأسباب سبب لقوة الخوف وشدة تألم القلب ، وبحسب ضعف هذه الأسباب يضعف الخوف .

= (ص ٢٣٧) ، وقال : (وهذا اللفظ فيه إشكال ، ومعناه : أن الخائف متطلع لوقت

ثان ، وأبناء الوقت لا تطلع لهم في المستقبل ، وحسنات الأبرار سيئات المقربين) .

(١) أورده القشيري في « رسالته » (ص ٢٣٩) ، وقال : (وهذا فيه إشكال ، ومعناه : إذا اصطلمت شواهد الحق تعالى الأسرار . . ملكتها ، فلا يبقى فيها مساعٍ لذكر حدثان ، والخوف والرجاء من آثار بقاء الإحساس بالأحكام البشرية) .

وقد يكونُ الخوفُ لا عن سببٍ جنائيةٍ قارفها الخائفُ ، بل عن صفةِ المَخُوفِ ؛ كالذي وقعَ في مخالفٍ سبعٍ ؛ فإنه يخافُ السبعَ لصفةِ ذاتِ السبعِ ، وهي سطوتهُ وحرصُهُ على الافتراسِ غالباً ، وإن كانَ افتراسُهُ بالاختيارِ .

وقد يكونُ من صفةٍ جبليَّةٍ للمَخُوفِ منه ؛ كخوفٍ من وقعٍ في مجرى سيلٍ أو جوارٍ حريقٍ ؛ فإنَّ الماءَ يُخافُ لأنَّه بطبيعِهِ مجبولٌ على السيلانِ والإغراقِ ، وكذا النارُ على الإحراقِ .

فالعلمُ بأسبابِ المكروهِ هو السببُ الباعثُ المثيرُ لاحتراقِ القلبِ وتألمِهِ ، وذلكَ الاحتراقُ هو الخوفُ ، فكذلكَ الخوفُ من الله تعالى ؛ تارةً يكونُ لمعرفةِ الله تعالى ومعرفةِ صفاتهِ وأنه لو أهلكَ العالمينَ . . لم يبالِ ولم يمنعهُ مانعٌ ، وتارةً يكونُ لكثرةِ الجنايةِ من العبدِ بمقارفةِ المعاصي ، وتارةً يكونُ بهما جميعاً .

وبحسبِ معرفتهِ بعيوبِ نفسهِ ، ومعرفتهِ بجلالِ الله وتعالیهِ واستغنائهِ ، وأنه لا يُسألُ عمَّا يفعلُ وهم يُسألونَ . . تكونُ قوَّةُ خوفِهِ ، فأخوفُ الناسِ لربِّهِ أعرفُهُم بنفسِهِ وبربِّهِ ، ولذلكَ قالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أنا أخوفُكُمْ اللهُ »^(١) ،

(١) رواه البخاري (٥٠٦٣) من حديث أنس رضي الله عنه في قصة الرهط الثلاثة الذين تقالُّوا عمله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « أما والله إنني لأخشاكم لله وأتقاكم له . . . » الحديث ، وعند البخاري (٦١٠١) ، ومسلم (٢٣٥٦) من حديث عائشة رضي الله عنها : « فوالله ؛ إنني لأعلمهم بالله وأشدَّهم له خشيةً » .

ولذلك قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ .

ثم إذا كملت المعرفة .. أورثت حال الخوف واحتراق القلب ، ثم يفيض أثر الحرقه من القلب على البدن ، وعلى الجوارح ، وعلى الصفات .

أمّا في البدن .. فبالنحول ، والصفار ، والغشية ، والزعقة ، والبكاء ، وقد تنشق به المرارة فيفيض إلى الموت ، أو يصعد إلى الدماغ فيفسد العقل ، أو يقوى فيورث القنوط واليأس .

وأمّا في الجوارح .. فبكفها عن المعاصي ، وتقييدها بالطاعات ؛ تلافياً لما فرط ، واستعداداً للمستقبل ، ولذلك قيل : (ليس الخائف من يبكي ويمسح عينيه ، بل من يترك ما يخاف أن يعاقب عليه)^(١) .

وقال أبو القاسم الحكيم : (من خاف شيئاً .. هرب منه ، ومن خاف الله .. هرب إليه)^(٢) .

وقيل لذي النون : متى يكون العبد خائفاً ؟ قال : إذا أنزل نفسه منزلة السقيم الذي يحتمي مخافة طول السقام^(٣) .

(١) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٣٦) من كلام إسحاق بن خلف .

(٢) الرسالة القشيرية (ص ٢٣٦) ، وأبو القاسم هو إسحاق بن محمد السمرقندي ، وليس القشيري .

(٣) الرسالة القشيرية (ص ٢٣٦) .

وأما في الصفات . . فهو أن يقمع الشهوات ، ويكدر اللذات ، فتصير المعاصي المحبوبة عنده مكروهة كما يصير العسل مكروهاً عند من يشتهيهِ إذا عرف أن فيه سمّاً ، فتحترق الشهوات بالخوف ، وتتأدّب الجوارح ، ويحصل في القلب الذبول ، والخشوع ، والذلة ، والاستكانة ، ويفارقه الكبر ، والحقّد ، والحسد ، بل يصير مستوعب الهمّ بخوفه والنظر في خطر عاقبته ، فلا يتفرّغ لغيره ، ولا يكون له شغل إلا المراقبة ، والمحاسبة ، والمجاهدة ، والضنة بالأنفاس واللحظات ، ومواخضة النفس في الخطرات والخطوات والكلمات ، ويكون حاله حال من وقع في مخالف سبع ضار ، لا يدري أنه يغفل عنه فيفلت ، أو يهجم عليه فيهلك ، فيكون ظاهره وباطنه مشغولاً بما هو خائف منه ، لا متسع فيه لغيره .

هذا حال من غلبه الخوف واستولى عليه ، وهلكذا كان جماعة من الصحابة والتابعين .

وقوة المراقبة والمحاسبة والمجاهدة بحسب قوة الخوف الذي هو تألم القلب واحتراقه ، وقوة الخوف بحسب قوة المعرفة بجلال الله تعالى وصفاته وأفعاله ، وبعيوب النفس وما بين يديها من الأخطار والأهوال .

وأقل درجات الخوف ممّا يظهر أثره في الأعمال أن يمنع عن المحظورات ، ويسمى الكفّ الحاصل عن المحظورات ورعاً ، فإن زادت قوّته . . كفّ عمّا يتطرق إليه إمكان التحريم ، فيكفّ عمّا لا يتيقن أيضاً

تَحْرِيمُهُ ، وَيُسَمَّى ذَلِكَ تَقْوَى^(١) ؛ إِذِ التَّقْوَى أَنْ يَتْرَكَ مَا يَرِيئُهُ إِلَى مَا لَا يَرِيئُهُ ، وَقَدْ يَحْمِلُهُ عَلَى أَنْ يَتْرَكَ مَا لَا بَأْسَ بِهِ مَخَافَةً مَا بِهِ بَأْسٌ ، وَهُوَ الصَّدَقُ فِي التَّقْوَى ، فَإِذَا انْضَمَّ إِلَيْهِ التَّجَرُّدُ لِلخِدْمَةِ ، فَصَارَ لَا يَبْنِي مَا لَا يَسْكُنُهُ ، وَلَا يَجْمَعُ مَا لَا يَأْكُلُهُ ، وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَى دُنْيَا يَعْلَمُ أَنَّهَا تَفَارِقُهُ ، وَلَا يَصْرِفُ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى نَفْسًا مِنْ أَنْفَاسِهِ .. فَهُوَ الصَّدَقُ ، وَصَاحِبُهُ جَدِيرٌ بِأَنْ يُسَمَّى صَدِّيقًا ، وَيَدْخُلُ فِي الصَّدَقِ التَّقْوَى ، وَيَدْخُلُ فِي التَّقْوَى الْوَرَعُ ، وَيَدْخُلُ فِي الْوَرَعِ الْعِفَّةُ ؛ فَإِنَّهَا عِبَارَةٌ عَنِ الْامْتِنَاعِ عَنْ مُقْتَضَى الشَّهَوَاتِ خَاصَّةً .

فَإِذَا ؛ الْخَوْفُ يُوَثِّرُ فِي الْجَوَارِحِ بِالْكَفِّ وَالْإِقْدَامِ ، وَيَتَجَدَّدُ لَهُ بِسَبَبِ الْكَفِّ اسْمُ الْعِفَّةِ ، وَهُوَ كَفٌّ عَنِ مُقْتَضَى الشَّهْوَةِ ، وَأَعْلَى مِنْهُ الْوَرَعُ ، فَإِنَّهُ أَعَمُّ ؛ لِأَنَّهُ كَفٌّ عَنْ كُلِّ مُحْظُورٍ ، وَأَعْلَى مِنْهُ التَّقْوَى ، فَإِنَّهُ اسْمٌ لِلْكَفِّ عَنِ الْمُحْظُورِ وَالشَّبْهَةِ جَمِيعًا ، وَوَرَاءَهُ اسْمُ الصَّدِّيقِ وَالْمُقَرَّبِ ، وَتَجْرِي الرِّبَّةُ الْآخِرَةُ مِمَّا قَبْلَهَا مَجْرَى الْأَخْصِ مِنَ الْأَعَمِّ ، فَإِذَا ذَكَرْتَ الْأَخْصَ .. فَقَدْ ذَكَرْتَ الْكُلَّ ، كَمَا أَنَّكَ تَقُولُ : الْإِنْسَانُ إِمَّا عَرَبِيٌّ وَإِمَّا عَجَمِيٌّ ، وَالْعَرَبِيُّ إِمَّا قُرَشِيٌّ أَوْ غَيْرُهُ ، وَالْقُرَشِيُّ إِمَّا هَاشِمِيٌّ أَوْ غَيْرُهُ ، وَالْهَاشِمِيُّ إِمَّا عَلَوِيٌّ أَوْ غَيْرُهُ ، وَالْعَلَوِيُّ إِمَّا حُسَيْنِيٌّ أَوْ حُسَيْنِيٌّ ، فَإِذَا ذَكَرْتَ أَنَّهُ حُسَيْنِيٌّ مَثَلًا .. فَقَدْ

(١) وهذه هي الدرجة الثالثة من درجات الورع ، وهي ما لا تحرمه الفتوى ولا شبهة في حلّه ، ولكن يُخَافُ أَدَاؤُهُ إِلَى مُحْرَمٍ ، وَهُوَ وَرَعُ الْمُتَّقِينَ . « إتحاف » (١٩٩ / ٩) .

وصفته بالجميع ، وإن وصفته بأنه علويّ . . وصفته بما هو فوقه ممّا هو أعمّ منه ، فكذلك إذا قلت : صديق . . فقد قلت : إنه متيّ وورع وعفيف ، فلا ينبغي أن تظنّ أنّ كثرة هذه الأسمي تدلّ على معانٍ كثيرة متباينة ، فيختلط عليك كما اختلط على كلّ من طلب المعاني من الألفاظ ، ولم يتبع الألفاظ المعاني .

فهذه إشارة إلى مجاميع معاني الخوف ، وما يكتنفه من جانب العلو ؛ كالمعرفة الموجبة له ، ومن جانب السفلى ؛ كالأعمال الصادرة منه كفاً وإقداماً .



بيان درجات الخوف واختلافه في القوة والضعف

اعلم : أنَّ الخوفَ محمودٌ ، وربما يُظنُّ أنَّ كلَّ ما هوَ محمودٌ فكُلُّما كانَ أقوى وأكثرَ . . كانَ أحمدَ ، وهوَ غلطٌ ، بل الخوفُ سوطُ الله تعالى يسوقُ به عبادةً إلى المواظبةِ على العلمِ والعملِ ؛ لينالوا بهما رتبةَ القربِ مِنَ الله تعالى ، والأصلحُ للبهيمةِ ألا تخلوَ عن سوطِ ، وكذا الصبيِّ ، ولكنَّ ذلكَ لا يدلُّ على أنَّ المبالغةَ في الضربِ محمودَةٌ ، وكذلك الخوفُ له قصورٌ ، وله إفراطٌ ، وله اعتدالٌ ، والمحمودُ هو الاعتدالُ والوسطُ .

فأمَّا القاصرُ منه . . فهو الذي يجري مَجْرَى رَقَّةِ النساءِ ، يخطرُ بالبالِ عندَ سماعِ آيةٍ مِنَ القرآنِ ، فيورثُ البكاءَ ، وتفيضُ الدموعُ ، وكذلك عندَ مشاهدةِ سببِ هائلٍ ، فإذا غابَ ذلكَ السببُ عنِ الحسِّ . . رجعَ القلبُ إلى الغفلةِ ، فهذا خوفٌ قاصرٌ قليلُ الجدوى ضعيفُ النفعِ ، وهو كالقضيبيِّ الضعيفِ الذي تضربُ به دابةٌ قويَّةٌ لا يؤلمُها ألمًا مبرحاً ، فلا يسوقُها إلى المقصدِ ، ولا يصلحُ لرياضتها .

وهكذا خوفُ الناسِ كُلِّهِمْ إلا العارفينَ والعلماءَ ، ولستُ أعني بالعلماءِ المترسمينَ برسومِ العلماءِ ، والمتسمينَ بأسمائِهِمْ ؛ فإنَّهُمْ أبعدُ الناسِ عن الخوفِ ، بل أعني العلماءَ بالله وبأيامِهِ وبأفعاليهِ ، وذلك ممَّا قد عزَّ وجودُهُ الآنَ . ولذلك قالَ الفضيلُ بنُ عياضٍ رحمه الله : (إذا قيلَ لك : هل

تخافُ اللهَ : فاسكتْ ؛ فإنَّكَ إنْ قلتَ : لا .. كفرتَ ، وإنْ قلتَ : نعم .. كذبتَ ^(١) ، وأشارَ بهِ إلى أنَّ الخوفَ هوَ الذي يكفُّ الجوارحَ عنِ المعاصي ، ويقىدُّها بالطاعاتِ ، وما لمْ يؤثِّرْ في الجوارحِ .. فهوَ حديثُ نفسٍ وحركةُ خاطرٍ ، لا يستحقُّ أنْ يُسمَّى خوفاً .

وأما المفرطُ .. فهوَ الذي يقوى ويجاوزُ حدَّ الاعتدالِ حتَّى يخرجَ إلى اليأسِ والقنوطِ ، وهوَ مذمومٌ أيضاً ؛ لأنَّه يمنعُ مِنَ العملِ ، والمرادُ مِنَ الخوفِ ما هوَ المرادُ مِنَ السوطِ ، وهوَ الحملُ على العملِ ، ولولاهُ .. لما كانَ الخوفُ كاملاً ؛ لأنَّه بالحقيقةِ نقصانٌ ؛ لأنَّ منشأه الجهلُ والعجزُ :

أما الجهلُ .. فإنَّه ليسَ يدري عاقبةَ أمرِهِ ، ولو عرفَ .. لمْ يكنْ خائفاً ؛ لأنَّ المخوفَ هوَ الذي يتردَّدُ فيه .

وأما العجزُ .. فهوَ أنَّه متعرضٌ لمحذورٍ لا يقدرُ على دفعِهِ .

فإذا ؛ هوَ محمودٌ بالإضافةِ إلى نقصِ الآدميِّ ، وإنَّما المحمودُ في نفسه وذاتهِ هوَ العلمُ والقدرةُ ، وكلُّ ما يجوزُ أنْ يُوصفَ اللهُ تعالى بهِ ، وما لا يجوزُ وصفُ اللهِ بهِ .. فليسَ بكمالٍ في ذاتهِ ، وإنَّما يصيرُ محموداً بالإضافةِ إلى نقصِ أعظمَ منه ، كما يكونُ احتمالُ ألمِ الدواءِ محموداً لأنَّه أهونُ مِنَ ألمِ المرضِ والموتِ ، فما يخرجُ إلى القنوطِ فهوَ مذمومٌ .

وقد يخرجُ الخوفُ أيضاً إلى المرضِ والضعفِ ، وإلى الولهِ والدهشةِ

(١) قوت القلوب (١/٢٢٦) .

وزوال العقل ، وقد يخرجُ إلى الموت ، وكلُّ ذلك مذمومٌ ، وهو كالضربِ الذي يقتلُ الصبيَّ ، والسوطِ الذي يهلكُ الدابةَ أو يمرضُها أو يكسرُ عضواً من أعضائها ، وإنما ذكرَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أسبابَ الرجاءِ وأكثرَ منها ليعالجَ بها صدمةَ الخوفِ المفرطِ المفضي إلى القنوطِ أو أحدِ هذه الأمورِ ، فكلُّ ما يراودُ لأمرٍ فالمحمودُ منه ما يفضي إلى المرادِ المقصودِ منه ، وما يقصرُ عنه أو يجاوزُه فهو مذمومٌ .

وفائدةُ الخوفِ : الحذرُ ، والورعُ ، والتقوى ، والمجاهدةُ ، والعبادةُ ، والفكرُ ، والذكرُ ، وسائرُ الأسبابِ الموصلةِ إلى الله تعالى ، وكلُّ ذلك يستدعي الحياةَ مع صحَّةِ البدنِ وسلامةِ العقلِ ، فكلُّ ما يقدرُ في هذه الأسبابِ فهو مذمومٌ .



فإن قلتَ : مَنْ خافَ فماتَ مِنْ خوفِهِ فهو شهيدٌ ، فكيفَ يكونُ حالُهُ مذموماً ؟!

فاعلمُ : أنَّ معنى كونه شهيداً أنَّ له رتبةً بسببِ موتهِ مِنَ الخوفِ كان لا ينالُها لو ماتَ في ذلكَ الوقتِ لا بسببِ الخوفِ ، فهو بالإضافةِ إليه فضيلةٌ ، فأما بالإضافةِ إلى تقديرِ بقائه وطولِ عمرِهِ في طاعةِ الله وسلوكِ سبيله . . فليسَ بفضيلةٍ ، بل للسالِكِ سبيلَ الله تعالى بطريقِ الفكرِ والمشاهدةِ والترقيِّ في درجاتِ المعارفِ في كلِّ لحظةٍ رتبةً شهيدٍ وشهداء ، ولولا

هذا . . لكانت رتبة صبي يُقتل أو مجنون يفتريه سبع أعلى من رتبة نبي أو ولي يموت حتف أنفه ، وهو محال ، فلا ينبغي أن يُظن هذا ، بل أفضل السعادات طول العمر في طاعة الله تعالى ، فكل ما أبطل العمر أو العقل أو الصحة التي يتعطل العمر بتعطّلها . . فهو خسران ونقصان بالإضافة إلى أمور ، وإن كان بعض أقسامها فضيلة بالإضافة إلى أمورٍ آخر ؛ كما كانت الشهادة فضيلة بالإضافة إلى ما دونها ، لا بالإضافة إلى درجة النبيين والصدّيقين .

فإذا ؛ الخوف إن لم يؤثر في العمل . . فوجوده كعدمه ؛ مثل السوط الذي لا يزيد في حركة الدابة ، وإن أثر . . فله درجات بحسب ظهور أثره ، فإن لم يحمل إلا على العفة وهي الكف عن مقتضى الشهوات . . فله درجة ، فإن أثمر الورع . . فهو أعلى ، وأقصى درجاته أن يثمر درجات الصدّيقين ، وهو أن يسلب الظاهر والباطن عمّا سوى الله حتّى لا يبقى لغير الله فيه متسع ، فهذا أقصى ما يُحمد منه ، وذلك مع بقاء الصحة والعقل .

فإن جاوز هذا إلى إزالة العقل أو الصحة . . فهو مرض يجب علاجه إن قدر عليه ، ولو كان محموداً . . لما وجب علاجه بأسباب الرجاء وبغيره حتّى يزول ، ولذلك كان سهل رحمة الله يقول للمريدين الملازمين للجوع أياماً كثيرة : (احفظوا عقولكم ؛ فإنه لم يكن لله تعالى ولي ناقص العقل)^(١) .



(١) قوت القلوب (٢٣٨ / ١) .

بيان أقسام الخوف بالإضافة إلى ما يُخاف منه

اعلم : أنَّ الخوفَ لا يتحقَّقُ إلا بانتظارِ مكروهٍ ، والمكروهُ إمَّا أن يكونَ مكروهاً في ذاته كالنارِ ، وإمَّا أن يكونَ مكروهاً لأنَّه يفضي إلى المكروهِ ؛ كما تُكرهُ المعاصي لأدائها إلى مكروهٍ في الآخرة ، وكما يكرهُ المريضُ الفواكةَ المضرةَ لأدائها إلى الموتِ ، ولا بدَّ لكلِّ خائفٍ أن يتمثَّلَ في نفسه مكروهاً من أحدِ القسمين ، ويقوى انتظاره في قلبه حتَّى يحترقَ قلبه بسببِ استشعاره ذلك المكروه .

ومقامُ الخائفينَ يختلفُ فيما يغلبُ على قلوبهم من المكروهاتِ المحذورة ، فالذين يغلبُ على قلوبهم ما ليسَ مكروهاً لذاته بل لغيره ؛ كالذين يغلبُ عليهم خوفُ الموتِ قبلَ التوبة ، أو خوفُ نقضِ التوبة ونكثِ العهد ، أو خوفُ ضعفِ القوةِ عن الوفاءِ بتمامِ حقوقِ الله ، أو خوفُ زوالِ رقةِ القلبِ وتبدُّلِها بالقساوةِ أو خوفُ الميلِ عن الاستقامة ، أو خوفُ استيلاءِ العادةِ في اتباعِ الشهواتِ المألوفة ، أو خوفُ أن يكلَّه اللهُ تعالى إلى حسناته التي اتكلَ عليها وتعزَّزَ بها في عبادِ الله ، أو خوفُ البطرِ بكثرةِ نعمِ الله عليه ، أو خوفُ الاشتغالِ عن الله بغيرِ الله ، أو خوفُ الاستدراجِ بتواترِ النعمِ ، أو خوفُ انكشافِ غوائلِ طاعاته حيث يبدو له من الله ما لم يكنْ يحتسبُ ، أو خوفُ تبعاتِ الناسِ عنده في الغيبةِ والخيانةِ والغشِّ وإضرارِ السوءِ ، أو

خوف ما لا يدري أنه يحدث في بقيّة عمره ، أو خوف تعجيل العقوبة في الدنيا والافتضاح قبل الموت ، أو خوف الاغترار بزخارف الدنيا ، أو خوف اطلاع الله على سريره في حال غفلته عنه ، أو خوف الختم له عند الموت بخاتمة السوء ، أو خوف السابقة التي سبقت له في الأزل . . فهذه كلّها مخاوف العارفين ، ولكل واحد خصوص فائدة ، وهو سلوك سبيل الحذر عمّا يفضي إلى المخوف .

فمن يخاف استيلاء العادة عليه . . فيواظب على الفطام عن العادة ، والذي يخاف من اطلاع الله على سريره يشتغل بتطهير قلبه عن الوسوس ، وهكذا إلى بقية الأقسام .

وأغلب هذه المخاوف على المتقين خوف الخاتمة ، فإن الأمر فيه مُخْطَرٌ ، وأعلى الأقسام وأدّلّها على كمال المعرفة خوف السابقة ؛ لأنّ الخاتمة تتبع السابقة ، وفرع يتفرع عنها بعد تخلّل أسباب كثيرة ، فالخاتمة تُظهر ما سبق به القضاء في أم الكتاب .

والخائف من الخاتمة بالإضافة إلى الخائف من السابقة كرجلين وقَعَ الملك في حقهما بتوقيع ، يحتمل أن يكون فيه حز الرقبة ، ويحتمل أن يكون فيه تسليم الوزارة إليه ، ولم يصل التوقيع إليهما بعد ، فيرتبط قلب أحدهما بحالة وصول التوقيع ونشره ، وأنه عمّاذا يظهر ، ويرتبط قلب الآخر بحالة توقيع الملك وكيفيته وأنه ما الذي خطر له في حال التوقيع من رحمة أو

غضبٍ ، وهذا التفاتٌ إلى السببِ ، فهو أعلى من الالتفاتِ إلى ما هو فرعٌ ؛ فكَذَلِكَ الالتفاتُ إلى القضاءِ الأزلي الذي جرى بتوقيعه القلمُ أعلى من الالتفاتِ إلى ما يظهرُ في الأبدِ .

وإليه أشارَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ حيثُ كَانَ على المنبرِ ، فقبضَ كَفَّهُ اليمنى ثمَّ قَالَ : « هذا كتابُ الله ، كُتِبَ فيه أهلُ الجنةِ بأسمائِهِمْ وأسماءُ آبائِهِمْ ، لا يُزَادُ فِيهِمْ ولا ينقصُ » ، ثمَّ قبضَ كَفَّهُ اليسرى وقالَ : « هذا كتابُ الله ، كُتِبَ فيه أهلُ النارِ بأسمائِهِمْ وأسماءُ آبائِهِمْ ، لا يُزَادُ فِيهِمْ ولا ينقصُ ، وليعملنَّ أهلُ السعادةِ بعملِ أهلِ الشقاءِ حتَّى يُقالَ كأنَّهُمْ مِنْهُمْ ، بل هُمْ هُمْ ، ثمَّ يستنقذُهُمُ اللهُ تعالى قبلَ الموتِ ولو بفُواقِ ناقةٍ ، وليعملنَّ أهلُ الشقاءِ بعملِ أهلِ السعادةِ حتَّى يُقالَ كأنَّهُمْ مِنْهُمْ ، بل هُمْ هُمْ ، ثمَّ يستخرجُهُمُ اللهُ عزَّ وجلَّ قبلَ الموتِ ولو بفُواقِ ناقةٍ ، السعيدُ مَنْ سَعَدَ بقضاءِ اللهِ ، والشقيُّ مَنْ شَقِيَ بقضاءِ اللهِ ، والأعمالُ بالخواتيمِ » (١) .

وهذا كَانقسامِ الخائفينَ إلى مَنْ يخافُ معصيتهَ وجنائتهُ ، وإلى مَنْ يخافُ اللهُ تعالى نفسهَ لصفتهِ وجلالهِ وأوصافِهِ التي تقتضي الهيبةَ لا محالةً ، فهذا أعلى رتبةً ، ولذلك يبقى خوفُهُ وإن كَانَ في طاعةِ الصديقينَ ، وأما الآخرُ . فهو في عرضةِ الغرورِ ، والأمنِ إنَّ واطبَ على الطاعاتِ .

(١) رواه الترمذي (٢١٤١) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ومطلعه : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي يده كتابان ، فقال : « أتدرون ما هذان الكتابان ؟ » ثم ساقه بنحوه .

فَالْخَوْفُ مِنَ الْمَعْصِيَةِ خَوْفُ الصَّالِحِينَ ، وَالْخَوْفُ مِنَ اللَّهِ خَوْفُ
 الْمَوْحِدِينَ وَالصَّادِقِينَ ، وَهُوَ ثَمَرَةُ الْمَعْرِفَةِ بِاللَّهِ تَعَالَى ، فَكُلُّ مَنْ عَرَفَهُ
 وَعَرَفَ صِفَاتِهِ . . عَلِمَ مِنْ صِفَاتِهِ مَا هُوَ جَدِيرٌ بِأَنْ يُخَافَ مِنْ غَيْرِ جَنَائِهِ ، بَلِ
 الْعَاصِي لَوْ عَرَفَ اللَّهَ حَقَّ الْمَعْرِفَةِ . . لَخَافَ اللَّهَ وَلَمْ يَخَفْ مَعْصِيَتَهُ ، وَلَوْ لَا
 أَنَّهُ مَخَوْفٌ فِي نَفْسِهِ . . لَمَا سَخَّرَهُ لِلْمَعْصِيَةِ ، وَيَسَّرَ لَهُ سَبِيلَهَا ، وَمُهَّدَ لَهُ
 أَسْبَابَهَا ، فَإِنَّ تَيْسِيرَ أَسْبَابِ الْمَعْصِيَةِ إِبْعَادٌ ، وَلَمْ يَسْبِقْ مِنْهُ قَبْلَ الْمَعْصِيَةِ
 مَعْصِيَةٌ اسْتَحَقَّ بِهَا أَنْ يَسَخَّرَ لِلْمَعْصِيَةِ ، وَتَجَرَّى عَلَيْهِ أَسْبَابُهَا ، وَلَا سَبَقَ قَبْلَ
 الطَّاعَةِ وَسِيلَةٌ تَوْسَّلُ بِهَا مَنْ يُسَّرُ لَهُ الطَّاعَاتُ وَمُهَّدَ لَهُ سَبِيلُ الْقُرْبَاتِ ،
 فَالْعَاصِي قَدْ قَضَى عَلَيْهِ بِالْمَعْصِيَةِ شَاءَ أَمْ أَبَى ، وَكَذَا الْمَطِيعُ ، فَالَّذِي يَرْفَعُ
 مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى أَعْلَى عِلِّيِّينَ مِنْ غَيْرِ وَسِيلَةٍ سَبَقَتْ مِنْهُ قَبْلَ
 وَجُودِهِ ، وَيَضَعُ أَبَا جَهْلٍ فِي أَسْفَلِ سَافِلِينَ مِنْ غَيْرِ جَنَائِهِ سَبَقَتْ مِنْهُ قَبْلَ
 وَجُودِهِ . . جَدِيرٌ بِأَنْ يُخَافَ لَصِفَةِ جَلَالِهِ ، فَإِنَّ مَنْ أَطَاعَ اللَّهَ . . أَطَاعَ بِأَنْ
 سَلَّطَ عَلَيْهِ إِرَادَةَ الطَّاعَةِ ، وَآتَاهُ الْقُدْرَةَ ، وَبَعَدَ خَلْقَ الْإِرَادَةِ الْجَازِمَةِ وَالْقُدْرَةَ
 التَّامَّةَ بِصِيرُ الْفَعْلِ ضَرُورِيًّا ، وَالَّذِي عَصَى . . عَصَى لِأَنَّهُ سَلَّطَ عَلَيْهِ إِرَادَةً قَوِيَّةً
 جَازِمَةً ، وَآتَاهُ الْأَسْبَابَ وَالْقُدْرَةَ ، فَكَانَ الْفَعْلُ بَعْدَ الْإِرَادَةِ وَالْقُدْرَةِ ضَرُورِيًّا .
 فَلَيْتَ شَعَرِي ؛ مَا الَّذِي أَوْجَبَ إِكْرَامَ هَذَا وَتَخْصِيصَهُ بِتَسْلِيْطِ إِرَادَةِ
 الطَّاعَاتِ عَلَيْهِ ، وَمَا الَّذِي أَوْجَبَ إِهَانَةَ الْآخِرِ وَإِبْعَادَهُ بِتَسْلِيْطِ دَوَاعِي
 الْمَعْصِيَةِ عَلَيْهِ ؟! وَكَيْفَ يُحَالُ ذَلِكَ عَلَى الْعَبْدِ ؟! وَإِذَا كَانَتِ الْحَوَالَةُ
 تَرْجِعُ إِلَى الْقَضَاءِ الْأَزَلِيِّ مِنْ غَيْرِ جَنَائِهِ وَلَا وَسِيلَةٍ . . فَالْخَوْفُ مِمَّنْ يَقْضِي

بما يشاء ويحكم بما يريدُ حزمٌ عند كلِّ عاقلٍ .

ووراءَ هذا المعنى سرُّ القدرِ الذي لا يجوزُ إفشاؤه .

ولا يمكنُ تفهيمُ الخوفِ منه في صفاته جلَّ جلاله إلا بمثالٍ لولا إذنُ الشرع . . لم يستجرى على ذكره ذو بصيرة ، فقد جاء في الخبر : أن الله تعالى أوحى إلى داودَ عليه السلام : (يا داودُ ؛ خفني كما تخافُ السبعَ الضاري)^(١) .

فهذا المثالُ يفهمُك حاصلَ المعنى ، وإن كان لا يقفُ بك على سببه ، فإن الوقوفَ على سببه وقوفٌ على سرِّ القدرِ ، ولا يكشفُ ذلك إلا لأهله .

والحاصلُ : أن السبعَ يُخافُ لا لجنايةٍ سبقت إليه منك ، بل لصفته وبطشه وسطوته ، وكبره وهيبته ، ولأنه يفعلُ ما يفعلُ ولا يبالي ، فإن قتلك . . لم يرقَّ قلبه ولم يتألم بقتلك ، وإن خلأك . . لم يخلُك شفقةً عليك وإبقاءً على روحك ، بل أنتَ عندهُ أخسُّ من أن يلتفتَ إليك حيّاً كنتَ أو ميتاً ، بل إهلاكُ ألفِ مثلك وإهلاكُ نملةٍ عندهُ على وتيرةٍ واحدةٍ ؛ إذ لا يقدحُ ذلك في عالمِ سبعيته ، وما هو موصوفٌ به من قدرته وسطوته ، والله المثلُ الأعلى .

(١) قوت القلوب (٢٤١ / ١) ، قال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً ، ولعل المصنف قصد بإيراده أنه من الإسرائيليات ، فإنه عبر عنه بقوله : جاء في الخبر ، وكثيراً ما يعبر بذلك عن الإسرائيليات التي هي غير مرفوعة) . « إتحاف » (٢٠٧ / ٩) .
وعند السيوطي في « الدر المنثور » (٢٧٠ / ٣) : (وأخرج ابن المنذر عن جعفر قال : أوحى الله إلى داود : خفني على كل حال . . .) .

ولكن مَنْ عرفه.. عرف بالمشاهدة الباطنة التي هي أقوى وأوثق وأجلى من المشاهدة الظاهرة أنه صادق في قوله : (هؤلاء في الجنة ولا أبالي ، هؤلاء في النار ولا أبالي)^(١) ، وكيفيك من موجبات الهيبة والخوف المعرفة بالاستغناء وعدم المبالاة .

الطبقة الثانية من الخائفين : أن يتمثل في أنفسهم ما هو المكروه ، وذلك مثل سكرات الموت وشدته ، أو سؤال منكرٍ ونكيرٍ ، أو عذاب القبر ، أو هول المطلع ، أو هيبة الموقف بين يدي الله تعالى ، أو الحياء من كشف الستر والسؤال عن النقيز والقطمير ، أو الخوف من الصراط وحدته ، وكيفيّة العبور عليه ، أو الخوف من النار وأغلالها وأهوالها ، أو الخوف من الحرمان عن الجنة دار النعيم والملك المقيم ، وعن نقصان الدرجات ، أو الخوف من الحجاب عن الله تعالى .

وكل هذه الأسباب مكروهة في أنفسها ، فهي - لا محالة - مخوفة ، وتختلف أحوال الخائفين فيها ، وأعلاها رتبة هو خوف الفراق والحجاب عن الله تعالى ، وهو خوف العارفين ، وما قبل ذلك خوف العابدين والصالحين والزاهدين وكافة العاملين .

ومن لم تكمل معرفته ، ولم تنفتح بصيرته.. لم يشعر بلذة الوصال ،

(١) رواه أحمد في « المسند » (١٨٦/٤) ، وابن حبان في « صحيحه » (٣٣٨) من حديث عبد الرحمن السلمي رضي الله عنه مرفوعاً .

ولا بآلم البعد والفراق ، وإذا ذُكرَ له أنَّ العارف لا يخافُ النارَ ، وإنما يخافُ الحجابَ . . وجدَ ذلكَ منكراً في باطنه ، وتعجَّبَ منه في نفسه ، وربَّما أنكرَ لذَّةَ النظرِ إلى وجهِ اللهِ الكريمِ لولا منعُ الشرعِ إيَّاهُ مِنْ إنكارِهِ ، فيكونُ اعترافُهُ بهِ باللسانِ عن ضرورةِ التقليدِ ، وإلا . . فباطنُهُ لا يصدِّقُ بهِ ؛ لأنَّهُ لا يعرفُ إلا لذَّةَ البطنِ والفرجِ ، والعينِ بالنظرِ إلى الألوانِ والوجوهِ الحسانِ ، وبالجملةِ : كلُّ لذَّةٍ تشاركُهُ البهائمُ فيها ، فأما لذَّةُ العارفينَ . . فلا يدركُها غيرُهُمْ ، وتفصيلُ ذلكَ وشرحهُ حرامٌ مع مَنْ ليسَ أهلاً له ، ومَنْ كانَ أهلاً له . . استبصرَ بنفسِهِ واستغنى عن أن يشرحهُ له غيرهُ .

فإلى هذهِ الأقسامِ يرجعُ خوفُ الخائفينَ ، نسألُ اللهَ تعالى حسنَ التوفيقِ بكرمِهِ .



بيان فضيلة الخوف والرغب فيه

اعلم : أنَّ فضلَ الخوفِ تارة يُعرفُ بالتأملِ والاعتبارِ ، وتارةً بالآياتِ والأخبارِ .

أما الاعتبارُ : فسيُلهُ أنَّ فضيلةَ الشيءِ بقدرِ غنائه في الإفضاءِ إلى سعادةِ لقاءِ الله تعالى في الآخرة ؛ إذ لا مقصودَ سوى السعادةِ ، ولا سعادةَ للعبدِ إلا في لقاءِ مولاهُ والقربِ منه ، فكلُّ ما أعانَ عليه فلهُ فضيلةٌ ، وفضيلتهُ بقدرِ إعانتِهِ ، وقدَّ ظهرَ أنَّه لا وصولَ إلى سعادةِ لقاءِ الله في الآخرةِ إلا بتحصيلِ محبَّتهِ والأنسِ بهِ في الدنيا ، ولا تحصيلُ المحبَّةِ إلا بالمعرفةِ ، ولا تحصيلُ المعرفةِ إلا بدوامِ الفكرِ ، ولا يحصلُ الأنسُ إلا بالمحبةِ ودوامِ الذكرِ ، ولا تيسَّرُ المواظبةُ على الذكرِ والفكرِ إلا بانقلاعِ حبِّ الدنيا مِنَ القلبِ ، ولا ينقلعُ ذاكُ إلا بتركِ لذاتِ الدنيا وشهواتِها ، ولا يمكنُ تركُ المشتَهياتِ إلا بقمعِ الشهواتِ ، ولا تنقمعُ الشهوةُ بشيءٍ كما تنقمعُ بنارِ الخوفِ ، فالخوفُ هو النارُ المحرقةُ للشهواتِ .

فإذا ؛ فضيلتهُ بقدرِ ما يحرقُ مِنَ الشهوةِ ، وبقدرِ ما يكفُّ عنِ المعاصي ويحثُّ على الطاعاتِ ، ويختلفُ ذلكُ باختلافِ درجاتِ الخوفِ كما سبقَ .

وكيفَ لا يكونُ الخوفُ ذا فضيلةٍ وبه تحصلُ العفَّةُ ، والورعُ ،

والتقوى ، والمجاهدة ، وهي الأعمال الفاضلة المحموده التي يُتَقَرَّبُ بها
إلى الله زلفى !؟



وأما بطريق الاقتباس من الآيات والأخبار : فما ورد في فضيلة الخوف
خارج عن الحصر ، وناهيك دلالة على فضيلته جمعُ الله تعالى للخائفين
الهدى والرحمة والعلم والرضوان ، وهي مجامع مقامات أهل الجنان ،
قال الله تعالى : ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ ، فوصفهم بالعلم
لخشيتهم .

وقال تعالى : ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ .

وكل ما دلَّ على فضيلة العلم دلَّ على فضيلة الخوف ؛ لأنَّ الخوف ثمره
العلم ، ولذلك جاء في خبر موسى عليه السلام : (وأما الخائفون .. فإنَّ
لَهُمُ الرِّفِيقَ الْأَعْلَى ، لا يُشَارِكُونَ فِيهِ)^(١) ، فانظر كيف أفردهم بمرافقة
الرفيق الأعلى ، وذلك لأنَّهُم العلماء ، والعلماء لَهُم رتبة مرافقة الأنبياء ؛
لأنَّهُم ورثة الأنبياء ، ومرافقة الرفيق الأعلى للأنبياء وَمَنْ يَلْحَقْ بِهِمْ ، ولذلك

(١) كذا في « القوت » (٢٢٥ / ١) ، ورواه الطبراني في « الكبير » (١٢٠ / ١٢) ،
والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٤٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً ضمن خبر ،
وفيه : « وأما الباكون من خشيتي .. فأولئك لهم الرفيق الأعلى لا يشاركهم فيه
أحد » .

لَمَّا خَيَّرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَرَضٍ مَوْتَهُ بَيْنَ الْبَقَاءِ فِي الدُّنْيَا وَبَيْنَ الْقُدُومِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى .. كَانَ يَقُولُ : « أَسْأَلُكَ الرَّفِيقَ الْأَعْلَى » (١) .

فَإِذَا ؛ إِنْ نَظَرَ إِلَى مُثْمَرِهِ .. فَهُوَ الْعِلْمُ ، وَإِنْ نَظَرَ إِلَى ثَمَرَتِهِ .. فَالْوَرَعُ وَالتَّقْوَى ، وَلَا يَخْفَى مَا وَرَدَ فِي فَضَائِلِهِمَا ، حَتَّى إِنْ الْعَاقِبَةُ صَارَتْ مُوسِمَةً بِالتَّقْوَى مَخْصُوصَةً بِهَا كَمَا صَارَ الْحَمْدُ مَخْصُوصاً بِاللَّهِ تَعَالَى وَالصَّلَاةُ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، حَتَّى يُقَالَ : (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ، وَالصَّلَاةُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ أَجْمَعِينَ) .

وَقَدْ خَصَّصَ اللَّهُ تَعَالَى التَّقْوَى بِالْإِضَافَةِ إِلَى نَفْسِهِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ بِنَآلِهِ النَّقْوَى مِنْكُمْ ﴾ ، وَإِنَّمَا التَّقْوَى عِبَارَةٌ عَنْ كَفِّ بِمَقْتَضَى الْخَوْفِ كَمَا سَبَقَ ، وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنْ أَكْرَمَكُمُ عِنْدَ اللَّهِ أَنْقَذَكُمُ ﴾ ، وَلِذَلِكَ وَصَّى اللَّهُ تَعَالَى الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ بِالتَّقْوَى ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ، فَأَمَرَ بِالْخَوْفِ وَأَوْجَبَهُ وَشَرْطَهُ فِي الْإِيمَانِ ، فَلِذَلِكَ لَا يُتَصَوَّرُ أَنْ يَنْفَكَّ مُؤْمِنٌ عَنْ خَوْفٍ وَإِنْ ضَعُفَ ، وَيَكُونُ ضَعْفُ خَوْفِهِ بِحَسَبِ ضَعْفِ مَعْرِفَتِهِ وَإِيمَانِهِ .

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي فَضِيلَةِ التَّقْوَى : « إِذَا جُمِعَ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ .. نَادَاهُمْ بِصَوْتٍ يُسْمَعُ أَقْصَاهُمْ كَمَا

(١) رواه البخاري (٣٦٧٠) ، ومسلم (٢١٩١ ، ٢٤٤٤) .

يُسمعُ أدناهم فيقولُ : يا أيُّها الناسُ ؛ إنِّي قد أنصتُ لكم منذُ خلقتُكم إلى يومِكُم هذا ، فأنصتوا لي اليومَ ، إنَّما هيَ أعمالُكم تُردُّ عليكم ، أيُّها الناسُ ؛ إنِّي قد جعلتُ نسباً وجعلتُم نسباً ، فوضعتُم نسبي ورفعتُم نسبكم ، قلتُ : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ ، وأبيتُم إلا أن تقولوا : فلانُ بنُ فلانٍ ، وفلانُ أغني من فلانٍ ، فاليومَ أضعُ نسبكم وأرفعُ نسبي ، أين المتقون ؟ فيُنصبُ للقومِ لواءٌ ، فيتبعُ القومُ لواءهم إلى منازلهم ، فيدخلون الجنةَ بغيرِ حسابٍ ^(١) .

وقالَ عليه الصلاة والسلامُ : « رأسُ الحكمةِ مخافةُ الله » ^(٢) .

وقالَ عليه الصلاة والسلامُ لابنِ مسعودٍ : « إن أردتَ أن تلقاني .. فأكثر من الخوفِ بعدي » ^(٣) .

وقالَ الفضيلُ : (مَنْ خافَ اللهَ .. دلَّهُ الخوفُ على كلِّ خيرٍ) ^(٤) .

(١) كذا في « القوت » (٢٢٥/١) ، ورواه الطبراني في « الصغير » (٢٣٠/١) ، و« الأوسط » (٤٥٠٨) ، والحاكم في « المستدرک » (٤٦٣/٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً .

(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٧٣٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه ، وفي « دلائل النبوة » (٢٤١/٥) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه ضمن خبر طويل ، وفيه : « رأس الحكم ... » ، وتقدم أنه فاتحة الزبور ، وهو ما رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٣٩٣) .

(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٢٦) .

(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٢٦) .

وقال الشبلي رحمه الله : (ما خفتُ اللهَ يوماً إلا رأيتُ له باباً من الحكمة والعبرة ما رأيته قط) (١) .

وقال يحيى بن معاذ : (ما من مؤمنٍ يعملُ سيئةً إلا وتلحقهُ حستان : خوفُ العقابِ ، ورجاءُ العفو ، كثعلبٍ بين أسدين) (٢) .

وفي خبر موسى عليه الصلاة والسلام : (وأما الورعون . . فإنه لا يبقى أحدٌ إلا ناقشته الحساب ، وفتشتُ عمّا في يديه إلا الورعين ؛ فإنّي أستحييهم وأجلّهم أن أوقفهم للحساب) (٣) .

والورع والتقوى أسامٍ اشتقتُ من معانٍ شرطها الخوفُ ، فإن خلا شيءٌ منها عن الخوفِ . . لم تُسمَّ بهذه الأسماء .

وكذلك ما وردَ في فضائلِ الذكرِ لا يخفى ، وقد جعله الله تعالى مخصوصاً بالخائفين ، فقال ﴿ سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى ﴾ .
وقال تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴾ .

وقال صلى الله عليه وسلم : « قال الله عز وجل : وعزّتي ؛ لا أجمعُ على عبدي خوفين ، ولا أجمعُ له أمنيين ، فإذا أمني في الدنيا . . أخفته يومَ

(١) أورده الخرکوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٢٨) .

(٢) أورده الخرکوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٢٨) .

(٣) رواه الطبراني في « الكبير » (١٢٠ / ١٢) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٤٧) .

القيامة ، وإذا خافني في الدنيا . . أَمَّنْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ « (١) .

وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مَنْ خَافَ اللَّهَ تَعَالَى . . خَافَهُ كُلُّ شَيْءٍ ، وَمَنْ خَافَ غَيْرَ اللَّهِ . . خَوَّفَهُ اللَّهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ » (٢) .

وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أَتَمُّكُمْ عَقْلاً أَشَدُّكُمْ لِلَّهِ تَعَالَى خَوْفاً ، وَأَحْسَنُكُمْ فِيمَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ وَنَهَى عَنْهُ نَظْراً » (٣) .

وقال يحيى بن معاذٍ رحمه الله عليه : (مسكينٌ ابنُ آدمَ ، لو خاف النارَ كما يخافُ الفقرَ . . دخلَ الجنةَ) (٤) .

وقال ذو النونٍ رحمه الله تعالى : (مَنْ خَافَ اللَّهَ تَعَالَى . . ذَابَ قَلْبُهُ ، وَاشْتَدَّ لَهْجُهُ ، وَصَحَّ لَهُ لَبُّهُ) (٥) .

وقال ذو النونٍ أيضاً : (ينبغي أن يكونَ الخوفُ أبلغَ مِنَ الرجاءِ ،

(١) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٦٤٠) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٥٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً .

(٢) قال الحافظ العراقي : (رواه أبو الشيخ في كتاب « الثواب » من حديث أبي أمامة بسند ضعيف جداً ، ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب « الخائفين » بإسناد معضل) . « إتحاف » (٢١١ / ٩) .

(٣) من أحاديث ابن المحبر في « العقل » . انظر « الإتحاف » (٤٥٨ / ١) .

(٤) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٢١٥ / ١٤) ، وأورده القشيري في « رسالته » (ص ٢٣٦) .

(٥) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٢٩) ، وبنحوه القشيري في « رسالته » (ص ٢٣٨) .

فإذا غلب الرجاء.. تشوش القلب (١).

وكان أبو الحسين الضريّر يقول : (علامة السعادة خوف الشقاوة ؛ لأنّ الخوف زمام بين الله تعالى وبين عبده ، فإذا انقطع زمامه.. هلك مع الهالكين) (٢).

وقيل ليحيى بن معاذ : مَنْ آمَنُ الخلقِ غداً ؟ قال : أشدُّهم خوفاً اليوم (٣).

وقال سهل رحمه الله : (لا تجدُ الخوفَ حتّى تأكلَ الحلال) (٤).

وقيل للحسن : يا أبا سعيد : كيف نصنعُ بمجالسةِ أقوامٍ يخوفوننا حتّى تكادُ قلوبنا تطيرُ ؟ فقال : إنَّكَ واللهِ أنْ تخالطَ أقواماً يخوفونك حتّى يدركَكَ أمْنٌ.. خيرٌ لكِ مِنْ أنْ تصحبَ قوماً يؤمّنونك حتّى يدركَكَ الخوفُ (٥).

وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله : (ما فارقَ الخوفُ قلباً إلا خرب) (٦).

وقالت عائشة رضي الله عنها : قلتُ : يا رسولَ الله ؛ ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً اتَّوَأَوْقُلُوبُهُمْ وَجِلَّةٌ ﴾ هو الرجلُ يسرقُ ويزني ؟ قال : « لا ، بل الرجلُ يصومُ

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٢٩).

(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٣٠).

(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٣١).

(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٣٢).

(٥) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٣٠٣) ، وكان السائل له المغيرة بن مخادش .

(٦) رواه القشيري في « رسالته » (ص ٢٣٧).

وَيُصَلِّي وَيُصَدِّقُ وَيَخَافُ أَلَا يُقْبَلُ مِنْهُ « (١) .

والتشديدات الواردة في الأمن من مكر الله وعذابه لا تنحصر ، وكل ذلك ثناء على الخوف ؛ لأن مدممة الشيء ثناء على ضده الذي ينفيه ، وضد الخوف الأمن ؛ كما أن ضد الرجاء اليأس ، وكما دللت مدممة القنوط على فضيلة الرجاء فكذلك تدل مدممة الأمن على فضيلة الخوف المضاد له .

بل نقول : كل ما ورد في فضل الرجاء فهو دليل على فضل الخوف ؛ لأنهما متلازمان ؛ فإن كل من رجا محبوباً . . فلا بد وأن يخاف فوته ، فإن كان لا يخاف فوته . . فهو إذاً لا يحبّه ، فلا يكون بانتظاره راجياً ، فالخوف والرجاء متلازمان ، يستحيل انفكاك أحدهما عن الآخر .

نعم ، يجوز أن يغلب أحدهما على الآخر وهما مجتمعان ، ويجوز أن يشتغل القلب بأحدهما ولا يلتفت إلى الآخر في الحال لغفلة عنه ، وهذا لأن من شرط الرجاء والخوف تعلُّقهما بما هو مشكوك فيه ؛ إذ المعلوم لا يُرجى ولا يُخاف .

فإذا ؛ المحبوب الذي يجوز وجوده يجوز عدمه لا محالة ، فتقدير وجوده يروّح القلب ، وهو الرجاء ، وتقدير عدمه يوجع القلب ، وهو الخوف ، والتقديران يتقابلان - لا محالة - إذا كان ذلك الأمر المتظّر مشكوكاً فيه .

(١) رواه الترمذي (٣١٧٥) ، وابن ماجه (٤١٩٨) .

نعم ، أحد طرفي الشكّ قد يترجّح على الآخر بحضور بعض الأسباب ،
ويُسمّى ذلك ظناً ، فيكون ذلك سبب غلبة أحدهما على الآخر ، فإذا غلب
على الظنّ وجود المحبوب . . قوي الرجاء وخفي الخوف بالإضافة إليه ،
وكذا بالعكس .

وعلى كلّ حال فهما متلازمان ، ولذلك قال تعالى : ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا
وَرَهْبًا ﴾ ، وقال : ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ .

ولذلك عبّر العرب عن الخوف بالرجاء ، قال تعالى : ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ
وَقَارًا ﴾ أي : لا تخافون^(١) ، وكثيراً ما ورد في القرآن الرجاء بمعنى
الخوف^(٢) ، وذلك لتلازميهما ؛ إذ عادة العرب التعبير عن الشيء بما
يلازمه .

بل أقول : كلّ ما ورد في فضل البكاء من خشية الله فهو إظهاراً لفضيلة

(١) قال الإمام الطبري في « تفسيره » (١٤ / ٢٩ / ١١٧) : (وأولى الأقوال في ذلك عندنا
بالصواب قول من قال : معنى ذلك : ما لكم لا تخافون لله عظمة ، وذلك أن الرجاء قد
تضعه العرب إذا صحبه الجحد - النفي - في موضع الخوف) ، ثم أنشد قول
أبي ذؤيب :

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها وخالفها في بيت نوب عواسل
(٢) ومن ذلك قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ﴾ ، وقوله سبحانه : ﴿ بَلْ كَانُوا لَا
يَرْجُونَ شُورًا ﴾ ، ومنه قوله تعالى : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ ﴾ ؛
والمعنى فيها : لا يخافون .

الخشية ؛ فَإِنَّ الْبُكَاءَ ثَمَرَةُ الْخَشْيَةِ ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا ﴾ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَتَكُونُ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَفَمَنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعَجَّبُونَ ﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿ وَأَنْتُمْ سَعِيدُونَ ﴾ .

وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مَا مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ تَخْرُجُ مِنْ عَيْنِهِ دَمْعَةٌ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ رَأْسِ الذِّبَابِ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى ثُمَّ تَصِيبُ شَيْئًا مِنْ حُرِّ وَجْهِهِ . . إِلَّا حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ » (١) .

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : « إِذَا اقشَعَرَ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى . . تَحَاتَّتْ عَنْهُ خَطَايَاهُ كَمَا يَتَحَاتُّ مِنَ الشَّجَرَةِ وَرَقُهَا » (٢) .

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لَا يَلْجُ النَّارَ أَحَدٌ بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى حَتَّى يَعُودَ اللَّبَنُ فِي الضَّرْعِ » (٣) .

وَقَالَ عَقَبَةُ بْنُ عَامِرٍ : مَا النِّجَاةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : « أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ ، وَلْيَسَعَكَ بَيْتُكَ ، وَابِكْ عَلَى خَطِيئَتِكَ » (٤) .

وَقَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ أَيْدْخُلُ أَحَدٌ مِنْ

(١) رواه ابن ماجه (٤١٩٧) ، وَحُرِّجَ الْوَجْهَ : مَا أَقْبَلَ عَلَيْكَ وَبَدَا لَكَ مِنْهُ .

(٢) رواه البزار في « مسنده » (١٣٢٢) ، وَابْنُ قَانَعٍ فِي « معجم الصحابة » (١٤٠٥) مِنْ حَدِيثِ الْعَبَّاسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَلَفْظُهُ : « إِذَا اقشَعَرَ جِلْدُ الْعَبْدِ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ . . تَحَاتَّتْ عَنْهُ خَطَايَاهُ كَمَا تَحَاتُّ عَنْ الشَّجَرَةِ الْيَابِسَةِ وَرَقُهَا » .

(٣) رواه الترمذي (١٦٣٣) ، وَالنَّسَائِيُّ (١٢/٦) .

(٤) رواه الترمذي (٢٤٠٦) .

أَمَّتِكَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ ؟ قَالَ : « نَعَمْ ، مَنْ ذَكَرَ ذَنْبَهُ فَبَكَى » ^(١) .

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مَا مِنْ قَطْرَةٍ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ قَطْرَةٍ دَمَعٍ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ، أَوْ قَطْرَةٍ دَمٍ أَهْرَيْقَتْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ » ^(٢) .

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « اللَّهُمَّ ؛ ارْزُقْنِي عَيْنَيْنِ هَاطِلَتَيْنِ تَشْفِيَانِ بِذُرُوفِ الدَّمَعِ قَبْلَ أَنْ تَصِيرَ الدَّمُوعُ دَمًا وَالْأَضْرَاسُ جَمْرًا » ^(٣) .

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « سَبْعَةٌ يَظْلُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ » وَذَكَرَ مِنْهُمْ رَجُلًا ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ ^(٤) .

وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : (مَنْ اسْتَطَاعَ أَنْ يَبْكِيَ . . فليَبْكِ ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ . . فليَتَبَاكَ) ^(٥) .

وَكَانَ مُحَمَّدُ بْنُ الْمُنْكَدِرِ إِذَا بَكَى . . مَسَحَ وَجْهَهُ وَلَحِيَّتَهُ مِنْ دَمْعِهِ وَيَقُولُ : (بَلَّغْنِي أَنَّ النَّارَ لَا تَأْكُلُ مَوْضِعًا مَسَّتُهُ الدَّمُوعُ) ^(٦) .

(١) قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٢١٤ / ٩) : (أغفله العراقي) .

(٢) رواه الترمذي (١٦٦٩) .

(٣) رواه الطبراني في « الدعاء » (١٤٥٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٩٦ / ٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

(٤) رواه البخاري (٦٦٠) ، ومسلم (١٠٣١) .

(٥) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٣١) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٨٥) ، وقال : (يعني : التضرع) .

(٦) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٧١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٠ / ٥٦) ، وروى البيهقي في « الشعب » (٧٨٦ ، ٧٨٧) عن علي كرم الله =

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما : (ابكوا ، فإن لم تبكوا . فتباكوا ، فوالذي نفسي بيده ؛ لو يعلم العلم أحدكم . . لصرخ حتى ينقطع صوته ، وصلى حتى ينكسر صلبه) (١) .

وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله : (ما تفرغرت عين بمائها إلا لم يرهق وجه صاحبها قطر ولا ذلة يوم القيامة ، فإن سالت دموعه . . أطفأ الله بأول قطرة منها بحاراً من النيران ، ولو أن رجلاً بكى في أمة ما عذبت تلك الأمة) (٢) .

وقال أبو سليمان : (البكاء من الخوف ، والرجاء والطرب من الشوق) .

وقال كعب الأحبار : (والذي نفسي بيده ؛ لأن أبكي من خشية الله حتى تسيل دموعي على وجنتي . . أحب إلي من أن أتصدق بجبل من ذهب) (٣) .

وقال عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما : (لأن أدمع دموعاً من خشية الله أحب إلي من أن أتصدق بألف دينار) (٤) .

وروي عن حنظلة قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

= وجهه قال : (إذا دمت عينك وسالت دموعك على خدك . . فلا تكفها بثوبك ، وامسح بها وجهك حتى تلقى الله بها) .

(١) رواه الحاكم في « المستدرک » (٥٧٨ / ٤) .

(٢) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٢١٥ / ٩) .

(٣) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٦٩٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣٦٦ / ٥) .

(٤) رواه البيهقي في « الشعب » (٨١٦) .

فوعظنا موعظة رقت منها القلوب ، وذرفت منها العيون ، وعرفنا أنفسنا ، فرجعنا إلى أهلي ، فدننت مني المرأة ، وجرى بيننا من حديث الدنيا ، فنسيت ما كنا عليه عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخذنا في الدنيا ، ثم تذكرت ما كنت فيه ، وقلت في نفسي : قد نافقت حيث تحولت عني ما كنت فيه من الخوف والرفقة ، فخرجت وجعلت أنادي : نافق حنظلة ، فاستقبلني أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقال : كلا لم ينافق حنظلة ، فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أقول : نافق حنظلة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كلا ، لم تنافق » ، فقلت : يا رسول الله ؛ كنا عندك ، فوعظتنا موعظة وجلت منها القلوب ، وذرفت منها العيون ، وعرفنا أنفسنا ، فرجعنا إلى أهلي ، فأخذنا في حديث الدنيا ، ونسيت ما كنا عندك عليه ، فقال عليه الصلاة والسلام : « يا حنظلة ؛ لو أنكم كنتم أبداً على تلك الحالة .. لصافحتكم الملائكة في الطرق وعلى فرشكم ، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة »^(١) .

فإذا ؛ كل ما ورد في فضل الرجاء والبكاء ، وفضل التقوى والورع ، وفضل العلم ومذمة الأمن .. فهو دلالة على فضل الخوف ؛ لأن جملة ذلك متعلقة به ، إما تعلق السبب ، أو تعلق المسبب .



(١) رواه مسلم (٢٧٥٠) بالفاظ مقاربة .

بيان أن الأفضل هو غلبة الخوف أو غلبة الرجاء أو اعتدالهما

اعلم : أن الأخبارَ في فضلِ الخوفِ والرجاءِ قد كثرت ، وربما ينظرُ الناظرُ إليهما فيعتريه شكٌّ في أنَّ الأفضلَ أيُّهما ؟

وقولُ القائلِ : الخوفُ أفضلُ أمِ الرجاءُ .. سؤالٌ فاسدٌ ، يضاهي قولَ القائلِ : الخبزُ أفضلُ أمِ الماءُ ، وجوابُهُ أن يُقالَ : الخبزُ أفضلُ للجائعِ ، والماءُ أفضلُ للعطشانِ ، فإنِ اجتمعا .. نُظرَ إلى الأغلبِ ، فإن كانَ الجوعُ أغلبَ .. فالخبزُ أفضلُ وإن كانَ العطشُ أغلبَ .. فالماءُ أفضلُ وإن استويا .. فهما متساويانِ ، وهذا لأنَّ كلَّ ما يُرادُ لمقصودٍ ففضلهُ يظهرُ بالإضافةِ إلى مقصوده لا إلى نفسه .

والخوفُ والرجاءُ دواءانِ تُداوى بهما القلوبُ ، ففضلُهُما بحسبِ الداءِ الموجودِ ، فإن كانَ الغالبُ على القلبِ داءُ الأمنِ مِنْ مكرِ الله والاعتزازِ به .. فالخوفُ أفضلُ ، وإن كانَ الأغلبُ هو اليأسُ والقنوطُ مِنْ رحمةِ الله .. فالرجاءُ أفضلُ ، وكذلك إن كانَ الغالبُ على العبدِ المعصيةَ .. فالخوفُ أفضلُ .

ويجوزُ أن يُقالَ مطلقاً : الخوفُ أفضلُ ، على التأويلِ الذي يُقالُ فيه : الخبزُ أفضلُ مِنَ السكنجيينِ ، إذ يُعالجُ بالخبزِ مرضُ الجوعِ ، وبالسكنجيينِ مرضُ الصفراءِ ، ومرضُ الجوعِ أغلبُ وأكثرُ ، فالحاجةُ إلى الخبزِ أكثرُ ،

فهو أفضل ، فبهذا الاعتبار غلبة الخوف أفضل ؛ لأن المعاصي والاعتزاز على الخلق أغلب .

وإن نظر إلى مطلع الخوف والرجاء . فالرجاء أفضل ؛ لأنه مستقى من بحر الرحمة ، ومستقى الخوف من بحر الغضب ، ومن لاحظ من صفات الله تعالى ما يقتضي اللطف والرحمة . كانت المحبة عليه أغلب ، وليس وراء المحبة مقام ، وأما الخوف . فمستنده الالتفات إلى الصفات التي تقتضي العنف ، فلا تمازج المحبة ممازجتها للرجاء^(١) .

وعلى الجملة : فما يُراد لغيره ينبغي أن يُستعمل فيه لفظ الأصلح ، لا لفظ الأفضل ، فنقول : أكثر الخلق الخوف لهم أصلح من الرجاء ، وذلك لأجل غلبة المعاصي ، فأما النقي الذي ترك ظاهر الإثم وباطنه ، وخفيته وجلية . فالأصلح أن يعتدل خوفه ورجاؤه ، ولذلك قيل : (لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه . . لا اعتدلا)^(٢) .

(١) وممن نظر إلى المطلع صالح بن عبد الكريم ، فقد أورد الخرکوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٣٥) أنه قال : إن الرجاء والخوف في القلب لهما نوران ، فقيل : أيهما أشد ضياء ؟ قال : الرجاء ، فبلغ ذلك أبا سليمان ، فقال أبو سليمان : يا سبحان الله ! ما أعجب هذا الكلام ! الخوف يتشعب منه التقوى والصوم والصلاة وأعمال البر ، والرجاء لا يتشعب منه هذه الخصال ، فكيف يكون أشد ضياء ؟ فبلغ ذلك صالحاً ، فقال : صدق أبو سليمان ، ولكن الرجاء رجع إلى كرمه ، فصار أشد ضياء .

(٢) أورده كل من أبي النصر الطوسي في « اللمع » (ص ٩١) ، والخرکوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٢٧) ، والسلمي في « درجات المعاملات » (ص ١٦٨) مرفوعاً ، =

وَرُوي أَنَّ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ لِبَعْضِ وَلَدِهِ : (يَا بَنِيَّ ؛ خَفِ اللَّهَ خَوْفًا تَرَى أَنَّكَ إِنِ أُتِيَتْهُ بِحَسَنَاتِ أَهْلِ الْأَرْضِ . . لَمْ يَقْبَلْهَا مِنْكَ ، وَارْجُ اللَّهَ رَجَاءً تَرَى أَنَّكَ إِنِ أُتِيَتْهُ بِسَيِّئَاتِ أَهْلِ الْأَرْضِ . . غَفَرَهَا لَكَ) (١) .

وَلِذَلِكَ قَالَ عَمْرٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : (لَوْ نُوْدِي : لِيَدْخُلِ النَّارَ كُلُّ النَّاسِ إِلَّا رَجُلًا وَاحِدًا . . لَرَجَوْتُ أَنْ أَكُونَ أَنَا ذَلِكَ الرَّجُلَ ، وَلَوْ نُوْدِي : لِيَدْخُلِ الْجَنَّةَ كُلُّ النَّاسِ إِلَّا رَجُلًا وَاحِدًا . . لَخَشِيتُ أَنْ أَكُونَ أَنَا ذَلِكَ الرَّجُلَ) (٢) ، وَهَذِهِ عِبَارَةٌ عَنْ غَايَةِ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ ، وَاعْتَدَالِهِمَا مَعَ الْغَلْبَةِ وَالِاسْتِيلَاءِ ، وَلَكِنْ عَلَى سَبِيلِ التَّقَاوُمِ وَالتَّسَاوِي ، فَمِثْلُ عَمْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَنْبَغِي أَنْ يَسَاوِيَ خَوْفَهُ رَجَاؤُهُ ، فَأَمَّا الْعَاصِي إِذَا ظَنَّ أَنَّهُ الرَّجُلُ الَّذِي اسْتَشْنَى مِنَ الَّذِينَ أَمَرُوا بِدُخُولِ النَّارِ . . كَانَ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى اغْتِرَارِهِ .



فَإِنْ قُلْتَ : مِثْلُ عَمْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَتَسَاوَى خَوْفُهُ وَرَجَاؤُهُ ، بَلْ يَنْبَغِي أَنْ يَغْلِبَ رَجَاؤُهُ كَمَا سَبَقَ فِي أَوَّلِ كِتَابِ الرَّجَاءِ ، وَأَنَّ قُوَّتَهُ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ بِحَسَبِ قُوَّةِ أَسْبَابِهِ كَمَا مُثِّلَ بِالْبَذْرِ وَالزَّرْعِ ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَنْ بَثَّ الْبَذَرَ

= وَقَدْ رَوَاهُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي « حَسَنِ الظَّنِّ بِاللَّهِ » (١٣٣) ، وَأَبُو نَعِيمٍ فِي « الْحَلِيَّةِ » (٢٠٨ / ٢) مِنْ كَلَامِ مَطْرَفِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الشَّخِيرِ .

(١) أَوْرَدَهُ الْآبِيُّ فِي « نَثْرِ الدَّرِّ » (١٩٠ / ٥) عَنْ الْحَسَنِ ، وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي « حَسَنِ الظَّنِّ بِاللَّهِ » (١٣٢) عَنْ دَاوُودَ بْنِ شَابُورٍ مِنْ وَصِيَّةٍ لِقِمَانٍ لِابْنِهِ بِلَفْظٍ : (خَفِ اللَّهَ خَوْفًا يَحُولُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الرَّجَاءِ ، وَارْجِهْ رَجَاءً يَحُولُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْخَوْفِ) .

(٢) رَوَاهُ أَبُو نَعِيمٍ فِي « الْحَلِيَّةِ » (٥٣ / ١) .

الصحيح في أرضٍ نقيّةٍ وواظبَ على تعهّدها ، وجاءَ بجميعِ شروطِ الزراعةِ . . غلبَ على قلبه رجاءُ الإدراكِ ، ولم يكنْ خوفُهُ مساوياً لرجائه ، فهكذا ينبغي أن تكونَ أحوالُ المتقينَ .

فاعلمُ : أنَّ مَنْ يأخذُ المعارفَ مِنَ الألفاظِ والأمثلةِ يكثرُ زللُهُ ، وذلكَ وإنْ أوردناه مثلاً ، فليسَ يضاهي ما نحنُ فيه مِنْ كُلِّ وجهٍ ؛ لأنَّ سببَ غلبةِ الرجاءِ العلمُ الحاصلُ بالتجربةِ ، إذ علمَ بالتجربةِ صحّةَ الأرضِ ونقاءها ، وصحّةَ البذرِ ، وصحّةَ الهواءِ ، وقلةَ الصواعقِ المهلكةِ في تلكَ البقاعِ وغيرها ، وإنّما مثالُ مسألتنا بذرٌ لم يُجرَّبْ جنسُهُ ، وقد بُثَّ في أرضٍ غريبةٍ لم يعهدها الزارعُ ولم يختبرها ، وهي في بلادٍ ليسَ يُدرى أتكثُرُ الصواعقُ بها أم لا ، فمثلُ هذا الزارعِ وإنْ أدّى كنهَ مجهوده وجاءَ بكلِّ مقدوره فلا يغلبُ رجاءُهُ على خوفِهِ .

والبذرُ في مسألتنا هو الإيمانُ ، وشروطُ صحّتهِ دقيقةٌ ، والأرضُ القلبُ ، وخفايا خبيثهِ وصفاته مِنْ الشريكِ الخفيِّ والنفاقِ والرياءِ ، وخبايا الأخلاقِ فيه غامضةٌ ، والآفاتُ هي الشهواتُ وزخارفُ الدنيا ، والتفاتُ القلبِ إليها في مستقبلِ الزمانِ وإنْ سلمَ في الحالِ ، وذلكَ ممّا لا يُتحقّقُ ولا يُعرفُ بالتجربةِ ؛ إذ قد يعرضُ مِنَ الأسبابِ ما لا يُطاقُ مخالفتُهُ ، ولم يُجرَّبْ مثلهُ ، والصواعقُ هي أهوالُ سكراتِ الموتِ ، واضطرابُ الاعتقادِ عندهُ ، وذلكَ ممّا لم يُجرَّبْ مثلهُ ، ثمَّ الحصادُ والإدراكُ عندَ المنصرفِ مِنَ القيامةِ إلى الجنّةِ ، وذلكَ لم يُجرَّبْ .

فَمَنْ عَرَفَ حَقَائِقَ هَذِهِ الْأُمُورِ ؛ فَإِنْ كَانَ ضَعِيفَ الْقَلْبِ ، جَبَانًا فِي نَفْسِهِ . . غَلَبَ خَوْفُهُ عَلَى رَجَائِهِ لَا مُحَالَةً ، كَمَا سَنَحْكِي فِي أَحْوَالِ الْخَائِفِينَ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ ، وَإِنْ كَانَ قَوِيَّ الْقَلْبِ ، ثَابِتَ الْجَأْشِ ، تَامَ الْمَعْرِفَةِ . . اسْتَوَى خَوْفُهُ وَرَجَاؤُهُ ، فَأَمَّا أَنْ يَغْلِبَ رَجَاؤُهُ . . فَلَا .



وَلَقَدْ كَانَ عَمْرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَبَالِغُ فِي تَفْتِيشِ قَلْبِهِ ، حَتَّى كَانَ يَسْأَلُ حَذِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ هَلْ يَعْرِفُ بِهِ مِنْ آثَارِ النِّفَاقِ شَيْئًا ، إِذْ كَانَ قَدْ خَصَّهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِعِلْمِ الْمُنَافِقِينَ ، فَمَنْ ذَا الَّذِي يَقْدِرُ عَلَى تَطْهِيرِ قَلْبِهِ مِنْ خَفَايَا النِّفَاقِ وَالشَّرِكِ الْخَفِيِّ ؟ وَإِنْ اعْتَقَدَ نَقَاءَ قَلْبِهِ عَنْ ذَلِكَ . . فَمِنْ أَيْنَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ تَعَالَى بِتَلْبِيسِ حَالِهِ عَلَيْهِ ، وَإِخْفَاءِ عَيْبِهِ عَنْهُ ؟ وَإِنْ وَثِقَ بِهِ . . فَمِنْ أَيْنَ يَثِقُ بِبَقَائِهِ عَلَى ذَلِكَ إِلَى تَمَامِ حَسَنِ الْخَاتِمَةِ ؟

وَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنْ الرَّجُلَ لِيَعْمَلْ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ خَمْسِينَ سَنَةً ، حَتَّى لَا يَبْقَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ إِلَّا شَبْرٌ - وَفِي رِوَايَةٍ : إِلَّا قَدْرُ فُوقِ نَاقَةٍ - فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ ، فَيُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ » ^(١) ، وَقَدْ رُفِيقَ

(١) كَذَا فِي « الْقَوَات » (٢٢٦ / ١) ، وَهُوَ عِنْدَ مُسْلِمٍ (٢٦٥١) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا ، وَلَفْظُهُ : « إِنْ الرَّجُلَ لِيَعْمَلِ الزَّمْنَ الطَّوِيلَ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ثُمَّ يَخْتَمُ لَهُ عَمَلُهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ ، وَإِنْ الرَّجُلَ لِيَعْمَلِ الزَّمْنَ الطَّوِيلَ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ ثُمَّ يَخْتَمُ لَهُ عَمَلُهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ » .

وَرَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي « الْأَوْسَطِ » (٢٤٦٩) وَفِيهِ : « إِنْ الرَّجُلَ لِيَعْمَلِ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ =

الناقة لا يحتملُ عملاً بالجوارح ، إنما هوَ بمقدارِ خاطرٍ يختلجُ في القلبِ
عندَ الموتِ ، فيقتضي خاتمةَ السوءِ ، فكيفَ يؤمنُ ذلكَ ؟!

فإذا ؛ أقصى غاياتِ المؤمنِ أن يعتدلَ خوفُهُ ورجاؤُهُ ، وأما غلبةُ الرجاءِ في
غالبِ الناسِ يكونُ مستندهُ الاغترارِ وقلةُ المعرفةِ ، ولذلك جمعَ اللهُ تعالى
بينهما في وصفٍ منْ أثنى عليهم ، فقال : ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ ، وقال :
﴿ وَيَدْعُونَكَ رَغْبًا وَرَهْبًا ﴾ ، وأين مثلُ عمرَ رضي اللهُ عنه ؟!

فالخلقُ الموجودونَ في هذا الزمانِ كلُّهمُ الأصلحُ لَهُمُ غلبةُ الخوفِ ،
بشرطِ ألا يخرجَهُمُ إلى اليأسِ وتركِ العملِ ، وقطعِ الطمعِ مِنَ المغفرةِ ،
فيكونُ ذلكَ سبباً للتكاسلِ عنِ العملِ ، وداعياً إلى الانهماكِ في المعاصي ،
فإنَّ ذلكَ قنوطٌ وليسَ بخوفٍ ، إنما الخوفُ هوَ الذي يحثُّ على العملِ ،
ويكدرُ جميعَ الشهواتِ ، ويزعجُ القلبَ عنِ الركونِ إلى الدنيا ، ويدعوهُ إلى
التجافي عنِ دارِ الغرورِ ، فهوَ الخوفُ المحمودُ ، دونَ حديثِ النفسِ الذي
لا يؤثرُ في الكفِّ والحثِّ ، ودونَ اليأسِ الموجبِ للقنوطِ .

وقد قال يحيى بنُ معاذٍ : (مَنْ عَبْدَ اللهِ تَعَالَى بِمَحْضِ الْخَوْفِ . . غرقَ
في بحارِ الأفكارِ ، وَمَنْ عَبْدَهُ بِمَحْضِ الرَّجَاءِ . . تاهَ في مفازةِ الاغترارِ ، وَمَنْ
عَبَدَهُ بِالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ . . استقامَ في محجَّةِ الأذكارِ)^(١) .

= سبعين سنة . . ، وليس فيه ذكر الشبر والفراق ، بل فيه ذكر الذراع كما هو عند
البخاري (٣٢٠٨) ، ومسلم (٢٦٤٣) .

(١) قوت القلوت (١ / ٢٤٢) .

وقال مكحول النسفي : (مَنْ عَبْدَ اللَّهِ بِالْخَوْفِ .. فَهُوَ حُرُورِيٌّ ، وَمَنْ عَبْدُهُ بِالرَّجَاءِ .. فَهُوَ مَرْجِيٌّ ، وَمَنْ عَبْدُهُ بِالْمَحَبَّةِ .. فَهُوَ زَنْدِيقٌ ، وَمَنْ عَبْدُهُ بِالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ وَالْمَحَبَّةِ .. فَهُوَ مُوَحَّدٌ)^(١) .

فإذا ؛ لا بدّ من الجمع بين هذه الأمور ، وغلبة الخوف هو الأصلح ، ولكن قبل الإشراف على الموت ، فأما عند الموت .. فالأصلح غلبة الرجاء وحسن الظن ؛ لأنّ الخوف جارٍ مجرى السوطِ الباعث على العمل ، وقد انقضى وقت العمل ، فالمشرف على الموت لا يقدر على العمل ، ثم لا يطيق أسباب الخوف ، فإنّ ذلك يقطع نياط قلبه ، ويعين على تعجيل موته ، وأما رَوْحُ الرجاء .. فإنه يقوي قلبه ، ويحبّب إليه ربّه الذي إليه رجاءه .

ولا ينبغي أن يفارق أحد الدنيا إلا محبّاً لله تعالى ؛ ليكون محبّاً للقاء الله تعالى ، فإنّ مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ .. أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ ، والرجاء تقارنه المحبة ، فمَنْ ارتجى كرمه .. فهو محبوب ، والمقصود من العلوم والأعمال كلّها معرفة الله ، حتّى تثمر المعرفة المحبة ، فإنّ المصير إليه ،

(١) كذا في « القوت » (٢٤٢/١) حيث قال : (وقال مكحول النسفي رحمه الله تعالى في معناه - أي : معنى قول يحيى بن معاذ السابق - إلا أنه جاوز فيه الحد) وذكره ، ووقع في (أ) : (الشامي) ، وفي (س) : (الدمشقي) بدل (النسفي) ، وتصدي ليبيان هذه العبارة الإمام تقي الدين السبكي في « فتاويه » (٥٥٥/٢) ، وأورد الإمام أبو عبد الرحمن السلمي في « تفسيره » (١٣٨/٢) عن أحمد بن يسمع السجزي نحوه .

والقدوم بالموت عليه ، ومن قدم على محبوبه . . عظم سروره بقدر محبته ،
ومن فارق محبوبه . . اشتدت محنته وعذابه .

فمهما كان القلب الغالب عليه عند الموت حب الأهل والولد والمال
والمسكن والعقار والرفقاء والأصحاب . . فهذا رجل محابته كلها في
الدنيا ، فالدنيا جنته ، إذ الجنة عبارة عن البقعة الجامعة لجميع المحاب ،
فموته خروج من الجنة ، وحيلولة بينه وبين ما يشتهي ، ولا يخفى حال من
يُحال بينه وبين ما يشتهي .

فأما إذا لم يكن له محبوب سوى الله تعالى وسوى ذكره ومعرفته والفكر
فيه . . فالدنيا وعلائقها شاغلة له عن المحبوب ، فالدنيا إذا سجنه ؛ لأن
السجن عبارة عن البقعة المانعة للمحبوس عن الانسراح إلى محابه ، فموته
قدوم على محبوبه وخلص من السجن ، ولا يخفى حال من أفلت من
السجن وخلي بينه وبين محبوبه بلا مانع ولا مكدر ، فهذا أول ما يلقاه كل
من فارق الدنيا عقيب موته من الثواب والعقاب ، فضلاً عما أعدّه الله لعباده
الصالحين ممّا لم تره عين ولم تسمعه أذن ، ولا خطر على قلب بشر ،
وفضلاً عما أعدّه الله تعالى للذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ورضوا
بها واطمأنوا إليها ؛ من الأنكال ، والسلاسل والأغلال ، وضروب الخزي
والنكال ، فنسأل الله تعالى أن يتوفانا مسلمين ، ويلحقنا بالصالحين .

ولا مطمع في إجابة هذا الدعاء إلا باكتساب حب الله تعالى ، ولا سبيل

إليه إلا بإخراج حبِّ غيره من القلب ، وقطع العلائقِ عن كلِّ ما سوى الله تعالى من جاهٍ ومالٍ ووطنٍ ، فالأولى أن ندعو بما دعا به نبيُّنا صلى الله عليه وسلم إذ قال : « اللهم ؛ ارزقني حبَّك ، وحبَّ مَنْ أَحَبَّكَ ، وحبَّ ما يقربني إلى حبِّك ، واجعل حبَّك أحبَّ إليَّ من الماءِ الباردِ » (١) .

والغرض أن غلبة الرجاء عند الموتِ أصلح ؛ لأنه أجلب للمحبة ، وغلبة الخوف قبل الموتِ أصلح ؛ لأنه أحرق لنار الشهوات ، وأقمع لمحبة الدنيا عن القلب .

ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « لا يموتنَّ أحدُكم إلا وهو يحسنُ الظنَّ برَّبِّه » (٢) .

وقال تعالى : « أنا عند ظنِّ عبدي بي ، فليظنَّ بي ما شاء » (٣) .
ولما حضرت سليمان التيميَّ الوفاة . . قال لابنه : (يا بني ؛ حدِّثني بالرخص ، واذكر لي الرجاء ؛ حتَّى ألقى الله على حسنِ الظنِّ به) (٤) .

(١) وكان من دعاء داود على نبيِّنا وعليه الصلاة والسلام ، كما روى ذلك الترمذي (٣٤٩٠) .

(٢) رواه مسلم (٨٢ / ٢٨٧٧) .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (٤٩١ / ٣) ، وابن حبان في « صحيحه » (٦٣٣) ، وأصله في « الصحيحين » .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « حسن الظن بالله » (٢٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣١ / ٣) .

وكذلك لما حضرت الثوري الوفاة واشتدَّ جزعُهُ . . جمع العلماء حوله يُرجونه^(١) .

وقال أحمدُ ابنُ حنبلٍ رضي الله تعالى عنه لايُنه عند الموت : (اذكر لي الأخبار التي فيها الرجاء وحسن الظن)^(٢) .

والمقصودُ من ذلك كله أن يحبَّ الله إلى نفسه .

ولذلك أوحى الله تعالى إلى داودَ عليه السلام : أن حبَّني إلى عبادي ، فقال : بماذا ؟ قال : بأن تذكَّرتهم آلائي ونعمائي^(٣) .

فإذا ؛ غاية السعادة أن يموت العبدُ محباً لله تعالى ، وإنما تحصلُ المحبةُ بالمعرفة ، وبإخراج حبِّ الدنيا من القلب ، حتَّى تصيرَ الدنيا كالسجنِ المانع من المحبوب .

ولذلك رأى بعضُ الصالحينَ أبا سليمانَ الدارانيَّ في المنام وهو يطيرُ ، فسأله ، فقال : الآن أفلتُ ، فلمَّا أصبح . . سألَ عن حاله ، فقيلَ له : إنَّه ماتَ البارحة .



(١) قوت القلوب (٢١٩ / ١) .

(٢) قوت القلوب (٢١٩ / ١) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٢ / ٦) ، ولكن عنده مما أوحى الله إلى موسى عليه السلام .

بيان الدواء الذي به يستجلب حال الخوف

اعلم : أن ما ذكرناه في دواء الصبر ، وشرحناه في كتاب الصبر والشكر . . هو كافٍ في هذا الغرض ؛ لأنَّ الصبر لا يمكن إلا بعد حصول الخوف والرجاء ؛ لأنَّ أوَّل مقامات الدين اليقين الذي هو عبارة عن قوَّة الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر والجنة والنار ، وهذا اليقين بالضرورة يهيج الخوف من النار ، والرجاء للجنة ، والخوف والرجاء يقويان على الصبر ؛ فإنَّ الجنة قد حُفَّت بالمكاريه ، فلا يُصبرُ على تحملها إلا بقوة الرجاء ، والنار قد حُفَّت بالشهوات ، فلا يُصبرُ على قمعها إلا بقوة الخوف .

ولذلك قال عليٌّ كَرَّمَ اللهُ وجهه : (مَنْ اشتاق إلى الجنة . . سلا عن الشهوات ، وَمَنْ أَشْفَقَ مِنَ النارِ . . رجع عن المحرَّمات) .

ثمَّ يؤدي مقام الصبر المستفاد من الخوف والرجاء إلى مقام المجاهدة ، والتجرُّد لذكر الله تعالى ، والفكر فيه على الدوام ، ويؤدي دوام الذكر إلى الأنس ، ودوام الفكر إلى كمال المعرفة ، ويؤدي كمال المعرفة والأنس إلى المحبة ، ويتبعها مقام الرضا والتوكل ، وسائر المقامات .

فهذا هو الترتيب في سلوك منازل الدين ، وليس بعد أصل اليقين مقام سوى الخوف والرجاء ، ولا بعدهما مقام سوى الصبر ، وبه المجاهدة والتجرُّد لله باطناً وظاهراً ، ولا مقام بعد المجاهدة لمن فُتِحَ له الطريق إلا

الهداية والمعرفة ، ولا مقام بعد المعرفة إلا المحبة والأنس ، ومن ضرورة المحبة الرضا بفعل المحبوب ، والثقة بعنايته ، وهو التوكل .

فإذا ؛ فيما ذكرنا في علاج الصبر كفاية ، ولكننا نفرد الخوف بكلام جُملي فنقول :

الخوف يحصل بطريقتين مختلفتين ، أحدهما أعلى من الآخر ، ومثاله : أن الصبي إذا كان في بيت ، فدخل عليه سبع أو حيّة . . ربما كان لا يخاف ، وربما مدّ اليد إلى الحيّة ليأخذها ويلعب بها ، ولكن إذا كان معه أبوه وهو عاقل . . خاف من الحيّة وهرب منها ، فإذا نظر الصبي إلى أبيه وهو ترتعد فرائضه ، ويحتال في الهرب . . قام معه ، وغلب عليه الخوف ، ووافقه في الهرب ، فخوف الأب عن بصيرة ومعرفة بصفة الحيّة وسمّها وخاصيّتها ، وسطوة السبع وبطشه وقلة مبالاته ، وأمّا خوف الابن . . فإيمان بمجرد التقليد ؛ لأنه يحسن الظنّ بأبيه ، ويعلم أنه لا يخاف إلا من سبب مخوف في نفسه ، فيعلم أن السبع مخوف ، ولا يعرف وجهه .

فإذا عرفت هذا المثال . . فاعلم أن الخوف من الله تعالى على مقامين :

أحدهما : الخوف من عذابه .

والثاني : الخوف منه في ذاته .

فأمّا الخوف منه . . فهو خوف العلماء وأرباب القلوب العارفين من

صفاته ما يقتضي الهيبة والخوف والحذر ، المطلعين على سرّ قوله تعالى :

﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ﴾ .

فَأَمَّا الْأَوَّلُ : فهو خوفُ عمومِ الخلقِ ، وهو حاصلٌ بأصلِ الإيمانِ بالجنةِ والنارِ ، وكونِهِما جزاءينِ على الطاعةِ والمعصيةِ ، وضعفهُ بسببِ الغفلةِ ، وبسببِ ضعفِ الإيمانِ ، وإنَّما تزولُ الغفلةُ بالوعظِ والتذكيرِ ، وملازمةِ الفكرِ في أهوالِ القيامةِ وأصنافِ العذابِ في الآخرةِ ، وتزولُ أيضاً بالنظرِ إلى الخائفينَ ومجالستِهِمْ ، ومشاهدةِ أحوالِهِمْ ، فَإِنْ فَاتَتْ المشاهدةُ.. فالسمعُ لا يخلو عن تأثيرٍ .

وَأَمَّا الثَّانِي وهو الأعلى : فَأَنْ يَكُونَ اللَّهُ تَعَالَى هُوَ الْمَخُوفَ ؛ أعني : أَنْ يَخَافَ الْبَعْدَ وَالْحِجَابَ عَنْهُ ، وَيَرْجُو الْقُرْبَ مِنْهُ ، قَالَ ذُو النُّونِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى : (خَوْفُ النَّارِ عِنْدَ خَوْفِ الْفِرَاقِ كَقَطْرَةٍ قُطِرَتْ فِي بَحْرِ لَجْئٍ)^(١) ، وهذه خشيةُ العلماءِ ، حيثُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ .

ولعمومِ المؤمنينَ أيضاً حظٌّ مِنْ هذه الخشيةِ ، ولكنْ هُوَ بِمَجَرَّدِ التَّقْلِيدِ ، يَضَاهِي خَوْفَ الصَّبِيِّ مِنَ الْحَيَّةِ تَقْلِيداً لِأَبِيهِ ، وَذَلِكَ لَا يَسْتَنِدُ إِلَى بَصِيرَةٍ ، فَلَا جَرَمَ يَضَعُفُ وَيَزُولُ عَنْ قُرْبٍ ، حَتَّى إِنْ الصَّبِيُّ رُبَّمَا يَرَى الْمَعَزَّمْ يَقْدُمُ عَلَى أَخْذِ الْحَيَّةِ ، فَيَنْظُرُ إِلَيْهِ وَيَغْتَرُّ بِهِ ، فَيَتَجَرَّأُ عَلَى أَخْذِهَا تَقْلِيداً لَهُ ، كَمَا احْتَرَزَ مِنْ أَخْذِهَا تَقْلِيداً لِأَبِيهِ ، وَالْعَقَائِدُ التَّقْلِيدِيَّةُ ضَعِيفَةٌ فِي الْغَالِبِ ،

(١) أورده أبو طالب في « القوت » (٢٢٥ / ١) ، والخرکوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٣٠) وزاد : (ولا أعلم شيئاً أحمَد للقلب من خوف الفراق) .

إلا إذا قويت بمشاهدة أسبابها المؤكدة لها على الدوام ، وبالمواظبة على مقتضاها في تكثير الطاعات واجتناب المعاصي مدة طويلة على الاستمرار .

فإذا ؛ مَنْ ارتقى إلى ذروة المعرفة ، وعرف الله تعالى .. خافه بالضرورة ، فلا يحتاج إلى علاج لجلب الخوف ، كما أن مَنْ عرف السبع ورأى نفسه واقعاً في مخالفه لا يحتاج إلى علاج ليُجلب الخوف إلى قلبه ، بل يخافه بالضرورة شاء أم أبى .

ولذلك أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام : (خفني كما تخاف السبع الضاري)^(١) ، ولا حيلة في جلب الخوف من السبع الضاري إلا معرفة السبع ، ومعرفة الوقوع في مخالفه ، فلا يحتاج إلى حيلة سواه ، فمَنْ عرف الله تعالى .. عرف أنه يفعل ما يشاء ولا يبالي ، ويحكم ما يريد ولا يخاف^(٢) ، قَرَّبَ الملائكة مَنْ غير وسيلة سابقة ، وأبعد إبليس مَنْ غير جريمة سالفه ، بل صفتُه ما ترجمه قوله تعالى : « هَؤُلَاءِ فِي الْجَنَّةِ وَلَا أَبَالِي ، وَهَؤُلَاءِ فِي النَّارِ وَلَا أَبَالِي »^(٣) .

(١) قوت القلوب (٢٤١/١) .

(٢) إذ قال من إليه الرهوت والرهوت : ﴿ فَدَمَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴾ وَلَا يَخَافُ عِقَابَهَا .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (١٨٦/٤) ، وابن حبان في « صحيحه » (٣٣٨) من حديث عبد الرحمن السلمي رضي الله عنه مرفوعاً ، قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٢٢٣/٩) : (لكن يشترط في هذه المعرفة أن يكون الفكر فيها بإمعان ، فإنه هو المستجلب للخوف ، وإلا .. فالفكر الخفيف لا ينضج قساوة القلب ، أرأيت لو أوقدت =

وإن خطرَ ببالِكَ أنَّه لا يعاقبُ إلا على معصيةٍ ، ولا يثيبُ إلا على طاعةٍ . فتأملُ أنَّه لِمَ يمدُّ المطيعَ بأسبابِ الطاعةِ حتَّى يطيعَ شاءَ أم أبى ؟ ولِمَ يمدُّ العاصيَ بدواعي المعصيةِ حتَّى يعصيَ شاءَ أم أبى ؟ فإنَّه مهما خلقَ الغفلةَ والشهوةَ والقدرةَ على قضاءِ الشهوةِ . . كانَ الفعلُ واقعاً بها بالضرورةِ ، فإن كانَ أبعدُهُ لأنَّه عصاهُ . . فلمَ حملهُ على المعصيةِ ؟

هل ذلكَ لمعصيةٍ سابقةٍ حتَّى يتسلسلَ إلى غيرِ نهايةٍ ؟! أو يقفَ - لا محالةَ - على أوَّلَ لا علةَ لَهُ مِنْ جهةِ العبدِ ، بل قُضيَ عليه في الأزلِ ؟

وعن هذا المعنى عبَّرَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ قَالَ : « احتجَّ آدمُ وموسىٰ عليهما الصلاةُ والسلامُ عندَ ربِّهما ، فحجَّ آدمُ موسىٰ ، قالَ موسىٰ : أنتَ آدمُ الذي خلقَكَ اللهُ بيدهِ ، ونفخَ فيكَ مِنْ روحِهِ ، وأسجدَ لكَ ملائكتُهُ ، وأسكنَكَ جنتَهُ ، ثمَّ أهبطَ الناسَ بخطيئَتِكَ إلى الأرضِ ؟ فقالَ آدمُ : أنتَ موسىٰ الذي اصطفَاكَ اللهُ برسالتِهِ وبكلامِهِ ، وأعطَاكَ الألواحَ فيها تبيانُ كُلِّ شيءٍ ، وقربَكَ نجياً ، فبِكمْ وجدتَ اللهُ كُتُبَ التوراةِ قبلَ أنْ أُخلقَ ؟ قالَ موسىٰ : بأربعينَ عاماً ، قالَ آدمُ : فهل وجدتَ فيها : وعصىٰ آدمُ ربَّهُ فغوىٰ ، قالَ : نعم ، قالَ : أفتلومُنِي على أنْ عملتُ عملاً كتبهُ اللهُ عليَّ قبلَ

= نارا تحت قدر ثم أخذت قبل الإنضاج ، ثم أوقدت ، ثم أخذت . . فني الوقود وما حصل الإنضاج ، فلا بد من الإقبال بكنه الهمة على الفكر المحتاج إليه حتى ينضج القلب على الفور ؛ لتلايفي الزمان ولا يتحصل المقصود) .

أَنْ أَعْمَلَهُ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً ۚ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : فَحَجَّ
آدَمُ مُوسَى ، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى ۚ (١) .

فَمَنْ عَرَفَ السَّبَبَ فِي هَذَا الْأَمْرِ مَعْرِفَةً صَادِرَةً عَنْ نُورِ الْهَدَايَةِ . . فَهُوَ مِنْ
خُصُوصِ الْعَارِفِينَ الْمَطْلَعِينَ عَلَى سِرِّ الْقَدْرِ ، وَمَنْ سَمِعَ هَذَا فَأَمَّنَ بِهِ
وَصَدَّقَ بِمَجَرَّدِ السَّمَاعِ . . فَهُوَ مِنْ عُمُومِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَيَحْصُلُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ
الْفَرِيقَيْنِ خَوْفٌ ، فَإِنَّ كُلَّ عَبْدٍ فَهُوَ وَاقِعٌ فِي قَبْضَةِ الْقَدَرَةِ وَقَوْعَ الصَّبِيِّ
الضَّعِيفِ فِي مَخَالِبِ السَّبْعِ ، وَالسَّبْعُ قَدْ يَغْفُلُ بِالِاتِّفَاقِ فِيخْلِيهِ ، وَقَدْ يَهْجُمُ
عَلَيْهِ فَيَفْتَرِسُهُ ، وَذَلِكَ بِحَسَبِ مَا يَتَّفِقُ ، وَلِذَلِكَ الْإِتِّفَاقِ أَسْبَابُ مَرْتَبَةٍ بِقَدْرِ
مَعْلُومٍ ، لَكِنْ إِذَا أُضِيفَ إِلَى مَنْ لَا يَعْرِفُهُ . . سُمِّيَ اتِّفَاقًا ، وَإِنْ أُضِيفَ إِلَى
عِلْمِ اللَّهِ . . لَمْ يَجْزُ أَنْ يُسَمَّى اتِّفَاقًا ، وَالْوَاقِعُ فِي مَخَالِبِ السَّبْعِ لَوْ كَمَلَتْ
مَعْرِفَتُهُ . . لَكَانَ لَا يَخَافُ السَّبْعَ ؛ لِأَنَّ السَّبْعَ مَسْحُورٌ ؛ إِنْ سَلَّطَ عَلَيْهِ
الْجُوعَ . . افْتَرَسَ ، وَإِنْ سَلَّطَ عَلَيْهِ الْغَفْلَةَ . . خَلَّى وَتَرَكَ ، فَإِنَّمَا يُخَافُ خَالِقُ
السَّبْعِ وَخَالِقُ صِفَاتِهِ ، فَلَسْتُ أَقُولُ : (مِثَالُ الْخَوْفِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى الْخَوْفُ
مِنَ السَّبْعِ) ، بَلْ إِذَا كُشِفَ الْغَطَاءُ . . عُلِمَ أَنَّ الْخَوْفَ مِنَ السَّبْعِ هُوَ عَيْنُ
الْخَوْفِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ، لِأَنَّ الْمَهْلِكَ بِوَاسِطَةِ السَّبْعِ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى .

فَاعْلَمْ : أَنَّ سَبَاعَ الْآخِرَةِ مِثْلُ سَبَاعِ الدُّنْيَا ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ أَسْبَابَ
الْعَذَابِ وَأَسْبَابَ الثَّوَابِ ، وَخَلَقَ لِكُلِّ وَاحِدٍ أَهْلًا ، يَسُوقُهُ الْقَدْرُ الْمَتَفَرِّعُ عَنْ

(١) رواه البخاري (٣٤٠٩) ، ومسلم (٢٦٥٢) واللفظ له .

القضاء الجزم الأزلي إلى ما خُلِقَ له ، فخلق الجنة وخلق لها أهلاً سُخِّروا لأسبابها شأؤوا أم أبوا ، وخلق النار وخلق لها أهلاً سُخِّروا لأسبابها شأؤوا أم أبوا ، فلا يرى أحد نفسه في ملتطم أمواج القدر إلا غلبه الخوف بالضرورة .

فهذه مخاوف العارفين بسر القدر .

فمن قعد به القصور عن الارتفاع إلى يفاع الاستبصار . . فسيبله أن يعالج نفسه بسماع الأخبار والآثار ، فيطالع أحوال الخائفين العارفين وأقوالهم ، وينسب عقولهم ومناصبهم إلى مناصب الراجين المغرورين ، فلا يتمارى في أن الاقتداء بهم أولى ؛ لأنهم الأنبياء والأولياء والعلماء ، وأما الآمنون . . فهم الفراعنة والجهال والأغبياء .

أما رسولنا صلى الله عليه وسلم . . فهو سيّد الأولين والآخرين ، وكان أشد الناس خوفاً ، حتّى روي أنّه كان يصلّي على طفل ، ففي رواية : أنّه سُمِعَ في دعائه يقول : « اللهم ؛ قه عذاب القبر وعذاب النار »^(١) ، وفي

(١) كذا في « القوت » (٢٢٩/١) ويبيّن أن الطفل كان منفوساً ، وقد روى الطبراني في « الكبير » (١٢١/٤) من حديث أبي أيوب رضي الله عنه : أن صبياً دفن ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو أفلت أحد من ضمة القبر . . لأفلت هذا الصبي » ، وعنده في « الأوسط » (٢٧٧٤) من حديث أنس رضي الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى على صبي أو صبية فقال : « لو كان نجا أحد من ضمة القبر . . لنجا هذا الصبي » .

وروى ابن أبي شيبة في « المصنف » (١١٧٠٨ ، ٣٠٤٥٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه =

رواية ثانية : أنه سمع قائلاً يقول : هنيئاً لك ، عصفورٌ من عصافير الجنة ، فغضب وقال : « ما يدريك أنه كذلك ؟ ! والله ؛ إنني رسول الله ، وما أدري ما يصنع بي ، إن الله تعالى خلق الجنة وخلق لها أهلاً ، لا يُزادُ فيهم ، ولا ينقصُ منهم »^(١) .

وروي أنه قال ذلك أيضاً على جنازة عثمان بن مظعون - وكان من المهاجرين والأولين - لما قالت أم سلمة : هنيئاً لك الجنة ، فكانت تقول أم سلمة بعد ذلك : والله ؛ لا أزكي أحداً بعد عثمان^(٢) .

وقال محمد بن خولة الحنفية : (والله ، لا أزكي أحداً غير رسول الله

= أنه كان يقوم على المنفوس من ولده الذي لم يعمل خطيئة فيقول : (اللهم ؛ أجره من عذاب القبر) ، وفي الرواية الثانية : (اللهم ؛ أجره من عذاب النار) .
(١) كذا في « القوت » (٢٢٩ / ١) ، وروى مسلم (٢٦٦٢) نحوه .

(٢) كذا في « القوت » (٢٢٩ / ١) ، ورواه أحمد في « المسند » (٢٣٧ / ١) ولم يعين المرأة القائلة ، وعنده في « المسند » (٤٣٦ / ٦) ، والبخاري (٧٠٠٤) والقائلة هي أم العلاء بنت الحارث الأنصارية ، قال ابن عبد البر في « الاستيعاب » (ص ٥٥٣) بعد رواية الخبر : « اختلفت الروايات في المرأة التي قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وما يدريك ؟ » حين شهدت لعثمان بن مظعون بالجنة ، وقالت له : طبت ، هنيئاً لك الجنة أبا السائب . . على ثلاث نسوة ، فقليل : كانت امرأته أم السائب ، وقيل : أم العلاء الأنصارية وكان نزل عليها ، وقيل : كانت أم خارجة بن زيد) ، وذكر في ترجمة أم العلاء أنها قد تكون أم خارجة ، بل قال ابن حجر في « الإصابة » (٤٥٦ / ٤) : (وهذا ظاهر في أن أم العلاء هي والدة خارجة - أحد الرواة - المذكور) ، وقال الحافظ العراقي : (ولم أجد فيه ذكر أم سلمة) . « إتحاف » (٢٢٥ / ٩) .

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ولا أبي الذي ولدني) ، قَالَ : فَثَارَتِ الشَّيْعَةُ عَلَيْهِ ، فَأَخَذَ يَذْكُرُ مِنْ فَضَائِلِ عَلِيٍّ وَمَنَاقِبِهِ (١) .

وَرُويَ فِي حَدِيثٍ آخَرَ : أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الصَّفَةِ اسْتَشْهَدَ ، فَقَالَتْ أُمُّهُ : هَنِيئًا لَكَ ، عَصْفُورٌ مِنْ عَصَافِيرِ الْجَنَّةِ ، هَاجَزَتْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَقَتَلَتْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « وَمَا يَدْرِيكَ ؟ ! لَعَلَّهُ كَانَ يَتَكَلَّمُ بِمَا لَا يَنْفَعُهُ وَيَمْنَعُ مَا لَا يَضُرُّهُ » (٢) .

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ : أَنَّهُ دَخَلَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى بَعْضِ أَصْحَابِهِ وَهُوَ عَلِيلٌ ، فَسَمِعَ امْرَأَةً تَقُولُ : هَنِيئًا لَكَ الْجَنَّةُ ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مَنْ هَذِهِ الْمَتَالِيَةُ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ؟ ! فَقَالَ الْمَرِيضُ : هِيَ أُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ فَقَالَ : « وَمَا يَدْرِيكَ ؟ ! لَعَلَّ فُلَانًا كَانَ يَتَكَلَّمُ بِمَا لَا يَعْنِيهِ ، وَيَبْخُلُ بِمَا لَا يَغْنِيهِ » (٣) .

وَكَيْفَ لَا يَخَافُ الْمُؤْمِنُونَ كُلَّهُمْ وَهُوَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : « شَيَّبَتْنِي (سُورَةُ هُودٍ) وَأَخَوَاتُهَا ؛ (سُورَةُ الْوَاقِعَةِ) ، وَ(إِذَا الشَّمْسُ

(١) كَذَا فِي « الْقُوتِ » (٢٢٩/١) ، وَرَوَاهُ ابْنُ عَسَاكِرَ فِي « تَارِيخِ دِمَشْقَ » (٣٤٩/٥٤) .

(٢) كَذَا فِي « الْقُوتِ » (٢٢٨/١) ، وَكَانَ الْمَقْتُولُ غُلَامًا ، وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي « الصَّمْتِ وَأَدَابِ اللِّسَانِ » (١٠٩) ، وَأَبُو يَعْلَى فِي « مَسْنَدِهِ » (٤٠١٧) .

(٣) كَذَا فِي « الْقُوتِ » (٢٢٨/١) ، وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي « الصَّمْتِ وَأَدَابِ اللِّسَانِ » (١١٠) وَالْمَرِيضُ هُوَ كَعْبُ بْنُ عَجْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

كُورَتْ) ، و (عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ) «(١) ، فقال العلماء : لعلَّ ذاك لما في (سورة هود) مِنْ الْإِبْعَادِ ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿أَلَا بَعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ ، ﴿أَلَا بَعْدًا لَشُعُودٍ﴾ ، ﴿أَلَا بَعْدًا لِمَلَيْنٍ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ ، مَعَ عِلْمِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَنَّهُ لَوْ شَاءَ اللَّهُ . مَا أَشْرَكُوا ؛ إِذْ لَوْ شَاءَ . . لَأَتَى كُلَّ نَفْسٍ هَدَاهَا .

وفي (سورة الواقعة) : ﴿لَيْسَ لَوْعِنَهَا كَاذِبَةٌ﴾ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ﴿أَيُّ : جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ ، وَتَمَّتِ السَّابِقَةُ ، حَتَّى نَزَلَتِ الْوَاقِعَةُ ؛ إِمَّا خَافِضَةٌ قَوْمًا كَانُوا مَرْفُوعِينَ فِي الدُّنْيَا ، وَإِمَّا رَافِعَةٌ قَوْمًا كَانُوا مَخْفُوضِينَ فِي الدُّنْيَا .

وفي (سورة التكويد) أهوالُ القيامةِ وانكشافُ الخاتمةِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ﴾ ، ﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ عِلِمَتِ نَفْسٍ مَا أَحْضَرَتْ .

وفي (عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ) : ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ ، وَقَوْلُهُ : ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ .

والقرآنُ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ مَخَافُ لِمَنْ قَرَأَهُ بِتَدْبِيرٍ ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ إِلَّا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ . . لَكَانَ كَافِيًا ؛ إِذْ عُلِقَ الْمَغْفِرَةُ عَلَى أَرْبَعَةِ شُرُوطٍ يَعِجْزُ الْعَبْدُ عَنْ أَحَادِهَا .

وأشدُّ مِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَحَسْبُكَ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ .

(١) رواه الترمذي (٣٢٩٧) ، والحاكم في «المستدرک» (٣٤٣/٢) ، وكذا وقعت الرواية هنا بإثبات كلمة (سورة) في جميع النسخ إلا (ق) .

وقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ لِلصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ ﴾ .

وقوله : ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيَّهَ الثَّقَلَانِ ﴾ .

وقوله : ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ... ﴾ الآية .

وقوله : ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ .

وقوله : ﴿ يَوْمَ تَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا... ﴾ الآيتين ^(١) .

وقوله : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا... ﴾ الآية .

وقوله : ﴿ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ... ﴾ الآية .

وقوله : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ... ﴾ الآية .

وقوله : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ... ﴾ الآيتين ^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَدْ مَنَّآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾... إلى آخر

السورة ، فهذه أربعة شروط للخلاص من الخسران .

وإنما كان خوف الأنبياء مع ما فاض عليهم من النعم لأنهم لم يأمنوا

مكر الله تعالى ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ ، حتى روي أن النبي

(١) إذ قال بعدها سبحانه : ﴿ وَسَوْفَ يُجْزِيهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرْدًا ﴾ .

(٢) إذ بعدها : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ .

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَجَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِكَيَا خَوْفًا مِنَ اللهِ تَعَالَى ،
فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِمَا : لَمْ تَبْكِيَانِ وَقَدْ أَمْتَكُمَا ؟ فَقَالَا : وَمَنْ يَأْمَنُ
مَكْرَكَ ؟ (١) .

وَكَأَنَّهُمَا إِذْ عَلِمَا أَنَّ اللهُ تَعَالَى هُوَ عَلَامُ الْغُيُوبِ ، وَأَنَّهُ لَا وَقُوفَ لَهُمَا عَلَى
غَايَةِ الْأُمُورِ . لَمْ يَأْمَنَا أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ : (قَدْ أَمْتَكُمَا) ابْتِلَاءً لَهُمَا وَامْتِحَانًا
وَمَكْرًا بِهِمَا ، حَتَّى إِنْ سَكَنَ خَوْفُهُمَا . ظَهَرَ أَنََّّهُمَا قَدْ أَمَنَا مِنَ الْمَكْرِ ،
وَمَا وَفَّيَا بِقَوْلِهِمَا .

كَمَا أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا وُضِعَ فِي الْمَنْجَنِيْقِ . . قَالَ :
(حَسْبِيَ اللهُ) ، وَكَانَتْ هَذِهِ مِنَ الدَّعَاوِي الْعِظَامِ ، فَامْتَحَنَ وَعُورِضَ
بِجَبْرِيلَ فِي الْهَوَاءِ ، حَتَّى قَالَ : أَلَيْكَ حَاجَةٌ ؟ فَقَالَ : أَمَّا إِلَيْكَ . . فَلَ ،
فَكَانَ ذَلِكَ وَفَاءً بِمَقْتَضَى قَوْلِهِ : (حَسْبِيَ اللهُ) ، فَأَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ فَقَالَ :
﴿ وَابْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ أَيُّ : بِمَوْجِبِ قَوْلِهِ : (حَسْبِيَ اللهُ) (٢) .

(١) كَذَا فِي « الْقُوت » (٢٢٩ / ١) ، وَرَوَاهُ ضَمْنُ خَبَرِ طَوِيلِ الطَّبْرَانِيِّ فِي « الْأَوْسَطِ »
(٢٦٠٤) ، وَزَادَ الْحَافِظُ الْعِرَاقِيُّ : (وَابْنُ شَاهِينَ فِي « شَرْحِ السَّنَةِ » مِنْ حَدِيثِ عُمَرَ ،
وَرَوَيْنَاهُ فِي مَجْلِسٍ مِنْ « أَمَالِي أَبِي سَعِيدِ النَّقَاشِ » بِسَنَدٍ ضَعِيفٍ) . « إِتْحَافِ »
(٢٢٧ / ٩) .

(٢) كَذَا فِي « الْقُوت » (٢٢٩ / ١) ، وَقَالَ بَعْدَهُ : (وَلَإِنَّ اللهَ تَعَالَى لَا يَدْخُلُ تَحْتَ
الْأَحْكَامِ ، وَلَا يُلْزَمُهُ مَا حَكَمَ بِهِ عَلَى الْأَنْامِ ، وَلَا يَخْتَبِرُ صَدَقَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ،
وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَوْصَفَ بِضَدِّ الصِّدْقِ وَإِنْ بَدَّلَ الْكَلِمَ هُوَ بِتَبْدِيلٍ مِنْهُ ؛ لِأَنَّ كَلَامَهُ قَائِمٌ بِهِ ،
فَلَهُ أَنْ يَبْدَلَ مَا شَاءَ وَهُوَ الصَّادِقُ فِي الْكَلَامِينَ ، الْعَادِلُ فِي الْحُكْمِينَ ، الْحَاكِمُ فِي
الْحَالِينَ ؛ لِأَنَّهُ حَاكِمٌ عَلَيْهِ وَلَا حَكَمَ يُلْزَمُهُ فِيهِ ؛ لِأَنَّهُ قَدْ جَاوَزَ الْعُلُومَ وَالْعُقُولَ الَّتِي هِيَ =

وبمثل هذا أخبر عن موسى صلى الله عليه وسلم حيث قال : ﴿ إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى ﴾ . قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ ، ومع هذا لما ألقى السحرة سحرهم . . أوجس موسى في نفسه خيفة ؛ إذ لم يأمن مكر الله ، والتبس الأمر عليه ، حتى جدد عليه الأمن وقيل له : ﴿ لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴾ (١) .

ولما ضعفت شوكة المسلمين يوم بدر . . قال صلى الله عليه وسلم : « اللَّهُمَّ ؛ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعَصَابَةُ . . لَمْ يَبْقَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَحَدٌ يَعْبُدُكَ » ، فقال أبو بكر رضي الله عنه : دُعُ عَنْكَ مَنَاشِدَتَكَ رَبِّكَ ، فَإِنَّهُ وَافٍ لَكَ بِمَا وَعَدَكَ (٢) ، فكان مقام الصديق رضي الله عنه مقام الثقة بوعد الله ، وكان مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم مقام الخوف من مكر الله ، وهو أتم ؛ لأنه لا يصدر إلا عن كمال المعرفة بأسرار الله تعالى وخفايا أفعاله ،

= أماكن للحدود من الأمر والنهي ، وفات الرسوم والمعقول التي هي أواسط الأحكام والأقدار ، والخبر رواه الطبري في « تفسيره » (١٠ / ١٧ / ٦٠) ، وهو عند الحكيم في « نواذر الأصول » (ص ٤) .

(١) قوت القلوب (١ / ٢٣٠) ، وقال بعده : (لعلمه بسعة علمه أنه هو علام الغيوب التي لا نهاية لها ، وأن القول أحكام ، والحاكم لا تحكم عليه الأحكام ، كما لا تعود عليه الأحكام ، وإنما تفصل الأحكام من الحاكم العلم ، ثم تعود على المحكومات أبداً ، ولأنه - جلت قدرته - لا يلزمه ما لزم الخلق الذين هم تحت الحكم ، ولا يدخل تحت معيار العقل والعلم ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً عند من عرفه ، فأجله وعظمه عن معارف من جهله) .

(٢) رواه مسلم (١٧٦٣) .

ومعاني صفاته التي يُعبَّرُ عن بعض ما يصدرُ عنها بالمكر ، وما لأحدٍ من البشر الوقوفُ على كنه صفاتِ الله عزَّ وجلَّ .

ومن عرف حقيقة المعرفة قصور معرفته عن الإحاطة بكنه الأمور . . عظم خوفه لا محالة ، ولذلك قال عيسى عليه السلام لما قيل له : ﴿ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ : ﴿ إِنْ كُنْتُ قُلْتُمْ فَقَدْ عَلِمْتُمْ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ ، وقال : ﴿ إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تُغْفِرَ لَهُمْ ﴾ الآية^(١) ، فوضَّح الأمر إلى المشيئة ، وأخرج نفسه بالكلية من البين ؛ لعلمه بأنه ليس له من الأمر شيء ، وأن الأمور مرتبطة بالمشيئة ارتباطاً يخرج عن حدِّ المعقولات والمألوفات ، فلا يمكن الحكم عليها بقياس ، ولا حدسٍ وحسبان ، فضلاً عن التحقيق والاستيقان .

وهذا هو الذي قطع قلوب العارفين ؛ إذ الطامة الكبرى هي ارتباط أمرِك بمشيئة مَنْ لا يبالي بك إن أهلكك ، فقد أهلك مَنْ لا يحصى من أمثالك ، ولم يزل في الدنيا يعذبُهُم بأنواع الآلام والأمراض ، ويمرض مع ذلك قلوبُهُم بالكفر والنفاق ، ثم يخلد العقاب عليهم أبد الآباد ، ثم يخبر عنه ويقول : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ . . . ﴾ الآية .

(١) قوت القلوب (١/ ٢٣٠) .

فكيف لا يُخَافُ ما حُقَّ مِنَ الْقَوْلِ فِي الْأَزْلِ وَلَا مَطْمَعٌ فِي تَدَارِكِهِ؟! وَلَوْ
كَانَ الْأَمْرُ أَنْفَاءً.. لَكَانَتِ الْأَطْمَاعُ تَمْتَدُّ إِلَى حِيلَةٍ فِيهِ^(١)، وَلَكِنْ لَيْسَ إِلَّا
التَّسْلِيمُ، وَاسْتِقْرَاءُ خَفِيِّ السَّابِقَةِ مِنْ جَلِيِّ الْأَسْبَابِ الظَّاهِرَةِ عَلَى الْقَلْبِ
وَالْجَوَارِحِ، فَمَنْ يُسَّرَتْ لَهُ أَسْبَابُ الشَّرِّ، وَحِيلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَسْبَابِ الْخَيْرِ،
وَأُحْكِمَتْ عِلَاقَتُهُ مَعَ الدُّنْيَا.. فَكَأَنَّهُ كُشِفَ لَهُ عَلَى التَّحْقِيقِ سِرُّ السَّابِقَةِ الَّتِي
سَبَقَتْ لَهُ بِالشَّقَاوَةِ؛ إِذْ كُلُّ مَيَسَّرٍ لَمَّا خُلِقَ لَهُ.

وَإِنْ كَانَتِ الْخَيْرَاتُ كُلُّهَا مَيَسَّرَةً، وَالْقَلْبُ بِالْكُلِّيَّةِ عَنِ الدُّنْيَا مُنْقَطِعاً،
وَبظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى مُقْبِلاً.. كَانَ هَذَا يَقْتَضِي تَخْفِيفَ الْخَوْفِ لَوْ
كَانَ الدَّوَامُ عَلَى ذَلِكَ مُوْتَقِئاً بِهِ، وَلَكِنْ خَطَرَ الْخَاتِمَةِ وَعَسَرَ الثَّبَاتِ يَزِيدُ
نِيرَانَ الْخَوْفِ اشْتِعَالاً، وَلَا يُمْكِنُهَا مِنَ الْإِنْطِفَاءِ.

وَكَيْفَ يُؤْمَنُ تَغْيِيرُ الْحَالِ وَقَلْبُ الْمُؤْمِنِ بَيْنَ إصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ
الرَّحْمَنِ؟! وَإِنَّ الْقَلْبَ أَشَدَّ ثَقَلًا مِنَ الْقَدْرِ فِي غَلِيَانِهَا، وَقَدْ قَالَ مَقْلُبُ
الْقُلُوبِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾.

فَأَجْهَلُ النَّاسِ مَنْ أَمَنَهُ وَهُوَ يَنَادِيهِ بِالتَّحْذِيرِ مِنَ الْأَمَنِ، وَلَوْلَا أَنَّ اللَّهَ لَطَفَ
بِعِبَادِهِ الْعَارِفِينَ؛ إِذْ رَوَّحَ قُلُوبَهُمْ بِرُوحِ الرَّجَاءِ.. لَاحْتَرَقَتْ قُلُوبُهُمْ مِنْ نَارِ
الْخَوْفِ، فَأَسْبَابُ الرَّجَاءِ رَحْمَةٌ لَخَوَاصِّ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَسْبَابُ الْغَفْلَةِ

(١) وَالْأَمْرُ الْأَنْفُ: الْمَبْتَدَأُ الَّذِي لَمْ يَسْبِقْ بِهِ عِلْمٌ وَلَا قَدْرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، فَلَا تَعَلُّقٌ لِلْأُمُورِ
بِالْمَشِيئَةِ الْأَزَلِيَّةِ، وَهُوَ مَذْهَبُ غَلَاةِ الْقَدَرِيَّةِ، الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّ لَا قَدْرَ، وَأَنَّ الْأَمْرَ
أَنْفُ، وَقَدْ تَبَرَّأَ مِنْهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كَمَا جَاءَ عِنْدَ مُسْلِمٍ (٨).

رحمةً على عوامِّ الخلقِ مِنْ وجهٍ ؛ إذ لو انكشفَ الغطاءُ .. لزهقتِ
النفوسُ ، وتقطعتِ القلوبُ مِنْ خوفٍ مقلِّبِ القلوبِ^(١) .

قال بعضُ العارفينَ : (لو حَالَتْ بيني وبينَ مَنْ عرفتهُ بالتوحيدِ خمسينَ
سنةً أسطوانةً فماتَ .. لم أقطعْ لَهُ بالتوحيدِ ؛ لأنِّي لا أدري ما ظهرَ لَهُ مِنْ
التقليبِ)^(٢) .

وقال بعضهمُ : (لو كَانَتِ الشهادةُ على بابِ الدارِ والموتُ على الإسلامِ
عندَ بابِ الحجرةِ .. لاخترتُ الموتَ على الإسلامِ ؛ لأنِّي لا أدري
ما يعرضُ لقلبي بينَ بابِ الحجرةِ وبابِ الدارِ)^(٣) .

وكانَ أبو الدرداءِ يحلفُ باللهِ ما أحدٌ أَمِنَ على إيمانهِ أَنْ يُسلبَهُ عندَ الموتِ
إلا سُلْبُهُ^(٤) .

وكانَ سهلٌ يقولُ : (خوفُ الصديقينَ مِنْ سوءِ الخاتمةِ عندَ كلِّ خطرةٍ
وكلِّ حركةٍ ، وهُم الذينَ وصفَهُمُ اللهُ تعالى إذ قالَ : ﴿ وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾)^(٥) .

ولمَّا احتضرَ سفيانٌ .. جعلَ يبكي ويجزَعُ ، فقليلٌ لَهُ : يا أبا عبدِ اللهِ ،
عليكَ بالرجاءِ ؛ فإنَّ عفوَ اللهِ أعظمُ مِنْ ذنوبِكَ ، فقالَ : أوعلى ذنوبي

(١) السياق بنحوه في « القوت » (٢٣٠ / ١) .

(٢) قوت القلوب (٢٣٢ / ١) .

(٣) قوت القلوب (١٣٧ / ٢) .

(٤) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٥٤٧) عن محمد بن مسلم أنه بلغه عن أبي الدرداء
رضي الله عنه أنه قاله .

(٥) قوت القلوب (٢٣٢ / ١) .

أبكي !؟ لو علمتُ أنني أموتُ على التوحيد.. لم أبالِ أن ألقى الله بأمثالِ الجبالِ مِنَ الخطايا^(١).

وَحِكِي عَنْ بَعْضِ الْخَائِفِينَ أَنَّهُ أَوْصَى بَعْضَ إِخْوَانِهِ فَقَالَ : إِذَا حَضَرْتَنِي الْوَفَاءُ.. فاقْعُدْ عِنْدَ رَأْسِي ، فَإِنْ رَأَيْتَنِي مِتُّ عَلَى التَّوْحِيدِ.. فَخُذْ جَمِيعَ مَا أَمْلَكُهُ واشْتَرِ بِهِ لَوْزاً وسُكراً وانْثُرْهُ عَلَى صَبْيَانِ أَهْلِ الْبَلَدِ ، وَقُلْ : هَذَا عَرَسُ الْمَنْفَلَتِ ، وَإِنْ مِتُّ عَلَى غَيْرِ التَّوْحِيدِ.. فَأَعْلِمِ النَّاسَ بِذَلِكَ حَتَّى لَا يَغْتَرُّوا بِشُهُودِ جَنَازَتِي لِيَحْضَرَ جَنَازَتِي مَنْ أَحَبَّ عَلَى بَصِيرَةٍ ؛ لئَلَّا يُلْحَقَنِي الرِّيَاءُ بَعْدَ الْوَفَاءِ ، قَالَ : وَبِمَ أَعْلَمُ ذَلِكَ ؟ فَذَكَرَ لَهُ عِلَامَةً ، فَرَأَى عِلَامَةَ التَّوْحِيدِ عِنْدَ مَوْتِهِ ، فَاشْتَرَى السُّكَّرَ وَاللُّوزَ وَفَرَّقَهُ^(٢).

وَكَانَ سَهْلٌ يَقُولُ : (الْمُرِيدُ يَخَافُ أَنْ يُتَلَى بِالْمَعَاصِي ، وَالْعَارِفُ يَخَافُ أَنْ يُتَلَى بِالْكَفْرِ)^(٣).

وَكَانَ أَبُو يَزِيدَ يَقُولُ : (إِذَا تَوَجَّهْتُ إِلَى الْمَسْجِدِ كَأَنَّ فِي وَسْطِي زَنَاراً ، أَخَافُ أَنْ يَذْهَبَ بِي إِلَى الْبَيْعَةِ وَبَيْتِ النَّارِ ، حَتَّى أَدْخَلَ الْمَسْجِدَ ، فَيَنْقَطِعُ عَنِّي الزَّنَارُ ، فَهَذَا لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ)^(٤).

(١) قوت القلوب (٢٣٣/١) .

(٢) قوت القلوب (٢٣٣/١) ، رواه عن بعض إخوانه .

(٣) قوت القلوب (٢٢٧/١) .

(٤) قوت القلوب (٢٢٧/١) ، وقال : (لعلمهم بسرعة تقلب القلوب في قدرة علام

الغيوب) ، وقريب من هذا رواه عنه القشيري في « رسالته » (ص ١٨٨) .

وَرُوِيَ عَنْ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ : (يَا مَعْشَرَ الْخَوَارِيزِيِّينَ ؛ أَنْتُمْ تَخَافُونَ الْمَعَاصِيَّ ، وَنَحْنُ - مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ - نَخَافُ الْكُفْرَ) (١) .

وَرُوِيَ فِي أَخْبَارِ الْأَنْبِيَاءِ : أَنَّ نَبِيًّا شَكَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى الْجُوعَ وَالْقَمَلَ وَالْعَرِيَّ سَنِينَ ، وَكَانَ لِبَاسُهُ الصُّوفَ ، فَأَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِ : عَبْدِي ؛ أَمَا رَضِيتَ أَنْ عَصِمْتُ قَلْبَكَ أَنْ تَكْفُرَ بِي حَتَّى تَسْأَلَنِي الدُّنْيَا ؟ ! فَأَخَذَ التُّرَابَ فَوَضَعَهُ عَلَى رَأْسِهِ وَقَالَ : بَلَى ، قَدْ رَضِيتُ يَا رَبِّ ، فَأَعَصِمْنِي مِنَ الْكُفْرِ (٢) .

فَإِذَا كَانَ خَوْفُ الْعَارِفِينَ مَعَ رَسُوخِ أَقْدَامِهِمْ وَقُوَّةِ إِيْمَانِهِمْ مِنْ سُوءِ الْخَاتِمَةِ . . فَكَيْفَ لَا يَخَافُهُ الضَّعَفَاءُ ؟ !

وَلِسُوءِ الْخَاتِمَةِ أَسْبَابٌ تَتَقَدَّمُ عَلَى الْمَوْتِ ، مِثْلُ الْبِدْعَةِ ، وَالنِّفَاقِ ، وَالْكِبَرِ ، وَجَمَلَةٍ مِنَ الصِّفَاتِ الْمَذْمُومَةِ ، وَلِذَلِكَ اشْتَدَّ خَوْفُ الصَّحَابَةِ مِنَ النِّفَاقِ ، حَتَّى قَالَ الْحَسَنُ : (لَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَنِّي بَرِيءٌ مِنَ النِّفَاقِ . . كَانَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ) (٣) .

(١) قوت القلوب (٢٢٧ / ١) .

(٢) قوت القلوب (٢٢٧ / ١) ، وقد روى الطبري في « تفسيره » (١٥٣ / ٩ / ٦) عن مجاهد وسيار أن بلعام أو بلعم كان قد أوتي النبوة ، ونقل عن السدي وغيره أنه كان يعلم اسم الله الأعظم ، وكان مجاب الدعوة ، قال الإمام أبو طالب في « قوته » (٢٣٠ / ١) : (قال بعض أهل التفسير في أخبار بلعم بن باعوراء : إنه أوتي النبوة ، والمشهور أنه أوتي الاسم الأكبر ، فكان سبب هلاكه) .

(٣) قوت القلوب (٢٣٤ / ١) ، ورواه الفريابي في « صفة المنافق » (ص ٧٣) .

وما عنوا به النفاق الذي هو ضدُّ أصلِ الإيمانِ ، بل المرادُ به ما يجتمعُ مع أصلِ الإيمانِ ، فيكونُ مسلماً منافقاً ، وله علاماتٌ كثيرةٌ ، قالَ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « أَرَبْعُ مَنْ كُنَّ فِيهِ فَهُوَ مُنَافِقٌ خَالِصٌ ، وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ ، وَإِنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ . . . ففِيهِ شُعْبَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدْعَهَا : مَنْ إِذَا حَدَّثَ . . . كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ . . . أَخْلَفَ ، وَإِذَا أَوْثَمَ . . . خَانَ ، وَإِذَا خَاصَمَ . . . فَجَرَ » ، وفي لفظٍ آخرَ : « وَإِذَا عَاهَدَ . . . غَدَرَ »^(١) .

وقد فسَّرَ الصحابةُ والتابعونَ النفاقَ بتفاسيرٍ لا يخلو عن شيءٍ منه إلا صديقٌ ، إذ قالَ الحسنُ : (إِنَّ مِنَ النِّفَاقِ اخْتِلَافَ السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ ، واختِلَافَ اللِّسَانِ وَالْقَلْبِ ، واختِلَافَ المدخلِ والمخرجِ)^(٢) ، ومن الذي يخلو عن هذه المعاني ؟ بل صارت هذه الأمورُ مألوفةً بينَ الناسِ معتادةً ، ونُسِيَ كونُها منكراً بالكليَّةِ ، بل جرى ذلكَ على قَرَبِ عهدٍ بزمانِ النبوةِ ، فكيفَ الظنُّ بزماننا ؟!

حتَّى قالَ حذيفةُ رضيَ اللهُ تعالى عنه : (إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لِيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَصِيرُ بِهَا مُنَافِقاً ، إِنِّي لَأَسْمَعُهَا مِنْ أَحَدِكُمْ فِي الْيَوْمِ عَشَرَ مَرَّاتٍ)^(٣) .

(١) رواه البخاري (٣٤) ، ومسلم (٥٨) .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٧٩٢) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآفات اللسان » (٤٨٣) .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (٣٩٠ / ٥) .

وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون : (إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر ، كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر) (١) .

وقال بعضهم : (علامة النفاق أن تكره من الناس ما تأتي مثله ، وأن تحب على شيء من الجور ، وأن تبغض على شيء من الحق) (٢) .

وقيل : (من النفاق أنه إذا مدح بشيء ليس فيه . . أعجبه ذلك) (٣) .

وقال رجل لابن عمر رضي الله عنهما : إننا ندخل على هؤلاء الأمراء فنصدقهم فيما يقولون ، فإذا خرجنا . . تكلمنا فيهم ، فقال : كنا نعد هذا نفاقاً على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) .

وروي أنه سمع رجلاً يذم الحجاج ويقع فيه ، فقال : أرأيت لو كان الحجاج حاضراً . . أكنت تتكلم بما تكلمت به ؟ قال : لا ، قال : كنا نعد هذا نفاقاً على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم (٥) .

وأشد من ذلك ما روي أن نفراً قعدوا على باب حذيفة ينتظرونه ، فكانوا

(١) رواه أحمد في « المسند » (٣/٣) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، وفيه : (من الموبقات) بدل (من الكبائر) ، وعنده (٢٨٥/٣) بلفظه من حديث أنس رضي الله عنه .

(٢) قوت القلوب (٢٣٤/١) .

(٣) قوت القلوب (٢٣٤/١) .

(٤) قوت القلوب (٢٣٤/١) ، ورواه الخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (٣٠٢) .

(٥) رواه ابن عبد البر في « التمهيد » (٢٤/٢٣) ، وأصله في « البخاري » (٧١٧٨) .

يتكلمون في شيءٍ مِنْ شأنِهِ ، فلمَّا خرجَ عليهم . . سكتوا حياءً مِنْهُ ، فقالَ :
تكلّموا فيما كنتمُ تقولونَ ، فسكتوا ، فقالَ : كنّا نعدُّ هذا نفاقاً على عهدِ
رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ^(١) .

وهذا حذيفةُ كانَ قدْ خُصَّ بعلمِ المنافقينَ وأسبابِ النفاقِ ، وكانَ
يقولُ : (إِنَّهُ يَأْتِي عَلَى الْقَلْبِ سَاعَةٌ يَمْتَلِئُ بِالْإِيمَانِ حَتَّى لَا يَكُونَ لِلنِّفَاقِ فِيهِ
مَغْرُزُ إِبْرَةٍ ، وَيَأْتِي عَلَيْهِ سَاعَةٌ يَمْتَلِئُ بِالنِّفَاقِ حَتَّى لَا يَكُونَ لِلْإِيمَانِ فِيهِ مَغْرُزُ
إِبْرَةٍ)^(٢) .

فقدْ عرفتَ بهذا أَنَّ خَوْفَ العارفينَ مِنْ سَوْءِ الخاتمةِ ، وَأَنَّ سببَهُ أُمُورٌ
مقدّمةٌ ، منها البدعُ ، ومنها المعاصي ، ومنها النفاقُ ، ومتى يخلو العبدُ عن
شيءٍ مِنْ جملةِ ذلكِ ؟ ! وإنْ ظنَّ أَنَّهُ قدْ خلا عنه . . فهو النفاقُ ، إذْ قيلَ :
(مَنْ أَمِنَ النِّفَاقَ . . فهو منافقٌ)^(٣) .

وقالَ بعضهم لبعضِ العارفينَ : إِنِّي أَخَافُ عَلَى نَفْسِي النِّفَاقَ ، فقالَ :
لَوْ كُنْتَ منافقاً . . لما خفتَ النفاقَ^(٤) .

فلا يزالُ العارفُ بينَ الالتفاتِ إلى السابقةِ والخاتمةِ خائفاً منهما ،

(١) قوت القلوب (٢٣٤ / ١) .

(٢) قوت القلوب (٢٣٤ / ١) .

(٣) رواه البيهقي في « الشعب » (٨٣٣) عن الحسن البصري .

(٤) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٤١٤) عن حذيفة رضي الله عنه ،

والطبراني في « الكبير » (١٨٠ / ٩) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « العبدُ المؤمنُ بينَ مخافتين ، بينَ أجلٍ قد مضى لا يدري ما اللهُ صانعٌ فيه ، وبينَ أجلٍ قد بقي لا يدري ما اللهُ قاضٍ فيه ، فوالذي نفسي بيده ؛ ما بعدَ الموتِ منُ مستعْتَبٍ ، ولا بعدَ الدنيا منُ دارٍ إلا الجنةُ أو النارُ »^(١) ، واللهُ المستعانُ .



(١) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١٩٠) عن الحسن مرسلًا ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٩٧) عن الحسن عن بعض الصحابة مرفوعاً ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٤٢٦١) من حديث جابر رضي الله عنه .

بيان معنى سوء الخاتمة

فإن قلت : إن أكثر هؤلاء يرجع خوفهم إلى سوء الخاتمة ، فما معنى سوء الخاتمة ؟

فاعلم : أن سوء الخاتمة على رتبتين ، إحداهما أعظم من الأخرى .
فأما الرتبة العظيمة الهائلة : فإن يغلب على القلب عند سكرات الموت وظهور أهواله إمّا الشك وإمّا الجحود ، فتقبض الروح في حالة غلبة الجحود أو الشك ، فيكون ما غلب على القلب من عقدة الجحود حجاباً بينه وبين الله تعالى أبداً ، وذلك يقتضي البعد الدائم والعذاب المخلّد .

والثانية وهي دونها : أن يغلب على قلبه عند الموت حبٌ أمر من أمور الدنيا ، وشهوة من شهواتها ، فيتمثل ذلك في قلبه ويستغرقه ، حتى لا يبقى في تلك الحالة متسع لغيره ، فيتفق قبض روحه في تلك الحال ، فيكون استغراق قلبه به منكساً رأسه إلى الدنيا ، وصارفاً وجهه إليها ، ومهما انصرف الوجه عن الله تعالى .. حصل الحجاب ، ومهما حصل الحجاب .. نزل العذاب ، إذ نار الله الموقدة لا تأخذ إلا المحجوبين عنه .

فأما المؤمن السليم قلبه عن حب الدنيا ، المصروف همه إلى الله تعالى .. فتقول له النار : جزيا مؤمن ؛ فإن نورك قد أطفأ لهبي^(١) .

(١) روي هذا مرفوعاً ، رواه الطبراني في « الكبير » (٢٢ / ٢٥٨) ، وابن عدي في =

فمهما اتفق قبضُ الروح في حالة غلبة حبِّ الدنيا . فالأمرُ مخطرٌ ؛ لأنَّ المرءَ يموتُ على ما عاشَ عليه ، ولا يمكنُ اكتسابُ صفةٍ أخرى للقلبِ بعدَ الموتِ تضادُّ الصفةَ الغالبةَ عليه ؛ إذ لا تصرفُ في القلوبِ إلا بأعمالِ الجوارحِ ، وقد بطلتِ الجوارحُ بالموتِ ، فبطلتِ الأعمالُ ، فلا مطمعُ في عملٍ ، ولا مطمعُ في رجوعٍ إلى الدنيا ليتداركُ ، وعندَ ذلكَ تعظمُ الحسرةُ .

إلا أنَّ أصلَ الإيمانِ وحبَّ الله تعالى إذا كانَ قد رسخَ في القلبِ مدَّةً طويلةً ، وتأكدَ ذلكَ بالأعمالِ الصالحةِ . فإنه يمحو عن القلبِ هذه الحالةَ التي عرضتْ له عندَ الموتِ ، فإن كانَ إيمانهُ في القوَّةِ إلى حدِّ مثقالٍ . . أخرجهُ مِنَ النَّارِ في زمانٍ أقربَ ، وإن كانَ أقلَّ مِنْ ذَلِكَ . . طالَ مكثُهُ في النَّارِ ، ولو لم يكنْ إلا مثقالَ حبةٍ . . فلا بدَّ أن يخرجَهُ مِنَ النَّارِ ولو بعدَ آلافِ سنينَ .



فإن قلتَ : فما ذكرتهُ يقتضي أن تسرعَ النَّارُ إليه عقيبَ موتهُ ، فما باله يؤخَّرُ إلى يومِ القيامةِ ويُمهَّلُ طولَ هذه المدَّةِ ؟

فاعلمُ : أنَّ مَنْ أنكرَ عذابَ القبرِ . . فهو مبتدعٌ محجوبٌ عن نورِ الله تعالى وعن نورِ القرآنِ ونورِ الإيمانِ ، بل الصحيحُ عندَ ذوي الأبصارِ ما صحَّتْ بهِ الأخبارُ ، وهو أنَّ القبرَ إمَّا حفرةٌ مِنْ حفرِ النيرانِ أو روضةٌ مِنْ

= « الكامل » (٢٩٤ / ٦) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٢٣١ / ٩) عن يعلى بن منية رضي الله عنه مرفوعاً .

رياض الجنان ، وأنه قد يُفتح إلى قبر المعذب سبعون باباً من الجحيم كما وردت به الأخبار^(١) ، فلا تفارقه روحه إلا وقد نزل به البلاء إن كان قد شقي بسوء الخاتمة ، وإنما تختلف أصناف العذاب باختلاف الأوقات ، فيكون سؤال مُنكر ونكير عند الوضع في القبر ، والتعذيب بعده ، ثم المناقشة في الحساب ، والافتضاح على ملا من الأشهاد في القيامة^(٢) ، ثم بعد ذلك خطر الصراط ، وهول الزبانية^(٣) ، إلى آخر ما وردت به الأخبار ، فلا يزال الشقي مردداً في جميع أحواله بين أصناف العذاب ، وهو في جملة الأحوال معذب إلا أن يتغمده الله برحمته .



(١) روى أبو داود (٤٧٥٣) في الحديث الذي يذكر فيه عذاب القبر : « وافتحوا له باباً إلى النار ، فيأتيه من حرّها وسمومها... » الحديث ، أما ذكر السبعين . . فقال الحافظ العراقي : (لم أجده أصلاً) . « إتحاف » (٢٣٥ / ٩) .

(٢) فمن ذلك ما رواه البخاري (٢٤٤١) ، ومسلم (٢٧٦٨) عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً : « وأما الكفار والمنافقون . . فينادى بهم على رؤوس الخلائق : هؤلاء الذين كذبوا على الله » .

ومن ذلك ما رواه أحمد في « المسند » (٢٦ / ٢) ، والطبراني في « الكبير » (٤٠ / ١٢) عنه أيضاً مرفوعاً : « من انتفى من ولده ليفضحه في الدنيا . . فضحه الله يوم القيامة على رؤوس الأشهاد ، قصاص بقصاص » .

(٣) فمن ذلك ما رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٨٦ / ٨) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٣٣٧٦) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « الزبانية يوم القيامة أسرع إلى فسقة حملة القرآن منها إلى عبدة الأوثان والنيران ، فيقولون : ليس من علم كمن لا يعلم » .

ولا تظنَّ أنَّ محلَّ الإيمان يأكله الترابُ ، بل الترابُ يأكلُ جميعَ الجوارحِ
ويبدِّدُها ، إلى أن يبلغَ الكتابُ أجله ، فتجتمعُ الأجزاءُ المتفرِّقةُ ، وتُعادُ إليها
الروحُ التي هي محلُّ الإيمانِ ، وقد كانتْ مِنْ وقتِ الموتِ إلى الإعادةِ إمَّا في
حواصلِ طيرٍ خضرٍ معلقةٍ تحتَ العرشِ إنْ كانتْ سعيدةً ، وإمَّا على حالةٍ
تضادُّ هذهَ الحالَ إنْ كانتْ - والعياذُ باللهِ - شقيَّةً .



فإن قلتَ : فما السببُ الذي يفضي إلى سوءِ الخاتمةِ ؟

فاعلم : أنَّ أسبابَ هذهِ الأمورِ لا يمكنُ إحصاؤها على التفصيلِ ،
ولكن يمكنُ الإشارةُ إلى مجاميعها :

أما الختمُ على الشكِّ والجحودِ . . فينحصرُ سببُهُ في شيئين :

أحدهما : يُتصوَّرُ معَ تمامِ الورعِ والزهدِ ، وتمامِ الصلاحِ في الأعمالِ ؛
كالمبتدعِ الزاهدِ ، فإنَّ عاقبتهُ خطيرةٌ جدًّا وإنْ كانتْ أعمالُهُ صالحةً ، ولستُ
أعني مذهبا فأقولُ : (إنَّه بدعةٌ) ؛ فإنَّ بيانَ ذلكَ يطولُ القولُ فيه ، بل أعني
بالبدعةِ : أنْ يعتقَدَ الرجلُ في ذاتِ اللهِ وصفاتهِ وأفعالهِ خلافَ الحقِّ ،
فيعتقدهُ على خلافِ ما هوَ عليه ؛ إمَّا برأيه ومعقوله ونظيره الذي بهِ يجادلُ
الخصومَ وعليه يعوِّلُ وبه يغترُّ ، وإمَّا أخذاً بالتقليدِ ممَّنْ هذا حالُهُ .

فإذا قربَ الموتُ ، وظهرتْ له ناصيةُ ملكِ الموتِ ، واضطربَ القلبُ
بما فيه . . فربما ينكشفُ له في حالِ سكراتِ الموتِ بطلانُ ما اعتقدهُ جهلاً ؛

إذ حال الموت حال كشف الغطاء ، ومبادئ سكراته منه ، فقد ينكشف به بعض الأمور ، فمهما بطل عنده ما كان اعتقده ، وقد كان قاطعاً به متيقناً له عند نفسه . . لم يظن بنفسه أنه أخطأ في هذا الاعتقاد خاصة ؛ لالتجائه فيه إلى رأيه الفاسد وعقله الناقص ، بل ظن أن كل ما اعتقده لا أصل له ؛ إذ لم يكن عنده فرق بين إيمانه بالله ورسوله وسائر اعتقاداته الصحيحة وبين اعتقاده الفاسد ، فيكون انكشاف بعض اعتقاداته عن الجهل سبباً لبطان بقيّة اعتقاداته أو لشكه فيها .

فإن اتفق زهوق روحه في هذه الخطرة قبل أن ينب ويعود إلى أصل الإيمان^(١) . . فقد ختم له بالسوء ، وخرجت روحه على الشرك والعباد بالله منه ، فهؤلاء هم المرادون بقوله تعالى : ﴿ وَبَدَأَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾ ، وبقوله عز وجل : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا .

وكما أنه قد ينكشف في النوم ما سيكون في المستقبل وذلك بسبب خفة أشغال الدنيا عن القلب . . فذلك ينكشف في سكرات الموت بعض الأمور ، إذ شواغل الدنيا وشهوات البدن هي المانعة للقلب من أن ينظر إلى الملكوت ، فيطالع ما في اللوح المحفوظ لتكشف له الأمور على ما هي عليه ، فيكون مثل هذه الحال سبب الكشف ، ويكون الكشف سبب الشك في بقيّة الاعتقادات .

(١) في غير (أ) : (يثبت) بدل (ينب) .

وكلُّ مَنْ اعتقدَ في اللهِ تعالى وفي صفاتهِ وأفعالهِ شيئاً على خلافِ ما هوَ بهِ ؛ إمّا تقليداً ، وإمّا نظراً بالرأي والمعقولِ . . فهوَ في هذا الخطرِ ، والزهدُ والصلاحُ لا يكفي لدفعِ هذا الخطرِ ، بل لا ينجي منه إلا الاعتقادُ الحقُّ .

والبلُّ بمعزلٍ عن هذا الخطرِ ؛ أعني : الذين آمنوا باللهِ ورسولِهِ واليومِ الآخرِ إيماناً مجملاً راسخاً ؛ كالأعرابِ ، والسواديةِ ، وسائرِ العوامِّ الذين لم يخوضوا في البحثِ والنظرِ ، ولم يشرعوا في الكلامِ استقلالاً ، ولا أصغوا إلى أصنافِ المتكلمين في تقليدِ أقاويلِهِم المختلفةِ ، ولذلك قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « أكثرُ أهلِ الجنةِ البلُّ »^(١) .

ولذلك منعَ السلفُ مِنَ البحثِ والنظرِ والخوضِ في الكلامِ ، والتفتيشِ عن هذهِ الأمورِ ، وأمروا الخلقَ أن يقتصروا على أن يؤمنوا بما أنزلَ اللهُ جميعاً ، وبكلِّ ما جاءَ مِنَ الظواهرِ ، معَ اعتقادِ نفيِ التشبيهِ ، ومنعواهُم عن الخوضِ في التأويلِ ؛ لأنَّ الخطرَ في البحثِ عن الصفاتِ عظيمٌ ، وعقباتُهُ كؤودةٌ ، ومسالكُهُ وعرةٌ ، والعقولُ عن دركِ جلالِ اللهِ تعالى قاصرةٌ ، وهدايةُ اللهِ تعالى بنورِ اليقينِ عن القلوبِ بما جُبِلَتْ عليه مِنْ حبِّ الدنيا

(١) رواه الطحاوي في « شرح مشكل الآثار » (٤٣١ / ٧) ، وابن عدي في « الكامل » (٣١٣ / ٣) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٩٨٩) ، والبيهقي في « الشعب » (١٣٠٤) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً ، ورواه (١٣٠٣) من حديث جابر رضي الله عنه أيضاً مرفوعاً .

محبوبة ، وما ذكره الباحثون ببضاعة عقولهم مضطرب ومتعارض ، والقلوب لما ألقى إليها في مبدأ النشأة آفة ، وبه متعلقة ، والتعصبات النائرة بين الخلق مسامير مؤكدة للعقائد الموروثة ، أو المأخوذة بحسن الظن من المعلمين في أول الأمر ، ثم الطباع بحب الدنيا مشغوفة ، وعليها مقبلة ، وشهوات الدنيا بمخنقتها آخذة ، وعن تمام الفكر صارفة .

فإذا فتح باب الكلام في الله وفي صفاته بالرأي والمعقول ، مع تفاوت الناس في قرائحهم ، واختلافهم في طبائعهم ، وحرص كل جاهل منهم على أن يدعي الكمال أو الإحاطة بكنه الحق . . انطلقت ألسنتهم بما يقع لكل واحد منهم ، وتعلق ذلك بقلوب المصغين إليهم ، وتأكد ذلك بطول الإلف فيهم ، وانسد بالكلية طريق الخلاص عليهم ، فكانت سلامة الخلق في أن يشتغلوا بالأعمال الصالحة ، ولا يتعرضوا لما هو خارج عن حد طاقتهم .

ولكن الآن قد استرخى العنان ، وفشا الهذيان ، ونزل كل جاهل على ما وافق طبعه بظن وحسبان ، وهو يعتقد أن ذلك علم واستيقان ، وأنه صفو الإيمان ، ويظن أن ما قنع به من حدس وتخمين علم اليقين وعين اليقين ، ولتعلمن نبأه بعد حين .

وينبغي أن يُنشد في هؤلاء عند كشف الغطاء^(١) :

[من البسيط]

أَحْسَنْتَ ظَنَّاكَ بِالْأَيَّامِ إِذْ حَسُنْتَ وَلَمْ تَخَفْ سُوءَ مَا يَأْتِي بِهِ الْقَدَرُ

(١) البيتان متنازع في نسبتها ، وهما في « ديوان سيدنا علي » (ص ١٣٢) ، و« ديوان الإمام الشافعي » (ص ٦٥) ، و« ديوان أبي العتاهية » (ص ٥٣٦) .

وَسَأَلَمْتُكَ اللَّيَالِي فَأَغْتَرَزْتَ بِهَا وَعِنْدَ صَفْوِ اللَّيَالِي يَخْذُتُ الْكَدْرُ

واعلم يقيناً أن كل مَنْ فارق الإيمان الساذج بالله ورسوله وكتبه^(١) ، وخاض في البحث.. فقد تعرّض لهذا الخطر ، ومثاله : مَنْ انكسرت سفينته وهو في ملتطم الأمواج ، يرميه موج إلى موج ، فربما يتفق أن يلقيه إلى الساحل ، وذلك بعيداً ، والهلاك أغلب عليه .

وكل نازل على عقيدة تلقفها من الباحثين ببضاعة عقولهم ؛ إمّا مع الأدلة التي حرّروها في تعصباتهم ، أو دون الأدلة ؛ إن كان شاكاً فيه.. فهو فاسد الدين ، وإن كان واثقاً به.. فهو آمن من مكر الله ، مغترّ بعقله الناقص ، وكل خائض في البحث فلا ينفك عن هاتين الحالتين إلا إذا جاوز حدود المعقول^(٢) إلى نور المكاشفة الذي يشرق في عالم الولاية والنبوة ، وذلك هو الكبريت الأحمر ، وأنى يتيسّر؟! وإنما يسلم عن هذا الخطر البله من العوام ، أو الذين شغلهم خوف النار بطاعة الله ، فلم يخوضوا في هذا الفضول .

فهذا أحد الأسباب المخطرة في سوء الخاتمة .

وأما السبب الثاني : فهو ضعف الإيمان في الأصل ، ثم استيلاء حب الدنيا على القلب ، ومهما ضعف الإيمان.. ضعف حب الله ، وقوي حب

(١) الساذج : يطلقه أهل الكلام على ما ليس ببرهان قاطع .

(٢) في (أ) : (العقل) بدل (المعقول) .

الدنيا ، فيصيرُ بحيثُ لا يبقى في القلبِ موضعٌ لحبِّ الله تعالى ، إلا من حيثُ حديثُ النفسِ ، لا يظهرُ له أثرٌ في مخالفةِ النفسِ والعدولِ عن طريقِ الشيطانِ ، فيورثُ ذلكَ الانهماكُ في اتباعِ الشهواتِ ، حتَّى يظلمَ القلبُ ، ويقسو ويسودُّ ، وتتراكمُ ظلمةُ الذنوبِ على القلبِ ، فلا يزالُ يطفئُ ما فيه من نورِ الإيمانِ على ضعفِهِ حتَّى يصيرَ طبعاً ورئياً .

فإذا جاءتْ سكراتُ الموتِ . . ازدادَ ذلكَ الحبُّ - أعني : حبَّ الله - ضعفاً ؛ لما يبدو من استشعارِ فراقِ الدنيا ، وهي المحبوبُ الغالبُ على القلبِ^(١) ، فيتألمُ القلبُ باستشعارِ فراقِ الدنيا ، ويرى ذلكَ من الله ، فيختلجُ ضميرهُ بإنكارٍ ما قدَّرَ عليه من الموتِ ، وكراهةٍ ذلكَ من حيثُ إنَّه من الله ، فيُخشى أن يثورَ في باطنِهِ بغضٌ لله تعالى بدلَ الحبِّ ، كما أن الذي يحبُّ ولدهُ حبّاً ضعيفاً إذا أخذَ ولدهُ أموالَهُ التي هي أحبُّ إليه من ولدهِ وأحرقها . . انقلبَ ذلكَ الحبُّ الضعيفُ بغضاً ، فإن اتفقَ زهوقُ روحِهِ في تلكَ اللحظةِ التي خطرتُ فيها هذهِ الخطرةُ . . فقد خُتِمَ له بالسوءِ ، وهلكَ هلاكاً مؤبداً .

والسببُ الذي يفضي إلى مثلِ هذهِ الخاتمةِ هو غلبةُ حبِّ الدنيا ، والركونُ إليها ، والفرحُ بأسبابِها ، مع ضعفِ الإيمانِ الموجبِ لضعفِ حبِّ الله تعالى ، فمن وجدَ في قلبِهِ حبَّ الله أغلبَ من حبِّ الدنيا - وإن

(١) في (أ) : (وبقي) بدل (وهي) .

كَانَ يَحِبُّ الدُّنْيَا أَيْضاً - فَهُوَ أَبْعَدُ عَنْ هَذَا الْخَطَرِ .

وَحُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ ، وَهُوَ الدَّاءُ الْعِضَالُ ، وَقَدْ عَمَّ أَصْنَافَ الْخَلْقِ ، وَذَلِكَ كُلُّهُ لِقَلَّةِ الْمَعْرِفَةِ بِاللَّهِ تَعَالَى ، إِذْ لَا يَحِبُّهُ إِلَّا مَنْ عَرَفَهُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ قَدْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ... ﴾ الْآيَةُ .

فَإِذَا ؛ مَنْ فَارَقَتْهُ رَوْحُهُ فِي حَالَةِ خَطَرَةِ الْإِنْكَارِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى بِبَالِهِ ، وَظَهَرَ بَغْضُ فِعْلِ اللَّهِ تَعَالَى بِقَلْبِهِ فِي تَفْرِيقِهِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَسَائِرِ مُحَابَاهِهِ . . فَيَكُونُ مَوْتُهُ قَدُومًا عَلَى مَا أَبْغَضَهُ ، وَفِرَاقًا لِمَا أَحَبَّهُ ، فَيَقْدُمُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى قَدُومَ الْعَبْدِ الْمُبْغِضِ الْآبِقِ إِذَا قُدِمَ بِهِ عَلَى مَوْلَاهُ قَهْرًا ، فَلَا يَخْفَى مَا يَسْتَحِقُّهُ مِنَ الْخَزْيِ وَالنَّكَالِ .

وَأَمَّا الَّذِي يُتَوَقَّى عَلَى الْحَبِّ . . فَإِنَّهُ يَقْدُمُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى قَدُومَ الْعَبْدِ الْمُحْسَنِ الْمُشْتَاقِ إِلَى مَوْلَاهُ ، الَّذِي تَحْمَلُ مَشَاقَّ الْأَعْمَالِ وَوَعَثَاءَ الْأَسْفَارِ طَمَعًا فِي لِقَائِهِ ، فَلَا يَخْفَى مَا يَلْقَاهُ مِنَ الْفَرَحِ وَالسُّرُورِ بِمَجْرَدِ الْقَدُومِ ، فَضْلًا عَمَّا يَسْتَحِقُّهُ مِنْ لَطَائِفِ الْإِكْرَامِ وَبِدَائِعِ الْإِنْعَامِ .

وَأَمَّا الْخَاتِمَةُ الثَّانِيَةُ الَّتِي هِيَ دُونَ الْأُولَى ، وَلَيْسَتْ مُقْتَضِيَةً لِلْخُلُودِ فِي النَّارِ . . فَلَهَا أَيْضًا سَبَبَانِ :

أَحَدُهُمَا : كَثْرَةُ الْمَعَاصِي وَإِنْ قَوِيَ الْإِيمَانُ .

والآخر : ضعف الإيمان وإن قلت المعاصي .

وذلك لأن مقارفة المعاصي سببها غلبة الشهوات ورسوخها في القلب بكثرة الإلـف والعادة ، وجميع ما ألفه الإنسان في عمره يعود ذكره إلى قلبه عند موته ، فإن كان ميله الأكثر إلى الطاعات . . كان أكثر ما يحضره ذكر طاعة الله ، وإن كان ميله الأكثر إلى المعاصي . . غلب ذكرها على قلبه عند الموت ، فربما تقبض روحه عند غلبة شهوة من شهوات الدنيا ، ومعصية من المعاصي ، فيتقيّد بها قلبه ، ويصير محجوباً عن الله تعالى ، فالذي لا يقارف الذنب إلا الفينة بعد الفينة . . فهو أبعد عن هذا الخطر ، والذي لم يقارف ذنباً أصلاً . . فهو بعيد جداً عن هذا الخطر ، والذي غلبت عليه المعاصي ، وكانت أكثر من طاعاته ، وقلبه بها أفرح منه بالطاعات . . فهذا الخطر عظيم في حقه جداً .

ويعرف هذا بمثال : وهو أنه لا يخفى عليك أن الإنسان يرى في منامه جملة من الأحوال التي عهداها طول عمره ، حتّى إنه لا يرى إلا ما يماثل مشاهداته في اليقظة ، وحتّى إن المراهق الذي يحتلم لا يرى صورة الوقاع إذا لم يكن قد واقع في اليقظة ، ولو بقي كذلك مدة . . لما رأى عند الاحتلام صورة الوقاع .

ثم لا يخفى أن الذي قضى عمره في التفقه يرى من الأحوال المتعلقة بالعلم والعلماء أكثر ممّا يراه النجار الذي قضى عمره في النجارة ، والنجار

يرى مِنَ الأحوالِ المتعلِّقةِ بأسبابِ النجاةِ أكثرَ ممَّا يراهُ الطَّبيبُ والفقيهُ ؛
لأنَّهُ إنَّما يظهرُ في حالةِ النومِ ما حصلَ لَهُ مناسبةٌ معَ القلبِ بطولِ الإلفِ أو
بسببِ آخرَ مِنَ الأسبابِ .

والموتُ شبهُ النومِ ، ولكنَّهُ فوقَهُ ، ولكنَّ سكراتِ الموتِ وما يتقدَّمُهُ مِنَ
الغشيةِ قريبٌ مِنَ النومِ ، فيقتضي ذلكَ تذكُّرَ المألوفاتِ وعودَهَا إلى القلبِ ،
وأحدُ الأسبابِ المرجَّحةِ لحصولِ ذكرِهِ في القلبِ طولُ الإلفِ ، فطولُ
الإلفِ بالمعاصي والطاعاتِ أيضاً مرجُّحٌ ؛ ولذلكَ أيضاً تُخالفُ مناماتُ
الصالحينَ مناماتِ الفسَّاقِ ، فتكونُ غلبةُ الإلفِ سبباً لأنَّ تتمثَّلَ صورةُ فاحشةٍ
في قلبِهِ وتميلُ إليها نفسُهُ ، فربَّما تُقبضُ عليها روحُهُ ، فيكونُ ذلكَ سببَ
سوءِ خاتمتهِ ، وإنَّ كانَ أصلُ الإيمانِ باقياً ، بحيثُ يُرجى لَهُ الخلاصُ منها .

وكما أنَّ ما يخطرُ في اليقظةِ إنَّما يخطرُ بسببِ خاصٍّ يعلمُهُ اللهُ تعالى . .
فكذلكَ آحادُ المناماتِ لها أسبابٌ عندَ اللهِ ، نعرفُ بعضها ولا نعرفُ
بعضها ، كما أنَّنا نعلمُ أنَّ الخاطرَ ينتقلُ مِنَ الشَّيْءِ إلى ما يناسبُهُ : إمَّا
بالمشابهةِ ، وإمَّا بالمضادَّةِ ، وإمَّا بالمقارنةِ ، بأنَّ يكونَ قد وردَ على الحسِّ
معهُ .

أمَّا بالمشابهةِ : فبأنَّ ينظرَ إلى جميلٍ ، فيتذكَّرُ جميلاً آخرَ .

وأمَّا بالمضادَّةِ : فبأنَّ ينظرَ إلى جميلٍ ، فيتذكَّرُ قبيحاً ، ويتأملُ في شدةِ

التفاوتِ بينهما .

وأما بالمقارنة : فبأن ينظر إلى فرسٍ قد رآه مِنْ قَبْلُ مع إنسانٍ ، فيتذكر ذلك الإنسان .

وقد ينتقل الخاطر مِنْ شيءٍ إلى شيءٍ ولا يُدرى وجهُ مناسبتِهِ له ، وإنما يكون ذلك بواسطةٍ وواسطتين ، مثل أن ينتقل مِنْ شيءٍ إلى ثانٍ ، ومنهُ إلى ثالثٍ ، ثم ينسى الثاني ولا يكون بين الثالث والأوّل مناسبةً ، ولكن يكون بينهُ وبين الثاني مناسبةً ، وبين الثاني والأوّل مناسبةً ؛ فكَذلك لانتقالاتِ الخواطرِ في المنامِ أسبابٌ مِنْ هذا الجنسِ ، وكذا عندَ سكراتِ الموتِ ؛ فإن الخواطرَ تنتقلُ فيها في أمورٍ بعضها مرتبطٌ ببعضٍ بأسبابٍ مختلفةٍ .

فعلى هذا - والعلمُ عندَ الله - مِنْ كانتِ الخياطةُ أكثرَ أشغاله . . فإنك تراه يومئذٍ إلى رأسِهِ كأنَّهُ يأخذُ إبرتهُ ليخيطَ بها ، ويبلُ إصبعَهُ التي لها عادةٌ بالكشبانِ ، ويأخذُ الإزارَ مِنْ فوقِهِ ويقدرُهُ ويشبرُهُ كأنَّهُ يتعاطى تفصيلَهُ ، ثم يمدُّ يدهُ إلى المقرّاضِ .

ومَنْ أرادَ أن يكفَّ خاطرهُ عن الانتقالِ إلى المعاصي والشهواتِ . . فلا طريقَ لَهُ إلا المجاهدةُ طولَ العمرِ في فطامِ نفسِهِ عنها ، وفي قمعِ الشهواتِ مِنَ القلبِ ، فهذا هو القدرُ الذي يدخلُ تحتَ الاختيارِ ، ويكونُ طولُ المواظبةِ على الخيرِ ، وتخليّةِ الفكرِ عن الشرِّ . . عدّةً وذخيرةً لحالةِ سكراتِ الموتِ ، فإنه يموتُ المرءُ على ما عاشَ عليه ، ويحشرُ على ما ماتَ عليه .
ولذلك نُقلَ عن بقّالٍ أنّه كانَ يُلقَنُ عندَ الموتِ كلمتي الشهادةِ ، فيقولُ :

(خمسة ، ستة ، أربعة) ، فكان مشغول النفس بالحساب الذي طال إلفه له قبل الموت .

وقال بعض العارفين من السلف : العرش جوهرة تتلأل نوراً ، فلا يكون العبد على حالٍ إلا انطبع مثاله في العرش على الصورة التي كان عليها ، فإذا كان في سكرات الموت . . كشفت له صورته من العرش ، فربما يرى نفسه على صورة معصية ، وكذلك يكشف له يوم القيامة ، فيرى أحوال نفسه ، فيأخذها من الحياء والخوف ما يجلُّ عن الوصف^(١) .

وما ذكره صحيح ، وسبب الرؤيا الصادقة قريب من ذلك ، فإنَّ النَّائم يدرك ما يكون في المستقبل من مطالعة اللوح المحفوظ ، وهي جزء من أجزاء النبوة^(٢) .

فإذا ؛ رجع سوء الخاتمة إلى أحوال القلب واختلاج الخواطر ، ومقلَّب القلوب هو الله ، والاتفاقات المقتضية لسوء الخواطر^(٣) غير داخلية تحت الاختيار دخولاً كلياً وإن كان لطول الإلف فيه تأثير ، فلهذا عظم خوف العارفين من سوء الخاتمة ؛ لأنه لو أراد الإنسان ألا يرى في المنام إلا أحوال الصالحين وأحوال الطاعات والعبادات . . عسر عليه ذلك ، وإن كانت كثرة

(١) قوت القلوب (٢٣٣/١) بتصرف .

(٢) كما روى البخاري (٦٩٨٣) ، ومسلم (٢٢٦٤) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة » .

(٣) في (أ ، س) : (الخاتمة) بدل (الخواطر) .

الصالح والمواظبة عليه ممّا يؤثر فيه ، ولكن اضطرابات الخيال لا تدخل بالكلية تحت الضبط ، وإن كان الغالب مناسبة ما يظهر في النوم لما غلب في اليقظة .

حتى سمعت الشيخ أبا عليّ الفارمذي رحمه الله عليه يصف لي وجوب حسن أدب المريّد لشيخه ، وألا يكون في قلبه إنكار لكل ما يقوله ، ولا في لسانه مجادلة عليه ، فقال : حكيت لشيخ أبي القاسم الكركاني^(١) مناماً لي ، وقلت : رأيتك قلت لي كذا ، فقلت : لم ذاك ؟ قال : فهجرني شهراً ولم يكلمني ، وقال : لولا أنّه كان في باطنك تجويز المطالبة وإنكار ما أقوله لك . . لما جرى ذلك على لسانك في المنام .

وهو كما قال ؛ إذ قلّمَا يرى الإنسان في منامه خلاف ما يغلب في اليقظة على قلبه .

فهذا هو القدر الذي نسمح بذكره في علم المعاملة من أسرار أمر

(١) وهو جدّ أبي عليّ الفارمذي لأمه ، روى الحافظ السلفي في « معجم السفر » (١٣٧) عن أخي الغزالي أحمد أنه قال : (كان أبو القاسم الكركاني بطوس شيخ خراسان في عصره في التصوف . . .) ، قال العلامة ياقوت في « معجم البلدان » (٤٥٢ / ٤) : (كركان : بالضم ، وآخره نون ، وإذا عرّب . . قيل : جرجان) ، قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٢٤١ / ٩) : (وكان أبو عليّ الفارمذي قد صاهر أبا القاسم الكركاني هذا ، والمصنف رحمه الله تعالى قد أخذ عن كل من الفارمذي ويوسف النساج ، وهما جميعاً عن أبي القاسم الكركاني هذا ، وقد دفن الكركاني والنساج كلاهما في قبر واحد بطوس ، وكل هؤلآء الثلاثة من كبار مشايخ السلسلة النقشبندية ، وللكركاني في الأخذ طريقان) وذكرهما .

الخاتمة ، وما وراء ذلك فهو داخل في علم المكاشفة .

وقد ظهر لك بهذا أن الأمن من سوء الخاتمة بأن ترى الأشياء كما هي عليه من غير جهل ، وترجي جميع العمر في طاعة الله من غير معصية^(١) ، فإن كنت تعلم أن ذلك محال أو عسير . فلا بد أن يغلب عليك من الخوف ما غلب على العارفين ، حتى يطول بسببه بكاؤك ونياحتك ، ويدوم به حزنك وقلقك ، كما سنحكيه من أحوال الأنبياء والأولياء والسلف الصالحين ؛ ليكون ذلك أحد الأسباب المهيجة لنار الخوف من قلبك .

وقد عرفت بهذا أن أعمال العمر كلها ضائعة إن لم يسلم في النفس الأخير الذي عليه خروج الروح ، وأن سلامته مع اضطراب أمواج الخواطر مشكل جداً ، ولذلك كان مطرف بن عبد الله يقول : (إني لا أعجب ممن هلك كيف هلك ، ولكنني أعجب ممن نجا كيف نجا !!)^(٢) .

ولذلك قال حامد اللقاف : (إذا صعدت الملائكة بروح العبد المؤمن وقد مات على الخير والإسلام . تعجبت الملائكة منه ، وقالوا : كيف نجا هذا من دنيا فسد فيها خيارنا ؟)^(٣) .

(١) ترجي : زجيت الشيء ترجية ؛ إذا دفعته برفق ، يقال : كيف ترجي الأيام ؟ أي : كيف تدفعها ؟ ودفعها يكون بالرضا بقوت قليل .

(٢) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٢٤١ / ٩) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٧١ / ٣) عن سليمان ينصح به ابنه .

(٣) يشيرون بذلك إلى إبليس وهاروت وماروت . « إتحاف » (٢٤١ / ٩) .

وكان الثوري يوماً يبكي ، فقيل له : علام تبكي ؟ فقال : بكينا على الذنوب زماناً ، فالآن نبكي على الإسلام^(١) .

وبالجملة : مَنْ وَقَعَتْ سَفِينَتُهُ فِي لَجَّةِ الْبَحْرِ ، وَهَجَمَتْ عَلَيْهِ الرِّيحُ الْعَاصِفَةُ ، وَاضْطَرَبَتْ الْأَمْوَاجُ . . كَانَتْ النِّجَاةُ فِي حَقِّهِ أَبْعَدَ مِنَ الْهَلَاكِ ، وَقَلْبُ الْمُؤْمِنِ أَشَدَّ اضْطِرَاباً مِنَ السَّفِينَةِ ، وَأَمْوَاجُ الْخَوَاطِرِ أَعْظَمُ التَّطَاماً مِنْ أَمْوَاجِ الْبَحْرِ ، وَإِنَّمَا الْمَخُوفُ عِنْدَ الْمَوْتِ خَاطِرٌ سَوْءٌ يَخْطُرُ فَقْطٌ ، وَهُوَ الَّذِي قَالَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ خَمْسِينَ سَنَةً ، حَتَّى لَا يَبْقَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ إِلَّا فُوقُ نَاقَةٍ ، فَيُخْتَمُ لَهُ بِمَا سَبَقَ بِهِ الْكِتَابُ »^(٢) ، وَلَا يَتَسَعُ فُوقُ النَّاقَةِ لِأَعْمَالٍ تَوْجِبُ الشَّقَاوَةَ ، بَلْ هِيَ الْخَوَاطِرُ الَّتِي تَضْطَرُّبُ وَتَخْطُرُ خَطُورَ الْبَرْقِ الْخَاطِفِ .

وقال سهل : (رَأَيْتُ كَأَنِّي أُدْخِلْتُ الْجَنَّةَ ، فَرَأَيْتُ ثَلَاثَ مِائَةِ نَبِيٍّ ، فَسَأَلْتُهُمْ : مَا أَخَوْفُ مَا كُنْتُمْ تَخَافُونَ فِي الدُّنْيَا ؟ قَالُوا : سُوءُ الْخَاتِمَةِ)^(٣) .

- (١) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » . « إتحاف » (٢٤١ / ٩) ، وقد روى أبو نعيم في « الحلية » (١٢ / ٧) عن عبد الرحمن بن مهدي قال : مات سفيان الثوري عندي ، فلما اشتد به . . جعل يبكي ، فقال له رجل : يا أبا عبد الله ؛ أراك كثير الذنوب ! فرفع شيئاً من الأرض فقال : والله ؛ لذنوبي أهون عندي من ذا ، إني أخاف أن أسلب الإيمان قبل الموت .
- (٢) قوت القلوب (٢٢٦ / ١) ، ورواه مسلم (٢٦٥١) ، والطبراني في « الأوسط » (٢٤٦٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً بنحوه .
- (٣) قوت القلوب (٢٢٩ / ١) .

ولأجل هذا الخطر العظيم كانت الشهادة مغبوطاً عليها ، وكان موت
الفجأة مكروهاً .

أمّا الموت فجأةً . . فلأنه ربما يتفق عند غلبة خاطر سوء واستيلائه على
القلب ، والقلب لا يخلو عن أمثاله ، إلا أن يُدفع بالكراهة أو بنور المعرفة .
وأمّا الشهادة . . فلأنها عبارة عن قبض الروح في حالة لم يبق في القلب
سوى حب الله تعالى ، وخرج حب الدنيا والأهل والمال ، والولد وجميع
الشهوات عن القلب ، إذ لا يهجم على صف القتال موطناً نفسه على الموت
إلا حباً لله ، وطلباً لمرضاته ، وبائعاً دنياه بآخرته ، وراضياً بالبيع الذي
بايعه الله به ؛ إذ قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ
بِأَنَّهُ لَهُمُ الْجَنَّةُ ﴾ ، والبائع راغب عن المبيع لا محالة ، ومخرج حبه من
القلب ، ومجرد حبّ العوض المطلوب في قلبه ، ومثل هذه الحالة قد
يغلب على القلب في بعض الأحوال ، ولكن لا يتفق زهوق الروح فيها ،
فصف القتال سبب لزهوق الروح على مثل هذه الحالة ، هذا فيمن ليس
يقصد الغلبة والغنيمة وحسن الصيت بالشجاعة ، فإن من هذا حاله وإن قُتل
في المعركة فهو بعيد عن مثل هذه الرتبة كما دلّت عليه الأخبار^(١) .

(١) إذ روى البخاري (٢٨١٠) ، ومسلم (١٩٠٤) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه
قال : (جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل
يقاتل للذكر ، والرجل يقاتل ليرى مكانه ، فمن في سبيل الله ؟ قال : « من قاتل لتكون
كلمة الله هي العليا . فهو في سبيل الله » .

وَإِذْ بَانَ لَكَ مَعْنَى سُوءِ الْخَاتِمَةِ ، وَمَا هُوَ مَخُوفٌ فِيهَا . . فَاشْتَغِلْ
بِالاستعدادِ لَهَا ؛ فَوَاضِبٌ عَلَى ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَأَخْرَجٌ مِنْ قَلْبِكَ حُبَّ
الدُّنْيَا ، وَاحْرَسَنَ عَنْ فِعْلِ الْمَعَاصِي جَوَارِحَكَ ، وَعَنِ الْفِكْرِ فِيهَا قَلْبَكَ ،
وَاحْتَرَزَ عَنْ مَشَاهِدَةِ الْمَعَاصِي وَمَشَاهِدَةِ أَهْلِهَا جَهْدَكَ ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَيْضاً يُوَثِّرُ
فِي قَلْبِكَ ، وَيَصْرِفُ إِلَيْهِ فِكْرَكَ وَخَوَاطِرَكَ .

وَإِيَّاكَ أَنْ تَسَوِّفَ وَتَقُولَ : (سَأَسْتَعِدُّ لَهَا إِذَا جَاءَتِ الْخَاتِمَةُ) ، فَإِنَّ كُلَّ
نَفْسٍ مِنْ أَنْفَاسِكَ خَاتِمَتُكَ ، إِذْ يُمْكِنُ أَنْ تُخْتَلَفَ فِيهِ رَوْحُكَ ، فِرَاقِبْ قَلْبَكَ
فِي كُلِّ تَطْرِيفَةٍ ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَهْمَلَهُ لِحِظَةٍ ، فَلَعَلَّ تِلْكَ اللَّحِظَةَ خَاتِمَتُكَ ؛ إِذْ
يُمْكِنُ أَنْ تُخْتَلَفَ فِيهَا رَوْحُكَ ، هَذَا مَا دَمَتَ فِي يَقِظَتِكَ .

وَأَمَّا إِذَا نَمَتَ . . فَإِيَّاكَ أَنْ تَنَامَ إِلَّا عَلَى طَهَارَةِ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ ، وَأَنْ
يَغْلِبَكَ النَّوْمُ إِلَّا بَعْدَ غَلْبَةِ ذِكْرِ اللَّهِ عَلَى قَلْبِكَ ، لَسْتُ أَقُولُ : عَلَى لِسَانِكَ ،
فَإِنَّ حَرَكَةَ اللِّسَانِ بِمَجَرَّدِهَا ضَعِيفَةٌ الْأَثَرِ .

وَاعْلَمْ قَطْعاً : أَنَّهُ لَا يَغْلِبُ عِنْدَ النَّوْمِ عَلَى قَلْبِكَ إِلَّا مَا كَانَ قَبْلَ النَّوْمِ غَالِباً
عَلَيْهِ ، وَأَنَّهُ لَا يَغْلِبُ فِي النَّوْمِ إِلَّا مَا كَانَ غَالِباً قَبْلَ النَّوْمِ ، وَلَا تُبْعَثُ عَنْ
نَوْمِكَ إِلَّا عَلَى مَا غَلَبَ عَلَى قَلْبِكَ فِي نَوْمِكَ ، وَالْمَوْتُ وَالْبَعْثُ شَبَهُ النَّوْمِ
وَالْيَقِظَةِ ، فَكَمَا لَا يَنَامُ الْعَبْدُ إِلَّا عَلَى مَا غَلَبَ عَلَيْهِ فِي يَقِظَتِهِ ، وَلَا يَسْتَيْقِظُ
إِلَّا عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ فِي نَوْمِهِ . . فَكَذَلِكَ لَا يَمُوتُ الْمَرءُ إِلَّا عَلَى مَا عَاشَ
عَلَيْهِ ، وَلَا يُحْشَرُ إِلَّا عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ .

وتحقّق قطعاً و يقيناً أنّ الموتَ والبعثَ حالتانِ مِنْ أحوالِكَ كما أنّ النومَ واليقظةَ حالتانِ مِنْ أحوالِكَ ، وآمنْ بهذا تصديقاً باعتقادِ القلبِ ، إنّ لم تكنْ أهلاً لمشاهدةِ ذلكَ بعينِ اليقينِ ونورِ البصيرةِ ، وراقبْ أنفاسَكَ ولحظَاتِكَ ، وإيّاكَ أَنْ تغفلَ عَنِ اللَّهِ طرفةَ عينٍ ، فإنَّكَ إذا فعلتَ ذلكَ كلُّهُ^(١) . . كنتَ معَ ذلكَ في خطرٍ عظيمٍ ، فكيفَ إذا لمَ تفعلْ؟! فالناسُ كلُّهُم هلكى إلا العالمونَ ، والعالمونَ كلُّهُم هلكى إلا العاملونَ ، والعاملونَ كلُّهُم هلكى إلا المخلصونَ والمخلصونَ على خطرٍ عظيمٍ .

واعلمْ : أنّ ذلكَ لا يتيسَّرُ لكَ ما لمَ تقنعْ مِنَ الدنيا بقدرِ ضرورتِكَ ، وضرورتِكَ مطعمٍ وملبسٍ ومسكنٍ ، والباقي كلُّهُ فضولٌ .

والضرورةُ مِنَ المطعمِ : ما يقيمُ صلبَكَ ويسدُّ رمقَكَ ، فينبغي أن يكونَ تناولُكَ تناولَ مضطّرٍّ كارهٍ لَهُ ، ولا تكونَ رغبتُكَ فيه أكثرَ مِنْ رغبتِكَ في قضاءِ حاجتِكَ ، إذ لا فرقَ بَيْنَ إدخالِ الطعامِ فِي البطنِ وَبَيْنَ إخراجِهِ ، فهما ضرورتانِ فِي الجبلةِ ، وكما لا يكونُ قضاءُ الحاجةِ مِنْ همَّتِكَ التي يشتغلُ بها قلبُكَ . . فلا ينبغي أن يكونَ تناولُ الطعامِ مِنْ همَّتِكَ ، واعلمْ أنّه إن كانَ همَّتُكَ ما يدخلُ فِي بطنِكَ . . فقيمَتُكَ ما يخرجُ مِنْ بطنِكَ .

وإذا لمَ يكنْ قصدُكَ مِنَ الطعامِ إلا التقويُّ على عبادَةِ اللَّهِ تعالى ؛ كقصدِكَ

(١) أي : من الإيمان القلبي ومراقبة الأنفاس واللحظات . « إتحاف » (٢٤٣ / ٩) .

مِنْ قِضَاءِ حَاجَتِكَ .. فَعَلَامَةُ ذَلِكَ تَظْهَرُ فِي ثَلَاثَةِ أُمُورٍ مِنْ مَأْكُولِكَ : فِي وَقْتِهِ ، وَقَدْرِهِ ، وَجَنْسِهِ .

أَمَّا الْوَقْتُ .. فَأَقْلُهُ أَنْ يَكْتَفِيَ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ بِمَرَّةٍ وَاحِدَةٍ ، فَيُؤَاطَبُ عَلَى الصَّوْمِ .

وَأَمَّا قَدْرُهُ .. فَأَلَّا يَزِيدَ عَلَى ثُلْثِ الْبَطْنِ .

وَأَمَّا جَنْسُهُ .. فَأَلَّا يَطْلُبَ اللَّذَائِدَ مِنَ الْأَطْعِمَةِ ، بَلْ يَقْنَعُ بِمَا يَتَفَقُّ .

فَإِنْ قَدَرْتَ عَلَى هَذِهِ الثَّلَاثِ ، وَسَقَطَتْ عَنْكَ مَوْنَةُ الشَّهَوَاتِ اللَّذَائِدِ .. قَدَرْتَ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى تَرْكِ الشَّهَوَاتِ ، وَأَمْكَنْكَ أَلَّا تَأْكُلَ إِلَّا مِنْ حَلَلِهِ ، فَإِنَّ الْحَلَالَ يَعْزُّ وَلَا يَفِي بِجَمِيعِ الشَّهَوَاتِ .

وَأَمَّا مَلْبَسُكَ : فَلْيَكُنْ غَرَضُكَ مِنْهُ دَفْعَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ وَسِتْرَ الْعُورَةِ ، فَكُلُّ مَا دَفَعَ الْبَرْدَ عَنْ رَأْسِكَ - وَلَوْ قَلَنْسُوءَ بَدَانِقٍ - فَطَلْبُكَ غَيْرَهُ فَضُولٌ مِنْكَ ، يَضِيعُ زَمَانُكَ ، وَيُلْزِمُكَ الشَّغْلُ الدَّائِمَ وَالْعِنَاءُ الْقَائِمَ فِي تَحْصِيلِهِ بِالْكَسْبِ مَرَّةً ، وَبِالطَّمَعِ أُخْرَى مِنَ الْحَرَامِ وَالشَّبْهِةِ ، وَقَسْ بِهَذَا مَا تَدْفَعُ بِهِ الْحَرَّ وَالْبَرْدَ عَنْ بَدَنِكَ ، فَكُلُّ مَا حَصَلَ مَقْصُودَ اللَّبَاسِ إِنْ لَمْ تَكْتَفِ بِهِ فِي خُسَاسَةِ قَدْرِهِ وَجَنْسِهِ .. لَمْ يَكُنْ لَكَ مَوْقِفٌ وَمَرَدُّ بَعْدَهُ ، بَلْ كُنْتَ مَمَّنْ لَا يَمْلَأُ بَطْنُهُ إِلَّا التَّرَابُ .

وَكَذَلِكَ الْمَسْكَنُ : إِنْ اكَتَفَيْتَ بِمَقْصُودِهِ .. كَفَتْكَ السَّمَاءُ سَقْفًا ، وَالْأَرْضُ مُسْتَقَرًّا ، فَإِنْ غَلَبَكَ حَرٌّ أَوْ بَرْدٌ .. فَعَلَيْكَ بِالْمَسَاجِدِ^(١) ، فَإِنْ طَلَبْتَ

(١) فِي غَيْرِ (ب ، ج) : (فَاَلْمَسَاجِدَ) بَدَلَ (فَعَلَيْكَ بِالْمَسَاجِدِ) .

مسكناً خاصاً.. طالَ عليك ، وانصرفَ إليه أكثرُ عمرِكَ ، وعمرُكَ هو بضاعتُكَ ، ثمَّ إنَّ تيسَّرَ لكَ فقصدتَ مِنَ الحائِطِ سوى كونهِ حائلاً بينَكَ وبينَ الأبصارِ ، وَمِنَ السقفِ سوى كونهِ دافعاً للأمطارِ ، فأخذتَ ترفعُ الحيطانَ ، وتزيِّنُ السقوفَ.. فقد تورَّطتَ في مهوأةٍ يبعدُ رقيُّكَ منها .

وهكذا جميعُ ضروراتِ أمورِكَ ؛ إن اقتصرْتَ عليها.. تفرغتَ لله ، وقدرتَ على التزوُّدِ لآخرتِكَ ، والاستعدادِ لخاتمتِكَ ، وإنْ جاوزتَ حدَّ الضرورةِ إلى أوديةِ الأمانِي.. تشعبتْ همومُكَ ، ولم يبالِ اللهُ في أيِّ وادٍ أهلكَكَ .

فاقبلِ هذهِ النصيحةَ ممَّنْ هو أحوجُّ إلى النصيحةِ منك .

واعلمُ : أنَّ متسعَ التدبيرِ والتزوُّدِ والاحتياطِ هذا العمرُ القصيرُ ، فإذا دفعتهُ يوماً بيومٍ في تسويفِكَ أو غفلتِكَ.. اختُطفَتْ فجأةً في غيرِ وقتٍ إرادتِكَ ، ولمْ تفارقَكَ حسرتُكَ وندامتُكَ .

فإنْ كنتَ لا تقدرُ على ملازمةٍ ما أرشدتُ إليه لضعفِ خوفِكَ ؛ إذْ لمْ يكنْ فيما وصفناه منْ أمرِ الخاتمةِ كفايةً في تخويفِكَ.. فإنَّا سنوردُ عليك منْ أحوالِ الخائفينَ ما نرجو أنْ يزيلَ بعضَ القساوةِ عنْ قلبِكَ ، فإنَّكَ تتحقَّقُ أنَّ عقلَ الأنبياءِ والأولياءِ والعلماءِ وعلمهم ومكانهم عندَ الله لمْ يكنْ دونَ عقلِكَ وعلمِكَ ومكانِكَ^(١) ، فتأملْ - معَ كلالِ بصيرتِكَ وعمشِ عينِ قلبِكَ - في

(١) في غير (أ ، ب) : (وعلمهم... وعملك) بدل (وعلمهم... وعملك) .

أحوالهم : لِمَ اشتدَّ بهمُ الخوفُ ، وطالَ بهمُ الحزنُ والبكاءُ ؟ حتَّى كانَ بعضهمُ يصعقُ ، وبعضُهمُ يدهشُ ، وبعضُهمُ يسقطُ مغشياً عليه ، وبعضُهمُ يخرُّ ميتاً إلى الأرضِ .

ولا غروَ إنَّ كانَ ذلكَ لا يؤثِّرُ في قلبِكَ ؛ فإنَّ قلوبَ الغافلينَ مثلُ الحجارةِ أو أشدَّ قسوةً ، وإنَّ مِنَ الحجارةِ لما يتفجَّرُ منه الأنهارُ ، وإنَّ منها لما يشقُّ فيخرجُ منه الماءُ ، وإنَّ منها لما يهبطُ من خشيةِ اللهِ ، وما اللهُ بغافلٍ عمَّا تعملونَ .



بيان أحوال الأنبياء والملائكة عليهم الصلاة والسلام في الخوف

رَوَتْ عائشة رضي الله عنها : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا تَغَيَّرَ الْهَوَاءُ ، وَهَبَتْ رِيحٌ عَاصِفَةٌ . . يَتَغَيَّرُ وَجْهُهُ ، وَيَقُومُ وَيَتَرَدَّدُ فِي الْحَجَرَةِ ، وَيَدْخُلُ وَيَخْرُجُ ، كُلُّ ذَلِكَ خَوْفًا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ (١) .
وَقَرَأَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آيَةَ فِي (سُورَةِ الْحَاقَّةِ) فَصَعَقَ (٢) .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا ﴾ .

وَرَأَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صُورَةَ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْأَبْطَحِ فَصَعَقَ (٣) .

وَرُوي أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانَ إِذَا دَخَلَ فِي الصَّلَاةِ يُسْمَعُ لَصْدِرِهِ أَزِيزٌ كَأَزِيزِ الْمَرْجَلِ (٤) .

(١) رواه البخاري (٤٨٢٩) ، ومسلم (٨٩٩) ، وفيه قوله لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها : « مَا يُؤْمِنِي أَنْ يَكُونَ فِيهِ عَذَابٌ !؟ عَذِبَ قَوْمٍ بِالرِّيحِ ، وَقَدْ رَأَى قَوْمَ الْعَذَابِ فَقَالُوا : ﴿ هَذَا عَارِضٌ مُتَمِّطُنَا ﴾ » .

(٢) كَذَا فِي « الْقُوتِ » (٢٣٨ / ١) ، قَالَ : (وَرَوَى حُمَزَةُ عَنْ حِمْرَانَ بْنِ أَعِينٍ . . .) وَذَكَرَهُ ، وَتَقَدَّمَ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَرَأَ أَوْ قُرِئَ عَنْدهُ : ﴿ إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا ﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴾ فَصَعَقَ ، وَأَنَّهُ رَوَاهَا ابْنُ عَدِي فِي « الْكَامِلِ » (٤٣٦ / ٢) ، وَهَنَادُ فِي « الزَّهْدِ » (٢٦٧) .

(٣) رواه أحمد في « الْمُسْنَدِ » (٣٢٢ / ١) ، وَالبزار في « مُسْنَدِهِ » (٤٧١٨) ، وَالطبراني في « الْكَبِيرِ » (٥٧ / ١١) .

(٤) رواه أبو داود (٩٠٤) ، وَالنسائي (١٣ / ٣) .

وقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مَا جَاءَنِي جَبْرِيلُ قَطُّ إِلَّا وَهُوَ يُرْعَدُ فِرْقًا مِنْ الْجَبَّارِ » (١) .

وقيلَ : لما ظهرَ على إبليسَ ما ظهرَ . . طفقَ جبريلُ وميكائيلُ عليهما السلامُ يبكيانِ ، فأوحى اللهُ إليهما : ما لكما تبكيانِ كلَّ هذا البكاءِ ؟ فقالا : يا ربُّ ؛ ما نأمنُ مكرَكَ ، فقالَ اللهُ تعالى : هكذا كونا ، لا تأمنا مكري (٢) .

وعنُ محمدِ بنِ المنكدرِ قالَ : (لَمَّا خُلِقَتِ النَّارُ . . طَارَتْ أَفئدةُ الملائكةِ مِنْ أَمَاكِئِهَا ، فَلَمَّا خُلِقَ بَنُو آدَمَ . . عَادَتْ) (٣) .

وعنُ أنسٍ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ سَأَلَ جَبْرِيلَ : « مَا لِي لَا أَرَى مِيكَائِيلَ »

(١) عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٨٣٥٧) من حديث أبي ذر : « والذي بعثني بالحق ؛ ما أتاني جبريل قط إلا رأيت بين عينيه مصوراً ، فقلت : يا جبريل ؛ مالي أراك تأتيني وبين عينيك مصوراً ؟ قال : والذي بعثك بالحق وجعلني أميناً فيما بينه وبينك ؛ ما ضحكت منذ خلقت جهنم » ، وروى أبو الشيخ في « العظمة » (٣٦٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إن جبريل يوم القيامة لقائم بين يدي الجبار تبارك وتعالى تُرْعَدُ فرائضه فرقاً من عذاب الله تعالى ، يقول : سبحانك لا إله إلا أنت ، ما عبدناك حق عبادتك ، وروى البيهقي في « الشعب » (٨٨٧) عن أبي عمران الجوني قال : بلغني أن جبريل عليه السلام جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يبكي ، فقال : « ما يبكيك ؟ » ، قال : ما جفت لي عين منذ خلق الله جهنم ؛ مخافة أن أعصيه فيلقيني فيها .

(٢) كذا في « الرسالة القشيرية » (ص ٢٤٠) ، ورواه أبو الشيخ في « العظمة » (٣٨٣) وليس فيه ذكر إبليس .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥ / ٤) من كلام طاووس بن كيسان .

يضحك ؟ » فقال جبريل : ما ضحك ميكائيل منذ خُلقت النار^(١) .

ويقال : إنَّ الله تعالى ملائكة لم يضحك أحدٌ منهم منذ خُلقت النار ؛ مخافة أن يغضب الله عليهم فيعذبهم بها^(٢) .

وقال ابنُ عمر رضي الله عنهما : خرجتُ مع رسولِ الله صلى الله عليه وسلم حتَّى دخلَ بعضَ حيطانِ الأنصارِ ، فجعلَ يلتقطُ مِنَ التمرِ ويأكلُ ، قالَ : فقالَ : « يا بنَ عمرَ ؛ مالكَ لا تأكلُ ؟ » فقلتُ : يا رسولَ الله ؛ لا أشتهيه ، فقالَ : « لكنِّي أشتهيه ، وهذا صبحُ رابعةٍ مُدٌّ لم أذُق طعاماً ولم أجدهُ ، ولو سألتُ ربِّي . . لأعطاني ملكَ كسرى وقيصرَ ، فكيف بك - يا بنَ عمرَ - إذا بقيتَ في قومٍ يخبؤونَ رزقَ ستِّهم ، ويضعفُ اليقينُ في قلوبهم ؟ » قالَ : فوالله ؛ ما برحنا ولا قمنا حتَّى نزلتَ : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ ، قالَ : فقالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « إنَّ اللهَ لم يأمرْكم بكنزِ المالِ ، ولا باتِّباعِ الشهواتِ ، مَنْ كنزَ دنائيرَ يريدُ بها حياةَ فانيةٍ . . فإنَّ الحياةَ بيدِ الله ، ألا وإنِّي لا أكنزُ ديناراً ولا درهماً ، ولا أخبأُ رزقاً لغدي »^(٣) .

(١) رواه أحمد في « المسند » (٢٢٤ / ٣) ، ورواه كذلك في حق إسماعيل عليه السلام البيهقي في « الشعب » (٨٨٥) .

(٢) فقد روى البيهقي في « الشعب » (٨٨٦) مرفوعاً : « إنَّ الله عز وجل ملائكة تُرعدُ فرائصهم من مخافته ، ما منهم ملك يقطر من عينيه دمعة إلا وقعت ملكاً قائماً يسبح » .

(٣) رواه أبو الشيخ في « أخلاق النبي » (٨٣١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٢٧ / ٤) .

وقال أبو الدرداء : (كَانَ يُسْمَعُ أَزِيْزُ قَلْبِ إِبْرَاهِيْمَ خَلِيْلِ الرَّحْمَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِذَا قَامَ فِي الصَّلَاةِ مِنْ مَسِيْرَةِ مِيلٍ ؛ خَوْفًا مِنْ رَبِّهِ) (١) .

وقال مجاهدٌ : بكى داوودُ عليه السلامُ أربعينَ يوماً ساجداً لا يرفعُ رأسَهُ ، حتَّى نبتَ المرعى مِنْ دموعِهِ ، وحتَّى غطَّى رأسَهُ ، فنوديَ : يا داوودُ ؛ أَجَائِعُ أَنْتَ فَتُطْعَمُ ، أَمْ ظَمَأُنُ فَتُسْقَى ، أَمْ عَارٍ فَتُكْسَى ؟ فنَحَبَ نَحْبَةً هَاجَ الْعُودُ فَاحْتَرَقَ مِنْ حَرِّ جَوْفِهِ ، ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ التَّوْبَةَ وَالْمَغْفِرَةَ ، فَقَالَ : يَا رَبِّ ، اجْعَلْ خَطِيئَتِي فِي كَفِّي ، فَصَارَتْ خَطِيئَتُهُ فِي كَفِّهِ مَكْتُوبَةً ، فَكَانَ لَا يَبْسُطُ كَفَّهُ لَطْعَامٍ وَلَا لَشْرَابٍ وَلَا لغيرِهِ إِلَّا رَأَاهَا فَأَبْكَتْهُ ، قَالَ : وَكَانَ يُؤْتَى بِالْقَدَحِ ثَلَاثُ مَاءً ، فَإِذَا تَنَاوَلَهُ . . أَبْصَرَ خَطِيئَتَهُ ، فَمَا يَضَعُهُ عَلَى شَفْتِهِ حتَّى يَفِيضَ الْقَدَحُ مِنْ دُمُوعِهِ (٢) .

ويُروى عَنْهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ مَا رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ حتَّى مَاتَ ، حَيَاءً مِنَ اللهِ تَعَالَى (٣) .

وكانَ يَقُولُ فِي مَنَاجَاتِهِ : (إِلَهِي ؛ إِذَا ذَكَرْتُ خَطِيئَتِي . . ضَاقَتْ عَلَيَّ الْأَرْضُ بُرْخِبَهَا ، وَإِذَا ذَكَرْتُ رَحْمَتَكَ . . ارْتَدَّتْ إِلَيَّ رُوحِي ، سُبْحَانَكَ

(١) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢١٨ / ٦) بنحوه .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٤٧٤) ، وهاج : يبس ، قال تعالى : ﴿ ثُمَّ يَهَيِّجُ فَتَرْتَدُّ مُصْفَرًّا ﴾ .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٤٧٥) .

إلهي ، أتيتُ أطباءَ عبادِكَ ليداووا خطيئتي ، فكلُّهُمَّ عليك يدُلُّني ، فبؤساً
للقانطينَ مِنْ رَحْمَتِكَ (١) .

وقال الفضيلُ : بلغني أَنَّ داوودَ عليه السلامُ ذَكَرَ ذَنْبَهُ ذاتَ يومٍ ، فوثبَ
صارخاً واضعاً يدهُ على رَأْسِهِ حتَّى لَحِقَ بالجبالِ ، فاجتمعتْ إِلَيْهِ السباعُ ،
فقالَ : ارجعوا لا أريدُكُمْ ، إِنَّمَا أريدُ كُلَّ بَكَاءٍ على خطيئتي ، فلا يستقبلُني
إلا بالبكاءِ ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ ذا خطيئةٍ . . فما يصنعُ بداوودَ الخطَّاءِ (٢) .

وكانَ يُعَاتِبُ في كثرةِ البكاءِ فيقولُ : (دعوني أبكي قبلَ خروجِ يومِ
البكاءِ ، قبلَ تخريقِ العظامِ واشتعالِ الحشا ، وقبلَ أَنْ يُؤْمَرَ بي ملائكةُ غلاظٍ
شدادٍ لا يعصونَ اللهَ ما أمرُهُمْ ويفعلونَ ما يُؤْمرونَ) (٣) .

وقالَ عبدُ العزيزِ بنُ عميرٍ : لَمَّا أَصَابَ داوودُ الخطيئةَ . . نقصَ صوتهُ ،
فقالَ : (إلهي ؛ بُحَّ صوتي في صفاءِ أصواتِ الصديقينَ) (٤) .

ورُويَ أَنَّهُ عليه السلامُ لَمَّا طَالَ بكاءُهُ وَلَمْ يَنْفَعُهُ ذَلِكَ ، فضاقَ ذرعُهُ ،
واشتدَّ غمُّهُ . . قالَ : يا رَبِّ ؛ أَمَا تَرْحَمُ بكائي ، فأوحى اللهُ تعالى إِلَيْهِ :
يا داوودُ ؛ نَسِيتَ ذَنْبَكَ وَذَكَرْتَ بكاءَكَ ؟ ! فقالَ : إلهي وسَيِّدي ؛ كَيْفَ
أَنْسى ذَنْبِي وَكُنْتُ إِذَا تَلَوْتُ الزبورَ . . كَفَّ الماءُ الجاري عن جريهِ ، وسَكَنَ

(١) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص ٥٢) عن عثمان ابن عاتكة يحكيه .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب «الخائفين» . «إتحاف» (٢٤٧/٩) .

(٣) رواه ابن المبارك في «الزهد» (٤٨٣) ، وفيه : (الحي) بدل (الحشا) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في «الرقعة والبكاء» (٣٩٤) .

هبوبُ الريح ، وأظلّني الطيرُ على رأسي ، وأنستِ الوحوشُ إلى محرابي ؟
إلهي وسيدي ؛ فما هذه الوحشةُ التي بيني وبينك ؟ فأوحى الله تعالى
إليه : يا داوودُ ؛ ذاك أنسُ الطاعةِ ، وهذه وحشةُ المعصيةِ ، يا داوودُ ؛ آدمُ
خلقُ من خلقي ، خلقتُه بيدي ، ونفختُ فيه من روحي ، وأسجدتُ له
ملائكتي ، وألبستُه ثوبَ كرامتي ، وتوجتُه بتاجِ وقاري ، وشكا إليَّ
الوحدةَ ، فزوجتُه حواءَ أمتي ، وأسكتتُه جنّتي ، عصاني ، فطردتُه عن
جواني عرياناً ذليلاً ، يا داوودُ ؛ اسمعُ مني والحقُّ أقولُ : أطعنا
فأطعناك ، وسألتنا فأعطيناك ، وعصيتنا فأمهلناك ، وإن عدتَ إلينا على
ما كان منك . . قبلناك^(١) .

وقال يحيى بن أبي كثير : بلغنا أن داوودَ عليه السلامُ كان إذا أراد أن
ينوحَ . . مكثَ قبلَ ذلك سبعا لا يأكلُ الطعامَ ، ولا يشربُ الشرابَ ،
ولا يقربُ النساءَ ، فإذا كان قبلَ ذلك بيومٍ . . أخرجَ له منبرٌ إلى البريةِ ،
فيأمرُ سليمانَ عليه السلامُ أن ينادي بصوتٍ يستقرئُ البلادَ وما حولها من
الغياضِ والآكامِ والجبالِ والبراري والصوامعِ والبيعِ ، فينادي فيها : ألا مَنْ
أرادَ أن يسمعَ نوحَ داوودَ على نفسه . . فليأتِ ، قال : فتأتي الوحوشُ من
البراري والآكامِ ، وتأتي السباعُ من الغياضِ ، وتأتي الهوامُ من الجبالِ ،
وتأتي الطيرُ من الأوكارِ ، وتأتي العذارى من خدورهنَّ ، وتجتمعُ الناسُ
لذلك اليومِ ، ويأتي داوودُ حتّى يرقى على المنبرِ ، ويحيطُ به بنو إسرائيلَ ،

(١) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب « الخائفين » . « إتحاف » (٢٤٧ / ٩) .

وكلُّ صنفٍ على حدِّته محيطون به ، وسليمان عليه السلام قائمٌ على رأسِهِ ،
 فيأخذُ في الشَّاءِ على ربِّهِ ، فيضجُّون بالبكاء والصراخ ، ثمَّ يأخذُ في ذكرِ
 الجنَّةِ والنارِ ، فتموتُ الهوامُّ وطائفةٌ مِنَ الوحوشِ والسباعِ والناسِ ، ثمَّ
 يأخذُ في أهوالِ القيامةِ ، وفي النياحةِ على نفسه ، فيموتُ مِنْ كُلِّ نوعٍ
 طائفةٌ ، فإذا رأى سليمانُ كثرةَ الموتى.. قَالَ : يا أبتاه ؛ قد مرَّقتُ
 المستمعينَ كُلَّ ممزقٍ ، وماتت طوائفٌ مِنْ بني إسرائيلَ وَمِنْ الوحوشِ
 والهوامِّ ، فيأخذُ في الدعاءِ ، فيينا هوَ كذلك.. إِذْ ناداهُ بعضُ عبَادِ بني
 إسرائيلَ : يا داوودُ ؛ عجلتَ بطلبِ الجزاءِ على ربِّكَ ، قَالَ : فيخرُّ داوودُ
 مغشياً عليه ، فإذا نظرَ سليمانُ إلى ما أصابَهُ.. أتى بسريرِ فحملةُ عليه ، ثمَّ
 أمرَ منادياً ينادي : ألا مَنْ كَانَ لَهُ مَعَ داوودَ حميمٌ أو قريبٌ.. فليأتِ بسريرِ
 فليحملةُ ، فَإِنَّ الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ قَدْ قَتَلَهُمْ ذَكَرُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، فَكَانَتِ الْمَرْأَةُ
 تَأْتِي بِالسَّرِيرِ وَتَحْمِلُ قَرِيبَهَا وَتَقُولُ : يَا مَنْ قَتَلَهُ ذَكَرُ النَّارِ ، يَا مَنْ قَتَلَهُ
 خَوْفُ اللَّهِ ، ثُمَّ إِذَا أَفَاقَ دَاوُدُ.. قَامَ وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى رَأْسِهِ ، وَدَخَلَ بَيْتَ
 عِبَادَتِهِ ، وَأَغْلَقَ بَابَهُ ، وَيَقُولُ : يَا إِلَهَ دَاوُدَ ؛ أَغْضَبَانُ أَنْتَ عَلَى دَاوُدَ ؟
 وَلَا يَزَالُ يَنَاجِي رَبَّهُ ، فَيَأْتِي سُلَيْمَانُ وَيَقْعُدُ عَلَى الْبَابِ ، وَيَسْتَأْذِنُ ، ثُمَّ يَدْخُلُ
 وَمَعَهُ قَرَصٌ مِنْ شَعِيرٍ ، فَيَقُولُ : يَا أبتاه ؛ تَقَوَّ بِهَذَا عَلَى مَا تَرِيدُ ، فَيَأْكُلُ مِنْ
 ذَلِكَ الْقَرَصِ مَا شَاءَ اللَّهُ ، ثُمَّ يَخْرُجُ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فَيَكُونُ بَيْنَهُمْ^(١) .

(١) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب « الخائفين » . « إتحاف » (٢٤٨ / ٩) ، ورواه السراج
 القاري في « مصارع العشاق » (٢٧٢ / ١) .

وقال يزيد الرقاشي : خرج داوود ذات يوم بالناس يعظهم ويخوفهم ، فخرج في أربعين ألفاً ، فمات منهم ثلاثون ألفاً ، وما رجع إلا في عشرة آلاف ، قال : وكان له جارتان اتخذهما ، حتى إذا جاءه الخوف ، وسقط فاضطرب . . قعدتا على صدره وعلى رجله مخافة أن تتفرق أعضاؤه ومفاصله فيموت^(١) .

وقال ابن عمر رضي الله عنهما : دخل يحيى بن زكريا عليهما السلام بيت المقدس وهو ابن ثمان حجج ، فنظر إلى عبادهم قد لبسوا مدارع الشعر والصوف ، ونظر إلى مجتهديهم قد خرقوا التراقي وسلكوا فيها السلاسل ، وشدوا أنفسهم إلى أطراف بيت المقدس ، فهاله ذلك ، فرجع إلى أبيه ، فمر بصبيان يلعبون ، فقالوا له : يا يحيى ؛ هلم بنا لنلعب ، فقال : إني لم أخلق للعب ، قال : فأتى أبيه ، فسألهم أن يدرّعه الشعر ، ففعلا ، فرجع إلى بيت المقدس ، وكان يخدمه نهاراً ، ويصبح فيه ليلاً^(٢) ، حتى أتت عليه خمس عشرة سنة ، فخرج ولزم أطواد الأرض وغيوان الشعاب ، فخرج أبواه في طلبه ، فأدركاه على بحيرة الأردن وقد أنقع رجله في الماء وقد كاد

(١) وروى ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٣٩٩) عن ثابت البناني قال : (كان داوود نبي الله عليه السلام إذا ذكر عقاب الله . . تخلعت أوصاله ، لا يشدها إلا الأسر ، فإذا ذكر رحمة الله . . تراجع) ، والأسر : العصب والشد ، والمراد هنا : الأعصاب والعروق لشبهها بالجل .

(٢) أي : يسرج السرج . « إتحاف » (٢٤٨ / ٩) .

العطش يذبحه وهو يقول : وعزتك وجلالك ؛ لا أذوق بارد الشراب حتى أعلم أين مكاني منك ، فسأله أبواه أن يفرط على قرص كان معهما من شعير ، ويشرب من ذلك الماء ، ففعل وكفر عن يمينه ، فمدح بالبر ، فردّه أبواه إلى بيت المقدس ، فكان إذا قام يصلي . . بكى حتى يبكي معه الشجر والمدر ، ويبكي زكريا عليه السلام لبكائه ، حتى يغمى عليه ، فلم يزل يبكي حتى أحرقت دموعه لحم خديه ، وبدت أضراسه للناظرين ، فقالت له أمّه : يا بني ؛ لو أذنت لي أن أتخذ لك شيئاً تواري به أضراسك عن الناظرين ، فأذن لها ، فعمدت إلى قطعتي لبود فالصقتهما على خديه ، فكان إذا قام يصلي . . بكى ، فإذا استنقعت دموعه في القطعتين . . أتت إليه أمّه فعصرتهما ، فإذا رأى دموعه تسيل على ذراعي أمّه . . قال : اللهم ؛ هذه دموعي ، وهذه أمي ، وأنا عبدك ، وأنت أرحم الراحمين ، فقال له زكريا يوماً : يا بني ؛ إنما سألت ربّي أن يهبك لي لتقرّ عيناك بك ، فقال يحيى : يا أبت ؛ إن جبريل أخبرني أن بين الجنة والنار مفازة لا يقطعها إلا كل بكاء ، فقال زكريا عليه السلام : فابك يا بني^(١) .

وقال عيسى عليه السلام : (معاشر الحواريين ؛ خشية الله وحب الفردوس يورثان الصبر على المشقة ، ويباعدان من الدنيا ، وبحق أقول

(١) رواه ابن قتيبة في « عيون الأخبار » (٢/ ٢٩٤) إلى قوله : (وأنت أرحم الراحمين) عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٩/ ٥٣) عن يزيد بن أبي منصور .

لَكُمْ : إِنَّ أَكَلَ الشَّعِيرِ وَالنَّوْمَ عَلَى الْمَزَابِلِ مَعَ الْكَلَابِ فِي طَلَبِ الْفَرْدَوْسِ قَلِيلٌ^(١) .

وقيل : كَانَ الْخَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِذَا ذَكَرَ خَطِيئَتَهُ . . يُغْشَى عَلَيْهِ ، وَيُسْمَعُ اضْطِرَابُ قَلْبِهِ مِيلاً فِي مِيلٍ ، فَيَأْتِيهِ جَبْرِيلُ فَيَقُولُ لَهُ : الْجَبَّارُ يقرئك السلام ويقول : هل رأيت خليلاً يخافُ خليله ؟ فيقول : يا جبريلُ ؛ إِنِّي إِذَا ذَكَرْتُ خَطِيئَتِي . . نَسِيتُ خَلَّتِي^(٢) .

فهذه أحوالُ الأنبياء عليهم السلام ، فدونك والتأمل فيها ؛ فإنَّهم أَعْرِفُ خَلَقَ اللهُ بِاللَّهِ تَعَالَى وَبِصِفَاتِهِ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ ، وَعَلَى كُلِّ عِبَادِ اللهِ الْمُقْرَبِينَ ، وَحَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .



(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٦٩/٢) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٢٢/٤٧) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب « الخائفين » . « إتحاف » (٢٤٩/٩) .

بيان أحوال الصحابة والتابعين والسلف الصالحين في شدة الخوف

رُوِيَ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ لَطَائِرُ : (لَيْتَنِي مِثْلَكَ يَا طَائِرُ وَلَمْ أُخْلَقْ بَشَرًا) (١) .

وَقَالَ أَبُو ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : (وَدِدْتُ لَوْ أَنِّي شَجَرَةٌ تُعْضَدُ) (٢) ، وَكَذَا قَالَ طَلْحَةُ (٣) .

وَقَالَ عَثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : (وَدِدْتُ أَنِّي إِذَا مِتُّ لَمْ أُبْعَثْ) (٤) .

وَقَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : (وَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ نَسِيًا مَنْسِيًا) (٥) .

وَرُوِيَ أَنَّ عَمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ يَسْقُطُ مِنَ الْخَوْفِ إِذَا سَمِعَ آيَةً مِنَ الْقُرْآنِ مَغْشِيًا عَلَيْهِ ، فَكَانَ يُعَادُ أَيَّامًا (٦) .

وَأَخَذَ يَوْمًا تَبَنَةً مِنَ الْأَرْضِ فَقَالَ : (يَا لَيْتَنِي كُنْتُ هَذِهِ التَّبَنَةَ ، يَا لَيْتَنِي

(١) رواه بنحوه البيهقي في « الشعب » (٧٦٩) .

(٢) رواه الترمذي (٢٣١٢) ، وذكره موقوفاً عليه رضي الله عنه .

(٣) قوت القلوب (٢٢٨ / ١) .

(٤) كذا في « القوت » (٢٢٨ / ١) ، وروى ابن أبي الدنيا في « المتمنين » (٧٢) عنه

رضي الله عنه قال : (لو وقفت بين الجنة والنار ، فخيرت بين أن أصير رماداً أو أخير

إلى أي الدارين أصير . . لاخترت أن أكون رماداً) .

(٥) رواه البخاري (٤٧٥٣) .

(٦) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥١ / ١) .

لَمْ أَكُ شَيْئاً مَذْكوراً ، يَا لَيْتَنِي كُنْتُ نَسِياً مَنْسِياً ، يَا لَيْتَنِي لَمْ تَلِدْنِي أُمِّي (١) .

وَكَانَ فِي وَجْهِ عَمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خَطَّانِ أَسْوَدَانِ مِنَ الدَّمْعِ (٢) .

وَقَالَ عَمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : (مَنْ خَافَ اللَّهَ . . لَمْ يَشْفِ غِيْظُهُ ، وَمَنْ اتَّقَى اللَّهَ . . لَمْ يَصْنَعْ مَا يَرِيدُ ، وَلَوْ لَا يَوْمُ الْقِيَامَةِ . . لَكَانَ غَيْرَ مَا تَرَوْنَ) (٣) .

وَلَمَّا قَرَأَ عَمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ ، وَانْتَهَى إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴾ . . خَرَّ مَغْشِياً عَلَيْهِ (٤) .

وَمَرَّ يَوْماً بِدَارِ إِنْسَانٍ وَهُوَ يَصَلِّي وَيَقْرَأُ (سُورَةَ الطُّورِ) فَوَقَفَ يَسْتَمِعُ ، فَلَمَّا بَلَغَ قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴾ . . نَزَلَ عَنْ حِمَارِهِ ، وَاسْتَنَدَ إِلَى حَائِطٍ ، وَمَكَثَ زَمَاناً ، وَرَجَعَ إِلَى مَنْزِلِهِ ، فَمَرَضَ شَهْراً يَعُودُهُ النَّاسُ وَلَا يَدْرُونَ مَا مَرَضُهُ (٥) .

وَقَالَ عَلِيُّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ وَقَدْ سَلَّمَ مِنْ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَقَدْ عَلَاهُ كَأَبُهُ وَهُوَ يَقْلَبُ يَدَهُ : (لَقَدْ رَأَيْتُ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ أَرَ الْيَوْمَ

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٢٣٤) .

(٢) رواه أحمد في « فضائل الصحابة » (٣١٨) .

(٣) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٤٠٥) من طريق ابن أبي الدنيا ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥٨ / ٨) .

(٤) أورده المحب الطبري في « الرياض النضرة » (٣٧٥ / ٢) .

(٥) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٠٨ / ٤٤) .

شيئاً يشبههم ، لقد كانوا يصبحون شعناً صفراً غبراً ، بين أعينهم أمثال رُكَبِ المعزى ، قد باتوا لله سجداً وقياماً يتلون كتاب الله ، يراوحون بين جباههم وأقدامهم ، فإذا أصبحوا وذكروا الله . . مادوا كما يمدُّ الشجرُ في يومِ الريح ، وهملت أعينهم الدموعَ حتَّى تبلَّ ثيابهم ، والله ؛ كأني بالقومِ باتوا غافلين) ، ثمَّ قامَ فما رُئي بعدَ ذلك ضاحكاً حتَّى ضربه ابنُ ملجم^(١) .

وقال عمران بن الحصين : (وددتُ أني رمادُ تسفيني الرياحُ في يومِ عاصفٍ)^(٢) .

وقال أبو عبيدة ابن الجراح رضي الله عنه : (وددتُ أني كبشٌ فيذبخني أهلي ، فيأكلون لحمي ، ويحسنون مرقي)^(٣) .

وكان علي بن الحسين رضي الله عنه إذا توضأ . . اصفرَّ لونه ، فيقولُ له أهله : ما هذا الذي يعتادُكَ عندَ الوضوءِ ؟ فيقولُ : أتدرون بينَ يدي مَنْ أريدُ أن أقومَ ؟!^(٤) .

وقال موسى بن مسعود : كنَّا إذا جلسنا إلى الثوري كأنَّ النارَ قد أحاطتْ بنا ؛ لما نرى من خوفِهِ وجزعِهِ^(٥) .

- (١) رواه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (٢٠٥) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٢٥٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١ / ٧٦) .
- (٢) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (٣٠٧ / ١١) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٧٠) .
- (٣) هو ضمن الخبر المروي قبله .
- (٤) رواه أحمد في « الزهد » (٢١٣٨) ، وابن أبي الدنيا في « الرقة والبكاء » (١٤٨) .
- (٥) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ١٤٠) .

وقرأ مضرُ القاريُّ يوماً : ﴿ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ ... ﴾ الآية ،
فبكى عبدُ الواحدِ بنُ زيدٍ حتَّى غُشيَ عليه ، فلمَّا أفاق .. قال : وعزَّتكَ ؛
لا عصيتُكَ جهدي أبداً ، فأعني بتوفيقِكَ على طاعتِكَ ^(١) .

وكانَ المسورُ بنُ مخزومة لا يقوى أن يسمعَ شيئاً من القرآنِ لشدةِ خوفِهِ ،
ولقد كانَ يُقرأُ عندهُ الحرفُ أو الآيةُ فيصيحُ صيحةً فما يعقلُ أياماً ، حتَّى أتى
عليهِ رجلٌ من خثعم ، فقرأَ عليه : ﴿ يَوْمَ نَخْشِرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ... ﴾
وَسَوْفَ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرْدًا ﴿ ، فقال : أنا من المجرمين ، ولستُ منَ
المتقين ، أعدْ عليَّ القولَ أيُّها القاريُّ ، فأعادها عليه ، فشهِقَ شهقةً فلهقَ
بالآخرة ^(٢) .

وقُرِئَ عندَ يحيى البكاءِ : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ ﴾ ، فصاحَ صيحةً
مكثَ منها مريضاً أربعةَ أشهرٍ يُعادُ من أطرافِ البصرة ^(٣) .

وقالَ مالكُ بنُ دينارٍ : بينما أنا أطوفُ بالبيتِ إذْ أنا بجُويريةَ المتعبدةِ
متعلقةً بأستارِ الكعبةِ وهي تقولُ : يا ربِّ ؛ كم من شهوةٍ ذهبَتْ لذاتها وبقِيَتْ

(١) بنحوه رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٣٠ / ٣٧) .

(٢) قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٢٥٢ / ٩) : (هكذا ذكره المصنف في سبب موته ، والذي ثبت من قول عمرو بن علي الفلاس أنه أصابه المنجنيق في فتنة ابن الزبير وهو يصلي في الحجر ، فمكث خمسة أيام ثم مات ، فلعل هذه القصة إن صحت .. كانت في أثناء هذه الأيام الخمسة ، أو حصل التصحيف من النساخ في صاحب القصة) .

(٣) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٢١٣) .

تبعاتها؟! يا ربّ ؛ أما كان لك أدبٌ وعقوبةٌ إلا النارُ؟! وتبكي ، فما زال ذلك مقامها حتّى طلعَ الفجرُ ، قال مالكٌ : فلمّا رأيتُ ذلك . . وضعتُ يدي على رأسي صارخاً أقولُ : ثكلتُ مالكا أمّةً^(١) .

وروي أن الفضيلَ رُئي يومَ عرفةَ والناسُ يدعونَ وهو يبكي بكاءَ الثكلى المحترقة ، حتّى إذا كادتِ الشمسُ تغربُ . . قبضَ على لحيتهِ ، ثمّ رفعَ رأسه إلى السماءِ وقالَ : واسوءتاهُ منك وإنْ غفرتَ ، ثمّ انقلبَ مع الناسِ^(٢) .

وسئلَ ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما عن الخائفينَ ، فقالَ : (قلوبُهُم بالخوفِ قرحةٌ ، وأعينُهُم باكيةٌ ، يقولونَ : كيفَ نفرحُ والموتُ مِن ورائنا ، والقبرُ أمامنا ، والقيامةُ موعِدنا ، وعلى جهنّمَ طريقنا ، وبينَ يدي ربّنا موقِفنا؟!)^(٣) .

ومرَّ الحسنُ بشابٍّ وهو مستغرقٌ في ضحكِهِ وهو جالسٌ مع قومٍ في مجلسٍ ، فقالَ لَهُ الحسنُ : يا فتى ؛ هلْ مررتَ بالصراطِ ؟ قالَ : لا ، قالَ : فهلْ تدري إلى الجنّةِ تصيرُ أمْ إلى النارِ ؟ قالَ : لا ، قالَ : فما هذا

(١) رواه الفاكهي في « أخبار مكة » (٣١٩/١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٣١/٥٦) ، وكذا وقع في النسخ : (المتعبدة) بالتعريف ، وعند الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٢٥٢/٩) : (بجويرية متعبدة) .

(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٣٨٩٧) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٢٠/٤٨) .

(٣) أورده ابن عبد ربه في « العقد الفريد » (١٧٧/٣) .

الضحك ؟! قَالَ : فما رُئِيَ ذلكَ الفتى بعدها ضاحكاً^(١) .

وكانَ حمَّادُ بنُ عبدِ ربِّهِ إذا جلسَ . . جلسَ مستوفزاً على قدميه ، فيُقالُ له : لوِ اطمأنتَ ، فيقولُ : تلكَ جلسةُ الآمنِ ، وأنا غيرُ آمنٍ ؛ إذ عصيتُ اللهَ عزَّ وجلَّ .

وقالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ : (إنَّما جعلَ اللهُ تعالى هذهَ الغفلةَ في قلوبِ العبادِ رحمةً ؛ كي لا يموتوا مِنْ خشيةِ اللهِ عزَّ وجلَّ)^(٢) .

وقالَ مالكُ بنُ دينارٍ : (لقد هممتُ إذا أنا متُّ أن آمرَهُمْ أن يقيّدوني ويغلّوني ، ثمَّ ينطلقوا بي إلى ربِّي كما يُنطلقُ بالعبدِ الآبقِ إلى سيِّدهِ)^(٣) .

وقالَ حاتمُ الأصمُّ : (لا تغترَّ بموضعٍ صالحٍ ؛ فلا مكانَ أصلحَ مِنَ الجنةِ وقد لقيَ آدمُ عليه السلامُ فيها ما لقيَ ، ولا تغترَّ بكثرةِ العبادةِ ؛ فإنَّ إبليسَ بعدَ طولِ تعبِّدِهِ لقيَ ما لقيَ ، ولا تغترَّ بكثرةِ العلمِ ؛ فإنَّ بلعامَ كانَ يحسُنُ اسمَ اللهِ الأعظمَ ، فانظرُ ماذا لقيَ ، ولا تغترَّ برؤيةِ الصالحينَ ؛ فلا شخصَ أكبرَ منزلةً عندَ اللهِ مِنَ المصطفى صليَّ اللهُ عليه وسلَّم ولم ينتفعْ ببلقائه أقاربهُ وأعداؤه)^(٤) .

(١) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٢٥٣ / ٩) .

(٢) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » . « إتحاف » (٢٥٣ / ٩) .

(٣) رواه أحمد في « الزهد » (١٨٨٠) بنحوه .

(٤) الرسالة القشيرية (ص ٢٤١) .

وقال السري : (إِنِّي لَأَنْظُرُ إِلَى أَنْفِي كُلَّ يَوْمٍ مَرَاتٍ ؛ مَخَافَةً أَنْ يَكُونَ قَدْ اسْوَدَّ وَجْهِي) (١) .

وقال أبو حفص : (مِنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً اعْتَقَادِي فِي نَفْسِي أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَنْظُرُ إِلَيَّ نَظَرَ السَّخِطِ ، وَأَعْمَالِي تَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ) (٢) .

وخرج ابنُ المبارك يوماً على أصحابه فقال : (إِنِّي اجْتَرَأْتُ الْبَارِحَةَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى ؛ سَأَلْتُهُ الْجَنَّةَ) (٣) .

وَقَالَتْ أُمُّ مُحَمَّدٍ بِنُ كَعْبِ الْقُرْظِيِّ لَابْنِهَا : يَا بَنِيَّ ؛ إِنِّي أَعْرِفُكَ صَغِيرًا طَبِيبًا ، وَكَبِيرًا طَبِيبًا ، وَكَأَنَّكَ أَحْدَثْتَ حَدَثًا مُوَبَقًا لَمَّا أَرَاكَ تَصْنَعُ فِي لَيْلِكَ وَنَهَارِكَ ! (٤) فَقَالَ : يَا أُمَّاهُ ؛ مَا يُؤْمِنُنِي أَنْ يَكُونَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ اطَّلَعَ عَلَيَّ وَأَنَا عَلَى بَعْضِ ذُنُوبِي فَمَقْتَنِي وَقَالَ : وَعِزَّتِي وَجَلَالِي ؛ لَا غَفْرَتُ لَكَ ؟! (٥) .

وقال الفضيل : (إِنِّي لَا أَغْبُطُ نَبِيًّا مَرْسَلًا ، وَلَا مَلَكًا مُقْرَبًا ، وَلَا عَبْدًا صَالِحًا ، أَلَيْسَ هَؤُلَاءِ يَعَايِنُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟! إِنَّمَا أَغْبُطُ مَنْ لَمْ يُخْلَقْ) (٦) .

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١١٦ / ١٠) .

(٢) الرسالة القشيرية (ص ٢٤٠) ، وأبو حفص هو عمر بن مسلمة الحداد .

(٣) الرسالة القشيرية (ص ٢٤١) .

(٤) أي : من الاجتهاد في العبادة ، والبكاء من الخوف . « إتحاف » (٢٥٣ / ٩) .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (٩٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢١٤ / ٣) .

(٦) رواه بنحوه أبو نعيم في « الحلية » (٩ / ٨) ، ويعاينون : يشاهدون أهوالها .

وَرُويَ أَنَّ فَتًى مِنَ الْأَنْصَارِ دَخَلَتْهُ خَشْيَةُ النَّارِ ، فَكَانَ يَبْكِي حَتَّى حَبَسَهُ ذَلِكَ فِي الْبَيْتِ ، فَجَاءَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ وَاعْتَنَقَهُ ، فَخَرَّ مَيِّتًا ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « جَهِّزُوا صَاحِبَكُمْ ؛ فَإِنَّ الْفَرْقَ مِنَ النَّارِ فَتَّتَ كَبَدُهُ » (١) .

وَرُويَ عَنْ أَبِي مَيْسَرَةَ أَنَّهُ كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ قَالَ : يَا لَيْتَ أُمِّي لَمْ تَلِدْنِي ، فَقَالَتْ لَهُ أُمُّهُ : يَا أَبَا مَيْسَرَةَ ؛ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَحْسَنَ إِلَيْكَ ؛ هَذَاكَ لِلْإِسْلَامِ ، قَالَ : أَجَلٌ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ بَيَّنَّ لَنَا أَنَّا وَارِدُو النَّارِ ، وَلَمْ يَبَيِّنْ لَنَا أَنَّا صَادِرُونَ عَنْهَا (٢) .

وَقِيلَ لِفِرْقِدِ السَّبَخِيِّ : أَخْبَرْنَا بِأَعْجَبِ شَيْءٍ بَلَغَكَ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، فَقَالَ : بَلَغَنِي أَنَّهُ دَخَلَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ خَمْسُ مِائَةِ عَذْرَاءَ ، لِبَاسُهُنَّ الصُّوفُ وَالْمَسُوحُ ، فَتَذَاكُرْنَ ثَوَابَ اللَّهِ وَعِقَابَهُ ، فَمَتَنَ جَمِيعًا فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ (٣) .

وَكَانَ عَطَاءُ السَّلِيمِيُّ مِنَ الْخَائِفِينَ ، وَلَمْ يَكُنْ يَسْأَلُ اللَّهَ الْجَنَّةَ أَبَدًا ، إِنَّمَا كَانَ يَسْأَلُ اللَّهَ الْعَفْوَ (٤) .

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٣٢٠) ، من زيادات نعيم بن حماد ، وأحمد في « الزهد » (٢٣٤٩) ، والحاكم في « المستدرک » (٤٩٤ / ٢) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٠٨) .

(٢) رواه النسائي في « الكبرى » (١١٨٣٧) ، وابن المبارك في « الزهد » (٣١٢) ، وفي غير (ب) : (وروي عن ابن أبي ميسرة) .

(٣) أورده ابن الجوزي في « المدهش » (٦١٣ / ٢) .

(٤) روى ذلك له أبو نعيم في « الحلية » (٢١٧ / ٦) .

وقيلَ له في مرضِهِ : ألا تشتهي شيئاً ؟ فقالَ : إنَّ خوفَ جهنَّمَ لم يدعُ في قلبي موضعاً للشهوة^(١) .

ويُقالُ : إنَّه ما رفعَ رأسَهُ إلى السماءِ ولا ضحكَ أربعينَ سنةً ، وإنَّه رفعَ رأسَهُ يوماً ، ففزَع ، فسقطَ ، فانفتقَ في بطنِهِ فتقٌ^(٢) .

وكانَ يمسُّ جسدهُ في بعضِ الليلةِ مخافةً أن يكونَ قد مُسِحَ^(٣) .

وكانَ إذا أصابَتْهُم رِيحٌ أو برقٌ أو غلاءٌ طعامٍ .. قالَ : هذا مِن أَجلي يصيَّبُهُم ، لو ماتَ عطاءً .. لاستراحَ الناسُ^(٤) .

وقالَ عطاءٌ : خرجنا معَ عتبةِ الغلامِ وفينا كهولٌ وشبانٌ يصلُّونَ صلاةَ الفجرِ بطهورِ العشاءِ ، قد تورَّمتْ أقدامُهُم مِن طولِ القيامِ ، وغارتْ أعينُهُم في رؤوسِهِم ، ولصقتْ جلودُهُم على عظامِهِم ، وبقيتِ العروقُ كأنَّها الأوتارُ ، يصبحونَ كأنَّ جلودَهُم قشورُ البطيخِ ، وكأنَّهُم قد خرجوا مِن القبورِ يخبرونَ كيفَ أكرمَ اللهُ المطيعينَ ، وكيفَ أهانَ العاصينَ ، فينماهُم يمشونَ .. إذ مرَّ بمكانٍ ، فخرَّ مغشياً عليه ، فجلسَ أصحابُهُ حولهَ ليكونَ في يومٍ شديدِ البردِ ، وجبينُهُ يرشحُ عرقاً ، فجاءوا بماءٍ فمسحوا وجهَهُ ،

(١) روى ما يفيد هذا أبو نعيم في « الحلية » (٢١٩ / ٦) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٢١ / ٦) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٢٢ / ٦) .

(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٢١ / ٦) .

فأفاق ، وسأله عن أمره ، فقال : إنني ذكرتُ أنني كنتُ عصيتُ اللهَ في ذلك المكان^(١) .

وقال صالح المري : قرأتُ على رجلٍ من المتعبدين : ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴾ ، فصعق ، ثم أفاق فقال : زدني يا صالح ؛ فإنني أجدُ غمًّا ، فقرأتُ : ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا ﴾ ، فخرَّ ميتاً .

وروي أن زرارَةَ بنَ أوفى صُلِّيَ بالناسِ الغداةَ ، فلمَّا قرأ : ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴾ .. خرَّ مغشياً عليه ، فحُمِلَ ميتاً^(٢) .

ودخلَ يزيدُ الرقاشيُّ على عمرَ بنِ عبدِ العزيز ، فقال : عطني يا يزيدُ ؛ فقال : يا أميرَ المؤمنين ؛ اعلمُ أنكَ لستَ أوَّلَ خليفةٍ يموتُ ، فبكى ، ثم قال : زدني ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ؛ ليسَ بينك وبينَ آدمَ أبٍ إلا ميتٌ ، فبكى ، ثم قال : زدني يا يزيدُ ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ؛ ليسَ بينك وبينَ الجنةِ والنارِ منزلٌ ، فسقطَ مغشياً عليه^(٣) .

وقال ميمونُ بنُ مهران : لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ .. صاحَ سلمانُ الفارسيُّ ، ووضعَ يدهُ على رأسِهِ ،

(١) خبر أنه مرَّ بمكان فأصابه ما أصابه رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٢٨ / ٦) .

(٢) رواه الترمذي (٤٤٥) بنحوه .

(٣) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٥٥١) .

وخرج هارباً ثلاثة أيام لا يقدرُونَ عليه^(١) .

ورأى داوود الطائي امرأةً تبكي على رأس قبر والدها وهي تقول :
يا أبتاه ؛ ليت شعري أيُّ خديك بدأ به الدود أولاً ؟ فصعق داوود وسقط
مكانه^(٢) .

وقيل : مرض سفيان الثوري ، فعرض بولهُ على طبيبٍ ذمي ، فقال :
هذا رجلٌ قطعَ الخوفُ كبده ، ثم جاء وجسَّ عروقه ، ثم قال : ما علمتُ
أنَّ في الملة الحنيفة مثله^(٣) .

وقال أحمدُ ابنُ حنبلٍ رحمه الله : سألتُ اللهَ عزَّ وجلَّ أنْ يفتحَ عليَّ باباً
منَ الخوفِ ، ففتح ، فخفتُ على عقلي ، فقلتُ : يا ربِّ ؛ على قدرِ
ما أطيقُ ، فسكنَ قلبي^(٤) .

وقال عبدُ الله بنُ عمرو بنِ العاصِ : (ابكوا ، فإنَّ لمْ تبكوا . . فتباكوا ،
فوالذي نفسي بيده ؛ لو يعلمُ العلمُ أحدُكم . . لصرخَ حتَّى ينقطعَ صوتهُ ،
وصلَّى حتَّى ينكسرَ صلْبُهُ)^(٥) ، وكأنَّه أشارَ إلى معنى قولهِ صلَّى اللهُ عليه

(١) قال الحافظ العراقي : (لم أقف له على أصل) . « إتحاف » (٢٥٥ / ٩) .

(٢) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٥٢٤) ، وعند القشيري في « الرسالة » (ص ٥٩)
أن سبب زهد داوود رحمه الله تعالى أنه سمع نائحة تنوح وتقول :

بأيِّ خديك تبدَّى البلى وأي عينيِّك إذا ساللا

(٣) الرسالة القشيرية (ص ٢٤١) .

(٤) الرسالة القشيرية (ص ٢٤٢) .

(٥) رواه الحاكم في « المستدرک » (٥٧٨ / ٤) .

وسلّم : « لو تعلمون ما أعلم .. لضحكتم قليلاً ، ولبكيتم كثيراً »^(١) .

وقال العنبري : اجتمع أصحاب الحديث على باب الفضيل بن عياض ، فاطلع عليهم من كوة وهو يبكي ولحيته ترجف ، فقال : عليكم بالقرآن ، عليكم بالصلاة ، ويحكم ، ليس هذا زمان حديث ، إنما هذا زمان بكاء وتضرع واستكانة ، ودعاء كدعاء الغريق ، إنما هذا زمان : احفظ لسانك ، وأخف مكانك ، وعالج قلبك ، وخذ ما تعرف ، ودع ما تنكر^(٢) .

ورئي الفضيل يوماً وهو يمشي ، فقيل له : إلى أين ؟ فقال : لا أدري ، وكان يمشي والهأ من الخوف^(٣) .

وقال ذر بن عمرو لأبيه عمر بن ذر : ما بال المتكلمين يتكلمون فلا يبكي أحد ، فإذا تكلمت أنت .. سمعت البكاء من كل جانب ؟ فقال : يا بني ، ليست النائحة الثكلي كالنائحة المستأجرة^(٤) .

وحكي أن قوماً وقفوا بعباد وهو يبكي ، فقالوا : ما الذي يبكيك يرحمك الله ؟ قال : روعة يجدها الخائفون في قلوبهم ، قالوا : وما هي ؟

(١) رواه البخاري (١٠٤٤) ، ومسلم (٤٢٦) .

(٢) روى أبو نعيم في « الحلية » (٩٤ / ٨) من طريق الحسين بن زياد قال : سمعت الفضيل يقول : (احفظ لسانك ، وأقبل على شأنك ، واعرف زمانك ، وأخف مكانك) .

(٣) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » . « إتحاف » (٢٥٦ / ٩) .

(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١١٠ / ٥) .

قَالَ : رَوْعَةُ النَّدَاءِ بِالْعَرَضِ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ (١) .

وَكَانَ الْخَوَاصُّ يَبْكِي وَيَقُولُ فِي مَنَاجَاتِهِ : (قَدْ كَبُرْتُ وَضَعُفَ جِسْمِي عَنْ خِدْمَتِكَ ، فَأَعْتَقْنِي) (٢) .

وَقَالَ صَالِحُ الْمَرِّي : قَدِمَ عَلَيْنَا ابْنُ السَّمَاءِ مَرَّةً فَقَالَ : أَرْنِي شَيْئاً مِنْ بَعْضِ عَجَائِبِ عِبَادِكُمْ ، فَذَهَبْتُ بِهِ إِلَى رَجُلٍ فِي بَعْضِ الْأَحْيَاءِ فِي خُصٍّ لَهُ ، فَاسْتَأْذَنَّا عَلَيْهِ ، فَإِذَا رَجُلٌ يَعْمَلُ خَوْصاً ، فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ : ﴿ إِذِ الْأَغْلُلُ فِي أَغْنَقِيهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿ ، فَشَهَقَ الرَّجُلُ شَهَقَةً وَخَرَّ مَغْشِياً عَلَيْهِ ، فَخَرَجْنَا مِنْ عِنْدِهِ وَتَرَكْنَاهُ عَلَى حَالِهِ ، وَذَهَبْنَا إِلَى آخَرَ ، فَدَخَلْنَا عَلَيْهِ ، فَقَرَأْتُ هَذِهِ الْآيَةَ ، فَشَهَقَ شَهَقَةً وَخَرَّ مَغْشِياً عَلَيْهِ ، فَذَهَبْنَا وَاسْتَأْذَنَّا عَلَى ثَالِثٍ ، فَقَالَ : ادْخُلُوا إِنْ لَمْ تَشْغُلُونَا عَنْ رَبَّنَا ، فَقَرَأْتُ : ﴿ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ ، فَشَهَقَ شَهَقَةً ، فَبَدَا الدَّمُ مِنْ مَنْخَرِيهِ ، وَجَعَلَ يَتَشَخَّطُ فِي دَمِهِ حَتَّى يَبْسَ ، فَتَرَكْنَاهُ عَلَى حَالِهِ وَخَرَجْنَا ، فَأَدْرَتُهُ عَلَى سِتَّةِ أَنْفُسٍ ، كُلٌّ نَخْرُجُ مِنْ عِنْدِهِ وَنَتْرُكُهُ مَغْشِياً عَلَيْهِ ، ثُمَّ أَتَيْتُ بِهِ السَّابِعَ ، فَاسْتَأْذَنَّا ، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنْ وَرَاءِ الْخُصِّ تَقُولُ : ادْخُلُوا ، فَدَخَلْنَا ، فَإِذَا شَيْخٌ فَإِنْ جَالَسَ فِي مَصَلَّاهُ ، فَسَلَّمْنَا عَلَيْهِ ، فَلَمْ يَشْعُرْ بِسَلَامِنَا ، فَقُلْتُ بِصَوْتٍ عَالٍ ، أَلَا إِنَّ لِلْخَلْقِ غَدَاً مَقَاماً ، فَقَالَ الشَّيْخُ : بَيْنَ يَدَيِ مَنْ وَيَحْكُ ؟ ثُمَّ بَقِيَ مَبْهُوتاً ، فَاتَحَا فَاهُ ، شَاخِصاً بَصَرَهُ ، يَصِيحُ بِصَوْتٍ لَهُ

(١) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٢٥٧ / ٩) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الرقة والبكاء » (٢٨٢) بنحوه .

ضعيف : أُوهِ أُوهِ ، حَتَّى انْقَطَعَ ذَلِكَ الصَوْتُ ، فَقَالَتْ امْرَأَتُهُ : اَخْرَجُوا ، فَإِنَّكُمْ لَا تَنْتَفِعُونَ بِهِ السَّاعَةَ ، فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ . . سَأَلْتُ عَنِ الْقَوْمِ ، فَإِذَا ثَلَاثَةٌ قَدْ أَفَاقُوا ، وَثَلَاثَةٌ قَدْ لَحِقُوا بِاللَّهِ تَعَالَى ، وَأَمَّا الشَّيْخُ . . فَإِنَّهُ مَكَثَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ عَلَى حَالَتِهِ مَبْهُوتًا مَتَحِيرًا ، لَا يُؤَدِّي فَرَضًا ، فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ ثَلَاثٍ . . عَقَلَ^(١) .

وَكَانَ يَزِيدُ بْنُ الْأَسْوَدِ يُرَى أَنَّهُ مِنَ الْأَبْدَالِ ، وَكَانَ قَدْ حَلَفَ أَلَّا يَضْحَكَ أَبَدًا ، وَلَا يَنَامَ مُضْطَجِعًا ، وَلَا يَأْكُلُ سَمِينًا أَبَدًا ، فَمَا رُئِيَ ضَاحِكًا ، وَلَا مُضْطَجِعًا ، وَلَا أَكَلَ سَمِينًا حَتَّى مَاتَ رَحِمَهُ اللَّهُ^(٢) .

وَقَالَ الْحَجَّاجُ لِسَعِيدِ بْنِ جَبْرِ : بَلَّغْنِي أَنَّكَ لَمْ تَضْحَكْ قَطُّ ، فَقَالَ : كَيْفَ أَضْحَكُ وَجَهَنَّمُ قَدْ سُعِرَتْ ، وَالْأَغْلَالُ قَدْ نُصِبَتْ ، وَالزَّبَانِيَةُ قَدْ أُعِدَّتْ^(٣) .

وَقَالَ رَجُلٌ لِلْحَسَنِ : يَا أَبَا سَعِيدٍ ؛ كَيْفَ أَصْبَحْتَ ؟ قَالَ : بِخَيْرٍ ، قَالَ : كَيْفَ حَالُكَ ؟ فَتَبَسَّمَ الْحَسَنُ وَقَالَ : تَسْأَلُنِي عَنْ حَالِي ؟ ! مَا ظَنُّكَ بِنَاسٍ رَكَبُوا سَفِينَةً حَتَّى تَوَسَّطُوا الْبَحْرَ فَانْكَسَرَتْ سَفِينَتُهُمْ ، فَتَعَلَّقَ كُلُّ إِنْسَانٍ

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٦٩/٦) .

(٢) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١١١/٦٥) من طريق ابن أبي الدنيا ، وصَوَّبَ الزبيدي في « إتحافه » (٢٥٧/٩) أَنَّهُ الْأَسْوَدُ بْنُ يَزِيدَ ، وَلَكِنْ فِي النُّسخِ وَالْأَصْلُ الْمَنْقُولُ عَنْهُ كَمَا أَثْبَتَ .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٩١/٤) ضَمَنَ خَبْرَ طَوِيلٍ ، وَلَفْظُهُ : (وَكَيْفَ يَضْحَكُ مَخْلُوقٌ خَلَقَ مِنَ الطِّينِ ، وَالطِّينُ تَأْكُلُهُ النَّارُ) .

منهم بخشية ، على أي حال هم ؟ قال الرجل : على حالٍ شديدة ، قال الحسن : حالي أشد من حالهم^(١) .

ودخلت مولاة لعمر بن عبد العزيز عليه ، فسلمت عليه ، ثم قامت إلى مسجد في بيته ، فصلت فيه ركعتين ، وغلبتها عينها ، فرقدت ، فاستبكت في منامها^(٢) ، ثم انتبهت فقالت : يا أمير المؤمنين ؛ إنني رأيت - والله - عجباً ، قال : وما ذاك ؟ قالت : رأيت النار وهي تزفر على أهلها ، ثم جيء بالصراط فوضع على متنها ، فقال : هيه ، قالت : فجيء بعبد الملك بن مروان ، فحمل عليه ، فما مضى عليه إلا يسيراً حتى انكفأ به الصراط ، فهوى إلى جهنم ، فقال عمر : هيه ، قالت ثم جيء بالوليد بن عبد الملك ، فحمل عليه ، فما مضى إلا يسيراً حتى انكفأ به الصراط ، فهوى إلى جهنم ، فقال عمر : هيه ، قالت : ثم جيء بسليمان بن عبد الملك ، فما مضى عليه إلا يسيراً حتى انكفأ به الصراط ، فهوى كذلك ، فقال عمر : هيه ، قالت : ثم جيء بك - والله - يا أمير المؤمنين ، فصاح عمر رحمه الله عليه صيحةً خراً مغشياً عليه ، فقامت إليه ، فجعلت تنادي في أذنه : يا أمير المؤمنين ، إنني رأيتك - والله - حتى نجوت^(٣) ، قال : وهي تنادي وهو يصيح ويفحص برجليه^(٤) .

(١) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٢٥٨ / ٩) .

(٢) أي : انتبهت باكية مذعورة . « إتحاف » (٢٥٨ / ٩) .

(٣) في (د) : (إنني رأيتك والله حتى نجوت ، إنني رأيتك والله حتى نجوت) ، وكذا في (ج) دون (حتى) .

(٤) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » . « إتحاف » (٢٥٨ / ٩) .

وَيُحْكِي أَنَّ أُويسَا القرنِيَّ رَحِمَهُ اللهُ كَانَ يَحْضُرُ عِنْدَ الْقَاصِّ فَيَبْكِي مِنْ
كَلَامِهِ ، فَإِذَا ذَكَرَ النَّارَ . صَرَخَ أُويسَى ، ثُمَّ يَقُومُ مِنْطَلِقاً ، فَيَتَّبِعُهُ النَّاسُ ،
فَيَقُولُونَ : مَجْنُونٌ مَجْنُونٌ .

وَقَالَ مَعَاذُ بْنُ جَبَلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : (إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَا تَسْكُنُ رَوْعَتُهُ حَتَّى
يَخْلُفَ جِسْرَ جَهَنَّمَ وَرَاءَهُ)^(١) .

وَكَانَ طَاوُوسٌ يَفْرَشُ فِرَاشَهُ ، ثُمَّ يَضْطَجِعُ وَيَتَقَلَّى كَمَا تَتَقَلَّى الْحَبَّةُ فِي
الْمَقْلَى ، ثُمَّ يَثْبُ فَيَدْرَجُهُ^(٢) وَيَسْتَقْبِلُ الْقِبْلَةَ حَتَّى الصَّبَاحِ ، وَيَقُولُ : (طَيْرَ
ذِكْرُ جَهَنَّمَ نَوْمَ الْخَائِفِينَ)^(٣) .

وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ : (يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ رَجُلٌ بَعْدَ أَلْفِ عَامٍ
وَيَا لَيْتَنِي كُنْتُ ذَلِكَ الرَّجُلَ)^(٤) ، وَإِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ لَخَوْفِهِ مِنَ الْخُلُودِ وَسُوءِ
الْخَاتِمَةِ .

وَرُويَ أَنَّهُ مَا ضَحَكَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ، قَالَ : وَكُنْتُ إِذَا رَأَيْتُهُ قَاعِدًا كَأَنَّهُ أُسِيرٌ

(١) رواه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (١٩٢٧٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣١ / ١٠)
من حديث معاذ رضي الله عنه مرفوعاً .

(٢) أي : يطوي الفراش .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (٩١) ، وفيه : (العابدين) بدل
(الخائفين) .

(٤) قوت القلوب (١٥٠ / ٢) ، وقد رواه أحمد في « المسند » (٢٣٠ / ٣) من حديث أنس
رضي الله عنه مرفوعاً ، ولم يذكر قول الحسن ، وساق قول الحسن من رواية أبي بكر
الآجري ابن حجر في « القول المسدد في الذب عن مسند أحمد » (ص ٣٥) .

قَدْ قَدِمَ لَتَضْرِبَ عُنُقَهُ ، وَإِذَا تَكَلَّمَ كَأَنَّهُ يَعَايُنُ الْآخِرَةَ فَيُخْبِرُ عَنْ مُشَاهَدَتِهَا ،
فَإِذَا سَكَتَ كَأَنَّ النَّارَ تُسْعِرُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، وَعُوتَبَ فِي شِدَّةِ حَزْنِهِ وَخَوْفِهِ فَقَالَ :
(مَا يُؤْمِنُنِي أَنْ يَكُونَ اللَّهُ تَعَالَى قَدْ أَطْلَعَ عَلَيَّ فِي بَعْضِ مَا يَكْرَهُ ، فَمَقْتَنِي ،
فَقَالَ : اذْهَبْ فَلَا غَفْرَتُ لَكَ ، فَأَنَا أَعْمَلُ فِي غَيْرِ مَعْمَلٍ !؟)^(١) .

وَعَنِ ابْنِ السَّمَّاكِ قَالَ : وَعَظْتُ يَوْمًا فِي مَجْلِسٍ ، فَقَامَ شَابٌّ مِنْ الْقَوْمِ
فَقَالَ : يَا أَبَا الْعَبَّاسِ ؛ لَقَدْ وَعَظْتَ الْيَوْمَ بِكَلِمَةٍ مَا كُنَّا نَبَالِي أَلَا نَسْمَعُ
غَيْرَهَا ، قُلْتُ : وَمَا هِيَ رَحِمَكَ اللَّهُ ؟ قَالَ : قَوْلُكَ : لَقَدْ قَطَعَ قُلُوبَ
الْخَائِفِينَ طَوْلُ الْخُلُودِينَ ؛ إِمَّا فِي الْجَنَّةِ أَوْ فِي النَّارِ ، ثُمَّ غَابَ عَنِّي ،
فَتَفَقَّدْتُهُ فِي الْمَجْلِسِ الْآخِرِ فَلَمْ أَرَهُ ، فَسَأَلْتُ عَنْهُ ، فَأُخْبِرْتُ أَنَّهُ مَرِيضٌ
يُعَادُ ، فَأَتَيْتُهُ أَعُوذُهُ ، فَقُلْتُ : يَا أَخِي ، مَا الَّذِي أَرَى بِكَ ؟ فَقَالَ : يَا أَبَا
الْعَبَّاسِ ؛ ذَلِكَ مِنْ قَوْلِكَ : لَقَدْ قَطَعَ قُلُوبَ الْخَائِفِينَ طَوْلُ الْخُلُودِينَ ؛ إِمَّا
فِي الْجَنَّةِ أَوْ فِي النَّارِ ، قَالَ : ثُمَّ مَاتَ رَحِمَهُ اللَّهُ ، فَرَأَيْتُهُ فِي الْمَنَامِ ،
فَقُلْتُ : يَا أَخِي ، مَا فَعَلَ اللَّهُ بِكَ ؟ قَالَ : غَفَرَ لِي وَرَحِمَنِي ، وَأَدْخَلَنِي
الْجَنَّةَ ، قُلْتُ : بِمَاذَا ؟ قَالَ : بِالْكَلِمَةِ .

فَهَذِهِ مَخَافُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ وَالْعُلَمَاءِ وَالصَّالِحِينَ ، وَنَحْنُ أَجْدَرُ
بِالْخَوْفِ مِنْهُمْ ، لَكِنْ لَيْسَ الْخَوْفُ بِكَثْرَةِ الذُّنُوبِ ، بَلْ بِصَفَاءِ الْقُلُوبِ وَكَمَالِ
الْمَعْرِفَةِ ، وَالْإِلا . . فَلَيْسَ أَمْنُنَا لِقَلَّةِ ذُنُوبِنَا وَكَثْرَةِ طَاعَاتِنَا ، بَلْ قَادَتَنَا شَهْوَتُنَا ،

(١) قوت القلوب (٢٢٨/١) .

وغلَبَتْ علينا شقوتُنَا ، وصَدَّتْنَا عَنْ ملاحظةِ أحوالِنَا غفلتُنَا وقسوتُنَا ، فلا قُرْبُ الرحيلِ يَنْبَهُنَا ، ولا كثرةُ الذنوبِ تحرِّكُنَا ، ولا مشاهدةُ أحوالِ الخائفينَ تخوِّفُنَا ، ولا خطرُ الخاتمةِ يزعجُنَا ، فنسألُ اللهَ تعالى أنْ يتداركَ بفضلِهِ وجودِهِ أحوالَنَا فيصلحَنَا ، إِنْ كَانَ تحريكُ اللسانِ بمجرّدِ السؤالِ دونَ الاستعدادِ يَنْفَعُنَا .

وَمِنْ العجائبِ أَنَّا إِذَا أَرَدْنَا المَالَ فِي الدنيا . . زرعنا وغرسنا واتجرنا ، وركبنا البحارَ والبراريَ وخاطرنا ، وَإِنْ أَرَدْنَا طلبَ رتبةِ العلمِ . . تفقَّهنا ، وتعبنا في حفظِهِ وتكرارِهِ وسهرنا ، ونجتهُ في طلبِ أقواتِنَا ولا نثُقُ بضمانِ اللهِ لَنَا ، ولا نجلسُ في بيوتِنَا فنقولُ : اللهمَّ ؛ ارزقنا ، ثُمَّ إِذَا طمَحَتْ أَعْيُنُنَا نحوَ الملكِ الدائمِ المقيمِ . . قنعنا بأنْ نقولَ بالسنتِنَا : اللهمَّ ؛ اغفرْ لَنَا وارحمْنَا ، والذي إِلَيْهِ رجاؤُنَا وبِهِ اعتزازُنَا ينادينا ويقولُ : ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَنِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ ، ﴿ وَلَا يَغْنَثُكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ ، ﴿ يَأْتِيهَا الْإِنْسُنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيرِ ﴾ ، ثُمَّ كُلُّ ذَلِكَ لَا يَنْبَهُنَا وَلَا يَخْرِجُنَا عَنْ أوديةِ غرورِنَا وأمانينا ! فما هذهِ إِلَّا محنةٌ هائلةٌ إِنْ لَمْ يَتَفَضَّلِ اللهُ عَلَيْنَا بتوبةٍ نصوحٍ يتداركُنَا بها ويجبرُنَا .

فنسألُ اللهَ تعالى أنْ يتوبَ عَلَيْنَا ، بَلْ نَسْأَلُهُ أَنْ يَشَوِّقَ إِلَى التوبةِ سرائرَ قلوبِنَا ، وَأَلَّا يجعلَ حركةَ اللسانِ بسؤالِ التوبةِ غايةَ حظَّنَا ، فنكونَ مَمَّنْ يقولُ وَلَا يَعْمَلُ ، ويسمعُ وَلَا يقبلُ ، إِذَا سمعنا الوعظَ . . بكينا ، وَإِذَا جاءَ وقتُ العملِ بما سمعناه . . عصينا ، فلا علامةَ للخذلانِ أعظمُ مِنْ هذا ،

فنسأل الله تعالى أن يمنَّ بالتوفيق والرشد علينا بمنه وفضله .

ولنقتصر من حكاية أحوال الخائفين على ما أوردنا ، فإنَّ القليل من هذا يصادف القلب القابل فيكفي ، والكثير منه وإن أفيض على القلب الغافل . . فلا يغني .

ولقد صدق الراهب الذي حكى عنه عيسى بن مالك الخولاني - وكان من خيار العباد - أنه رآه على باب بيت المقدس واقفاً كهيئة المحزون من شدة الوله ، ما يكاد يرقأ دمه من كثرة البكاء ، فقال عيسى : لمَّا رأيته . . هالني منظره ، فقلت : أيها الراهب ؛ أوصني بوصية أحفظها عنك ، فقال : يا أخي ، بماذا أوصيك ؟ إن استطعت أن تكون بمنزلة رجل قد احتوشته السباع والهوام فهو خائفٌ حذرٌ ، يخاف أن يغفل فتفترسه السباع ، أو يسهو فتنهشه الهوام ، فهو مذعور القلب وجلٌ ، فهو في المخافة في ليله وإن أمن المغترُّون ، وفي الحزن في نهاره وإن فرح البطالون ، ثم ولَّى وتركني ، فقلت : لو زدني شيئاً عسى أن ينفعني ، فقال : الظمان يجزئه من الماء أيسره^(١) .

وقد صدق ، فإنَّ القلب الصافي يحركه أدنى مخافة ، والقلب الجامد تنبوعه كلُّ المواعظ .

(١) أورده مجير الدين الحنبلي في « الأنس الجليل » (٢٨٩ / ١) عن قاسم الزاهد بدلاً من الخولاني بنحوه .

وما ذكره من تقديره أنه احتوشته السباع والهوام فلا ينبغي أن يُظنَّ أنه تقديرٌ ، بل هو تحقيقٌ ، فإنَّك لو شاهدت بنور البصيرة باطنك . . لرأيتُه مشحوناً بأصناف السباع وأنواع الهوام ؛ مثل الغضب ، والشهوة ، والحقد ، والحسد ، والكبر ، والعجب ، والرياء ، وغيرها ، وهي التي لا تزال تفرسُك وتنهشُك إن غفلت عنها لحظة ، إلا أنَّك محجوبُ العين عن مشاهدتها ، فإذا انكشف الغطاء ، ووضعت في قبرك . . عاينتها وقد تمثَّلت لك بصورها وأشكالها الموافقة لمعانيها ، فترى بعينك العقارب والحيات قد أهدقت بك في قبرك ، وإنما هي صفاتك الحاضرة الآن ، قد انكشف لك صورها ، فإن أردت أن تقتلها وتقهرها وأنت قادرٌ عليها قبل الموت . . فافعل ، وإلا . . فوطن نفسك على لدغها ونهشها لصميم قلبك فضلاً عن ظاهر بشرتك وجسمك ، والسلام .



تم كتاب الزجاء والخوف

وهو الكتاب الثالث من ربع المنجيات من كتب إحياء علوم الدين

بمحَمَّد وعونه وتأبیده ، وصلاته على سيدنا محمد النبي وآله وسلامه

ينلوه كتاب الفقر والزهد

مُحْتَوَى الْكِتَابِ

رُبْعُ الْمُنْجِيَّاتِ / الْقِسْمُ الْأَوَّلُ

٧	كتاب التوبة
١٠	- آدم عليه السلام قدوة لأبنائه في التوبة
١١	- لا يظهر الإنسان إلا بإحدى نارين
١٣	الركن الأول: في نفس التوبة
١٣	بيان حقيقة التوبة وحدها
١٣	التوبة: علم وحال وفعل
١٥	- «الندم توبة»
١٧	بيان وجوب التوبة وفضلها
١٧	- الواجب في الحقيقة هو الموصل إلى السعادة الأبدية
٢١	- تحريجة: تألم القلب لا يدخل تحت الاختيار، فكيف يجب؟
٢٢	- تحريجة: أفليس للعبد اختيار في الفعل والترك؟
٢٣	- الردُّ على القائلين بالتولد
٢٤	- ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾
٢٦	- تحريجة: كيف يصدق من وجه وهو قاصر؟ هل من مثال لهذا؟
٢٨	بيان أن وجوب التوبة على الفور
٢٨	- لكل علم موجب للعمل جزء إيمان خاص به
٢٩	- الإيمان نيف وسبعون باباً
٢٩	- الإيمان كالإنسان
٣٠	- مثال إيمان العاصي والمؤمن
٣٢	- لا خير في علم لا يثمر العمل

- بيان أن وجوب التوبة عام في الأشخاص والأحوال فلا ينفك عنه أحد ألبته ... ٣٣
- التوبة عن الكفر والتوبة عن الغفلة ٣٥
- تحريجة: إذا كان طلب الكمال فضيلة .. فما معنى قولك: التوبة واجبة في كل حال؟ ٣٦
- الواجب له معنيان ٣٨
- فرق بين فتوى العامة وفتوى طلاب السعادات ٣٩
- خطر التسويف ٤٤
- بيان أن التوبة إذا استجمعت شرائطها فهي مقبولة لا محالة ٤٦
- المحافظة على سلامة القلب ٤٦
- من جهل قلبه .. فهو بغيره أجهل ٤٧
- شواهد الآيات والأخبار والآثار ٤٨
- تحريجة: فهل قبول التوبة واجب على الله كما تقول المعتزلة؟ ٥٥
- تحريجة: لا شك في الري بعد العطش، وثمَّ شك في قبول التوبة بعد التوبة .. ٥٥
- الركن الثاني: فيما عنه التوبة، وهي الذنوب صغائرها وكبائرها ٥٧
- حدُّ الذنب ٥٧
- بيان أقسام الذنوب بالإضافة إلى صفات العبد ٥٧
- الاختلاف في عدد الكبائر ٦٢
- المقصود الأقصى ببعثة الأنبياء ٦٨
- الكبائر على ثلاث مراتب ٦٩
- الكبيرة: ما لا تكفره الصلوات الخمس بحكم الشرع ٧٥
- تحريجة: كيف يرد الشرع بما يستحيل معرفة حدِّه؟ ٧٥
- تحريجة: مرتكب الكبيرة لا تقبل شهادته، فكيف تبهم الكبيرة؟ ٧٧
- بيان كيفية توزيع الدرجات والدركات في الآخرة على الحسنات والسيئات في الدنيا ٧٩

- ٧٩ - لا سبيل للحديث عن عالم الملكوت إلا بضرب الأمثال
- ٨٠ - أمثلة من علم التعبير
- ٨١ - كلام الأنبياء على قدر عقول الناس
- ٨١ - سبب الزلل في فهم الآيات المتشابهات
- ٨٢ - كيفية تمثيل الرؤيا في المنام
- ٨٤ - انقسام الناس في الآخرة إلى أربعة أقسام ومثاله في الدنيا
- ٨٦ - لا ينال المعرفة إلا أهل الإيمان
- ٨٧ - نار الفراق هي نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة
- ٨٧ - سبب أي ألم هو التفريق
- ٨٨ - لا يعني هذا إلا من كان له قلب
- ٨٩ - ليس لكل إنسان قلب
- ٨٩ - الرحمة على قدر المصيبة
- ٩٤ - الإيمان إيمانان
- ٩٥ - لا نهاية للمعرفة
- ٩٦ - حكم من مات ولم يتب من ذنبه
- ٩٦ - عطاء آخر من يخرج من النار
- ٩٨ - معنى «البلاء موكل بالأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل»
- ١٠٠ - المرجع والمآل إليه سبحانه
- ١٠١ - لا ينفع في عالم الملكوت إلا ما كان من عالم الملكوت
- ١٠٢ - خطر مظالم العباد يوم القيامة
- ١٠٣ - عود إلى حكم من مات قبل التوبة
- ١٠٧ - مطلب العارفين ما لا يخطر على قلب بشر وهو لذة النظر إلى وجه الله الكريم ..
- ١٠٩ - بيان ما تعظم به الصغائر من الذنوب
- ١١١ - النظر إلى جلال الله تعالى يورث تعظيم الذنب

- الركن الثالث : في تمام التوبة وشروطها في دوامها إلى آخر العمر ١١٧
- كيفية تحصيل الندم ١١٧
- تحريجة : كيف نجد مرارة الذنوب وهي مشتهاة بالطبع ؟ ١١٨
- كيفية تدارك ما فات من الصلاة والصوم والزكاة والحج ١٢٠
- كيفية محو المعاصي التي بينه وبين الله تعالى ١٢١
- أثر الهموم في تكفير الذنوب ١٢٣
- تحريجة : هم الإنسان غالباً بماله وولده وجاهه، وهو خطيئة، فكيف يكون كفارة ؟ ١٢٣
- كيفية محو المعاصي التي بينه وبين العباد ١٢٤
- لا يلزمه في التوبة أن يفضح نفسه ويطلب إقامة الحد عليه ١٢٥
- الاستحلال المبهم لا يكفي ١٢٨
- لا بد للتائب من تكثير الحسنات ١٢٩
- حكم التوبة عن بعض الذنوب ١٣٢
- التوبة لا تستدعي العصمة ١٣٤
- تحريجة : فهل تصح توبة العاجز عن المعصية مطلقاً بعدما قارفها ؟ ١٣٨
- تحريجة : أيهما أفضل : من سكنت شهوته، أم من بقيت وهو يجاهدها ؟ .. ١٣٩
- ليس الجهاد مطلوباً لذاته ١٤٢
- تحريجة : أيهما أفضل : المتفكر في ذنبه على الدوام، أم الناسي له ؟ ١٤٢
- ترك التفكر فيما له نظير في الدنيا كالخور والقصور ١٤٤
- تنزل الأنبياء والأولياء ١٤٥
- بيان أقسام العباد في دوام التوبة ١٤٧
- اطلب المغفرة من موردها الصحيح ١٥٤
- بيان ما ينبغي أن يبادر إليه التائب إن جرى عليه ذنب إما عن قصد وشهوة
غالبه أو عن إمام بحكم الاتفاق ١٥٧

- تحريجة: كيف ينفع الاستغفار مع وجود الإصرار؟ ١٦٠
- أحسن أحوال العبد الرجوع إلى الله تعالى ١٦٢
- لا تحقرن من المعروف شيئاً ١٦٣
- الاستغفار باللسان لا يخلو عن فضل ١٦٤
- أثر العادة في العون على الطاعة ١٦٤
- الركن الرابع: في دواء التوبة وطريق العلاج لحل عقدة الإصرار ١٦٨
- سبب الإصرار الغفلة والشهوة ١٦٩
- تحريجة: أينفع كل علم لحل الإصرار أم لا بد من علم مخصوص؟ ١٦٩
- أمور يحتاج المريض إلى التصديق بها ١٧٠
- واجب السلاطين في تعيين العلماء والفقهاء في كل قرية ومحلة ١٧٢
- انتشار مرض القلوب لثلاث علل ١٧٢
- تحريجة: ما هو الطريق الذي يجب على الواعظ أن يسلكه؟ ١٧٤
- الأنواع النافعة في حل عقدة الإصرار وحمل الناس على ترك الذنوب ١٧٤
- الأخبار والآثار في تعجيل العقوبة ١٨١
- الجنيد يشفع في ابن علوان ١٨٣
- الكلام على قدر حال السائل أولى من أن يكون بحسب حال القائل ١٨٥
- تحريجة: فإن كان الواعظ يتكلم في جمع وهو لا يدري حال السامع؟ ... ١٨٧
- حال الوعَّاظ الجهلة ١٩١
- ركنا العلاج: طلب الطيب، والصبر ١٩١
- حاصل علاج مرض الشهوة ١٩١
- أول الأمر حضور مجالس الذكر ١٩٢
- تحريجة: فهل سبب المعصية هو فقد الإيمان؟ ١٩٣
- سبب وقوع المؤمن بالذنوب ١٩٣
- تحريجة: فما علاج أسباب الإصرار على المعصية مع وجود الإيمان؟ ... ١٩٥

- مثال بديع في علاج الجاحد ١٩٨
- تحريجة: فلم هجرت القلوب الفكر؟ وما علاجها لردّها له؟ ٢٠٠
- أمران مانعان من الفكر وعلاجهما ٢٠٠
- بيان معنى التوفيق ٢٠١

كتاب الصبر والشكر

- ٢٠٣
- الإيمان نصفان: نصف صبر ونصف شكر ٢٠٥
- الشطر الأول: في الصبر ٢٠٧
- بيان فضيلة الصبر ٢٠٧
- الآيات في فضيلة الصبر ٢٠٧
- بيان حقيقة الصبر ومعناه ٢١٤
- جميع مقامات الدين منظومة من معارف وأحوال وأعمال ٢١٤
- الصبر خاصية الإنس ٢١٤
- فضل الله المنان برعاية بني آدم ٢١٥
- حدُّ الصبر ٢١٦
- الكرام الكاتبون والصحائف المكتوبة ٢١٨
- متى تنشر الصحائف ٢١٨
- مشابهة القيامة الصغرى للقيامة الكبرى ٢١٩
- إشراق نور الهداية في سنّ التمييز ٢٢٤
- عناية الولي بقلب الصغير ٢٢٤
- بيان كون الصبر نصف الإيمان ٢٢٥
- لم كان الإيمان نيفاً وسبعين باباً ٢٢٥
- الصوم ربع الإيمان ٢٢٦
- بيان الأسامي التي تتجدد للصبر بالإضافة إلى ما عنه الصبر ٢٢٨

- ٢٣١ بيان انقسام الصبر بحسب اختلاف القوة والضعف
- ٢٣٢ - الجناية على العقل
- ٢٣٣ - الصبر باعتبار عدد ما يصبر عنه
- ٢٣٤ - الذين تخلّوا عن المجاهدة مطلقاً هم أضل سبيلاً من الأنعام
- ٢٣٤ - الصبر باعتبار العسر واليسر
- ٢٣٥ - الصبر باعتبار حكمه
- ٢٣٧ بيان مظان الحاجة إلى الصبر وأن العبد لا يستغني عنه في حال من الأحوال
- ٢٣٩ - سبب عظم الصبر على السراء
- ٢٤٢ - عسر الصبر على المعاصي المألوفة بالعادة
- ٢٤٢ - عسر الصبر عن المعاصي الميسورة
- ٢٤٦ - فضيلة هذا النوع من الصبر
- - تحريجة: لا بد من وقوع كراهية للمصيبة ولا تدفع، فكيف تنال درجة
- ٢٥٠ الصبر؟
- ٢٥١ - توجع القلب وفيضان العين لا يخرج عن حد الصابرين والراضين
- ٢٥٣ - من كمال الصبر كتمان المصيبة
- ٢٥٣ - مغبون من ضيّع نفساً بغير ذكر الله
- ٢٥٣ - جندا الشيطان، وطبعه في عداوته للإنسان
- ٢٥٤ - لا يقيّدنك عالم الشهادة عن عالم الغيب
- ٢٥٦ - أعدى عدوك شهوتك
- ٢٥٧ بيان دواء الصبر وما يستعان به عليه
- ٢٥٧ - تنويع العلاج بتنويع المرض
- ٢٥٧ - الصبر عن شهوة الوقاع
- ٢٥٨ - ثلاثة أمور تساعد على تضعيف باعث الشهوة
- ٢٥٩ - طريقتان لتقوية باعث الدين

- ٢٦٠ - أشد المجاهدات كفُّ الباطن عن حديث النفس
- ٢٦٢ - هذا جهد العبد، ثم الفتح من عند الله تعالى
- ٢٦٢ - التعرُّض للنفحات
- ٢٦٤ - الأحوال والمكاشفات حاضرة معك في قلبك
- ٢٦٤ - الصبر عن العلائق مقدم على الصبر عن الخواطر
- ٢٦٥ - أشد العلائق على النفس علاقة الخلق وحب الجاه
- ٢٦٥ - كيف غرَّر الشيطان بالعبد ورغبه بالفانية
- ٢٦٧ - ما أنزلت الكتب إلا لدعوة الخلق إلى النعيم المقيم
- ٢٦٧ - معنى الزهد
- ٢٦٩ - تنمة علاج الركون إلى الجاه بالعمل بعد العلم
- ٢٧٢ - الشطر الثاني: في الشكر
- ٢٧٢ - أركان الشكر
- ٢٧٢ - الركن الأول: في نفس الشكر
- ٢٧٢ - بيان فضيلة الشكر
- ٢٧٢ - الآيات في فضيلة الشكر
- ٢٧٤ - لا ينبغي للبكاء أن ينقطع
- ٢٧٧ - بيان حد الشكر وحقيقته
- ٢٧٧ - من التقديس إلى التوحيد إلى الشكر
- ٢٧٩ - معرفة النعمة من الله وحده تنفي الشرك في الأفعال
- ٢٧٩ - ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾
- ٢٨٠ - علمك بأنه لا منعم إلا الله هو عين الشكر
- ٢٨١ - شرط هذه الحال أن يكون الفرح بالمنعم دون النعمة والإنعام
- ٢٨٣ - لا يلتذُّ القلب حال الصحة إلا بذكر الله تعالى
- ٢٨٤ - فرق بين من يريد الله لينعم عليه، وبين من يريد نعم الله ليصل إليه

- استنطاق السلف لشكر الله عز وجل ٢٨٥
- وفد الشكر ٢٨٥
- سبب تنوع الحدود والأجوبة عند الصوفية ٢٨٧
- بيان طريق كشف الغطاء عن الشكر في حق الله تعالى ٢٨٨
- تحريجة: كيف نشكر من هو غني عن شكرنا، وشكرنا نعمة من نعمه؟ ... ٢٨٨
- تحريجة: كيف يكون العلم باستحالة الشكر شكراً؟ ٢٨٩
- هو الشاكر والمشكور عز وجل ٢٩٠
- مثال لتقريب هذه الحقيقة وتفهمها ٢٩١
- الصوفية ينعثون هذا النظر بالفناء ٢٩١
- ضرورة العارفين أن يكونوا ضحكة للجاهلين ٢٩١
- الأنبياء هم الكخّالون الذين يكحلون الناس بإئتمد التوحيد ٢٩٣
- أسرار «أنت كما أثبت على نفسك» ٢٩٤
- غين الأنوار ٢٩٥
- معنى «أفلا أكون عبداً شكوراً» ٢٩٥
- مقام ظهور الشكر والشاكر والمشكور ٢٩٦
- أنت شاكر لأنك محل الشكر، لا بمعنى أنك موجد للشكر ٢٩٩
- الخلق مجاري قدر الله تعالى ٢٩٩
- تحريجة: كيف ندّم أو نمدح والكل إلى الله سبحانه؟ ٣٠٠
- سلاسل الأسباب والله الواحد القهار ٣٠١
- بيان تمييز ما يحبه الله تعالى عما يكرهه ٣٠٢
- كيف السبيل لمعرفة محاب الله تعالى ٣٠٢
- حكم الله تعالى جلية وخفية ٣٠٢
- معرفة الحكمة تعين على حسن توظيف النعمة ٣٠٤
- مثال للحكمة الخفية ٣٠٤

- ٣٠٦ صور من كفران نعمة الذهب والفضة
- ٣٠٨ تحريجة: فلمَ جاز بيع أحد النقدين بالآخر وبيع الدرهم بمثله؟
- ٣٠٩ إلحاق الأطعمة في قضايا الربا والحكمة فيه
- ٣١١ لا ينبغي صرف الأشياء عن حكمها
- ٣١٢ الخروج عن الحكمة محذور وإن قال علماء الظاهر بالكراهة
- ٣١٣ ما هو مكروه في حق العامة محذور في حق العارفين
- ٣١٤ سبب التسامح مع العوام هو الضرورة
- ٣١٤ كسر غصن شجرة دون غرض صحيح .. كفر بنعمة الله تعالى
- ٣١٥ مثال يوضح أن لا مالك إلا الله عز سلطانه
- ٣١٦ يد الفقيه لا تطال هذه الخفايا
- ٣١٧ فهم الحكمة يعين على أداء الشكر
- تحريجة: فعل العبد سواء أتى بالحكمة فشكر أو دفعها فكفر .. هو أيضاً
- ٣١٨ من فعل الله تعالى
- ٣١٨ عجز اللغات عن بيان طرف من شريف المعاني العلوية
- ٣٢٢ ثم أشياء لا تكتسب بالتعلم، ولكن بقوة اليقين
- ٣٢٤ عبر في خيال الظل لمن اعتبر
- ٣٢٧ في السلطان خير وإن كان ظالماً فاسقاً
- ٣٢٩ الركن الثاني: ما عليه الشكر
- ٣٢٩ بيان حقيقة النعمة وأقسامها
- ٣٣٦ أسباب قصور الخلق عن إدراك لذة العلم والحكمة
- ٣٣٨ أقسام القلوب
- ٣٣٩ الاعتبار اتصال بعالم الملكوت
- تحريجة: ما وجه الحاجة إلى النعم الخارجة كالمال والجاه في طريق
- ٣٤٣ الآخرة؟

- ٣٤٧ - تحريجة: كرم العشيرة وشرف الأهل من النعم أم لا؟
- ٣٤٨ - تحريجة: فما غناء الفضائل البدنية؟
- ٣٥٠ - المقصود بالجمال في هذا المقام
- ٣٥٠ - تحريجة: لِمَ أدخل المال والجاه والنسب والولد في حيز النعم وقد ورد ذمُّها؟
- ٣٥٥ - تحريجة: فما معنى النعم التوفيقية الراجعة إلى الهداية والتأييد؟
- ٣٥٧ - منازل الهداية
- ٣٥٨ - حدُّ العصمة
- بيان وجه الأنموذج في كثرة نعم الله تعالى وتسلسلها وخروجها عن الحصر والإحصاء
- ٣٦١ - الأسباب التي بها تتم نعمة الأكل
- ٣٦٢ - الطرف الأول: في نعم الله تعالى في خلق أسباب الإدراك
- ٣٦٧ - الطرف الثاني: في أصناف النعم في خلق الإرادات
- ٣٧٠ - الطرف الثالث: في نعم الله تعالى في خلق القدرة وآلات الحركة
- ٣٧٧ - التأمل في النعمة يطلق اللسان بالشكر
- ٣٧٩ - تحريجة: كيف تُمثل الروح وفي القرآن: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ وما زاد؟
- ٣٨٠ - الأمور الربانية لا تحتل العقول وصفها
- - الطرف الرابع: في نعم الله تعالى في الأصول التي منها تحصل الأطعمة وتصير صالحة لأن يصلحها الآدمي بعد ذلك بصنعه
- ٣٨٣ - المنهي عنه في علم النجوم أمران
- ٣٨٦ - المحبُّون لله لا يفتؤون يطلبون معرفة عجائب صنعه
- ٣٨٨ - الطرف الخامس: في نعم الله تعالى في الأسباب الموصلة للأطعمة إليك
- ٣٩٠ - الطرف السادس: في إصلاح الأطعمة
- ٣٩٢ - الطرف السابع: في إصلاح المصلحين
- ٣٩٥

- الطرف الثامن: في بيان نعمة الله تعالى في خلق الملائكة عليهم السلام ٣٩٨
- صنّاع البدن هم الملائكة ٣٩٨
- تحريجة: فلم تعددت الملائكة في أمر يُتصوّر فيه انفراد العامل؟ ٤٠١
- تعددت الأفعال لتعدد الصفات ٤٠١
- لأنه أنعم عليك ظاهراً وباطناً.. أمرك بترك ظاهر الإثم وباطنه ٤٠٣
- بيان السبب الصارف للخلق عن الشكر ٤٠٨
- من أسباب وجود الغفلة عن النعمة التشارك فيها ٤٠٨
- الحديث عن النعم الخاصة ٤١٠
- الغفلة عن شكر النعم العظيمة ٤١٥
- المعرض عن الدنيا والمقبل عليها كلاهما متألم مع تخالف الثمرة ٤١٦
- تحريجة: فكيف لنا برّد القلوب الغافلة إلى الشكر؟ ٤١٧
- النعمة إن لم تشكر.. زالت ولم تعد ٤١٨
- الركن الثالث: فيما يشترك فيه الصبر والشكر ويرتبط أحدهما بالآخر ٤٢٠
- بيان وجه اجتماع الصبر والشكر على شيء واحد ٤٢٠
- تحريجة: هل يجتمع الشكر مع الصبر؟ وكيف يكون كل ما أوجده الله نعمة؟ .. ٤٢٠
- صور يكون فيها الجهل نعمة ٤٢٢
- كل حالة لا توصف بأنها بلاء مطلق أو نعمة مطلقة.. ففيها الصبر والشكر ٤٢٤
- تحريجة: كيف يجتمع الصبر والشكر وهما متضادان؟ ٤٢٤
- خمسة أمور يُفرح بها في المصيبة ٤٢٤
- تحريجة: كيف أفرح بالمصيبة وغيري فعل من المعاصي أكثر ولم يصب؟ .. ٤٢٦
- قد يكون التألم ضرورياً، وأخبار في جزاء البلاء ٤٣٠
- بيان فضل النعمة على البلاء ٤٤١
- تحريجة: هل لنا أن نسأل الله تعالى البلاء؟ ٤٤١
- تحريجة: ورد عن بعضهم أنهم سألوا الله البلاء ٤٤٣

- ٤٤٦ بيان الأفضل من الصبر والشكر
- ٤٤٧ - تفضيل الصبر على الشكر هو اللائق بغالب العوام
- ٤٥٣ - تحريجة: كيف يكون العمل وقد جاء الثناء عليه أفضل من المعرفة؟
- ٤٥٤ - مثال بديع لتوضيح ذلك
- ٤٥٧ - تصوّر تساوي المعرفتين
- ٤٥٧ - مجاري الصبر ثلاثة: الطاعة، والمعصية، والبلايا
- ٤٦٠ - الصبر الذي تفهمه العامة أفضل من الشكر الذي تفهمه العامة
- ٤٦١ - صورة الشاكر فيها خير من الصابر
- ٤٦١ - تحريجة: وأين ألم الصبر عند هذا الشاكر؟
- ٤٦٣ - العاشقان الشاكران

كتاب الرجاء والخوف

- ٤٦٥ الشطر الأول: في الرجاء
- ٤٦٩ بيان حقيقة الرجاء
- ٤٦٩ - متى يسمّى الوصف مقاماً أو حالاً
- ٤٧٠ - متى يكون الرجاء صادقاً
- ٤٧٠ - لا تصوّر للرجاء والخوف إلا في أمر متردّد فيه
- ٤٧٢ - صناعة الرجاء
- ٤٧٣ - لا يُرجى ثمر الجنة ببذر النار
- ٤٧٤ - من آثار الرجاء الصادق
- ٤٧٦ بيان فضيلة الرجاء والترغيب فيه
- ٤٧٦ - العبادة على الرجاء أعلى منها على الخوف
- ٤٨١ بيان دواء الرجاء والسبيل الذي يحصل منه حال الرجاء ويغلب
- ٤٨١ - على الواعظ أن يكون حكيماً عند استخدام أدوية العلل

- ٤٩٥ تقديم الخوف على الرجاء في التأديب
- ٥٠٩ الشطر الثاني: في الخوف
- ٥٠٩ بيان حقيقة الخوف
- ٥٠٩ ابن وقته لا خوف عنده ولا رجاء، بل حال فوقهما
- ٥١٠ كيف يكون العلم بالخوف
- ٥١٢ الحال التي يورثها العلم بالخوف
- ٥١٦ بيان درجات الخوف واختلافه في القوة والضعف
- ٥١٦ إذا قيل لك: هل تخاف الله... فاسكت
- ٥١٨ تحريجة: من خاف فمات فهو شهيد، فكيف يُدْمُ حاله؟
- ٥١٩ الخوف إن لم يورث العمل فوجوده كعدمه
- ٥٢٠ بيان أقسام الخوف بالإضافة إلى ما يخاف منه
- ٥٢٠ مخاوف العارفين
- ٥٢١ أغلب مخاوف المتقين خوف الخاتمة
- ٥٢٣ ﴿وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾
- ٥٢٤ خبر (يا داوود؛ خفني كما تخاف السبع الضاري)
- ٥٢٥ مخاوف الصالحين
- ٥٢٥ لذة العارفين لهم وحدهم
- ٥٢٧ بيان فضيلة الخوف والترغيب فيه
- ٥٢٧ لا سعادة إلا في القرب من المولى عز وجل
- ٥٢٧ لا شيء يجمع الشهوات كالخوف
- ٥٣١ الورع والتقوى أسام لمعان شرطها الخوف
- ٥٣٥ ورود الرجاء بمعنى الخوف
- ٥٤٠ بيان أن الأفضل هو غلبة الخوف أو غلبة الرجاء أو اعتدالهما
- ٥٤٠ يمكن أن يقال على التوسع: الخوف أفضل

- ٥٤٢ - تحريجة: لِمَ لا ينبغي لمثل عمر أن يغلب رجاؤه خوفه؟
- ٥٤٤ - أخطرُ بشأنِ الخاتمة!
- ٥٤٥ - خير الخوف ما يحمل على العمل
- ٥٤٦ - عند الموت الأصلح غلبة الرجاء وحسن الظن
- ٥٤٦ - خير مزايدة للعبد حبُّ الله جلَّ ثناؤه
- ٥٤٧ - لا سبيل لاكتساب محبة الله إلا بإخراج حبِّ ما سواه
- ٥٤٨ - أخبار في فضل الرجاء عند الموت
- ٥٥٠ - بيان الدواء الذي به يستجلب حال الخوف
- ٥٥٠ - طرف من ترتيب منازل الدين
- ٥٥١ - الخوف من الله تعالى على مقامين
- ٥٥٣ - التعرف على صفة الله تعالى
- ٥٥٤ - ﴿وَالَّذِي يَرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾
- ٥٥٦ - المعالجة بمطالعة أخبار الخائفين من الكُمل
- ٥٦٠ - الأنبياء لا يأمنون مكر الله
- ٥٦٢ - مقام الخوف من مكر الله أتمُّ من مقام الثقة بوعده الله
- ٥٦٣ - التعلُّق بالمشيئة قطع نياط العارفين
- ٥٦٧ - لوائح سوء الخاتمة
- ٥٦٨ - من علامات النفاق
- ٥٧٢ - بيان معنى سوء الخاتمة
- ٥٧٢ - تحريجة: فما معنى سوء الخاتمة؟
- ٥٧٣ - تحريجة: لماذا يمهل المحجوب فلا يعاقب في قبره إلى يوم القيامة؟
- ٥٧٥ - محلُّ الإيمان لا يأكله التراب
- ٥٧٥ - تحريجة: ما السبب الذي يفضي إلى سوء الخاتمة؟
- ٥٧٥ - خطر البدعة الاعتقادية

- ٥٧٦ - الشهوات هي المانعة من مطالعة الملكوت
- ٥٧٧ - الزهد والصلاح لا يدفع خطر البدعة
- ٥٧٧ - البُله أكثر أهل الجنة
- ٥٧٩ - خطر حب الدنيا
- ٥٨٢ - ما يألّفه الإنسان في حياته يعود ذكره عند موته
- ٥٨٣ - كيف يخطر الخاطر
- ٥٨٤ - لا سبيل لدفع الخواطر إلا بطول المجاهدة
- ٥٨٥ - سوء الخاتمة راجع إلى أحوال القلب واختلاج الخواطر
- ٥٨٩ - الشهادة وموت الفجأة
- ٥٩٠ - كيف يكون الاستعداد للخاتمة
- ٥٩١ - الأسباب الميسرة لذلك الاستعداد
- ٥٩٥ - بيان أحوال الأنبياء والملائكة عليهم الصلاة والسلام في الخوف
- ٥٩٨ - أخبار داوود عليه السلام في الخوف
- ٦٠٥ - بيان أحوال الصحابة والتابعين والسلف الصالحين في شدة الخوف
- ٦٢١ - كثرة الخوف مرتبطة بصفاء القلب
- ٦٢٢ - علامة الخذلان
- ٦٢٣ - الظمان يجزئه من الماء أيسره
- ٦٢٥ - محتوى الكتاب